

المملكة العربية السعودية
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
فرع العقيدة

النشاط الكنسي في السودان

أساليبه ومقاصده وطرق مواجهته

رسالة مقدمة من الطالب
الخضر عبد الرحيم أحمد
لنيل درجة الدكتوراه
فرع العقيدة . الدراسات العليا الشرعية

إشراف فضيلة الأستاذ
الشيخ محمد قطب إبراهيم

١٤٠٨هـ


وبه
نستعين

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ
وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ
إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ
وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ
ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟
عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾
أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾
مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ
وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ
ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ
ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟
كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

من سورة المائدة ٥ ٧

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، والصلوات المباركات على من ختمت به النبوات، والشكر موصولا لخالق الأرض والسموات، الذى وعد الشاكرين بالمزيد بقوله تعالى (لئن شكرتم لأزيدنكم)[1] (رب أوزعني أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين)[2] واجعل عملى هذا من أحسن ما عملت وتقبله منى وتجاوز عن سيئاتى كلها وتقصيرى فيه برحمتك وفضلك يا أكرم من سئل وأوسع من أعطى .

وبعد :

فإذا كان شكر المنعم عز وجل من أوجب الواجبات فإنه يتضاعف وتعظم ثمرته بشكر الناس كما قال صلى الله عليه وسلم: (إن أشكر الناس لله عز وجل أشكرهم للناس)[3] وقال : (من لم يشكر الناس لم يشكر الله)[4]

فإيماناً وامتثالا لهذا التوجيه النبوى الكريم أتقدم بالشكر الجزيل للقائمين على شئون جامعتى أم درمان الإسلامية بالسودان وجامعة أم القرى بمكة المكرمة .

الأولى لإيفادها لى لتلقى العلم فى هذا البلد المبارك الأمين والثانية لحسن استقبالها لى وتذليلها كل صعب يعوق طريقى فى تحصيل العلم .

كما يسعدنى ويشرفنى أن أتقدم بخالص شكرى وعظيم تقديرى لأستاذى الجليل فضيلة الأستاذ الشيخ محمد قطب إبراهيم الذى أوقف نفسه على نشر العلم ونصرة الدين، فكان مثالاً نادراً فى رعايته لطلابه، وبذله لوقته وراحته فى سبيل توجيههم إلى كل نافع، فظلوا ينهلون من علمه الثر، ويتأثرون بخلقه الكريم وحيائه وتواضعه الجم، وما ذكرت من الصفات الكريمة هى من بعض ما عرفت فى شيخنا وكان لها بالغ الأثر فى توفية هذا البحث حقه لأنه على الرغم من حرصه على الزمن المخصص للإشراف فقد فتح لى داره فكنت آتيه فى نهار رمضان لم تمنعه من ذلك شدة الحر ولا استعداده للسفر، حتى كنت أشعر بالحرج وأنا انتظر الإذن بالدخول حتى إذا قابلنى بوجهه المتهلل زال ما بى من حرج .

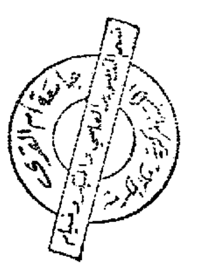
---

(١) سورة ابراهيم، الاية رقم ٧ .

(٢) سورة الاحقاف، الآية رقم ١٥ .

(٣) رواه أحمد ٥ / ٢١٢ .

(٤) أخرجه احمد فى المسند، ٢٥٨/٢ ، والترمذى فى السنن ٢٢٨/٣ ، وأبو داود ٢٥٥/٤ .



فالله أسأل أن يجزيه عني وعن خدمة العلم وطلابه خير الجزاء ، وأن يبارك له في علمه وعمره ،وأن يعظم النفع به ،إنه ولي ذلك والقادر عليه وحده .

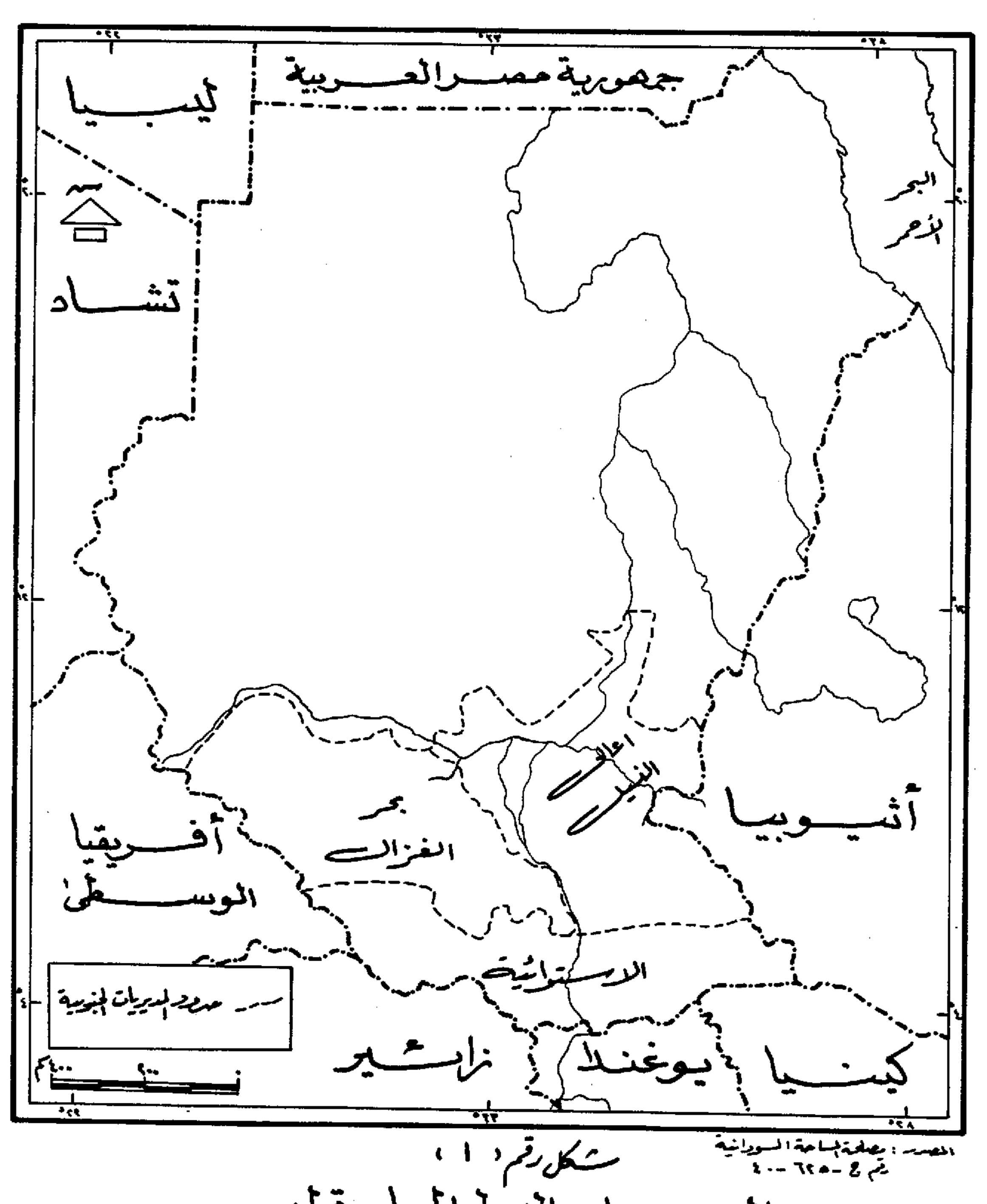
كما أشكر القائمين على سفارة السودان وفي مقدمتهم المستشار الثقافي لمعاملتهم الطيبة التي كان لها الأثر الجميل .

كما لا يفوتني أن أذكر بالعرفان أولئك النفر الكريم من الأساتذة والاخوان الذين قدموا لي عونهم سواء أكان ذلك بتصوير الكتب أو الوثائق من جامعات بريطانيا وأمريكا أو بالاسهام في ترجمة نص أو المعاونة في التصحيح أو الطباعة وأخص بالذكر الأساتذة دكتور بدر الدين يوسف ، ودكتور احمد علي الامام ،ودكتور محجوب الكردي وثلاثتهم أسهم في ارسال وثائق هامة ، كما ساعدني أولهم في تصميم الخرط .

كما أشكر الاساتذة الشيخ الأمين الحاج ، والاستاذ محمد المبارك ،والاستاذ عزالدين الشيخ ،والاستاذ خضر هارون ،والأستاذ بركات جمعة ،والاستاذ عمر محمد أحمد ،الذين قدموا عونهم في شتى نواحي هذا البحث .

وأخيرا الشكر لكل من أعان بمرجع أو أسدى اليّ توجيها أوكلمة نصح أو أبدى استعداداً لتقديم أي عون . فجزى الله الجميع خير الجزاء إنه لا يضيع أجر المحسنين .

وصل اللهم وسلم وبارك على سيد الأولين والآخرين المبعوث رحمة للعالمين وآله وصحبه أجمعين . سبحان ربك رب العزة عما يصفون ،وسلام على المرسلين ،والحمد لله رب العالمين .



المصدر : مصلحة المساحة السودانية رقم ع - ٦٢٥ - ٤٠

شكل رقم (١)

السودان والدول المجاورة له

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ونشهد ألا إله إلّا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله أرسله بين يدى الساعة بشيرًا ونذيرًا، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. وختم به النبوات ونسخ بدينه جميع الديانات، فلا يقبل الله من أحد غير الإسلام (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين)[1].

فصل اللهم، وسلم، وبارك، على محمد وآله وأصحابه وأهل بيته كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنّك حميد مجيد.

وبعد :

فإن السودان يحتل موقعاً وسطاً فى قارة أفريقيا، ومساحة شاسعة تربو على مليون ميل مربع، تمتد من حدود مصر وليبيا، فى الشمال والشمال الغربى إلى قرب خط الاستواء جنوبا ومن البحر الأحمر شرقاً إلى حدود شاد غرباً، فاكتسب بهذا الموقع، وهذه المساحة جوار ثمانى دول من دول القارة هى : مصر، وليبيا، والحبشة، وشاد، وكينيا، ويوغندا، وزائير، وجمهورية أفريقيا الوسطى[2].

وسكانه خليط من الساميين والحاميين، أغلبهم عرب بيد أن عروبة سكانه تضم عدداً من الأجناس، منها الأسمر، والأسود، والأبيض وهى ليست صفة عرقية تجمع بين أفراد جنس معين وإنما هى رابطة الدين الإسلامى بثقافته الإسلامية، ولسانه العربى الذى نزل به القرآن الكريم.

فوسطية الموقع وعروبة السكان وتدينهم بالإسلام حيث تبلغ نسبة المسلمين ٨٥٪[3]، وتعدد الأجناس والألوان، والثقافات، والأديان، والبيئات المناخية، جعله مثالاً مصغرا للقارة كما جعله قنطرة تصل أجزاءها العربية فى الشمال بأجزائها الأفريقية، فصار بهذه الميزات أكثر أقطار القارة استعداداً للتأثير فيها ونشر الإسلام بين سكانها، مع قلة إمكاناته، لما حظى به من المزايا المتقدمة.

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٨٥.

(٢) انظر شكل الخارطة رقم (١)

(٣) انظر ملحق مجلة الدعوة الخاص بمؤتمر القمة الإسلامى الثالث ص ٢٥

تليه في الرتبة (نيجريا) مع أنها أكثر من السودان مالاً وعدداً، إلا أنها تنقصها الصفات التي امتاز بها السودان. وبسبب هذه المزايا صار السودان، حلبة للصراع العالمي، فتحالفت ملة الكفر، من علمانية، وصهيونية، وشيوعية، وصليبية، على رغم اختلاف عقائدها وتنافر مذاهبها، جمع بينها ووحدها الحقد على الإسلام والمسلمين، فسلطت جيوش الاستعمار الفكري الحديث (جيوش التنصير) فتواثب النشاط الكنسي بمختلف مؤسساته التي خلفها الاستعمار القديم، والتي دخلت حديثا تحت شعارات الهداية والرحمة (تحت شعارات التنصير، والإغاثة، والتعمير) فأصبحت الشر المستطير وداء السودان الوبيل لأن هذه المؤسسات أعرف بمواطن القوة والضعف في المجتمعات الإسلامية، فهي تقوم بدارسة هذه المجتمعات في جميع المجالات، وترصد تحرك الإسلام رصداً دقيقاً فإذا أحست أي تحرك له أرسلت صيحات الإنذار بالخطر كما جاء ذلك واضحاً في تقرير طويل نشرته الكنيسة الكاثوليكية عن سير التنصير بجنوب السودان تحت عنوان (صيحة إلى العالم الحي) نعت فيه فرصتها الذهبية التي افتقدتها. يقول التقرير:

(والسودان من ناحية رسمية، أكبر قطر في أفريقيا، وساحته ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ خمسمائة ومليونا كيلو متر مربع، تمتد أكثر من ٢٫٠٠٠ كلم ألفي كيلو متر من الشمال إلى الجنوب، وحوالي ١٫٠٠٠ ألف كيلو متر من الشرق إلى الغرب، وسكانه حوالي ٢١ مليون نسمة، والعاصمة الخرطوم يسكنها ما يقارب المليونين، والقطر يقع في مفارق الطرق بين العالم العربي، وأفريقيا السوداء، والسودان الشمالي يمثل النفوذ العربي من حيث اللغة والدين أكثر من الانتماء العرقي للعرب. . . وتوضح هذه المقالة المخاطر التي تحيق بجنوب السودان نتيجة الأسلمة العامة)(1)

فملة الكفر جربت المواجهة المكشوفة مع الإسلام منذ عهوده الأولى، وفي حملات الصليبية فمنيت بهزائم متلاحقة، وظل اسم الإسلام يفزعها وأدركت أنه سر قوة المسلمين وعظمتهم وموحد صفوفهم، فظلت تعمل على زحزحته من نفوسهم لتصل إلى تحقيق أهدافها دون عناء وما زال

The Catholic Church in the Sûdan-a Golden Opportunity lost P2/3 (1)

قادة الغرب ودعاة التنصير يبذلون جهودهم للحيلولة بين المسلمين وبين الإسلام أن يعود إلى واقع الحياة فيسد الطريق إلى تحقيق أطماعهم، وإمعانا في إخفاء دوافعهم الحقيقية غزوا بلاد المسلمين بحملات التنصير تحمل الصليب والإنجيل تسمى نفسها رسل الإنسانية والرحمة، وهم في الحقيقة رسل الاستعمار وعيونه وزبانيته، يمارسون كل أنواع الوحشية، ويتفننون في أساليب قمع الإسلام والمسلمين، ويقعدون للإسلام كل مرصد. يقول رئيسهم زويمر، في مؤتمر الهند وهو يتعرض لزيادة المسلمين في العالم، وقوة تأثيرهم فيه:

(والمبشرون المنتشرون على ضفتي النيل، وشرقي أفريقيا، وبلاد النيجر، يرفعون أصواتهم بالشكوى من انتشار الإسلام في هذه الانحاء)[1].

وقال عن شرق آسيا:

(وما زال الوطنيون يدخلون في شبكة الإسلام إلى درجة يتعذر على المبشرين المسيحيين أن يلقوا لأعمالهم رواجاً)[2].

نتيجة لهذا الخوف من الإسلام وهذا الاستصراخ اجتمع الغرب المادي الملحد تتزعمه أمريكا التي لا تعرف من العبادة غير عبادة الذهب، ومع هذا غطت مساحة كبيرة من العالم بجيوش التنصير، زاعمة أنها تدعو إلى حياة روحية وسلام ديني، ومن المعلوم أن فاقد الشيء لا يعطيه، وما هؤلاء في الحقيقة إلاّ عيونها ورسلها والحادبون على مصالحها، ولذا تسهم أمريكا في ميزانية التنصير اسهاما عاليا، ولقد صرح رئيسها الحالي (ريغان) أنه دفع نصيب دولته في ميزانية التبشير (عشرة ملايين من الدولارات) هذا بخلاف المبالغ الضخمة التي تدفعها المؤسسات الصهيونية والصليبية والاشخاص الأمريكيون للإسهام في حملات التنصير مما أغرى كثيراً من أصحاب الأغراض الشخصية من مرتزقة، ومغامرين، ورحالة، وتجار، أن يمتطوا التنصير مركبا لبلوغ أهدافهم ومآربهم، ساعدهم في ذلك ضعف المسلمين وغفلتهم.

ولم تكن أمريكا وحدها التي تسلك هذا المسلك بل الدول الغربية كلها نجدها جميعًا تتسابق فيما بينها على عون التنصير وحمايته ونصرته ورعاية القائمين عليه من أي جنس كانوا

---

(١) الغارة على العالم الاسلامي ص١٥٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥٠/١٥١ .

وإلى أى مذهب انتموا طالما كان عملهم خارج حدود هذه الدول التى هجرت فى كثير منها دور العبادة وأصبحت سلعا تباع فى المزادات العلنية .

فمثلا إيطاليا التى ناصبت الكنيسة العداء وحجزت البابا فى الفاتيكان كانت وما تزال تبنى سياستها الخارجية على جهود مبشريها لأنهم عيونها الساهرة على مصالحها ،ولولا ذلك لما كان البابا ،ولا كانت الفاتيكان ،وحتى روسيا التى ناصبت جميع الأديان العداء واستعملت أبشع أنواع التعذيب فى قمع المسلمين ومحو الإسلام ،تظاهرت إبّان الحرب الكبرى الثانية بالعطف على المنصرين فدعت عقب الحرب إلى عقد مجمع مسكوتى فى عاصمتها حملت إليه المؤتمرين على متن طيرانها ،وشرف المؤتمر ستالين نفسه . وفى العصر الحديث نجدها تقف فى صف واحد مع اليهودية والصليبية متخذة من النظام الحبشى الشيوعى الموالى لها قاعدة لتدريب وتسليح متمردى جنوب السودان ،كما اتخذت الصهيونية والصليبية من المؤسسات الكنسية فى داخل السودان وفى خارجه ،ومن الدول المجاورة التى بسط الاستعمار عليها نفوذه محاور ارتكاز لتموين وتدريب الجنوبيين الذين وقعوا فريسة لإغراءات هذه المؤسسات ،وأصبحوا أداة طيعة لتحقيق أهداف الاستعمار الحديث الذى يبرر فعله الشنيع بأن الشمال العربى المسلم يريد أن يفرض الإسلام على الجنوب الأفريقى المسيحى .

ومما يدعو للأسف ،أن هذه القوى العالمية المتآمرة تجد مؤازرة من العلمانيين وفلول الشيوعيين والبعثيين ،وجميعهم يعضد حملات التنصير وينادى بإلغاء التشريعات الإسلامية التى طبقت فى أواخر عهد الحكومة السابقة ،كما ينادون بأن يكون السودان دولة علمانية (لا صلة لها بالدين) يرمون من وراء ذلك إلى اقتلاع جذور الإسلام الحضارية وحول هذا تجمعت قوى الشر بمختلف عقائدها ومذاهبها وفلسفاتها ،ورمته من قوس واحدة ،ورأس هذا المتآمر الكبير كان ولا يزال المؤسسات الكنسية التى اتخذها الاستعمار الحديث ستاراً يختبئ خلفه ،واتخذ من النصارى جنوداً ،ومن الكنائس على مختلف مذاهبها أوكاراً لتنفيذ مخططاته ،وتحقيق أهدافه الدنيئة الرامية إلى إبادة المسلمين واقتلاع الإسلام ،وغرس النصرانية مكانه .

ويعتبر هذا التآمر الضخم على السودان من أقوى الدوافع لاختيار موضوع:

(النشاط الكنسى فى السودان ،أساليبه ، ومقاصده ،وطرق مواجهته)

ليكون إسهاما منى بقدر الاستطاعة فى كشف غوامضه ،وبيان مخاطره ليتخذ المسلمون حذرهم

فينفروا جميعًا لمواجهته قبل أن يحل بهم ما حل بإخوانهم في الأندلس وفلسطين وبوغندا وغيرها من البلدان الإسلامية .

الإطار المكاني والزماني للبحث :

الإطار المكاني للبحث هو السودان بالمفهوم الحديث .

أما الاطار الزماني :

فهو متابعة النصرانية متابعة موجزة من أول دخولها السودان حتى سقوط السودان تحت نير الاستعمار البريطاني مع التركيز على هذا النشاط منذ عهد الاستعمار حتى عصرنا الحاضر (١٨٩٨ / ١٩٨٧م) .

العقبات التي واجهت البحث :

١- أدرك الباحث منذ البداية أن مهمته ليست سهلة ، وذلك لسعة ميدان النشاط وتعدد وسائله وكثرة جنوده وأعوانه في الداخل والخارج ، وعظم إمكانياته المادية والمعنوية ، حيث تسنده حكومات كبرى كثيرة ، بهيئاتها الدبلوماسية ، ومنظماتها الكنسية ، وأموالها الطائلة المتدفقة على عملائها في ديار المسلمين الأمر الذي جعل مهمته في البحث في غاية الصعوبة .

٢- تعددت الكتابات فيه وتنوعت ، بتعدد وتنوع مجالاته التي يعمل فيها ، وكلها أو معظمها بلغات أجنبية ، وبلهجات محلية أعجمية مما زاد البحث صعوبة وتعقيدًا .

٣- قلة الدراسات التي تناولت هذا النشاط لأن معظم المسلمين لم ينتبهوا لمخاطره إلا حديثا مع أنه بدأ مبكرًا في فترة ضعفهم وغفلتهم ، ولما بدأوا ينتبهون وجدوا داءه قد استشرى ، ومفاسده عمت مجتمعهم .

٤- صعوبة المواصلات ووعورة المسالك والطرق ، وعدم استتباب الأمن بالنسبة لجنوب السودان وغربه حيث يتركز هذا النشاط .

كل هذه العوائق والعقبات جعلتني ألقى عناء ومشقة ، ومع ذلك أسأل الله عز وجل أن أكون قد حظيت من الله بالقبول والتوفيق في كشف غوامض هذا النشاط وأضفت جديدًا إلى المكتبة الإسلامية .

منهج البحث :

سلكت في هذا البحث المنهج الاستقرائي ،فاستقيت الحقائق من مصادرها الأصلية سواء أكانت وثائق لم تنشر أو كتبا أو تقارير سرية ،أذكرها كما جاءت ثم أعلق عليها إذا كان المجال يحتاج الى تعليق ،كما جمعت حقائق من الرحلة الميدانية التي قمت بها فشاهدت الكثير من أنواع الأنشطة الكنسية المتعددة في معظم أنحاء القطر ،وأوردت كثيرًا من الأمثلة ووضحت صلة هذا النشاط بالاستعمار قديمًا وحديثًا ،وما زال هذا النشاط يمثل الاستعمار الفكري الحديث في ديار المسلمين ،ويعمل على إذلال الشعوب وتجريدها من أهم خصائصها وهي عقيدتها وأخلاقها ليربطها بالحضارة الغربية المادية .

خطة البحث:

جاء هذا البحث في مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة .

فالباب الأول بعنوان : (خلفية تاريخية عن النصرانية والإسلام في السودان) حيث اشتمل على تمهيد وأربعة فصول ،ذكرت في التمهيد صلة مصر بالسودان وأثرها السياسي والثقافي قديما وحديثا حيث غزته بحضارتها ومعتقداتها ،وعن طريقها عرف النصرانية والإسلام . .

أما الفصل الأول فعنوانه : (النصرانية في السودان)

تعرضت فيه لمسيحية المسيح عليه السلام ،والأطوار التي مرت بها وكيف ناصبه اليهود العداء ،وألبوا عليه أباطرة الرومان ،وكانوا شرطة لهؤلاء الأباطرة وجلادين فاستخدموا لقمع المسيحيين وتفننوا في تعذيبهم واضطهادهم ،وبدأ ذلك في حياة صاحب الرسالة كما يقص علينا القرآن الكريم: (وما قتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم وإنّ الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلاّ اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه)(1)

ولما عجز اليهود والأباطرة عن تحقيق هدفهم بالاضطهاد والتعذيب ،تظاهر (شاؤل) اليهودي الذي كان العدو اللدود للحواريين باعتناق المسيحية ،وزعم أن الوحي نزل عليه

---

(1) سورة النساء ،الآية ١٥٧-١٥٨ .

فتحول من عدو لدود إلى صديق حميم وسمى نفسه (بولس) وهو أول من قال: (المسيح ابن الله) ليقضي على المسيحية من داخلها ونجح مخططه فأحالها إلى ديانة وثنية لا ُمست فلسفة الرومان ووثنيتهم فوجد الامبراطور قسطنطين ضالته في الفكر التقريبي ليبسط نفوذه على جميع رعايا دولته من الوثنيين والنصارى، وتظاهر بمساندة النصرانية وجمع مجمع نيقية (٣٢٥م) الذي قرر ألوهية المسيح واعتمد الأناجيل الأربعة والرسائل الإحدى والعشرين التي تؤيد هذا المذهب، وطارد الموحدين ومنع تداول الكتب الحقيقية التي تدل على التوحيد، وكانت أكثر فأمر بإحراقها وحرم تداولها، وطارد أصحابها وكانوا كثيري العدد وهكذا استحالت المسيحية من ديانة توحيد إلى وثنية رومانية وهي النصرانية التي دخلت السودان قبل الإسلام بنصف قرن تقريباً واعتنقها الحكام موالاة للرومان وزالت من السودان بزوال حكام النصارى إذ لا يوجد بيت واحد ذو جذور نصرانية في المساحة التي كانت تشغلها ما سميت بـ: (ممالك النوبة المسيحية).

وفي هذا العصر يحاول الصليبيون أن يسلكوا نفس مسلك الأباطرة الرومانيين حيث تخلت بلادهم عنها ويريدون فرضها على السودان ليبسطوا عليه نفوذهم السياسي، وشرعوا ينبشون الآثار الوثنية ويصبغونها بصبغة نصرانية يزعمون أن السودان قطر نصراني ينبغي أن يعود إلى نصرانيته، وهيهات.

أما الفصل الثاني فعنوانه: (الإسلام في السودان)

ذكرت فيه أن الإسلام دخل السودان رسمياً عقب فتح مصر مباشرة في ولاية عمرو ابن العاص رضي الله عنه، ومكنت له حملة عبد الله بن سعد بن أبي سرح في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه.

فبدأ الاسلام ينتشر بين السودانيين بعقيدته وعباداته، وأخلاقه، ومعاملاته دون تشريعاته فبدأ الناس يدخلون فيه أفواجا، وتتابعت الهجرات العربية وتلاحقت، وكاثروا النوبة حتى كانت لهم الغلبة فقوضوا دعائم ملك النوبة واعتلى بنو الكنز أريكة الحكم.

أما الفصل الثالث فبعنوان : (نظام الحكم في السودان قبل الاستعمار)

ذكرت فيه نشاط الهجرات بعد اعتلاء بنى الكنز عرش النوبة ،حيث وصل المزيد من الهجرات العربية إلى السودان ،وانتشرت قبائل العرب فى كثير من أنحاء السودان ،ولم يعد الشلال الثانى كما كان سابقاً حاجزاً يقف فى وجه الهجرات العربية جنوباً ،بل تجاوزته الهجرات واختلطت بالنوبة ،وزال ما بقى للنصرانية من أثر وما للملوك من نفوذ فى كثير من مناطق السودان وانحسرت فى رقعة ضيقة وتكونت المشيخات العربية ،وأخيراً دخل العرب فى حلف مع الفونج واسقطوا (علوة) وكونوا سلطنة الفونج الإسلامية فى القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى ،وفتحت أبوابها للعلماء وشجعت العلم ،وقضت على جميع مظاهر النصرانية ،وسدت الطريق فى وجه التنصير ،فلما دب اليها داء الأمم قبلها ،الضعف والتفكك ، تسلل إليها التنصير خلسة تحت ستار الاستكشاف والتجارة فزادها وهنا على وهنها مما أغرى الوالى المصرى محمد على باشا بغزوها فى القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى فسقطت على يد نجله إسماعيل كامل وبسقوطها انفتح السودان لعهد من الاستغلال البشع بمختلف ألوانه ،واستعان الولاة المصريون بعدد كبير من النصارى فى إدارة شئون البلاد فمهدوا لرواد التنصير الأوائل من أمثال (بيكر وغردون) وانتشر الأوربيون فى جميع أنحاء السودان ومارسوا جميع أنواع الاستغلال ،ومارسوا التجارة فى مختلف أنواع السلع ،وأخطر أنواعها تجارة الرقيق التى كانت أربح سلعهم ، ومارسوا كل هذا تحت حماية قناصلهم ،وطاردوا كل من زاحمهم فى مجالات التجارة ،وخاصة (الزبير باشا) الذى كان من أوائل الرجال الذين فطنوا للمخططات الإجرامية التى يمارسها النصارى ،فعمل جاهداً على نشر الإسلام فى الجنوب ،فأعلنوا عليه حرباً شعواء ،ووصفوه بأنه أكبر تجار الرق فى أفريقيا ،وألبوا عليه الإداريين من بنى جلدتهم من أمثال غردون الذى يعتبر من أوائل المنصرين الذين غرسوا جذور مشكلة جنوب السودان كما تعهد بحماية النصارى وساعدتهم ،وفتح الباب أمام المنصرين من جميع الأجناس مما أدى إلى ثورة المسلمين .

أما الفصل الرابع فبعنوان : (الثورة الإسلامية بقيادة المهدي)

لقد كان السبب المباشر لهذه الثورة هو تسلط النصارى على المسلمين ،وطرد جميع المسلمين من الجنوب،ومصادرة أملاكهم ، مما دفع كثيرًا منهم أن يكونوا الساعد القوى الذى يعضد الثورة لما نالهم قائد هم الزبير باشا الذى علمهم استعمال السلاح ،وعلم الكثير الإسلام وأخيرًا كان جزاؤه التشريد على يدى هؤلاء الغزاة ،وكان لجنود الزبير القدح المعلى في انتصار الثورة التى ظلت تزحف من نصرإلى نصر حتى فتحت الخرطوم ولقى غردون مصرعه ، وظلّل السودان حكم إسلامى دام ثلاثة عشر عامًا ،وأوصد الباب في وجه التنصير. فاستنفرت الصليبية العالمية الغرب لأخذ الثار من قتلة المبشر (غردون) بطل المسيحية ،فحرك هذا الشعار كوامن الحقد الصليبى ،فتقدمت بريطانيا لقيادة الحملة التى كان هدفها الحقيقى هو إزالة العقبة الكأداء التى حالت دون تحقيق أطماع الصليبية وكانت الحملة جيشا جرارا يحمل الأسلحة الفتاكة التى حظر استعمالها دوليًا ،ولكن الحقد الصليبى لا يقيم للأعراف الدولية وزنًا إذا كان الهدف هو مواجهة الإسلام وأمته ،وعلى تلال (كررى) في ضواحى عاصمة الخليفة سقط في مدة وجيزة ما يربو على عشرة آلاف مسلم ،وسقط السودان بسقوطهم تحت الحكم الاستعمارى النصرانى ،وزالت دولة المهدية ،وبدأ التنصير المكثف.

الباب الثانى : بعنوان : وسائل النشاط الكنسى في السودان

ويضم تمهيدا وستة فصول :

أما التمهيد فتطرقت فيه لخطة الغرب في إحلال جيوش التنصير محل الصليبية المسلحة والفصل الأول عنوانه : إحياء المؤسسات الكنسية التى دمرتها الثورة المهدية

حيث أعدت الخطط قبل غزو السودان ،وشرع في تنفيذها بعد سقوط أمدرمان مباشرة فدخلها النصارى والحقد يملأ صدورهم ليحولوا السودان "قطرًا نصرانيًا" ، وكان معتمد بريطانيا (لورد كرومر) و(كتشنر) قائد الحملة ضد فكرة التنصير بين المسلمين لأنه في نظرهم ينذر بشر مستطير.

أما الفصل الثانى فجاء بعنوان : سياسة الاستعمار التعليمية وعلاقتها بالتنصير

فذكرت في هذا الفصل أن التعليم كان ولا يزال من أنجع وسائل التنصير وأخطرها على

الإطلاق ،وكان رأى كرومر أنه لابد من التأنى وعدم دعوة المسلمين صريحاً إلى النصرانية فعمل على كبح جماح المنصرين فى الشمال وفتح الباب على مصراعيه لتنصير الجنوب والغرب.

واكتفى بحرب الإسلام عن طريق التعليم العلمانى فى الشمال فجاءت خطته أكثر إحكاماً فنجح فى نزع أجيال متعددة من مجتمع المسلمين وربطها ربطاً وثيقاً بالغرب ،فصارت غربية فى عاداتها وتقاليدها ولسانها مفتونة بحضارة الغرب جاهلة بالإسلام ،ورغم أن كثيراً منها آب من غربته إلاّ أن السودان ما زال يتجرع مرارة العلمانية التى غرسها فيهم المعتمد البريطانى (كرومر) ونائبه على السودان (ريجنالد ونجت) .

أما الفصل الثالث فعنوانه : السياسة التعليمية فى جنوب وغرب السودان

وقد بينت فيه أن الاستعمار عن قصد وَكَّلَ أمر التعليم فى جنوب السودان وغربه للهيئات الكنسية ،وعاونها بالإمكانات المادية والمعنوية ،ووقف معها فى صف واحد ،أو فى الحقيقة وقفت هى معه فى صف واحد لحرب الإسلام واللغة العربية بكافة الوسائل .

واهتمت الهيئات الكنسية بالتعميد أكثر من التعليم ففشا الجهل الوخيم على هذه الأقاليم التى ما زالت تعانى الأمرين من جراء هذه المؤسسات التنصيرية .

أما الفصل الرابع فبعنوان : التطبيب وعلاقته بالتنصير

ذكرت فيه أن الهيئات الكنسية ركزت نشاطها الطبى فى الشمال لتجعل منه مدخلا لتنصير المسلمين ،وأهملت هذا الجانب إهمالاً تامًّا فى الجنوب والغرب ،مع أنهما أشد احتياجا للتطبيب من الشمال لتفشى الأمراض فى هذه المناطق ،لأنها تريد أن تكسب عدداً أكثر بمجهود وبذل أقل وكانت ترى أن هذين الاقليمين من السهل تنصيرهما دون كبير عناء أو بذل عطاء .

والفصل الخامس عنوانه : الإعلام التبشيرى

وضحت فيه أن النصارى استغلوا الإعلام لترويج نشاطهم فالمذياع للرعاة والزراع وكافة الدهماء ،والكتب والمجلات ، والصحف ،للمثقفين عامة ،وكثفوا نشاطهم الإعلامى فى المدارس.

أما الفصل السادس فعنوانه: الوسائل المستحدثة في مجال التنصير

وقد ذكرت فى هذا الفصل أن النصارى استغلوا الظروف الصعبة التى تمر بها القارة الأفريقية بصفة عامة والسودان على وجه الخصوص لتحقيق أهدافهم التنصيرية فجاءوا يحملون الإنجيل فى يد والخبز فى الأخرى ،فلا يعطى الخبز إلاّ من يأخذ الإنجيل ،كما غزوا جنوب السودان تحت مظلات المؤسسات التنموية التى تأخذ أكثر مما تعطي ،وتتسبب فى التمرد وإراقة الدماء .

الباب الثالث وعنوانه: آثار الاستعمار والتنصير فى ضعف المجتمع السودانى وتفككه

واشتمل هذا الباب على تمهيد ،وفصلين :

تعرضت فى التمهيد لفترة الحكم التركي وكيف مهدت الطريق للاستعمار حيث إنها كانت بداية الغزو الفكرى الذى مهد للغزو الاستعمارى .

أما الفصل الأول فعنوانه: آثار الاستعمار والتنصير فى ضعف المجتمع السودانى

فتكلمت فيه عن الأثر التشريعي وكيف قضى على التشريعات الإسلامية ،وحصرها فى أضيق نطاق وهو (نظام الأسرة) (الأحوال الشخصية) ولاحقها حتى فى هذا المجال .

ويعتبر هدم الجانب التشريعي من أكبر عوامل هدم المجتمع الإسلامى لأن التشريع هو الذى يحرس الأخلاق ويحمى المجتمع من التردى فى مهاوى الرذائل ، فإن الله سبحانه يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن كما قال سيدنا عثمان رضى الله عنه. فغياب التشريعات الإسلامية أدى إلى تحلل المجتمع وفساده تحت حماية القانون الوضعى ،حيث أبيحت جميع الموبقات من زنا وربا . . . الخ

أما الفصل الثانى فعنوانه: أثر الاستعمار والتنصير فى تفكك المجتمع السودانى

ذكرت فى هذا الفصل أن سياسة الاستعمار والتنصير تهدف دائماً إلى عدم قيام الوحدة الإسلامية ،أو التضامن الإسلامى ،ولذلك شرعوا منذ أن وطئت أقدامهم أرض السودان فى إحياء العنصريات وقيام القبليات حتى فى مناطق الوثنية ، ونفذتها المؤسسات الكنسية حتى فى دور التنصير حيث تجد لكل فرع من فروع القبيلة الواحدة وقتاً محدداً لأداء الطقوس بلهجته

أما الباب الرابع والاخير فجاء بعنوان : طرق المواجهـــة

واشتمل على تمهيد وفصلين :

ففى التمهيد ذكرت أن المواجهة تقوم على محورين أساسيين محور الهدم ومحور البناء ، لأننا ورثنا أنظمة تحتوى على كثير من العوائق والمفاسد والقيود ،فلابد من هدم العوائـــق وإزالة المفاسد وتحطيم هذه القيود وإزالة ركامها من طريق الصحوة الإسلامية لنؤسس بنياننا على تقوى من الله ورضوان ليقوم متينا معافى من الضعف.

أما الفصل الأول فجاء تحت عنوان : العودة إلى الطريق المستقيم

فذكرت وسائل العودة يتصدرها إصلاح المناهج التعليمية ،وأن يؤخذ كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه أساسا للنهضة التعليمية الشاملة فى ديار المسلمين وربط المناهج كلها بالإسلام مع العناية بتعليم الذكور والإناث مع الاهتمام الزائد بالمعلم الصالح لأنه قدوة المتعلمين .

وعرجت على الاهتمام بوسائل الإعلام فى البلاد الإسلامية وتنقيتها من المفاسد وتقويتها وتحسين أدائها لتكون عنصرا فعالاً فى نشر الوعى الإسلامى ،وحث المسلمين على توحيـــد صفوفهم والسعى الجاد فى تكوين دولة مسلمة تضطلع بتبعات الدفاع عن الإسلام وتواجـــه جيوش التنصير فى جميع أنحاء العالم الإسلامى .

أما الفصل الثانى ،فعنوانه: السودان وطرق المواجهة

بالاضافة إلى طرق المواجهة العامة فى العالم الإسلامى الذى يعتبر السودان جزءاً منه ذكرت أن السودان خاض تجارب عدة فى مواجهـة الغزو النصرانى ،منها ما هو جاد ،فأثمر ثمراً طيباً ، ومنها ما هو دون ذلك ومنها ما هو فردى ومنها ما هو جماعى طوعى أو حكومى وكمثال للمواجهة الطوعية الفردية ذكرت تجربة الشيخين (محمد الأمين القرشى) والشيخ (عيسى فرتاك) وإن كان الأخير قد واجه من خلال سلطته ،التى كانت محدودة كسلطة الزبير باشا .

أما المواجهة عن طريق السلطة فجربها فى عهد حكومة الجنرال عبود التى أبعـــدت المبشرين وواجهت التنصير مواجهة قوية كانت سبب سقوطها .

أما المنظمات الطوعية فذكرت كمثال لها منظمة الدعوة الاسلامية، وهى منظمة رائدة رغم قلة إمكاناتها المادية - ؟ - وهى المنظمة الإسلامية الوحيدة الجادة بين مئات المنظمات والهيئات الكنسية ومع ذلك أزعجت النشاط الكنسى وأعوانه فسعوا لبتر نشاطها بشتى الوسائل ولكن محاولاتهم لتكبيلها فشلت حيث نجحت فى تقويض الحكومات التى حاولت التصدى لهذا النشاط، ثم بينت عظم المؤامرة العالمية وخطورتها على السودان.

وختمت الباب بتوجيه النداء إلى عامة المسلمين حكاما وشعوبا أن السودان محاصر فمدوا إليه يد المساعدة قبل فوات الأوان .

ثم ختمت البحث بخاتمة ذكرت فيها بعض النتائج والمقترحات، وذيلت البحث بالفهارس .

الباب الأول

خلفية تاريخية عن النصرانية والإسلام في السودان

ويشتمل على تمهيد وأربعة فصول

التمهيد في : صلة السودان بمصر

الفصل الأول : النصرانية في السودان

الفصل الثاني : الإسلام في السودان

الفصل الثالث : نظام الحكم في السودان قبل الاستعمار

الفصل الرابع : الثورة الإسلامية بقيادة المهدى

تمهيـــد :

يرتبط السودان ارتباطا وثيقا بالعالم بصفة عامة، وصلاته بمصر تشكل الحلقة الرئيسية في هذا الارتباط، حيث عرف تأثر السودان بمصر من أقدم عصور التاريخ، وتبلور في عهد أحمس الذي طرد الهكسوس وأسس الدولة الحديثة التي توغلت في فتوحاتها جنوبا حتى الشلال الرابع حيث وجدت الاثار الدالة على ذلك في (كرقس) بمنطقة الرباطاب جنوبي أبي حمد.[1]

وفي عهد مملكة مروى سنة ٧٥٠ ق.م وجدت آثار تدل على الثقافة المصرية في منطقة جبل البركل حول العاصمة (نبتة)، تلك الآثار التي تمثلت في النقوش والتماثيل المصرية، والاهرامات التي فاقت اهرامات الجيزة في عددها[2]، وتنفيذا لسياسة التمصير هذه فتح المجال لتعيين أبناء الرؤساء والزعماء في الوظائف وذلك بعد تنشئتهم تنشئة مصرية، كما فتح المجال للمصريين من كهنة وصناع للدخول لاقاليم النوبة فاختلطوا بالسكان وأثروا فيهم[3] وما من حاكم دانت له مصر الا فكر في امتداد نفوذه جنوبا الى ما كان يعرف بأرض (نوب) والنوب اسم للذهب عند قدماء المصريين الذين أطلقوا على مناطقه (بلاد النوبة)[4]، وظل هذا المعدن من أقوى الدوافع التي تدفع حكام مصر لضم بلاد النوبة منذ عهد الفراعنة حتى العصر الحديث، ففي القرن الماضي عندما فكر محمد علي في غزو السودان كان هذا المعدن ضمن الأسباب التي دفعته لذلك، والارتباط قائم بصرف النظر عن الذهب لاعتبارات كثيرة ففي العصر الحديث يقول اللواء محمد نجيب " ان السودان لم يكن بالنسبة لي مجرد ارتباط عائلي

(١) انظر مكي شبيكة، السودان عبر القرون ص١٣ نشر وتوزيع دار الثقافة، لبنان بدون تاريخ

(٢) انظر، محمد عمر بشير، تطور التعليم في السودان ص ٢٢ ط دار الثقافي سنة ١٩٧٠

(٣) انظر، د. ابراهيم الحاردلو، الرباط الثقافي بين مصر والسودان ص ٤ ط أولى سنة ١٩٧٧ دار جامعة الخرطوم للطباعة.

(٤) انظر الرباط الثقافي بين مصر والسودان ص ١ نقلا عن وولتر مصر وبلاد النوبة ص ١٠ ترجمة حندوسة.

ولا عاطفى وإنما كان أيضا إيمانا باهميته وضرورته لمصر . . . ولم يكن مجرد فصل من حياتى وإنما هو أيضا فصل من حياة مصر.)[١]

ولم تكن مصر دائما غانمة غير غارمة وإنما ظلت بحكم جوارها قديما وحديثا تشاطر السودان سراءه وتشاركه فى ضرائه مما حدا بأحد الكتاب السودانيين المعاصرين إلى القول :

(فإنك لن تجد شيئا تتأثر به مصر لا يتأثر به السودان ، وما من شئ يصيبهما من خير أو شر إلا أصاب السودان منه سهم علاقة عضوية جدلية فى الحياة والفكر والدم)[٢] وكلما شب جيل فتح عيونه على مقومات حضارة مصر وأخذ منها بحظ وافر وصار كالمصرى قلبا وروحا ،[٣] ولذلك دان السودان بديانات مصر من فرعونية ورومانية وعن طريقهما كذلك عرف النصرانية والإسلام.

---

(١) اللواء محمد نجيب ، مذكرات محمد نجيب، كنت رئيسا لمصر ص٢٧٣ ط ثانية سنة ١٩٨٤ . الناشر المكتب المصرى الحديث

(٢) الرباط الثقافى بين مصر والسودان ص ٤

(٣) انظر المصدر نفسه والصفحة .

الفصل الأول

النصرانية في السودان

المبحث الأول : متى وكيف دخلت النصرانية السودان ؟

عند ما كانت مصر ولاية رومانية تابعة للدولة البيزنطية كان لابد أن تدين بدينها وتؤثر في جيرانها ومن هذا القبيل كان دخول النصرانية في السودان مملكة (نوباطيا) آنذاك شمال السودان الآن ، وكان دخول النصرانية لهذه المملكة بالتحديد في النصف الأخير من القرن السادس الميلادي على اثر الصراع المذهبي الذي ساد تلك الفترة فقد كان الامبراطور جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) على مذهب الكنيسة الملكانية (البيزنطية) فأراد أن يدخل القبائل الوثنية القاطنة على أطراف الامبراطورية الرومانية في حظيرة الدولة ولهذا سعى إلى اجتذاب النوبة إلى النصرانية ليتسنى له السيطرة على وادي النيل الأوسط ،[1] فكلف البطريق (ثيودوسيوس) ليقوم بنشر مذهبه في أرض النوبة والسودان[2] ففطن القائمون على أمر الكنيسة المرقسية (الأرثوذكسية) لمراد الامبراطور فاستعانوا بزوجه (ثيودورا) التي كانت تخالفه في المذهب فسارعت إلى ارسال (لونجينوس) ، ويقال إن (جوليان) عرض عليها مشروعا تبشيريا لبلاد النوبة ،فسرت به ووعدته بالمساعدة ، وأخبرت زوجها بما عزمت عليه ،فساءه أن يكون (جوليان) على رأس هذه البعثة لأنه من الحزب المعادي لقرارات خلقيدونية ،[3] ولهذا عزم أن يرسل سفارة امبراطورية خاصة تحمل هداياه لملك النوباديين ، وخطابا لحاكم طيبة البيزنطي ، فعلمت زوجه فحررت رسالة إلى حاكم طيبة طلبت إليه حجز سفارة زوجها حتى تصل سفارتها هي إلى بلاد النوبة ، وهددته بالقتل إذا خالف أمرها ، فنفذ أمرها ، وحجز

---

(١) انظر د . مصطفى محمد مسعد ، الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ، ص٥٦ ، ملتزم الطبع والنشر مكتبة الانجلو المصرية سنة ١٩٦٠م .

(٢) المصدر السابق ص ٥٩ .

(٣) مجمع خليقدونية عقد على شاطئ البسفور الاسيوى سنة ٤٥١م وسبب انعقاده أن الامبراطور ثيودوس الثاني أيد قرار مجمع أفسس الثاني بأن للمسيح طبيعة الهية واحدة وهو قرار مخالف لمعتقد الكنيسة الغربية، فاعتبر البابا مجمع افسس غير شرعي وسماه مجمع اللصوص ووجه إلى الامبراطور ثيودوس الثاني طلبا يدعوه فيه لعقد مجمع صحيح وفي أثناء ذلك مات الامبراطور ، وكان موته فرصة لتحقيق رغبة البابا ليون فتعاطفت أخت الامبراطور وزوجها مركيان مع البابا ودعوا إلى عقد مجمع خلقيدونية . انظر قصة الحضارة ،مجلد ٤ جـ١ ص ١٠٢ وانظ يونس تسورى عقيدة التثليث والصلب وموقف الاسلام منهما ص ١١٥

سفارة زوجها مبررا فعله لرئيس بعثة الامبراطور بعدم وجود وسائل النقل ورواد الطريق وطلب منه الانتظار حتى يقوم بتدبير الدواب والمرشدين الخبراء بمسالك الصحراء[(١)] وأصدرت ثيودورا أمرا بتعيين القسرلونجينوس أسقفا لبلاد نوباطيا سنة ٥٦٦[(٢)] ، وهي مملكة النوبة التي تقع شمال مملكة (المقرة) أما مملكة مقرة فقد اعتنق ملوكها النصرانية على المذهب الملكاني سنة ٥٦٩[(٣)] ويرى البعض ان مقرة اعتنقت النصرانية بين (٥٧٠-٥٨٠) وحوالي سنة ٥٧٨م بعث ملك علوة رسالة الى ملك نوباطيا يعلن فيها رغبته في الدخول في النصرانية رجاء أن يسمح للأسقف (لونجينوس) بالسفر إلى مملكته لتعميده فرجع (لونجينوس) من مصر إلى نوباطيا سنة (٥٨٠م) فوجد رسالة ملك علوة بالدعوة لتعميده.

وإذا نظرنا إلى أي مدى تأثر النوبيون بالنصرانية وهل كان اعتناقهم لها عن رضا واقتناع فعملوا على نشرها بين طبقات الشعب أو كان اعتناقهم لها خوفا ومجاملة لملوك روما وأعوانهم في مصر فانحصرت في علية القوم دون عامتهم . يجيب على هذه الأسئلة يوحنا الأفسس بقوله :

" إن جوليان ولونجينوس بدءا بتعميد الملوك ثم الأمراء ثم بعض أفراد النوبيين ، ومن غير المعقول أن يتم تعميد النوبيين جميعا في المدة القصيرة التي قضياها ببلاد النوبة ، ولا بد أن قرارا صدر من الملوك النوبيين أن النصرانية دين الدولة الرسمي فاعتنقها الناس لا عن فهم واقتناع ولكن الناس على دين ملوكهم) .[(٤)]

وهذا دليل واضح على أن النصرانية التي دخلت السودان هي نصرانية ملوك الرومان ، وليست المسيحية التي جاء بها عيسى عليه السلام ، ومهما حاول مؤرخو الغرب ومبشروه أن يشوهوا معالم التاريخ لهوى في نفوسهم بأن يجعلوا من السودان المسلم قطرا ذا جذور مسيحية ضاربة في عمق التاريخ فلن يجدوا لذلك سبيلا ولا لزعمهم دليلا كافيا يسعفهم في تأييد ما ذهبوا إليه ولقد بدأت هذه المحاولة قبل الاستعمار واشتدت

---

(١) انظر الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ص٥٨/٥٩
(٢) المصدر نفسه والصفحة .
(٣) انظر المصدر نفسه ص٦٤ .
(٤) المصدر نفسه ص ٦٦ .

إبّان فترته لخدمة أهدافه، وحاول الاستعمار جاهداً أن يطوى سجل تاريخ الإسلام وأن يمحو ثقافته من السودان وأن يقطع كل آصرة تربط حاضره بماضيه الإسلامى تعويقا لحركة الإسلام من الانسياب إلى أفريقيا، وما زالت المؤسسات الكنسية التى خلفها تواصل هذه الجهود . ونحن لا نشك أن النصرانية سبقت الإسلام إلى السودان بحوالى نصف قرن من الزمان ،ولكن كان هنالك فرق واضح بين دخول الديانتين حيث إن النصرانية فرضت بالقوة فدان بها الملوك قبل رعاياهم خوفا على ملكهم من أباطرة الرومان والنصارى انفسهم يشهدون على ذلك .

يقول ج . فانتينى (1) :-

" ذكرنا أن الملك سلكو ملك نوباطيا طرد البليميين من وادى النيل حوالى سنة ٥٣٦م وفى أثناء هذه الفترة أبطل القائد (فرنسيس) عبادة الالهة (ازيس) التى كانت تتمتع بشعبية فى جزيرة (فيلة) واعتقل الكهان القائمين على خدمتها وأرسل تماثيلها إلى مدينة القسطنطينية " (2)

والواقع أن الالهة ازيس ظلت تعبد بجزيرة (الفيلة) حتى سنة ٥٦٣ وهى السنة التى أرسل فيها الامبراطور جستنيان قائده (فرنسيس) للقضاء على الوثنية وعلى عبادة ازيس ففعل وزج بالكهنة فى السجن واقفل معبد (الفيلة) وحمل التماثيل إلى القسطنطينية (3)

---

(1) ولد بايطاليا سنة ١٩٢٣ ،رسم قسا سنة ١٩٤٧ ليعمل قسا بالسودان ،تعلم اللغة العربية بلبنان ،نال دكتوراة اللغات والحضارات الشرقية بجامعة نابلى ،انضم لعضوية جامعة روما للتنقيبات الاثرية بالسودان (١٩٦٧-١٩٧٠) وعضوا لجمعية الدراسات النوبية بوارسو سنة ١٩٧٢ .
ومن الملاحظ ان مؤلفاته كلها تدور حول نبش رفات النصرانية المندثرة وهى : تاريخ المسيحية فى الممالك النوبية والسودان الحديث ، الحفريات بمكان فرس بالانجليزية - منابع تاريخ النوبة بالانجليزية - ومقالات فى الصحف عن تاريخ المسيحية .

(2) جوفيانى فانتينى ،تاريخ المسيحية فى الممالك النوبية ،والسودان الحديث ص ٥٤ ط الخرطوم سنة ١٩٧٨ .

(3) انظر د . عبد العزيز امين عبد المجيد ، التربية فى السودان من أول القرن السادس عشر الى نهاية القرن الثامن عشر والاسس النفسية والاجتماعية التى قامت عليها جـ١ ص ١١ الطبعة الاميرية سنة ١٩٤٩

ويقول فانتيني : (اعتنقت بلاد النوبة بشكل عام الديانة المسيحية من سنة ٥٤٣-٥٨٠م على يد بعض المبشرين القادمين من القسطنطينية ، وكان الملوك أول من اهتدى إلى الديانة المسيحية فجعلوها ديانة رسمية ثم تبعهم رعاياهم)[(١)]

وفي واقع الأمر أن الدافع الرئيسي لحكام الرومان هو بسط نفوذهم السياسي لا نشر المسيحية . وقد صرح المؤرخ المصري يوحنا نيكيو سنة ٦٩٠م ان ملك نوباطيا طلب من الامبراطور القسطنطيني أن يبعث له المرسلين لنشر تعاليم الانجيل في بلاده ، ويعلق أحد العلماء المتبحرين في تاريخ بلاد النوبة فيقول : " إن الامبراطور القسطنطيني كان يحرص على بسط نفوذه السياسي ".[(٢)]

ويقول :" وفي سنة ٥٦٨ قصد مدينة القسطنطينية وفد من قبائل القرعان وطلبوا من الامبراطور البيزنطي عقد معاهدة معه سائلين أن يتعلموا مبادئ الديانة المسيحية حسب معتقدات الامبراطور المذكور فوافقهم على ذلك[(٣)]

ويقول :" إن وفدا من شعب مملكة (المقرة) قصد القسطنطينية سنة ٥٧٣ م حاملا الهدايا إلى ملك الروم وطلب عقد معاهدة معه ".[(٤)]

زيادة على ما ذكرنا من الأدلة على أن ملوك النوبة تظاهروا باعتناق النصرانية خوفا من ملوك الرومان ، فان النصرانية التي دخلت السودان هي النصرانية التي غلبت عليها وثنية الرومان لذا لم يكن الفرق كبيرا بين ما كان سائدا في بلاد النوبة قبل دخول النصرانية ، وبعد دخولها .

---

(١) تاريخ المسيحية في الممالك النوبية ص ٤٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٥ .
(٣) و(٤) المصدر نفسه ص ٤٨ .

المبحث الثانى

دين المسيح عليه السلام

قبل أن نوضح ما لحق المسيحية من التحريف بعد المسيح عليه السلام، ليوازن القارئ بين ما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة عن المسيحية، وما جاء فى الأناجيل التى اعتمدوها مع اعتراف الكثير من علماء النصارى أنفسهم أنها فقدت الثقة التاريخية ولم تنل الاحترام العلمى لما نالها من الاختلاف والتباين كما تعرضت لنقد شديد من علماء المسيحية الذين أسلموا عن رغبة واقتناع بعد بحث وتمحيص للوصول لمعرفة الحق مثل المسيو (اتيين دينيه) الفرنسى الرسام الذى هداه الله لحقيقة الألوهية فأعلن اسلامه سنة ١٩٢٧ بعد دراسات تاريخية ودينية لكتب الأديان فأصدر حكمه قائلا: " اما أن يكون الله سبحانه قد أوحى الإنجيل إلى عيسى بلغته ولغة قومه فالذى لا شك فيه أن هذا الإنجيل قد ضاع واندثر ولم يبق له أثر، أو أنه أبيد " (١)

كما تعرضت هذه الأناجيل لنقد شديد من علماء النصرانية الذين لم يسلموا كالدكتورنظمى لوقا الذى يقول: " وأعنى بالمسيحية هنا ما جاء به المسيح من نصوص كلامه لا ما لحق بكلامه وسيرته من التأويل " (٢).

وسواء رضى النصارى أم أبوا فإنه لا وجود لنصوص كلام المسيح عليه السلام إلا فى القرآن الكريم، فليس ثمة مصدر صحيح يرجع إليه لمعرفة كلام المسيح وتاريخ دينه جدير بالثقة والاحترام غير القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف، فهذان المصدران هما المعتمدان لتاريخ الرسالات الإلهية منذ آدم أبى البشر إلى محمد خاتم الأنبياء والرسل صلى الله عليه وسلم.

فالاستناد إلى هذين المصدرين فى عرض حقيقة دين المسيح عليه السلام أمر ينبغى أن يذعن إليه الباحثون عن الحق المنصفون له.

---

(١)، (٢) انظر متولى يوسف شلبى، أضواء على المسيحية ص ١٧، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م الدار الكويتية للطباعة والنشر والتوزيع.

ولهذا نجد القرآن الكريم قد اتخذ مكانته من الاحترام بين عقلاء الباحثين من المسيحيين .

يقول المستشرق الفرنسى الأستاذ (د يمومبين) إن المنصف لا مناص له من أن يقر بأن القرآن الحاضر هو القرآن الذى كان يتلوه محمد صلى الله عليه وسلم" (١)

ويقول السير وليم موير فى كتابه حياة محمد :

" كان الوحى المقدس أساس أركان الإسلام ، فكانت تلاوة ما تيسر منه جزءاً جوهريا من الصلوات اليومية عامة أو خاصة ، وكان القيام بهذه التلاوة فرضا وسنة يجزى من يؤديها جزاء دينيا صالحا ، ذلك كان إجماع الرأى فى السنة الأولى ، وهو ما يستفاد كذلك من الوحى نفسه ، لذلك وعت القرآن ذاكرة كثرة من الأولين إن لم يكونوا جميعا" (٢)

لهذا كان القرآن والحديث هما السند الذى يرجع إليه فى حقيقة معرفة دين المسيح عليه السلام إذ ليس فى الوجود كتاب إلهى محفوظ رسما وتلاوة عدا هذا القرآن لأنه استند إلى التواتر والحفظ والصيانة برسمه وتلقيه كما اقتضت حكمة العليم الحكيم أن يتولى بنفسه سبحانه حفظه . قال تعالى "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (٣)

يبين الله تعالى فى هذه الآية الكريمة أنه هو الذى نزل القرآن الكريم وأنه حافظ له من أن يزاد فيه أو ينقص أو يغير فيه شئ أو يبدل ويبين هذا المعنى فى مواضع (٤) أخر كقوله تعالى : (وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) (٥) وقوله : (وما تنزلت به الشيطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون) (٦).

والمسيحية لم تكن بدعا من الرسالات ولا رسولها بدعا من الرسل الذين قال الله تعالى فيهم : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) (٧)

---

(١) د . عبد الحليم محمود ، التفكير الفلسفى فى الاسلام ص ٤ مطبعة مخيمر بدون تاريخ
(٢) محمد حسين هيكل ، حياة محمد ص ١ .
(٣) سورة الحجر آية ٩ .
(٤) انظر الشيخ محمد الامين الشنقيطى ، أضواء البيان فى تفسير القرآن بالقرآن جـ ٣ ص ١٠٧ ط ٢ سنة ١٤٠٠هـ ١٩٧٩ .
(٥) سورة فصلت الايات (٤١-٤٢) .
(٦) سورة الشعراء الايات (٢١٠-٢١١)
(٧) سورة الأنبياء الاية ٢٥

فالله سبحانه واحد ودينه واحد كما قال جل شأنه (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدّين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه)[١]

والقرآن الكريم يثبت إقرار عيسى عليه السلام بالعبودية لله تعالى وهو فى المهد (قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا)[٢] كما يثبت أنه عليه السلام دعا إلى التوحيد الكامل واستقام عليه حتى رفعه الله إليه وهذا ما يقوله الله سبحانه وتعالى كاشفا عما يكون من عيسى عليه السلام يوم القيامة من مجاوبة بينه وبين ربه تعالى[٣] إذ يقول :

(وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمىّ إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علاّم الغيوب ما قلت لهم إلاّ ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد)[٤]

هذه هى مسيحية المسيح عليه السلام فما هى الأسباب التى أدت إلى تشويهها ؟

---

(١) سورة الشورى الآية ١٣ .

(٢) سورة مريم الآية ٣٠

(٣) انظر الشيخ محمد أبى زهرة ، محاضرات فى النصرانية ص ٩

(٤) سورة المائدة الايات (١١٦-١١٧).

المبحث الثالث

أسباب تحريف المسيحية

أ - عصور الاضطهاد :

اتفقت جميع المصادر على اختلاف أنواعها دينية وغير دينية على أن المسيحيين حلت بهم كوارث جعلتهم يستخفون بدياناتهم ويفرون بها أحيانا ويصدون بها أمام المضطهدين مستشهدين أحيانا أخرى وأنهم في كل هذه الأحوال لا قوة تمنعهم وتحمي دينهم وكتبهم ، ويقرون أن أناجيلهم ورسائلهم التي اعتمدوها مصادر لدينهم دونت أثناء هذه الاضطهادات ،وأن سلسلة هذه الاضطهادات بدأت في عهد الامبراطور طيبارس والمسيح ما زال موجودا بينهم حيث كانت خاتمته ما أشار إليها القرآن الكريم (وماقتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه . . . الآية)[1]

ولقد خلف طيبارس هذا قيصران كانا شديدين على اتباع المسيح حيث قتلا منهم الكثير وفي عهد ثانيهما دون أول الأناجيل الأربعة المعتمدة عند النصارى- وهو إنجيل متى - بالعبرانية وترجمه يوحنا إلى اليونانية على رواية ابن البطريق[2] وأشد ما نزل بالمسيحيين من الأذى كان في عهد الأباطرة الآتي ذكرهم على سبيل المثال :

١- الامبراطور نيرون ٦٤ أو ٦٨م حيث قتل أقطاب المسيحية مثل بطرس، ومرقس ، وبولس وأحرقت روما في عهده فلم ينج من الحريق إلا ثلاثة أحياء فقط من جملة أربعة عشر حيا واتهم المسيحيين بإحراقها فصب عليهم جام غضبه فصلب بعضهم ،وأدخل البعض في جلود الحيوانات وطرحهم للوحوش لتنهشهم ،وطلى بعضهم بالقار وعلقهم وأشعلت فيهم النيران واتخذوا مشاعل لإنارة حدائق القصر، وكان هو نفسه يمشي في ضوء هذه المشاعل البشرية[3] وفي عصر هذا الامبراطور دون إنجيلا مرقس ولوقا .[4]

---

(١) سورة النساء الايات(١٥٧-١٥٨)
(٢) انظر محاضرات في النصرانية ص ٢٧
(٣) انظر حبيب سعد ،فجر المسيحية ٥٤ ، ٥٥
(٤) محاضرات في النصرانية ص ٢٨

٢- الامبراطور طيطس سنة ٧٠ م

ملك هذا الامبراطور مصر وخرّب بيت المقدس بعد المسيح بسبعين سنة بعد أن حاصرها وأصاب أهلها جوع عظيم وقتل من فيها من ذكر وانثى حتى كانوا يشقون بطون الحبالى ويضربون بأطفالهم الصخور وخرّب المدينه وأضرم فيها النيران وأحصى القتلى على يده فبلغوا ثلاثة ملايين.(١)

٣- دميتانوس سنة ٩٠ م

أمر جميع ولاته بالقبض على المسيحيين والحيلولة دون اجتماعاتهم السرية التي يقيمون فيها صلاتهم وأعيادهم وطرحهم للوحوش تنكيلا بهم.

٤- تراجان سنة ١٠٦ م

أنزل بهم أشد أنواع العذاب فشتت شملهم ونقب عن دخائلهم فتقرب إليه ولاته بتعذيبهم، ورسالة واليه على آسيا الصغرى (١١١-١١٣م) التي يبين فيها منهجه في التعذيب خير شاهد إذ يقول:

" جريت مع من اتهموا بأنهم نصارى على الطريقة الآتية وهو أني أسائلهم إذا كانوا مسيحيين، فإذا أقروا أعيد عليهم السؤال ثانية وثالثة مهددًا بالقتل فان أصروا أنفذ عقوبة الإعدام فيهم مقتنعا بأن غلطهم الشنيع وعنادهم الشديد يستحقان هذه العقوبة. وقد وجهت التهمة إلى كثيرين بكتب لم تذيل بأسماء أصحابها فأنكروا أنهم نصارى، وكرروا الصلاة على الأرباب الذين ذكرت أسماءهم أمامهم وقدموا الخمور والبخور لتمثال أتيت به عمدًا مع تماثيل الأرباب بل إنهم شتموا المسيح، ويقال إن من الصعب إكراه النصارى الحقيقيين... ورأيت من الضروري أن أعذب امراتين ذكروا أنهما خدمتا الكنيسة بيد أني لم أقف على شيء سوى خرافة سخيفة مبالغ فيها (٢)

فرد عليه تراجان بقوله:

(إن الخطة التي سرت عليها يا عزيزي بلين في بحث حالات من اتهموا أمامك بأنهم مسيحيون خطة حكيمة يجب ألاّ تحد من البحث عن هؤلاء الناس، ولكن إذا مابلوت

---

(١) انظر ابن قيم الجوزية، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص ١٦٩، مؤسسة مكة للطباعة والاعلام توزيع الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة

(٢) ديورانت، قصة الحضارة جـ٣، ص ٣٧٣/٣٧٤ ترجمة محمد بدران، نشر جامعة الدول العربية سنة ١٩٦٤م. وانظر محاضرات في النصرانية ص ٢٨/٢٩ .

أمرهم وتثبت من جرمهم فعاقبهم ، فإذا أنكر الواحد منهم أنه مسيحي وأيد ذلك بالابتهال إلى آلهتنا فاعف عنه) .(١)

٥- أدريانوس ١٢٤ م

تغنى في تعذيبهم أسوة بأسلافه فأصدر أوامره بقتل رؤسائهم وعذب عامتهم بالضرب بالسياط وطرحهم عراة على حجارة مسننة لتمزيق أجسادهم .

٦- الامبراطور ماركوس (١٦١-١٨٠)

قتل بوليكارب عند ما اعترف بأنه مسيحي ،وكان قد بلغ من العمر مائة سنة ، وبعد قتله أمر باحراقه(٢)

٧- الامبراطور سفروس ٢٠٢م

استعمل قوة القانون لمنع المسيحية في مصر وبعض ولايات أفريقيا .(٣) :

٨- الامبراطور كاراكلا ٢١١م

قتل المسيحيين بالصلب، وبالطرح للوحوش، وضاعف الجزية عليهم في مصر ،وأقام احتفالا كبيرا خارج الاسكندرية فخرج بعضهم لمشاهدته فأشار على الجنود بقتلهم ولم ينج منهم إلاّ القليل .(٤)

٩- الامبراطور دقلديانوس ٢٨٤

بطش بأهل مصر لتمرد واليها عليه فأقفل الكنائس، وأحرق الاسكندرية ، وأجبر الناس على عبادة الأصنام ، وعرف عامه بتاريخ الشهداء وهو تاريخ السنة القبطية)(٥) وفي عهده كان أصحاب الكهف وقد سار أباطرة الرومان على هذا المنهاج حيث يقص علينا القرآن الكريم جزءًا من هذه الاضطهادات ،فالحافظ ابن كثير يرى أن أصحاب الكهف الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم كانوا في عهد دقيانوس(٦) ويرى غيره أنهم كانوا في عهد ملك الروم دقيوس، حيث يقول صاحب كتاب أخبار بطاركة المشرق :

---

(١) قصة الحضارة ٣/٣٧٤
(٢) انظر حبيب سعيد ،فجر المسيحية ص ٩٧/٩٨
(٣) المصدر السابق ص ٥٩ .
(٤) انظر رؤوف شلبي ، يا أهل الكتاب ص ١٢١
(٥) حسب الله محمد احمد قصة الحضارة في السودان الفترة التاريخية من ٣٤٠٠ قم الى ١٩٠٠م ص ١٥٣
(٦) ابن كثير، البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٣٠ ط ثانية مطبعة المعارف بيروت

(وفي عهد ملك الروم داقيوس كان أهل الكهف وعددهم سبعة فتيان من أهل أفسوس هربوا من يد هذا القتال واستتروا في مغارة وماتوا فيها بعد ثلاثمائة وسبع سنين)[(١)]

ومما لا شك فيه أن هذه الاضطهادات التي صاحبت المسيحية في نشأتها وتكوينها وليدة وفي تدرجها كان لها أثرها البالغ في تغيير الديانة الصحيحة حيث توارى المخلصون بعقيدة التوحيد خوفا على أنفسهم وأظهر الضعفاء الوثنية وأبطنوا المسيحية.[(٢)]

ولم تكن هذه الاضطهادات مقصورة على أباطرة الرومان فحسب بل كان اليهود زبانية الحكام في اضطهاد المسيحيين لمعرفتهم بدخائلهم لأنهم من بني جلدتهم وخير مثال لما نقول هو (شاؤل) مؤسس النصرانية الذي سمى نفسه بولس.

إن لبولس هذا لشأنا في النصرانية فهي تنسب إليه أكثر مما تنسب لأحد سواه حيث تأثر النصارى بأعماله فاحتذوا حذوه وسلكوا نهجه واعتبروه القدوة الأولى من أساطين ديانتهم.

فرسائله هي التي شرحت النصرانية وأسفاره هي التي نشرتها في الأقاليم فلا بد إذن من العناية بتاريخه لنعرف هل كانت مكانته في المسيحية الأولى كمنزلته في النصرانية الحاضرة.

ففي سفر أعمال الرسل تفصيل لحياته وقد أخذت أعماله من ذلك السفر الشطر الأكبر.[(٣)]

فهو يهودي من فرقة الفريسيين المعروفة بعدائها الشديد للمسيح عليه السلام وقد كان بولس هذا في صدر حياته من ألدّ أعداء المسيحية وأبلغهم كيداً لها وأكثرهم إمعانا في أذى معتنقيها كما يدل على ذلك ما جاء في سفر أعمال الرسل في مواضع كثيرة منه، ففي الإصحاح الثامن من ذلك السفر (حدث في ذلك اليوم اضطهاد عظيم

---

(١) مارى بن سليمان، أخبار بطارقة المشرق من كتاب المجدل ص ٩٢ ط في روما الكبرى، وانظر معه الحضارة في السودان ص ١٥٣.
بيد ان الخبر اليقين أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة وتسع سنين كما قال الله تعالى في سورة الكهف: « ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا » الآية ٢٥

(٢) انظر محمد عزت الطهطاوي، النصرانية والاسلام ص ٢٦١/٢٦٢

(٣) انظر محاضرات في النصرانية ص ٧٠

على الكنيسة التى فى أورشليم فتشتت الجميع فى كور اليهودية والسامرة ما عدا الرسل وحمل رجال استفانوس وعملوا عليه مناحة عظيمة ،أما شاؤل فكان يسطو على الكنيسة وهو يدخل البيوت ويجر رجالا ونساء ويسلمهم إلى السجن)(١)

وجاء فى أول الاصحاح التاسع:

(وأما شاؤل فكان لم يزل ينفث تهددًا وقتلا على تلاميذ الرب، فتقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات حتى إذا وجد أناسا فى الطريق رجالا ونساء يسوقهم موثقين إلى أورشليم)(٢)

ويعترف بولس نفسه بهذا الاضطهاد قائلاً : (كنت غيورا كما جميعكم اليوم ،واضطهدت هذا الطريق(٣)، حتى الموت مقيدًا ومسلماً إلى السجون رجالاً ونساءً كما يشهد لى أيضا رئيس الكهنة وجميع المشيخة الذين أخذت أيضا منهم رسائل للأخوة إلى دمشق ذهبت لآتى بالذين هناك إلى أورشليم لكى يعاقبوا)(٤)

ب ـ بولس الرسول :

عندما أعيى بولس هذا الأسلوب إذ لم يأت بثمرة مفيدة انقلب فجأة من عدو لدود إلى رسول حميم ينزل عليه الوحى والعجيب فى الأمر أنه لم تسبق هذا الانقلاب أى مقدمات حيث ورد فى سفر أعمال الرسل قصة دخوله فى المسيحية كما يلى :

(وفى ذهابه حدث أن اقترب إلى دمشق فبغتة أبرق حوله نور من السماء فسقط على الأرض وسمع صوتا قائلا له: شاؤل ! شاؤل لماذا تضطهدنى فقال : من أنت ياسيد . فقال الرب: أنا يسوع الذى أنت تضطهده ، صعب عليك أن ترفس مناخس* فقال وهو مرتعد ومتحير يا رب ماذا تريد أن أفعل . فقال له الرب قم وأدخل المدينة فيقال لك ماذا ينبغى أن تفعل)(٥)

(١) أعمال الرسل : ٨ : ١ ،٢
(٢) المصدر السابق : ٩ : ١-٣
(٣) يعنى طريق دعاة المسيحية
(٤) المصدر السابق : ٢٢ : ٥-٦

ترفس نخس: رجل إلى الوراء، مناخس: قضيب طويل فى رأسه مسمار ينخس به الحيوان
*وحذفت هذه العبارة من الطبعة الثانية وهو أمر فى غاية الغرابة".
انظر كتاب الحياة ، ط ثانية سنة ١٩٨٢ . انظر ص ١٦٩ منه

(٥) أعمال الرسل ٩ ، ٣ ، ٦

وفى نفس السفر:

(وتناول طعاما فتقوى وكان شاؤل مع التلاميذ الذين فى دمشق أياما وللوقت جعل يكرز فى المجامع بالمسيح أن هذا هو ابن الله)[(١)]

(ابن الله)

هذه هى الكلمة التى أفسدت المسيحية فكانت بذرة بذرها بولس ثم آتت ثمرتها الخبيثة فى مجمع نيقية وما بعده من المجامع.

ولو كان انقلاب بولس السريع المفاجئ جعله مؤمنا متبعا لكان مقبولا . أما أن يصبح رسولا ينزل عليه الوحى ويكلمه الرب فهذا ما يرفضه العقل السليم، بل أتباع المسيح أنفسهم لم يقبلوه بادئ ذى بدء، وانما نفروا منه لما عهدوه فيه من عداء للمسيحية كما جاء فى أعمال الرسل: (ولما جاء شاؤل إلى أورشليم حاول أن يلتصق بالتلاميذ وكان الجميع يخافونه غير مصدقين أنه تلميذ)[(٢)]

يقول ويلز :

(بولس من أعظم من أنشأوا المسيحية الحديثة وهو لم يرعيسى ولا سمعه وكان اسمه فى الأصل شاؤل ، وكان من مضطهدى المسيحية، ثم اعتنق المسيحية فجأة وغيّر اسمه إلى (بولس)، وكان شديد الاهتمام بعقائد زمانه، فنقل إلى المسيحية كثيرا من أفكارهم، ومن ذلك قوله إن المسيح ابن الله نزل ليصلب ويفدى البشرية وذلك مثل الضحايا القديمة أيام الحضارات البدائية، وقد صادفت فكرة ألوهية المسيح أرضا خصبة فى عقول الذين لهم معرفة بالفلسفات التى سبقت المسيحية وساعد على هذا ما صادفه المسيحيون من الاضطهادات التى استمرت أكثر من ثلاثة قرون حتى جاء الامبراطور قسطنطين سنة ٣١٣م الذى كان يمنا وبركة على النصارى لا على المسيحية.

ويقول ول ديورانت :

(من حقنا أن نعتقد أن بعض المبادئ الدينية والأخلاقية والرواقية انتقلت من البيئة المدرسية فى طرسوس إلى مسيحية بولس فهو يستعمل الألفاظ الرواقية مثل (بيوما) أى

---

(١) اعمال الرسل ٩ : ٢٠-٢١

(٢) اعمال الرسل ٩ : ٢٦ العهد الجديد ص٢٦٩

النفس، وكان في طرسوس كما كان في أعظم المدن اليونانية أتباع للرواقية وغيرها من العقائد الخفية، ويعتقدون أن الله الذي يعبدونه قد مات من أجلهم ثم قام من قبره وأنه إذا دعي بإيمان حق وصحب الدعاء الطقوس الصحيحة استجاب لهم وأنجاهم من الجحيم وأشركهم معه في موهبة الحياة الخالدة المباركة وأن هذه الأديان الغامضة هي التي أعدت اليونان لاستقبال دعوة بولس.(١)

المسيحية وفلسفة الرومان :

يقول ول ديورانت : هل بولس قد تأثر بنبذ الافلوطينية والرواقية للمادة والجسم واعتبارهما شرا وخبثا، ولعله تذكر السنة اليهودية والوثنية سنة التضحية الفدائية للتكفير عن خطايا الناس . . . فأهمها أن كل ابن أنثى يرث خطيئة آدم وأن لا شيء ينجيه من العذاب الأبدي إلا موت ابن الله ليكفر بموته عن خطيئته وتلك فكرة كانت أكثر قبولا لدى الوثنيين منها لدى اليهود، ولقد كانت مصر وآسيا الصغرى وبلاد اليونان تؤمن بالآلهة من زمن بعيد، تؤمن بأزريس، وأتيس، وديونيشس التي ماتت لتفدي بموتها بني الإنسان، وكانت ألقاب مثل سوتر (المنقذ) و(اليوثريوس) (المنجي) تطلق على هذه الآلهة وكان لفظ كريوس (الرب) الذي سمي به بولس المسيح هو اللفظ الذي تطلقه اليونانية السورية على ديونيشس الميت المفتدي .

ولم يكن في وسع غير اليهود من أهل أنطاكيا وسواها من المدن اليونانية الذين لم يعرفوا عيسى بجسمه أن يؤمنوا إلا كما آمنوا بآلهتهم المنقذين، ولهذا ناداهم بولس بقوله (هو ذا سر أقوله لكم)(٢)

وهكذا محا بولس معالم التوحيد من المسيحية وقرب الشقة بين الوثنية والنصرانية فدخل الناس فيها أفواجا كما يروى التاريخ دخول كثير من الرومان والمصريين في القرن الثاني والثالث والرابع من الميلاد في النصرانية وفي رؤسهم تعاليم الوثنية.

---

(١) انظر قصة الحضارة جـ٣ مجلد ٣ ص ٢٤٩ قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانية تأليف ول ديورانت ترجمة محمد بدران «اجازته واتفقت على ترجمته الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٦٤

(٢) انظر قصة الحضارة ٣/٢٦٣/٢٦٤

كل هذه الأسباب مجتمعة جعلت بعض العلماء يبحثون عن قيمة كتب المسيحية، كما جعلت بعض علماء المسيحية يعتذرون عن هذا الاضطراب الذى اعترى الأناجيل بأنها دونت فى عصور الاضطهاد ... ولم تقف هذه الاضطهادات عند تحريف كتب المسيحية فحسب بل طاردت أنصار التوحيد وشردتهم، ورغما عنها ظلوا هم الكثرة، ولكنها الكثرة المستضعفة المقهورة بعصا السلطان، بيد أن منهم قلة من الأقوياء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فجهروا بعقيدة التوحيد ومن أشهرهم (أريوس) الذى يروى ابن البطريق مقالته فيقول

(وكان (أريوس) يقول إنّ الأب وحده الله والابن مخلوق مصنوع وقد كان الأب إذ لم يكن الابن)

وكانت مقالته هذه مشهورة بين كثير من طوائف المسيحية كما يقر بذلك المسيحيون أنفسهم جاء فى كتاب تاريخ الأمة القبطية ما نصه:

(الذنب ليس على أريوس بل على فئات سبقته فى إيجاد هذه البدع، فأخذ هو عنها ولكن تأثير تلك الفئات لم يكن شديدا كتأثير أريوس الذى جعل الكثير ينكرون سر الألوهية حتى انتشر هذا التعليم وعم)(١)

ويقول ابن حزم:

(والنصارى فرق منهم أصحاب أريوس، وكان قسيسا بالاسكندرية ومن قوله التوحيد المجرد، وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق وأنه كلمة الله تعالى التى بها خلق السموات والأرض، وكان فى زمن قسطنطين الأول، بانى القسطنطينية وأول من تنصر من ملوك الروم)(٢)

---

(١) انظر محاضرات فى النصرانية ص ١٤٧.

(٢) الامام أبو محمد على بن احمد المعروف بابن حزم الظاهرى، الفصل فى الملل والاهواء والنحل جـ١، ص ١٠٩ بتحقيق د. احمد ابراهيم نصر، وآخر ط أولى سنة ١٤٠٢ / ١٩٨٢ شركة مكتبات عكاظ.

ج- مجمع نيقيـــة ٣٢٥ م

كان لرأى أريوس هذا مشايعون كثيرون . فقد كانت الكنيسة فى اسيوط على هذا الرأى وعلى رأسها (مليتوس) وكان أنصاره فى الاسكندرية نفسها كثيرو العدد أقوياء حيث استطاعوا أن يجهروا بمعتقدهم ،كما كان لهذا الرأى مشايعون فى فلسطين ومقدونية والقسطنطينية . ولقد حاول بطريك الاسكندرية القضاء على أريوس بشتى الوسائل ،كالطرد ، واللعن ، والنفى ، ولكن باءت كل جهوده بالفشل مما اضطر قسطنطين امبراطور الرومان أن يتدخل بنفسه ليحسم النزاع بين أريوس وبطريك الاسكندرية ولكنه لم يوفق ، فاضطر إلى أن يعقد مجمعا لذلك فجمع مجمع نيقية سنة ٣٢٥م الذى كان معولا قضى على توحيد المسيحية

ويصف ابن البطريق هذا المجمع بقوله :

(بعث قسطنطين إلى جميع البلدان ،فجمع البطارقة والأساقفة فاجتمع فى مدينة نيقية ثمانية وأربعون وألفان كانوا مختلفى الآراء والأديان .

فمنهم من كان يقول : (إن عيسى وأمه إلهان من دون الله ،ومنهم من كان يقول : إن المسيح من الآب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها . . . ومنهم من كان يقول : لم تحمل مريم تسعة أشهر وإنما مر فى بطنها كما يمر الماء فى الميزاب لأن الكلمة دخلت فى أذنها وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها ومنهم من كان يقول : إن المسيح خلق من اللاهوت كواحد منا فى جوهره ،وأن ابتداء الابن من مريم وأنه اصطفى ليكون مخلصا للجوهر الإنسى صحبته النعمة الإلهية وحلت فيه بالمحبة والمشيئة ولذلك سمى ابن الله . ويقولون : الله جوهر قديم ،واقنوم واحد ويسمونه بثلاثة أسماء ولا يؤمنون بالكلمة ولا بروح القدس وهى مقالة بولس الشمشاطى .

ومنهم من كان يقول : إنهم ثلاثة آلهة صالح ، وطالح ، وعدل بينهما وهم المرقيونيون أصحاب مرقيون اللعين ،وزعموا أن مرقيون هو رئيس الحواريين ، وأنكروا بطرس.

ومنهم من كان يقول بألوهية المسيح وهى مقالة بولس الرسول ، ومقالة الثلاثمئة أسقفا.[1]

---

(١) انظر محاضرات فى النصرانية ص ١٢٤/١٢٥ .

ويعلق شيخ الاسلام ابن تيمية على هذا الاختلاف قائلا :

(وقولهم فالإله واحد خالق واحد ، ورب واحد ، هو حق فى نفسه لكن قد نقضوه بقولهم فى عقيدة إيمانهم (نؤمن برب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد إله حق من إله حق من جوهر أبيه مساو للأب فى الجوهر)

فأثبتوا إلهين ثم اثبتوا روح القدس إلها ثالثا ، وقالوا إنه مسجود له ، فصاروا يثبتون ثلاثة آلهة ويقولون إنما نثبت إلها واحدا وهو تناقض وجمع بين النقيضين النفى والإثبات . ولهذا قالت طائفة من العقلاء :

إن عامة مقالات الناس يمكن تصورها إلاّ مقالة النصارى وذلك أن الذين وضعوها لم يتصوروا ما قالوا ، بل تكلموا بجهل وجمعوا فى كلامهم بين النقيضين ولهذا قال بعضهم : لو اجتمع عشرة نصارى لتفرقوا عن أحد عشر قولا . وقال آخر: لو سألت نصرانيا وامرأته وابنه عن توحيد هم لقال الرجل قولا ، وامرأته قولا آخر ، وابنه قولا ثالثا)[1]

وهذا الاختلاف قد حدث بعد أن دخلت طوائف الوثنيين الرومان والمصريين فتكون فى المسيحية مزيج غير تام الاتحاد والامتزاج ،وكل قد بقى عنده من عقائده الأولى ما أثر على تفكيره وفى دينه وجعله يسير على مقتضى عقيدته السابقة من غير أن يشعر أو يريد فى غالب الأمر،ولقد كان هذا الاختلاف كامنا لم يظهر مدة الاضطهادات الرومانية للمسيحيين ، لأنهم شغلوا بدفع الأذى ورد البلاء حتى إذا رزقوا الأمان فى عهد قسطنطين الأول الذى عطف عليهم وتظاهر بالدخول فى النصرانية ،ظهر هذا الاختلاف واشتد بين طوائف المسيحية فتباعدت المسافات تباعدا شديدا فتنافرت هذه الطوائف وتناكرت ،وأصبح الوفاق بينها متعذرا بل مستحيلا .

لكل هذه الأسباب مجتمعة بالإضافة إلى ما يسمى بالبدعة الأريوسية بعث قسطنطين إلى جميع البلدان فجمع البطارقة والأساقفة فاجتمع فى مدينة نيقية ثمانية وأربعون وألفان كانوا مختلفى الآراء والأديان .

وأمرهم أن يتناظروا لينظر الدين الصحيح مع من ، وأخلى لهم داراً للمناظرة وسمع مقالة كل فرقة من ممثليها ، فعجب أشد العجب مما رأى وسمع، ولكنه جنح إلى رأى

---

(١) شيخ الاسلام ابن تيمية ، الجواب الصحيح ص ٥٥ ١ مطابع المجد التجارية .

(بولس) ـ وهو القول بألوهية المسيح ـ وهو مقالة ثلاثمئة وثمانية عشر أسقفا من المجتمعين وعقد مجلسا خاصا لهؤلاء الأساقفة الذين وافقوا هوى في نفس الامبراطور وجلس وسطهم وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه فدفعه إليهم ، قائلا : (قد سلطتكم اليوم على مملكتي لتصنعوا ما ينبغي مما فيه قوام الدين وصلاح المؤمنين) فباركوا الملك وقالوا له : أظهر دين النصرانية ، وذب عنه ، ووضعوا له أربعين كتابا فيها السنن والشرائع.(١)

وفي هذا يقول شيخ الاسلام ابن تيمية :

(فلما سمع قسطنطين الملك مقالتهم عجب من ذلك وأخلى لهم دارا ، وتقدم لهم بالاكرام والضيافة ، وأمرهم أن يتناظروا لينظر الحق فيتبعه واتفق منهم ثلاثمئة وثمانية عشر اسقفا على دين واحد فناظروا بقية الأساقفة . . . وانحاز الملك إلى الثلاثمئة والثمانية عشر رجلا القائلين بألوهية المسيح ، فانفرد بهم في اجتماع خاص ، وصنع لهم مجلسا خاصا وجلس في وسطه ، وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه فدفعها إليهم قائلا قد سلطتكم على مملكتي لتصنعوا ما بدا لكم مما فيه قوام الدين وصلاح المؤمنين فباركوا الملك ، وقلدوه سيفه وقالوا له : أظهر دين النصرانية وذب عنه)(٢)

لقد كان هذا المجمع حدا فاصلا بين المسيحية والنصرانية حيث قضى على ما بقي من دين المسيح ووضع معالم النصرانية السائدة إلى يومنا هذا وقرر ألوهية المسيح وأنه من جوهر الله ، وأنه قديم كقدمه ، وأنه لا يعتريه تغيير ولا تحول ، وفرضت تلك العقيدة على المسيحيين قاطبة بلسان الأمبراطور الروماني لا عنة كل من يقول غير ذلك ، والذين فرضوا هذا ثلاثمائة وثمانية عشر اسقفا وخالفهم فيما ذهبوا إليه ثلاثون وسبعمائة وألف أسقف لم يكونوا متفقين فيما بينهم على مذهب واحد .

والنقد الموجه إلى هذا المجمع هو اهماله لآراء المخالفين لهوى السلطان ، وليس الأمر كما يزعم ابن البطريق التثليثي أن هؤلاء الأساقفة الذين اختارهم الامبراطور أفلجوا حجج مخالفيهم وهو زعم باطل نقله الكثير من الكتاب وأن الرواة المحققين يقولون : إن أريوس لما اجتمع بهم وألقى بدعوته ونحلته إليهم انضم إلى آرائه أكثر من سبعمائة أسقف وذلك العدد هو أكبر عدد نالته نحلة من تلك النحل المختلفة فلو كانت النصرة بالكثرة

---

(١) انظر محاضرات في النصرانية ص١٤٩ وما بعدها .
(٢) الجواب الصحيح جـ٣ ص ٢٢/٢٣

النسبية لكان الواجب إذن أن يكون الغلب لأريوس الذى احتج بما تحت أيديهم من الأناجيل فلما عارضوه بنصوص أخرى تدل على ألوهية المسيح بين لهم تحريفها وظهر جليا أن يد السلطان وعصاه كان لهما دخل كبير فى تكوين رأى القائلين بألوهية المسيح لأنه يروى أنهم لم يكونوا على اتفاق فيما بينهم بألوهية المسيح ،ولكن تحت سلطان الإغراء بالسلطة الذى قام به الامبراطور بالانفراد بهم فى مجلس خاص بهم دون الباقين لاعتقاده إمكان إغرائهم حيث دفع لهم شارة الملك ليتحكموا فى المملكة ،فدفعهم حب السلطان لموافقة هوى الامبراطور تحت سلطان الرغبة والرهبة وبذلك تقررت ألوهية المسيح وحمل الناس عليها بالقوة ،وقُرر أن تعاليم المسيحية لا بد من تلقيها من أفواه أولئك العلماء ورجال الكهنوت ، وفرض المجمع نفسه حكومة وجماعة كهنوتية تلقى الأوامر وعلى الناس الطاعة كرها وطوعا ،وأمر بحرق جميع الكتب التى تخالف رأيه ، وتابع إحراقها فى كل مكان ، وحث الناس على تحريم قراءة ما أفلت منها من الإحراق ،وبهذا خالف رجال الدين المسيحَ عليه السلام الذى نسبوا إليه فى الإصحاح العشرين من إنجيل متى ما نصه :

(رؤساء الأمم يسودونهم والعظماء يتسلطون عليهم ، فلا يكن فيكم هذا) ليطيعوا قسطنطين الذى أعطاهم شارة ملكه وسلطهم على مملكته.(١)

وخلاصة القول أن هذا المجمع حد للأخلاف حدود العقيدة المسيحية فى نظر مقريه ، وهو الذى رسم الطقوس لأكثر التقاليد الكنسية القائمة الآن ، وهو أعظم المجامع وأبعدها أثراً وأكبرها شأناً وأولها وجوداً وأعظمها ذكراً وهو الذى فلح الأرض لتبذر بذور هذه النصرانية .

يقول المؤرخ ول ديورانت :

(أترى هل كان قسطنطين حين اعتنق المسيحية كان مخلصا فى عمله؟ وهل أقدم عليه عن عقيدة دينية؟ أو هل كان ذلك العمل حركة بارعة أملتها عليه حكمته السياسية ؟ أكبر الظن أن الرأى الأخير هو الصواب)(٢)

---

(١) انظر محاضرات فى النصرانية ص١٢٦ .

(٢) ول ديورانت ، قصة الحضارة جـ٣ مجلد ٣ ص ٣٨٧

(وقد أثمر آخر الأمر ذلك الاجماع العملى على العقيدة الأساسية التى اشتق منها اسم الكنيسة فى العصور الوسطى ، وهو الكنيسة الكاثوليكية ، فكان فى الوقت نفسه إيذانا باستبدال المسيحية بالوثنية ، وجعلها المظهر الدينى والعنصر القوى للامبراطورية الرومانية)[١]

لأن قسطنطين أراد أن يوفق بين الوثنية والمسيحية فخطا (كل خطوة بحذر ليحكم قبضته على مملكته التى تغلب فيها الوثنية ولذلك يستعمل ألفاظا توحيدية يقبلها كل وثنى فأمر بتجديد بناء الهياكل الوثنية كما أمر بممارسة أساليب العرافة ، واستعمل فى افتتاح مدينته القسطنطينية شعائر وثنية ومسيحية معا واستعمل رقى سحرية لحماية المحاصيل من الأمراض)[٢]

وأصدر مرسوما امبراطوريا يأمر فيه باحراق كتب أريوس ويجعل اخفاء أى كتاب منها جريمة يعاقب عليها بالإعدام[٣]. ولم يقف عند هذا الحد بل أمر بإحراق جميع الأناجيل التى تخالف تلك العقيدة المنحرفة التى أقرها المجمع وحرم تداولها وحظر قراءتها .

يقول عبد الأحد داود : (إن هذه السبعة والعشرين سفرا أو الرسالة الموضوعة من قبل ثمانية كتاب، لم تدخل فى عداد الكتب المقدسة باعتبار مجموعة هيئتها بصورة رسمية إلا فى القرن الرابع بإقرار مجمع نيقية العام وحكمه (سنة ٣٢٥م) لذلك لم تكن أى من هذه الرسائل مقبولة ومصدقة لدى الكنيسة وجميع العالم العيسوى قبل التاريخ المذكور، ثم جاء من الجماعات العيسوية فى الأقسام المختلفة من كرة الأرض ما يزيد على ألفى مبعوث روحانى ومعهم عشرات الأناجيل ،ومئات الرسائل إلى نيقية لأجل التدقيق ، وهناك تم انتخاب الأناجيل الأربعة من أكثر من أربعين أو خمسين إنجيلا ، وتم انتخاب الرسائل الإحدى والعشرين من رسائل لا تعد ولا تحصى ، وصودق عليها .

وكانت الهيئة التى اختارت العهد الجديد ، هى تلك الهيئة التى قالت بألوهية المسيح وكان اختيار كتب العهد الجديد على أساس رفض المسيحية المشتملة على تعاليم

---

(١) قصة الحضارة ص ٣٩٦

(٢) المصدر نفسه ٣٨٨

(٣) المصدر نفسه ص ٣٩٦

غير موافقة لعقيدة نيقية وإحراقها كلها)[١]. ومما يؤكد أن عمل قسطنطين كان سياسيا بحتا (أنه لم يعتنق المسيحية رسميا ولم يسمح بتعميده إلا وهو على فراش الموت سنة ٣٣٧م)[٢].

هذه هي النصرانية التي خطط لها بولس اليهودي الحاقد وجنى غراسها قسطنطين ليحكم قبضته على العالم مخالفا في ذلك نهج أسلافه الذين فشلوا في حكم العالم بقوة السلاح - كما أشرنا إلى صنيع بعضهم - فجاءت وفود الأقطار معلنة ولاءها لقسطنطين منضوية تحت لواء هذا الدين الجديد مكتفية بطقوس ليس لها من المسيحية إلا الاسم، فوصلت هذه النصرانية المشابهة للوثنية الى السودان ،ولم يكن لها أثر كبير في حياة السودانيين لأنهم لم يحسوا بفرق كبير بين ما هم عليه من وثنية وبين الدين الجديد الذي فرض على حكامهم ،أو اعتنقوه خوفا على زوال سلطانهم .

ثم دخل المسلمون مصر في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بقيادة عمرو بن العاص وكان دخولهم مصر بداية لسيادة حضارة جديدة في أفريقيا ،كما كان نهاية لحضارات شمال البحر المتوسط التي سيطرت عليها منذ عام ٣٣٢ ق.م بغزو الاسكندر المقدونى لمصر الذي بدأت بغزوه سيادة الحضارة الاغريقية في شمال أفريقيا ،ثم خلفه الرومان على مصر واستمر حكمهم من سنة ٥٤ ق.م الى سنة ٦٤١. وكان أثرهم يمتد جنوبا الى ممالك النوبة.

وعندما دخل المسلمون مصر توقع حكام السودان غزو المسلمين لهم وهذا ما ألفوه عبر التاريخ من أي حاكم سيطر على مصر ببسط نفوذه جنوبا على النوبة ،ولما لم يجدوا ذلك من المسلمين بادئ ذي بدء ظنوا أن بهم ضعفا فبدءوا يناوشونهم مما اضطر المسلمين لغزوهم في عقر دارهم فذعروا لذلك وساد التفاهم علاقاتهم مع الشمال فبدأت الهجرات العربية المنظمة الى السودان[٣].

---

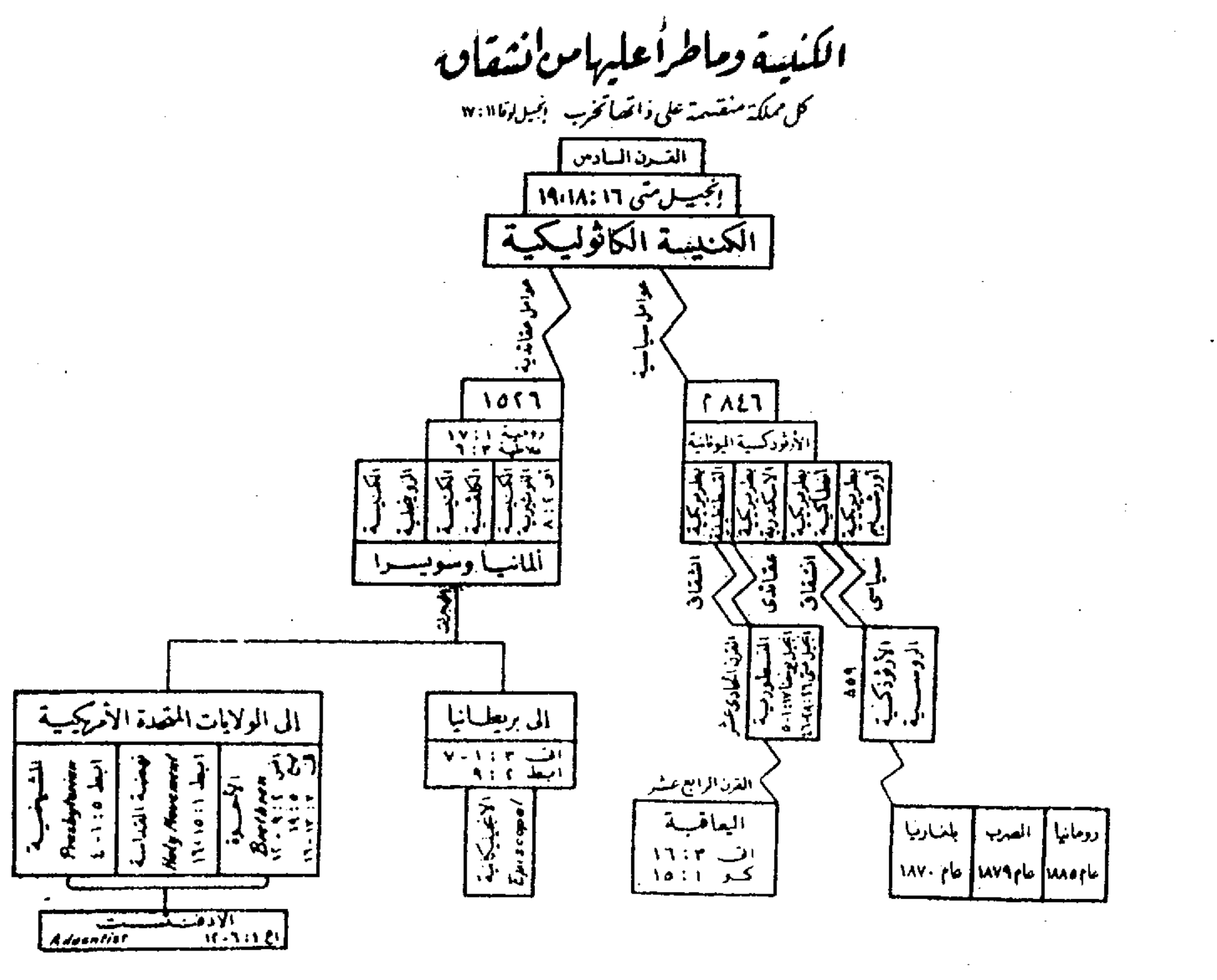
(١) د. أحمد شلبي مقارنة الاديان ، المسيحية ،ص ٢٠٥ ط ٦ سنة ١٩٧٨ ، نشر مكتبة النهضة المصرية .

(٢) الاسلام والنوبة في العصور الوسطى سنة ٤٧

(٣) انظر قصة حضارة السودان ص١٧٣

الكنيسة وما طرأ عليها من انشقاق

كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب إنجيل لوقا ١١ : ١٧



المصدر: الاستشراق والتبشير وصلتهما بالامبريالية العالمية ص ٢٧

الفصل الثانى

الاسلام فى السـودان

الهجرات العربية عبر البحر الاحمر:

عرف العرب بلاد النوبة قبل ظهور الإسلام بوقت طويل وهذه حقيقة من الحقائق التى تؤيدها الكشوف الجغرافية والروايات التاريخية، ذلك أن البحر الأحمر لم يكن فى وقت من الأوقات حاجزًا كبيرًا يمنع الاتصال بين شواطئه الآسيوية العربية وشواطئه الأفريقية إذ لا يزيد اتساع البحر على العشرين والمئة من الأميال عند السودان، وليس يصعب اجتيازه بالسفن الصغيرة، وتتقلص هذه المسافة فى الجنوب عند بوغاز باب المندب حتى لا تزيد على عشرة أميال وهو الطريق الذى سلكته السلالات العربية إلى القارة الأفريقية منذ آلاف السنين.[١]

وتشير بعض الروايات التاريخية إلى حملات عسكرية قام بها الحميريون فى وادى النيل الأوسط وشمال أفريقيا[٢] وتركت هذه الحملات وراءها جماعات استقرت فى بلاد النوبة وأرض البجة وشمال أفريقيا، وقد أشار العلامة ابن خلدون فى كتابه العبر إلى الهجرات الجهينية من الشرق وانتشارها فى السودان قائلا: (فجهينة ما بين الينبع ويثرب إلى الآن فى متسع من برية الحجاز، وفى شمالهم إلى عقبة أيلة مواطن (بلى) وكلاهما على العدوة الشرقية من بحر القلزم، وأجاز منهم أمم إلى العدوة الغربية وانتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة وكاثروا هنالك سائر الأمم وغلبوا على بلاد النوبة، وفرقوا كلمتهم وأزالوا ملكهم، وحاربوا الحبشة فأرهقوهم إلى هذا العهد).[٣]

الهجرات العربية عن طريق مصر:

أما الطريق الشمالى وهو طريق برزخ السويس فله دور خطير فى تأريخ العلاقات بين سكان الجزيرة العربية وسكان وادى النيل منذ فجر التاريخ، ولم تنقطع صلة هذه العناصر العربية بمصر زمن البطالمة والرومان، ولقد طبعت هذه العلاقات اللغة المصرية بالطابع السامى.

---

(١) انظر د. محمد عوض محمد، السودان ووادى النيل، ص ٢٨، والاسلام والنوبة فى العصور الوسطى ص ١٠٧.

(٢) الاسلام والنوبة ص١٠٩

(٣) ابن خلدون كتاب العبر ديوان المبتدأ والخبر فى ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر، القسم الأول ج٢، ص ٥١٦ منشورات دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر سنة١٩٥٦

وتمثل حملة عمرو بن العاص ٢٠هـ ٦٤١م على مصر إحدى طلائع هذه الهجرات الكبرى التى شقت طريقها من قلب الجزيرة العربية عبر برزخ السويس مكونة من أربعة الآف رجل ،أو من خمسمئة وثلاثة آلاف رجل .[1]

يقول ابن عبد الحكم :

(حدثنا أبو الأسود النضر بن عبد الجبار، حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب أن عمرو بن العاص دخل مصر بثلاثة آلاف وخمسمئة)[2]

فلما أبطأ الفتح على عمرو، كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستمده ويعلمه بذلك ، فأمده عمر بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف ، الزبير بن العوام ، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد ، وقال له عمر اعلم أن معك اثنى عشر ألفا ولا يغلب أثنا عشر ألفا من قلة.[3]

وفى رواية المقريزى :

أن الخليفة أمده بأربعة رجال فقط يقوم أحدهم مقام الألف.[4]

ولما طال الحصار على المصريين ،قالوا لملكهم ماتريد إلى قوم قتلوا كسرى وقيصر وغلبوهم على بلادهم. صالح القوم واعتقد منهم ،ولا تعرض لهم ،ولا تعرضنا لهم ، وذلك فى اليوم الرابع وناهدوهم فقاتلوهم فارتقى الزبير سورها ، فلما أحسوه فتحوا الباب لعمرو وخرجوا إليه مصالحين فقبل منهم ، ونزل الزبير عنوة حتى خرج على عمرو من الباب معهم ،فاعتقدوا بعد ما أشرفوا على الهلكة ،فأجروا ما أخذوا عنوة مجرى ما صالح عليه فصاروا ذمة وكان صلحهم :

(بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم ،وملتهم ، وأموالهم ، وكنائسهم ،وصلبهم ،وبرهم ،وبحرهم لا يدخل عليهم شىء من ذلك ولا ينتقص ، ولا يساكنهم النوب، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح ،وانتهت زيادة نهرهم ،خمسين ألف ألف، وعليهم ما جنى لصوتهم*

---

(١) ابن عبد الحكم ،فتوح مصر والمغرب ،ص ٨١ ،وخطط المقريزى جـ١ ص ٣٠٧ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ص ٨١ بتحقيق عبد المنعم عامر نشر لجنة البيان العربى بدون تاريخ

(٣) المصدر السابق ص ٩١

(٤) تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد المعروف بالمقريزى ، خطط المقريزى ، جـ١ ص ٣٠٧ ،إصدار دار التحرير والنشر عن طبعة بولاق سنة ١٢٧٠هـ

* لصوتهم : لصوصهم

فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة ، وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ،ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب ، فله مثل ما لهم ، وعليه مثل ما عليهم ، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج عن سلطاننا ،عليهم ما عليهم أثلاثا فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم ، على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ،وذمة الخليفة أمير المؤمنين ، وذمم المؤمنين ، وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسا ،وكذا وكذا فرسا ، على ألا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة ،شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه ،وكتب وردان وحضر)(1)

فنوبة (المقرة) هم الذين ورد ذكرهم فى المعاهدة التى أبرمها عمرو مع المقوقس وجاء فيها (أن النوبة الذين يدخلون فى صلح مع المسلمين عليهم أن يعينوا بكذا وكذا من الرؤوس وفتح بلادهم لتجارة الصادر والوراد ، ويبدو أن النوبة لم يلتزموا بهذا العهد مما دفع عمرا لغزوهم .

يروى ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب أن المسلمين لما فتحوا مصر غزوا نوبة مصر فقفل المسلمون بالجراحات وذهاب الحدق من جودة الرمى ،فسموا رماة الحدق(2) وكانت هذه الحملة فى ولاية عمرو بن العاص بقيادة عقبة بن نافع الفهرى سنة ٢١هـ ٦٤٢م وعند ما سمع النوبيون بوفاة الخليفة عمر وعزل عمرو عن مصر ،أرسلوا سراياهم إلى الصعيد فخربوا وأفسدوا ، واستعد عبد الله بن سعد بن أبى السرح الذى ولى مصر من قبل الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه لملاقاتهم وتمكن جيشه من التوغل جنوبا حتى (دنقلة) عاصمة مملكة النوبة (المقرة) ٣١هـ ٦٥٢م وحاصرها حصارا شديدا واستخدم المنجنيق فخربت كنيستهم ، وينقل المقريزى عن ابن سليم الأسوانى قوله : (فبهرهم ذلك ، وطلب ملكهم قليد وروث الصلح ، وخرج إلى عبد الله وأبدى ضعفا ومسكنة ،وتواضعا ،فتلقاه عبد الله ورفعه وقربه ، وقرر القائد الإسلامى عقد صلح عرف بالبقط*(3)

---

(1) الطبرى ،تاريخ الامم والملوك ج٤ ص٢٢٩ ،طبع روائع التراث العربى ،بدون تاريخ ،وانظر تاريخ الرسل والملوك ج٤ ص١٠٩ بتحقيق محمد الفضل ابراهيم طبعة دار المعارف ١٩٦٣م

(2) انظر د . مكى شبيكة ،السودان عبر القرون ص٢٥/٢٦ دار الثقافة بدون تاريخ وانظر د . حسن ابراهيم حسن ، انتشار الاسلام فى افريقيا ص١٠

* البقط: ما يقبض من سبى النوبة كل عام ، ومعناه بعض ما فى أيدى النوبة

(3) الاسلام والنوبة ص١١٢ وانظر المقريزى الخطط والاعتبار ج١ ص١٩٩

يقول ابن عبد الحكم :

(ثم غزا عبد الله بن سعد الأساود وهم النوبة كما حدثنا يحى بن عبد الله ابن بكير سنة إحدى وثلاثين ، وحدثنا عبد الملك بن مسلمة حدثنا ابن لهيعة عن يزيد ابن أبى حبيب قال كان عبد الله بن سعد بن أبى سرح عامل عثمان على مصر سنة إحدى وثلاثين فقاتله النوبة . . . قال ابن حبيب فى حديثه ، وأن عبد الله صالحهم على هدنة بينهم على أنهم لا يغزونهم ، ولا يغزو النوبة المسلمين وأن النوبة يؤدون كل سنة للمسلمين كذا وكذا من السبى ، وأن المسلمين يؤدون إليهم من القمح كذا وكذا فى كل سنة ، قال فكان الذى صولح عليه النوبة كما ذكر بعض مشائخ مصر على ثلاثمئة وستين رأسا)(1)

ولقد أورد المقريزى فى كتاب الخطط هذه المعاهدة حيث جاء فيها بعد البسملة :
(عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبى سرح لعظيم النوبة ، ولجميع أهل مملكته ، عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حد أرض (أسوان) إلى حد أرض (علوة) أن عبد الله بن سعد جعل لهم أمانا وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة ، أنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن لا نحاربكم ، ولا ننصب لكم حربا ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التى بيننا وبينكم على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه ، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه ، وعليكم حفظ ما نزل بلدكم أو بطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم ، وإن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام ، ولا تستولوا عليه ولا تمكنوا منه ولا تتعرضوا لمسلم قصده وجاوره إلى أن ينصرف عنكم وعليكم حفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ولا تمنعوا منه مصليا ، وعليكم كنسه وإسراجه ، وتكرمته وعليكم فى كل سنة ثلاثمئة وستون رأسا تدفعونها إلى إمام المسلمين ، من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب يكون فيها ذكران وإناث ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ، ولا طفل لم يبلغ الحلم ، تدفعون ذلك إلى والى

---

(1) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ٢٥٢/٢٥٤ وانظر مروج الذهب جـ٣ ص ٣٨/٣٩

أسوان ، وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعه عنكم من حد أرض (علوة) إلى أرض أسوان ، فإن أنتم آويتم عبداً لمسلم أو قتلتم مسلماً أو منعتم شيئا من الثلاثمائة رأس والستين رأسا فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان ، وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ، علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم والله الشاهد بيننا وبينكم كتبه عمر بن شرحبيل في رمضان سنة إحدى وثلاثين. (1)

ولا شك أن هذه المعاهدة فتحت الباب على مصراعيه أمام المسلمين فأخذ الإسلام يشق طريقه إلى السودان لا عن طريق الفتح وحده بل عن طرق الدعاة والتجار والرعاة والباحثين عن معادن الذهب ولم يتوقف الحكام المسلمون عن الدعوة الجادة إلى الإسلام . يروى المقريزى أن القائد جوهر بعث عبد الله بن أحمد ابن سليم الأسوانى بكتابه إلى (قيرقى) متملك النوبة يعرض عليه الإسلام ويستأذن ما عليه من البقط ،

فدعاه إلى الإسلام بحضرة شاهدين أخرجا معه ، فكبر ذلك عليه فجمع علماء ه وأساقفته وأحضر ابن سليم للمناظرة وقرأ عليه جواباً عن الكتاب الوارد معه يدعو جوهراً إلى النصرانية ، ويحتج عليه بنسخ الشرائع فطالت بينهما المناظرة ثم عاد إلى ذكر طاعته وموالاة أبيه وأخيه من قبل ، فأعلمه ابن سليم : أن الذى دعى إليه يستلزم الشكر عليه لأنه اختار له ما اختار لنفسه ، ويجب أن يحمد الله على ما أولاه من إبقائه على ملكه لأن الإسلام لما ظهر أزال ملوكا كباراً من الأكاسرة وغيرهم ، وأقربها إليه أرض مصر ، فأيهما أكبر ملك مصر أم ملكك ، فقال له أما فى الحال والمآل فمصر ، وأما فى الرجال فنحن أكثر عدداً ومدداً فقال ابن سليم : إن احتججت عليك بأن رجال مصر أكثر من رجالكم ظلمتك فى الاحتجاج لأنك تقول لى : قد رأيت مصر أما رجالى وغايتهم وما ورائى من البلد الفلانى والفلانى فلم ترهم ، غير أنى أحتج عليك بما لا يمكنك دفعه ، هل

(1) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ ١ ، ص ٣٧٥ ، مطابع بولاق ، وانظر الاسلام والنوبة ص ٩٦/٩

تعلم أن في الدنيا درجة فوق الملك؟ قال : لا . قال : فإن ملك مصر بعث الله إليه موسى وهارون أجل الرسل ،يقول لفرعون أنت ملك فيأبى عليه ،ويقول : بل أنا إله . فما ظنك بملك يبلغ طغيانه الخروج إلى هذا ، وقد أزاله المسلمون وملكوا أكثر كراسي النصرانية مثل الاسكندرية ، وبيت المقدس ، وأنطاكية وغير ذلك من البلدان والأمصار فيجب أن نحمد الله على ما أعطاك ، وتشكره على ما خولك وأبقاه عليك. ففعل ذلك وأكثر من التذلل لله عز وجل والثناء عليه.(١)

كما تذكر كتب التاريخ أن من أوائل هؤلاء الدعاة أبو عبد الرحمن عبد الله* ابن عبد الحميد العمرى الذى بلغه خبر المعدن وإثارة الناس للتبر فاشترى عبيدا لعمل المعدن وسار إلى أسوان على سبيل التجارة ، ونزل وجالس شيوخها وجاراهم العلم ، ثم دخل أرض المعدن ،ونزل على حى من مضر ، فوقع بين المضرية والربعية خلاف بسبب رجل قتل من مضر ، فاجتمع الفريقان وأقيد القاتل ، ووهب إلى ولى الدم ، ولم يحضر العمرى فغضب من ذلك ورحل عنهم فلحقته جماعة من القوم وقال نقمت عليكم اطراحي إذ لم تحضرونى هذا الأمر . قالوا : ما علمنا أنك تختار هذا أما وقد رغبت إلى مثله فلا خلاف عليك منا ، ولا نورد ولا نصدر بعد هذا إلا عنك وأتبعوا القول أيمانا مؤكدة فانتهز العمرى الفرصة بيمين القوم وجعلها عقد بيعة. . . وسأل العمرى النوبة أن يجعلوا له ولأصحابه طريقا لورود الماء لا يتجاوزون حدها فامتنعوا من ذلك ، وقتلوا من أسروا من أصحابه ، فشق عليه فعلهم ، وعاد إلى أصحابه واستنفر الناس فاجتمعوا إليه وحلفوا له فأمرهم بإحضار آلة المعدن فأمر بضربها حرابا وسار إلى النوبة فى غفلة منهم فنكى بهم

---

(١) المقريزى نماذج من مخطوط كتاب المقفى تحقيق خليل عساكر وآخر. ص ٢٠ / ٢١

* هوأبو عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضى الله عنهم - أبو عبد الرحمن العمرى العدوى القرشي ولد بالمدينة المنورة ونشأ بها ، وقدم مصر وجالس محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، وسمع منه الناس ثم مضى إلى إبراهيم بن الأغلب بالقيروان ومدحه فوصله بألف دينار وعاد سنة ٢٤١هـ إلى مصر ، وكانت فيه أدوات من فقه وأدب وشعر ومعرفة بالنجوم والفلسفة.

وقتل مقتلة عظيمة وكثر السبي عند أصحابه حتى إن أحد هم كان يحلق رأسه فيعطى المزين رأسا[1]

ويتضح هدف العمرى من دخوله أرض المعدن بالمحادثة التى دارت بينه وبين قادة جيش الأمير أحمد بن طولون حيث بعث الأمير ابن طولون شعبة حركام البابكي على رأس جيش إلى أسوان خوفا من العمرى . فقال العمرى لأصحابه لا تعجلوا فإن هذا رجل أعجمي وأنا أخاطبه بنفسي وانظر ما عنده .

ثم خرج من عسكره وقال لمن قرب من عسكر شعبة (إني أريد أن أخاطب الأمير قبل وقوع الحرب بيننا فخرج إليه شعبة ووقفا بحيث يسمع بعضهم كلام بعض فقال العمرى : (إن الأمير أحمد بن طولون لم يبلغه خبرى على حقيقته ، وقد موه عليه فى أمرى ،إنى لم أخرج أبغى فساداً ، ويدلّك على ذلك أنى لم أوذ مسلماً ولا معاهداً وإنما خرجت فى طلب أعداء المسلمين حتى كفانا الله أمرهم ،فأكفف يدك عن القتال حتى أكتب الى الأمير أيده الله واكشف له خبرى ، وتكتب أنت أيضا ، فإن قبل عذرى ،ولم تثقل عليه وطأتى وأمن جانبى كتب إليك بالكف والانصراف عنى فانصرفت مشكوراً ،وإن أمرك غير ذلك امتثلت أمره غير ملوم .)

فقال شعبه : ما أنا فيجا* لك أحمل كتابك ما بينى وبينك إلاّ السيف. فقال له العمرى : ما أنت بحمد الله شعبة الرجال ، بل أنت بلعبة النساء أشبه . . . ورجع العمرى إلى أصحابه ، فقال هذا رجل جاهل أحمق فد ونكم وقتاله . . . فرزق العمرى على شعبة الظفر وهزمه أقبح هزيمة ، وغنم ما كان معه فشبع أصحابه بعد جوع واكتسوا .

ومضى شعبة على وجهه إلى الفسطاط فأنّبه ابن طولون قائلا : أسأت وأخطأت ،

---

(١) المصدر السابق ٦/٧

* الفيج - رسول السلطان على رحله فارسي معرب ، وقيل هو الذى يسعى بالكتب انظر لسان العرب المجلد الثانى (فيج) ط دار الفكر بيروت

وكنت أمهلته وكتبت إلينا بخبره على صحة لــــنرى فيه رأينا ولكنك بغيت عليه فنصـــر عليك)[١]

ثم دخل العمري أرض المعدن وجرت له حروب أعظم من الأولى مع ربيعة ،ثم غـادر إلى المعدن سنة ٢٥٥هـ سنة خمس وخمسين ومائتين ،وعلى ربيعة رجل يعرف بأشهب ابن ربيعة من بني حنيفة بن لجيم بن صعب ،وآخر يعرف بإياس بن روح ،وآخر يعرف بمحمــد ابن صريح على بني قيس بن ثعلبة ابن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل وحلفائهم. وكان على الجهنيين رجل يعرف بعثمان بن سعدان ، وعلى الشاميين رجل من سعــد العشيرة ورؤساء دون هؤلاء ،فكثرت بهم العمارة في البجة وصارت الرواحل التي تحمــل الميرة إليهم من أسوان ستين ألف راحلة غير الجلاب* التي تحمل من القلزم إلى عيذاب.

وعرض أحمد بن طولون لمنع ذلك بسبب العمري ،فكتب إليه أنه في مئة ألف أويزيدون فعدل عن الاعتراض[١] ، ولم يمض كبير وقت حتى تكونت الممالك الإسلامية العربية القويـة التي انتزعت عروش النوبة وقوضت دعائم ملكهم الوثني النصراني حيث آل الملك إلى بنـــي الكنز سنة ٨٣٣هـ وهم من ربيعة وأول ملوكهم كنز الدولة بن شجاع بن نصر بن فخـــر الدين بن مالك بن الكنز ، ويرى بعض المؤرخين أنه بانتقال الملك إلى بني الكنز انتهت المملكة النوبية المسيحية وذلك سنة ١٣٢٣م.[٢]

---

(١) المصدر السابق ص١٤/١٥

* الجلاب : السفن الصغيرة الحجم ، جمع جلبة

(١) المصدر السابق ص ١٥/ ١٦

(٢) انظر د. مصطفى مسعد الاسلام والنوبة ص١٧٠

الفصل الثالث

نظام الحكم في السودان قبل الاستعمار

المبحث الأول : الحكم في السودان قبل دخول الأتراك

باعتلاء بني الكنز عرش النوبة انفتح باب الهجرة على مصراعيه أمام القبائل العربية لتنتشر في كثير من أجزاء السودان ، ولم يعد الشلال الثاني - كما كان سابقا - حاجزا يقف في وجه تدفق العرب جنوبا حيث اختلطوا بالنوبيين وانتشر الإسلام وزال ما بقي للمسيحية من نفوذ لأن كنز الدولة استعان بالعرب المقيمين في بلاد النوبة للوصول إلى العرش لأنهم كانوا من القوة والكثرة بحيث تمكنوا من التغلب على بيوت الإمارة النوبية القديمة يقول النويري : (فاجتمع أهل النوبة على كنز الدولة وملكوه عليهم ، واستقل بالمملكة وضم إليه العرب واستعان بهم على من ناوأه) (١)

ويرى عدد من الباحثين أن هزيمة ملك النوبة كرنبس آخر ملوك النوبة سنة ١٣٢٣م أمام بني الكنز تعتبر نهاية دولة المقرة المسيحية. (٢)

ثم إن غلبة العنصر العربي في بلاد النوبة واستقرار عرب جهينة بها أدى إلى زيادة الاختلاط بالنوبيين وتحويل الأقلية النوبية إلى الإسلام ، وأصبحت مملكة علوة المسيحية معرضة لما تعرضت له من قبل جارتها (مقرة) في الشمال ،وخاصة أنها كانت في غاية الضعف والتفكك في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ،وذلك لقطع الصلات بينها وبين العالم المسيحي حتى أصبح سكانها في جهل مزر إذ يصفهم قسيس برتقالي زار الحبشة سنة ١٥٢٠ / ١٥٢٧م (أن أولئك النوبيين يجهلون دينهم فلا هم بالمسيحيين ولا هم بالمسلمين أو اليهود ،ويقال إنهم كانوا على النصرانية غير أنهم فقدوا دينهم ولم تبق لهم

---

(١) الاسلام والنوبة ص١٧١ نقلا عن النويري

(٢) د . مكي شبيكة السودان عبر القرون ص٥٥

عقيدة).[1]

وبهذا أصبحت مملكة علوة مفتوحة الأبواب للهجرات العربية الإسلامية، حيث تدفق العرب من كل حدب وصوب، وربما كان أشد هذه الهجرات الجديدة تدفقا هجرة جهينة التي أشار إليها العلامة ابن خلدون، وهي واحدة من خليط هائل من القبائل العدنانية والقحطانية وبطونها المختلفة التي تجمعت في أنحاء النوبة الشمالية ومن ثم بدأوا ينظمون أنفسهم ويستقرون على ضفتي النيل، وأصبحت كل تتخذ لها شيخا تحتكم إليه، فتكونت المشيخات العربية تحت قيادة زعيم عرب القواسمة الشيخ عبد الله جماع[2] وكونوا حلفا مع (الفونج)* الذين كان يتزعمهم (عمارة دنقس) حيث تحالف الفريقان بعضهم مع بعض، وهاجموا دولة (علوة) وحاصروا عاصمتها (سوبا) فتم لهم النصر وخربوا (سوبا) خرابا صار مضرب المثل، وبانتصار هذا الحلف الإسلامي بدأت في السودان سلطنة إسلامية عربية اتخذت من (سنار) حاضرة لملكها، وتم الاتفاق بين الزعيمين على أن يكون زعيم الفونج هو السلطان، وأن يكون حليفه العربي وزيرا له، وصار هذا الاتفاق نظاما لهذه السلطنة حيث ظل سلاطينها من الفونج ووزراؤها عربا.[3]

ومن أبرز سمات هذه السلطنة الإسلامية تشجيعها للعلم والعلماء، فوفد إليها الفقهاء من الأندلس وشمال افريقيا، ومصر والحجاز وغيرها، وهؤلاء الفقهاء هم الذين نشروا العلم، وكان سلاطين الفونج يجلّون الفقهاء ويجعلون لهم مكانة خاصة في الدولة ومن أقوى هؤلاء الملوك (بادي أبو دقن) ١٠٥٢/١٠٨٨هـ/١٦٤٥/١٦٨٠م حيث امتد نفوذه جنوبا حتى قبائل الشلك، وغربا حتى (تقلي) وكان كريما جلدا، معظما لأهل العلم

---

(١) انظر الاسلام والنوبة ص ١٨٦

(٢) انظر د. محمد صالح محي الدين، مشيخة العبدلاب وأثرها في حياة السودان السياسية ص ٩٧ دار الفكر طبعة أولى سنة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م

* أصل الفونج على أصح الروايات: انهم عرب من بني أمية، هربوا من (السفاح) الى السودان وصاهروا ملوك (الفنج) فانتقل الملك الى ابنائهم وأول ملوكهم هو (عمارة دنقس) انظر مشيخة العبدلاب ص ١٣٠.

(٣) انظر الاستاذ ضرار صالح ضرار، تاريخ السودان الحديث ص ١٤/١٥.

والدين يرسل هداياه مع خبرائه إلى العلماء بمصر وغيرها وهو الذى مدحه الشيخ عمر المغربى مفتى الأزهر، وغيره من العلماء لما وصلهم بعطاياه الجزيلة مع خبيره (أحمد ولد علوان)، وهو الذى أتم بناء المسجد الذى أسسه والده، ونظّم حاضرة ملكه وأقام فيها الدواوين والمبانى اللّازمة للإدارة، وكان جم المكارم، ويكفى فى ذلك مدح علماء الأزهر له بالقصائد الغرائد. ونذكر على سبيل المثال بعض أبيات منها:

يقول الشيخ عمر المغربى:

أيا راكبا يسرى على متن ضامـر ... إلى الغرب يهدى نحوه طيب الذكـر
وينهض من مصر وشاطئ نيلهـا ... وأزهرها المعمور بالعلم والذكـر
لك الخير إن يممت سنار قف بها ... وقوف محب وانتهز فرصة العمـر
وأهد سلاماً عطر الكون نشـره ... ألذ من الماء الزلال أو القطـر
وأحلى وأهنا من وصال بلا جفـا ... وأعلى وأغلى من عقود من الـدر
إلى حضرة السلطان والملك الذى ... حمى بيضة الإسلام بالبيض والسمر
هو الملك المنصور (بادى) الذى لـه ... مناقب قد جلت عن العد والحصـر
حمى حوزة الدين الحنيفى بالقنـا ... وأصبح صدراً للعلا حائز الصـدر
وجرد للإسلام والملك صارمـا ... أباد به جمع الطواغيت والكفـر
وجاهدهم فى الله حق جهـاده ... وفاز بأنواع المثوبة والأجـر
وهدم أركان المظالم عدلـه ... فما كان زيد النحو يسطو على عمرو
بدولته سنار قد زاد أنسهـا ... وتاهت وباهت بالمسرات والبشـر
وما هو إلّا رحمة الله أرسلـت ... إليها بحق والإله بذا يـدرى
عماد يلوذ المسلمون بظلـه ... وسد منيع للأنام من الغـدر
أياد له فى الناس كاسرة العدا ... ولكنها بالجود جابرة الكسـر
به طمأن الله البلاد جميعهـا ... وألبسها ثوب السيادة واليسـر

إلى قوله:

وإنّى لصوان لدر قلائـدى ... عن المدح إلّا فيك يا ملك العصـر
فخذها من العبد الفقير قصيدة ... منظمة كالدر فى خالص التبـر
هو المغربى المالكى وإنـه ... سمى ابن خطاب وقلبكم يـدرى

ويقول فى قصيدة أخرى:

لك الخير إن وافيت سنار قف بهــا ... وقوف محب ذى وفاء وذ مـــنة
وما هى إلاّ بلدة زاد أنســـهـا ... وأشرق فيها النور من كل وجهـة
وعرج على قصر العزيز مليكهـــا ... جميل المحيا زين كل قبيلــة
هو الماجد السلطان (بادى) أخو العلا ... وحائز أوصاف الخصال الحميدة
هو الفارس المقدام فى حومة الوغـى ... ومردى العدا منـه بطعن الأسنة

... ...

شجاع يرد الخيل عند اصطدامها ... إذا اصطدم الفرسان فى وقت شدة
مدائحه شاعت بشرق ومغـــرب ... وفى طيبة أيضا وبطحاء مكـــة
وعامل أرباب الفضائل والتقـــى ... بإنعامه الوافى وأعظـم نجـدة (١)

وهذه القصائد الرصينة خير شاهد على مكانة هذا الحاكم العادل لأنها شهادة أولى العلم .

محاولة الغزو الصليبى الحبشى لسنار سنة ١٧٤٤م

حاول امبراطور الحبشة إياسو غزو سنار سنة ١٧٤٤م ، فجهز سلطان الفونج جيشا بقيادة الأمير خميس والتقى بالامبراطور إياسو فى يوم ٨ من مارس سنة ١٧٤٤ فهـزم الامبراطور هزيمة شنيعة وانتصر الجيش الإسلامى على النصارى الأحباش فوقع هــذا الانتصار موقعا حسنا فى نفوس المسلمين ، ورفع من شأن سنار بين الأقطار الإسلامية .

ثم تضعضع سلطان الفونج نتيجة لتدهور سلطات الملك بالخلافات الحادة بــين الزعماء ،فضعفت السلطة المركزية فى البلاد وبالتالى انهدمت سلطة الفونج ، فلم تعـد الدولة ذلك الجسم المتحد المتماسك ، وإنما آلت إلى مجموعة من الممالك ، والمشيخات منها ما خضع للفونج رأسا ، ومنها ما خضع لهم بواسطة مشايخ العبدلاب* ،كممالـك الجعليين ، والميرفاب، والرباطاب ، والشايقية ،وقد أغرى هذا التفكك محمد على باشا حاكم مصر بغزو السودان (٢)

(١) أحمد بن الحاج على كاتب الشونة ،مخطوطة كاتب الشونة فى تاريخ السلطنة السنارية والادارة المصرية ،تحقيق الشاطر بصيلى عبد الجليل ،ط دار احياء الكتب العربية عيسى الحلبى ،بدون تاريخ .

* نسبة للشيخ القبيلة عبد الله جماع وهو نسبة لجمع على غير قياس وكان ينبغى أن يكون العبادلة .

(٢) انظر د .حسن احمد ابراهيم ،محمد على فى السودان ص ١ ،ط دار التأليف والترجمة والنشر ،جامعة الخرطوم ، بدون تاريخ .

محمد على باشا فى مصر :

بعد جلاء الإنجليز والفرنسيين عن مصر سنة ١٨٠٣ ، تصارع الأتراك العثمانيون والمماليك على السلطة فى مصر ، ولكن الأمر لم ينته إلى مصلحة أى من الفريقين ، وإنما أدى إلى سيطرة محمد على على مقاليد الأمور سنة ١٨٠٥ م ولقد شعر محمد على منذ البداية أنه لن يستطيع القضاء على منافسيه مرة واحدة فتعاون مع المماليك ضد الوالى التركى خسرو باشا ، وعندما قضى عليه انقلب على المماليك مستغلا الخلاف الذى نشأ بين قادتهم - فشتت شملهم وأوهن عزمهم ، وساعده على تمكين سلطانه اقتناع المصريين بقيادة عمر مكرم ، أنه الأمل الوحيد لانقاذ مصر فعينوه واليا عليها سنة ١٨٠٥

وعندما شعر السلطان التركى بقوة مركزه والتفاف المصريين حوله ،اضطر إلى الاعتراف بولايته على مصر بموجب فرمان صدر فى شهر يوليو سنة ١٨٠٥م[1] .

---

(1) محمد على فى السودان ص ١١ .

المبحث الثانــي

السودان في ظل الخلافة وبداية النشاط الكنسي الحديث

من المعلوم تاريخيا أن معظم السلاطين والملوك الذين حكموا مصر من عهـــود الفراعنة والقياصرة ،فكروا في مدّ نفوذهم وعندما بسط السلطان التركي (سليم)الأول نفوذه على مصر سنة ١٥١٧م فكر في غزو السودان فتقدم إلى (سواكن) و(مصوع) فامتلكهمـــا ودخل الحبشة بقصد الزحف على سنار ودعا سلطانها إلى طاعته ، إلاّ أن سلطـــان سنار أجابه بما مفاده (أني لا أعلم ما الذي حملك على حربي وامتلاك بلادي ، فإن كان لتأييد دين الإسلام ، فإني وأهل مملكتي ندين بدين الله ورسوله ،وإن كان لغرض مادي فاعلم أن أكثر أهل مملكتي عرب بادية ، وقد هاجروا إلى هذه البلاد لطلب الرزق ، ولا شيء عندهم تجمع منهم جزية سنوية ، فعدل السلطان التركي عن غزو سنار [1]

لذا لم يكن مستغربا أن يفكر محمد علي في التوسع جنوبا نحو السودان ، وبخاصـة أنه كان طموحا في أن تكون لمصر شخصية بارزة مستقلة تحت قيادته [2] ، فبدأ يفكر جديـا في الاستيلاء على السودان ،فأرسل يستأذن السلطان العثماني محمود بك الثاني في غزو السودان ، فوافق السلطان على أن يضم محمد علي ما يشاء من أرض بشرط أن يكـــون ذلك باسم السلطان [3].

الاستطلاع قبل الغزو :

كان محمد علي حذرا يحتاط حتى لصغائر الأمور في سبيل تحقيق أطماعه ،لذا فإنه رأى من الحكمة أن يجمع المعلومات التي تتصل بمركز سلطان الفونج في بلاد الســودان يختبر مدى قوته العسكرية خشية أن يدخل في مغامرة خاسرة. فأُرسل وفدًا مـــزودًا

---

(١) نعوم شقير ،جغرافية وتاريخ السودان ،ج٢ ص ٣٨٨ ،دار الثقافة بيروت لبنـــان ط ثانية سنة ١٩٧٢ م .
(٢) انظر المصدر نفسه ج٣ ص٤٩٢ .
(٣) محمد فؤاد شكري ،مصر والسودان الوضع التاريخي للمسألة ،ص٥ دار الفكر العربي .

بالهدايا إلى ملك سنار سنة ١٨١٢م تحت ستار طلب اللاجئين إلى السودان من المماليك وردهم إلى مصر، إلا أن الهدف الرئيسي من إرسال الوفد كان الاطلاع على أحوال البلاد، وما يلزم من الجيوش لغزوها.[1]

وبعد التقرير الذي رفعه إليه وفده موضحا ضعف سنار من الناحية العسكرية، وعدم وحدتها السياسية قوى عزمه وأيقن أن سنار لقمة سائغة تنتظره، فسافر إلى صعيد مصر ليجهز الحملة التي قرر إرسالها إلى السودان.[2]

فجهز حملتين لغزو السودان إحداهما محاذية للنيل لشمال ووسط السودان بقيادة ابنه إسماعيل كامل، حيث سقطت سنار في يده سنة ١٨٢١م ١٢٣٧هـ وبسقوط سنار خضع السودان رسميا لسلطان الباشا المصري. والحملة الأخرى بقيادة صهره محمد بك الدفتردار عبر الصحراء إلى كردفان ليضم غرب السودان إلى أملاك مصر، وفي يوم ١٦ من شهر أبريل سنة ١٨٢١ التقى الجيش الغازي بجيش المقدوم مسلم في مدينة (بارة) ودارت بينهما معركة فاصلة سقطت من جرائها كردفان في يد الدفتردار[3]. وهكذا دخلت البلاد منذ اللحظة الأولى تحت السيادة العثمانية اسميا، كما صار الباشا المصري يقوم بأعباء الحكم فيها على أنها ملحقات تابعة لباشويته أو ولاية تحت السيادة العثمانية، وتأكيداً لهذه السيادة الأسمية أصدر الباب العالي أمراً إلى محمد علي بتعيين ابنه إسماعيل حاكماً على سنار في يوليو سنة ١٨٢٢.[4]

وبنهاية دولة الفونج الإسلامية انفتح الباب على مصراعيه أمام النشاط الكنسي.

يقول ج. سبنسر ترمنجهام سكرتير مجلس الارساليات في السودان في مؤلفه المسيحية في مواجهة الإسلام في السودان: (إن المسيحية افتقدت صلتها بالسودان في غضون

---

(١) انظر محمد علي في السودان ص ٢٥، وتاريخ السودان الحديث ص ٢٤

(٢) انظر محمد علي في السودان ص ٢٤

(٣) انظر تاريخ السودان الحديث ص ٣٦

(٤) انظر ــــــــــ، مصر والسودان، الوضع التاريخي للمسألة ص ٥

حكم الفونج فى القرن السادس عشر الميلادى وحتى الفتح المصرى ،ذلك الفتح الذى فتح السودان لعهد من الاستغلال الذى لا نظير له ،مهد لأول عمل بطولى تبشيرى ولو كان سابقا لأوانه)[1]

دوافع الغزو المصرى للسودان :

اهتمت أوربا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر اهتماما كبيرا بالقارة الافريقية ،وعلقت عليها آمل مستقبلها الصناعى والتجارى ،وأيقنت أن أهدافها لا تتحقق إلاّ بمعرفة مجاهل هذه البلاد ،ولذا شجعت الرحلات الاستكشافية ، وتكونت لذلك جمعية من مشاهير السياسة والعلم والصناعة ودعاة الانسانية ،وكانت كل طبقة تريد أن تحقق أطماعها على حساب الاخرى ،واختاروا لهذه الجمعية عنوانا يخفى هذه المطامع ولا يثير الانتباه وهو (مشروع دراسة جغرافية أفريقيا)[2] وبالاضافة الى ذلك كانت سنار فى السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر والأولى من الثامن عشر ملتقى طرق للمبشرين والسفراء والمبعوثين لأغراض سياسية ، الذاهبين إلى الأحباش الكاثوليك تحت إشراف قنصل فرنسا "دى ميليت " فى القاهرة ،وكان هذا القنصل يسعى لتنفيذ المشروع السياسى الفرنسى ،وهو وضع الحبشة تحت الحماية الفرنسية ومعاونتها حربيا ضد سنار، وضد موانى الاتراك فى مصوع وسواكن ،وهو مشروع استعمارى جاء مبكراً فى ذلك الوقت ،ولكن بمقتل " دى رول " سفير فرنسا لدى الحبشة فى سنار ،والذى كان يسعى لتنفيذ المشروع انهارت مطامع "دى ميليت " كممثل لحكومته.[3] فعرفت أهمية السودان التجارية عن طريق هؤلاء والرحالة الأوروبين أمثال جاك فرانسو أبونسيه ١٦٩٨ / ١٦٩٩[4] ، وكرمب البافارى ١٧٠١ / ١٧٠٢[5] ودى سوار دى رول ،وجيمس بروس الاسكتلندى والرحالة السويسرى بركهارت ١٨١٣/١٨١٥ الذين

---

(1) The Christian Approach to Islam in the Sudan P.1 Oxford University Press London 1948

(٢) انظر خضر مصطفى التبشيروالاستعمارفى نيجرياص٣٩ ،رسالة ماجستير مخطوطة بمكتبة جامعة ام القرى .

(٣) د . مكى شبيكة ،السودان عبر القرون ص٨٢

(٤) نفس المصدر ص ٧٤

(٥) نفس المصدر ص ٧٧

زاروا السودان في هذين القرنين وتحدثوا عن إمكاناته الاقتصادية ووفرة منتجاته كالصمغ وسن الفيل وجلود المواشي[1] وأطلعوا قناصل دولهم على هذه المنتجات فذكر قناصل الدول كل هذا في تقاريرهم التي بعثوها عن السودان ، ولا شك أن والي مصر قد عرف أهمية السودان التجارية من محادثاته مع هؤلاء القناصل ومقابلاته لرجال القوافل[2] ، ففكر في غزو السودان متخذاً من الدين مدخلا لتحقيق أطماعه ،لعلمه أن الدين خير وسيلة لكسب عواطف السودانيين فحرص منذ الوهلة الأولى أن يصحب الجيش الغازي نخبة من علماء مصر ، منهم القاضي محمد الأسيوطي ، والسيد أحمد البقلي ، والشيخ السلاوي المغربي المالكي ، ووهب لكل منهم خلعة سنية ٥٠ كيسا ، وأوصاهم أن يحثوا أهل السودان على الطاعة بلا حرب بحجة أنهم مسلمون ،وأن الخضوع لجلالة السلطان أمير المؤمنين وخليفة رسول المسلمين ، واجب ديني ، واستصدر فتوى شرعية له في فتح السودان ،إذ كان الإسلام ينشر الويته على ربوعه ولا يبيح الشرع الإسلامي حرب أهله أوسبيهم ، واسترقاقهم بغير سبب ،وربما رجا بهذه الفتوى أن يؤثر على نفوس السودانيين فيسلموا له طائعين مختارين[3] وإمعانا في ستر دوافعه شجع الطرق الصوفية وأجرى على مشائخها الخلع السنية .

أما الأسباب التي دفعت محمد علي لغزو السودان فكثيرة منها :

أولا : طموحه في أن يجعل من مصر دولة ذات عزة ومنعة ولا بد لتحقيق هذا من إنشاء جيش قوي يرد عدوان المعتدين ويخيب آمال الطامعين .

فبدأ يخطط المشاريع في جميع المجالات الزراعية والصناعية والعمرانية والحربية ، ومما لا شك فيه أن مثل هذه المشاريع لا تتحقق إلا إذا توفر لها المال والرجال ،وبما أن

---

(1) الاستاذ ضرار صالح ضرار ،تاريخ السودان الحديث ص ١٣/١٤ ط ثالثة سنة ١٩٧٥ نشر الدار السودانية مكتب الخرطوم

(2) انظر محمد علي في السودان ص ٢٧

(3) انظر الثقافة العربية في السودان ص ١٠٤/١٠٥

المنتجات المصرية وحدها لا تحقق ما يصبو إليه محمد على كان لابد من إيجاد مصدر جديد لتمويلها لذا كان البحث عن المعادن هو ثاني الأسباب التي دفعته إلى غزو السودان، خاصة أنه نمى إلى علمه أن السودان غني بمعادنه الوفيرة وخيراته الكثيرة.

وتتضح أهمية البحث عن المعادن لدى الوالي من رسالته التي بعث بها إلى الدفتردار حاثا له على تشمير ساعد الجد والحمية لتحقيق مطلوبه إذ يقول: (... فأعز مطلوبنا أن تبذلوا بعد اطلاعكم أنتم أيضا على هذا الشأن ما تقتضيه غيرتكم أنتم أيضا في أن تتحققوا من الآن وتستوثقوا من المحال التي يوجد فيها جوهر هذا المعدن[1] المذكور قويا وبمقادير وافية مباركة وأن تدبروا وتهيئوا الأسباب اللازمة التي تستوجبها سهولة استخراجه وصوغه، وبذلك تشمرون عن ساق الجد والحمية عند وصول الأسطوات المذكورين إليكم، وألا تدخروا وسعا في معرفة المحال التي يؤمل وجود سائر المعادن الأخرى أيضا والتحري عنها، واستكشافها، ولا في أمر إعلامنا بما حصلتم عليه من العلم بشأنها.[2]

وسبب ثالث هو القضاء على المماليك الذين لجأوا إلى السودان.

أما السبب الأول والمهم فهو جلب الرقيق كما بدا ذلك واضحا في كتابات الباشا لعماله حيث يقول في رسالة لابنه إسماعيل: (.. المقصود الأصلي من هذه التكلفات الكثيرة والمتاعب الشاقة ليس جمع المال كما كتبنا إليكم ذلك مرة بعد أخرى بل الحصول على عدد كبير من العبيد الذين يصلحون لأعمالنا ويجدرون بقضاء مصالحنا)[3]

ويقول لابنه ابراهيم: (وجلب السودانيين هو غاية مطلوبنا المراد ونتيجة المقصود مهما كانت الصورة التي يجلبون بها من أوطانهم)[4]

---

(١) يريد الحديد

(٢) محمد على في السودان ص ٢٦/ ٢٧

(٣) محمد على في السودان ص ٢٥

(٤) المصدر نفسه والصفحة

ويقول : (.. إن غرضنا الوحيد من انتداب نجلنا إسماعيل باشا إلى ديار السودان البعيدة وإيفاد ولدنا الدفتردار إلى بلاد كردفان بهذه الاستعدادات والتكلفات الكثيرة بسواد من الجنود ومزودين بكثير من المهمات هو الاهتداء إلى طريق جلب هؤلاء العبيد المطلوبين لدينا كما أن المقصود من إرسالهم إلى دنقلا ، وإرسال محو بك إلى بربر هو رغبتنا في العبيد)[1] لذلك كان هدف ولاة محمد على الأول هو تنفيذ رغبته ،فعندما استولى إسماعيل على سنار أرسل سرية قوية إلى جبل تابى قرب سنار بقيادة قوجة أحمد أغا عادت بألف وستمئة من الزنوج أرسلها إلى مصر مع سليم أغا، وبعد هزيمة المقدوم مسلم استولى الدفتردار منه على ألف ومئتى عبد وجارية أرسل منهم ثمانمئة إلى دنقلا ليرسلوا إلى مصر.

ولما كان محمد على حريصا على جلب العبيد بكثرة من دارفور كحرصه على جلبهم من اقليمى سنار وكردفان لم يستطع الانتظار إلى أن يتم فتح ذلك الاقليم ،ويدخل في حظيرة حكومته ، بل كان عليه أن يتخذ كافة الوسائل الممكنة لتحقيق ذلك الغرض،لذلك حاول منذ أوائل عهده محاولة جادة لعقد اتفاق مع سلطان دارفور بخصوص هذا الغرض.[2] ولم يكتف بالاتصالات الرسمية مع سلطان دارفور بل إنه عمد إلى شراء العبيد المستوردين من دارفور من النخاسين الآتين من تلك الجهات. ومنذ بداية الأمر أصدر أوامر واضحة وصريحة إلى الدفتردار بعدم السماح لأولئك التجار بتصدير العبيد الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشر والعشرين على أن يقوم بشرائهم منهم نقدا أو مبادلة بالجوارى.[3]

ولقد أنشأ محمد على معسكرا في أسوان لتدريبهم ، واهتم بأمر سلامتهم اهتماما

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٦
(٢) المصدر نفسه ص ٤٧
(٣) المصدر نفسه ص ٤٨

بالفا ،وما أن وصلته الأنباء بهلاك أعداد كبيرة منهم في الطريق حتى أصدر توجيهاته باتخاذ كافة الوسائل لضمان سلامة وصولهم ،واستشار أعضاء المجلس في الوصول إلى أحسن الطرق المؤدية إلى هذه الغاية .

وعندما علم أن تغيير الجو أدى إلى هلاك بعض العبيد من سكان الجبال ،أصدر أوامره للمسئولين بالسودان باستبدال سكان السهول بسكان الجبال لأنهم أكثر تأقلما على جو مصر ،أو إبقائهم عندهم مدة من الزمن حتى يتأقلموا على الطقس الجديد وبعد ذلك يرسلونهم إلى مصر .(1)

وعندما اشتد خطر الكبابيش على عبيد الباشا وقويت غاراتهم على القوافل حاول محمد على استمالة هذه القبيلة فأرسل إلى شيخها (سالم) رسالة أعطاه فيها الأمان وأمر الدفتردار بالتودد إليه ليكسبه إلى جانب الحكومة .

وبجانب هذه الوسائل السلمية التي اتخذها لصد غارات العصابات واللصوص وقطاع الطرق رأى الباشا ضرورة تكوين قوة مسلحة لحراسة العبيد أثناء سفرهم إلى مصر ، فأمر عامله على بربر بإعداد مئتي نفر من هجانة العبابدة وإرسالهم إلى الدفتردار لاستخدامهم في حراسة العبيد المرسلين من كردفان لمصر .(2)

وبلغت فترة حكم محمد على للسودان تسعة وعشرين عاما وعلى الرغم من أنه كان في خلالها يهتم بكل صغيرة وكبيرة في البلاد ،وأزال الفروق القبلية ، وأوقف الحروب الأهلية إلا أن الدفتردار وحده أهلك في عامين أضعاف ما أهلكته الحروب الأهلية وعلى الرغم من أنه وحد البلاد إداريا إلا أنها كانت إدارة متعسفة شردت آلاف العائلات من

---

(1) المصدر السابق ص٤٨٪٤٩

(2) المصدر السابق ص٤٨/٤٩

مساكنهم ومزارعهم فهجرت الأراضي الزراعية وشحت الموارد الغذائية في البلاد بأسرها حتى الرعاة هموا بالهجرة خارج البلاد عند ما أمر الباشا بجلب ٢٠٠٠٠ رأس من الغنم دفعة واحدة ،ولكن تصرف حكمدار السودان (خورشيد) حال دون ذلك. ولقد ساءت الأحوال في الشمال والجنوب على السواء.(١)

ففي الجنوب ثارت قبيلة الدينكا سنة ١٨٢٧ والشلك سنة ١٨٣٠ وفي الشمال تعطلت أكثر السواقي والأراضي الزراعية بصفة عامة من جراء الضرائب ،وبدأ التمرد والامتعاض فعزم الباشا على زيارة السودان ليقف على الأمر بنفسه وذلك في شتاء ١٨٣٨-١٨٣٩ والتقى بكثير من زعماء البلاد ، وأظهر حرصه على احترام معتقداتهم الدينية ، وبجل فقهاءهم وأجرى عليهم المكافآت المالية واحترم ثقافتهم الدينية ، فلم يشأ أن يحدث فيها تحويرا أو أن يدخل عليها تغييرا بل طفق يمنح الهبات لتعمير دور العلم القائمة في البلاد آنذاك فاطمأن الأهالي إلى رغبة الحكومة فأكثروا من التماس المنح والعطايا لترميم المساجد القديمة وبناء المساجد الجديدة في عدد من المدن الكبرى ، وحصل كثير من الفقهاء على رواتب ثابتة من الحكومة كما شجع السودانيين على المجئ إلى الأزهر ووافق على إنشاء رواق السنارية(٢)

توسع الباشا في أفريقيا يقلق الانجليز :

بعد أن حكم محمد على السودان ،وضمه اسميا لأملاك الخلافة الإسلامية ،شرع في تنفيذ خطته الرامية إلى إنشاء دولة مترامية الأطراف حيث شرع يفكر في ضم الحبشة إلى ممتلكاته ، ولكن هذه المحاولة أثارت مخاوف الإنجليز وقلقهم ،ولذلك بذلت انجلترا قصارى جهدها عن طريق قنصلها في مصر وكان إذاك (هنرى سولت) حتى يكف محمد على عن

---

(١) انظر تاريخ السودان الحديث ص ٥١

(٢) انظر مصر والسودان ص ١٠ / ١١

تسيير الحملة إلى الحبشة ذلك البلد المسيحي الذى ما زال متمسكا بالمسيحية ، والذى لا يمكن أن تسلم أوربا وانجلترا خاصة بغزوه ،[١] فعدل عن ذلك وأمر حكمداره بعدم التوسع جنوبا إلى الحبشة[٢] بل كان طموح محمد على أكبر من ذلك عندما أرسل ابنه إبراهيم على جيش احتل سوريا ، وأراد أن يجعلها منفذا للاستيلاء على الدولة كلها وزحفت جيوشه نحو آسيا الصغرى فهزمت الاتراك فى قونية وتقدمت غربا حتى بروسيا ، وبذلك أصبحت القسطنطينية نفسها فى خطر عظيم ،[٣] فتدخلت الدول الأوروبية لوقف تقدم الجيوش المصرية عندما شعرت بالخطر يهدد سلامة أوروبا نفسها وأجبرت الباشا على الانسحاب وقبول الصلح الذى عقد فى كوتاهيه سنة ١٨٣٣ والذى رضى بمقتضاه الوالى المصرى أن يكون سلطانا على سوريا والحجاز وأدرنة وكريت بالإضافة إلى مصر ، ويتنازل للباب العالى عن الأناضول.[٤] وكانت هذه بداية نهاية الخلافة الإسلامية.

الفساد الإدارى :

بلغت الحالة فى السودان حدا بعيدا من سوء الإدارة[٥] وزيادة على ذلك أراد الباب العالى أن يطبق التنظيمات الخيرية التى صدرت فى نوفمبر سنة ١٨٣٩ تطبيقا كاملا حتى ينقل بفضل ذلك (مصر وتوابعها) من ولاية ذات نظام وراثى وحكومة داخلية مستقلة إلى مجرد مقاطعة من مقاطعات الدولة العثمانية .

ولقد أيدت فرنسا ، وروسيا ، والنمسا تركيا فى سياستها فتعقدت الأمور ، ولم يستطع عباس الخروج من هذا المأزق والمحافظة على الوضع الذى كفلته الفرمانات لمصر إلاّ بمعاونة انجلترا له ، ومن أجل تفاهمه معها نجحت الدبلوماسية الإنجليزية فى بطرسبرج

---

(١) انظر مصر والسودان ص ٢٥
(٢) انظر تاريخ السودان الحديث ص ٥٨
(٣) انظر محمد على فى السودان ص ١٠٩
(٤) المصدر السابق والصفحة
(٥) انظر محمد على فى السودان ١٠٩

والقسطنطينية خصوصا في استمالة الدولة لتأييد عباس في موقفه فتمكن بذلك من المحافظة على مستند الولاية المصرية فضلا عن تقوية حكومته فيما بعد حتى صار لا يربطه بالباب العالي في آخر أيامه سوى رابطة السيادة الاسمية.(١)

وكانت انجلترا أكثر الدول اهتماما بتحديد دائرة هذه السيادة لأنها كانت تخشى من أن يبسط المصريون سيادتهم(٢) على القارة البكر تحت حماية الباب العالي ولذا استعملوا دبلوماسيتهم لاقصائها أولا ولابتلاعها أخيرا ،وكانت الحكومة المصرية تحتكر تجارة المنتجات السودانية (الصمغ والسنا ومنتجات سنار) كما كانت تحتكر الملاحة في النيل الأبيض الذي كان يعتبر من أكبر منافذ اصطياد الرقيق عند الأوربيين ولذا ضيق الخناق على الخديوي لإلغاء هذا الاحتكار تحت ضغط قناصل دول أوربا - فألغى عباس هذا الاحتكار ضاربا بسياسة حكمداريه عرض الحائط فانتهى الأمر باستدعاء الحكمدار عبد اللطيف من السودان وكان من جراء ذلك أن نشطت تجارة الرقيق التي مارسها الأوربيون تحت ستار صيد الفيلة والحصول على العاج ،واستطاعت هذه الشركات أن تحصل من حكومة الخرطوم الضعيفة على حقوق الاتجار في مساحات شاسعة في بحر الغزال ،وجنوب دارفور وكردفان ،وكذلك مناطق النيل العليا ،وبخاصة ما وراء غندكرو ،فكانت هذه الجهات عند وفاة سعيد خارجة تماما عن نفوذ الحكومة.(٣)

ولقد دمر هؤلاء الأوربيون قرى بأسرها ، واستلبوا أموالها وأسروا رجالها ونساءها وأطفالها ،وزاد الطين بلة ضعف رقابة السلطة المركزية مما دعا الإداريين أن يفرضوا الضرائب الباهظة التي أضحت عبئا ثقيلا على كاهل الأهالي فجأروا بالشكوى من شدة وطأتها ولا مجيب.(٤)

---

(١) المصدر السابق ص ٣٣.
(٢) المصدر السابق ص ٤٧ .
(٣) انظر مصر والسودان ص ٢٧
(٤) انظر المصدر السابق ص٣٢ / ٣٣

المبحث الثالث

بداية النشاط التبشيرى المدعوم بالسلطة

بعد وفاة سعيد ووصول اسماعيل للولاية (١٢٨١م / ١٨٦٣م) خرج الأمر من مجرد التفكير فى أنجع الوسائل لتخفيف ويلات الإنسانية إلى ضرورة اتخاذ علاج سريع وحاسم للرق والنخاسة لأن تجار الرقيق استطاعوا فى عهد سعيد - كما رأينا - أن ينتزعوا من حكومة الخرطوم السيطرة على جهات برمتها حتى تقلص ظل الحكومة وبات سلطانها مهددا بالزوال إذا ترك النخاسون يقوى ساعدهم فى المناطق التى أنشأوا بها حظائرهم ومراكزهم المسلحة ولذا كان إسماعيل أمام أمرين :

إما أن يترك النخاسين يعيثون فى الأرض فسادا ، وهذا ما يأباه الضمير الحى .

وأما أن يرسل الجيوش لتأديبهم وفتح أراض جديدة (١) . وبالفعل استطاع بسط نفوذه على سواحل البحر الأحمر إلى مضيق عدن مما أثار مخاوف الإنجليز ، فأرسلوا حملة إلى الحبشة بحجة تأديب ملكها "ثيودورس" على إيداعه قنصل بريطانيا السجن فى بلاده مع أعضاء البعثة الذين قدموا إليه لا للوساطة فى أمر خلاصه فحسب ، بل كانوا يريدون بذلك - كما نمى إلى علم الخديوى - احتلال بعض أجزاء من الحبشة ، ويهدفون إلى الاستيلاء على جزيرة مصوع على أن يعقب ذلك احتلال مصر ذاتها ، ولكنهم أخيرا أكدوا للخديوى أنهم لا يريدون احتلال الحبشة ، وأيدوا ذلك بسحب الحملة من أجله (٢) .

ولقد بذل الأوربيون جهدهم السياسى فى إيجاد نافذة ينفذون منها إلى إفريقيا عامة والسودان بخاصة فوجدوا ضالتهم فى فكرة محاربة الرق وتخفيف ويلات الإنسانية تتزعمهم فى ذلك بريطانيا التى تناست أنها أعرق الدول فى تجارة الرقيق ، بل كان الرقيق

---

(١) المصدر السابق ص ٣٧ / ٣٨

(٢) المصدر السابق ص ٤١ / ٤٢ .

أهم سلعة لها مع أمريكا الأسبانية إذ أنها بعد عقد معاهدة جونزخت سنة ١٧١٣م احتفظت لنفسها بالحق فى احتكار تجارة الرقيق للممتلكات الإنشائية فى أمريكا ،واجبرت فرنسا وأسبانيا على إعطائها احتكار تلك التجارة التى أعطتها الحق فى تصدير ٤٨٠٠ زنجى فى السنة وذلك لفترة ثلاثين عاما ،فكان جملة ما أصدرته الشركات الأنجليزية بين ١٦٨٠ - ١٧٨٦ ثلاثين ومائة ألف مليونى زنجى (٢،١٣٠،٠٠٠) واستمرت الأعداد تتصاعد عاما بعد عام. (١)

ورغم كل هذا اتخذ الغرب من دعوى محاربة الرق وسيلة لتحقيق هدفه الحقيقى وهو إيقاف المد الإسلامى الكاسح الذى هدد مصالحه فى القارة الخضراء ،التى علق عليها البابا جريجورى السادس عشر - رأس الكنيسة الكاثوليكية - آمالا كبيرة حينما أصدر أمرا بابويا سنة ١٨٤٦ باتخاذ افريقيا الوسطى مقرا للنيابة البابوية ،الأمر الذى جعل البعثة التبشيرية المرشحة تؤمل فى هجر الزنوج دياناتهم بدخولهم فى المسيحية وبالفعل وصل الفوج الأول من القساوسة النمساويين الكاثوليك الخرطوم فى فبراير سنة ١٨٤٨ ،ورغم أن الهدف الرئيسى للبعثة كما زعمت هو أن يدين الوثنيون بالمسيحية إلا أن المبشرين أنكروا قرار الحكومة المصرية بمنع العمل التبشيرى بين المسلمين واستطاعوا بالفعل الحصول على أرض فى الخرطوم ليبتنوا فيها مركزا تبشيريا (٢) وساعدهم على ذلك ضعف الخديوى عباس الذى تربع على عرش الخديوية المصرية فى نفس العام. (٣) فاستخف البابا بندائه هذا المبشرين فنفروا زرافات ووحدانا إلى أفريقيا عامة والسودان بوجه خاص فوصلوا إلى جنوب السودان ، وأسسوا محطة غندكرو سنة ١٨٥١ ثم تلتها محطة الصليب المقدس سنة ١٨٥٥ فى قرية انجوين ،إلا أن هاتين المحطتين هجرتا تماما فى عام ١٨٦٠ نتيجة

---

(١) انظر تاريخ السودان الحديث ص ٧٦

(٢) The Christian Approach to Islam in the Sudan P.2

(٣) انظر محمد على فى السودان ص ١٠٩

لرسم العبور الباهظ الذى كان يؤخذ للإصلاح الزراعى من أجل وجود المبشرين .

وفى سنة ١٨٦١ تولى الرهبان الفرنسيسكانيون أمر الكهانة فاستقر فريق من ثلاثين منهم بالقرب من (كاكا) على النيل الأبيض فمات منهم أربعة عشر فى عامين.[1]

ولذلك نقلت العناية التبشيرية إلى كلية فيرونا سنة ١٨٦٧ وعين (دانيال كمبونى)* نائب قسيس لافريقيا الوسطى

عهد إسماعيل يفتح الباب واسعا للتنصير:

وجد الغربيون ضالتهم فى عهد الخديوى إسماعيل ١٢٨١هـ ١٨٦٣م حيث شهد عهده تدفق الأجانب على مصر والسودان وتغلغلهم فى الإدارات المختلفة وكان معظمهم من المبشرين الحاقدين على الإسلام والمسلمين ، ورائدهم المبشر صموئيل بيكر[2] المستكشف الانجليزى الذى وقع عليه اختيار الخديوى لأنه وصل إلى منابع النيل فى رحلاته الاستكشافية وكان الخديوى يؤمل أن ينجح بيكر فى مهمته ليؤمن لمصر كل مجرى النيل ،ويأمن هو نقد الأوربيين بشأن تجارة الرقيق .

---

(١)

* دانيال لويجى كمبونى : ولد فى بلدة (Limone) بايطاليا سنة ١٨٣١ وتخرج فى معهد مازا سنة ١٨٤٩ ،وتعهد بوقف حياته للعمل التبشيرى بافريقيا وفى سنة ١٨٥٠ باشر دراسة اللاهوت ،وفى سنة ١٨٥٤ رسم كاهنا وفى سنة ١٨٥٧ توجه للخرطوم وفى سنة ١٨٥٩ رجع الى ايطاليا مع من بقى من المبشرين لأنه أصيب بالملاريا وبعد شفائه جاب أقطار اوربا لجمع المال وفى سنة ١٨٦٣ اتصل بمؤسسة كولونيا الخيرية يستمد منها العون لانجاح مهامه التبشيرية فى افريقيا عامة والسودان خاصة ، وفى سنة ١٨٦٤ عرض خطته التبشيرية على البابا بيوس التاسع والكاردينال بريابو الذى أوعز اليه بالقيام بجولة فى أوربا لجمع المال اللازم فزار للمرة الثانية كولونيا ، ولندن ،وباريس، والنمسا وفى سنة ١٨٦٧ أسس جمعيته الرسولية ، ثم أسس معهدا للافريقيين فى مصر وفى سنة ١٨٦٨ رجع مرة أخرى إلى دول اوربا مستزيدا العون لتحريك نشاطه وفى سنة ١٨٧٠ حضر المجمع المسكونى بالفاتيكان وتقدم بخطته (من أجل زنوج أفريقيا)وفى سنة ١٨٧١ رجع ليقوم برحلة إلى أوربا معرفا بمشاريعه وفى سنة ١٨٧٢ أسس جمعية راهبات امهات السودان وفى سنة ١٨٧٣ يعود للخرطوم لينظم أعماله ويؤسس كنيسة بربر ثم عاد إلى إيطاليا سنة ١٨٧٩ ثم رجع السودان سنة ١٨٨١ وتفقد أعماله فى الابيض والدلنج وجبال النوبة ورجع الخرطوم ليلقى حتفه سنة ١٨٨١

(٢) انظر على محمد بركات ، السياسة البريطانية واسترداد السودان ، ص ٩

فتمت الاتصالات بين الباشا وبيكر فى عام ١٨٦٩م/ ١٢٨٧ هـ ووضع بيكر شروط الخدمة مطالبا بمرتب سنوى قدره عشرة آلاف جنيه مصرى وأن تمتد خدمته لمدة عامين وبالرغم من أن المرتب الذى طلبه بيكر كان كبيرًا جدًا ، إلا أن إسماعيل رضى بدفعه نظير تنفيذ مشاريعه فى خط الاستواء ، وخاض بيكر المعارك الدامية ولكن نجاحه فى تلك المناطق كان ضئيلا إذا قورن براتبه السنوى ثم عاد إلى وطنه مخلفا وراءه استياءً عاماً من المواطنين بسبب جبروته وسطوته[1] ، ثم خلفه فى نفس المهمة المبشر النصرانى شارلس جورج غردون ، فهذان المسيحيان المتعصبان (بيكر- وغردون) هما اللذان أسسا العمل النصرانى الحالى فى السودان الذى تمخضت عنه أعضل مشكلة اقليمية فى أفريقيا وهى مشكلة جنوب السودان التى سوف يتطرق البحث إليها إن شاء الله ، وهى التى اكتوى بنارها السودان شمالا وجنوبا ومازال .

ورغم أن بيكر يعد أقل أثراً من غردون إلا أنه صاحب أول صيحة استنفارية للغرب الصليبى - بعد البابا - ليقوم بتحويل هذه البلاد إلى بلاد مسيحية حيث نادى مستصرخا الحكومة البريطانية بقوله : (إن لم تتدخل بريطانيا فورا فستصبح هذه الأراضى المبشرة بالإمكانيات الضخمة قاعا صفصفا ، وتضيع قبل أن تمتد إليها يد الحضارة المسيحية)[2]

ويبدو أن المهمة الحقيقية التى انتدب إليها بيكر تحت ستار محاربة تجارة الرقيق هى رعاية المبشرين الذين يعملون فى جنوب السودان فأصبحوا شغله الشاغل ولذا كتب عن جهدهم قائلا : (إن عمل المبشر عسر ويكاد يكون مستحيلاً ، فالوفد النمساوى قد أخفق ومقارهم هجرت وصار جهدهم الدينى ميئوسا من نجاحه ، والآباء الأتقياء ماتوا على الأرض المجدبة إن الوقت لمشروع تبشيرى فى تلك البقاع لم يحن بعد ، ولكن فى الوقت ذاته

---

(١) انظر تاريخ السودان الحديث ص ٧٧

(٢) رائد م عصمت حسن زلفو ، كررى ، ص ٢٩ ، مطبعة التمدن المحدودة ، الطبعة الثانية ١٩٧٨ ،

يستطيع الرجل العاقل أن يقدم نفعا ببقائه بين المواطنين.(١)

غـردون :

بعد نهاية فترة بيكر بدأ اسماعيل فى البحث عن الرجل المناسب الذى يخلف بيكر على العمل فى خط الاستواء وعن طريق نوبار باشا الأرمنى - الذى اتخذته انجلترا أذناً لها وثغرة تنفذ بها إلى شئون مصر - عثر على الضابط الانجليزى شارلس جورج غردون حيث سافر نوبار إلى القسطنطينية وهناك التقى بهذا الضابط الذى كان يعرض خدماته على الدول ، هنا وهناك متخذاً من ذلك ذريعة لتحقيق مآرب بلاده الاستعمارية ، فوافق فوراً على العمل فى السودان وأجاد الخداع والتلون عندما رفض المرتب البالغ عشرة آلاف جنيه الذى كان يتقاضاه سلفه بيكر ، مكتفيا بألفى جنيه سنويا امعانا فى ستر هويته التبشيرية عن الحكومة المصرية التى كان يرأسها آنذاك نوبار نفسه.(٢)

---

(١) The Christian Approach to Islam in the Sudan P.2

(٢) د . ابراهيم احمد العدوى ، يقظة السودان ، هامش ص ٤ طبعة ونشر الانجلو المصرية سنة ١٩٧٩

المبحث الرابع

سياسة غردون التبشيرية

يعتبر غردون من أكثر المبشرين تعصبا ضد الإسلام ولذا قبل العمل فى مناطق الشدة دون مبالغة فى الأجرحيث اكتفى بخمس ما كان يتقاضاه بيكر، وبذا نال ثقة الحكومة الخديوية فأملى عليها شروطه فأذعنت لها، وأعلنت أمر تعيينه فى الصحف البريطانية حيث أبرقت الديلى تلغراف من القاهرة فى ٢٧ من يناير سنة ١٨٧٤م بتعيين الكولونيل غردون حاكما على خط الاستواء، ومهدت انجلترا كما سبق أمر التدخل فى شئون السودان واقنعت الخديوى بتعيين غردون فى وظيفة سامية، فأصدر أمره فى أواخر سنة ١٢٩٠هـ (يناير ١٨٧٤م) بانتدابه لمأمورية سامية فى أعالى النيل خلفا للسير صموئيل بيكر مأمور خط الاستواء الذى كان يخضع لحكمدارية عموم السودان، بيد أن غردون منح الاستقلال فى أعماله، كما منح مائة ألف جنيه من الخزينة المصرية نفقة لحملته الابتدائية، وكان غردون قد حضر إلى مصر فى طريقه إلى السودان فتلقى أوامر الخديوى التى اعتبرها شرحا لما تلقاه من وزارة خارجية بلاده.[1]

ويقال: إن الخديوى لم يكن مع ذلك مرتاحا لتعيينه فى مأمورية إلى السودان خشية أن يكون من ورائه تنفيذ مقاصد انجلترا التى كانت لا تخفى عليه فعينه وهو كاره[2]

وعندما وصل غردون الخرطوم استقبله حكمدارها إسماعيل باشا أيوب استقبالاً حافلاً حيث استعرض له فرقة من العساكر لأداء تحية القدوم وأطلقت المدافع فأكبر الناس شأن هذا القادم وعلموا أنه ليس كبقية حكام الأقاليم.[3]

وبدأ (غردون) يسوس الأهالى بسياسة لينة ليمحو آثار سياسة العنف التى سلكها «بيكر»، فأمر بإحضار رؤساء الأهالى فى تلك الجهة فأحضروا وقابلهم مقابلة حسنة ووزع عليهم الهدايا

---

(١) ابراهيم فوزى باشا، السودان بين يدى غردون وكتشنر جـ١، ص١، ط سنة ١٣١٩

(٢) (٣) نفس المصدر ص ٢

استمالة لقلوبهم ففرحوا وامتنوا وأظهروا تمام الإخلاص للحكومة.[1]

وهذا هو نهج المبشرين الناجحين فى عملهم لأن الإحسان طريق لامتلاك أفئدة الناس، وقديما قال الشاعر :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم * فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

غردون يضع أساس مشكلة الجنوب :

لم يقف غردون عند حد العمل للتبشير وحماية المبشرين فحسب بل عمل جاهدا لفصل جنوب القطر عن شماله ليوقف مد الإسلام المتدفق إلى أفريقيا ويفتح الباب أمام التبشير الكنسى بحجة محاربة تجارة الرقيق ويظهر ذلك بوضوح مما نشرته جريدة الجوائب فى عددها رقم ٦٩٦ بتاريخ ٢٧ ربيع الاول سنة ١٢٩١ هـ ان الكولونيل غردون الذى عينه الخديوى واليا على خط الاستواء خلفاً للسير صموئيل بيكر أرسل رقيما من الخرطوم بتاريخ ١٤ من مارس إلى حضرة سعادتلو خيرى باشا مهردار الجناب الخديوى قال :

ثم إنى بحسب أمر الخديوى أعلنت هذه الأوامر الآتية : بمقتضى ما فوض إلى الخديوى المعظم من إدارة حكومة البحيرات الكائنة بخط الاستواء أعلن :

أولا : أن التجارة فى العاج خاصة الحكومة.

ثانيا : إنه لا يسوغ لأحد أن يأتى إلى هذه النواحى من دون تذكرة من حاكم السودان العمومى ، وهذه التذكرة إنما يعمل بها بعد النظر فيها من حكومة غندكرو وغيرها .

ثالثا : إنه لا يسوغ لأحد أن يجمع رجالا مسلحين داخل هذه الجهات.

رابعا : جلب السلاح والبارود ممنوع

خامسا : إن كل من يخالف هذاه المرسوم يجرى عليه الجزاء بحسب القوانين العسكرية.[2]

---

(١) المصدر السابق ر الصفحة

(٢) المصدر السابق ص٥ /٦٠ وانظر ب.م. هولت، السودان والمهدية ص٣٩ ، ترجمة د. جميل عيد ، واحمد عبد الرحيم مصطفى ، دار الفكر العربى بدون تاريخ .

زيادة على هذه القوانين العسكرية الصارمة أنشأ غردون ديواناً خاصا بأعمال خط الاستواء منفصلا عن حكمدارية السودان ورتب له الكتاب والموظفين ،وأوجد له الأدوات اللازمة وسماه (ديوان خط الاستواء في الخرطوم) وعين له على أفندى سراج رئيسا فأصبح غردون بذلك أقوى سلطة من حكمدار عموم السودان لأنه مدعوم من الخديوى - الذى اعتقد أن هدف محاربة الرق لا يتحقق إلاّ على يد رجل أوربى - كما هو مدعوم من أوربا عامة وبريطانيا خاصة لتنفيذ سياستها الرامية لتوسيع نفوذها فى أفريقيا ،ولذا كان أول خطوة خطاها فى إدارة الاقليم هى إبعاد المسلمين وتقريب الأوربيين من أى جنس كانوا ، فكانت هيئة أركانه تضم أمريكيين وإيطاليا وفرنسيا وثلاثة من البريطانيين الذين أصبحوا فيما بعد خمسة.

أما الايطالى فهو (روموجسى) الذى تولى فيما بعد إدارة بحر الغزال بعد أن غدر بسليمان الزبير باشا الذى خلف أباه فى إدارة هذا الإقليم ، عندما سافر لمقابلة الخديوى بمصر.

كما أخذ غردون معه إلى الجنوب أوربيا آخر هو(شنيتزر)* الذى عرف باسم أمين باشا وأصبح مديرًا للاستوائية فى ١٨٧٨/ ١٨٨٩م وهكذا صحبت الحكم المصرى والإجراءات التى اتخذت ضد تجارة الرقيق زيادة عددية الموظفين الأوربيين(١) فأصبح الجنوب إقليما مغلقا أصابه الشلل تجارته واضطر معظم التجار إلى هجره(٢)، وتوافد

---

* شنيتزر: ألمانى الاصل ،أصبح مديرا للاستوائية من ١٨٧٨-١٨٨٩م ادعى اعتناق الاسلام وتسمى بالشيخ أمين وأكثر من الصلاة ،وتظاهر بأنه عالم نحرير على مذهب أبى حنيفة وأنه من كبار المتصوفة ، وصار يعطى الطريق لمن أراد أن يسلك طريقته وتمادى فى غيه وضلاله دون أن يفطن له أحد اذ ظل أمره مستترا إلى قيام المهدية فهرب(يقظة السودان ، ص ٤٤)

(١) . انظر المهدية فى السودان ص ٣٨

(٢) نفس المصدر ص ٣٩

عليه المبشرون الذين استقدمهم(غردون)للتبشير .

يقول جراهام: (وفى سنة ١٨٧٨م بعد وفاة سميث وأونيل كتب الجنرال غردون محافظ الاستوائية * الذى كان مكرما جداً لدى الدوائر الإنجليزية فى انجلترا ،وكان يشعر بالغم من وحشة هذا الاقليم ومتطلباته الجسيمة مدركاً أن الأمل الوحيد قد بقى فى المسيحية ،ولذا كتب إلى سكرتير جماعة الكنيسة التبشيرية معلنا الحماية والمعاونة لأى طائفة عابرة داخل السودان إلى إقليم (متيسا)

وأشار عليهم بوجود مناطق أفضل وأخصب بكثير وبدون عوائق ضارة وأشار عليهم بأن يبحثوا عن خطة أيسر إذا كان على جماعة الكنيسة التبشيرية أن تحقق الغرض الذى يقصده المسيحيون المخلصون المجردون من المجد الفارغ الملازم لرواد الكنيسة .

<u>وصف المبشر الذى يطلبه غردون :</u>

بعث غردون بالرسالة التالية إلى أخته - موضحا فيها رأيه فى نوعية المبشر الذى يستطيع أن يعمل لعيسى فى تلك المناطق الوخيمة ، والرسالة فى حد ذاتها تعبير صادق عما انطوى عليه غردون من إخلاص لنصرانيته . يقول غردون : (أين تجدين داعية ؟سأبين ما أعنى بالمصطلح ،ينبغى أن يكون الداعية الرجل الذى يغنى تماما من أجل الناس،والذى ليست له أواصر من أى جنس والذى يحن إلى الموت ما سر الله أن يأخذه ،والذى يطيق الوخامة القاسية لهذه المناطق ، والذى ينشد رسائل قليلة ،والذى يؤمن أن يموت مبعدا . والآن فالرجال الذين يقبلون هذه الوظيفة أقلاء جداً أقلاء جداً لكن نصف الحل لا يصلح ، ينبغى على الرجل أن يقلع عن كل شئ ليفعل أى شئ للمسيح ،ههنا نصف الحل وثلاثة أرباع الحل لا تفى بالحاجة ومع ذلك يا له من مجال)(1)

---

* لعل الكاتب خلط بين فترتى غردون فى السودان لان غردون أنهى أعماله كمحافظ للاستوائية سنة ١٨٧٦ وعين فى فبراير سنة ١٨٧٧ حاكما عما للسودان .

(1) The Christian Approach to Islam in the Sudan P.11

وبلغ نجاح غردون فى مهمته حدًّا أبعد من صموئيل بيكر لأنه استطاع أن يكسب ود تلك القبائل التى كان يهاجمها بيكر وخاصة قبائل (البارى) وذلك بمعاونة موظفيه الأوربيين من ألمان وأمركان وغيرهم[1] .

وأنهى غردون مدة عمله كحاكم على الاستوائية سنة ١٨٧٦م وعاد إلى بلاده عازما على ألاّ يعود للعمل فى السودان مرة ثانية ولم يدر ما يخبئه له القدر من أن السودان سيكون مثواه الأخير .

---

(١) انظر تاريخ السودان الحديث ص ٧٨

المبحث الخامس

الاسلام في الجنوب

على الرغم من الجهود النصرانية المكثفة والأوامر الإدارية الصارمة الموجهة إلى الإسلام، فقد بدأ يتسرب إلى الجنوب عن طريق إقليم بحر الغزال، وذلك بواسطة التجار المسلمين وفي مقدمتهم الزبير باشا رحمة[1] الذي دخل الجنوب كما يدخل التجار المسلمون الذين حملوا عبء الدعوة إلى الله سبحانه، ونشروا الإسلام في كثير من أرجاء المعمورة فدخل الزبير إلى الجنوب يحمل هم الدعوة أكثر مما يحمل هم التجارة، فبارك الله له في تجارته التي بز فيها الأقران، وطرق أراضي جديدة في الجنوب لم يطرقها غيره من تجار الشمال، وصاهر بعض سلاطين القبائل وعقد المعاهدات مع بعضهم كالسلطان (تكيما) مما أدى إلى دخول قبيلة هذا السلطان كلها في طاعته، فأصبح سيدا مهابا ذا قوة ومنعة، حيث كون قوات عسكرية خاصة من أبناء الجنوب الذين أسلموا على يديه وحملوا السلاح دفاعا عنه فغزا بهم إقليم بحر الغزال ودارت بينه وبين قبائل الإقليم الوثنية مناوشات انتهت بانتصاره عليهم، واتخذ من (ديم الزبير) عاصمة له، ونشر الدين واللغة العربية ففزع الغرب من حركته الجهادية الجريئة فسلط عليه إعلامه فوصمته الصحافة الغربية بأنه أكثر تجار الرقيق شهرة في أفريقيا.

وتأثر كثير من المؤرخين الذين درسوا التاريخ في مدارس التبشير، فصاروا أبواقا تردد مزاعم المبشرين والمستعمرين.

ولكن الزبير نفسه يتصدى لهذه الحملة وينفي هذه المزاعم في مذكراته التي كتبها بيده، فأثبت أنه لم يبع الرقيق وإنما اشترى ضحايا السلاطين ودربهم على حمل السلاح.

---

(١) يقول الزبير نفسه: (انا الزبير بن رحمة بن منصور بن علي بن محمد بن سليمان بن ناعم بن سليمان بن بكر بن شاهين بن جمع بن جموع بن غانم العباسي هاجر اجدادي العباسيون من بغداد بعد هجوم التتار عليها سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٨ فأتوا مصر فوجدوا فيها الفاطميين حكاما فلم يطيقوا الإقامة معهم فخرجوا إلى بلاد السودان) نعوم شقير، جـ٢، في تاريخ السودان القديم ٥٦٨

يقول الزبير: (وكان من عادة أهل تلك البلاد (النيام نيام)* أنهم يبيعون أهـــل الجنايات كالسارق والزاني في الأسواق ،ويذبحونهم ويبيعون لحومهم كالأبقار ، ويشتريهـا أهل تلك الجهات ليأكلوها ،فكلما رأيت ذلك أخذت أشترى من أجد فيه اللياقة لحمـل السلاح وأفديه من الذبح حتى بلغ ما اشتريته نحو الخمسمئة تقريبا وصرت أعلمهم حمـل الأسلحة النارية إلى أن عرفوا ذلك ،وسلحتهم جميعا من الأسلحة التي أحضرتها معي)[1]

ويروى جون بتريك الذي زار الجنوب سنة ١٨٦٥م أن من عادة قبائل النيام نيـام قتل السارق والزاني[2] وفي هذا تأييد لما ذهب إليه الزبير من أن الوسيلة التي كون بهـا جيشه الذي غزا به إقليم بحر الغزال هي شراء هؤلاء الجناة وتهذيبهم وتدريبهم بعـد الإسلام على حمل السلاح ذوداً عنه.

حكومـة الزبـير :

أسس الزبير حكومة إسلامية ترأسها بنفسه وحكم المنطقة حكما إسلامياً وكون مجلسـا للشورى من بعض العلماء لاقرار أحكامه .

يقول الزبير (وحكمت البلاد بالكتاب والسنةوشرعت في تحديثها وعمارتها وتوسيـع نطاق التجارة فيها وكونت مجلسا للشورى من اثنى عشر عالما ،وحلفتهم على القـرآن أنهم إذا رأوا في أحكامي اعوجاجا عن الشرع ينبهوني)[3]

ومن الجدير بالذكر أن حكومة الزبير هي أول حكومة إسلامية تقام في الجنوب[4] حيـث صارت ملجأ للتجار المسلمين الذين شردتهم الإدارة الحكومية شريكة المبشرين ،فأحسـن الزبير استقبالهم وكون منهم حلفا قويا واجه به أعداءه واقتدى بعضهم به فتزوجوا من بنات

(*) يعني قبائل الزاندى

(١) الاستاذ حسن مكي ، السياسة التعليمية بالجنوب ،ص ٥ ،بحث مكتوب بالرونيو

(٢) انظر المصدر نفسه والصفحة

(٣) المصدر نفسه ص ٦ وانظر في تاريخ السودان القديم لنعوم شقير ص٥٧٧

(٤) انظر تاريخ السودان الحديث ص ٨٠

الملوك والسلاطين وأصبحوا الطبقة الراقية التي قلدها أهل الاقليم في عاداتها من ملبس ومأكل ، وفي عباداتها ومعتقداتها ، وبهم خضع الإقليم للزبير إداريا وتجاريا وعقد التجار له لواء الزعامة .

وكان طبيعيا أن يصطدم الزبير بحملات التبشير المنبثة في الجنوب والتي يدعمها الإداريون الإنجليز ماديا ومعنويا لأنهم أحسوا بالخطر الذي أفزعهم زمنا طويلا يقترب ، وأن الإسلام إذا ترك في هذه المنطقة ستذهب جهودهم أدراج الرياح ، وبالفعل أصبح الجزء الغربي من هذا الاقليم شبيها بشمال القطر المسلم .

يقول ترمنجهام في مؤلفه (مواجهة المسيحية للإسلام في السودان) عن مدينة (واو)[1]: (ومدينة واو في وقت من الأوقات كانت كأنها إحدى مدن الشمال لنشاطها التجاري والآن وبعد التغيير الذي طرأ على سياسة الحكومة ، وبعد طرد التجار الدناقلة* أصبحت كأنها إحدى المدن اليوغندية .)[2]

الحكومة تواجه الزبير :

أقض الزبير مضاجع النصارى من مبشرين وإداريين فألبوا عليه الحكمدار ، فوضع خطة للسيطرة على إقليم بحر الغزال وانتدب لذلك الشيخ محمد البلالي الذي كان يجهل قوة الزبير العسكرية ظانا أنه كتجار الرقيق ، فنشبت بينهم حرب ذهب ضحيتها البلالي وجنوده ، وأدرك الزبير بذكائه أنه إذا ماسارت الأمور بطريقها الرسمي فسوف تعده الحكومة ثائراً على سلطانها فتدارك الموقف ، ورأى أن يوسط لذلك حسين بك خليفة العبادي مدير بربر ودنقلا وشرح له الموقف شرحا وافياً ، وأظهر الخضوع لسلطان الحكومة وأنه ما كان يريد أن يشتهر بالثورة على الحكومة .

---

(١) (واو) هي عاصمة مديرية بحر الغزال الحالية

(*) نسبة إلى (دنقلا) عاصمة المديرية الشمالية الآن

(٢) The Christan Approach to Islam in the Sudan P.

ونتيجة لاعتذاره رأى الخديوى أن يعفو عنه وأصدر أوامره لمدير قبلى السودان أن يعطيه الأمان إذا ما حضر إلى الخرطوم، ولا داعى لحضوره لمصر، كما أبدى الزبير ذلك فى طلبه بواسطة حسين بك خليفة، ولم يكتف الخديوى بالعفو عنه فحسب، بل رأى فيه من القـــوة وشدة البأس ومعرفة أحوال اقليم بحر الغزال ما يؤهله لتوطيد سلطان الحكومة فى تلـــك الأصقاع النائية فصدرت الأوامر لإسماعيل باشا أيوب الذى ارتفع إلى رتبة الحكمدار بتشكيل مديرية لبحر الغزال وتعيين الزبير مديرا عليها، كما أمره أن يبحث معه حين قدومــــه الخرطوم أمر هذه المديرية الجديدة وما يلزمها من مستخدمين وجنود، فأرسل الحكمدار هذه التعليمات مع رسول خاص بطريق كردفان دارفور، ولكن عرب الرزيقات قطعوا علـــى الرسول الطريق أما الزبير فقد عزم على القيام للخرطوم لتأكيد ولائه وإخلاصه حسب ما ذكــر ذلك لواسطته، فسير بالفعل مراكبه محملة بالسلع التجارية (كالسن، وريش النعام) وغيرها ريثما يتم استعداده. وقبل مغادرته نمى إلى علمه أمر غارة عرب الرزيقات على حدوده حيث قطعوا الطريق بينه وبين دارفور، فجهز جيوشه والتقى بالرزيقات فهزمهم، ولاذ بعضهـــم بسلطان الفور فكاتبه الزبير بقوله (إلى حضرة أمير الأمراء الكرام مولانا السلطان إبراهيم ابن السلطان حسين صاحب العزة والاقتدار والهيبة والفخار أدام الله علاه آمين.

أما بعد، فنحن عبيد أفندينا ولى النعم خديوى مصر المعظم أتينا منذ عام ١٢٧٠هـ .. فدانت لنا بلاد الفراتيت برمتها وفتحنا الطريق منها إلى كردفان عن طريق (شكا) فتعهد بحفظه مشائخ الرزيقات نظير جعل معلوم وضعناه لهم على التجار. ولكن لم يكن إلا اليسير حتى نكث الرزيقات عن العهد وربطوا الطريق وأباحوا دماء المسلمين وأموالهم بدون وجه شرعى، وقد نهيناهم عن ذلك مراراً فلم ينتهوا بل كانوا يتفاخرون بقوتهم وخيولهم العربية وأسلحتهم النارية، وقتلهم للمقدوم عبد العزيز ابى أحمد شطة وآدم طربوش أبى الوزيـــر بخيت وغيرهما من الفرسان التابعين لدولتكم الفوراوية، فأوجب الله علينا حربهم بدليـــل قوله: (فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ إلى أمر الله)[1].

(١) سورة الحجرات آية رقم ٩

ونحن نتقدم إليكم بهذا الكتاب ،واثقين أنكم متى علمتم حال هؤلاء العربان الطغاة الذين خرجوا عن طاعة سلطتكم منذ ثلاثين سنة ونيف تنجدوننا بسرية من جيشكم حتى إذا ما تم لنا إذلالهم نعود فنسوى الأمر بيننا ،فاما أن تتركوهم لنا لنحكمهم بالقسط والعدل وأما أن نتركهم لكم فتفتحون الطريق وتقدمون لنا النفقات التى نبذلها على عساكرنا في الحملة عليهم ،والأمل الافادة سريعا ،فى حفظ الله آمين)[1]

ولكن السلطان لم يستجب لطلب الزبير لأن الملتحقين به أعلنوا ولاءهم بعد استغلال نيف على الثلاثين عاما ،فرأى سلطان الغور فى ذلك كسباً له ،ولم يقف عند هذا الحد ، بل أرسل إلى الزبير تجريدة فالتقت به فى (شكا) فدارت عليها الدائرة ،فغضب الزبير لايواء قطاع الطريق واعتداء السلطان وبدئه بالحرب ،ومن ثم واصل زحفه شمالا إلى سلطنة الغور ،وفى نفس الوقت كتب إلى الحكمدار يستمده على عجل ،وظل يزحف من نصر إلى نصر حتى كانت القاضية على السلطان فى معركة (منواشى) التى قوضت دعائم مملكة دامت ثلاثة قرون)[2]

ولما كان الزبير مؤمنًا بالخلافة الإسلامية التى يعتبرها رمز القوة والوحدة الإسلامية ، وأن الخديوية المصرية تابعة للخليفة فى تركيا فقد أعلن ضم إقليم دارفور للحكم الخديوى فى مصر.[3]

بين الزبير وحكمدار السودان :

ذكرنا فى معرض الحديث أن الزبير كتب يطلب المدد من الحكمدار وعندما سمع الحكمدار بانتصارات الزبير استحسن أن يسير بنفسه ببطء وحذر شديد ،فلما اقترب من

---

(١) تاريخ السودان القديم ص ٥٨٠ / ٥٨١

(٢) انظر د .مكى شبيكة ،السودان عبر القرون ص ١٨٤ وما بعدها

(٣) انظر الاستاذ عبد السلام سليمان سعد ر.م. عوامل تكوين الرأى العام فى المجتمع الاسلامى ص ٩٤

الفاشر علم أنها سقطت فى يد الزبير قبل خمسة أيام ،فأبرق إلى القاهرة بالفتح الذى تم على يد الزبير بعد أن أثنى على نفسه ثناء حسنا وبالغ فى إطراء نفسه وما بذل من جهود ، ونتيجة لذلك أمر الخديوى بترقيه لدرجة فريق ومنح الزبير لقب الباشوية ،فبدأ الحكمدار فى تنظيم المناطق الجديدة ،وكان من أول ما قام به فرض ضرائب عالية على الأهالى فأبدى الزبير اعتراضه ،وطلب من الباشا تخفيفها ، فعرف الحكمدار أن الزبير يريد أن يحكم المناطق التى فتحها فعزم على التخلص منه بأسرع ما يمكن قبل أن يقوى مركزه ويصبح خطراً عليه هو نفسه فأدرك الزبير أن الحكمدار غير راض عن اقتراحاته بتخفيض الضرائب ووضع البلاد تحت إدارته فطلب الإذن بالسفر إلى القاهرة لتوضيح الأمر للخديوى ،فكتم الحكمدار سروره وأرسل عدداً من البرقيات إلى الخديوى يشرح فيها خطورة الزبير إذا بقى حاكما على المناطق التى أخضعها وضمها للخديوية ،وعندما وصل الزبير القاهرة اكفهر الجو فى وجهه حيث أبقاه الخديوى أسيرًا ولم يسمح له بالعودة إلى السودان وصادرت الحكومة أمواله بحجة أنها نتاج تجارة الرقيق وعندما اندلعت الثورة فى السودان بدأت الصحف الغربية تلفق الأخبار عنه لتفتيت وحدة الثوار .

جاء فى العروة الوثقى ما يأتى :

(نقلت الجرائد الأوربية ما يعجب من نسبته لزبير باشا ذلك أنه أشخص ثلاثة من أبنائه إلى الثائرين ، ومع كل واحد منهم كتاب إليهم يشكر فيه الخديوى ودولة بريطانيا العظمى والجنرال غردون لردهم لكل أملاكه التى انتزعت منه ويقسم عليهم أن يرافقوا غردون إلى كرسكو، ويقول إن كل معاملة تسئ إلى الجنرال تكسر خاطره)

ويعلق ناقل الخبر قائلا :

(وأنا ابرأ مما فى الرقيم ونسبته إلى الزبير باشا ،فأنا أعرف الرجل مسلما فقيها فى دينه عالما بفروضه وهو من سلالة العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم وفى نفسه حزازات مما نكأه به الجنرال غردون عندما كان حاكما فى السودان وليس من أحد يحفظ تاريخ غردون

ويحصى سيئاته كزبير باشا ،وعلمنا ذلك منه وهو يتنفس الصعداء من ذكرى مصائبه أيام كنا في مصر فكيف يمتدح الانجليز ويشكرهم وكيف يقوم بعمل يعود بالمنفعة عليهم اغترارا بما وعدوه من رد أملاكه إليه وهو يعلم أن كل ما يفيدهم لا يزيد قدمهم إلّا رسوخا في أوطانه فلا يبعد أن يكون عدو الزبير أراد أن يشوه سيرته فرماه بهذه النسبة)[1]

ففيما تقدم خير برهان على أن الزبير كان مجاهداً إسلاميا ولم يكن نخاسا كما زعم أعداؤه فلقد زاد عدد جيشه الإسلامي على الاثنى عشر ألفا هزم بهم أكبر القبائل (قبيلة الرزيقات) كما قوض بهم دعائم مملكة الفور التى أعجزت الحكومة ولقد ظل هذا الجيش وفياً له مدافعا عنه ومعظمه من قبائل الجنوب فلو كانت الصلة بين الجيش وقائده هي الصلة بين التاجر وبضاعته ما كان هذا الود والوفاء .

ويكفى الزبير فخرا أنه أول أستاذ علم أبناء السودان استعمال السلاح النارى وأن معظم جنوده اشتركوا في ثورة السودان الكبرى ،كما أن ثلاثة من أشهر قواد المهدية كانوا من رجاله وهم (حمدان - الزاكي - والنور) وكان أول من بذر بذور الثورة الإسلامية ضد الفساد الإدارى والعلمانى الذى مكن له محمد على ، ولو قدر للزبير أن يبقى في السودان لاضطره هذا الفساد إلى الثورة في وجه الحكومة ولكنه أبعد في الوقت المناسب.[2]

وعندما قامت الثورة بقيادة المهدى وهو في مصر نفى إلى جبل طارق بحجة مساندته الثوار .

---

(١) جمال الدين الافغاني ، محمد عبده ،العروة الوثقى ص ٣٤٦/٣٤٧ ، ط أولى سنة ١٣٨١ هـ /١٩٧٠م

(٢) انظر الاستاذ حسن مكى ، السياسة التعليمية والثقافة العربية في جنوب السودان ص ١٢ ط معامل التصوير الملون السودانية ، بدون تاريخ .

المبحث السادس

غردون يعود إلى السودان

اتصل الخديوى بغردون مرة ثانية واقترح عليه بأن يقبل منصبا جديدا هو منصب الحكمدار العام على جميع السودان فقبل العرض من غير تردد بعد أن منحه الخديوى سلطات مطلقة يتصرف كيف يشاء وذلك فى فبراير سنة ١٨٧٧م وحالفه التوفيق نوعا ما فى عامه الأول بعد أن بذل جهدا كبيرا فى فرض سلام مضطرب على الحدود .

سياسة القمع والاستفزاز :

فى شهر يوليو من سنة ١٨٧٨م بدأ غردون ينهج نهجا جديدا فى سياسته ، حيث استعمل أسلوب القمع والإرهاب وأصبح أقسى وأقل حذرا فى أساليبه السياسية ، وسلك نفس المسلك الذى كان يسلكه عندما كان حاكما على خط الاستواء من عزل المسلمين وتعيين النصارى حيث عزل عددا كبيرا من المصريين واستبدل بهم الأوربيين[1] الذين كان يستقدمهم من بلادهم وجلهم من المبشرين .

يقول سلاتين النمساوى فى كتابه السيف والنار فى السودان : (فى شهر يوليو سنة ١٨٧٨م عندما كنت ملازما فى آلاى ولى العهد (رودلف) عند حدود (البوسنة) تسلمت رسالة من الجنرال غردون يدعونى فيها أن أذهب إلى السودان واشتغل فى خدمة الحكومة المصرية تحت إدارته .

وكنت فى سنة ١٨٧٤م قد سحت فى السودان عن طريق أسوان ، فذهبت إلى (كرسكو) و(بربر) ووصلت فى شهر اكتوبر من تلك السنة إلى الخرطوم وعرجت على جبال النوبة وبقيت مدة قصيرة فى الدلنج حيث كان مركز الرسالة الكاثوليكية النمسوية[2]

---

(١) السودان والمهدية ص ٣٩ .

(٢) سلاتين باشا ، السيف والنار فى السودان ص٩ ، ط ثانية دار الجيل بيروت سنة ١٩٧٨م نشر عالم الكتب

وهذا الإجراء الذى سلكه غردون وهو فصل المصريين المسلمين وتعيين النصارى الأوربيين فاق ضررة نفعه وأصاب الإدارة الخديوية وحكومتها نتيجة ما أشيع من خصومها عن خضوعها لعناصر مسيحية (١) ولم يكن هذا الإجراء ليقابل بالرضا من شعب السودان المسلم الذى رأى فى تولية مسيحى أمور المسلمين خروجا على الدين بالإضافة إلى أن هؤلاء الأجانب لم يفهموا نفسية الشعب السودانى (٢).

وكانت الميزانية تواجه عجزا كبيرا بالرغم من أن الحكمدار موسى حمدى باشا رفع مجموع الضرائب الذى كان فى ١٢٨٨هـ/١٨٦٣م مئة ألف جنيه إلى ثلاثمئة ألف جنيه ومع هذا بلغ العجز مئة وخمسين ألف جنيه وكان من العسير أن يجمع هذا من الوطنيين الذين اضطروا إلى دفع ثلاثة أضعاف ما كانوا يدفعون (٣) لذلك طلب الخديوى من غردون أن يضع أسسا إنسانية للإدارة فى السودان، وانعاش الحالة الاقتصادية التى كان يعانى منها السودانيون وذلك بإيجاد بضائع للتجارة وتحسين المواصلات النيلية وإيصالها إلى أبعد الحدود، فعين غردون سلاتين النمساوى مفتشا ماليا لحكومة السودان، فهاله سوء نظام الضرائب ومقاييس تحديدها وطرق جمعها حيث وجد الأغنياء يدفعون ضرائب أقل من البسطاء كما وجد جامعى الضرائب لم يلتزموا القانون فى جمعها فجمع سلاتين ألوفا من العرائض والظلامات ورفع الأمر لغردون (٤).

ثورة كردفان ودارفور ضد الحكومة:

كانت منطقتا كردفان ودارفور تمثلان سوقا كبيرا ومركزًا للإمداد الرئيسى لسليمان الزبير بالأسلحة والذخيرة فى إقليم بحر الغزال، وأحس غردون بعجزه تجاه هذه المنطقة

---

(١) السودان والمهدية
(٢) على محمد بركات، السياسة البريطانية واسترداد السودان ص٩
(٣) انظر تاريخ السودان الحديث ص ٨٦
(٤) انظر عصمت حسن زلفو، كررى، ص ٢٨ نشر مطبعة التمدن ط ثانية سنة ١٩٧٨

التى امتلأت بتجار الشمال ،وأغلبهم من قبيلة الجعليين - قبيلة الزبير المعتقل لدى الحكومة وابنه سليمان الذى خلف والده فى قيادة جيشه - والدناقلة الموالين لهم ،وبقرار حاسم أمر غردون بإخلاء المنطقة منهم وحمل زعماء العشائر تبعة وجودهم فى مناطقهم فشرد التجار وصودرت تجارتهم وأموالهم[1] فشبت ثورتان فى كردفان ودارفور على التوالى ،وقاد غردون حملة إلى كردفان وقضى على الثورة المشتعلة فيها ، ثم تقدم للالتقاء (بجسى) حتى يعد معه الترتيب اللازم لمواجهة الثورة الأخرى ،وبناء على ما تم بينهما فى هذه المقابلة تعقب (جسى) سليمان فى دارفور حيث استسلم الثوار فى يوليو سنة ١٨٧٩م وقتل سليمان وتسعة من قواده رميا بالرصاص فى اليوم التالى بعد أن أغراهم بالأمان إذا سلموا ، وهذا الإجراء الذى سلكه (جسى) وصمه بالغدر ، وعلى الرغم من هذا فإن السلام الدائم لم يتحقق ،ولذا لجأ غردون إلى وسيلة قاسية هى التنبيه على شيوخ القبائل فى المنطقة باصطياد الجلابة* وتسليمهم إلى الحكومة وحملهم مسئولية العثور على أى منهم فى أقاليمهم بعد تاريخ حدده .[2]

وذاع خبر سوء المعاملة التى لقيها الجلابة فى أنحاء البلاد كلها[3] وأصبح غردون مكروها لدى السودانيين كما يقول سلاتين : (فان الحاكم الذى أمر بطرد الجلابة من الجنوب فى حرب الزبير كان خليقا أن يكرهه عرب الجعليين لا أن يحبوه ،فإن أمر غردون بطرد الجلابة قد أفقد عددا كبيرا من الجعليين أبناءهم أو إخوانهم أو أقاربهم ولم يكونوا ينسون أن غردون هو السبب فى كل ذلك).[4]

ويمكننا أن نتصور شعور السكان المسلمين عندما يتولى أمرهم النصارى فذلك غاية الاستفزاز لمشاعرهم الدينية وزاد الطين بلة قتل سليمان الزبير وقواده غيلة بعد استسلامه

---

(١) المصدر السابق ص ٤١

(*) اصطلاح يطلق على تجار الشمال

(٢) انظر السودان والثورة المهدية ص ٤٢

(٣) كررى ص ٤١

(٤) السيف والنار ص ١٤٧

نتيجة لوشايات كاذبة وبذلك فقد غردون ولاء الأهالي كما فقد عون الزبير الذي احتاج لانقاذه وهو محاصر في الخرطوم - على ما سيأتي - ولكن بعد فوات الأوان[١] .

وأخيرا صمم غردون على اعتزال السلطة إذا ما زايل اسماعيل أريكة الحكم، وقبل أن يصل الخرطوم وفي طريقه من دارفور سمع بمفارقة اسماعيل لخديوية مصر وتبوء توفيق مكانه فسافر إلى مصر وقدم استقالته في أواخر سنة ١٢٩٦هـ فقبلت،[٢] وخلفه محمد رؤف باشا حكمدارا على السودان.[٣]

ولم يكن هناك وضع ملائم للثورة الشاملة مثل الوضع الذي كان السودان عليه عام ١٨٨١م حكم نصراني فاسد ، يسنده جيش محتل قوامه ٤٠,٠٠٠ جندي به عدد كبير من جنود الزبير وابنه سليمان ، ضمتهم الحكومة إلى قواتها النظامية بعد نفي الوالد وقتل الولد ، فكانوا سند الثورة المهدية وقوامها ودرعها .

---

(١) انظر كرري ص ٤١

(٢) انظر السودان عبر القرون ص٢٢٢

(٣) المصدر نفسه ص ٢٢٤

الفصل الرابع

الحركة المهدية في السودان

المبحث الأول : أسباب قيام الحركة المهدية

ذكرنا فيما سبق أن محمد على باشا غزا السودان في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) وكان دافعه الأول هو جلب الرقيق لاستخدامهم جنودا في جيشه لتكوين امبراطوريته التي كانت تسيطر على تفكيره ،كما كان يأمل في جلب خيرات السودان التي سمع عنها الكثير ، وقد صاحب هذا الغزو المسلح غزو فكرى رائده رفاعه بك رافع الطهطاوى أول من أسس نظام التعليم الغربي العلماني في الخرطوم ، كما صاحب هذا الغزو منذ مراحله الأولى ثورات الأهالي في وجه الغزاة كثورة الشايقية في كورتي ، وثورة العبدلاب بقيادة عجيب المانجلك ،وتمرد الجعليين بقيادة المك نمر الذى أحرق إسماعيل بن محمد على قائد الحملة النيلية الذى قضى على مملكة الفونج ،مما دفع الدفتردار صهر محمد على للقيام بحملة انتقامية حيث قضى على قرى بأكملها وأقام المذابح في الأسواق والطرقات فقضى حتى على النساء والأطفال .

ولم تهدأ ثورة الأهالي تجاه الغزاة طوال سنى الحكم التركي .

وعندما ضعفت الإدارة وانتشر الظلم وعم الفساد وفرضت الضرائب الباهظة ،وفتح الباب على مصراعيه أمام المبشرين من كل دول الغرب أصبح الجو ملائما للثورة الشاملة يقول سلاتين : (وقد كان الأجانب من جميع الدول الأوروبية متمتعين بحق الدخول إلى السودان والخروج منه وهم في كلا الحالين يتمتعون بالأمن والهدوء ، وإلى جانب ذلك سهلت المواصلات بين السودان وأبعد الممالك الأوربية بواسطة الوسائل التلغرافية والبريدية المنظمة . إن معظم ما تمتع به السودان أثناء الحكم المصرى الطويل هو قيام كل فرد بشعائره الدينية وبنشر العلوم حسبما يوحى إليه ضميره ،فكنت ترى مساجد المسلمين وكنائس المسيحيين يقصدها أبناؤها بمطلق الحرية ،كما كنت ترى مدارس الأوربيين منتشرة

لتعليم العلوم الحديثة)[١].

كما يرى المؤرخون أن أبرز الأسباب التى أدت إلى قيام الحركة المهدية الشاملة ما يأتى :

١- رفض المجتمع السودانى المسلم لحضارة الغرب الوافدة بمفهومها الغربى المادى ، وفتح الباب أمام المبشرين .

٢- الضرائب الباهظة التى رأى فيها الأهالى مقدمة للزحف الاستعمارى، متمثلا فيما اتبع من وسائل القسوة فى جمعها، واستخدام (الباشبوزق) فى تحصيلها .

٣- محاربة المواطنين فى أرزاقهم باحتكار الحكومة للتجارة وتحريمها عليهم .

٤- ضعف الحكم القائم فى شطرى وادى النيل، وفساده وخضوعه الكامل للاستعمار .

٥- وجود إحساس عام فى أجزاء العالم الإسلامى - ومن بينها السودان - بضرورة تنقية الإسلام من الشوائب* التى لحقت به، حتى يستطيع العالم الإسلامى مواجهة الزحف التبشيرى الاستعمارى، والأفكار الغربية الوافدة[٢].

كل هذه الأسباب عوامل مساعدة لاشتعال حركة المقاومة الشاملة، بالإضافة إلى السبب الرئيسى المباشر وهو:

٦- وجود رد فعل دينى ضد تدفق النصارى الأجانب، وتسليمهم مقاليد أمور المسلمين، ولم يكن هذا مألوفا فى مجتمعات المسلمين ، ولذا كان هذا السبب من أقوى الأسلحة التى شهرها المهدى[٣] فى وجه الحكومة ، واعتبرها مارقة عن الدين لاسيما وقد صاحب

(١) السيف والنار ص ٤٠

* ليس معنى ذلك أن حركة المهدى كانت مبرأة من الشوائب ولكنها كانت أمثل شيء بالنسبة للمجتمع الذى قامت فيه فهو مجتمع صوفى أما إذا قورنت بالإسلام الصحيح فشوائبها لا تحصى ، لأنها نبعت من فكر صوفى خرافى منحرف كما سيأتى بيانه .

(٢) انظر السياسة البريطانية واسترداد السودان ص ١٠ / ١١

(٣) المهدى : هو محمد أحمد بن عبد الله ولد فى جزيرة (لبب) بالقرب من مدينة دنقلا حاضرة الاقليم الشمالى حاليا فى ٢٧ رجب سنة ١٢٦٠ هـ الموافق ١٢ / ٨ / ١٨٤٤ م من أسرة تدعى الشرف بنسبتها لآل البيت ، وكانت حرفتها صناعة المراكب النيلية (السفن) ارتحلت الأسرة من الشمال بسبب ندرة الأخشاب ، واستقرت فى كررى بالقرب من مدينة أم درمان ، توفى الوالد بعد مدة قليلة من الرحيل ، وترك ابنه محمد أحمد

تدفقهم إلى السودان نوع من الإباحية والاستهتار الخلقي ، وهي ظاهرة واكبت مقدمات

الزحف الاستعماري لتدمير معنويات الشعوب ليشل مقاومتها ويذهب ريحها فلا تقوى على

مقاومته وهذا الوضع عانت منه كثير من المجتمعات الشرقية ، ورغم كل هذه المعوقات فقد

— صغيرا مع إخوته الذين تعلموا حرفة الوالد . نشأ محمد أحمد محبا للتعليم من صغره فالتحق بالخلوة، وبعد حفظه للقرآن الكريم حاول إخوته اجتذابه إلى صنعتهم فلم يستطيعوا، وسمع الصبي بشهرة الشيخ محمد الخير وسعة علومه، فسافر إلى بربر فتعلم من مبادئ العلوم ما يسره له الله مع زهد وعبادة وانقطاع للذكر مع ورع منعه مشاركة الطلاب في مأكلهم بحجة أن بعضه يأتيهم من الحكومة التي كان يراها مثالا للظلم تتخذ من الإنفاق على الخلاوى ستارا لإخفاء مساوئها لتنال ثقة المسلمين ، فكانت الثورة على الظلم تعتمل في نفسه منذ الصغر ، وكان يذهب في ظلام الليل إلى النهر ليصطاد رزقه حلالا طيبا ، فتناقل التلاميذ خبر زهده وورعه واجتهاده في العبادة ، فقدر شيخه هذه النزعة فأشركه في طعامه الذي كان يأتيه من مزرعته الخاصة ، فأطمأن محمد أحمد لذلك ووجد فسحة من الوقت للعبادة والتحصيل والذكر والتأمل ، فأظهر تفوقا وذكاء خارقا وعند ما أكمل محصول هذه الخلوة ، وهو المبادئ الأولية في علوم الدين من حديث وتفسير وفقه تاقت نفسه للتصوف فاتصل بالشيخ محمد شريف نور الدائم وذلك حوالي ١٢٧٥هـ/١٨٦١ وعمره سبعة عشر عاما ، فانتظم في سلك السمانية ودخل في عدد المريدين وشرع في قراءة كتب التصوف ، ككتب الغزالي وابن عربي وغيرهما مما كان له الأثر في تكوين ثقافة المهدي الصوفية، وكان شيخه يتفقد التلاميذ ليلا فلا يجده إلا قارئا متهجدا أو ذاكرا وقل أن يجده نائما فلفت نظره هذا الشاب الذي لم ير له نظيرا في مريديه . وقضى في صحبته سبع سنوات من غير كلل أو ملل .

ثم فكر في مهنة يرتزق منها فأخذ في بيع الحطب ، فعلم أنه يشترى لصناعة المريسة (نوع من الخمر) فنفض يده منه، ثم حاول الاتجار في الغلال، فاختلف مع شريكه الذي يريد الاحتكار فقرر هجر الخرطوم وضوضائها واتجه إلى جزيرة (أبا) وانقطع للعبادة ، واجتذب إخوته إليه لتوفر الأخشاب الصالحة لصناعة المراكب ، وما زال حبل الود موصولا بينه وبين شيخه محمد شريف يزوره في الأعياد والمناسبات، ولكن توترت هذه الصلات عند ما أقام الشيخ حفل رقص بمناسبة ختان أبنائه، فعد التلميذ ذلك لهوا واعترض على الشيخ، فغضب الشيخ وسبه وطرده من داره أولا، ثم من الطريق رغم الاعتذار والانكسار الذي أبداه محمد أحمد ، وبعد فترة قلق أفقده الطمأنينة الصوفية ، جدد ولاءه الصوفي على الشيخ القرشي الزين ، ولم يكن القرشي بأقل شهرة من شيخه السابق فقد أخذ الطريق على يد مؤسسها الشيخ (الطيب) . بل إن محمد أحمد نفسه لم يقل شهرة عن شهرة مشايخه ولكن رأى كما يرى الصوفية أن من مستلزمات الطريق الاتصال بشيخ ذى قدم راسخ وخاصة أن المريد مازال دون الأربعين ، وعند ما مات الشيخ القرشي، فكر مريدوه في بناء قبة كعادة المشائخ، وفي هذا الموضع التقى محمد احمد بعبد الله التعايشي الذي آلت اليه خلافة المهدي فيما بعد ، حيث أصبح الرجل الثاني في دولة المهدية، وقيل لأنه هو الذي أوعز اليه بأنه المهدي .

وفي التاسع من رمضان سنة ١٣٠١/١٨٨٥ بعد فتح الخرطوم بستة أشهر لبى نداء ربه ولم يتجاوز الثانية والأربعين من عمره . رحمه الله .

أخذت اليقظة الاسلامية تنمو، حتى تبلورت فى حركات جهادية، تطالب بعودة المسلمين الى نقاء الاسلام الأول، وترى أن سبب تخلف المسلمين هو بعدهم عن الدين، وقد عاصرت المهدية فى السودان حركات اسلامية جهادية، كالحركة السنوسية بليبيا، وحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بنجد، ولقد ساعدت على ظهور هذه الحركات الاسلامية ظروف العالم الاسلامى، فاختلفت آثارها تبعا لاختلاف مشاربها الدينية، وتصوراتها العقدية، ومناهجها الدعوية، وتعتبر حركة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب نموذجا يحتذى بسبب فهمها الصحيح للكتاب والسنة، والدعوة الى عودة المسلمين الى عقيدة السلف الصالح، ومحاربة البدع والخرافات، ولعل الله سبحانه لهذه الأسباب مجتمعة كتب لها الاستمرار حتى يومنا هذا.

أما المهدية فعلى ما بها من الشوائب العقدية التى سنذكر بعضها قريبا فقد حققت المزايا الآتية:

١- سدت السبل فى وجه النصرانية المتسللة الى القارة الأفريقية عن طريق السودان وقامت بطرد المنصرين.
٢- وحدت السودان لأول مرة عبر تاريخه الطويل تحت حكومة هيمنت على حدوده الحالية.
٣- صهرت القبليات المتنازعة لحين تحت راية المهدية.
٤- شجعت على حفظ القرآن وقيام الليل.
٥- أحيت روح الجهاد وحببت الى النفوس الاستشهاد فى سبيل الله.
٦- بعثت فكرة عالمية الدعوة وذلك بتوجيه الكتب والرسائل الى الملوك والرؤساء ودعوتهم للدخول فى الاسلام، يقول سلاتين: (ان الدوائر الدينية كانت بين آن وآخر تصدر اعلانات ورسائل تحض المسلمين على التقيد بأوامر الدين، وتأدية الواجبات الدينية وفى مقدمتها الصلاة على الوجه الأتم، ثم الابتعاد عن جميع الملذات العالمية(1) والتوجه الى عالم الخير الأعلى، ولم تكن الأوامر الدينية مقصورة على السودان، بل تعدته الى جميع نواحى أفريقيا، وبلاد العرب وبرنو ودار فلاتة ومكة والمدينة.)(2)

ومما لا شك فيه أن المهدى استغل العاطفة الدينية الجياشة عند السودانيين فانطلق بحركته ضد الاستعمار، موقنا أن السبيل الوحيد لنجاحها هو الالتفاف حول الدين فحث الناس على الدفاع عنه فأصبح كما جاء فى اعترافات أعدائه سيد السودانيين الحقيقى فلم يكن يصدر أمرا حتى يبادر أنصاره لتنفيذه وهم على استعداد لفدائه بأنفسهم.(3)

ومع هذا فلنا على المهدية تحفظات وانتقادات وتصحيحات من خلال المقياس الاسلامى الصحيح حيث يبدو اختلالها العقدى واضحا فى الآتى:

١- ادعاء قائد الحركة بأنه المهدى المنتظر واعتماده الفكر الصوفى منهجا لدعوته.
٢- اختلاقه أقوالا لا دليل عليها فهى أشبه بالأكاذيب ان لم تكن كذبا، مما جعل بعض قادته يتشككون فى أمره.

---

(1) لعله يقصد الملذات الدنيوية.
(2) السيف والنار فى السودان، ص٣٠٤/٣٠٥
(3) المصدر السابق ص٤٦٢

فقد روى الشيخ محمد ود[1] البصير أنه قال: (ذات يوم بعد فتوح الخرطوم طلبنى المهدى نصف النهار، وقال لى: ان أمر المهدية كان طويلا، ولكن الاخوان غيروا وبدلوا، ونحن اخترنا الآخرة فقلت: كيف؟ وأنك وعدتنى بفتوحات كثيرة، فأجاب بأنها كلها نسخت، لأنه لا يخفى أن القرآن ينزل من عند الله بواسطة جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم ويكون فيه الناسخ والمنسوخ)[2] وهذا أمر فى غاية الخطورة الا اذا كان يقصد أنها اسقطت من خططه والله أعلم بالنيات ونرجو له المغفرة فى هذا.

وقال المهدى لسائله لما ألزمت أمر المهدية، تحتم علىّ ولم أجد منه خلاصا، كاتبت أهل المساجد وأهل الدين، وطلبت منهم اجابة دعوتى والقيام معى فى تأييد الدين لتأتى المهدية على حالة مقبولة عند العقلاء، فمنعهم الجاة من اجابة دعوتى، فدعوت هؤلاء الأعراب الأجلاف فأجابونى فى الحال، وهاجروا معى فى الحال)[3]

ومن هذا يتضح أن الذين استجابوا للمهدى هم الدهماء.

٣- دعواه اخبار سيد الوجود له يقظة لا مناما[4]. وفى هذا منافاة للاسلام، وقد قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه: (إن كذباً علىّ ليس ككذب على أحدكم، من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)[5]

٤- اهمال السنة وعلومها اهمالا كاملا والاعتماد على منشورات المهدى، وأقواله التى يزعم أنه أخذها عن سيد الوجود، ونذكر منها على سبيل المثال قوله: (فأخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأنى المهدى المنتظر وخلّفنى عليه الصلاة والسلام بالجلوس على كرسيه مراراً بحضرة الخلفاء الأربعة والأقطاب والخضر عليه السلام، وقلدنى بسيفه صلى الله عليه وسلم بحضرة الخلفاء الأربعة والأقطاب والملائكة المقربين والخضر عليه السلام)[6] وهو فى هذا متأثر بأراء ابن عربى الذى أخذ جلّ تفكيره من فرقة الاسماعيلية وعرضٍ للمهدية وفصلها فى كتابه (عنقاء مغرب) وضمّن كتابه (الفتوحات المكية) كثيراً من هذه الآراء التى تأثر بها المهدى الى حد بعيد، ونحا على النحو الذى تصوره.[7]

فهذه الأفكار وأمثالها من المسائل والممارسات والمعتقدات التى وردت عن المهدى إذا ما قومناها بالتقويم الإسلامى العادل فسنجد جنوحاً واضحاً عن المنهج الإسلامى القويم.

٥- الغاء المذاهب الفقهية ومحاربة الفقهاء الذين لا يروون عن المهدى وتكفير من لم يؤمن بمهديته، مما جعل المهدية واهية البنيان ضعيفة الأثر فى المجتمع فبمجرد وفاة المهدى دب الخلاف الى صفوفها

١- محمد البصير من كبار قادة المهدية.
٢و٣ - السودان عبر القرون ص ٣٨
٤- انظر منشورات المهدى ص ٢٥ / ٢٦
٥- متفق عليه.
٦- منشورات المهدى ص ٧٢
٧- انظر هامش المنشورات ص ٢١ تعليق دكتور أبو سليم

وبمجرد قتل الخليفة عادت الأمور الى ما كانت عليه قبل قيامها ان لم تكن قد ازدادت سوءا .

٦- كذلك من سلبياتها أنها كانت تجهل العالم حولها جهلا تاما فشرعت تتوسع شمالا بدلا من أن تتجه الى الجنوب والغرب مما أفقدها خيرة قوادها وجنودها أمثال القائد عبد الرحمن النجومى وجنوده ، ومع كل هذا فان الحركة المهدية كانت رد فعل لحركات التنصير التى غزت السودان ولذا لزم التنويه بذكرها فى هذا البحث.

دعوة المهدى السرية :

فكر المهدى كثيرا فى الحالة التى آل اليها المسلمون من فرقة وشتات، وبعد عن تعاليم دينهم الحنيف وكيفية معالجة هذه الحالة ففكر فى القيام بجولة الى غرب السودان ، فتعرف على زعماء القبائل ، موجها الدعوة الى من وثق به وبتأييده ، فعاهده البعض وخاصة الملك (آدم أم دبالو) ملك جبال تقلى ثم عاد الى الجزيرة أبا وبدأ بالكتابة سرا الى مشايخ الطرق وعلماء الشرع ، وكان يلمح ولا يصرح بمهديته فبعضهم استجاب وبعضهم لم يعره اهتماما وكان ذلك فى شعبان سنة ١٢٩٨ هـ وقد بلغ الأربعين من عمره فوقعت بعض منشوراته فى يد الحكومة ، ولكنها أغضت الطرف عنه ولم يهتم حكمدار عام السودان محمد رؤوف باشا لأنه لم يظن أن درويشا ضعيفا يمكن أن يناوئ الحكومة ذات السطوة والقوة .

ولكن المنشورات تكاثرت داعية علماء الشرع لتأييد المهدية الكبرى ونصرة الدين ، وبعد ان كان يلمح أشار الى أنه أمر باعلان المهدية وسيمشى النصر بين يديه ، فبدأت ردود الفعل تظهر هنا وهناك ، فأراد الحكمدار أن يتبين حقيقة الأمر ، فانتدب معاون الحكمدارية محمد بك أبا السعود الذى أخذ معه بعض أقارب المهدى ، وكان على علم بتنسكه ، وبعد مناقشة لا طائل منها قال المعاون للمهدى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم)[1] فقال المهدى : أنا ولى الأمر فى هذا الأوان فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر فقطع المندوب الرجاء وقفل راجعا ، وأبرق الى الحكمدار قبل وصوله الخرطوم.[2]

---

(١) سورة النساء ، الآية رقم ٥٩

(٢) انظر السودان عبر القرون ص ٢٥٦

الموقعة الأولى :

رأت الحكومة إصرار المهدى على دعوته وازدياد أنصاره فخشيت أن يستفحل أمره فجهزت بلوكين بمعاونة أبى السعود، فعلم المهدى بمقدمهم ، فأرسل إلى قبائل دغيم ، والعمارنة يأمرهم بالحضور وعند وصولهم كاشفهم بجلية الأمر وأخبرهم بقرب الحرب، فمن أراد القتال جهاداً فى سبيل الله فليبق ومن لم يرد فهو حر أن يذهب أنى شاء ، فبايعه الجميع على بذل النفس والولد والمال ، وبدءوا بالفعل يتدربون على الحرب، وفى كل يوم يستعرضهم المهدى ويعظهم ويحثهم على القتال، ويرغبهم فى الشهادة، واستمر على ذلك ثلاثة أيام قبل ملاقاة العدو.

وفى يوم الجمعة السادس عشر من رمضان سنة ١٢٩٨هـ وبعد صلاة القيام أعلم المهدى بنزول جند الحكومة ، فأخذ الرايات وسار خلفها الأنصار فاشتبك الجيشان فحلت الهزيمة الساحقة بجيش الحكومة (١).

فكانت هذه المعركة الأولى من أقوى الوسائل الإعلامية لدعوة المهدى حيث تسامع بها عموم أهل السودان.

الهجرة إلى الغرب :

أيقن المهدى أن الحكومة وقد منيت بهذه الهزيمة الساحقة سوف تواجهه بقوة أكبر لا تصلح هذه الجزيرة لملاقاتها فعزم على الهجرة إلى جبال النوبة بعيداً عن متناول الحكومة فإذا حاولت مطاردته لاقت عنتاً ومشقة، وكان طريق هجرته إلى الغرب يمر على أراضى قبيلة

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٥٨

الجمع التى يعتبر رئيسها (عساكر أبو كلام) من عمال الحكومة فطلب من المهدى أن يمر جنوب أرض القبيلة لئلا يتهم من قبل الحكومة بالتواطؤ مع المهدى كما أبدى استعداده بعدم التعرض لمن أراد أن ينضم اليه فلبى المهدى رجاءه، وعبر النهر فتكاملت له قبائل دقيم وكنانة والحسنات واتجه غربا فطلب منه الملك آدم ملك جبال تقلى مثل ما طلب رئيس قبيلة الجمع - على أن يمر بتقلى ليستقر فى قدير بعيدا عن منطقة نفوذ الملك آدم خشية اتهام الحكومة له بمعاضدة المهدى كما وعده بتقديم كل عون له وقد وفى بما وعد فكان خير صديق للمهدى يأتيه بأنباء الحكومة ويحث رعيته على الإحسان للأنصار . وظل المهدى يرسل منشوراته وخطاباته إلى جميع مشايخ الطرق وعلماء الشرع ورؤساء القبائل مستشهدا على مهديته بأقوال يرويها عن ابن عربى وأحمد بن إدريس (1)، ولولا جهل الناس بالعقيدة الصحيحة لكفت هذه لدحض أفكاره الخرافية .

حملة راشد أيمن :

لما كانت جزيرة (أبا) تابعة لمديرية فاشودة التى يديرها راشد بك أيمن وسمع بالمعركة التى دارت فيها استأذن الحكمدار فى القضاء على المهدى فلم يأذن له الحكمدار ولكنه سمع بضعف المهدى وأن الحمى قد فتكت بأتباعه فصمم على مهاجمته، وبالغ فى كتمان أمره ولكن أمره ذاع بواسطة امرأة أبلغت المهدى فاستعد له فكمن هو وأنصاره فى الطريق الوحيد وتلقوا رجال راشد قبل أن ينظموا أنفسهم فاسكتوا نيران سلاحهم وأبادوا قوتهم المكونة من ٤٠٠ جندى نظامى وألف من الشلك بقيادة زعيمهم، فقتل راشد نفسه وأسر ١١ من ضباطه وكان ذلك فى يوم الجمعة ١٧ من المحرم ١٢٩٩هـ .

يقول شقير فى وصف هذه المعركة :

(وانتشر خبرها فى أقطار السودان الأربعة وشاع أن المهدى يحارب بسيف القدرة، وأنه يحول رصاص العساكر إلى ماء فلا يضر أنصاره، وأن النار خرجت من حراب الأنصار

---

(1) جغرافية وتاريخ السودان، جـ٣ ص٦٤٦/٦٤٧، وتاريخ السودان الحديث ص١١٠/١١١

وسيوفهم فأحرقت العساكر وروى بعضهم أنهم رأوا بأعينهم اسم المهدى مكتوبا على ورق الشجر وبيض الطيور فى البرية ، وكان محمد أحمد بعد استقراره فى قدير قد أرسل البعوث إلى كل الجهات فأخذ الناس يفدون اليه من سنار وكردفان ودارفور)[1] ولقد ساعد جهل الناس بالدين الصحيح فى نشر مثل هذه الشائعات ، وكاتب المهدى بعد هذه الموقعة جميع مشايخ الطرق حاثا لهم على الخروج على الحكومة والهجرة إليه ، وعاتب (عساكر أبو الكلام) على ركونه لحكومة الترك ، وأخبره أن الذين يدخلون فى سلك أنصاره قبل تجريدة الترك القادمة سيشملهم الضمان الخاص)[2]

حملة الشلالى : (فى رجب سنة ١٢٩٩ هـ مايو ١٨٨٢)

أرسلت الحكومة حملة بقيادة يوسف الشلالى الذى عينه (جقلر) باشا الألمانى الذى قام بأعباء الحكمدارية بعد أن استدعت حكومة القاهرة رؤوف باشا فقرر القضاء على المهدى فسمحت له حكومة القاهرة وأعطته حرية التصرف ، فجمع قوات الخرطوم وسنار والأبيض تحت قيادة يوسف الشلالى الذى تقدم بهم غربا إلى أن عسكروا بالقرب من قدير حيث يعسكر المهدى ، ولم يحتاطوا بإقامة الحواجز والمتاريس حول معسكرهم ليتقوا شر المباغته فهجم عليهم الأنصار فى فجر يوم ١٢ من رجب ١٢٩٩ هـ الموافق ٣٠ من مايو ١٨٨٢ م وحصلوا على نصر حاسم للمرة الثالثة حيث قتل قواد الحملة وعلى رأسهم يوسف الشلالى نفسه.[3]

وجمع المهدى الغنائم وأنشأ بيت المال ، وشرع فى تأسيس حكومته فى الجبال فدعا إلى دفع الزكاة وعين القضاة ليحكموا الناس بالشرع ، وبدأ الناس يتوافدون عليه يعلنون بيعتهم وانضواءهم تحت لوائه ، ورأى أن الوقت قد حان لفتح الأبيض أكبر عواصم الحكومة فى الغرب .

---

(١) المصدر السابق ص ٦٥٧/٦٥٨

(٢) منشورات المهدية ص ١-٥١ تحقيق د. محمد ابراهيم ابو سليم سنة ١٩٦٩ ، والسودان والثورة المهدية ص ٥١

(٣) انظر المهدية فى السودان ص ٦٦ والسودان والثورة المهدية ص

فتح الأبيض :

رأى المهدى أن إثارة الحماسة للجهاد فى كل بقعة من بقاع السودان ، أفضل وسيلة لنجاح حركته فعمد منذ البداية إلى أن يشارك فيها أكبر عدد من السودانيين فجدد الكتابة للفقهاء ومشايخ الطرق حاثا لهم على الثورة على الحكومة أو القدوم عليه[1] وأرسل عبد الله النور لتنسيق تمرد القبائل وتحويله إلى مقاومة شاملة ضد مراكز الحكومة ، فلبت القبائل النداء فشارك معظمها فى المقاومة ، تتقدمها قبائل الحمر والبديرية والحوازمة والجوامعة .

فبدأت الاضطرابات فى كردفان فى شكل انتفاضات قام بها البدو ضد مراكز الحكومة[2] فطفقوا يهاجمون قوات المدن الصغيرة والقرى ، فسقط كثير منها فى أيدى الانصار ، وتقدم رحمة محمد منوفل زعيم قبيلة الجوامعة على رأس قوة لمحاصرة (بارا) وتحرك الجيش الرئيسى بقيادة المهدى من قدير إلى الأبيض فى يوم ١٢ من رمضان ١٢٩٩ هـ الموافق ٢٨ يوليو ١٨٨٢[3] وأرسل أمامه رسولين إلى مدير الأبيض محمد سعيد باشا يطلب منه التسليم ، فأمر المدير بإعدامهما شنقا فاستاء لهذه الفعلة الذميمة المهدى ومؤيدوه ومن بينهم مدير الأبيض السابق إلياس أم برير ، فخرج مع أهله وأعوانه بعد شنق رسولى المهدى وانضم إلى الثوار ، وقد بلغ جيش المهدى ١٠٠,٠٠٠ مائة ألف مقاتل ،[4] أحس الحكمدار بخطورة الموقف فى الغرب فأرسل نجدة من فرقتين نظاميتين و٧٢٥ من غير النظاميين ، فعرف المهدى أمر هذه القوة فأمر بردم الآبار الواقعة فى طريقها فعانت الكثير وعند اقترابهما من (بارا) اعترضتها سرايا المهدى فقتلوا قائدها ونصف جنودها وفر الباقون إلى بارا وفى

---

(١) تاريخ السودان الحديث ص١٢٢ وجغرافية وتاريخ السودان ص٦٥٤-٦٦٦
(٢) انظر السودان والثورة المهدية ص ٦٩
(٣) انظر تاريخ السودان الحديث ص ١٢٣ والسودان والثورة المهدية ص ٧١
(٤) المصدر السابق ص ١٢٣ وانظر جغرافية وتاريخ السودان ص ٦٩١

يوم ١٦ من صفر ١٣٠٠ الموافق ١٨٨٣/١/٦ سقطت بارا فى أيدى ... ر وأعطت حاميتها يمين الولاء للمهدى وبسقوط بارا ضعفت الروح المعنوية لحامية الأبيض ،وأطبق المهدى الحصار على المدينة حتى ضاق أهلها ذرعا ونفذ مخزون المؤن وتدهورت الأحوال وازداد تسرب أهلها سرا إلى المهدى وعمت المجاعة وبدأ الجنود يأكلون ممتلكاتهم من الجمال والخيول وغيرها بل دفعهم الجوع إلى أكل الحمير والكلاب وكان متوسط الموتى فى اليوم ٤٠ شخصا ولم يعد الموقف يحتمل أكثر من ذلك فمن لم يمت بالسيف مات جوعا ، ولهذا بدءوا يحملون المدير ومعاونيه على التسليم[1]. فعقد الضباط مجلسا وافقوا فيه على التسليم وفى يوم الجمعة ٩ من ربيع الأول سنة ١٣٠٠ دخل المهدى المدينة على رأس جيشه وبدأ بالمسجد فصلى صلاة الشكر لله[2].

وبسقوط الأبيض سقط أكبر مراكز التبشير فى مدينة (الدلنج) الذى كانت تخرج منه البعثات التنصيرية إلى جبال النوبة ،فتوقف نشاطها وأسلم رجالها وراهباتها[3].

يقول اسلاتين : (كانت الدلنج وهى مركز المرسلين المسيحيين فى حالة خطرة وكانت بها حامية مؤلفة من ثمانين عبدا ،وكان المهدى فى طريقه إلى الأبيض ،وقد أمر أحد أنصاره وهو ملك عمر لكى يأسر أو يقتل من بها وكان الأب أوهر ولدر ،والأب بونومى قد اتفقا على الهرب إلى فاشودة ولكن تدبيرهما أحبط لجبن الضابط الذى كان يقود فصيلة الجنود فاضطر إلى الإذعان وسرق منهما كل شئ وسيقا أسيرين إلى الأبيض وحاول المهدى وخليفته عبد الله أن يجعلاهما وسائر الراهبات مسلمين ،ولكنهم جميعا رفضوا .

وأفزع سقوط الأبيض الحكومتين الإنجليزية والمصرية على السواء ، ولذا تم تجهيز حملة

---

(١) انظر تاريخ كردفان السياسى ص٣٧

(٢) انظر السودان والثورة المهدية ص ٧٥ وتاريخ كردفان ص ٣٧ وجغرافية وتاريخ السودان ص٣٠٧

(٣) انظر تاريخ السودان الحديث ص١٢٤

كبرى للقضاء على هذه الثورة بقيادة الكولونيل وليام هكس.

موقعة شيكان (١٣٠١هـ - ١٨٨٣)

جهز الخديوى توفيق حملة بقيادة الكولونيل هكس الذى اختار ثمانية من الضباط الإنجليز لمعاونته وكان جل الجنود الذى اشتركوا فى هذه الحملة من فلول جيش عرابى الثائر على الأوضاع فى مصر ،والذى سرحه الإنجليز لثورته ضدهم ، ولذا لم يكن هؤلاء الجنود راغبين فى حرب المهدى تحت راية الإنجليز الذين احتلوا بلدهم ،كما كانوا يرون اختيارهم لهذه الحملة نفيا لهم إلى السودان كما نفى زعيمهم إلى سيلان زيادة على ذلك كانت القيادة متشاكسة منذ أن تحركت من الخرطوم لأن علاء الدين حكمدار السودان يرى أنه أحق بالقيادة ، وفى مدينة الدويم قال هكس عبارته الشهيرة التى تعبر عن هذا الاختلاف (. . . أنا كالمسيح بين اليهود)[1]

وبالرغم من عوامل الضعف والاختلاف فقد وجه هكس إنذارا إلى المهدى جاء فيه (اعلم أنا الجردة التى فى بطنها جردة والتى ليس بعدها جردة أنا هكس أبو(ذراع حديد)* فلو وقعت السماء أرفعها بالسنج وإن مادت الأرض أثبتها بالجزم وان كان عمرك وأعمار دراويشك أراد ب من السمسم لأخذتكم بالقوة وأقتلكم عن آخركم) ويستنتج المؤرخون أن هكس قصد من هنا الإنذار أن يرفع روح جنوده المعنوية أكثر من أن يخوف المهدى .

وجاء رد المهدى هادئا يوحى بالثقة والانتصار قال فيه (بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالى الكريم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه الفقير المعتصم بمولاه محمد المهدى بن عبد الله إلى من يسمع من أهل الجردة ممن له عقل ،فإنه لا يخفى على ذى عقل أن الأمر بيد الله لا يشاركه فى ذلك بنادق ولا مدافع

---

(١) انظر عصمت حسن زلفو ،شيكان تحليل عسكرى لحملة الجنرال هكس ص ٦٦

* كلمة يراد بها قوة الساعد وهى كناية عن القوة

ولا صورايخ ،ولا عصمة لأحد إلاّ من عصمه الله تعالى ، فإذا فهمتم ذلك فاعلموا أن اللــه واحد فلا تفتروا بأسلحتكم ولا بجنودكم التى تريدون أن تقاتلوا بها جنود الله فإنــه لا قوة لشئ دون الله ،وإن قلتم إن مهديتنا مكذوبة فاعلموا أن الكذب إنما يصدر ممن يحــب الدنيا ويخاف المخلوق ويستعجز قوة الله ، فإذا فهمتم ذلك فلا تغرنكم أقوال علمائكم فــإنّ الترك الذين قتلتهم شكوا للحق عز وجل فقالوا يا إلهنا ومولانا إن المهدى قتلنا دون إنذار، فأقول أنذرتهم يارب فلم يسمعوا وحضر على ذلك شاهداً سيد الوجود صلى الله عليه وسلـم* وقال لهم : الإمام المهدى أنذركم فلم تسمعوا،وسمعتم قول علمائكم فذنبكم عليكم فأقبــل بعضهم على بعض يتلاومون فقال الذين استضعفوا للذين استكبروا لا لولا أنتم لكنا مؤمنين قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين . فإن كان لكم نور تؤمنون بالله ورسوله والدار الآخرة وتصدقوا بمهديتنا وتخرجـوا إلينا مسلمين ، ومن سلم يسلم، وإن أبيتم إلاّ الجحود فأسوتكم بمن سبقكم من الجنــود والسلام)[1]

وسار هكس بجيشه فى تيه وخيلاء ظانا أن تفوق سلاحه النارى سوف يحصد الدراويـش كيف لا وهو سوط الامبراطورية الذى قمعت به التمرد الهندى وأدبت به الامبراطور ثيودور الحبشى وقد خرج منتصرا من كل هذه الحروب،[2] فما المانع من أن يضيف جديدا إلــى أمجاده وهو المتفوق فى العتاد الحربى . ومنذ أن فارق هكس النيل الأبيض موغـلا فــى الصحراء وجه المهدى سراياه لمناوشته والاقتطاع من أطراف الجيش دون الالتحام به.

وعندما اقترب الجيش من الأبيض خرج المهدى لملاقاته فنزل ببركة الصاريس وفى يوم السبت ٢ من المحرم ١٣٠١ هـ الموافق ٢ من نوفمبر ١٨٨٣ وقف المهدى خطيبا فـى

---

* هذه العبارة ترد كثيرا فى منشورات المهدى ،فأما أنه كان يرى الشيطان أو كان يكذب على أنصاره

(١) منشورات المهدى ص١٧ وشيكان ص٩٦/٩٧ وجهاد فى سبيل الله ص٥٤

(٢) انظر شيكان ص ١٩٥ ، وانظر اسماعيل الكردفانى ، سعادة المستهدى بسيرة الامام المهدى ص ٢٢٦/٢٢٧ بتحقيق د . أبو سليم الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ/١٩٨٢دار الجيل . بيروت .

أنصاره حاثا لهم على الجهاد والصبر ،ومما جاء في خطبته تلك (... أيها الناس أثبتوا واطمئنوا ونزلوا رواحكم واستريحوا فلا قدرة لهم مع قدره الله . ثم قال : غدا يوم الأحد نتوجه اليهم.وفي صبيحة يوم الإثنين بعد أمرنا لكم بمحاربتهم إذا تأخر أحدكم لإصلاح نعله لا يدركهم أحياء)[١].

وفي يوم الاثنين ٥ من نوفمبر سنة ١٨٨٣ وقع جيش هكس في المصيدة التي نصبها له المهدي حيث أطبقت عليه جموع الأنصار في وادي شيكان من جميع الجهات فأفقدته السيطرة والتوازن وعطلت تفوقه الناري ،وشيئا فشيئا خفتت الانفجارات المتقطعة إلى أن أسكتت نهائيا معلنة الانهيار الفعلي لآخر مظاهر المقاومة لأربعة عشر ألف جندي حيث صرعوا جميعا بما فيهم قادة الحملة وعلى رأسهم الجنرال هكس نفسه ولم ينج من القتل عدا ٢٥٠ فقط يقابلهم مائتا قتيل فقط من الأنصار.[٢]

ولقد كان لانتصار الأنصار على هكس دوي هائل فقد رددت أصداءه السهول والوديان فسرى سريان النار في الهشيم واجتاز قفار السودان كأنما حمل على متن الريح وليس على ظهور قوافل الجمال البطيئة . فبعد عشرة أيام من المعركة تدوولت أنباء إبادة الحملة في دواوين الحكومة بالقاهرة ثم نزلت بسرعة البرق إلى أسواق القاهرة وظلت الدوائر الرسمية بين مصدق ومكذب.

أما بالنسبة للسودان فقد صار النصر مددا معنويا قويا لحركات العصيان ، فدانت جبال النوبة بقيادة الملك آدم حيث بايع المهدي وتبعه بقية الملوك كما استسلم

---

(١) سعادة المستهدي بسيرة الامام المهدي ص ٢٣٠ .

(٢) انظر نفس المصدر ص ٢٣٤/٢٣٥

رودلف سلاتين* حاكم دارفور، وأصبحت الخرطوم كجزيرة وسط خضم متلاطم تنتظر مصيرها .

يقول شقير: (وكان هذا الانخذال الذى أصاب الحكومة فى شيكان ، قد قضى على نفوذها فى السودان القضاء المبرم ، فعقلاء السودان كانوا قبل هذه الواقعة مترددين فى اتباع محمد أحمد ينتظرون حربه مع هكس فلما علموا ما أصاب هكس وجيشه ، ورأوا عجز الحكومة وفدوا على المهدى بالأبيض أفواجا يبايعونه وفى جملتهم الملك آدم أم دبالو ملك جبل تقلى ، وانتشر خبر المهدى فى العالم الإسلامى كله فجاءته الوفود من الحجاز والهند ومراكش لزيارته والتحقق من دعوته)[1]

وقد ضاعف هذا الانتصار قوة المهدى حيث غنم ما لا يقل عن عشرة آلاف بندقية وعشرات المدافع والآف الدواب وأطنانا من المواد الغذائية وكميات كبيرة من الملابس امتلأت بها مخازن بيت المال .

ثم توجه إلى عاصمته ، وسمح لعدد كبير من رجال القبائل الذين أسهموا فى المعركة بالانصراف إلى ديارهم لحين استدعائهم ليلتقوا جميعا على أسوار الخرطوم[2] التى

---

* نمساوى الأصل من الاوربيين الذين اختارهم غردون لإدارة السودان كما أشرنا إلى ذلك ، أظهر إسلامه نفاقا قبل استسلامه ، وذلك عند ما سأل أحد كبار موظفيه عن مكانته بين جنوده فأخبره (أنهم لا يعترضون عليك لأنك أوربى بل لأنك غير مسلم) ص١٠٦/١٠٧ السيف والنار .
ويقول سلاتين فى ص١٣٥ من نفس المصدر: (صحيح أنى أسلمت وتركت دينى ولكن لم أفعل ذلك إلا لكى أهدئ ثائرة الضباط والجنود وقد نجحت فى غايتى أكثر مما كنت أتوقع ، ولكن هذا العمل لم يكن وفق مزاجى ، ولم أكن أدعى فهم الآراء الدينية بدقة تخولنى الحكم على صلاح عملى أو فساده ، ولكنى كنت فى قرارة قلبى مسيحيا مثل جميع المسيحيين الذين أعرفهم (ويقول فى ص١٨٥ منه: (وكنت أؤدى الصلاة بعناية أمام الحرس وغيرهم وكان فى يدى مسبحة اسبح بها كما هو الشأن بين المسلمين الطيبين ولكن الحقيقة أننى كنت أكرر عليها صلاة النصارى . (أبانا الذى فى السموات) وظل ينافق حتى هرب فى أواخر حكم التعايشى وكان دليلا للجيش الاستعمارى بقيادة كتشنر .

(١) جغرافية وتاريخ السودان جـ٣ ص٧٢

(٢) انظر شيكان ص٣٣١

التى أعلن رسميا الاستعداد لفتحها بعد ثلاثة أيام فقط من موقعة شيكان وذلك بمنشوره الطويل الذى وجهه للمتخاذلين يحرضهم فيه على النهوض لقتال الكافرين جاء فيه :

(وتقوموا بكامل همتكم على الجهاد ومحاصرة الخرطوم)(١)

وعند ما وصل المهدى الأبيض استقبل استقبال الفاتحين العظام. علق (اوهر ولدر) أحد القسيسين الذين أسروا من (الدلنج) عن أحداث موقعة شيكان تعليقا يعتبر إنذارا لدول أوربا عامة وانجلترا خاصة لكى لا تقدم على مغامرة طائشة كمغامرة الجنرال هكس، قال فى تعليقه فليدرك الأوربيون أن السلاح النارى الذى أرهبوا به قبائل الزولو فى جنوب أفريقيا والأمهرة فى هضاب الحبشة والأشانتى فى غرب أفريقيا ،لم يعد ذلك السلاح السحرى الذى لا يقهر فجنود المهدى أيضا يستخدمونه بمهارة وإحكام(٢) مما دفع بريطانيا إلى إخلاء السودان مؤقتا .

الإخلاء :

بعد هزيمة هكس أخطر افلن بيرنج* ـ المندوب السامى بالقاهرة ـ مجلس الوزراء البريطانى بوابل من البرقيات الطويلة بشأن إخلاء السودان فاتخذت الحكومة البريطانية قرارا حاسما بإخلاء كل السودان إخلاء تاما غيرأن الوزارة المصرية كانت ترى أنه إن كان لا بد من الإخلاء ،فلا أقل أن تحتفظ بالخرطوم وطريق سواكن بربر ،وتخلى بقية السودان .

ويرى بعض المؤرخين أن انجلترا أشارت على مصر بالإخلاء لتنفرد بحكم السودان لأنها كانت لا تريد سيادة سلبية.

---

(١) سعادة المستهدى ، ص ٢٣٨

(٢) انظر شيكان ص ٢٥٢

* كرومر فيما بعد

يقول سلاتين : (كان من أثر هذه الهزيمة أن نبذ غلادستون تلك السيادة السلبية وتقدم إلى الحكومة المصرية يشير عليها بإخلاء السودان بحيث تنتهى حدودها الجنوبية عند وادى حلفا وكان ذلك فى نوفمبر سنة ١٨٨٣) [1] . جاء فى كتاب حاضر العالم الاسلامى ما يأتى : (فأشار الإنجليز على مصر- والإشارة هنا بمقام الأمر - أن تتخلى عن السودان وتتركه وشأنه ولم يكن ذلك إلاّ توطئة لفتحهم السودان ، فإنهم ما لبثوا أن جردوا جيشا يقوده ضباط إنجليز رئيسهم الجنرال كتشنر ، فاستفتحوا السودان برجال مصر ومال مصر ، وعادوا يقولون للمصريين السودان مشترك بيننا وبينكم والحقيقة أنها شركة أسمية لأن كل شئ فى السودان فى يد انجلترا) [2]

وعندما صمم الوزراء المصريون على التمسك بالسودان اضطر وزير خارجية بريطانيا اللورد (جرانفيل) أن يبرق إلى السير إفلن بيرنج فى ٤ من يناير ١٨٨٤ بما يفيد استعداد الحكومة الإنجليزية بتعيين وزراء انجليز إذا تعذر وجود مصريين يقبلون تنفيذ أوامر الخديوى تحت إرشاد الإنجليز) [3] .

حمل بيرنج أراء حكومته لشريف باشا رئيس الوزراء المصرى وزملائه الذين رفضوا رفضا باتا قبول فكرة التخلى عن الخرطوم ، وكانت حجتهم أنهم إذا تخلوا عن الخرطوم فسيهدد المهدى حدود مصر الجنوبية نفسها ، ولكن البريطانيين رفضوا التراجع عن سياستهم فاضطر شريف إلى الاستقالة فخلفه نوبار باشا الذى بدأ فى تنفيذ سياسة الإنجليز وكاد أن يتم الإخلاء لولا تدخل الصحافة البريطانية بمقالاتها المطولة التى مكنت إحدى الشخصيات المرتبطة بالسودان من التدخل ، حيث أدلى الجنرال غردون بحديثه المشهور الذى نشرته جريدة (بال مول جازيت) طرح فيه أفكاره المريضة موضحا تصوره للطريقة المثلى

---

(١) السيف والنار فى السودان ص٥٧

(٢) حاضر العالم الاسلامى ، لوثروب ستوارد الامريكى ، جـ٢ ، ص ١٩٦ الطبعة الرابعة ١٣٩٤هـ/١٩٧٣

(٣) السيف والنار ص٥٩ .

لقهر ثورة المهدى واحترم الرأى البريطانى آراءه كخبير فى شئون السودان ، فأصبح إيفاده إلى السودان بعد هزيمة هكس مطلبا شعبيا فى لندن[1] ، وكان بيرنج (كرومر) يرفض استعمال غردون ، لأن الثورة دينية وغردون مسيحى متعصب لمسيحيته وبالفعل عند ما وصل غردون القاهرة وضح له كرومر بجلاء أن مهمته هى سحب الحاميات من السودان .

عودة غردون إلى السودان :

في يوم ٢٨ من ربيع الأول سنة (١٣٠١) غادر غردون مصر متجها إلى السودان ، وفى أسوان التقى بالقسيسين الكاثوليك الذين كانوا دعاة للنصرانية فى الخرطوم ، وعند ما أحسوا بالخطر يحدق بها هربوا إلى مصر فسألهم غردون عن الأحوال ، فكانت إجابتهم مخيبة لآماله ، وعند ما وصل ركب غردون إلى كرسكو كتب خطابا إلى المهدى ومعه هدية من نوع الهدايا التى تقدم عادة لمشايخ الأعراب ، وكان مضمون الخطاب يحتوى على الاعتراف بالمهدى سلطاناً على غرب السودان الذى أخضعه برجاله ولا شك أن هذا نوع من الانهزام الواضح حيث يقول غردون : (إننى اعترف بك سلطانا على السودان الغربى كله ، وملكا مطلقا على كل أقاليمه التى هى كردفان ودارفور ، وأننى لما بلغنى ما أصاب أهل السودان من سفك الدماء وتوالى الحروب خامرنى غم شديد ، ولذا عينتنى حكومة جلالة ملكة بريطانيا العظمى وامبراطورة الهند واليا على السودان ، وصدقت على ذلك الحضرة الفخيمة الخديوية وإننى من صميم فؤادى أرغب فى توثيق عرى العلائق الودية بينى وبين سلطنتكم ، وأرجو أن تسمحوا لى بإعادة المواصلات التلغرافية ، وأظن أن أدوات ذلك قد تلفت فى غضون الخطوب ، وقد أصدرت الأوامر إلى مركز الحكمدارية بأن يعطى لكم كل ما تطلبونه من أدوات التلغراف وأن يستقبل رسولكم كما يستقبل أعظم سفير ، وقد داخلنى حزن شديد لما علمت بقطع طرق

---

(١) انظر كررى ص ٦٥

السودان الشرقي التي جاءت حائلة بين مكة المكرمة التي تقصدونها في كل عام لأداء فريضة الحج ،وزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام فهيا بنا نفتح هذا الطريق ،والقاء السلاح لتشييد أركان الراحة وتوطيد دعائم السلام).[١]

هذا ملخص الخطاب ،وقد أبرق غردون حكمدارية الخرطوم يأمرها باستقبال سفير المهدى بإطلاق المدافع والزينات وإعطائه كل ما يطلبه من أدوات التلغراف.

وقد قوبل هذا الإجراء في الخرطوم بالدهشة والاستغراب ،ولكن الآمال كانت معقودة على أن غردون يرافقه جيش جرار ولذا كان حرصهم على مقدمه عظيما ، وقبل وصوله أبرق بتجاوز متأخرات الضرائب والأموال الأميرية كما تجاوز عن ضرائب ثلاثة أعوام في المستقبل وفصل وكيل الحكمدارية وعين (عوض الكريم أبو سن) زعيم الشكرية مديرا للخرطوم كما عين عبد القادر بن أم مريوم قاضيا لقضاة السودان.[٢]

ولما وصل غردون الخرطوم وخرج من الباخرة هو ورفيقاه أصيب الناس بخيبة أمل ، وقالوا أمن هؤلاء الثلاثة يخاف المهدى ؟

وأملى غردون على مأمور الضبطية خطبته الشهيرة التي كانت ترداداً لخطابه للمهدى صدرها بقوله : (يا أهالي السودان عموما إن الجناب العالي الخديوى يسلم عليكم صغيرا وكبيرا أحرارا وعبيدا ،إناثا وذكورا ،وكذلك جلالة الملكة فكتوريا ملكة بريطانيا العظمى وامبراطورة الهند ،وأنكم لا تجهلون شفقتي عليكم ومحبتي لكم ، وقد ساءني ما سمعته عنكم حيث نشبت الحرب بينكم وتعطلت تجارتكم وسفكت دماؤكم ومنعتم من تأدية فريضة الحج وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ،وقد ساء هذا الحال كلا من جلالة الملكة وسمو الخديوى المعظم فانتدبت من قبل حكومة جلالة الملكة لأكون واليا على السودان ومرخصا فوق العادة

---

(١) السودان بين يدى غردون وكتشنر جـ١ ص ٢٦٧

(٢) المصدر السابق جـ١ ص ٢٦٨/٢٦٩

وقد صار فصل السودان عن مصر فصلا تاما وفوض إلىّ الحكم المطلق . . . الخ) [1]

وما تبقى من الخطبة هو شرح ما كاتب به المهدى كما ألقى فى هذه الخطبة أوامر منع تجارة الرقيق ظنا منه أن هذا سينهى الثورة .

رد المهدى على غردون :

لما وصل خطاب غردون وهديته إلى المهدى ، كتب إليه خطابا ضمنه الاحتجاج عليه بعدم جواز ولايته على المسلمين ودعاه فيه إلى الإسلام إن كان صادقا فيما يزعم وضمنه صورا من إنذاراته لقادة حملات الحكومة ضده وشفعه بآخر شكره فيه على هديته واعتذر عن قبولها لعدم حاجته إلى مثلها لأن ملابسه مما يلبسه الزهاد الذين يعرضون عن متاع الدنيا وهذه فقرات من رده :

بدأ المهدى رده بعد البسملة : (من العبد المفتقر . . . إلى عزيز بريطانيا والخديوية غردون باشا . . . وإنما أنا عبد أحب المسكنة وأكره الفخر وتعزيز السلاطين ونبوهم عن الحق المبين لما جبلوا عليه من حب الجاه والمال والبنين . . فأيدنى الله بالمهدية الكبرى لدلالتهم إلى الله تعالى وليتركوا العز الفانى والنعيم الفانى إلى العز الدائم الأبدى . . فأبت إلى الله الباقى وأخضع لجلاله وأطلب عز الآخرة ، ولا تظن أن هذه الدنيا دار حتى تسعى لملكها وعزها ، وكيف من يكون على خلاف طريق النبى صلى الله عليه وسلم بفتح باب زيارة قبره ، ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم ممن يرغب زيارة الكلاب كما ورد أن الدنيا جيفة وطلابها كلاب ، ولم يكن يرغب ممن عبد غير الله ونسى الله وأعرض عن كلامه وطلب متاع الدنيا الفانية ، فإن كنت مشفقا على المسلمين فبالأولى أشفق على نفسك وخلصها من سخط

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧٥

خالقها وقومها على اتباع الدين الحق باتباع سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أحيا ما اندرس من ملك الأنبياء عليهم السلام وأتى مصدقا لما بين يديه من الكتب ، فجميع الأنبياء عليهم السلام لو حضروا لما سلكوا غير ملته وكلهم يتمنون أن يكونوا من أمته ، ومن حضر بعثته ومن بعدهم لا يقبل منه دين غير دينه فطهر نفسك أولا بالدخول فى ملته ثم أشفق على أمته بسلوك سنته ،فعند هذا تكون الشفيق ،ومن غير هذا فمالك من المحسنين رفيق كيف وقد قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض،ومن يتولهم منكم فإنّه منهم إنّ الله لا يهدى القوم الظالمين) إلى أن قال (إنّما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا . . الخ) وإننا قد امتثلنا أمر الله فما نتخذ وليا إلاّ الله ورسوله والمؤمنين . . . واعلم أنى المهدى المنتظر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا حاجة لى بالسلطنة ولا بملك كردفان ولا غيرها ولا فى مال الدنيا ولا زخرفها وإنّما أنا عبد الله دال على الله وإلى ما عنده فمن كان سعيداً أجابنى ومن كان شقيا أعرض عن دلالتى فأزاله الله عن موضعه وأذله . . . فبعد هذا البيان فإن اهتديت واتبعتنى حزت شرف الدنيا والآخرة ،وفزت بأجرك وأجر جميع من اتبعك وإلاّ هلكت فكان عليك اثمك ومثل آثام جميع من اتبعك)(1)

هذا ولقد كذب واقع الحال ما كان يظنه غردون لأنه لم يتصور أنّ درويشا يثير حماسا دينيا يشتعل كالنار تأتى على اليابس والأخضر ،وهو الذى عرف فى تلك الطبقة من الناس الانزواء عن المجتمع والتظاهر بالمسكنة والانكسار ، وعرف أنّ همهم دخول الخلوات والتدريس للاتباع والمريدين وتلقى الإحسان من الحكومة والأعيان ،فما كان يظن طبقة كهذه تستطيع التأثير على الناس وتقوم بثورة ضد قوات الحكومة الرهيبة وسطوتها المخيفة ونفوذها الفعال ، ولقد كان أكبر ظنه أن اليد الخفية المحركة للثورة من وراء ستار هم كبار ملاك الرقيق ،يعاونهم من اكتوى بنيران الضرائب الفادحة ،ومن رزحوا دهراً تحت نير المظالم

---

(1) انظر السودان بين يدى غردون وكتشنر جـ١ من ص٢٨٧-٢٩٢ .

القاسية ،والمهدى زعيم هذه الحركة قد يكتفى بملك بسيط فى غرب السودان إذا زال السبب الذى من أجله التف حوله الناس،وعقدوا له لواء الزعامة)[1]

وقبل وصوله إلى الخرطوم أبرق إلى المهدى بتعيينه سلطانا على الغرب،كما أعلن إباحة الاتجار فى الرقيق وبعد وصوله أصدر أمرا بتعيين المواطنين فى الإدارات المختلفة ظنا منه أن هذه السياسة الجديدة كفيلة بالقضاء على الثورة ، وما درى أنّ وجوده هو نفسه من أقوى أسباب هذه الثورة.

وبالإضافة إلى ما تقدم كان غردون حريصا منذ أن وصل القاهرة أن يصحبه الزبير عدوه القديم ليعينه فى سحب الحاميات ،ولكن(بيرنج)،وحكومته استبعدوا ذلك واعتبروه ضربا من الهوس،ومع هذا أراد(بيرنج)أن يقطع أمل غردون فجمع بينه وبين الزبير فرفض الزبير مصافحة يد كانت السبب فى سفك دم ابنه وسبه وخرج ، ومع ذلك لم يقتنع غردون الذى يرى فى الزبير مقومات الزعامة الكفيلة بمناوأة المهدى.

غردون يكتشف حقيقة المهدية :

عندما أيقن غردون أنّ الحركة دينية تريد أن تبعث الجهاد الذى يفزع الغرب،وقد أتت بالفعل على بنيانه التبشيرى من القواعد ،غلى الحقد الصليبى فى صدره فتنكر لسياسة الإخلاء وبدأت تظهر فى رسائله عبارات جديدة لم يكن موافقا على مضمونها من قبل من إرسال (التجريدة)و(سحق المهدى)وهذه العبارات الجديدة أدهشت بيرنج[2] فأخبر حكومته التى فهمت أنّ غردون رمى بتعليماتها جانبا واتخذ خطة هجومية واستمرت المكاتبات بين الخرطوم والقاهرة ولندن فيما ينبغى أن يكون ،وكان غردون ينتظر الرد على رسائله ، وعندما تأخر الرد كتب تقريرا مفصلا عن الحالة بتاريخ ١٨/١/١٨٨٤ وبعثه مع معاونه استيوارت،فاعترضه

---

(١) انظر السودان عبر القرون ص ٣١٧/٣١٨

(٢) المصدر السابق ص ٣٣٠

الثوار وأتلفوا باخرته وقتلوه ومن معه ،وأرسلوا التقرير والمستندات إلى المهدى فكان التقرير تبيانا للحالة التى عليها الخرطوم ،وما فيها من عتاد حربى ومؤن غذائيه والوقت الذى تستطيع فيه الصمود أمام الانصار.[1]

وفى الثانى عشر من مارس سنة ١٨٨٤ فوجئ غردون بقطع الخط البرقى لسقوط بربر فى يد الثوار على يد محمد الخير* فانقطعت أخبار غردون نهائيا وأطبق الحصار على الخرطوم فتحول الكلام فى البرلمان الإنجليزى من إنقاذ الحاميات إلى إنقاذ غردون[2] ،فرأى بعض الوزراء الإنجليز إرسال حملة لإنقاذه ،ورأى آخرون أنه خالف أوامر الحكومة فلا ينبغى أن يضحى بقوة من أجل رجل[3] ولكن تحت ضغط الرأى العام الإنجليزى الذى حركه الإعلام وساندته المعارضة فى البرلمان أذعنت الحكومة وقررت إرسال الحملة.

حملة الانقاذ :

قررت الحكومة البريطانية ارسال حملة بقيادة اللورد ولسلى لإنقاذ بطل المسيحية حيث اعتمد لها البرلمان ٣٠٠,٠٠٠ ثلاثمئة ألف جنيه استرلينى ،ووصل ولسلى القاهرة فى ٩ سبتمبر ١٨٨٤ بعد أن عين قائدا عاما فى مصر، وأمرت جهات الاختصاص فى مصر بتنفيذ مطالبه[4] وعندما سمع المهدى بنبأ الحملة أمر بتشديد الحصار على الخرطوم فوجه قواده الإنذارات لغردون.

إنذار ود النجومى أمير الأمراء :

جاء فى رسالته: (أن الامام المهدى المنتظر قد تحركت ركائبه الشريفة من الرهد غازيا الخرطوم بجيوش لاعد لها ،فأنصحك أن تقابله مع من تختار من الأعيان طالبا للأمان ولا شك

---

(١) انظر أصول السياسة البريطانية ص ١٨٤

* محمد الخير: هو الشيخ الذى تلقى على يديه المهدى مبادئ العلوم الشرعية بعد حفظه القرآن الكريم

(٢) انظر السودان عبر القرون ص ٣٣٢/٣٣٣

(٣) انظر المرجع ـ نفسه ٣٣٦

(٤) انظر المرجع نفسه ص. ٣٤ ،وجغرافية وتاريخ السودان ج٣ ص ٨٢٨

أنه سيؤمنك ومن معك، وذلك أولى من سفك الدماء، وأما ما ينقله إليك الجواسيس من أن الإنجليز قد أرسلوا حملة لإنقاذك فكله كذب ، وهم ينقلون إليك لتبذل لهم العطاء كعادتك، وإنّا بعون الله تعالى قادمون على فتح الخرطوم وأخذها منك عنوة، ولكن سيد الجميع الإمام المهدى أمرني بنصحك والرفق بك حقنا للدماء، والسلام على من اتبع الهدى)[(١)]

رد غردون :

(من غردون باشا والى السودان إلى ود النجومى (بالكلاكلة)[*] اعلم أنى لست بمبال بك ولا بسيدك المهدى، ولا بما معكما من الجيوش، وأما خبر قدوم الجيش الإنجليزى فليس هو من اختلاق الجواسيس، بل قد جاءتنى به أخبار رسمية من قبل الحكومة الخديوية ، والدولة البريطانية العظمى، وسترى عن قريب ما يحل بك من الدمار وتقول يا ليتنى مت قبل هذا ، ولا تعد إلى مخاطبتى بعد الآن فهذا آخر العهد بيننا والسلام ٩ من اكتوبر سنة ١٨٨٤)[(٢)]

وعندما وصل المهدى الخرطوم ظلت رسائله مستمرة لغردون واعدا ثم متوعدا وغردون فى صلفه واستكباره . سمع المهدى نبأ وصول حملة الإنقاذ إلى السودان وفى طريقها عبر الصحراء اعترضتها قوات المهدية فمنيت بخسائر فادحة فى آبار أبى طليح ، فجمع مجلس حربه فقرروا مهاجمة الخرطوم ، واصدر أوامره الصريحة إلى قواده بالابقاء على غردون حيا ليفتدى به أحمد عرابى زعيم الثورة العرابية ، وبينما كانت الضربات تتوالى على المدينة والمجاعة تفتك بسكانها أخرج غردون الأطفال والنساء والعجزة إلى معسكر المهدى وكتب له بذلك كتابا يوم ٦ يناير سنة ١٨٨٥ يطلب فيه رعايتهم لأن المجاعة فتكت بما يزيد على خمسة آلاف شخص.[(٣)]

---

(١) سليمان كشه، تأسيس مدينة الخرطوم والمهدية ص ٦٣ ، بدون تاريخ ، وجغرافية وتاريخ السودان جـ٣ ص ٨٢٨ ، والسودان عبر القرون ص ٣٤٤

* اسم قرية تقع جنوب غرب الخرطوم على ضفة النيل الأبيض وتبعد حوالى ٣٠ كلم عن الخرطوم

(٢) السودان عبر القرون ص ٣٤٤ ، جغرافية وتاريخ السودان جـ٣ ص ٨٢٨ ، تأسيس مدينة الخرطوم ص ٦٣

(٣) انظر الثورة المهدية واصول السياسة البريطانية ص ١٧

ولما وصلت طلائع حملة الإنقاذ بالقرب من جزيرة (توتى *) هاجمت مدافع الأنصار السفن المصاحبة لها ،فأيقنوا أن الخرطوم قد سقطت يوم ٢٦/١/١٨٨٥ وهو نفسه اليوم الذى لقى فيه الجنرال غردون مصرعه.

وهكذا وصلت حملة الإنقاذ بعد فوات الأوان (١) ورجع ولسلى إلى دنقلا وقبض على جميع أقارب المهدى وأدخلهم السجن ،وأمرهم بالكتابة إلى قريبهم ليفك الأسرى الأوربيين عامة والقسيسين خاصة مقابل فكاكهم وإلا سيقتلهم جميعا ،فكتبوا بذلك للمهدى فوبخهم على كتابتهم له وأبلغهم أن المسيحيين الذين لديه أسلموا جميعا وتشرفوا بصحبته وصاروا أقرب إليه من أقاربه ،فأطلق ولسلى سراحهم. (٢)

---

(١) توتى : جزيرة صغيرة فى قلب النيل بين الخرطوم والخرطوم بحرى

(١) انظر المصدر السابق والصفحة

(٢) انظر السودان بين يدى غردون وكتشنر جـ٢ ،ص ٥٤ بدون

المبحث الثاني

قيام الدولة المهدية

سقطت الخرطوم ليلة التاسع من ربيع الثاني سنة ١٣٠٢ ، وبعد أربعة أيام من سقوطها عبر المهدى النهر وقصد المسجد الجامع وصلى الجمعة ووجه أتباعه إلى إصلاح المرافق ،واستئناف العمل فيها ،وعين حكام الإقليم ثم شرع يكتب لرؤساء الدول كالخديوى وملكة بريطانيا وغيرهم لمبايعته قبل الوقوع فى قبضته ،ولكن عاجلته منيته حيث مرض بالحمى فى الرابع من شهر رمضان ،وتوفى فى التاسع منه أى بعد خمسة أشهر من فتح الخرطوم بعد أن استخلف عبد الله التعايشي الذى لقبه بخليفة الصديق تمهيدا لتوليته السلطة .

سياسة المهدية مع التبشير النصرانى :

بعد سقوط الأبيض سنة ١٣٠٠هـ دمر الثوار مراكز التبشير المسيحى فى الأبيض والدلنج وملبس وأسروا الرهبان والراهبات طلائع الاستعمار الحديث وبعد هزيمة هكس أمر المطران انطونيو سوقاروا المبشرين الأوربيين بالانسحاب إلى القاهرة وهناك منحهم الخديوى قطعة أرض بالزمالك أقاموا عليها مزرعة لسد حاجاتهم كما أنشأوا إرسالية أطلقوا عليها اسم إرسالية السودان بالمنفى وكانت تحت اشراف الأسقف سوجاروا ثم خلفه فى ادارتها الأسقف روفيجو[1] وأصبح السودان منطقة مغلقة تماما فى وجه التبشير .

الحملة الإنجليزية على السودان :

لم يكن الصراع من أجل أقتسام أفريقيا إلا أحد مظاهر الاستعمار الاقتصادى الذى ساد السياسة الدولية بعد عام ١٨٧٠ ، وكان هذا الصراع عنيفا بقدر اتساع الحقل المفتوح أمام الشهوات المتنافسة حيث تنازعت القوى الأوربية على الأسواق الافريقية

(١) انظر د .ابراهيم عكاشة التبشير النصرانى فى جنوب سودان وادى النيل ص ٥٠

عن طريق الاتفاقات والقروض والضم الذى يتبع فشل السكان فى الصراع المسلح لتفوق الغزاة بالأسلحة الحديثة مما جعل دفاع الوطنيين عن أملاكهم ضربا من المستحيلات[1]، وبجانب هذا التسلط الاقتصادى الذى احتكر الأسواق وسرق المواد الأولية، والغزو السياسى الذى استهدف بسط نفوذ الأوربيين على الشعوب المقهورة كان الغزو الحضارى الشامل الذى استهدف السيطرة الروحية والفكرية على الشعوب المستعبدة المغلوبة على أمرها، وهذا ما عبر عنه (فاسكو دا جاما) عندما حط رحاله فى (كليلوت)* قائلا : (لقد جئنا باحثين عن البهارات والتوابل ساعين لنشر المسيحية بين الناس) وهكذا ارتبط التبشير بالاستعمار منذ أول رحلة استكشافية[2]، وشعرت أوربا عامة وبريطانيا بخاصة بالقلق تجاه تحرك الإسلام فى السودان فمن الناحية الاقتصادية لم يكن فى إمكانها ترك الإشراف على النيل فى أيدى أعداء عتاة لأن النيل تتوقف عليه حياة مصر الزراعية[3] وهذا ما وضح فى رد الوزير المصرى بطرس غالى على مذكرة لورد كرومر بقوله : (لم يبعد عن نظر حكومة سمو الخديو كما تعرف سيادتكم استرجاع مديريات السودان لأن هذه الأماكن بالنسبة لمصر ينبوع حياتها[4] وشعرت بأن حركة المد الإسلامى الموشكة على الامتداد إلى المناطق المجاورة ستهدد مصالح أوربا فى أفريقيا كلها فلا بد من التدخل الأوربى السريع للحيلولة دون ذلك .

وأزعجت حركة الإسلام فى السودان إيطاليا التى رأت فى قيام دولة إسلامية فى قلب أفريقيا أكبر عائق لمخطط البابا الرامى الى تنصير أفريقيا من القاهرة حتى رأس الرجاء ، فألبت بريطانيا لتثبيت أقدامها فى السودان ولم تقف عند التأليب فحسب بل واصلت زحفها المسلح على حدود السودان الشرقية فى ذات الوقت الذى فتحت فيه الخرطوم على

---

(1) انظر شارل اندريه جوليان ، تاريخ أفريقيا ، ترجمة طلعت عوض اباظة وآخرون ص١١٣ ط دار نهضة مصر سنة ١٩٦٨

* كليلوت على الشاطئ الجنوبى الغربى من الهند فهى ليست كلكتا المشهورة وصلها فاسكو دا جاما يوم ٢٧ / ٥ / ١٤٩٨ م

(2) د . مدثر عبد الرحيم ، بين الاصالة والتبعية

(3) انظر تاريخ أفريقيا ص ١٢١

(4) انظر مشكلة الجنوب ص ٦٧

أيدى الأنصار وقتلوا غردون الذى كان يتولى الدفاع عن مصالح أوربا عامة.[1]

واتفقت فرنسا مع الحبشة على أن يجهز الفرنسيون حملة تزحف من مركزهم فى السودان الغربى إلى جنوب السودان الأوسط ،بينما يزحف الأحباش بدورهم من جهة الشرق حتى يلتقوا مع الفرنسيين فى فاشودة ومن ثم يعمل الفريقان لتوطيد سيطرتهما فى جميع ربوع السودان ،وقد كانت بريطانيا قد أبرمت اتفاقا مع المانيا سنة ١٨٩٠ ،لتعيين مناطق النفوذ لكل دولة[2] وواصلت فرنسا العمل بنشاط محموم على توسيع ميدان نفوذها فى السودان لتقطع على بريطانيا خط الوصول وبالفعل وصلت البعثة الفرنسية بقيادة مراشان إلى فاشودة[3] فى أعالى النيل سنة ١٨٩٨ ،وكانت بريطانيا قد أخطرت وزارة الخارجية الفرنسية بأنها تعتبر السودان المصرى منطقة مخصصة لنفوذها وأنها لن تسمح بأى تدخل أجنبى ، وذلك بعد أن ضمنت حياد ألمانيا التلقائى[4] ، كذلك توصلت بعد جهد إلى حياد الأمبراطور الحبشى كما ضمنت حياد تركيا باعترافها السابق لها بالسيادة على السودان وذلك فى اتفاق عقد سنة ١٨٨٥ ،وكان غرضهم من هذا الاعتراف أن تتحمل تركيا عبء تحطيم الخليفة التعايشى ،وبهذا أصبحت حكومة الخليفة تحدق بها الأخطار من جميع الجهات بريطانيا ومصر من الشمال ، وفرنسا من الجنوب ،وإيطاليا من الشرق .

يقول سلاتين : (ولئن تطلعنا إلى الدول صواحب الشأن فى تلك المناطق فإننا نجد فى الشرق إيطاليا وإنجلترا وألمانيا وفى الغرب (الكونغو) بلجيكا وفرنسا وإنجلترا كل من تلك الدول تسعى سعيا حثيثا فى زيادة النفوذ فى جهات مختلفة ،وترمى جميعا إلى وضع الأيدى على أفريقيا الوسطى ،وقد بدأ رجال القبائل المتوحشة الذين يعتبرون أقرب إلى الحيوان منهم للإنسان يدركون حاجاتهم الضرورية)[5]

---

(١) انظر تاريخ أفريقيا ص١٢١ / ١٢٢

(٢) انظر مصر والسودان ، الوضع التاريخى للمسألة ص٦٣ .

(٣) (٤) انظر تاريخ أفريقيا ص ١١٨

(٥) السيف والنار فى السودان ص ٣٩٨ / ٣٩٩

ويقول : (والآن أقول بأنا نجد في الناحية المتوسطةمن أفريقيا بين الأراضي المذكورة أخيرا ، وحيال القوى الأوربية الباسطة نفوذها في الشمال والجنوب والغرب ، نجد في تلك الناحية السودان المصري والذي يخضع الآن لحكم الخليفة عبد الله وأشياع المهدي ، وهم أشد الحكام استبدادا وتسلطا . إن الأوربي كائنا من كان لن يستطيع اجتياز ذلك السودان كزائر أو عامل أو تاجر ، أقول بأن أقصى ما يصيب الأوربي في السودان هو الموت ، وأدنى ما ينتابه هو البقاء طول حياته أو أغلبها أسيرا مغلوبا على أمره)[1]. ويزيد في التأليب بالتشنيع على حكومة التعايشي فيقول : (ولئن كان الرقيق في بادي أمره مقصورا على العبيد فإنه بعد امتداد نفوذ عبد الله - يضم إلى دائرته العدد الكبير من مسيحي الأحباش والسوريين والأقباط المصريين والمسلمين)[2]

ويختم استعداءه بقوله :

(من ذلك البيان الموجز نطلع على الموقف الحالي من الناحية الدفاعية ، والهجومية للمهدي في السودان فإنه كامل العدة متين الشهرة في داخل أملاكه ، ومناطق نفوذه ، لكنه مهدد من جميع الجوانب الخارجية ، وهو إزاء هذا التهديد لا يملك ما يدفع به غارة المجتاحين ، وعندي قليل من الشك في أن امبراطورية الخليفة ستحطم ويتقلص ظلها قبل هجوم قوي من أية دولة متمدنة)[3]

---

(١) المصدر السابق ص ٣٩٩ .

(٢) " " ص ٤٠٢/٤٠٣ .

(٣) " " ص ٤٠٧ .

المبحث الثالث

سقوط السودان في أيدي الانجليز

لقد اتخذ أعداء الإسلام المهدية غرضا لتشويه نظام الإسلام. وقد ذكرنا فيما سبق أن الحكم التركي فتح الباب أمام النشاط الكنسي ، واستغل النصارى ضعف الخلافة العثمانية وتدهور نظام محمد على الوراثي في مصر مما أوقع سدنته تحت سيطرة الأوربيين ، فصار الخديوي كالدمية في أيدي الإنجليز ، يأتمر بأمرهم ويخضع لسلطانهم ويحقق أهدافهم ، ولإرضائهم أسند إدارة السودان إلى المبشرين رواد الاستكشاف وطلائع الاستعمار من أمثال (صمويل بيكر ، وجسي ، وسلاتين ، وغردون) والأخير لم يقف دوره عند تشجيع أعمال الإرساليات فحسب ، بل يعتبر من المؤسسين للتبشير في السودان ، والداعين له فمنذ أن صار حاكما على خط الاستواء سنة ١٨٧١ حرر خطابا لاتحاد الإرساليات الإنجليزية حاثا لهم على الحضور لمديريته للعمل بها [(١)] .

وعندما قامت الثورة المهدية أخلت السودان كله من نفوذ المبشرين وسدت جميع السبل في السودان أمامهم حتى جاء الغزو الإنجليزي المصري فوضع السودان بكامله تحت النفوذ الاستعماري ، ولم يكن السلطان العثماني على علم بما اتفق عليه الإنجليز والمصريون إلا بعد إرسال الحملة ولذا كان رد الفعل عنيفا من جانبه حيث أجاب على كتاب الخديوي بأن إرسال أية قوات مصرية إلى خارج البلاد لاسيما لمحاربة أمة مسلمة يعتمد أساسا على موافقته ، ومن المستحيل لو أخذ رأيه أن يوافق ، وأمام هذا الإنذار الضعيف بدأ الخديوي يتعلل بالحجج الواهية التي من بينها أنه لا يمكن اعتبار الدراويش مسلمين حقيقيين . [(٢)]
وقد كانت أوربا قد اتخذت من الثورة المهدية ونظامها غرضا لتشويه الإسلام ، وذلك منذ

---

(١) انظر محمد عمر بشير ، مشكلة الجنوب ص ٣٣ ، ترجمة هنري رياض وآخر ط دار نهضة مصر الفجالة القاهرة ، التاريخ بدون .

(٢) انظر السياسة البريطانية واسترداد السودان ص ١٢٤/١٢٥ .

هروب المبشرين المسيحيين الذين اعتقلوا بمركز تبشير الدلنج وغيره كبنوني (١) واهرولدر (٢) وسلاتين الذى يقول فى مؤلفه (السيف والنار فى السودان) : (إن أول ما يتبادر إلى ذهن المفكر فى شئون السودان بعد قيام حكم المهديين ،هو مصير المدنية الناشئة الجديدة التى وجدت فى سنى حكم المصريين ،فليس من شك فى أن تغيير الحال ،وحلول الفوضى محل النظام يولدان فى العقل شعورا صادقا بانقضاء كل أثر ظهر للمدنية فى السودان قبل المهديين وهو ما حدث بالفعل فقد اندثرت معالم المدينة رغم طراوتها وجدتها ،والسبب الرئيسى فى اندثارها هو انتقال الحكم إلى أولئك المستبدين الجهلة بل أذهب إلى أكثر من ذلك فأقول إن سبب ضياع المدينة راجع إلى ظهور نفوذ أولئك الهمجيين الذين أسسوا على أنقاض الحكومة السودانية المصرية السياسية نظاما جديدا كان إلى حد ما متتبعا خطوات النظام الماضى فى العرض ولكنه خالفه فى الجوهر ،فبدلا من الحق والعدالة والاخلاق نجد الظلم والباطل البربرى ،والتجرد من نظم الأخلاق فى حكومة المهديين وإنّه لمن الواجب على أن أقرر للقراء بأنّى لن أستطيع ذكر أمة ظلت فى حياة المدنية أكثر من نصف قرن ثم هبطت إلى الدرك الأسفل من الهمجية) (٣)

ولم يقف حقد سلاتين عند هذا الحد لأنه رأى أن كل الجهود التى بذلها المبشرون ذهبت أدراج الرياح بل رأى فى هذا الحركة نذيرا يهدد مصالح أوربا فى أفريقيا فدعا إلى إزالة هذه العقبة الكأداء من وجه (المدينة) فقال : (لنفكر لحظة واحدة فى تلك القوة

---

(١) بنونى : رئيس بعثة الروم الكاثوليك التى وصلت إلى كردفان قبل قيام المهدية ١٨٧٥

(٢) اهرولدر :أحد أفراد بعثة بنونى قبض عليه مع أفراد البعثة سنة ١٨٨٢ واعتقل فترة طويلة فى أمدرمان ،ثم هرب فى عهد الخليفة إلى سواكن وألف كتابه (عشرة سنوات فى سجن المهدية)وهو شبيه بكتاب سلاتين فى التحريض على غزو السودان .

(٣) السيف والنار فى السودان ص ٤٠١ .

الجديدة التي برزت بروز الشر ودعت إلى الفوضى في ربوع السودان مما اعتبرها الأوربيون بحق عقبة كأداء في سبيل المدينة الناهضة ونذيرا بفشل المساعي الكبرى التي بذلوهـا في السنوات الأخيرة في الكثير من جهات تلك القارة الافريقية الفسيحة)[1]

ولقد اتخذ الغرب الصليبي الذي تتزعمه بريطانيا من مقتل غردون مدخلا لغـزو السودان وألف النصارى كتبا للتأليب والإثارة.

وانتشرت هذه المؤلفات المغرضة في كل أنحاء أوربا لا في انجلترا وحدها فثار الرأي العام الأوربي عامة والإنجليزي خاصة وخاصة بعد مقتل غردون واشتد ضغط النصارى على الرؤساء فاسرعوا بتطويق القارة وتضافر نشاط المبشرين على المناطق المتاخمة للسودان منذ مقتل غردون خشية أن يمتد نفوذ الإسلام إليها. يقول الأستاذ (ايندلي)

(لقد أصبحت المناطق الشمالية من نيجريا موضع اهتمام الهيئات التبشيرية بصورة خاصـة منذ قيام ثورة المهدي في السودان الشرقي واغتيال المبشر غردون في الخرطوم، وقد قامت روح حماسية معادية للإسلام في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، عندما بدأت جيوش المهدي وخليفته من بعده تحرز انتصارات باهرة متتالية، وكذلك اعتقال خليفته للقسيسين الكاثوليك الفرنسيين، وتقهقر قوات أمين باشا أمام قوته. وإذا كان احتلال بريطانيـا ليوغندا بعد سنة ١٣٠٨/١٨٩٠ يعد دليلا على عدم استطاعة الخليفة توسيع حـدود دولته الإسلامية إلى ناحية الجنوب، فقد كان هنالك قلق شديد لتوقع زحف حركة المهدي إلى اتجاه الغرب لتطويق المناطق المعروفة بالسودان الأوسط، وهي ما عرفت اليوم بمناطق شمال نيجريا تقريبا وقد كانت الهيئات التنصيرية تترقب وتنتظر بلهف شديد يوما يقوم فيه المسيحيون بأخذ الثأر من قتلة المبشر غردون وتدمير الحكومة الإسلامية في السودان الشرقي)[2] وهكذا أخذ النصارى يهولون الأمر لدولهم ويصمون المسلمين بالتعصب واضطهاد

---

(١) المصدر السابق ص ٤٠٢

(٢) انظر الاستاذ خضر مصطفى التبشير والاستعمار في نيجريا ص١٠ سم مخطوطة بالمكتبة المركزية بجامعة أم القرى نقلاً عن E. A. Ayandele P 118

المسيحيين فأحيوا ذكرى بطرس الناسك الذى هيج الجماهير النصرانية على العالم الإسلامى[1] فجاءت جيوشهم تغلى حقدا لاستئصال شأفة المسلمين بيد أنّهم لم يتخذوا من الصليب شارة لهم كما فعل أسلافهم الصليبيون من قبل. وصدرت الأوامر من بريطانيا إلى سردار الجيش المصرى هربرت كتشنر (Kitchener) بغزو السودان، فكون جيشا يتألف من ستمائة وسبعة عشر ألفا من الجنود مضافا إليه خمسمائة وألفى جندى من غير النظاميين أكثره من الإنجليز، وتحركت هذه القوات من مصر فى مايو ١٨٩٨ وفى يوم ٧ من أغسطس ١٨٩٨ سقطت دنقلا فى أيدى الغزاة، ورفع العلم التركى الذى أنزل قبل أحد عشر عاما، ثم واصل المستعمرون زحفهم إلى عاصمة الدولة المهدية (أم درمان) وزعم قائد الجيش المستعمر أنه أتى ليخلص المسلمين من شر الخليفة وأعوانه كما بدا ذلك واضحا من إنذاره الذى وجهه للخليفة قال فيه: (من سردار الجيوش المصرية والإنجليزية إلى عبد الله التعايشى زعيم السودان، اعلم أن شرورك فى السودان ولا سيما قتلك الجم الغفير من نفوس المسلمين الأبرياء، أوجبت تقدمى بجيوشى إلى هذه البلاد لدك سلطتك، وإراحة البلاد من شرك وبغيك ولكن بين جيوشك الكثير من الأهلين الكارهين لك ولحكومتك، ومن العجزة والنساء والأولاد الذين لا نريد أن يلحق بهم سوء فأعزل عن هؤلاء ديمك[2]، إلى مكان لا تصله القنابل والرصاص لئلا يقتلوا وتكون أنت المسئول عن دمائهم أمام الله وأثبت أنت وأشياعك فقط فى ساحة القتال لتلاقوا النعمة التى أعدها الله لكم.

وأما إن كنتم تودون التسليم حقنا للدماء فاعلموا أننا نستقبل رسلكم استقبالا حسنا ونعاملكم بالعدل والسلام)[3]

وفى فجر اليوم الثانى من سبتمبر سنة ١٨٩٨ تقابل الجيشان وأما المكان فسهل ضيق يحضنه جبل كررى من الغرب حيث وقفت بضع سفائن مصفحة، خفقت بنودها وتراصت جنودها

(١) انظر محمد العروسى المطوى، الحروب الصليبية ص٣٢

(٢) ديم: معسكر

(٣) السياسة البريطانية واسترداد السودان ص١٧٣

وانطلقت مدافعها ،وقد امتد منها إلى الجبل جسر من الخيالة ، والمشاة والرماة ، وما هى إلا ساعة من الزمان حتى غطت الجثث الكثبان ز ،ولندع السير ماكمايكل يصف المشهد : (فلما ابتلع السكون صدى آخر قذيفة لم يكن باقيا من أحد عشر ألف محارب الا أشلاء دامية تبعثرت من حولها مزق من الأعلام وكسر من الرماح وانتهى عهد وبدأ عهد) وهكذا انكسر جيش الخليفة واحتل الإنجليز السودان)[1]

وهكذا أقام الإنجليز على تلال كررى مجزرة من أبشع المجازر التى عرفها التاريخ فى القرن التاسع عشر ، ووصفها استيفنس مراسل الديلى ميل الذى شهدها بقوله : (لم يكن فى وسع جيش من البيض أن يبقى خمس دقائق أمام سيل الموت لو واجه نفس الظروف التى واجهها المهديون ، ولكن هؤلاء البقارة السود واصلوا التقدم وكانت النيران تكتنفهم فتقضى على جماعات بأكملها ،وكان الصف يتشكل ويتقدم تحت طلقات المدافع وشظايا القنابل ،ثم يتوقف إلى الأبد فتشكل صفوف غيره فتحصد حصدا وتحل محلها صفوف أخرى فتلقى نفس المصير ،إنهم لايريدون التقهقر ولا يستطيعون التقدم فى نفس الوقت إنها لم تكن معركة ولكنها مذبحة)[2]

وهكذا سقطت أمدرمان عاصمة المهدية بعد أن دافع عنها المسلمون دفاع الأبطال وسقط أكثر من عشرة الآف مقاتل على أرض المعركة لتفوق الغزاة بالأسلحة الحديثة وبمجرد دخول الغزاة أمدرمان أمر كتشنر بهدم قبة المهدى بدءا فى محو آثار المهدية ،وتمهيدا لغرس مبادئ الحضارة المسيحية وطاردت قواته الخليفة عبد الله ورفاقه إلى أن قتلتهم فى أم دبيكرات فى يوم ٢٤ / ٢ / ١٨٩٩م ١٣١٧هـ ثم كتب كتشنر إلى مارشان فى فاشودة يهنيئه بالانتصار[3] مما يدل دلالة قاطعة على وحدة الهدف لأن الرجلين ليسا على وفاق .

---

(١) مآسى الانجليز فى السودان ص١٣٢

(٢) السياسة البريطانية واسترداد السودان ص١٩

(٣) انظر د . مكى شبيكة ، مقاومة السودان الحديث للغزو والتسلط ص١١ ، طبعة معهد البحوث والدراسات العربية سنة ١٩٧٢

وأخيرا تم الاتفاق بين فرنسا وبريطانيا على أن تنسحب فرنسا من فاشودة وتتوسع نحو الشرق بعيدا عن مناطق النفوذ الانجليزى .

الحكم الثنائى :

لقد رأى كرومر أنّه من الممكن أن يجعل من السودان بلدا لا هو بالمصرى ، ولا هو بالإنجليزى ،وإنما هو بين بين.(١) وترجم المستشار القضائى هذه الفكرة السياسية إلى لغة قانونية .

وفى ١٩/١/١٨٩٩ عقد اتفاق بين الحكومتين على رفع علميهما على أراضى السودان فأصبحت الإدارة الفعلية للانجليز والاسمية لمصر(٢) ، حيث نص الاتفاق على أن يكون رأس الإدارة المدنية والعسكرية انجليزيا يلقب بحاكم عموم السودان ترشحه بريطانيا ويعينه الخديوى ،ويتمتع هذا الحاكم بسلطات مطلقة فى تنظيم إدارة السودان وغيرها من الأعمال التى يراها ضرورية لبقاء النفوذ البريطانى سائداً فى السودان ،وهذا ما نصت عليه المادة الثالثة من الاتفاق ،وهذا نصها : (تفوض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية فى السودان إلى موظف واحد يلقب بحاكم عموم السودان . ويكون تعيينه بأمر خديوى عال بناء على طلب جلالة الملكة ،ولا يفصل من وظيفته إلاّ بأمر خديوى عال يصدر برضا الحكومة البريطانية)(٣)

وجاء فى المادة الرابعة منه : (.. القوانين وكافة الأوامر واللوائح التى تكون لها قوة القانون المعمول به يجوز تحويرها ونسخها من وقت لآخر بمنشور الحاكم العام)(٤)

وهكذا قضى الاستعمار على المهدية وقوانينها الإسلامية ورسموا معالم حضارتهم المادية فى السودان .

---

(١) انظر د . مكى شبيكة ،مقاومة السودان الحديث للغزو والتسلط ص١٢٣
(٢) المصدر السابق
(٣) مصر والسودان فى المسألة
(٤) المصدر السابق ، وانظر السودان فى قرن ص٣١٢

الباب الثاني

وسائل النشاط الكنسي في السودان

ويتكون من تمهيد وستة فصول

التمهيد في : خطة الغرب في استبدال جيوش الصليبية المسلحة بجيوش التنصير

الفصل الأول : إحياء المؤسسات الكنسية التي دمرتها المهدية

الفصل الثاني : سياسة الاستعمار التعليمية وعلاقتها بالتنصير

الفصل الثالث : السياسة التعليمية في جنوب وغرب السودان

الفصل الرابع : التطبيب وعلاقته بالتنصير

الفصل الخامس : الإعلام التبشيري

الفصل السادس : الوسائل المستحدثة في مجال التنصير

التمهيــــد :

إن ما يواجهه الإسلام من ملة الكفر،هو امتداد لمعركة طال أمدها بين الحق والباطل بدأت منذ هبوط الإنسان والشيطان على الأرض،هي معركة الإيمان والكفر،قال تعالى : (قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى)[1]

وجاءت الرسالات الالهية تترا ،تبين معالم الهدى ،وكلما عدت عليها العوادى ،وانتابها التحريف ،وعملت فيها يد المحو والتغيير ،أرسل الله رسولا لهداية الإنسانية إلى صــــراط العزيز الحميد ،حتى كانت الرسالة الخاتمة كما قال تعالى (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب)[2] حيث وجدت الناس قد اجتالتهم الشياطـــين ، فعبدوا الملوك ،لتسلطهم وجبروتهم ،كما عبدوا رجال الدين اتخذاعاً بأكاذيبهم ،قال تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله)[3] وقال سبحانه (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون)[4]

فأخرج الله سبحانه بهذه الرسالة الخاتمة من شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللــــه وحده ،وأورث الله سبحانه المسلمين عروش الأكاسرة ،والقياصرة ،وكراسى النصرانية فى آسيا ، وأفريقيا ،وجنوب غرب أوربا ،ومنذ ذلك العهد ملأ الحقد قلوب أعداء الإسلام ، فصاروا يتربصون به الدوائر حتى تجسم حقدهم فى الحروب الصليبية التى استمرت قرنين ،فعجزت عن تحقيـــق أهداف الصليبية وخارت قواهم وردوا على أعقابهم يجرون أذيال الهزيمة ويتجرعون مـــرارة الفشل .

وكان الملك الصليبى لويس التاسع ملك فرنسا نفسه قائد الحملة الصليبية السابعة الــتى احتلت بعض المدن المصرية واتخذت من (دمياط) نقطة ارتكاز لتحتل القاهرة ،وذلك فـــى عهد الملك الصالح أيوب الذى كان على فراش الموت ،وبعد مضى تسعة أيام على احتلال الحملة

---

(١) سورة طه ،آية رقم ١٢٣ .
(٢) سورة المائدة ،آية رقم ١٥ .
(٣) سورة التوبة ،آية رقم ٣١ .
(٤) سورة آل عمران ،آية رقم ٧٩ .

لدمياط ،توفى الملك الصالح ،في شعبان سنة ٦٤٧هـ الموافق لنوفمبر سنة ١٢٤٩م فكتمت جاريته (شجرة الدر) أمر موته إلا عن بعض خاصة القواد ،وأخذت تدبر معهم الأمر ،وتصدر الأوامر باسم الملك الصالح ريثما يصل ابنه وولي عهده الملك المظفر (تورانشاه) فاستطاعت بذلك حفظ المعسكر الإسلامي من الاضطراب والفوضى[1] ، وأبلى في مواجهة هذه الحملة المماليك بقيادة (الظاهر بيبرس) بلاء حسنا ،وعند ما عاد (تورانشاه) وتولى الموقف كان أول عمل فكر فيه هو أن يقطع على الحملة سبل الإمداد ،فتمكن من إنزال سفن حملت على ظهور الجمال ،فأنزلت في النيل بين الحملة و(دمياط) ففتك الجوع والمرض بكثير من رجالها ، وهزمها المسلمون هزيمة ساحقة وأبادوا منها ثلاثين ألفا ،ووقع الملك (لويس التاسع) مع خمسة آلاف من جنوده في الأسر ،وذلك في المحرم سنة ٦٤٨/ ١٢٥٠م واقتيد إلى معتقله بدار القاضي (إبراهيم بن لقمان) بالمنصورة[2] ، يتجرع مرارة الهزيمة ويشعر بخيبة الأمل ،ويفكر في وسيلة أخرى بعد أن أيقن أن الحروب الصليبية لم تعد قادرة على القضاء على هذا الدين الزاحف ،فلا بد من البحث عن وسيلة أخرى للقضاء عليه.

يقول المؤرخ (جرانفيل) الذي رافق الملك (لويس التاسع) : (إن خلوته في معتقله (بالمنصورة) أتاحت له فرصة ليفكر بعمق في السياسة التي كان أجدر بالغرب أن يتبعها إزاء المسلمين ،والمآخذ التي أفضى بها إلى أعوانه المخلصين أثناء رحلته إلى (عكا) مقلعا من دمياط)[3] في عام ٦٤٨هـ الموافق مايو ١٢٥٠[4] قاده تفكيره إلى أن النعرة الدينية في الغرب قد خبت جذوتها فلم تعد كافية لإثارة الحروب ضد الإسلام والتغلب على المسلمين لأن الحروب الصليبية أنهكت قوى الغرب البشرية والمادية ،وأن قوى الصليبيين في الشرق قد انهارت ،ومات الحافز الروحي الذي كان يدفعهم إلى خوض الحروب وتبدل بحوافز مادية

---

(١) انظر محمد العروسي المطوى ، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ص ١١٩ .

(٢) نفس المصدر ص ١٢٢ .

(٣) انظر محمد على القنيث ، من الحروب الصليبية الى حرب السويس المرحلة الأولى في الصراع بين الشرق والغرب ص ٦٥ .

(٤) انظر الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ص ١٢٢ .

لا صلة لها بالروح وإنما تتصل بالمغانم والأسلاب التى أصبح الطمع فيها هو الباعث الوحيد فى الاشتراك فى تلك الحملات، ولقد جره تفكيره الخبيث إلى أن القضاء على الإسلام، أو وقف مده الزاحف الذى هو هدف أوربا مجتمعة، وفرنسا على وجه الخصوص لم يكن فى وسع الكنيسة أو فرنسا القيام به، بل إن هذا العبء لابد أن تضطلع به أوربا كلها لتضييق الخناق على الإسلام حتى يتم القضاء عليه فيتم لها التخلص من الحاجز الذى يحول دون تملكها (لآسيا) و(أفريقيا).

وعزم لويس على ألا يعود للحرب المكشوفة مرة أخرى بيد أنه لم يف بما قطع على نفسه من عهد، لأنه عندما سمع بالضربات الموجعة التى وجهها المسلمون بقيادة (الظاهر بيبرس) إلى الصليبيين فى الشام أبت عليه صليبيته إلا الخروج مرة ثانية لحرب المسلمين، فقاد الحملة الصليبية الثامنة والأخيرة التى كانت وجهتها إلى المشرق فحولت إلى (تونس) استجابة لطلب أخيه، فحاصرها المسلمون حصاراً محكما حتى فتكت بها الأمراض وكان لويس نفسه ضمن الموتى[1] وبعد موته بدئ فى تنفيذ مشروعه التنصيرى الذى أدخله فى نطاق عظماء مفكرى الغرب وهو التخطيط المبدئى للسياسة التى رأى أنها تمكن الغرب من مواجهة الإسلام، والنيل من قوته فتحولت الحملات الصليبية العسكرية إلى حملات تنصيرية صليبية ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، تهدف إلى نفس الغرض مع اختلاف نوعية السلاح المستخدم فى المعركة لحرب الإسلام ووقف مده.[2]

يقول المؤرخ رينيه جروسيه :

(إن الملك لويس التاسع كان بذلك فى مقدمة الساسة الذين وضعوا للغرب الخطط الرئيسية لسياسة جديدة شملت مستقبل آسيا وأفريقيا باسرهما)[3]

وما يزال الهلع الذى أدخله لويس التاسع فى قلوب الغربيين، يشعل كل يوم حقدا نحو الإسلام واتباعه.

جاء فى مجلة العالم الإسلامى الناطقة بالانجليزية ما يلى :

---

(١) انظر الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ص١٣٦ .

(٢) انظر عماد شرف، حقائق عن التبشير، ص١٠، الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م المختار الاسلامى

(٣) من الحروب الصليبية الى حرب السويس ص٦٧ .

(إن شيئا من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربى ، لهذا الخوف أسباب منها :
أن الإسلام منذ أن ظهر بمكة لم يضعف عدديا ، بل دائما فى ازدياد واتساع ، ثم إن الإسلام ليس دينا فحسب بل إن من أركانه الجهاد ، ولم يتفق قط أن شعبا دخل الإسلام ثم عاد نصرانيا)[1]

وقال لورانس براون :

(لقد كنا نخوف بشعوب مختلفة ، ولكننا بعد الاختبار لم نجد مبرراً لمثل هذا الخوف . لقد كنا نخوف من قبل بالخطر اليهودى ، والخطر الأصفر من اليابان وتزعمها على الصين ، وبالخطر البلشفى ، إلاّ أن هذا التخوف كله لم يكن حقاً كما تخيلناه .

إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا ، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الأكبر ، ثم رأينا البلاشفة حلفاء لنا ، أما الشعوب الصغر فهناك دول ديمقراطية تتكفل بمقاومتها . . ولكن الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام ، وفى قدرته على التوسع والإخضاع ، وفى حيويته ، إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوربى)[2]

ويقول أيضا : (اذا اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية ، أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً ، أو أمكن أن يصبحوا نعمة له ، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم سيظلون بلا تأثير)[3]

وبراون ومن على شاكلته يعلمون أن المسلمين كانوا عبر تاريخهم الطويل فى فترات قوتهم وتماسك وحدتهم ، قوارب إنقاذ للأمم المستضعفة على مختلف عقائدها ، وواحات تفىء إليها عندما يلفحها جور حكامها ، تستشعر معنى الإنسانية وتمارس شعائرها بحرية مما دفع كثيراً منها إلى اعتناق الإسلام من غير إكراه .

فبراون وأمثاله من أعداء الإنسانية الذين لا يريدون لها الخلاص مما تكابده على أيديهم يؤججون نيران الحقد على الإسلام خوفا على مصالحهم .

يقول رود تسون :
(كان الكفاح ضد الإسلام مسألة مطروحة دائما)[4]

---

(١) مجلة العالم الاسلامى الناطقة بالانجليزية عدد يونيو ١٩٣٠ تحت عنوان الجغرافيا السياسية للعالم الاسلامى ، انظر الفكر الاسلامى وصلته بالاستعمار العربى ص٤٦٦ ، وانظر التبشير والاستعمار ص ١٣١ .

(٢) د . مصطفى الخالدى ، وعمر فروخ ، التبشير والاستعمار فى البلاد العربية ص٢٨٤ ، وانظر محمد البهى ، الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار العربى ص٤٦٦ .

(٣) انظر الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ص١٣٦ .

(٤) رود تسون : صورة العالم الإسلامى فى أوربا سنة ١٩٧٠

ويقول سايمون :

(إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السمر وتساعدهم على التملص من السيطرة الأوربية ولذلك كان التبشير يعمل على إظهار الأوربيين في ثوب جذاب ، وعلى سلب الحركة الإسلامية من عنصري القوة والتمركز اللذين هما فيها ، إذا كانت الوحدة الإسلامية تفقد حجة من حججها ، وسببا من أسباب وجودها ، من أجل ذلك قالوا : يجب أن نحول بالتبشير مجاري التفكير في الوحدة الإسلامية حتى تستطيع النصرانية أن تتغلغل في المسلمين ، وعلى هذا الأساس أصبح الأتراك خطراً على أوربا ، لا لأنهم مسلمون ، بل لأنهم أصبحوا قوة تستطيع أن تقف في وجه الأطماع الأوربية)[1]

هكذا ملأ الحقد المشوب بالخوف قلوب ساسة الغرب ومفكريه ، ومن الواضح من تصريحاتهم أن كثرة المسلمين وحدها لا تخيفهم وإن تسببت في إزعاجهم ، وإنما يخيفهم أن تعي هذه الكثرة وتنظم صفوفها فتصبح قوة من الصعوبة مواجهتها ، وهي تملك جميع عناصر القوة - وفي مقدمتها العقيدة الصادقة التي ذروة سنامها الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته - وتحول دون تحقق أطماعهم ، وهم يعلقون آمالهم على العالم الإسلامي عامة وأفريقيا على وجه الخصوص حيث يعتبرها الغرب مخزنا للثروات الطبيعية والزراعية والحيوانية ، وزيادة على ذلك موقعها الممتاز حيث تربط قارات العالم القديم ، كما تشرف على أهم طرق التجارة العالمية فتطل على المحيطين الأطلسي والهندي ، والبحرين الأبيض المتوسط والأحمر ، ويدين معظم سكانها بالإسلام حيث تبلغ نسبة المسلمين ٦٠٪ تقريبا من مجموع سكانها[2] ، مما يجعلها ذات وزن سياسي في حسم النزاع بين المسلمين واليهود في فلسطين وبين المسلمين والنصارى في الحبشة ، وكينيا ، ويوغندا ، وأفريقيا الوسطى ، وغيرها مما جعلها حلبة الصراع العالمي ، والاسلام هو فارس هذه الحلبة ، والسودان من أهم ميادين هذا الصراع ، والمنصرون هم جنودها لخوض هذه المعارك التي تبدأ سلمية فما تلبث إلا أن تكون تمهيدا للاستعمار ثم تفرز أعضل المشكلات الدامية المستعصية الحل .

يقول سير جو نسون : (إن هذه الطريقة السهلة التي يتم بها تثبيت أقدام الأوربيين في أفريقيا يرجع الفضل فيها إلى جهود الهيئات التبشيرية أكثر من استخدام الأسلحة

(١) التبشير والاستعمار ص ٣٧

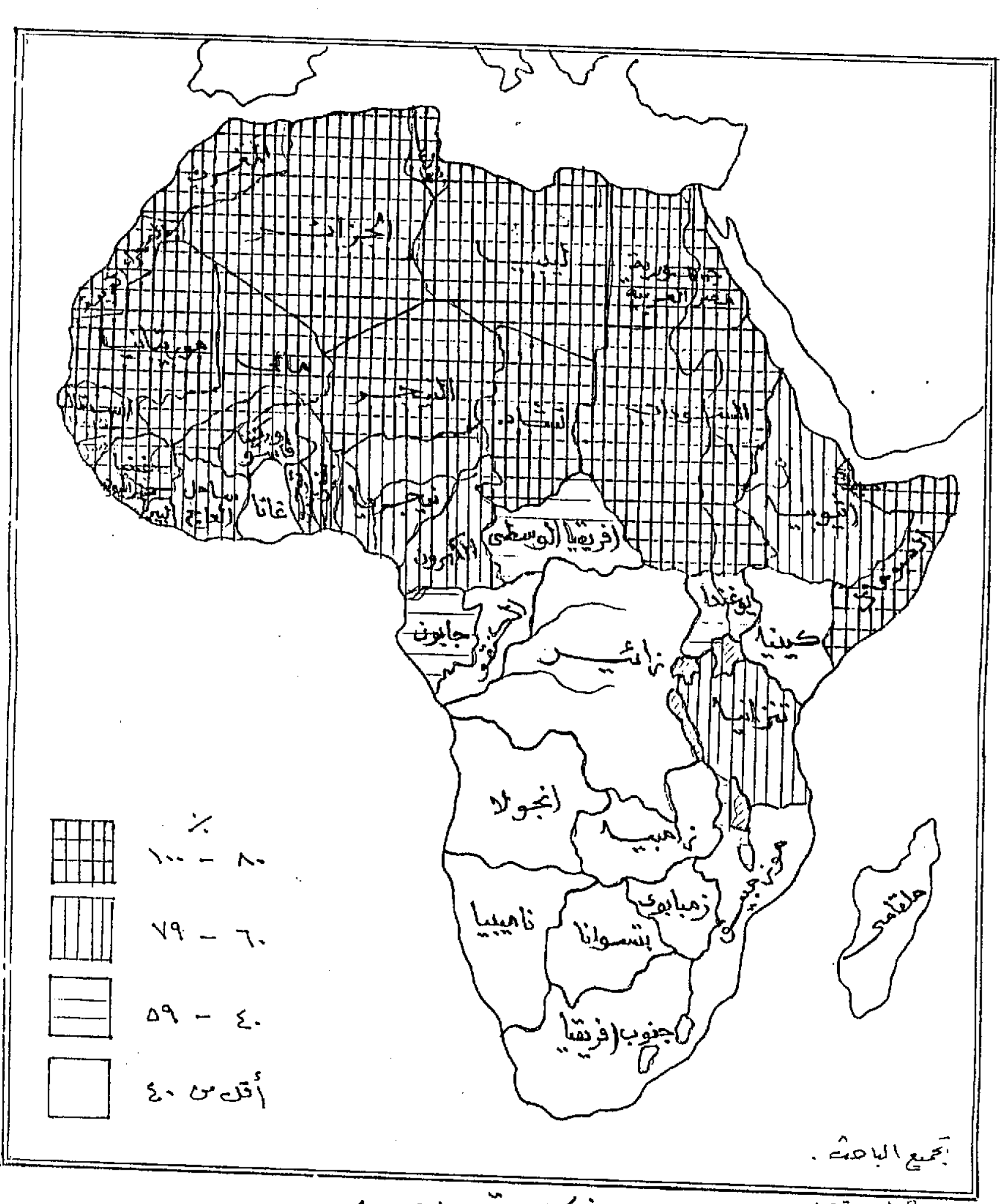
(٢) انظر الشكل رقم (٢)

النارية ،ولكن لو ترك الأمر بعد ذلك فى أيدى الهيئات التبشيرية ،لما تمكنت من إقامة المحميات والمستعمرات الحديثة إلاّ قليلا ،ولم يكن فى استطاعتها ان تقوم بأعباء مسئولياتها المطلوبة) [١].

وهكذا ارتبط التنصير والاستعمار ارتباطا وثيقا ،بعد فشل الحروب الصليبية الأولى فأدار الغرب على المسلمين حربا صليبية جديدة عن طريق التنصير ،واستخدم فى ذلك الكنائس والمدارس والمستشفيات ،وعندما ثار المسلمون فى السودان على هذه الحملات التنصيرية وقتلوا حاميها الجنرال (غردون) الذى كان يعتبر من أكبر حماة النصرانية فى أفريقيا ثار الغرب عامة وبريطانيا على الأخص وطالبا بأخذ الثأر من قتلته باعتباره نصرانيا ولم يكن أخذ الثار هو الدافع الحقيقى بقدر ما كان دافعهم إزالة العقبة الكأداء التى قطعت الطريق أمام أطماعهم فى القارة البكر والمتمثلة فى دولة المهدية التى قامت على أساس الإسلام ،واستمدت بقاءها من تعاليمه وطردت المبشرين ،وأغلقت الطريق أمامهم ،فدفعهم الحقد الصليبى إلى تكوين حملة مسلحة ارتكبت من الفظائع ما سبقت الإشارة إليه وبزوال دولة المهدية تم التحالف بين الاستعمار والتنصير على محو الإسلام من القارة الافريقية .

---

(١) انظر الشكل رقم (٣)



تجميع الباحث .

مصدر المعلومات :
(١) إدارة العالم الإسلامي : خريطة (١٥/١١/١٤٠٢هـ)
(٢) د. خالد المطيري : دراسات ... للعالم الإسلامي

شكل رقم (٢)

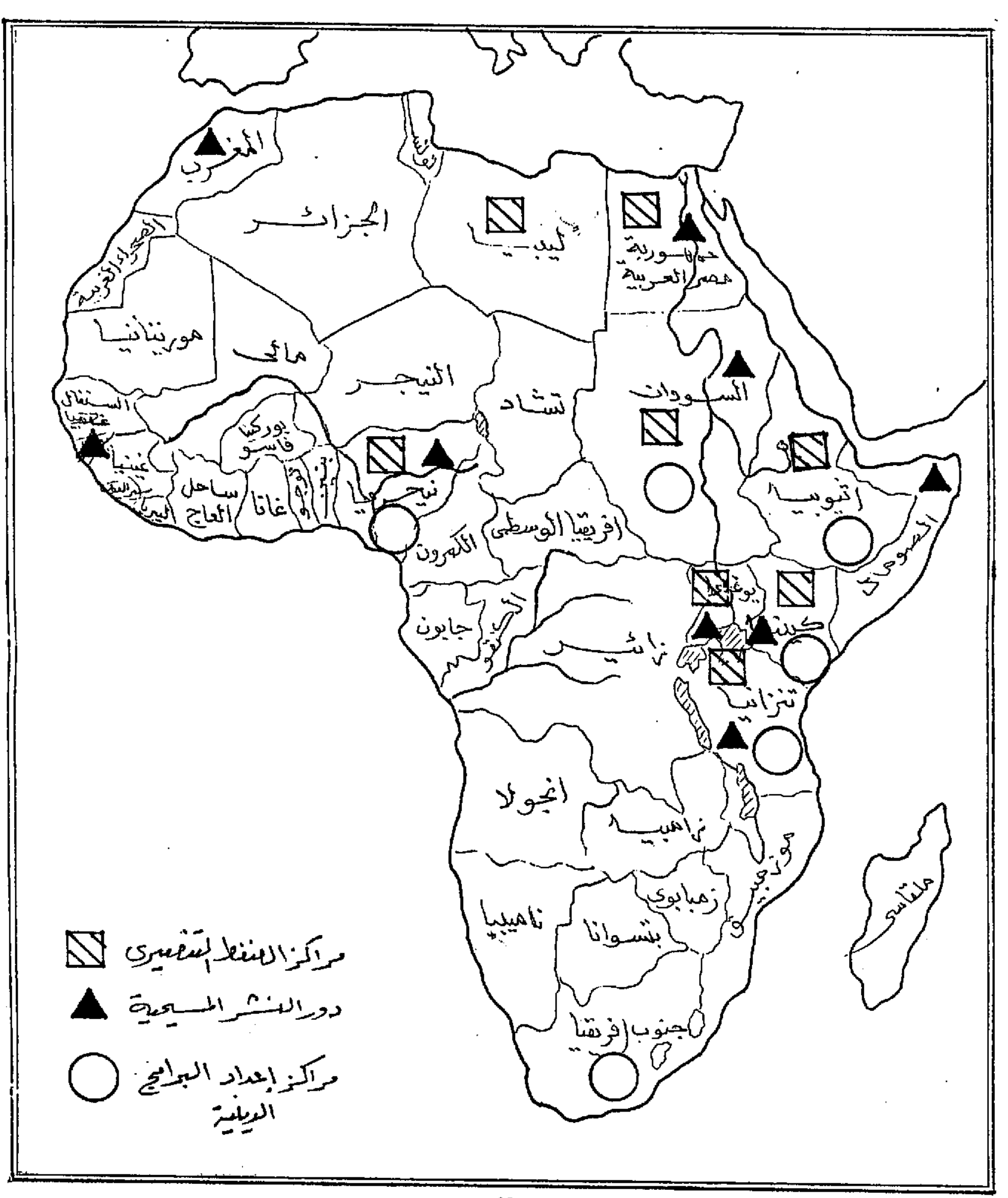
المسلمون في إفريقيا بالنسب المئوية

احصائية تبين عدد المسلمين ونسبتهم المئوية من مجموع
سكان قارة أفريقيا حسب احصاء عام ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م (١)

الدولة	مجموع السكان	عدد المسلمين	النسبة المئوية	ملحوظات
السودان	٢٩ر٩٠٠ر٠٠٠	١٤ر٨٥٧ر٠٠٠	٨٣٪	
اثيوبيا	٢٩ر٤٠٠ر٠٠٠	١٩ر١١٠ر٠٠٠	٦٥٪	
أفريقيا الوسطى	١ر٩٠٠ر٠٠٠	٠ر٧٥٠ر٠٠٠	٤٪	
الجزائر	١٨ر١٥٥ر٠٠٠	١٧ر٩٧٣ر٤٥٠	٩٩٪	
السنغال	٥ر٠٨٥ر٠٠٠	٤ر٨٣٠ر٧٥٠	٩٥٪	
الصومال	٣ر٥٠٠ر٠٠٠	٣ر٥٠٠ر٠٠٠	١٠٠٪	
الكنغو برازفيل	١ر٤٠٠ر٠٠٠	٠ر٢٨٠ر٠٠٠	٢٠٪	
المغرب	١٨ر٩٥٠ر٠٠٠	١٨ر٧٦٠ر٥٠٠	٩٩٪	
النيجر	٤ر٩٠٠ر٠٠٠	٤ر٦٠٦ر٠٠٠	٩٤٪	
انجولا	٦ر٣٠٠ر٠٠٠	١ر٥٧٥ر٠٠٠	٢٥٪	
بنين	٣ر٣٠٠ر٠٠٠	١ر٩٨٠ر٠٠٠	٦٠٪	
بوتسوانا	٠ر٧٠٠ر٠٠٠	٠ر٠٤٧ر٠٠٠	٧٪	
بوروندى	٣ر٩٠٠ر٠٠٠	٠ر٧٨٠ر٠٠٠	٢٠٪	
تشاد	٤ر٢٠٠ر٠٠٠	٣ر٥٧٠ر٠٠٠	٨٥٪	
تنزانيا	١٦ر٠٠٠ر٠٠٠	١١ر٢٠٠ر٠٠٠	٧٠٪	
توجو	٢ر٣٠٠ر٠٠٠	١ر٣٨٠ر٠٠٠	٦٠٪	
تونس	٦ر٥٠٠ر٠٠٠	٦ر٢٤٠ر٠٠٠	٩٦٪	
جابون	٠ر٥٠٠ر٠٠٠	٠ر٢٥٠ر٠٠٠	٥٠٪	
جامبيا	٠ر٦٠٠ر٠٠٠	٠ر٥١٠ر٠٠٠	٨٥٪	
جنوب أفريقيا	٢٤ر٠٠٠ر٠٠٠	٠ر٤٨٠ر٠٠٠	٢٪	
جيبوتى	٠ر٢٠٠ر٠٠٠	٠ر٢٠٠ر٠٠٠	١٠٠٪	
بواندى	٤ر٥٠٠ر٠٠٠	٠ر٢٧٠ر٠٠٠	٦٪	
زائير	٢٦ر٣٠٠ر٠٠٠	٢ر٦٣٠ر٠٠٠	١٠٪	
زامبيا	٥ر٢٠٠ر٠٠٠	٧٨٠ر٠٠٠	١٥٪	
زمبابوى	٦ر٨٠٠ر٠٠٠	١ر٣٦٠ر٠٠٠	٢٠٪	
ساحل العاج	٧ر٠٠٠ر٠٠٠	٤ر٢٠٠ر٠٠٠	٦٠٪	
سيراليون	٣ر٢٠٠ر٠٠٠	٢ر٠٨٠ر٠٠٠	٦٥٪	
غانا	١٠ر٤٠٠ر٠٠٠	٣ر١٢٠ر٠٠٠	٣٠٪	
غينيا	٤ر٧٠٠ر٠٠٠	٤ر٤٦٥ر٠٠٠	٩٥٪	
غينيا الاستوائية	٠ر٣٠٠ر٠٠٠	٠ر٠١٩ر٠٠٠	٣٣٪	
غينيا بيساو	٠ر٥٠٠ر٠٠٠	٠ر٣٥٠ر٠٠٠	٧٠٪	
فولتا العليا	٦ر٤٠٠ر٠٠٠	٤ر٠٩٦ر٠٠٠	٦٤٪	
كميرون	٦ر٧٠٠ر٠٠٠	٤ر٠٢٠ر٠٠٠	٦٠٪	
كينيا	١٤ر٤٠٠ر٠٠٠	٤ر٦٢٠ر٠٠٠	٣٠٪	
لوسوتو	١ر٢٣٠ر٠٠٠	٠ر١٢٣ر٠٠٠	١٠٪	
ليبيا	٢ر٦٢٠ر٠٠٠	٢ر٦٢٠ر٠٠٠	١٠٠٪	
ليبيريا	١ر٧٠٠ر٠٠٠	٠ر٥١٠ر٠٠٠	٣٠٪	
مالاوى	٥ر٣٠٠ر٠٠٠	٢ر١٢٠ر٠٠٠	٤٠٪	

(١) انظر الدكتور السيد خالد المطرى : دراسات فى سكان العالم الاسلامى ص ٥١٠ ، طبعة لجنة البحث العلمى لكلية الآداب ، جامعة الملك عبد العزيز سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .
وهناك احصائية تشير الى أن مجموع السكان حوالى ٢٢ مليون ونسبة المسلمين ٨٥٪ .
وانظر احصائية رابطة العالم الاسلامى التى نشرت فى ذى القعدة ١٤٠٢هـ .

الدولة	مجموع السكان	عدد المسلمين	النسبة المئوية	ملحوظات
مالـــى	٦ر٣٠٨ر٠٠٠	٥ر٦٧٧ر٢٠٠	٩٠٪	
مصر	٤٢ر٠٠٠ر٠٠٠	٣٩ر٤٨٠ر٠٠٠	٩٤٪	
ملقاسى	٧ر٩٠٠ر٠٠٠	١ر٦٧٥ر٠٠٠	٢٥٪	
موريتانيا	١ر٧٥٠ر٠٠٠	١ر٧٥٠ر٠٠٠	١٠٠٪	
موزنبيق	٩ر٥٠٠ر٠٠٠	٢ر١٨٥ر٠٠٠	٢٣٪	
ناميبيا	٠ر٩٠٠ر٠٠٠	٠ر٠٠٦ر٣٠٠٠	٧٪	
نيجريا	٧٤ر٦٠٠ر٠٠٠	٥٢ر٢٢٠ر٠٠٠	٧٠٪	
جزر القمر	٠ر٤٠٠ر٠٠٠	٠ر٣٧٦ر٠٠٠	٩٤٪	
مورشيوس	٠ر٩٠٠ر٠٠٠	٠ر٦٣٩ر٠٠٠	٧١٪	
يوغندا	١٣ر٢٠٠ر٠٠٠	٦ر٦٠٠ر٠٠٠	٥٠٪	



المصدر: (١) عبد الجليل رضا (١٩٨٤) التبشير في افريقيا

شكل رقم (٣)

مراكز الضغط التنصيري في إفريقيا

الفصـــل الأول

إحياء المؤسسات الكنسية التى د مرتها المهدية

المبحث الأول : الشروع فى تنفيذ الخطط التنصيرية المرسومـــة

كتب ج . كرايف رائد جمعية الكنيسة التبشيرية C.M.S. وهذا اختصـــار لـ Church Missionary Society لشرق أفريقيا فى السنوات الأخيرة من عمره : (إن فكرة إنشاء سلسلة متصلة من المحطات التنصيرية تمتد من رأس الرجاء الصالح إلى القاهرة سوف تتولى تنفيذ ها الأجيال القاد مة حيث إن الأفكار تد رس (١) د ائما قبل أن يجرى العمل بعشرات السنين ،وأنا أوصى بهذا الفكرة لكل مبشر قاد م إلـــى شرق أفريقيا ،وبعد سقوط أم د رمان بدأ الطريق مفتوحا لإنشاء حلقات وصل جد يد ة فـــى سلسلة بعثة كرايف السائحة (٢) وقد كانت جماعة الكنيسة التبشيرية تتطلع لمثل هذا العمـــل منذ مقتل غرد ون فى الخرطوم حيث جمعت ثلاثة آلاف جنيه إنجليزى لإنشاء إرسالية تذكاريـــة لغرد ون ،وذلك فى سنة ١٨٨٦ واقترحت مد ينة (سواكن) فى شرق السود ان مقرا لهـــذه الإرسالية لأنها خارجة عن نطاق سيطرة الخليفة غير أن زيارة الد كتور هاربر سنة ١٨٩٠ أقنعت الجماعة بأن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا العمل ،وقد كان لجماعة الكنيسةالتبشيرية وإرسالية الكنيسة المشيخية للولايات المتحد ة الأمريكية خبرة طويلة فى العمل بالبـــلاد الإسلامية فاستعد تا بخططهما لمحاولة تنصير السود ان ،وبعد سقوط امد رمان بثلاثة أشهر رجع السرد ار كتشنر إلى بلاد ه لقضاء إجازته ،واغتنم فرصة رجوعه والاحتفاء به فخطب مستنفرا شعبه للإسهام فى ترميم ما د مر من منشآت وتخريب ما عمر من العقول المد ركة لحقيقـــة الغزو الإنجليزى الصليبى . وفى نفس اليوم الذى تسلم فيه د رجة الد كتوراة الفخرية فـــى القانون من جامعة أد نبرة فى التاسع والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٩٨ تسلم مفتاح المد ينة

---

(١) انظر الشكل رقم (٣)

(٢) The Christian Approach to Islam in the Sudan P.12

فى اجتماع حاشد جزاء ما حقق من انتصار لشعبه ، وقال اللورد (روزبرى) فى تحيته له فى الحفل . . إن على البريطانيين إذا أرادوا ألا تدهمهم مرة أخرى غيمة مظلمة من (البربرية) أن يبدأوا فى إنشاء مركز للتعليم ،وحث سامعيه قائلا - أى عار وأى انتكاس - إذا لم تشترك هذه الأمة العظيمة الغنية الفخورة بالتحرر من نير الماضى ،المباهية بما فعله كتشنر من أجلها وأى معنى لتكريمه إذا لم تحقق مطالبه وتساندة فى كل ما يطلبه وتشترك معه من القصر حتى الكوخ . ولما جاء دور كتشنر ليرد على التحية والمجاملة اغتنم فرصة الحماس ليوجه النداء لتنفيذ مشروعه فذكّر سامعيه أن العلمين الإنجليزى والمصرى يرفرفان فوق الخرطوم نتيجة لحملته على السودان ،وأعرب عن أمله فى أن لا ينزلا أبداً ،وأعلن أن المهمة الأولى التى تشغله هى تمدين تلك المناطق الشاسعة ،وقال : إنه يتمنى للشعب الإنجليزى أن يتدخل ويعطى ما لا تعطيه الحكومة وقال : إن المهدى ككل مستبد شرقى آخر كان يقف فى وجه التعليم ،وقال إن البلد حين يزدهر ولابد سيزدهر سيكون باستطاعة الناس أن يدفعوا نفقات تعليم أبنائهم .

وقال إنه بصدد تأسيس كلية غردونية تذكارية على نمط إنجليزى بواسطة أساتذة إنجليز ليقدموا التعليم الذى يرتبط بالتطور فى المستقبل ،وأن الكثير يمكن أن يقال عما نحققه لإزالة التعصب والعبودية ، ثم قال إننى أؤكد وأنا أخاطب جمهورا اسكتلنديا أنكم وقد ورثتم أرضا خصبة لم تحرث منذ ثلاثة عشر عاما فلا بد أن تخصصوا بعض الإنفاق لحراثة الأرض لتتمكنوا من الحصاد . ثم وجه كلامه إلى أولئك الذين ينفقون مبالغ كبيرة للإعلان عن بضائعهم قائلا : إنه من المفيد لكم أن تنفقوا شيئا من المال لتعليم سكان تلك السوق الجديدة التى فتحت أمامكم ليقرأوا إعلاناتكم ،وأنكم إذا لم تعلّموا ذلك الشعب فإن آخرين غيركم سيعلمونهم ويغرسون فى عقولهم أفكارا ومؤثرات قد تؤدى إلى صعوبات عظمى . ووضّح أن المبلغ المطلوب لإنشاء الكلية مائة ألف جنيه لتكون الكلية فى المستوى اللائق بالأمة الإنجليزية ، وأن تسعين ألفا من أصل هذا المبلغ ستخصص لضمان مرتبات الأساتذة الإنجليز . وأخيرا شكر اللورد

روزيرى والحكومة واللورد كرومر على العون الذى يلقاه منهم ،ووجه نداءه للأمة الإنجليزية حكومة وشعبا وإلى شعوب المستعمرات للمساهمة فى هذا المشروع وختم حديثه بتوجيه الدعوة إلى أمريكا قائلا : إننى أدعو شعب الأمة الشقيقة العظيمة الناطقة بالإنجليزية أمريكا لمساعدتى فى إنشاء كلية تذكارية جديرة بغردون فى الخرطوم.

وكانت الاستجابة فورية وجادة حيث وصل المبلغ الى ١٣٥٠٠٠ جنيه استرلينى فى أقل من شهرين ،واهتمت الملكة نفسها بالمشروع وأصبحت راعية له وعلى الفور وضع قيد التنفيذ[1] واغتنم مندوبو جماعة الكنيسة التبشيرية هذه الفرصة وزاروا كتشنر ليحصلوا منه على إذن لتنفيذ خططهم الرامية لنشر التنصير فى وسط مسلمى السودان فقوبلوا برفض الطلب لأنه ينبغى ألا يفعل ما يثير حماس المسلمين الدينى ولكن اللورد كتشنر لم يعترض على عمل التبشير فى المناطق الوثنية[2] فكتشنر ينفذ السياسة التى رسمها له كرومر ،وهى سياسة تختلف عن سياسة المبشرين فى الوسيلة وتتفق معها فى الغاية. فالمبشرون يسعون إلى نزع الأفراد من مجتمعاتهم ومثل هذا الأمر مع تعذره وصعوبته عمل خطير فى نظر كرومر ،وليست خطورته مقصورة على المبشر بل الحكومة نفسها لا تنجو من خطره.

سياسة كرومر:

بنى كرومر سياسته على أن يسلخ المجتمع بكامله من الإسلام فى هدوء وتؤدة ،وهو رجل أهّله ذكاؤه ومكره لإنجاح السياسة التى جنى ثمارها فى مصر واتخذ من حماقة الفرنسيين درسا علمه الكثير . ولذلك قسّم منطقة نفوذه (مصر والسودان) إلى ثلاث مناطق لكل سياستها التبشيرية التى تناسب ظروفها.

(١) د. ناصر السيد ،التعليم فى السودان ص١٠١/١٠٢

(٢) انظر محمد عمر بشير ، مشكلة جنوب السودان ، ص ٥٠/٥١

المنطقة الأولى :

مصر ، وغالبية سكانها من المسلمين الذين تتخللهم فئة كبيرة نالت حظا من التعليم الغربى يجعلها أداة طيعة لتنفيذ سياسة بريطانيا ، مع وجود فئة غير قليلة تعتنق المسيحية منذ قرون خلت ، وقد كان اتصال مصر الطويل بأوربا قد ساعد على انتشار التعليم العلمانى ونظم الحكم الأوربية .(١)

المنطقة الثانية :

وتشمل الجزء الشمالى من السودان وغالبيته العظمى من المسلمين وكلهم فى وضع أبعد عن المدنية الغربية من أخوانهم فى الإسلام بمصر ، وليست بينهم طبقة مثقفة ولم يكن اتصال السكان بالغربيين أو نظم الحكم الأوربية قد حدث فى السودان إلاّ منذ سنوات قليلة ، وهذه المنطقة يقول عنها كرومر إن أهلها سذج ، وأنّهم مهيئون إلى حد بعيد للإثارة الدينية التى تجعلهم غنيمة سهلة للذين يستغلون الدين فى نشر مبادئهم الزائغة كما حدث من قبل .

المنطقة الثالثة :

تنحصر فى جنوب السودان ، وسكانه من الوثنيين الذين لم يتم احتكاكهم بالمسيحيين حتى فى السنوات القريبة جدا ، إلاّ فى بعض الحالات النادرة التى كان يقوم بها الرحالة ، أما صلاتهم بالمسلمين فكانت تتمثل فى نظرتهم لقوة الدراويش فى فترة حكم التعايشى ، وغارات تجار الرقيق .(٢)

وعلى أساس هذا التقسيم وضع كرومر سياسته العامة للتنصير فى السودان خاصة وأفريقيا بشكل عام ، فبينما أعطى المبشرين حرية واسعة للعمل فى مصر ، كان يرى أنه من المستحيل أن تتبع نفس السياسة بالنسبة لشمال السودان دون أن يترتب عليها من المخاطر ما لا تحمد

---

(١) يعنى كرومر بذلك أن مصر قد قطعت شوطا بعيدا فى العلمانية فتبلد حسها الدينى فلا خوف على المشرين منها

(٢) انظر د . ابراهيم عكاشة ، التبشير النصرانى فى جنوب سودان وادى النيل ، ص ٦١ .

عواقبه . وعزا ذلك لجهل السكان وعدم تمدنهم الذى يؤدى بهم إلى عدم التمييز بين المبشر والإدارى ،سواء أكان بريطانيا أم أوربياً من أى جنسية ،لذا كان يرى أنه إذا أطلق العنان للنشاط التبشيرى فسوف لا تكون النتيجة غير مثمرة فحسب بل ستخلق شعوراً بالاستياء يؤدى حتما إلى حدوث اضطرابات تطيح بكل الأعمال التى تقوم بها الحكومة فى مضمار المدنية لتلك البلاد سواء أكان لها ارتباط بالنشاط التبشيرى أم لا ولذلك أقر أن الوقت لا يزال بعيداً لممارسة العمل التبشيرى بين المسلمين .

أما فيما يتعلق بالمنطقة الثالثة التى حددها بجنوب (فاشودة) فإنه يرى ألا ضرورة لوضع قيود على المبشرين بهذه المنطقة ،بل يعلن استعداد الحكومة لتقديم المساعدة المادية للمبشرين.(١)

موقف الإرساليات من سياسة كرومر:

جاء رد الإرساليات وجمعيات التبشير على تلك السياسة التى انتهجها كرومر عنيفا ، حيث زعمت مؤسسات التنصير بأن المسيحية كانت الدين الرسمى لسكان السودان منذ عدة قرون ،وأنّ إعادة فتح السودان أتاح الفرصة لغرسها من جديد فى أقليم كان أصلا تابعا لها.(٢)

ترمنجهام وسياسة الحظر:

تعاطف سبنسر ترمنجهام سكرتير جماعة الإرسالية التبشيرية مع سياسة الحكومة فقال :

(يستطيع الإنسان التعاطف مع وجهة نظر كرومر ،فطبيعى أن تكون الحكومة التى وقع عليها عبء حكم الشعب ـ الذى أبدى الإسراف فى الحماسة الدينية ـ حذرة من أن يثير المبشرون المسيحيون المسلمين عليها ،وعندما تخفف شدة هذه القيود فينبغى أن تظل مراكز النشاط قريبة من مراكز السلطة .

---

(١) The Christian Approach to Islam in the Sudan P. 16/17.

(٢) مشكلة الجنوب ص ٤٩ / ٥٠

إنّه لجلى لأى أحد يعلم شيئا عن ذكاء المسلم* إنه ينبغى تأييد الموقف الرسمى للحكومة الذى يحظر العمل التبشيرى ،لأنه بالتأكيد سيجعل الشعب يحس بأن الحكومة تنشد تغيير عقيدته ،ولقد كانت الحكومة حكيمة فى حذرها لأن روح المهدية لم تمت بعد.[١]

وكانت هذه السياسة فى نظر الإرساليات عائقا لتنفيذ الأهداف ومخيبة لآمال وتطلعات غردون.[٢]

ولذلك اجتمع مجلس الكنائس وقرر ما يلى : (إنّ الشعور العام فى بريطانيا يطالب بحق بأن أى مجهودات مبذولة لتخليد ذكرى غردون يتعين أن تنطوى على نشر تعاليم المسيح بين جميع الأجناس والقبائل التى تقطن فى حوض أعالى النيل" وإنّ علينا والحال هذه تقوية مؤسساتنا بمصر لتمتد رسالتنا إلى الخرطوم والمناطق المجاورة لها عندما تسمح العناية الألهية بذلك.[٣]

وفى الاجتماع المئوى لجماعة الكنيسة التبشيرية ،فى الثانى من مايو سنة ١٨٩٩م خطب سكرتير الجماعة خطبة مثيرة قال فيها : (إنّ اللجنة مستعدة لأن ترسل فرقا رائدة إلى السودان الفسيح عن طريقين من أهدى الطرق إلى بلوغه ،ففى طرابلس تدرس فئة (الهوسا) والمؤمل فى خريف هذا العام أن تنطلق فئة إلى ماوراء النيل لتشغل بعض المواقع فى المديريات الاستوائية بشرق السودان - إنّ اللجنة لتتوقع أن يستجيب الله لابتهالاتها فيفك - عن قريب - حظر النشاط التبشيرى فى أعالى النيل[٤] . وظلت الجمعيات التبشيرية وبعض الأفراد فى بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية يطالبون كرومر وكتشنر بفك حظر النشاط التبشيرى فى شمال السودان وجنوبه على السواء وكان كل الحماس يدور على تخليد ذكرى غردون باعتباره بطلا مسيحيا استشهد فى سبيلها ،وتصورهم للإسلام كقوة معادية للمسيحية وحائلة دون تطلعاتهم نحو أفريقيا لذلك لم تفتر هممهم بالمطالبة.[٥]

---

* وهذه الشهادة من سكرتير جماعة الكنيسة التبشيرية ترد زعم كرومر بأن المسلمين جهلة

(١) The Christian Approach to Islam in the Sudan P.18

(٢) مشكلة الجنوب ص ٥٠

(٣) مشكلة الجنوب ص ٤٦

(٤) The christian Approach to Islam in the Sudan P.13

(٥) انظر مشكلة الجنوب ص ٤

المبحث الثاني

طلائع المبشرين تصل السـودان

بدأ المبشرون يقدمون على السودان زرافات ووحدانا وكان من أبرز هؤلاء المبشريـن الذين وصلوا السودان (ليولن . هـ. جوينر) الأسقف التابع للكنيسة التبشيرية والـذى يعتبر المؤسس الحقيقى للعمل التنصيرى فى مصر والسودان وهو أول مبشر لجماعة الكنيسة الإنجليزية يدخل السودان بعد سقوط أمدرمان ،وكان على الدوام باعث النشاط بـين المبشرين ،وكان ذا قدرة فائقة حيث استطاع أن يستميل المبشرين من كل الطوائف وأن يجعل من الادارة الانجليزية أداة طيعة فى أيدى المبشرين[1]!

لقد اتجه لولين . هـ . جوينر من بريطانيا إلى السودان عن طريق القاهرة فى ٣ من نوفمبر سنة ١٨٩٩ وعندما وصل مصر حيل بينه وبين دخول السودان لعدم استتباب الأمن وبعد مقتل الخليفة سمح له بالدخول هو والدكتور هاربر مدير مستشفى جماعة الكنيسـة التبشيرية بالقاهرة بشرط ألا يتحدثوا عن المسيحية للمسلمين ،لأن النشاط التبشيرى مازال محظورا بينهم ،وكان المبشرون يعتقدون أن الحكومة مبالغة فى سياسة الحظر ،يدفعهم الحماس الدينى والتعصب ضد الإسلام مع جهلهم بالفوارق بين سكان أفريقيا ،فحسبوا أن السودان كالمناطق الأفريقية الأخرى المأهولة بالسكان غير المسلمين ،وكانوا كما قال كرومـر فى خطاب بعث به إلى لورد سالزبرى: (يرون ألا بد من السعى لتنصير جميع سكان البلاد مسلمين ووثنيين،شماليين وجنوبيين ،وقد وصف كرومر الضغوط الشديدة التى تعرض لهـا للنزول على وجهة نظر المبشرين فى خطاب خاص أرسله إلى لورد (لانزداون) جاء فيه :

(إننى ما زلت أحاصر حصاراً عنيفاً يحيط بى من كل الجهات كيما أصرح بالتنصير فى السودان

---

(١) The Christian Approach to Islam in the Sudan P.19

فالكاثوليك ومن خلفهم الحكومة النمساوية ،والكنيسة الانجيلية يدعمها عدد من الآباء ذوى النفوذ والجاه ،والجمعية المسيحية وغيرها من الجمعيات التبشيرية كلهم ينعقون بنفس الشعار . إننى لا أمانع فى السماح للمبشرين بمزاولة نشاطهم بين الوثنيين من سكان الاقاليم الاستوائية ،أما أن يطلق لهم العنان فى الوقت الحاضر بين مسلمى الشمال المتمسكين بإسلامهم فتصرف أحمق يوشك أن يكون جنونا)[1]

ولم تدم هذه السياسة الإدارية طويلا فمنذ أن وصل (لولين جوينى) الخرطوم[2] بدأ فى التأثير على الإداريين طالبا منهم رفع الحظر على العمل التنصيرى فى الخرطوم معللا ذلك بأن سكانها لم يكونوا جميعا مسلمين بل فيها كثير من المسيحيين من الطوائف المتباينة ،وفضلا عن ذلك فهى مقر الحكومة ،ولذا فإن أى نشاط تبشيرى صادر عن جماعة يمكن مراقبته باهتمام . يضاف إلى ذلك أن السكان المسلمين متصلون اتصالا مباشرا بالسلطات الحاكمة أكثر من المقيمين فى المديريات القاصية كما أن هناك حاجة شديدة للتعليم بين المسلمين والمسيحيين ، والحكومة لم تستطع تلبيتها بمايكفى من مواردها الخاصة . وتحت هذه الظروف أذن بفتح مدارس الإرساليات فى الخرطوم ، وبدأت الحكومة تخفف من القيود تحت تأثير أمثال (جوين) والدكتور (هول) ،لاقتناعها أن هؤلاء المنصرين أدركوا سياستها تجاه المسلمين وكشفت صحيفة الدكتور (هول) مدى تقيده بقرار حظر الحديث عن الدين للمسلمين بالرغم من أن ذلك أحزنه لإضاعته فرص الإيمان بالمسيح كما زعم وكانت على زعمه تعرض له دائما ويقول (هول) : (إن شرف مبادرة اقتحام الأديم الصخرى لتعصب السودانيين الدينى ضد المبشرين الصليبيين يعزى لخدمة الاسكندر و(إيفا هول) المكرسة وتضحيتهما حتى حلت الصداقة محل التحزب والريبة ،ويسوق (هول) شاهداً على ما ذكر فيقول : قدمت

---

(١) مدثر عبد الرحيم ،مشكلة الجنوب ص ٣٥ / ٣٦

(٢) حسن مكى ،التبشير فى العاصمة ص٢

امرأتان من منزل الشيخ على التوم ،وفى خلال انتظارهما لمقابلتى قالتا لزوجى : قبـــل حضوركم كنا نصدق القول بأن الرجال مفسدون وكنا نمر بالمنزل عن بعد ،ولكن ما عدنا نصدق ذلك. وهذا إقرار مشجع على أهمية عمل النساء العاملات فى السودان. إن الاسكندر وايفاهول امتلكا إلى حد كبير سمات الصبر والأمل السمات التى بدونها لا يجرؤ أحد أن يكون بينهم مسيحيا)(١)

وشددت الإرساليات الضغط على الحكومة فوجههم كرومر فى تقريره سنة ١٩٠٢ بقوله: (. . أما من وجهة نظر الإرساليات البريطانية فإنّ هذه القيود حتى الآن ليست ضرورية حيث أن مجالات العمل فى الجزء الجنوبى من السودان وحاجتها للتمويل أكبر من أن تستوعب نشاط الإرساليات)(٢) وأخيرا سمحت الحكومة لإرساليتين ذواتى خبرة فى العمــل وسط المسلمين* بمزاولة العمل الطبى والتعليمى فى المدن التى يوجد فيها مسيحيـــون ولم يسمح لهم فى البداية بمخاطبة المسلمين بالمسيحية ولكن نظرا لاحتكاك المسئولين الحكوميين برجال الإرساليات تبين لهم أن طريقة عمل المبشرين وسط المسلمين لا يشكـل خطرا على الأمن العام لذلك تغيرت نظرة المسئولين إلى عمل المبشرين فخففت القيود شيئا ما،ومع ذلك لم يسمح لأى جمعية أخرى غير الجمعيتين المذكورتين بالعمل وسط المسلمين.(٣)

يقول جوينى : (بينما كنت مهموما حزينا فى دارى على أثر عدم التصريح لى بتنصير المسلمين إذ جائنى رسول يدعونى مستعجلا لقصر الحاكم العام ،فذهبت والدنيا مظلمة أمامى ،وإذا بى أتلقى معاملة مذهلة فقال لى الحاكم العام مبتسما : لقد صرح لك بافتتاح مدارس فى الشمال ،فرقص قلبى فرحا وأيقنت أن الله استجاب دعائى . فما الفرق بين السماح لى بتنصير المسلمين والسماح لى بتعليم أطفالهم)(٤)

وأصبح السودان حلبة للصراع الكنسى لمختلف المذاهب المسيحية من شتى أقطـار الغرب لا يجمع بينها إلا حرب الإسلام وتنصير المسلمين .

---

(١) The Christian Approach to Islam in the Sudan P. 16

(٢) Ibid P.14

* الارسالية الاسقفية والانجيلية الامريكية

(٣) Ibid P.17

(٤) التبشير فى العاصمة ص ٨

المبحث الثالث

المؤسسات الكنسية العاملة بالسودان

البعثة الكاثوليكية :

لقد كانت الكنيسة فى روما أول من فكر وحاول العمل التنصيرى فى السودان كما سبقت الإشارة إلى ذلك فوصل الفوج الأول من القسيسين النمساويين الكاثوليك سنة ١٨٤٨م إلى الخرطوم ، حيث تلقاهم بها (لويجى منتورى) الذى هرب من أثيوبيا عقب اضطهاد الكنيسة الاثيوبية للكاثوليك ولجأ إلى السودان سنة ١٨٤٢م وبالرغم من أن الحكومة المصرية منعت التبشير وسط المسلمين فقد حصل هذا القس على قطعة أرض بنى عليها كنيسة ومقبرة كما بنى بها مدرسة صغيرة بحجة تعليم أبناء النصارى[(١)]. ونسبة لقرار الحكومة المصرية فقد حصر المبشرون الكاثوليك نشاطهم فى المناطق الوثنية فى جنوب السودان خاصة ، ولكن حالت دون نجاحهم عوائق أدت إلى وقف أعمال التنصير فى هذه الفترة ، ذلك أن الأوربيين لم يألفوا المناخ الاستوائى الوخيم المرتفع الحرارة الملئ بالأمراض المهلكة التى قضت على أربعة وستين مبشرا فى وسط أفريقيا فى خلال أربعة عشر عاما ، وفرّ الباقون شمالا إلى الخرطوم فأمر البابا بإغلاق هذه الإرساليات وعودة العاملين بها إلى روما ونقلت مهامهم التبشيرية إلى كلية فيرونا سنة ١٨٦٧[(٢)] ، وتم تعيين دانيال كمبونى نائب قسيس لافريقيا الوسطى فوصل الخرطوم سنة ١٨٧٣ على رأس فوج من المبشرين الكاثوليك وقد سبق أن زار الخرطوم ضمن زمرة من المبشرين سنة ١٨٥٧ ، ويعتبر مؤسس الكاثوليكية فى شرق أفريقيا والسودان بصفة خاصة ، وقصته شبيهة بقصة بولس[(٣)] . وقد زعم كمبونى كما زعم بولس قبله أن الله أوحى إليه أن يواصل عمله بالرغم من إغلاق الإرساليات فى السودان ، وطاف على كل العواصم

---

(١)(٢) تاريخ المسيحية ص ٢٢٨

(٣) انظر ص ١٤ من هذا البحث .

الغربية حتى موسكو معلنا عن خطته داعيا اليها كما فعل بولس من قبل فأسس قبل قدومه الأخير إلى السودان مدرسة فى فيرونا سنة ١٨٦٧ لإعداد المبشرين للعمل وسط أفريقيا وأسس جمعية أخرى للراهبات سنة ١٨٧٢ فعينه البابا رئيسا لإرسالية وسط أفريقيا ، وأعطاه سلطة لإعادة فتحها ،ومنذ وصوله السودان شرع فى العمل لتنصير السكان وامتد نشاطه إلى كل الأقطار الأفريقية المجاورة. وركز على السودان فبنى مركزا تبشيريا فى مدينة بربر وأقام المزارع المسيحية حول الأبيض فى (ملبس) و(الدلنج) وكان ينوى إقامة مزرعة أخرى فى شرق السودان فى مدينة القضارف وامتد نشاطه إلى الجنوب حيث أنشأ كنيسة وسط الدينكا وروضة لأبناء النوير[1] فكافأه البابا على جهوده فعينه سنة ١٨٧٧ أسقفا لأفريقيا الوسطى ، وفوضه الخديوى بمرسوم عال ليجوس خلال السودان بحجة محاربة تجارة الرقيق.

واستغل هذا المطران ظروف الجفاف سنة ١٨٧٨ والفيضان سنة ١٨٧٩ ،وهى ظروف شبيهة بالظروف الحالية التى يمر بها السودان فذهب إلى أوربا طالبا العون من أجل منكوبى المجاعة والفيضان ، ووظف كل ما جمعه لتنصير السودانيين - كما هى عادة المبشرين يستغلون ظروف الحاجة لينشروا سمومهم - ولأجل ذلك أطلق عليه لقب (أبو السودان). وكان حريا بأن يدعى سرطان السودان لأنه المؤسس الحقيقى للنشاط الكنسى المتكامل ، فبمجرد وصوله إلى الخرطوم[2] سنة ١٨٧٣ أعاد فتح مدرسة الإرسالية ،وجلب لها عددا من السودانيين والسودانيات للعمل بها بعد أن تخصصوا فى أوربا ومصر فى أعمال التنصير وفتح مدرسة للبنين وأخرى للبنات بالأبيض وطور المزارع إلى مراكز زراعية فى قرية (ملبس) من ضواحى الأبيض سنة ١٨٧٥ وأنشأ مركزا مماثلا بالدلنج سنة ١٨٧٨ واستمر عمله المتواصل فى السودان عامة مع التركيز فى جبال النوبة. وبعث كمبونى عددا كبيرا من السودانيين ذكورا وإناثا ليتخصصوا فى أعمال التنصير ،وكان تفكيره منذ قدومه السودان أن يؤسس عملا

(١) انظر التبشير فى أفريقيا ص١٣٢.
(٢) انظر تاريخ المسيحية فى الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث ص ٢٣٧

تنصيريا متكاملا ومستقرا فشيد المؤسسات الكنسية بالمواد الثابتة وركز على أن يتولى العمل أبناء السودان وأقام الحواجز الضخمة فى وجه التقدم الإسلامى إلى جنوب وغرب السودان وظل يعمل حتى هلك قبل الثورة المهدية سنة ١٨٨١م ولقد أوقفت الثورة المهدية نشاط المبشرين وأغلقت السودان فى وجههم .

استئناف عمل المبشرين الكاثوليك :

استأنفت مؤسسات كمبونى عملها فى السودان سنة ١٨٩٩ بقدوم اثنين من الكاثوليك الألمان أحدهما (اوهلر ولدر) الذى عرف السودان وكان يعمل بمركز تبشير الدلنج وعندما سقطت الأبيض كان من ضمن المعتقلين وقضى عشر سنوات فى أمدرمان حتى تمكن من الهروب سنة ١٨٩٢ وكتب كتابا بعنوان(عشر سنوات فى معسكر المهدى) والثانى (بانهولزر) تقدم هذان القسيسان بطلب لكتشنر لاسترجاع مبانى الإرسالية الكاثوليكية بالخرطوم وكانت الحكومة قد استولت عليها ،لكن كتشنر منحهما قطعة أرض على النيل عوضا عن أرض الإرسالية القديمة فأقاما عليها الإرسالية الكاثوليكية وهى الآن كتدرائية القديس (متى) ومدرسة الراهبات الكاثوليكية الموجودة حاليا أمام دار الاتحاد الاشتراكى السودانى (سابقا)[1]

وفى أواخر سنة ١٨٩٩ قاد المطران (روفيجو) مطران الخرطوم الجديد أول دفعة من جمعية كمبونى ووصل أمدرمان سنة ١٩٠٠ وبدأ فى شراء المنازل ،وجمع المسيحيين المقيمين فى أمدرمان وحوّل بعض هذه المنازل إلى مساكن للراهبات ومدرسة للبنين ثم اشترى منازل أخرى وحوّلها إلى مدرسة بنات وكنيسة لجميع المسيحيين من كل الطوائف ،وفى أكتوبر من نفس العام وصلت دفعة جديدة من الراهبات ليستأنفن نشاطهن بين النساء وفتحن مدرسة للبنات بأمدرمان وأخرى وسط الخرطوم[2] وظلت الإرسالية الكاثوليكية تنمو وتتسع حتى صار لها بالعاصمة

---

(١) كان فى عهد حكومة جعفر نميرى التى سقطت فى أبريل ١٩٨٥

(٢) انظر تاريخ المسيحية ص ٢٢٨

ثمانى كنائس بالإضافة إلى مقر القاصد الرسولى(١) ـ الذى أنشأه البابا فى ديسمبر سنة ١٩٧٤ استجابة لطلب القسيسيين حيث أنشئت منطقتان تبشيريتان الأولى فى الشمال ومقرها الخرطوم والثانية فى الجنوب ومقرها جوبا وفى مايو سنة ١٩٧٥ أقامت حكومة النميرى علاقات دبلوماسية مع الفاتيكان على مستوى السفراء وهذا ما لم تكن الكنيسة تحلم به فى الستينيات(٢) وأدرك (رفيجو) ضرورة مواصلة العمل بالجنوب فشرع يجمع التبرعات واشترى باخرة من انجلترا تم تركيبها فى أمدرمان سنة ١٩٠١ وسافر بها إلى الجنوب وأقام أول إرسالية فى قرية (لول) وسط قبيلة (الشلك) وكان يهدف إلى إحياء الإرسالية الكاثوليكية القديمة ولكن لم يجد أذنا صاغية من الإدارة البريطانية فتوجه إلى بريطانيا ليشكو الإدارة الى الملكة، وفى طريقه هلك فى القطار بمحطة بربر سنة ١٩٠٢.(٣) وجاء خلفه فواصل العمل بالجنوب وأسس مركزا تبشيريا آخر فى (تونجا) ببلاد (الشلك) كما أسس ثلاثة مراكز ببحر الغزال سنة ١٩٠٤-١٩٠٥ وهى مراكز (كيانخو) و(أميلى) و(واو)(٤) بيد أن العمل التبشيرى لم يستقر من أول وهلة بمدينة (واو) لما سبق القول انها كانت شبيهة بمدينة شمالية للأثر الاسلامى فيها ولذا عارض الأهالى أعمال التبشير وتطورت هذه المعارضة حتى أدت إلى إحراق مساكن الإرسالية ثلاث مرات ما بين سنة ١٩٠٥-١٩٠٨ وكانت خسارة الكنيسة فادحة فى المرة الأخيرة لأن الحريق أتى على كل ممتلكاتها كما قضى على مواد تموينها لسنة كاملة مما اضطر النصارى إلى إقامة المبانى بالمواد الثابتة (الحجر والطوب المحروق) تفاديا للحريق(٥). وتعتبر مديرية بحر الغزال ومدينة واو بالتحديد من أقوى المنافذ للإسلام تجاه الجنوب لذلك ركزت الإرساليات بمعاونة الحكومة البريطانية لوقف الزحف الاسلامى على الجنوب وسميت هذه السياسة (السياسة الجنوبية) هدفت هذه السياسة إلى منع تغلغل الإسلام فى مناطق القبائل النيلية. ولقد أفزع اعتناق بعض القبائل

---

(١) انظر التبشير فى العاصمة ص ٤

(٢) The Catholic Church in the Sudan A golden apportunity lost P. 12

(٣) تاريخ المسيحية ص ٢٤٧

(٤) المصدر السابق ص ٢٤٧

(٥) انظر المصدر السابق ص ٢٤٨

الواقعة فى غرب بحر الغزال للإسلام - (كالكريش) (وفوروقى) (وباندا). الخ - أفزع ذلك المبشرين والمستعمرين فهرعوا يقيمون السدود فى وجه الزحف الإسلامى المتدفق من جنوب دارفور حيث صار رؤساء هذه القبائل يستخدمون العربية ويعتبرون أنفسهم من المسلمين وقد كتب المبشر (أرشيكون شو) سنة ١٩٠٩ ما لم تتنصر جميع هذه القبائل السوداء خلال السنوات القليلة القادمة فإنها ستتحول لا مندوحة إلى المحمدية.(١)

كما استأنف الكاثوليك نشاطهم بغرب السودان سنة ١٩٠٦ إلى ١٩١٦ حيث مات آخر قسيس كاثوليكى بالدلنج وعطلت الإدارة البريطانية نشاطهم أثناء الحرب العالمية الأولى وحولت امتيازهم بغرب السودان سنة ١٩٣٤ إلى الكنيسة الأسقفية للعمل بهذه المنطقة وعموما تعتبر الكنيسة الكاثوليكية من أكبر المؤسسات الكنسية التى تهدد أمن البلد واستقراره كما سنوضح ذلك فيما يأتى إن شاء الله.

الإرسالية الأسقفية :

بدأت محاولات هذه الإرسالية لتأسيس عملها بالسودان فى سنة ١٨٧٠ بواسطة المبشرين الألمان، وعندما كان غردون بالسودان أعرب عن أمله فى قيام بعثة لهذه الكنيسة، وكل هذه المحاولات لم يكن لها أثر يذكر قبل غزو السودان ووصول المطران (لولين جوينى) الذى وصل مع هاربر سنة ١٨٩٩(٢) بموجب اتفاق تم بين المندوب السامى (كرومر) بمصر (وكتشنر) حاكم السودان و C.M.S. للعمل فى المناطق الوثنية، ولكن (جوينى) لم ينفذ الاتفاق، فمكث بأمدرمان خمس سنوات محاولا العمل التبشيرى بين المسلمين وبالرغم من أن كرومر وكتشنر دهشا من قرار C.M.S. بالبقاء بأمدرمان إلا أنهما لم يجبراها على تنفيذ الاتفاق ولكنهما لم يرخصا لها فى العمل وسط المسلمين.

وعندما أعلن (بليث) أسقف الإرسالية الإنجليزية بالقدس ضم السودان الإنجليزى المصرى لأسقفية القدس سنة ١٨٩٩ حُذِّر رسميا من قبل المسئولين البريطانيين بحكومة السودان من

---

(١) The Christian Approach to Islam in the Sudan P.38

(٢) انظر تاريخ المسيحية فى الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث ص ٢٥٣

ممارسة أى نشاط تبشيرى فى القطر.[1]

وفى سنة ١٩٠٣ هدأت الأحوال فعين (جوين) قسيسا للجيش وأعطى تصريحا للعمل فى المناطق الوثنية فأبحر مع ثلاثة من أتباعه هم (شو، وتوم، وهادو) يصحبهم آخرون إلى الجنوب ليؤسسوا هناك أول مركز لهم فى (واد المان) وهى قرية تبعد حوالى ٩ أميال جنوب (منقلا) عاصمة الاستوائية فى ذلك الوقت. وعانى هؤلاء المبشرون الكثير بسبب الأمراض الاقليمية التى أنهكت قواهم وأودت بحياة أكثرهم إذ لم ينج منهم إلا (جوين) و(شو) وتعلم الأخير لغة الدينكا.

وفى سنة ١٩٠٨ عين (جوين) أسقفا مساعدا لرئيس أساقفة القدس وأصبح مسئولا عن رعايا الأسقفية فى مصر والسودان وأثيوبيا واتخذ من الخرطوم مقرا له[2] وفكر جديا فى انشاء أسقفية منفصلة للسودان وكان قد وضع حجر الأساس لها سنة ١٩٠٤ فعاونته الإدارة البريطانية لتنفيذ مشروعه فجمع فى نفس العام الذى عين فيه مساعدا لأسقف القدس ١٩٠٠٠ر تسعة عشر ألف جنيه استرلينى لقيام أسقفية السودان التى تم بناؤها سنة ١٩١٢ وحدد السادس والعشرون من يناير من نفس السنة موعدا لافتتاحها، لأن غردون كان قد قتل فى مثل هذا اليوم، ودعى لحضور حفل الافتتاح أسقف لندن، ولكن ونجت كتب لجوينى أن أسقف لندن قد وضع نفسه غرضا لهجوم الشيخ على يوسف كاتب (المؤيد) المتعصب بمهاجمته الاسلام فى خطاب سلمه إلى مبشرى C.M.S. بقاعة البرت. لذا ألغى كتشنر دعوة الأسقف مع اقتناع ونجت بضرورة الاحتفال وزيارة الأسقف ولكن الخوف من حدوث اضطرابات حال دون حضوره وتم الافتتاح فى موعده وبسبب هجوم أسقف لندن على الإسلام ألغى المسئولون عطلة الأحد التى كانت مقررة فى كل محافظات السودان بحجة أن الموظفين أغلبهم من البريطانيين، وأصبحت العطلة الرسمية لكل موظفى الدولة ما عدا

---

(١) انظر تاريخ المسيحية فى الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث ص٢٥٣

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٥

بورتسودان والمحافظات الجنوبية هى الجمعة بدلا عن الأحد[1]،وبعد أن عين جوين أسقفا للسودان اهتم بالجنوب اهتماما زائدا ،فسافر للمرة الثانية سنة ١٩١١ وكان برفقته (شو) فزار بحر الغزال ويامبيو، ومريدى، ولوكا، رغبة فى اختيار أماكن مناسبة للعمل هناك.

وفى سنة ١٩١٢ أقام الدكتور (كليف غور) وامرأته فى يامبيو وبدآ العمل بين قبيلة الزاندى، ونقلا الانجيل الى لهجة الزاندى وألفا معجما من الإنجليزية إلى لهجة الزاندى واستقر الراعى (لول جيبسون) سنة ١٩١٧ فى (ييى) وتعلم لهجة (الكاكو) وبدأ يبشر بها.

أما (فريزر) وزوجه فقد استقرا فى (لوى) حيث أقاما مستشفى تبشيريا بين قبيلة (المورو)[2] وظل جوينى ينادى بضرورة فتح المجال التبشيرى بين المسلمين وهو مطلب ضمنته C.M.S. البريطانية فى مذكرة رفعتها إلى السردار فى أيامه الأولى من الاحتلال ووقع عليها عدد كبير من الشخصيات الإنجليزية البارزة من ضمنهم أفراد من العائلةالمالكة وكان نتيجة هذا الضغط التصريح بفتح المدارس[3] دون العمل المكشوف لأن وقته لم يحن بعد ،وبدت الإدارة متعاطفة مع الإرساليات بصفة عامة والأسقفية بصفة خاصة ،وخاصة عند ما خلف ونجت كتشنر حاكما عاما للسودان فقلل من القيود التى وضعها كرومر وكتشنر على التبشير فى الشمال لأن ونجت نفسه يعتبر من المبشرين مع إيمانه أن التبشير السافر سيجره إلى مشاكل . ولذا آثر التبشير الهادى ،الهادف ففتح المجال أمام المبشرين فى أخطر المرافق (التعليم- الطب)[4] كما سنذكر ذلك مفصلا فى موضعه إن شاء الله .

---

(١) Gabriel Warbwry the Sudan under wingate P.111

(٢) تاريخ المسيحية ص ٢٢٥

(٣) The Sudan under wingate P.110

(٤) Opcit P.111

الكنيسة الأمريكية المشيخية :

استقدمت الإدارة البريطانية كثيرا من المسيحيين للاستعانة بهم فى بعض الوظائف الكتابية والحسابية وكان من بين هؤلاء المسيحيين بعض المصريين والسوريين الذين اعتنقوا المذهب الإنجيلى ، ومن الجدير بالذكر أن هذا المذهب دخل مصر سنة ١٨٥٤ م عن طريق المجلس المشيخى للارساليات الأجنبية الذى اشتهر باسم الإرسالية الأمريكية .

وكان عدد أتباع هذا المذهب المستقدمين للعمل بالسودان حوالى ٧٥ شخصا . وفى نهاية سنة ١٩٠٠ أوفد المجلس اثنين من رجاله الأمريكان وهما (جون كلى جفن) والدكتور (مكلو خلن) للاستطلاع ورفع تقرير عن امكانيات العمل بالسودان فالتقيا فى أمدرمان بجوينى وهاربر رائدى جمعية .C.M.S حيث وحدوا كفاحهم وبدأ عهد التعاون بين الإرساليتين وكان ذلك من سمات العمل التبشيرى فى السودان .[(١)]

اقترح رائد الإرسالية الأمريكية أن يكون ميدان العمل التبشيرى للكنيسة الإنجيلية المصرية الناطقة بالعربية هو السودان الشمالى المسلم ، وبناء على هذا الاقتراح أوفدت الكنيسة الإنجيلية المصرية القسيس (جبير حنا) ليعمل بين المسلمين متخذا من الرعايا الإنجليين مبررا لعمله . وفى سنة ١٩٠٢ سافر (جفن) و(مكلوخلن) إلى الجنوب لإنشاء العمل الإنجيلى فيه ، فوصلا إلى مصب نهر سوبط ونزلا على ربوة على الشاطئ أطلقوا عليها اسم (دوليب هل) أى تل الدليب . وكان وصولهما فى السابع والعشرين من مارس سنة ١٩٠٢ بعد سفر استمر ثلاثة وعشرين يوما على المراكب الشراعية .[(٢)]

أما العمل الإنجيلى الجاد فقد بدأ بالفعل بوصول الدكتور (سورلين) سنة ١٩٠٣ حيث اشترى أرضا أقام عليها الكنيسة الإنجيلية الواقعة شرق مستشفى أمدرمان الحكومى ، ثم انشئت بعدها الكنيسة الإنجيلية بالخرطوم التى انتظمت سنة ١٩٠٧ وأصبحت كنيسة مستقلة تتبعها

---

(١) The Christian Approach to Islam in the Sudan P.14

(٢) انظر تاريخ المسيحية ص ٢٦٢

الكنائس الإنجيلية في ود مدني والحصاحيصا والدويم وكوستي والأبيض وبورتسودان وشندي وعطبرة ووادي حلفا وكريمة.(١)

يقول تيرمنجهام: (كانت السمة الهامة لعمل الإرسالية الامريكية إيجاد كنيسة منذ بدء نشاطها وذلك لتدفق أعضاء هذه الكنيسة في وظائف كتابية بالسودان، وتنظيم المحافل المدنية وجلب دعاة كنسيين وتشييد كنائس في المدن الثلاث (الخرطوم- الخرطوم بحري - أمدرمان) وعطبرة وود مدني وبورتسودان ثم انتظمت هذه الكنائس الست في مجمع مشيخي سنة ١٩١٢.

وقد كان للكنيسة التي يشكل المصريون أغلبية أعضائها مظهر مستقل قوي، وكان راعي الكنيسة في أمدرمان يخصص وقته كله للعمل الإنجيلي بين المسلمين... وتعتبر جمعيات الإنجيل النسوية العاملة في البيوت في (المدن الثلاث) وفي ود مدني، من السمات الخاصة لعمل الإرسالية الأمريكية وفي أمدرمان توجد مدرسة للتدريب على هذا النوع من العمل تسمى (البيت النصراني للتدريب على العمل داخل البيوت)

وتعطي جمعية الانجيل للنساء دروسا أسبوعية في القراءة والكتابة للسودانيات في حيشانهن وتتخذ الانجيل مادة للتدريس وتدرك العاملات جيدا أن النساء لن يصبحن نصرانيات ولكنهن يأملن في التأثير على الحياة البيتية لأولئك النسوة لإخراجهن من الدائرة الضيقة لمفهوم الحريم)(١)

مجمع مشيخة السودان:

يعتبر مجمع مشيخة السودان فرعا عن هذا الأصل وهو عبارة عن طائفة تضم المصريين والسودانيين الذين تنصروا على أيدي المبشرين الأمريكان، وكانت الإرسالية الأمريكية تشرف عليهم وتتولى شئونهم وتتحين الفرص لتثبيت قدميها وتوسيع نفوذها عن طريقهم، ولما زاد

---

(١) انظر المصدر السابق ص ٢٦٦

(٢) The Christian approach to Islam in the Sudan P. 22

عدد هم وصارت لهم ممتلكات دفعتهم الإرسالية الأم ليقدموا طلبا للسلطة للاعتراف بهم كهيئة كنسية وطنية فتم لهم ذلك سنة ١٩٣٩ وذلك ليكونوا ملاذا للإرسالية إذا جد في الأمر شيء. ولما صدر قانون تنظيم الهيئات التبشيرية سنة ١٩٦٢ أرادت الإرسالية الأمريكية التحايل عليه لتمارس نشاطها باعتبارها طائفة دينية وطنية لا تخضع لقانون الإرساليات التبشيرية حسب فتوى النائب العام ولما لم يتم لها ذلك حولت الإرسالية بعض ممتلكاتها في عطبرة والأبيض والخرطوم بحرى لمجمع المشيخة رغم مخالفة ذلك للقانون.(١)

الكنيسة الأرثوذكسية :

عرف الأرثوذكس السودان كما عرفه الكاثوليك في أواخر القرن السادس الميلادى حيث تنافس الامبراطور (جستنيان) وزوجه (ثيودورا) فأوفد الامبراطور البطريك (ثيودسيوس) لنشر مذهب الكنيسة البيزنطية وهو المذهب الذى يدين به، وعندما علمت زوجه بنواياه اتصلت بالأسقف (لونجينيوس) ليسبق بعثة الامبراطور لنشر المذهب الأرثوذكسى الذى تدين به وبالفعل وصل قبل منافسه سنة ٥٦٩م وقبلها الحكام على أساس أنها ديانة قياصرة الرومان(٢) كما أشرنا إلى ذلك.

وبعد سقوط ممالك النوبة وقيام سلطنة الفونج انتهت المسيحية فلم يعد لها أثر وفي ذلك أقوى دليل على أن المسيحية لم تكن ذات جذور عميقة في مجتمع السودان(٣). وبعد غزو محمد على للسودان أرسل البطريك (بطرس الجاولى) ١٨٠٩-١٨٥٧ بعض القسيسين إلى الخرطوم والأبيض وبعد ظهور المهدية أصدر غردون أوامره بطرد الأسقف (أنبا مكاريوس) من السودان كما فعل مع الكاثوليك، وبقى بعض الأقباط بعد سقوط الخرطوم في يد المهدى فمنهم من أظهر الإسلام ومنهم من سالم وما زال حيهم يعرف (بالمسالمة) في أمدرمان.

وظلوا مسالمين لم يظهر لهم أى نشاط تبشيرى حتى مطلع القرن العشرين. وفي سنة ١٩٠٤ أعاد البطريك (كيرلس) الخامس بابا الاسكندرية للأقباط الأرثوذكس تنظيم كنيستهم بالسودان

---

(١) انظر التبشير في العاصمة ص٧

(٢) حسب الله محمد أحمد، قصة الحضارة في السودان ص١٥٤/١٥٥

(٣) اما أن يكونوا قد نزحوا لأننا لا نجد أسرة واحدة تدين بالنصرانية التى دخلت السودان قبل الاسلام، وانما كل النصارى في السودان اما نزحوا اليه مع غزو محمد على وأحفاده أو غزو الانجليز أو من تنصر على أيدى المنصرين في هذين العهدين.

فصارت لهم مطرانيتان الأولى مطرانية الخرطوم ويوغندا ومقرها الخرطوم، والثانية مطرانية أمدرمان وشمال السودان ومقرها أمدرمان[١] وقد تأسست كتدرائية السيدة العذراء وتلاها تأسيس الكنائس الأخرى في الخرطوم بحرى وود مدنى والقضارف والأبيض وكادقلى.

وقد أنشأ الأقباط الأرثوذكس عددا من مدارس البنين والبنات في مدن السودان الكبرى وآلت إدارة هذه المدارس مؤخرا إلى وزارة المعارف المصرية سنة ١٩٥٨ بموجب اتفاق تمّ بين الوزارة وسلطات الكنيسة. وبعد زيارة البابا شنودة الثالث بابا الاسكندرية للسودان، بدأ الأقباط نشاطا تبشيريا واسعا وشرعوا في توزيع الصلبان والكتب، وتدفق الأقباط من مصر على السودان في مهن حرفية وتعليمية وتجارية وبدأت الكنيسة تحثهم على شراء العقارات في وسط العاصمة وتدعمهم ماديا[٢] وشرعوا في التبشير في مناطق الوثنيين في الغرب والجنوب وأصبحوا خطرا يهدد السودان ومصر، ومما يدل على خطورتهم ما جاء في المقولة الآتية التي قيل انها نتجت عن اجتماع عقده البابا شنودة بالكرازة المرقسية بالإسكندرية بتاريخ ١٥/٣/١٩٧٣[٣] والتى نقلها الأستاذ إبراهيم سليمان الجبهان تكشف تآمرهم على المسلمين وهذا فحواها:

(بدأ البابا شنودة كلمته بأن بشرهم بأن كل شئ يسير على ما يرام حسب الخطة الموضوعة، والتخطيط المرسوم لكل جانب من جوانب العمل على حدة، في إطار الهدف الواحد، وقد تحدث في عدة موضوعات تشمل عدة نشاطات، وهي كما يلي:

(١) عدد شعب الكنيسة:

صرح بأن مصادرهم في إدارة التعبئة والإحصاء أبلغتهم أن عدد المسيحيين في مصر أصبح يقارب ثمانية ملايين[٤] ويجب أن يعلم ذلك شعب الكنيسة، كما يجب عليهم أن ينشروا ذلك ويؤكدوه بين أفراد فئات المسلمين، وقال: إنّ ذلك سيكون سندا لنا في المطالب التي سنطلبها من الحكومة، وسنذكرها لكم اليوم.

---

(١) انظر تاريخ المسيحية ص٢٢٧

(٢) انظر الاستاذ حسن مكى، التبشير في العاصمة المثلثة ص ٥٧ مطبوع على الالة الكاتبة.

(٣) انظر حسن مكى، التبشير المسيحى في العاصمة المثلثة ص٧. هكذا أشار الكتاب للتاريخ، والصواب انه ١٥/٣/١٩٧٢

(٤) الاحصاءات الرسمية تثبت أن عدد النصارى بمصر لا يتجاوز ثلاثة ملايين

والتخطيط العام الذى تم الاتفاق عليه بالاجماع والذى صدرت بشأنه التعليمات ، وضع على أساس بلوغ شعب الكنيسة إلى نصف الشعب المصرى ، حتى يتساوى عدد شعب الكنيسة مع عدد المسلمين لأول مرة (منذ الاستعمار العربى والغزو الإسلامى لبلادنا)[1] والمدة المحددة فى التخطيط للوصول إلى هذه النسبة هى بين (١٢-١٥) سنة من الآن ولذلك فإنّ الكنيسة تحرم تحديد النسل أو تنظيمه ، وتعتبر كل من يفعل ذلك خارجا عن تعليمات الكنيسة ومضيعا لمجده ، وذلك باستثناء الحالات التى يقرر فيها أطباء الكنيسة خطر الحمل والولادة على حياة المرأة ، وقد اتخذت الكنيسة لتحقيق هذه الخطة بالنسبة لزيادة عدد المسيحيين ما يأتى :

أ- تحريم تحديد النسل وتنظيمه بين شعب الكنيسة.

ب- تشجيع تحديد النسل وتنظيمه بين المسلمين خاصة وأن أكثر من ٦٥٪ من الأطباء وبعض موظفى الخدمات الصحية هم من شعب الكنيسة.

ج- تشجيع الاكثار من النسل بين شعب الكنيسة بوضع الحوافز والمساعدات المادية والمعنوية للأسر الفقيرة من شعبنا .

د- التنبيه على العاملين بالخدمات الصحية على المستوى الحكومى وغير الحكومى بمضاعفة الخدمات الصحية بين شعبنا المسيحى ، وبذل العناية والجهد الوافرين ، وذلك من شأنه تقليل نسبة الوفيات ، بين شعبنا المسيحى على أن يكون تصرفهم على غير ذلك مع المسلمين .

هـ- تشجيع الزواج فى السن المبكرة بتخفيض تكاليفه ، وذلك بتخفيض رسوم فتح الكنائس ورسوم الاكليل بالكنائس الكائنة بالأحياء الشعبية .

و- تحرم الكنيسة تحريما باتا على أصحاب العمارات تأجير أى مسكن أو شقة أو محل تجارى للمسلمين ، وتعتبر من يفعل ذلك من الآن مطرودا من رحمة الرب ورعاية الكنيسة ، كما يجب العمل بشتى الوسائل على إخراج المسلمين الذين يسكنون العمارات والبيوت

---

(١) لقد كان الفتح الاسلامى لمصر تحريرا من طغيان القياصرة بدليل أن رؤساء القبط كانوا فى طليعة القوات الإسلامية التى كانت تتعقب فلول الروم . يقول جيبون : لقد كانت نفوس الأهلين تتوق لهلاك الروم الظالمين وطردهم من البلاد فلم يدخروا وسعا فى مد يد العون ماديا وعسكريا لعمرو) ويقول أميل لودويج فى كتابه (النيل) : لقد استقبل أقباط مصر جيوش العرب والمسلمين استقبال المنقذين لا استقبال الغزاة الفاتحين ، ومضى عمرو فى زحفة مؤيدا بالشعب القبطى الذى أرهقه حكم البيزنطيين ، وسلطة الكنيسة التى مكنت للأشراف فى ركوبه للاضطهاد وفيما عدا الجزية فان عمرو ابن العاص لم يفرق فى المعاملة بين الفريقين وقد أعلن حمايته لكل الاديان) انظر معاول الهدم والتدمير فى النصرانية والتبشير ص ٢٥

المملوكة لشعب الكنيسة وهذه السياسة الإسكانية إذا استطعنا تنفيذها بقدر الامكان ، فإنّ من شأنها تشجيع الزواج بين الشباب المسيحى ،وتضييقه بقدر الإمكان على المسلمين ، مما يكون له أثره الفعال للوصول إلى هذا الهدف حيث لا يخفى أن الغرض من هذه القرارات هو انخفاض معدل الزيادة بين المسلمين وارتفاع هذا المعدل بين الشعب المسيحى .

٢- انتصار شعب الكنيسة :

إنّ المال يأتينا كما نطلب وأكثر مما نطلب من ثلاثة مصادر هى : (أمريكا ، والحبشة ، والفاتيكان) ولكن يجب أن يكون الاعتماد الأول فى تخطيطنا الاقتصادى على مالنا الخاص الذى نجمعه من الداخل ،وبالتعاون والزيادة من فعل الخيرين أفراد الشعب المسيحى كذلك يجب الاهتمام بشراء الأراضى وتنفيذ القروض والمساعدات لمن يقومون بذلك لمساعدتهم على البناء ، وقد أثبتت الاحصاءات الرسمية أن أكثر من ٦٠ ٪ من تجارة مصر الداخلية بأيدى المسيحيين ويجب العمل على زيادة هذه النسبة ،وتخطيطها فى المستقبل،يركز على افقار المسلمين ونزع الثروة من أيديهم ،وبالقدر الذى يؤدى إلى إثراء شعبنا .

لذلك يلزم المداومة على تذكير شعب الكنيسة والتنبيه لهم مشددا من حين لآخر لمقاطعة المسلمين اقتصاديا والنهى عن التعامل معهم نهيا تاما ،إلاّ فى الحالات المستحيلة وذلك يعنى مقاطعة المسلمين ممن هم فى سلك المحاماة ،والمحاسبين،والمدرسين ،والأطباء،والصيادلة وكذلك مقاطعة العيادات ،والمستشفيات التى يملكونها والمحلات التجارية ، والجمعيات الاستهلاكية فيما أمكن ،وما دام يمكن التعامل مع شعب الكنيسة لسد حاجاتهم وكذلك مقاطعة صناع المسلمين وحرفييهم والتعامل مع الصناع والحرفيين المسيحيين ، ولو كلف ذلك الفرد الجهد والمشقة ، ان هذا الأمر مهم جدا وخطير بالنسبة للتخطيط المالى والتخطيط العام على المدى القريب والبعيد .

٣- الجانب التعليمى :

انه يجب بالنسبة للتعليم العام للشعب المسيحى الاهتمام بالسياسة التعليمية حاليا فى الكنائس مع مضاعفة الجهد ،خاصة وأن بعض المساجد بدأت تقوم بمهمات تعليمية كالتى تقوم بها كنائسنا وذلك سيجعل مضاعفة الجهود المبذولة أمرا حتميا حتى تستمر النسبة التى نحصل عليها من مقاعد الجامعات وخاصة الكليات العلمية .

انى اذ أهنى شعب الكنيسة وخاصة المدرسين منهم بهذا الجهد وهذه النتائج حيث

وصلت نسبة الوظائف الخطيرة العامة كالطب والهندسة والصيدلة إلى أكثر من ٦٠٪ من الشعب المسيحي فإني أدعو لهم الرب يسوع المخلص أن يمنحهم بركاته ،وتوفيقه حتى يواصلوا الجهد لزيادة النسبة في المستقبل القريب.

٤- التبشـــير:

يجب مضاعفة الجهود التبشيرية الحالية على أن الخطة التبشيرية التي وضعت بنيت على أساس أن الهدف الذي اتفق عليه من التبشير في المرحلة القادمة هو التركيز على التبشير بين الفئات والجماعات أكثر من التبشير بين الأفراد ،وذلك لزحزحة أكبر عدد من المسلمين عن دينهم ،أو عن التمسك به ،على أن لا يكون من الضروري دخولهم في المسيحية (1) ويكون التركيز في بعض الحالات على زعزعة الدين في نفوس المسلمين وتشكيك الجموع الغفيرة في كتابهم وفي صدق محمد ،وإذا نجحنا في تنفيذ هذا المخطط التبشيري في المرحلة القادمة فإننا نكون قد نجحنا في إزاحة هذه الفئات عن طريقنا ،وحتى هذه الحالة إن لم تكن لنا فلن تكون علينا .

على أن يراعى في تنفيذ هذا المخطط أن يتم بطريقة لبقة ذكية حتى لا يكون ذلك سببًا في إثارة حفيظة المسلمين ،ويقظتهم ،والخطأ الذي حدث في المحاولات التبشيرية الأخيرة بنجاح مبشرين في هداية بعض المسلمين ،لأن ذلك من شأنه تنبيه المسلمين ويقظتهم ،وهو أمر قد ثبت من تاريخهم الطويل معنا أنه ليس بالأمر الهين ،وهذه النقطة بالذات من شأنها أن تفسد علينا مخططاتنا المدروسة ،وتؤثر في نتائجها وتضيع جهودنا هباء.

لذلك فقد أصدرت التعليمات بهذا الخصوص ،وستنشر في جميع الكنائس ،لكي يتصرف الجميع من شعبنا مع المسلمين بطريقة ودية لا تثير غضبهم ،وإقناعهم بكذب هذه الأنباء ، كما تم التنبيه على رعاة الكنائس والآباء والقساوسة لمشاركة المسلمين احتفالاتهم الدينية وتهنئتهم بأعيادهم وإظهار المودة والمحبة لهم ، وعلى شعب الكنيسة في المصالح والوزارات والمؤسسات وكل أماكن الاحتكاك إظهار هذه الروح لمن يخالطونهم من المسلمين .

إننا إن ننتهز ما هم فيه من نكسة ومحنة لأن ذلك في صالحنا ولن نستطيع إحراز أية مكاسب ،أو أي تقدم إذا انتهت المشكلة مع إسرائيل سواء بالسلم أم بالحرب. . . ليعلم الجميع وخاصة ضعاف القلوب أن الدول الكبرى في العالم تقف وراءنا ،ولسنا نعمل وحدنا

---

(1) نفس ما قاله زويمر رئيس المبشرين في الشرق الاوسط

ولا بد أن نحقق الهدف ،ولكن العامل الأول والخطير فى الوصول إلى مانريده هو وحدة شعب الكنيسة وتماسكه وترابطه ،ولكن إذا تبددت هذه الوحدة ،وهذا التماسك فلن تكون هناك قوة على الأرض مهما عظمت فى إمكانها أن تساعدنا .

وسوف لا أنسى موقف هؤلاء الذين يريدون أن يفتتوا وحدة شعب الكنيسة ،وعليهم أن يبادروا فورا بالتوبة وطلب الغفران والصفح ،وإلّا يعودوا لمناقشة ومخالفة أوامرنا وتشريعنا والرب يغفر لهم .

ثم صرح بعدد المطالب التى سيتقدم بها رسميا للحكومة وهى :

ا ـ أن يصبح مركز البابا الرسمى فى البروتوكول السياسى للدولة بعد رئيس الجمهورية وقبل رئيس الوزراء .

ب ـ أن يخصص لهم ثمانى وزارات فى الوزارة

ج ـ أن يحدد لهم ربع القيادات العليا فى الجيش والبوليس

د ـ أن يخصص لهم ربع القيادات المدنية لرؤساء مجالس المؤسسات ، والشركات ،والمحافظين ووكلاء الوزارات والمديرين ورؤساء مجالس المدن .

هـ ـ أن يؤخذ رأى البابا عند شغل هذه النسبة فى الوزارات والمراكز العسكرية والمدنية الرئيسية وسيكون له حق ترشيح بعض العناصر والتعديل .

و ـ أن يسمح لهم بإقامة إذاعة خاصة بهم من تمويلهم الخاص.

ز ـ أن يسمح لهم بإقامة جامعة خاصة بهم ،وقد وضعت الكنيسة بالفعل تخطيط هذه الجامعة ،وهى تضم المعاهد اللاهوتية والكليات العملية والنظرية ،وتمول من مالهم الخاص

وأخيرا ختم حديثه بتبشير الحاضرين ، وطلب منهم نقل هذه البشرى إلى شعب الكنيسة حيث إن أملهم الأكبر فى عودة البلاد والأراضى إلى أصحابها من أيدى (الغزاة العرب) قد بات وشيكا وليس في هذا أية غرابة ، وضرب لهم مثلا بأسبانيا النصرانية التى ظلت بأيدى المستعمرين المسلمين قرابة سبعة قرون ثم عادت لأصحابها النصارى ،وقال : وفى التاريخ المعاصر عادت أكثر من بلد لأهلها بعد أن طردوا منذ قرون عديدة (يقصد اسرائيل)[1]

---

(١) الاستاذ ابراهيم سليمان الجبهان ، معاول الهدم والتدمير فى النصرانية وفى التبشير ص٢٤ - ٣٢ طثانية ١٣٩٨/١٩٧٨ مطابع الريل.

ومما يدل على صدق نسبة هذه الوثيقة إلى الأنبا شنودة إشارة الهيئات الرسمية المصرية إليها ،حيث أشارت تحريات المحكمة إلى أن بابا الاقباط جمع الطوائف المسيحية للمطالبة بتعديل المادة ٢ من الدستور ،ووقع على الطلب، كما أشارت صورة مضبطة مجلس الشعب بتاريخ ١٩٧٢/١١/٢٨ المحتوية على تقرير لجنة تقصى الحقائق عن الحوادث الطائفية بالخانكة إلى أن الناس تناقلوا أخبار تقرير عثرت عليه جهات الأمن الرسمية نتج عن اجتماع عقده الأنبا شنودة فى ١٩٧٢/٣/١٥ بالكنيسة المرقسية بالاسكندرية وقد صيغ على نحو يوحى بصحته كتقرير رسمى ،وتضمن أقوالا نسبت إلى البطريك فى هذا الاجتماع كما أشارت التحريات إلى صورة مذكرة الكنيسة القبطية التى قدمها المجلس المقدس بخصوص حد الردة جاء فيها مايلى :

(إننا أمام ضمائرنا لن نستطيع أن نقبل مشروع هذا القانون - يقصد قانون حد الردة- ولن نخضع له إذا نفذ . وبحكم ضمائرنا سنسعى وراء كل مسيحى ترك مسيحيته لكى نرده إليها[1] مهما حكمت مواد هذا القانون بالقتل على التحريض ونحن مستعدون أن ندخل فى عصر استشهاد جديد من أجل ديننا والثبات فيه ،ولن يلومنا أحد لأن هذا هو عملنا كرعاة وآباء بل تلومنا ضمائرنا إن تركنا إنسانا يرتد عن مسيحيته دون أن نحاول إرجاعه)

وأشارت مضابط المحكمة إلى صورة قرار المجلس الملى العام بجلسته بتاريخ ١٩٧٥/٢/٧ بضرورة تمثيل الأقباط باللجنة المركزية وتشكيلات الاتحاد الاشتراكى.[2]

كانت هذه الأسباب ضمن أسباب كثيرة فضحت مخطط الاقباط بمصر وأدت بالتالى إلى أن يصدر رئيس الجمهورية المصرية قراره رقم ٤٩١ بتاريخ ١٩٨١/٩/٢ القاضى بإيقاف قراره الجمهورى رقم ٢٧٧٢ لسنة ١٩٧١ الخاص بتعيين بابا الاسكندرية بطريكا للكرازة المرقسية وتشكيل لجنة من خمسة أساقفة للقيام بمهام البطريك[3] ولم يكن مخطط الأقباط مقصوراً على مصر وحدها بل مخططهم يشمل السودان كذلك والمنطقة العربية كلها والخطاب الذى أرسله أحد زعمائهم إلى زميلة له فى العمل لتنفيذها تكشف ذلك ، وهذا نصها :

(عزيزتى د/ايزيس: تحية الرب الرب حافظك بعنايته وبعد - الحمار الكبير دخل المصيدة والانحرافات بدأت تعم المجتمع وسياسة التجويع التى اتبعناها اتبعت سياسة الانفتاح

---

(١) يعنى هذا القرار العمل على تنصير المسلمين المصريين لأنهم كانوا نصارى سابقا
(٢) انظر نبيل عبد الفتاح ،المصحف والسيف صراع الدين والدولة فى مصر، ص ٢٤٧ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٤

ساعدتنا الآن على التحكم فى مصادر التمويل لأية نشاطات تجارية أو عمرانية مما يوجب علينا الآن إقامة المجتمع القومى الفرعونى العظيم تحت راية الصليب التى ستعم أرض النيل من شماله لجنوبه قريبا قريبا جدا .

(فبعد وفاة فرعون العروبة وإلى الآن لم تتعرض تصرفاتنا أو مدارسنا أو النشاطات فى كنائسنا لأى تحرش أو مضايقة . والآن أصبحنا نفرض الضرائب على أنفسنا (طواعية) لنقوى من شوكة المجتمع ولتكون لنا أرض صلبة نقف عليها داخلياً وخارجيًا ،ولكن فى بعض الأحيان نسمع نهيقا هنا وهناك كالشيخ كشك وأتباعه ولكنها تضيع أدراج الرياح .

(والآن بفضل الرب لدينا الملقن والآمر وأصحاب الرأى لاستنباط الأحكام ولدينا الآن المحكمة العليا بقواعدها ودستورها ولم يبق إلاّ نقل تلك اللوائح إلى الجنوب ،وكان حب النفس والظهور والسيطرة والجشع من أهم ميزات مسلمى مصر الأمر الذى جعلهم ينقسمون أحزابًا وشيعًا يحتكرون الآيات التى تصبغ عليهم الشرعية ولا شرعية ،ويفترون على الرب كذباً وعدواناً بأنه مؤيدهم وناصرهم .

(والذين يدعون بالأخوان المسلمين نالتهم يد السلطة الحالية وحددّت من نشاطهم وأكلتهم الفول بدون ملح ،وهم الآن يصيحون ولا مجيب .

(ومما يجدر ذكره أن حركتنا الآن موجودة فعلاً تحت ستار شركة تمويل عالمية اسمها Jewish Fina WCIS وتسيطر مباشرة أو بالتوجيه على ما لا يقل عن ثلث مال هذا العالم وستقوم قريبا بردع النظم والحكومات التى لا تتماشى سياستها وسياستنا العالمية ،وليكن فى علمك أننا حكومة عالمية حقيقية تعمل معنا وكالات المخابرات العربية ونظمها وصحافتها التى يهيمن عليها الآن مناصرون لنا من يهود وغيرهم بما فيهم جماعة السهدريين التى لا يعلمها إلاّ القليل فاحفظى ما يلى :

١- المعجزات لا تحدث كل يوم

٢- كل من يتعدى تعاليمنا يستحق الموت

٣- الرجل الذى فى سلته خبز ليس كمثل الذى لا شئ فى سلته

٤- الأجدر بك أن تكونى رأس أسد من أن تكونى رأس ثعلب

٥- تذكرى صديقك له صديق وصديق صديقك له صديق فكونى حصيفة فى كتم أسرارك .

٦- الديك والبوم كلاهما ينتظر الفجر ،يقول الديك للبوم إن النور ينقص ولكنها لم تنتظر .

(وها هي إسرائيل اليوم أو غداً ستدخل مصر وهو بلاشك نصر مؤزر لنا .

لنا الآن القاعدة الأساسية ،لنا أحكامنا الخاصة ،لنا حياتنا الخاصة ،بعيدون عن هؤلاء الغوغائيين ،وحكامهم،قريبا سيلتف حبل المشنقة حول أعناقهم وسيرتفع الصليب عاليا في سماء مصر بفضل مساندة السهد ريين ،وسنعلنها حكومة صليبية في كافة أنحاء العالم الذى يدعى الآن بالعالم العربى ،فإسلامهم في القرن الأفريقي قد انكسر وحركتنا في جنوب الوادى (السودان) قائمة على قدم وساق كما في الشمال ،يوجد في الجنوب الاتصال ،الاتصال مباشر ،كذلك ظهرت الدولة المارونية في لبنان ترسل لهم المساعدات رجالاً للحرب وحكيمات ،وفي سوريا والعراق والأردن حركة صليبية عالمية تتحكم الآن في رقاب العباد هناك ،لن نسمح لمنظمة التحرير أو أى فلسطينى هناك بحمل السلاح أو القيام بأى نشاط مهما كان نوعه ليعيد نشاط الإسلام والمسلمين في تلك المناطق والبلاد، بل إن الصليب حكمنا في رقاب العباد والبلاد (قريباً سأرسل إليك أكثر تفصيلاً أكتبى إلى عن نشاط المجموعة لديك حاولى تجنيد أكبر عدد من مناصرينا ،اتصلى بالمستر - Dmahews Dr. Chorley - وعنوانه لديك في أية مساعدة مالية أو سياسية أو غيرها فهو على أتم الاستعداد لتنفيذ تعليماتك ،عند انتقالك من السكن الحالى إلى المقر الجديد في (هامستن) اتصلى بى لتحويل الرسائل إلى هناك وان النصر المؤزر لقريب .

ملاحظة : (الآن أصدرنا مرسوماً بإعلان الأخطاء والتعاليم الواردة في القرآن ،وسنرسم قواعد أو ممارسة ومصادرة أعداد من نسخه كما سنفرض رقابة على طبع نسخ جديدة منه ،والآن صدر مرسوم ثان بوضع علامة على كل منتسب لنا للتمييز ، كما أعلن لك بأن المساجد المسلمة هي بمستوى القاذورات وأن الواعظين فيها أشبه بالكلاب النابحة ،وأن قتل المسلم من الأمور المأمور بها ،وأن العهد من المسلم لا يكون عهدا صحيحا يلزم المسيحى القيام به . وأن من الواجب علينا أن نلعن ثلاث مرات رؤساء المذاهب الإسلامية وجميع الملوك والرؤساء والأفراد الذين يتظاهرون بالعداوة ضدنا .) انتهت[١]

هكذا يخطط الأقباط أو يخطط لهم للاستيلاء على مصر والسودان وهذه الوثيقة تكشف هذا المخطط الأثيم فهل ينتبه المسلمون قبل فوات الأوان ؟!

(١) نشرت هنا الخطاب مجلة المجتمع الكويتية في عددها رقم ٦٥٤ بتاريخ ٧ يونيو ١٩٨٣ ص ٢٨ / ٢٩

أرى خلل الرماد وميض نـــــار ويوشك أن يكون لها ضــرام
فان النار بالعودين تـــزكـــو وان الحرب أولها كـــلام

فمما تقدم يتضح أن أمهات النشاط الكنسي في السودان بل في أفريقيا والعالــــم الإسلامي هي الكنيسة الكاثوليكية ،والإرسالية الانجليزية والأمريكية والارثوذكسية تتبعهما مؤسسات كنسية ثانوية .

الارساليات الثانوية العاملة في السودان ـ وأغلبها بروتستانتية :

١ـ ارسالية أرض أفريقيا African Island Mission.
ومقرها تورنتو بكندا .

٢ـ ارسالية السودان المتحدة Sudan United Mission.
تكونت في بريطانيا سنة ١٩٠٤

٣ـ ارسالية السودان الداخلية The Sudan Internal Mission.
ومقرها أيضا تورنتو بكندا .(١)

هذه الإرساليات ركزت نشاطها على الجنوب والغرب واكتفت بوجود رمزي لها في العاصمة .

كذلك أنشأ (ونجت Wingate) حاكم السودان العام الذى خلف كتشنر كنائس الجاليات التي ابتدأت نشاطها بين أبناء الجالية بيد أنها شرعت تدريجيا في ممارسة النشاط بين الوافدين ثم مدته إلى مناطق التخلف ،ومن هذه الكنائس كنيسة الأرمـــــن الكاثوليكية .

الكنيسة الأثيوبية البطريكخانة المارونية ،وحتى اليهود أنشأوا لهم مجمعا كنسيـــا بالخرطوم سنة ١٩٠٨ يقوم بخدماتهم ويتولى إدارته حبر الاسكندرية(٢) ثم امتد نشاطهم إلى جنوب السودان فأقاموا كنيسة بجوبا عاصمة الاستوائية ،تسمى كنيسة الادفنتست السبعية(٣)

وهى كنيسة أمريكية تسير وفق أهداف الماسونية العالمية ،وتتسق مع سياسة الصهيونية فيما يختص بمجيء المسيح وبناء الهيكل)(٤)

كما توجد بجانب هذه الارساليات الرئيسية منظمات فرعية كثيرة نذكر بعضها على سبيل المثال :

---

(١) انظر التبشير في العاصمة ص٧

(٢) The Sudan under Wingate P. 112

(٣) رحلة ميدانية Seventh day Adventest Church of the Sudan.

(٤) ابراهيم خليل أحمد ،الاستشراق والتبشير وصلتهما بالامبريالية العالمية ص٢٧ مكتبة الوعي العربي ، بدون تاريخ .

منظمات كنسية ذات نفوذ واسع في السودان :

(أ) **مجلس الكنائس العالمي :** The World Council of the Churchs

وهو تنظيم مسيحي مقره جنيف يجمع كل الكنائس ما عدا الكاثوليكية ،ويعتبر هذا المجلس قوة ذات نفوذ عالمي ومن أهم نشاطاته الأشراف على المؤسسات التبشيرية ومساعدة اللاجيئن والاشراف على البحوث الاجتماعية والدينية[١] ورصد تحرك الإسلام والمسلمين[٢] وقد قدم العون للمتمردين في جنوب السودان في الحرب الأهلية الدائرة الآن[٣] وكان عنصرا هاما في اتفاقية أديس أبابا سنة ١٩٧٢ كما كان لمجلس الكنائس العالمي موقفه المناهض ضد العرب في فلسطين وللمجلس مقر بالخرطوم كما له وكالة متخصصة في شئون الاغاثة بالسودان.[٤]

(ب) **مجلس الكنائس الأفريقي :**

وهو شبيه بمجلس الكنائس العالمي إلاّ أن نطاقه ينحصر في أفريقيا ،وهو محاولة لإنشاء كنيسة قاريّة تهتم بشئون قادة أفريقيا ولها إدارة بالخرطوم[٥] واشترك مع مجلس الكنائس العالمي في اتفاقية أديس أبابا لحل مشكلة الجنوب.[٦]

(ج) **مجلس الكنائس السوداني :**

وهو الذي يقوم بتنظيم أعمال الكنائس في السودان وله ارتباط بكل من مجلس الكنائس الأفريقي والعالمي وهو عبارة عن سكرتارية دائمة للمجلسين فله الدعوة للاجتماعات للنشاطات الكنسية المشتركة والإشراف عليها.[٧]

(د) **جمعية أفريقيا للتبشير:**

من الجمعيات التي عملت بالسودان بجد حتى سميت (بجمعية أبناء القلب المقدس) أنشأ هذه الجمعية كمبوني سنة ١٨٦٧ وعرف المبشرون التابعون لها بـ(أبناء فيرونا*) وللجمعية مراكز لتدريب المبشرين في كل من الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا وايطاليا وأسبانيا وأثيوبيا وألمانيا ،ولها مراكز متعددة في أقطار أفريقيا منها مصر والسودان.[٨]

---

(١) التبشير في أفريقيا ص٦٠

(٢) نفس المصدر ص ٤٨

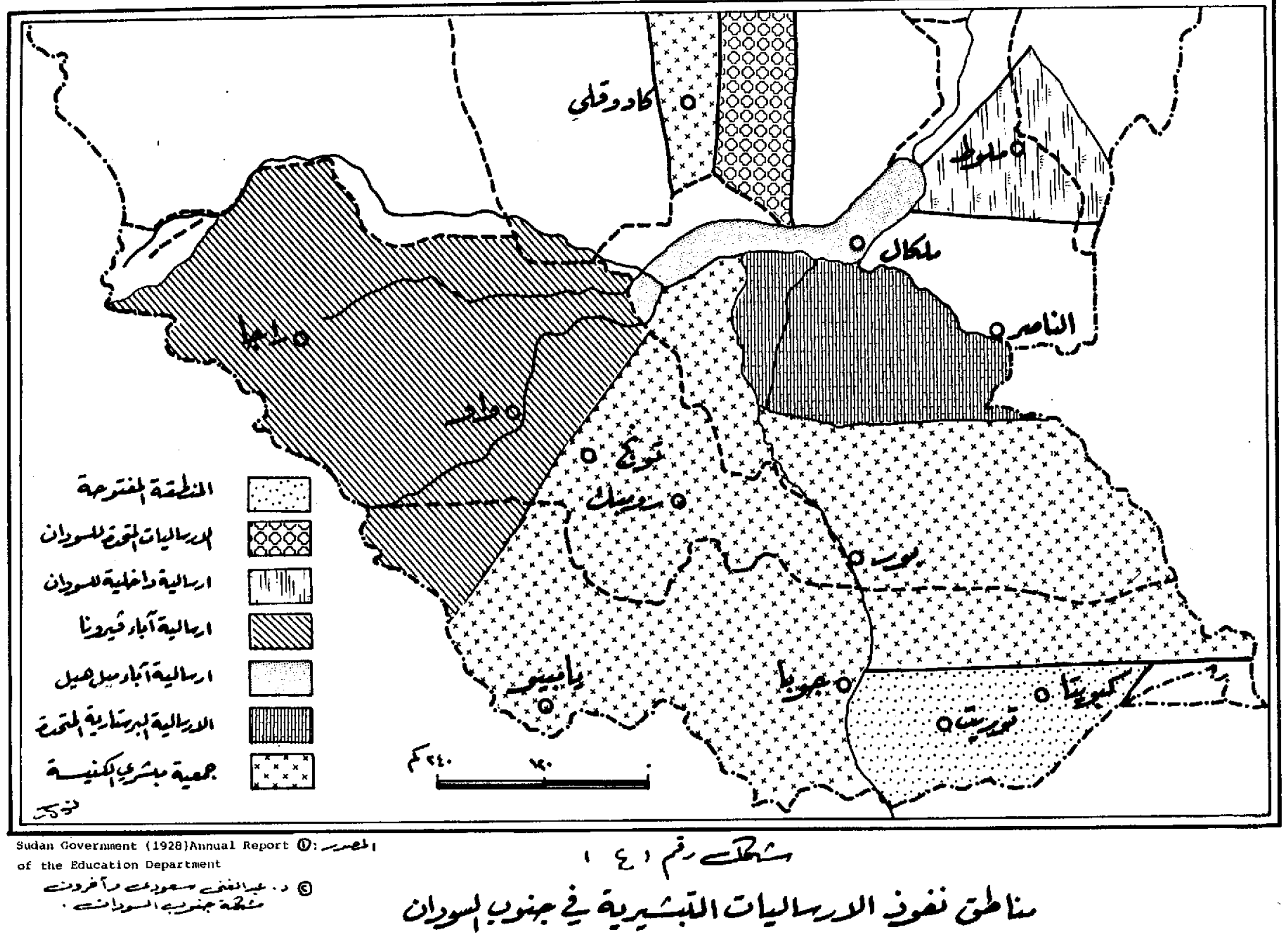
(٣) و(٤) و(٥) انظر التبشير في العاصمة المثلثة ص ٧٠

(٦) انظر مقالة لاستاذ تموثي سي نابلوك ص١٢٤

(٧) انظر التبشير في العاصمة المثلثة ص ٧

* نسبة لمقرهم بمدينة فيرونا بشمال إيطاليا

(٨) انظر التبشير النصراني ص١٠



Sudan Government (1928) Annual Report of the Education Department :المصدر

© د. عبدالغني سعودي وآخرون مشكلة جنوب السودان.

شكل رقم (٤١)

مناطق نفوذ الارساليات التبشيرية في جنوب السودان

تحديد مناطق نفوذ الإرساليات:[1]

اشتد ضغط الإرسالية البريطانية على الإدارة لتفتح مجال التنصير بين المسلمين فكتب كرومر فى ٧ من مارس سنة ١٨٩٩ إلى كتشنر بالموافقة للإرساليات بإنشاء مرافق تبشير طبية وتعليمية مع الموافقة التامة للإرساليات لتباشر مهامها التبشيرية جنوب خط عرض عشرة شمالا فبدأ الصراع بينها فى جنوب السودان مما اضطر (ونجت) حاكم عام السودان أن يصدر قرارا يحدد فيه مناطق النفوذ لكل إرسالية فى جنوب السودان .

(أ) الارسالية الأمريكية الانجيلية:

خصص لها الضفة الشرقية للنيل الأبيض بمديرية أعالى النيل.[2] وتضم هذه الرقعة نهر سوباط وبحر الزراف، ويحدها جنوبا خط عرض خمسة شمالا ، وشرقا الحبشة ويحدها من الغرب مناطق نفوذ الإرسالية البريطانية[3] التى سيرد بيانها فى رقم (ج) .

(ب) الارسالية الكاثوليكية:[4]

خصصت لها الضفة اليسرى[5] (الغربية) للنيل الأبيض بمديرية أعالى النيل حتى جنوب كدوك بنفس المديرية والجزء الأكبر من مديرية بحر الغزال ما عدا رمبيك

(ج)الارسالية الانجليزية :

ومجال تبشيرها مناطق الضفة الغربية للنيل الأبيض بالمديرية الاستوائية ، ومنطقة بحر الجبل ، والمنطقة المتوسطة لنفوذ الجمعيتين الأمريكية والكاثوليكية .

أما الضفة الشرقية للنهر من نفس المديرية فتشمل اقليم اللاد و الذى كان تحت نفوذ ملك البلجيك لأنه كان (مستعمرة بلجيكية) أطلق عليه مستعمرة الكنغو الحرة ثم آل إلى حكومة السودان سنة ١٩١٠م بعد موت ملك البلجيك فطالبت به كل من الإرسالية الكاثوليكية والإرسالية البريطانية فقرر ونجت تقسيمه بين الإرساليتين واسترضى الإرسالية البريطانية بمنطقة الزاندى وبحر الغزال[6]

(د) أما جميع المناطق التى تقع شمال خط عرض عشرة وهى السودان المسلم فقد وافق القرار على أن تحتفظ كل إرسالية بمنطقة نفوذها سابقا ، وبموجب هذا القرار المعروف

(١) انظر شكل رقم (٤)
(٢) انظر تاريخ المسيحية ص ٢٤٧
(٣) انظر التبشير النصرانى ص ٧٨
(٤) انظر شكل رقم (٥)
(٥) The Sudan under Wingate P. 118
(٦) Ibid

ب-(تحديد مناطق الإرساليات) أصبح لكل كنيسة حمى لا يسمح لكنيسة أخرى بانتهاكه للعمل التبشيري أو توابعه ،وبعد زمن ليس بالقصير سمحت السلطات لرجال الكنائس بزيارة رعاياهم الذين ليسوا في منطقة نفوذهم.(١)

وبالرغم عن كل هذه التنازلات من جانب الإدارة لم تكن الإرسالية البريطانية راضية عن سياسة الحكومة التي حرمتها من العمل التبشيري الصريح وسط المسلمين مما يدل على أن هدفها ليس هو نشر الإنجيل كما يزعم مبشروها ، وإنما تريد أن تشفي حقدها الصليبي الذي حرك كوامنه مقتل غردون في الغرب بصفة عامة وفي انجلترا بصفة خاصة ، والذي عبر عنه رائدها (جوين) بإقامة أول قداس لميلاد المسيح بعد سقوط امدرمان مباشرة في مبنى محمد أحمد المهدي كما عبر عنه محرر جريدة التايمز بقوله :

.. ان المبشرين حقا قد سمح لهم بإنشاء مراكز تبشير تعليمية وطبية في الخرطوم ، إلا أن نشاطهم الديني قد انحصر في نطاق الوثنيين ،وقد قدمت لهم التسهيلات للتقدم إلى فاشودة حيث سيكونون أحرارا في تنصير الزنوج الوثنيين في الجنوب.

إنّ فاشودة تمثل صحراء سيبريا بالنسبة للسودان ،ولكي ترسل إلى فاشودة يعني إرسالك إلى خارج نطاق مجتمع السودان.

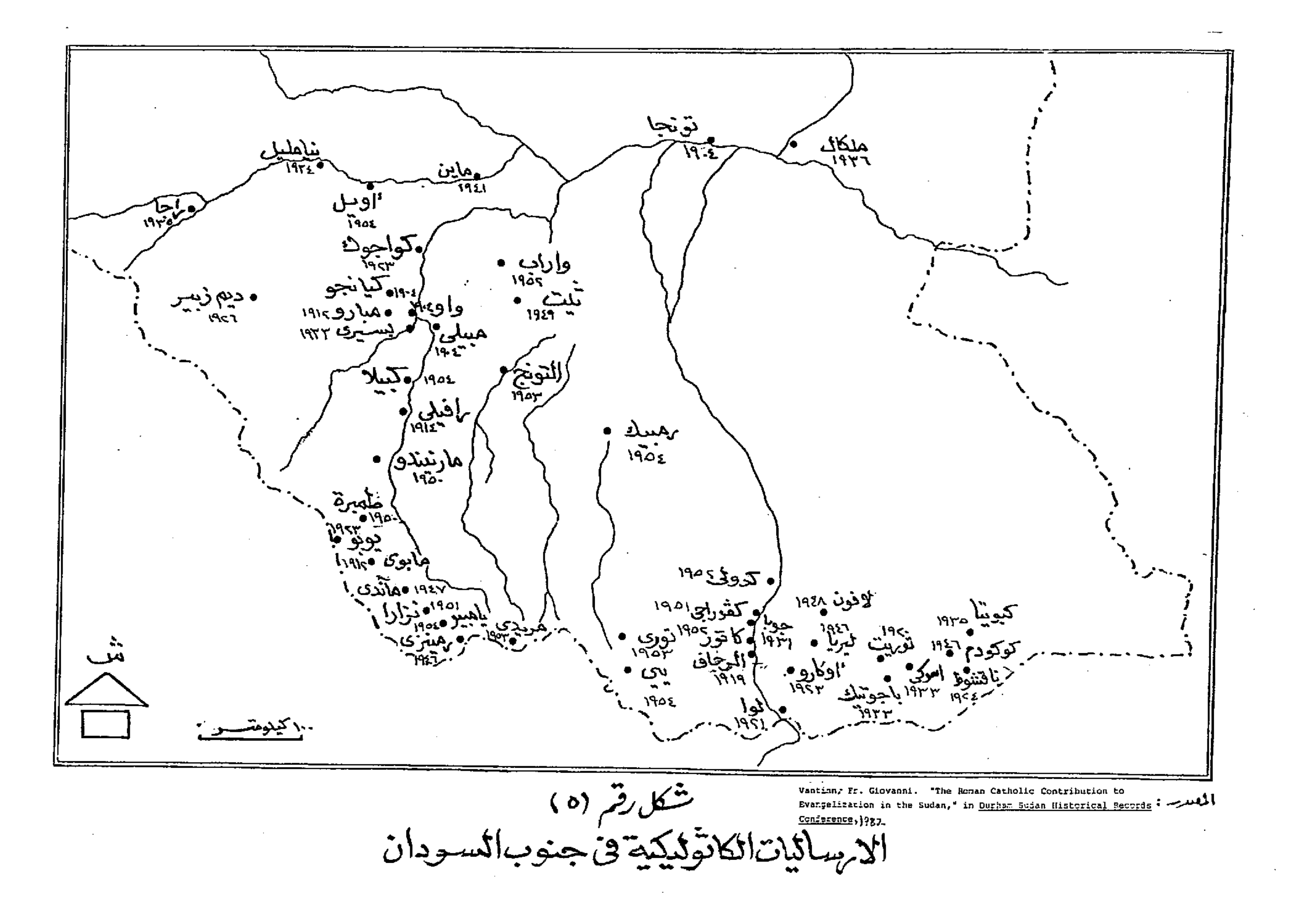
إنّ صراعنا الطويل ليس مع السود وإنما مع العرب وأنصار المهدي الذين قتلوا غردون فكان لابد من شفاء هذه الضغينة)(٢)

فهؤلاء الصليبيون قتلوا عشرات الآلاف بحجة الثأر لغردون ، وقبعوا على صدر الأمة أكثر من نصف قرن يمتصون دماءها وخيراتها ،واستعملوا أبشع الوسائل لقمع الإسلام والمسلمين وكل ذلك لم يشف لهم غليلا لأن مكايدهم ما زالت مستمرة حتى اليوم في شمال السودان وجنوبه وصدق الله العظيم القائل : (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق)(٣) والقائل : (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم)(٤)

ولقد اتخذت هذه المؤسسات الكنسية وسائل متعددة للتنصير في بلاد المسلمين ، فوجدت في التبشير بالتعليم والتطبيب أنجع الوسائل التنصيرية ، فكرسوا جهودهم فيها فهدموا بهما في نصف قرن ما لم تستطع الحروب الصليبية هدمه في عدة قرون ،حيث أفسدوا عقول النشء ففسدت عقيدتهم فصاروا حربا على الإسلام والمسلمين.

---

(١) تاريخ المسيحية ص٢٦١
(٢) التبشير النصراني ص٧٦/٧٧
(٣) البقرة الآية ١٠٩
(٤) البقرة الآية ١٢٠



المصدر: Vantini, Fr. Giovanni. "The Roman Catholic Contribution to Evangelization in the Sudan," in Durham Sudan Historical Records Conference, 1987.

شكل رقم (٥)

الارساليات الكاثوليكية في جنوب السودان

الفصل الثانى

سياسة الاستعمار التعليمية وعلاقتها بالتنصير

المبحث الأول : أثر الثقافة المصرية على السودان

ذكرنا أن السودان ظل يتأثر بالثقافة المصرية عبر القرون ، وأكبر شاهد على هذا التأثر أن السودان عرف المسيحية والإسلام عن طريق مصر كما تقدم ، ومنذ دخول الإسلام شهدت البلاد ثقافة جديدة ، وهي الثقافة الإسلامية ، وأصبحت لغة القرآن ، هى لغة السكان ، كما ظل التعليم الدينى أمرا لازما للمسلم إذ يتعين عليه حفظ جزء من القرآن من أجل عبادته ، الأمر الذى يدفعه لمعرفة القراءة والكتابة[1] وقد ذكر (بوركهارت) الذى زار منطقة الشايقية سنة ١٨١٣م أن عددا كبيرا من الشايقية يعرفون القراءة والكتابة ، كما لاحظ بأن العلماء منهم كانوا يحظون بالاحترام الزائد من قبل المواطنين ، وكانت تدرس مع علوم الدين علوم الرياضيات والفلك[2] . وزاد ارتباط السودان بالعالم الإسلامى فى عهد سلطنة الفونج الإسلامية ، حيث استقدموا العلماء من مصر وشمال أفريقيا ، والحجاز وأغدقوا عليهم العطاء ، فانتشرت تعاليم الإسلام من قراءة وتفسير ، وتوحيد ، كما انتشرت خلاوى القرآن فى القرى والحضر ، بجهود المشائخ الذين وفدوا على السودان وفى مقدمتهم غلام الله بن عائد الركابى وأبناؤه من بعده[3] وكانت المساجد مراكز للتعليم جميعه وعندما ازداد عدد التلاميذ أنشئت الخلاوى بجوارها لتستوعب طلاب العلم ، وهكذا استطاع العلماء والفقهاء فى عهد الفونج أن يقدموا للسودان نوعا من التعليم ملائما لظروف البلاد واحتفظ بطابعه الإسلامى حتى بداية الحكم التركى سنة ١٨٢١ وحظى باحترام الوالى المصرى محمد على باشا عند زيارته السودان سنة ١٨٣٩/٣٨ فتودد للمواطنين باحترام تعليمهم السائد وأجرى العطايا والهبات على المشايخ ، والمساجد والخلوات المنتشرة فى أنحاء البلاد ، وزاد الاقبال على الأزهر لسلامة الطريق وأمنه وتأسيس رواق السنارية به سنة ١٨٤٦م . وبجانب هذا كله كانت زيارة الوالى المصرى بداية لادخال التعليم الحديث ، حيث نصح وجهاء السودان بأن يرسلوا أبناءهم إليه ليعلمهم أحدث الطرق الزراعية[4] وأكد لهم أنه سيعاملهم معاملة أبنائه ، وبهذا الترغيب وفد

---

(١) انظر عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص٤٤٧ ، بدون ذكر المطبعة ولا التاريخ
(٢) انظر تطور التعليم فى السودان ص٣٣ نقلا عن بركهارت . ج . ل . رحلات فى أرض النوبة ص ٧٠ لندن سنة ١٨١٩
(٣) المصدر السابق ص٥٠
(٤) انظر د. عبد العزيز أمين عبد الحميد تاريخ التربية فى السودان ج٢ ص١٦٥ ، ط الاميرية ١٩٤٩

إلى مصر ستة من أبناء الوجهاء فأمر محمد علي بمعاملتهم معاملة حسنة، وأمر بأن يكون على علم بأحوالهم وما يتم في أمرهم، وبالفعل تم قبولهم في المدرسة التمهيدية التي فتحت سنة ١٨٢٥، لتعد التلاميذ لمدارس الطب، والهندسة، والمساحة، والفرسان، والبحرية، بالإضافة إلى التخصص في بعض اللغات، وكانت المدرسة الزراعية التي أوصى محمد علي بإعداد الطلبة السودانيين لدخولها إحدى هذه المدارس المتخصصة التي تقبل من المدارس الثانوية ويذكر رفاعة رافع الطهطاوي الذي كان مديرا لمدرسة الألسن في القاهرة ان مجموعة الطلبة السودانيين بعد أن تخرجت في مدرسة الزراعة، تحولت إلى مدرسة الألسن، وكان القصد من التحول على حد قول رفاعة أن يذوقوا طعم المعارف والتمدين لينشروها في بلادهم[1]، أما المحاولة الأخرى فقد جرت على يد الخديوي عباس سنة ١٨٥٠ حيث فتح أول مدرسة على النمط الغربي في السودان، واختار لنظارتها رفاعة الطهطاوي الذي كان يرى في اختياره لنظارتها نفياً له عن مصر، وليس تقديراً لخدماته، ولذا لم تستمر طويلاً إذ أغلقت أبوابها بعد نهاية حكم عباس. وغادر رفاعة إلى القاهرة.

وكان حكمدار السودان موسى حمدي جاداً في تعليم أبناء العلية من السودانيين على النمط الغربي، فكتب إلى الخديوي محمد سعيد يستشيره في فتح مدرسة، فصادفت رغبته بداية حكم إسماعيل الذي كان مولعاً بالغرب وثقافته، وبعد شهر فقط من استيلائه على أزمة الأمور رد على رسالة حاكم السودان بقوله: (بما أنه من أقصى الآمال انتشار حالة التمدن والرفاهية وحسن التواطن والعمارية ومن لزوم ذلك استحصال الرعايا على اكتساب العلوم ليمتازوا بها، ويكونوا دائما مجبولين على حب الوطن ومتشوقين لنوال ثروة الامتياز والتقدم في الفنون، فلذلك قد سنح لخاطرنا لزوم تجديد وتنظيم مكتب على طرف المدير[2] بالخرطوم بحيث يترتب به خوجات تركي عربي ممن يثبت مهارتهم في ذلك ليعلموا قدر خمسمائة نفر تلامذة من أهالي تلك الجهات، وأصدرنا أمرنا هذا إليكم لتبذلوا مزيد اعتنائكم في ترتيب ذلك المكتب وتعينوا بيان الدروس التي يلزم دراستها فيه على حسبما يليق لأجل تحصيل ما ذكر مع إشهار ما يلزم من التشويق والترغيب إلى الأهالي في استحصال هذه الثمرات المدنية..)[3]

---

(١) رفاعة الطهطاوي، مناهج الالباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، ص ٢٦٣، ط القاهرة سنة ١٩١٢م

(٢) لعله يقصد بالمديرية

(٣) انظر تاريخ التربية في السودان، جـ ٢ ص٧٢-٧٦

وحثه على العناية القصوى بهذه المدرسة وتشويق الأهالى وترغيبهم فى التمدن ، وأخبره أنه على استعداد لفتح مدرسة أخرى إذا لم تكف هذه كما أنه على استعداد كذلك لإرسال مستلزمات التعليم ، وصادف هذا التشجيع هوى فى نفس حاكم السودان فأرسل خطة متكاملة لفتح خمس مدارس بحيث تكون لكل مديرية* مدرستها الخاصة ، مع الاحتفاظ بالعدد المحدد فوافق الخديوى على الخطة ووجه ديوان التعليم بالقاهرة ليزود السودان بما يلزمه من الأدوات التعليمية والكتب وأن يكون ذلك خصما من مالية السودان(١) واستمرت هذه المدارس فى أداء رسالتها حتى قيام المهدية . وكما أدخل الحكم التركى المصرى التعليم الغربى فى السودان فتح المجال للإرساليات ، حيث أصدر محمد على أوامره لولاته فى الخرطوم بتقديم كل عون للإرساليات وإعفائها من الضرائب(٢) فأسهمت فى نشر التعليم العلمانى مدفوعة بالحقد الصليبى تجاه الإسلام و برغبة نشر النصرانية لا فى السودان فحسب ، بل فى أفريقيا عامة لموقع السودان فى وسطها(٣) ، وكان أول الرواد فى هذا المجال القس لويجى منتسورى الذى جاء هاربا من أثيوبيا لاضطهاد مطران الكنيسة الأثيوبية للكاثوليك وذلك فى سنة ١٨٤٢ فحصل على أرض وأقام عليها مدرسة وكنيسة وأخرى أقام فيها مقبرة نصرانية(٤).

أما كمبونى الذى جاء مبشرا إلى السودان سنة ١٨٥٧ فقد رأى أن اعتناق الوطنيين الأفارقة للنصرانية لا يتم إلّا بواسطة قسيسين من جنسهم يدربون لهذا الغرض ، وكان يرى فى التعليم أنجع الوسائل لتحقيق ذلك ، ووضح رأيه هذا فى كتيب نشر فى عام ١٨٦٤ ، وفى عام ١٨٦٧ تم تأسيس معهدين لهذا الغرض فى (فيرونا) بإيطاليا أحدهما معهد ملاذ السود

يقوم بتعليم وتدريب القسيسين للعمل التبشيرى فى أفريقيا . وثانيهما معهد الأمهات الصالحات لأرض السود لتدريب الراهبات ، كما أسس كمبونى معهدين آخرين لنفس الغرض فى القاهرة(٥) ، وفى عام ١٨٦٧ أسس فى فيرونا مدرسة خاصة بتربية من يرغب فى أداء العمل الرسولى فى أواسط أفريقيا(٦) ثم أنشأ فى ايطاليا اتحاد الراعى الصالح للقيام بتقديم العون

---

* كانت المديريات آنذاك هى : الخرطوم ، بربر ، دنقلا ، التاكا ، كردفان

(١) انظر تاريخ التربية فى السودان ، جـ٢ ، ص٧٢-٧٦

(٢) انظر محمد عمر بشير ، تطور التعليم فى السودان ص٤٩

(٣) المصدر نفسه والصفحة

(٤) تاريخ المسيحية فى الممالك النوبية والسودان الحديث ص٢٢٨ وانظر تطور التعليم فى السودان ص ٦٩

(٥) (٦) انظر تاريخ المسيحية فى الممالك النوبية والسودان الحديث ٢٤٢/٢٤٣

المالى للتنصير ،وفى عام ١٨٧١ بدأت طلائع مشروعه تنخرط في نشاط التعليم التنصيرى واتخذ من منطقة جبال النوبة بكردفان مركزا لنشاطه[١] وأسس جمعية أخرى للراهبات فى عام ١٨٧٢ وبهذا كافأه البابا (بيوس التاسع) بلقب نائب رسولى وعينه رئيسا لارسالية أواسط أفريقيا وأعطاه السلطة لإعادة فتحها[٢] ، وكانت خطته تهدف إلى القرب من جنوب القارة ،وربط رساليات الروم الكاثوليك فى حوض النيجر بالإرساليات الكاثوليكية فى شمال القارة ،ففتح مدرسة (العبيد) فى كردفان سنة ١٨٧٣ وهو نفس العام الذى عاد فيه من إيطاليا إلى الخرطوم وفتح فيه مدرسة الخرطوم[٣] ، ثم فتح بالأبيض مدرسة حرفية بلغ عدد طلابها فى عام ١٨٧٦ مائة وخمسين طالبا يتلقون التعليم فى مختلف الحرف، وفى عام ١٨٧٧ بلغ عدد التلاميذ بمدرسة الخرطوم خمسمائة طالب،ثلاثمائة منهم من البنين ومائتان من البنات أكثرهم من السودانيين[٤] وهى المدرسة التى بدأ بناءها (لنوبلخر سنة ١٨٥٣ وأتم هو بناءها سنة ١٨٧٨ وأقام أول مدرسة مهنية بالسودان ودفعت جهوده هذه الخديوى إسماعيل باشا أن يعطيه السلطة المطلقة ليحرر من يشاء من الذين ما زالوا يرزحون تحت نير العبودية ،وذلك بمرسوم خديوى عال يمنع تجارة الرقيق فى جميع أشكالها[٥]. كما دفع نجاحه فى حقل التعليم المبشرين غردون وجسى[٦] وأمين باشا الذين عينهم الخديوى حكاما للمديريات الجنوبية ،أن يطلبوا منه تنظيم النشاط التنصيرى والتعليمى فى جنوب السودان ولكنه هلك سنة ١٨٨١ قبل أن ينفذ رغبتهم ،وباندلاع الثورة المهدية فى البلاد (١٨٨٥-١٨٩٨) تم القضاء نهائيا على النشاط التنصيرى بأجمعه فى السودان كما سبقت الإشارة إلى ذلك ورجعت المهدية بالنظام التعليمى إلى ما كان عليه الحال قبل الحكم التركى المصرى ،وشجعت على حفظ القرآن الكريم وتعليم القراءة والكتابة فبلغ عدد الخلاوى فى أم درمان وحدها ثمانمائة خلوة فى عهد الخليفة[٧] وتأثرت العلاقات بين مصر والسودان لاختلاف نوع الحكم فأوصدت أبواب الأزهر فى وجه الطلبة السودانيين لأن مصر فى هذه الفترة أصبحت مستعمرة

---

(١) انظر تطور التعليم ص ٥٣ ،وتاريخ المسيحية فى الممالك النوبية ص ٢٣٦
(٢) تاريخ المسيحية فى الممالك النوبية ص ٢٣٦
(٣) التعليم فى السودان ، وتاريخ المسيحية ص ٢٣٧
(٤) انظر تطور التعليم ص ٥٤ / ٥٥
(٥) تاريخ المسيحية ٢٣٨ / ٢٣٩
(٦) روميو جسى ايطالى
(٧) انظر تطور التعليم فى السودان ص ٥٤ / ٥٥

انجليزية لاحتلال بريطانيا لها سنة ١٨٨٢ وفي سبتمبر سنة ١٨٨٣ عينت انجلترا (سيرافلن بيرنج - لورد كرومر) معتمدا بريطانيا بمصر[١]، وأطلقت يده ليعمل ما يشاء فكان صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في هذه المرحلة التي يمكن أن يطلق عليها مرحلة (كرومر) حيث اتجه بمكره ودهائه إلى ميدان التعليم لتخريج جيل عميل لبريطانيا يقدم مصلحتها على مصلحة بلده ولقد وجد المعتمد البريطاني الطريق أمامه ممهدا لتنفيذ مخططه لأن محمد على كان قد قطع فيه شوطا بإرساله الرواد الأوائل إلى فرنسا فعادوا دعاة للتغريب - حتى رفاعة الأزهري الذي رافق البعثة إماما - أصبح داعية لتقليد الغرب، بيد أن كرومر لم يكتف بهذه الدعوة ففكر في إنشاء أجيال من الداخل يتم تفريغهم تفريغا كاملاً من الماضي كله مع قطع أكثر الوشائج التي تربطهم بهذا الماضي ،اجتماعيا ، وثقافيا ،ولغويا ، وملء الفراغ الناشئ بالعلوم والآداب والفنون ، ولكن علوم الغرب وآدابه وفنونه ،ورأى أن أحسن من يقوم بتنفيذ هذه السياسة رجل مليء حقدا على المسلمين ودينهم وثقافتهم ذلكم هو القسيس (دوجلاس دانلوب) الذي كان مبشرا ومدرسا للغة الانجليزية والخط الأفرنجي بمدرسة رأس التين الثانوية[٢]، فرفعه كرومر إلى العمل في نظارة المعارف وعينه سكرتيرا للوزارة عام ١٨٩٧ م ثم قبل أن يتقاعد كرومر بسنة واحدة رفعه إلى مستشار للوزارة سنة ١٩٠٦ ،ويعتبر دانلوب واضع المخطط الأساسي لتغريب التعليم والتربية ،وإقصاء الاسلام ولغته من برامج التعليم في المدارس المصرية[٣] ،وهو أيضا منفذ المخطط والمشرف عليه لسنوات طويلة حتى بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، وعمل دانلوب على محاربة اللغة العربية والأزهر ،ونشر لواء الإنجليزية وأهّلها للسيطرة الكاملة على شئون التعليم فقضى بذلك على نفوذ العربية حيث خرّج من مدارسه كتبة يعينون في دواوين الدولة برواتب تعد بالجنيهات بينما لا يتجاوز راتب الأزهري ثلث ما يتقاضاه المتخرج في المدارس المدنية ،وهذا منتهى الاغراء ،وهكذا عرف الانجليز كيف يقضون على مقومات الشعوب بمكرهم ودهائهم.

قال كرومر في سنة ١٩٠٠ : (من المحقق أنه كلما مرت سنة على الاحتلال زاد الموظفون في الحكومة المصرية معرفة بلغة الأهالي وأخلاقهم وعاداتهم ،وخبرة بما تحتاج إليه إدارة

---

(١) Afaf Lutfi Cromer and Egypt P. 54

(٢) (٣) انظر الاستاذ أنور الجندي ،التربية وبناء الاجيال في ضوء الاسلام ص٦٦ ،دار الفكر اللبناني ط أولى سنة ١٩٧٥ ، وانظر الاستاذ محمد قطب، هل نحن مسلمون ،ص١١٨ وما بعدها ط الثانية مكتبة وهبة .

البلاد ،وخبرة بعادات أهلها . .وأن مصالح الإنجليز والمصريين متفقة)[1] وفى سنة١٩٠٦ بعد ربع قرن من الاحتلال أضاف قائلا :

(إنه لا يحق للمصريين أن يشكوا من استخدام عدد معتدل الكثرة من الأوربيين على شرط أن يبذلوا الجهد فى تعليم المصريين وتدريسهم ،وهذا أمر أود أن أرسخه فى أذهان رؤساء المصالح ،وأرجو أن يرسخوه أيضا فى أذهان مرؤوسيهم لأنى أرى أنه لا يمكن أن يزاد تعليم الذين هم تحت الموظفين الأوربيين وتدريبهم عما هم عليه)[2] ، ولقد قاوم كرومر التعليم العالى فى مصر وعاونه مستشاره دانلوب ،وسجل كرومر ذلك فى تقريره سنة١٩٠٧ بقوله (إن انجلترا لا تريد نشر التعليم العالى بمصر لأنها لا تريد إلا إعداد طبقة من الأفندية ليشغلوا الوظائف الثانوية فى الحكومة ،لأن المصريين لا يصلحون للعلوم العالية ،لأن زيادة التعليم تصرفهم عن فلاحة الأرض وتقود مصر إلى الإفلاس)[3] وهم يوقنون أن زيادة التعليم تقود مصر إلى التفكير فى بناء نفسها والتخلص من سطوتهم ،واستمرت خطة التغريب التى وضعها الاستعمار والتبشير فى مصر إلى وقت قريب ،وما زال التعليم بمصر يعانى من آثارها .

---

(١) د . أميل فهمى ،التعليم الحديث دراسة وثائقية ص ١٤٤

(٢) المصدر السابق والصفحة .

(٣) التربية وبناء الاجيال فى ضوء الاسلام ص٦٧

المبحث الثاني

نقل الخطة التعليمية المصرية الى السودان

ثم نقلت الخطة السياسية التعليمية نفسها إلى السودان بواسطة جيمس كرى الذى كان من أبرز الشباب الذين استعان بهم دانلوب حيث رشحه للعمل بالإدارة المصرية كموظف في وزارة التعليم[1] سنة ١٨٩٩ وكان كرى ودانلوب من طينة واحدة ،فكلاهما من اسكتلندا ذو تربية كنسية ،فوالد جيمس كرى كان رئيسا لكلية التربية لكنيسة أسكتلندا فى ادنبرا .

وبعد أن أشرب جيمس سياسة أستاذه دانلوب تجاه التعليم ،ودرب تدريبا كافيا رمى به السودان لتنفيذ نفس المخطط الذى نفذ بمصر ،وأسندت إليه إدارة إحدى مديريات السودان بقصد معرفة الأحوال فقضى مدة حاكماًلهذه المديرية حيث باشر تنفيذ مشروع محكم التنظيم لتمكين أعضاء الجهاز التعليمى للقيام بالدور المطلوب فى خدمة الإدارة لاكتساب معرفة مباشرة بالجهاز الحكومى[2] وبعد سنة ونصف السنة من المراقبة الدائبة والتجوال المتواصل فى أنحاء البلاد انكشفت أمامه الأهداف المباشرة لسياسة الحكومة التعليمية التى وضحت من مناشدة كرومر ونجت للبعثات التنصيرية بإنشاء معاهد أولية بسيطة للتعليم الصناعى والزراعى حتى يتمكن الأهالى من تقديرعلمها فى يسر وسرعة[3] ومن ثم احتكرت الإرساليات التعليم بصفة عامة فى السودان وفى الجنوب بصفة خاصة باستثناء بعض المدارس فى الشمال وعلى رأسها كلية غردون التذكارية إن جاز هذا الاستثناء لأنها هى الأخرى كانت قد أنشئت تلبية لرغبة جماعة التبشير الكنسية التى نادت بها قبل سقوط أمدرمان كما سبقت الإشارة الى ذلك ،وعندما رجع كتشنر بعد سقوط أمدرمان بشهرين إلى بريطانيا نشر بيانا فى الصحف يحث على إنشاء كلية غردون التذكارية مدعيا أن إنشاءها سيجعل لبريطانيا المركز الأول فى أفريقيا كقوة حضارية وصادف هذا النداء هوى فى نفوس الصليبيين فجمعواأكثر مما كان متوقعا ،وفى ١٥/١/١٩٠٠ وضع كرومر حجر أساسها باسم الملكة فكتوريا ،وافتتحها كتشنر رسميا سنة١٩٠٢م ،وتم بناؤها سنة١٩٠٣ ، وتكون هيكلها من المدارس الأولية التى أنشئت من أموال التبرعات التى جمعها كتشنر لإنشاء الكلية

---

(١) انظر جيمس كرى ،التجربة التعليمية فى السودان البريطانى المصرى ،مقال نشرته مجلة الجمعية الافريقية جـ٢٣ ص ٣٦٣ اكتوبر ١٩٣٤ .

(٢) انظر التعليم فى السودان ص ١٠٣/١٠٤

(٣) محمد عمر بشير ،مشكلة الجنوب ص ٥٦

والمدارس هى :

١- مدرسة أمدرمان الإبتدائية ١٩٠٠

٢- كلية تدريب المعلمين والقضاة ١٩٠٠

٣- مدرسة الخرطوم الإبتدائية ١٩٠١

٤- مدرسة الصناعة بأمدرمان ١٩٠١ (١)

مضافا إليها مدرستا سواكن وحلفا الإبتدائيتان اللتان أنشئتا فى إبان الحكم التركى ولم تمتد إليهما يد المهدية ،ثم خضعتا للإشراف الحكومى سنة ١٩٠٢ .

و طمعا فى جذب الطلبة السودانيين وترغيبا للمسلمين فى إرسال أبنائهم إلى الكلية ، ودفعا للشبه أدخل الدين الإسلامى مادة فى برامجها ،وأوفدت الحكومة بعثة إلى القاهرة ضمت جيمس كرى مدير المعارف ،كما ضمت البعثة مدير الكلية ،وذلك لحث الطلاب السودانيين بالأزهر على العودة إلى السودان للالتحاق بالكلية وقد نجحت فى حمل البعض على الحضور (٣) وكان أكثر الدارسين بها من أبناء الزعماء القبليين ،وأبناء أمراء المهدية بالإضافة إلى أبناء المصريين والمستخدمين فى الجيش (٤) ،ولم تكن المسيحية ضمن برامجها التعليمية - إما لاختلاف طوائفها وتعدد مذاهبها فى الاعتقاد أو لعدم إثارة المسلمين ضدها - الأمر الذى أوغر عليها صدور المبشرين فصبوا عليها جام غضبهم ،ونادت بعض الإرساليات بالقضاء عليها لأنها إسلامية لحما ودما من ناحية دينية كما أنها فى نظرها اسم على غير مسمى ولا يمكن إلا أن تكون غشا للشعب المسيحى فى بريطانيا العظمى وأن الجنرال غردون لم يخلد له ذكر فى هذه الكلية ،بل خلد النبى محمد -(صلى الله عليه وسلم)- ولعل تسمية الكلية : (مدرسة محمد الروحية فى أعالى النيل) تكون أليق لأنها بكل تأكيد تقوم بتدريس الشريعة والقرآن أكثر من أى علم آخر ،حيث أصبحت المؤسسة الرئيسية للتعليم الحكومى الإسلامى ،تحتفل بالأعياد الإسلامية ،وتغلق أبوابها يوم الجمعة مما يضطر المسؤولين المسيحيين أن يعملوا نهار الأحد (٥) ،واستطرد الكاتب منتقدا استخدام الأساتذة

---

(١) تطور التعليم فى السودان ص٨٩

(٢) حكومة السودان ،مذكرة العلاقات المالية بين مصر والسودان ص٦ ه سنة ١٩١٠ ،وانظر كذلك تطور التعليم فى السودان ص٨٩ .

(٣) انظر التعليم فى السودان ص٦٤/٦٥

(٤) انظر تطور التعليم فى ص٨٩

(٥) The Christian approach to Islam in the Südan P.15

المصريين في الكلية لأنهم نتاج أزهري ،والأزهر معروف عالميا بأنه أعظم وأشد المعاهد الدينية تعصبا للإسلام.[(١)]

ثم أنشئ بالكلية قسمان ثانويان في عام ١٩٠٥ لتخريج مساعدي المهندسين والمساحين ولم تكن مادة الدين ضمن مواد الأقسام الثانوية خوفا من انتقاد الإرساليات،ثم قررت مادة الدين الإسلامي في سنة ١٩٣٢،ولم تعارض سلطات الكلية تدريس المسيحية للطلاب المسيحيين بها إلاّ للصعوبات العملية ،والمخاطر التي تثور نتيجة لاختلاف الطوائف المسيحية لأن تدريس أي مذهب لأي طائفة لا يكون مقبولا لدى غيرها من الطوائف[(٢)] ،وكانت لغة التعليم بالمدارس الوسطى والكلية هي اللغة الإنجليزية ،وانحصرت العربية في الكتاب والمدارس الأولية.

المنهج والإدارة :

بين المستعمرين والمبشرين من أي جنس كانوا اتفاق كامل في الخطة والهدف، وإن اختلفت وسائل تحقيق هذا الهدف. فالمبشرون يدفعهم حماسهم للنصرانية للجهر بدعوة المسلمين لاعتناقها ، ويرى المستعمرون في مسلكهم هذا تنفيرًا وإثارة للمسلمين على النصرانية وحكوماتها الاستعمارية ،ولهذا سارعوا إلى إنشاء مدارس غير المدارس الكنسية مدارس وطنية اسما غربية قلباً وقالباً ،لغة ومنهجا وطريقةً وتدريساً وإدارةً ،ليضمنوا تشكيل الأجيال الناشئة وفق الأهداف الرامية إلى إبراز عناصر ثقافية جديدة[(٣)] صالحة لغرس المفاهيم العلمانية.

يقول المبشر الألماني (اكسنفلد) في رده على (بيكر) عضو مجلس المستعمرات : (إن الحكومة لابد لها من القيام بتربية الوطنيين المسلمين في المدارس العلمانية ، مادام هؤلاء ينفرون من المدارس المسيحية ، ونحن نعترف بهذه الحقيقة ،على الرغم من اعتقادنا

---

(١) انظر تطور التعليم في السودان ص١٠٩

(٢) خطاب كرومر لماكلين ،القاهرة ١٦/٥/١٩٠٦

(٣) انظر د. حسان محمد حسان ،وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الاسلامي ص٦٦ ، دعوة الحق ،عدد (٥) رابطة العالم الاسلامي

بأن المدارس العلمانية تزيد الإسلام نموا وارتقاء، وإذا نحن طالبنا الحكومة بتقدير مقاصدنا ومصالحنا، فيجب علينا بداهة أن ندرك أهمية المعضلة من حيث واجبات الحكومة ومصالحها)(١)

والمعضلة المعنية هنا هي الإسلام فالمستعمرون والمبشرون يجمعهم الحقد على الإسلام، لأنه يحول دون تحقيق مصالحهم ثم إن كرومر الذي رمت به بريطانيا مصر كان يغلي حقدا على الإسلام وأمته الأمر الذي دفعه إلى انتخاب القسيس دوجلاس دانلوب ليكون مستشاره في شئون التعليم بمصر وهو يدرك تماما أن مصر إذا سلس قيادها للثقافة الغربية فسيكون لها أثر كبير على العالم الإسلامي قاطبة، فنجح دانلوب في المهمة التي أوكلت إليه نجاحا منقطع النظير وحقق ما عجز الصليبيون حتى حملة نابليون عن تحقيقه .

منهج التعليم في مصر :

يقول الأستاذ محمد لطفي جمعة : (إن دانلوب العظيم العبقري أعظم ما انتجته انجلترا لقتل مصر والشرق، تمكن في عشرين عاما من تخريب العقول، والنفوس، والضمائر والعواطف، أكثر مما لو جندت بريطانيا مليون جندي على مصر.

فإننا لما دخلنا المدارس التحضيرية في أوائل هذا القرن وجدنا أساتذة التاريخ من الإنجليز أمثال (هيل) ومستر (كرونسكروفر) أخذوا يملون علينا مقتطفات بالإنجليزية عن تاريخ الدولة الرومانية، والقرون الوسطى، وحروب الأديان والنزاع بين الكاثوليك والبروتستانت وسلطة البابا، وفردريك الأكبر، وكاترين العظمى، كل ذلك في فصول مختصرة مختلة سقيمة الأسلوب، عقيمة المعنى، وكان امتحاننا يدور حول هذه المسائل ، ولم نعط كتابا ملمما بهذه الموضوعات، لا جيدا ولا رديئا . أما تاريخ الشرق والغرب ومصر فلم نأخذ منه كلمة واحدة، كأننا نشأنا من العدم ، وإلى العدم نعود ودائما إذا ذكر الشرق كان يذكر في مجال الإنحطاط والسقوط والفشل والحروب التي فاز فيها عليه الغرب مثل صد الرومان للفرس، والفرنسيين للعرب) (٢)

وذلك ما أملاه علينا أستاذنا هل بالإنجليزية أن اثنين من رجال أوربا أنقذا المدنية

---

(١) ا.ل. شاتليه، الغارة على العالم الاسلامي ص١٣٦، لخصها ونقلها للعربية مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب، الدار السعودية للنشر، بدون تاريخ .

(٢) أنور الجندي، الموسوعة العربية الإسلامية (١٦) ، التربية وبناء الاجيال في ضوء الاسلام ص٥٦ ،

الغربية من السقوط على أيدى البرابرة المتوحشين أولهما تستوكليس اليونانى الذى هزم قورش الفارسي في موقعة سلاميس الشهيرة ، والثانى شارل مارتل الذى هزم العرب فى موقعة بواتيه . ألأولى حصلت فى سنة ٤٨٠ ق . م . والثانية سنة ٧٣٢م أى بينهما اثنتا عشرة ومائتان وألف سنة .

وقد كتبنا هذا بأنفسنا وبأيدينا وبإملاء أستاذنا الإنجليزى الذى مثل لنا أمة العرب - التى أنجبت مئات الألوف من رجال العلوم والآداب والفنون ، الذين علموا أوربا وهذبوها - فى وحشية وقسوة تعادل وحشية الفرس الوثنيين قبل الميلاد بخمسة قرون ، فصدقنا وآمنا به وتعلمناه وحفظناه وأدينا فيه امتحانات عشرة)[1]

وهذه الخطة اتبعها الغربيون لسرقة الضمائر وقطع الأواصر التى تربط هذه المجتمعات بالماضى وهى خطة اتبعوها ونفذوها بدقة فى كل الأمم التى استعمروها بلا استثناء . يقول أحمد خير : (ولما كانت المناهج المدرسية فى ذلك الوقت خلوا من المناهج التجريبية تعذر عليهم تناول المولفات المتعمقة فى العلوم)[2]

الإدارة والمنهج فى السودان :

لم يكن السودان أحسن حظا فيهما من مصر ، ففى مجال الإدارة كان ونجت ينوب عن كرومر فى تنفيذ خطته الإدارية ، كما كان كرى ينوب عن دانلوب فى مجال التعليم ، فالقائمان بالإدارة على شاكلة واحدة كما كان القائمان بأمر التعليم فى كلا البلدين من طينة واحدة وشربا من منبع واحد ، وكلية غردون التذكارية هى الأم لما سمى بالمدارس الوطنية التى بسط الاحتلال عليها نفوذه ، فكانت كما وصفها أحد أساتذتها : (مدرسة حكومية فى بلد الحكومة فيه ثنائية ، فقد كان الإنجليز المشرفون على كل شئ كأساتذة وحكام فى نفس الوقت وكانت الثانية تغطى الأولى ، وكان ينتظر من الطلاب أن يظهروا لهم الخضوع والإذعان لكل أمر وقد شعر الطلاب أن وراء أى أستاذ إنجليزى قوات الحكومة مستعدة للقتال ، حتى لو كان الأستاذ إنسانا طيبا ورحيما ، فإن القوة الحكومية من خلفه فى نظر طلابه ، ابتداء من مدير التعليم والسكرتير الإدارى ، والحاكم العام ، والحكومة البريطانية كلها ، ومن ورائه أيضا يقف مفتش المركز الذى يحكم أهله فى القرية ، والأستاذ نفسه غالبا ما يصير فى يوم من الأيام مفتش

(١) التربية وبناء الاجيال فى ضوء الاسلام ص٦٤

(٢) أحمد خير ، كفاح جيل ، ص٦٠ ، ط الدار السودانية ، بدون تاريخ .

مركز يحكمهم ويتحكم فى آبائهم وذويهم [١] فالكلية فى حقيقتها خديعة للمسلمين وضربة للإسلام لأنها أكبر معاقل العلمانية فى السودان ، ومنها تخرج أوائل القادة العلمانيين الذين عاونوا الاستعمار فى إدارة شئون البلاد ،فعملوا موظفين فى شتى الوظائف.

وكان القائمون على شئون التعليم بالسودان من نوع ما أشار اليه الاستاذ محمد لطفى بمصر ،أساتذة مهرة من أمثال هولت وبيرد وهيوود وقرفث والأخير ظل المسئول الأول أكثر من ربع قرن لمعهد التربية ببخت الرضا [٢] أكبر معهد لإعداد المعلمين بالسودان ،فجعل منه أكبر حقل للتجارب الناجحة للغزو الفكرى لعقول ناشئة السودان .

ووضعت المناهج كما يقول الأستاذ محمد قطب عبارة عن برنامج دعائى لأوربا وأممها : (فأوربا هى القوة ،وهى الحضارة وهى العلم ،وهى العدالة الإجتماعية ،وهى الحرية ،وهى الإخاء ،وهى المساواة ،وهى التقدم الصاعد فى كل ميدان) [٣]

فالطالب الذى يتخرج من المرحلة الوسطى يلم الماما واسعا بما وصلت إليه أوربا من رقى وحضارة بصفة عامة مع الخبرة التامة بما فى بريطانيا والولايات المتحدة من التقدم والازدهار فلا يغادر التلميذ فيها صغيرة ولا كبيرة إلاّ درسها حتى المواصلات والممرات التى مدت تحت الأرض يدرسها ويؤدى فيها الامتحان أما السودان فلا يعرف عنه إلاّ ماعملته يد المستعمر كمشروع الجزيرة وخزان سنار و خطوط السكة الحديدية أما قبل ذلك فتشويه لتاريخ التركية والمهدية ووصفهما بالهمجية والظلم واستعباد الناس وخاصة الأخيرة حيث وصفت بأنها بربرية جعلت السودان سوقا لتجارة الرقيق مع وصفها بالتعطش لإراقة الدماء. كما سموا فتح الخرطوم على يد المهدى سقوطاً وسقوطها فى يد كتشنر فتحاً وما زالت هذه المفاهيم المغلوطة تهيمن على عقول كثير من مدرسى التاريخ وتلاميذهم. أما الزبير باشا فوصف بأنه أكبر تاجر للرقيق فى أفريقيا . . هكذا كان يدرس التاريخ فى المراحل التعليمية على يد الإنجليز وما زال حتى الآن .

كما اهتم الأساتذة الإنجليز بتدريس الشخصيات الغربية البارزة من الملوك والرؤساء والساسة والمكتشفين والمخترعين فى المجالات العلمية المختلفة ،فإذا ذكروا شيئا عن الإسلام فإنما

---

(١) Atia Edward, An Arab tells his story P. 141

(٢) V.L. Griffiths Teacher centred quality in Sudan Primary Education (1930 - 1970) P.5

(٣) الاستاذ محمد قطب ،هل نحن مسلمون ،ص١٧ ، الطبعة الثانية ،مكتبة وهبة ، بدون تاريخ .

هي الأباطيل والأكاذيب التي وضعها أعداؤه من اليهود والنصارى الحاقدين من أمثال جورج زيدان ومن على شاكلته من المستشرقين، إمعانا في التشويش والتنفير من الإسلام، ونسوق على سبيل المثال لا الحصر ما وضعه الاستاذ ج. أ. هيوود في كتاب (قصص من الماضي) الذي كان مقررا على تلاميذ السنة الرابعة من المرحلة الابتدائية. قال في بداية الدرس الثاني من فتح الأندلس (لقد رويت قصص كثيرة عن سقوط ملك الأندلس لكراهية الناس له. وكان يحكم شمال أفريقيا في الساحل المقابل لبلاد الأندلس رجل عربي اسمه موسى، وفي ذات يوم ذهب أحد رجال حاشية الملك ممن كانوا يكرهون الملك، وطلب مقابلة موسى عارضا عليه المساعدة إن هو - أعني موسى - أرسل جيشا لبلاد الأندلس لمحاربة ملكها البغيض، وكان لموسى أمير اسمه طارق... أرسل موسى طارقا بجيش صغير سجل على صغره نصرا مبينا على الأعداء حتى إن موسى أمده بفصائل أخرى، فاستمر في تقدمه تدين له القلعة تلو الأخرى، وسرعان ما التحم جيشا ملك الأندلس وطارق في معركة حامية الوطيس انهزم فيها الأندلسيون هزيمة شديدة نسبة لأن أكثرهم فر والتحق بجيش العرب وتمكن ملكهم من الهروب من الميدان حيا .. سار طارق من نصر إلى نصر، وكان جيشه يستولي على الغنائم الكثيرة من أهل الأندلس.

أما موسى فعندما سمع بنصر قائده تملكه الحقد والحسد بدلا من السرور، لخوفه من أن يعظم الناس طارقا عليه ولذلك فقد سارع وعبر البحر إلى الاندلس لكي يتولى قيادة الجيش بنفسه، ولما قابل طارقا لم يكافئه كما كان يجب أن يفعل، بل أخذ يوبخه ويلومه على توغله في داخل البلاد دون إذن من سيده، ولقد بلغ به الأمر فوق هذا أن أمر بجلده على ملأ من الناس وتصفيده بالقيود ثم تولى قيادة الجيش بنفسه)[(١)]

والظاهر من هذا المثال أن المؤلف أراد أن يجرد المسلمين من مزية فتح الأندلس حيث عزا هزيمة الأندلسيين إلى كراهيتهم ملكهم، وبانضمامهم إلى جيش طارق الصغير كانوا هم السبب في هزيمة ملكهم البغيض، ثم مبالغة في التنفير وصف موسى بن نصير بالحقد والنذالة والبغي.

أما المثال الآخر فمن قصة الفارس (رولاند) حيث قال: (وسرعان ما بلغ العرب في فتوحاتهم أقصى بلاد الأندلس، وهناك اعترضتهم سلسلة من الجبال العالية... وتقع خلف تلك الجبال

---

(١) ج. أ. هيوود، وآخر، قصص من الماضي ص ٥٧ الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٩

بلاد مسيحية كثيرة الخيرات ،تعرف بفرنسا . . لقد تعدى العرب تلك الجبال وتدفقوا في سهول فرنسا ،وأحوا ض أنهارها بسرعة فائقة حتى ظن الناس أن العرب سيفتحون فرنسا بنفس السهولة التي افتتحوا بها بلاد الأندلس،ولكن هب ملوك أقوياء صدوا هجمات العرب ،وأوقفوا تيار غزوهم ،وردوهم على أعقابهم ،لأن تلك الجبال رغم علوها لم تكن خالية من السكان ، فقد كانت موطنا لقوم بسل عرفوا حب الحرية وكراهية الأجانب ، فكان أولئك القوم يقاتلون كل غريب يدخل بلادهم[1]

(عاش رولاند في عهد ملك عظيم من أشهر ملوك فرنسا ،وكان ذلك الملك شجاعا مولعا بالحرب ،ويعتقد أن واجبه نحو وطنه يحتم عليه أن يهزم العرب حتى يسلم بلاده من خطرهم ،فجمع حوله ثلة من الفرسان المختارين يعهد إليهم بأداء المهمات الحربية الخطيرة ،التي تستوجب الشجاعة والإقدام ،وكان رولاند بطل قصتنا أشجع تلك الجماعة من الفرسان وقد ذاع صيته بين الناس ولكن كان بين رجال الملك فارس يحسد رولاند على شجاعته وشهرته ومحبة الملك ورجاله إيّاه ،فدفعه حسده إلى أن يذهب إلى أمير العرب ليطلعه على الخطة المرسومة ليكيد إلى غريمه رولاند ،فامتطى جواده وأسرع مختفيا إلى معسكر العرب. فأطلع أمير العرب على الطريق الذي سيسلكه رولاند ورفاقه ،وكان الطريق المقصود يسير في واد ضيق بين الجبال ،فسلك رولاند ورفاقه ذلك الطريق ،وما دروا أن العرب قد اختبأوا على جانبيه للفتك بهم ،وعندما دخلوه انهالت عليهم الصخور فأصيب بعض الرجال وعدد من الخيل بأذى بليغ فاضطر الفرسان إلى الترجل ، وإذاك أمطرهم العرب بوابل من سهامهم ، فكانت تتساقط عليهم من كل صوب ،فدهشوا رغم شجاعتهم وأمعنوا النظر في الصور المحيطة بهم فإذا بجنود العرب يحيطون بهم من كل جانب وكأنهم مردة نزلوا عليهم تنزيلا ،فنشبت معركة حامية الوطيس تطايرت فيها الرؤس والأشلاء ،فقتل الأمير العربي وكثيرون من جنوده ،وهلك الكثير من فرسان رولاند وبالطبع كانوا قلة !! بالنسبة للعرب المهاجمين فلم يكن لديهم أمل في النصر ،وبعد برهة من الزمان تراجع العرب عن القتال !! لأنهم قد أجهدوا أنفسهم كثيرا . وكان رولاند أثناء المعركة ينفخ في بوقه نفخا شديداً يستثير حماس رفاقه ويطلب النجدة من الملك ،وبعد انسحاب العرب ووقف القتال نظر حوله ملياً فلم يبصر سوى جثث فرسانه وأعدائه على السواء ،فتحسر شديداً ،وقبض على بوقه

---

(١) المصدر السابق ص٦٠ / ٦١

فنفخ فيه نفخة قوية أحدثت منه صوتاً له دوى شديد ،ثم التفت فرأى فارسين أو ثلاثة من رفاقه يعدون نحوه تلبية لندائه ،وعند ذلك هاجمهم العرب من جديد واستؤنفت المعركة بنفس الحماس السابق ،فدافع الفرسان عن أنفسهم بشجاعة وإقدام ولكنهم كانوا قليلي العدد بالنسبة إلى أعدائهم العرب الكثيرين الذين أطبقوا عليهم من كل جانب فذبحوهم كلهم واحدا بعد الآخر.

وما هي إلا برهة حتى التفت رولاند فوجد نفسه وحيداً في ساحة القتال وقد جرح جرحا بليغا لا يستطيع معه الدفاع عن نفسه فانتأى مكانا قصيا ثم نزل عن حصانه وجلس تحت شجرة مسندا ظهره إلى صخرة كبيرة.. تخيلوه وهو جالس تلك الجلسة الحزينة وقد اشتد به الألم وتملكه اليأس وأيقن أنه هالك. إنه لن يخشى الموت ولكنه يخشى أن يخلف إلى أعدائه من ممتلكاته ما يستفيدون منه ففكر أولاً في التخلص من سيفه ذلك الرفيق الحبيب الذى خاض به المعارك وجندل به الأعداء أيتركه لأعدائه؟ كلا فحاول كسره بضربه على صخرة كانت بجواره بكل ما أوتى من قوة فلم يفلح لأن السيف كان قوياً وهو جريح فهو ى وعندما أعوزته الحيلة في كسره ألق به على سفح الجبل متمنيا ألا يعثر عليه أحد من أعدائه العرب وبذا تخلص منه.

وأكثر ما كان يخشاه ألا يكون الملك وجيشه قد شعروا بما يداهمهم من الخطر لأن أعداءهم العرب ربما يتعقبونهم ، فبقى عليه أن ينذر الملك بالخطر فقبض على بوقه وجمع كل ما تبقى له من قوة ونفخ فيه نفخة أحدثت منه صوتا عالياً ارتجت له الجبال ورجعت صداه.. فسمعه الملك وجنوده فأسرعوا نحوه فوجدوه قد فارق الحياة فتحسروا عليه)[1]

هكذا شوهوا التاريخ ودرسوه أحقاداً وأطماعاً وأساطير ونشأوا الصغار على حب رولاند الفارس الشجاع ورفاقه الذين ظلوا يقاتلون أعداءهم رغم قلتهم وكثرة أعدائهم لأنهم جبناء فنشأ الصغار على حب رولاند وكره العرب .

فالمناهج بصفة عامة في بلاد المسلمين وضعها الأوربيون لمآرب ، وهي في مجملها ترمى لتحقيق ثلاثة أغراض :

أ- الغرض الرئيسى الذى يؤدى إلى تحقيق الغرضين الآخرين تشويه المفاهيم الإسلامية ومحوها من الأذهان وغرس المفاهيم المادية الغربية ،فالتعليم في نظر الغربيين خير

---

(١) المصدر السابق ص٦٣/٦٤

وسيلة لاقتلاع الإسلام من جذوره ومحو أثره من مجتمع المسلمين ، أو بتعبير آخر خير وسيلة لاقتلاع ناشئة المسلمين من مجتمعهم وربطهم فكرياً وثقافياً وحضارياً بالغرب، ولقد تحقق ذلك فأفسدت هذه المناهج التصور وعقدت الألسنة فصارت لا تفقه إلا لغة المستعمر ، وصارت المؤسسات التعليمية أجزاء من الأقطار المستعمرة فمثلا حتى وقت قريب كان الداخل إلى جامعة الخرطوم - كلية غردون سابقا - من البوابة الرئيسية حتى نهايتها يجد كل الإعلانات وأسماء التلاميذ كتبت بالإنجليزية .

ب - الغرض الثاني :

تخريج عدد من الحرفيين الأكفاء ، وقليل من الكتبة والمحاسبين لمساعدة الحكومة في أداء مهامها بقدر الضرورة ، مع نشر قليل من الوعي بين أفراد الأمة بالقدر الذي يعينهم على التعاون مع السادة الحكام ، ومن ثم وضعت أسس نظام تعليمي لسد هذه الضرورات الملحة للحكم الجديد ، وضيقت الإدارة البريطانية نطاق التعليم فحددت فرصه بعدد وظائفها ، معللة ذلك بالضيق المالي ، ولقد ظلت كلية غردون التذكارية حتى نهاية عام ١٩٤٤ بمثابة مدرسة ثانوية حكومية ،(١) وقفا على تحقيق الغرضين السابقين .

جـ - الغرض الثالث والبعيد وهو تخريج جيل عميل بديل يخلف الاستعمار إذا اقتضى الأمر خروجه فلم يلتفت إليه رسميا إلا في عام ١٩٤٥ فقد كان قبل هذا التاريخ يرسل الطلاب الذين يؤمل أن تؤول إليهم مقاليد الأمور إلى مدارس التبشير العليا ، كالجامعة الامريكية ببيروت وكلية فكتوريا بمصر ، أما في العام المشار إليه فقد اتخذ قرار بتسجيل طلاب الكلية الممتازين لنيل درجة البكلوريوس العامة الخارجية من جامعة لندن في الآداب والعلوم(٢) لتقود هذه النخبة الممتازة المجتمع على نفس الطريق ، وبذلك يأمن الاستعمار على مصالحه ويضمن استمرارها .

وظلت هذه السياسة التعليمية التي رسمها كرومر وأعوانه هي المسيطرة على مقاليد الأمور ، وخاصة في مجال التعليم حيث قررت أن أوربا الحديثة المخترعة المتقدمة في كل الميادين لم تصل إلى ماوصلت إليه إلا بعد أن تحررت من الدين وكسرت قيده وخلعت ربقته من عنقها ونبذته وراءها ظهريا ، وبذلك حلقت في أجواء الحضارة والعلم والحرية

---

(١) (٢) انظر التعليم في السودان ص١٦٢

والمعرفة ،وتوصلت باكتشافاتها العلمية إلى حقائق الأشياء وأسرار الكائنات كما توصلت إلى أن الأديان من وضع الإنسان البدائي فلا تقدم ولا رقي معها .

وأن الكائنات الحية مرت بأطوار عدة وظلت في تطور مستمر حتى ظهرت القردة وعنها تطور الإنسان واستقر على ما هو عليه ،وأخذت هذه المزاعم التافهة كما أخذت حقائق العلم وقضاياه المسلمة ،ونقلت إلى المناهج التعليمية لتصادم معتقدات المسلمين الثابتة عن طريق الوحي الإلهي .

ففي المرحلة الابتدائية حيث يمتاز الصغار بقوة الاستيعاب والتحصيل ،وتملأ الدروس عليهم آفاقهم فيعيشونها واقعًا مسلمًا فتكيف سلوكهم وخلقهم ،في هذه المرحلة الخطرة كانوا يدرسون مبادئ النظريات الفلسفية كما كانوا يتلقون مبادئ العلوم فيدخل أستاذ الدين فيكلمهم عن الله الخالق العظيم الذي خلق هذا الكون بأحيائه وجماده ومائه وخلق آدم أبا البشر من الطين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل نسله من سلالة من ماء مهين فآدم أبو البشر ومنه تناسلت ذريته المكرمة على سائر المخلوقات الأرضية وسخر لها الله سبحانه هذا الكون وأمرها بعبادته وطاعته حمدًا وشكرًا على ما أنعم عليها . ثم يعقبه أستاذ الطبيعيات فيعفي على أثره بما يلقي عليهم بأن الطبيعة زودت الجمل بكذا والزرافة بكذا وأن الإنسان أصله قرد ،ومن هنا تبدأ الازدواجية الفكرية ويكون التلميذ في حيرة بين ما قاله معلم الدين عن الله الخالق وبين ما قاله استاذ الطبيعيات والعلوم عن الطبيعة المزودة الخلاقة ،ومن المؤسف أن كل العلوم أو أكثرها تنتهج هذا النهج الإلحادي وأن مقرر الدين وزمنه لا يساوي شيئًا بجانبها ،وأن أستاذ الدين نفسه في غالب الأحيان تنقصه الدراية والجدية في تقرير حقائق الدين بل ربما يكون هو نفسه مادة تدرس للسخرية فيرسم في صورة مزرية متخيلاً تلميذه سبورة ينقش عليها المعلومات أو جرة يملأها بها بينها رسم رصيفه من معلمي العلوم الحديثة في شكل وجيه التف حوله تلاميذه يمدهم بالعلم الصحيح والتوجيه السديد .(١)

ومن هنا تنعكس في ذهن التلميذ شخصيتان شخصية أستاذ الدين الباهتة وأستاذ العلوم الحديثة ،فمعلم الدين كان في أغلب الأحيان يختار من الشيوخ الأزهريين الطاعنين في السن ،ليدرس الدين ولغته العربية ،ولم يكن للمادتين نصيب في درجات الامتحان ،ولا لوم

---

(١) انظر مرشد التعليم الأولى لمدارس البنين بالسودان ص ٦٢/١٦ من القسم العربي و٤٠/٣٩ من القسم الانجليزي ،وزارة المعارف السودانية ط سنة ١٩٥١ شركة لندن .

ولا عقاب لمن لا يحضرهما ولهما من الزمن آخره حيث توضع حصصهما فى آخر الوقت من آخر الأسبوع وخاصة بالنسبة للدين فيدخل الشيخ حجرة الدراسة فلا يجد إلّا القليل من التلاميذ قد أنهكهم عناء الدروس فلاعب النوم أجفانهم فتزيدهم شيخوخة الشيخ نعاسا ، وأستاذ اللغة والدين إلى جانب ما ذكر هو أقصل هيئة التدريس مرتبا وأقلهم مكانة ، والغرض من كل ذلك تصوير الدين بهذه الصورة الباهتة لتنفر منه النفوس.(١)

أما أستاذ العلوم الحديثة ،فكان مثال الشباب والحيوية والاحترام وتنمو الفكرتان المتعارضتان فى ذهن التلميذ الصغير ، ويتسع هذا التعارض فى كل مرحلة لأن كل مرحلة تسلمه إلى أخطر من سابقتها حيث يجد أساتذة علمانيين تتلمذوا على أيدى مستشرقين غربيين فى الفلسفة والاجتماع فملأوا رؤسهم بالترهات والأكاذيب عن الإنسان حيث درسوا لهم الإسلام مجموعة من الشبهات مجموعة من المظالم الفكرية والروحية والاجتماعية والسياسية تبينه فى نظر الناس شيئا ضيئلاً هزيلاً من ناحية ،ومن ناحية أخرى تبينه رجعية وجموداً وتأخراً ينبغى الانسلاخ منه والتخلص من هذه السبة التى تسمى الدين ولذا أفلح هؤلاء فى تخريج جيل عميل مزعزع الثقة فى نفسه و أمته لأن أساتذته علموه أنه من أمة مهزومة عبر القرون ،أمة أبرزت عيوبها وضخمت وطمست محاسنها ومحيت.

هكذا خرجت مناهج الغرب جيلا يتغنى بمحاسن الغرب ويدعو إليها ويعتنق مبادئ الفلسفات المادية والشيوعية ،ويضرب أمثاله بالثورات الفرنسية والبلشفية ولا يعرف عن تاريخه وحضارته إلّا الشبهات التى تلقاها عن أعداء أمته وحضارته من المستعمرين وأعوانهم من المبشرين .

---

(١) انظر هل نحن مسلمون ص ١١٧/ ١١٨

المبحث الثالث

المدارس التبشيرية

اعترف دهاة السياسة من الغربيين بأن مدارسهم ومناهجهم في بلاد الإسلام كان لها من الأثر في ضرب الخلافة الإسلامية ما فاق أثر دول أوربا المتحالفة، جاء هذا الاعتراف على ألسنة المبشرين حيث قالوا: (اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى في عاصمة السلطنة العثمانية أن معاهد التعليم الثانوية التي أنشأها الأوربيون، كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية، يرجح على تأثير العمل المشترك الذي قامت به دول أوربا كلها)[(١)]
وتتميما لهذه المهمة كان الاستعمار وراء إنشاء مدارس التنصير في بلاد المسلمين، ولما كان التنصير في شمال السودان محظوراً للخوف من إثارة المسلمين سمح بإنشاء مدارس التنصير في الشمال بحجة تعليم أبناء النصارى المستخدمين من أصول غير سودانية، وكانوا هم الأكثرية في بادى الأمر ولكن لم يمض وقت طويل على إنشاء هذه المدارس حتى ولع بها المسلمون فاجتذبت أبناءهم سواء كانوا سودانيين أم مصريين، وخاصة عندما نقل المركز التعليمي التنصيري إلى أمدرمان فأصبح المسلمون هم الأكثرية[(٢)] وتضافرت جهود المبشرين وتكالبت الإرساليات على أبناء المسلمين تكالب الأكلة على القصعة، فولد هذا التكالب رد فعل لدى المسلمين وبدأت الأصوات ترتفع فخشيت الحكومة الاستعمارية أن يتنبه المسلمون لعمل الإرساليات، فوضعت شروطا شكلية غير ملزمة لتقييد التعليم نوجزها فيمايلي:

١- أن يخطر ولي أمر التلميذ قبل قبول ابنه بالمدرسة بأنها مدرسة مسيحية.
٢- أن يتلقى مسئول المدرسة موافقة ولي أمر التلميذ كتابة أن ابنه سيتلقى تعليما مسيحيا.
٣- اذا لم يوافق ولي أمر التلميذ على تعليم ابنه الدين المسيحي لا يكره على ذلك.
٤- أن تخضع المدرسة للتفتيش الحكومي
٥- أن يكون رئيس المدرسة مسئولاً عن تنفيذ هذه الشروط.[(٣)]

ولكن الإرساليات لم تلتزم بهذه الشروط، فاضطرت الحكومة في سنة ١٩٠٦ إلى البحث عن إمكان إخضاع المدارس التبشيرية للتفتيش الرسمي عن طريق سيرجيمس كرى مدير المعارف، الذي رأى أن التفتيش هو الذي يكبح جماح ثورة المسلمين، وأقنع الحاكم العام بذلك إلا أن

---

(١) الغارة على العالم الاسلامي ص١١٩
(٢) The Christian approach to Islam in the Sudan P.16
(٣) انظر التعليم في السودان ص٦٦/٦٨

كرومر رأى أنه من غير الحكمة أن يقوم الحاكم بهذه المهمة ،كما كان عدم اللجوء إلى التفتيش أساسا هو رأى دانلوب مستشار كرومر للتعليم حيث أعد تقريرًا جاء فيه : أنه متى أقرت الحكومة هذه الخطوط العامة في التفتيش ،فلا شك أن المدارس الإرسالية ستطالب بمنح مدرسية لا مفر من إعطائها . فوافق كرومر فى ذلك ،وأرفق تقريره مع خطاب إلى (ونجت) الذى كان مصرا على التفتيش الذى سيكون فى نظره ردًا على انتقادات المسلمين ،وأخيرا تحت هذا الإلحاح وافق كرومر على التفتيش على أن يكون محدودا من أجل تلك الغاية .[١]

وبينما كان الحاكم العام للسودان - ويوافقه كرومر - حريصين على تحاشى انتقادات المسلمين كان دانلوب حريصًا على ألا تتورط الحكومة فى تفتيش المدارس التبشيرية بشكل منتظم لأن الوقت فى رأيه غير مناسب لأن تتحمل الحكومة مسئولية عمل مدارس التبشير لأنها فى نظره لا تستطيع ذلك[٢] وفى أثناء هذه المحاورات والمداولات بين دهاقنة الإدارة ودعاة التنصير فى القاهرة والخرطوم ،كانت المعارضة الإسلامية للتعليم التنصيرى قد وصلت إلى صحافة القاهرة ،ففى السابع عشر من شهر ديسمبر سنة ١٩٠٦ ظهرت مقالة قوية بدون توقيع تحت عنوان : (ماذا وراء الأكمة) هاجم فيها الكاتبُ المعتمدَ البريطانى اللورد كرومر فى القاهرة و(ونجت) حاكم السودان واتهمهما بخداع المصريين فى تقاريرهم عن مدارس الإرساليات بالسودان ،وأن ما جاء فى تقاريرهم هون على المسلمين أمر إرسال بناتهم إلى مدارس التنصير بعد أن خدعهم سراب الوعود التى قدمت لهم من أن البنت لن تدخل مكان العبادة ،ولن تلقن شيئًا من النصرانية التى تدرس لزميلتها المسيحية . ولكن ما إن تترك الفتاة دارها وتدخل المدرسة حتى تصبح فى عهدة القسيس والراهبات كالميت بين يدى غاسله .

واستشهد الكاتب على ما يقول بحادثة عيان شهدها أثناء وجوده بالخرطوم فى عيد الأضحى عندما تدارست جماعة من وجهاء المسلمين قضية مدارس البنات بحضور المستر كرى مدير المعارف وطلبوا منه إنشاء مدرسة للبنات المسلمات فى الخرطوم ، فرد عليهم بقوله إنه يثق بالمدارس التبشيرية ، وخاصة التى يديرها المستر جوين القسيس الرسمى للبلاط الحكومى وعندما ردوا عليه بأن تلك المدارس تعلم بنات المسلمين الدين المسيحى وتحملهن

---

(١) (٢) المصدر السابق ص ٦٨

على حضور الصلاة المسيحية دون موافقة أهلهن رغم الضمانات التى قدمت لهم. أجاب كرى بأنه يشك فى ذلك، وطلب تقديم دليل على ماقيل، فأحضرت بنت صاحب المنزل فسألها كرى عن موضوع حضور الصلاة فأجابت بأنها وجميع زميلاتها يحضرن دروس التنصير، فطلب منها أن تتلو الصلاة فبدأت تقول: (أبانا الذى فى السموات . . إلى آخرها دون أن تخطئ فى حرف منها بينما كانت تجهل جهلاً تاماً بسم الله الرحمن الرحيم ولم تكن تعرف حرفاً واحداً من فاتحة الكتاب، واستطرد الكاتب قائلاً: إن العلاقات الطيبة التى كان يراها الحاكم العام قائمة بين المدارس التبشيرية والأهالى المسلمين قد بدأت تتوتر فى هذه الأيام، لأن مدارس التبشير قد بدأت بتغيير عقيدة البنات، ولذا فإنها قد انحرفت عن الضمانات التى أعطتها لذويهن، وترتب على ذلك أن عدداً من الأهالى فى الخرطوم ألزموا بناتهم البقاء بمنازلهن ومنعوهن الذهاب إلى هذه المدارس مفضلين جهلهن على كفرهن، ثم ختم الكاتب مقاله بقوله: (هذا غيض من فيض مما هو مستور، وإن الزمان لكفيل بكشفه)(١).

فوقعت هذه المقالة موقع الصاعقة على الحكومة وحلفائها المبشرين فجمع الحاكم العام كلا من (كرى) و(جوين) وبدأ ثلاثتهم يتدارسون المقال فوصلوا إلى أن هذه بداية ثورة وبدأت الاستخبارات البحث عن صاحب المقال، فوجه الحاكم الاتهام إلى القاضى الأكبر مستدلا على ما ذهب إليه بتصرفات القاضى المريبة التى دفعته إلى تقديم استقالته وسفره إلى القاهرة قبل نشر المقال بأيام.

أما جوين فأراد أن يصرف نظر الحكومة عن موضع الاتهام بقوله: (إن المقال جزء من من التحريض ضد النفوذ الإنجليزى الذى دخل السودان عن طريق مصر، وأن الكاتب لم يكن يهتم بقضية تعليم البنات بمقدار ما كان يرمى إلى إضعاف الهيبة الإنجليزية فى نفوس الأهالى)(٢)، ووجه بدوره تهمة المقال إلى موظف بالأشغال يدعى حسن أفندى، مستدلاً على ما ذهب إليه بأن المذكور كتب رسالة إلى صحيفة قاهرية يحرض فيها على فتح مدارس

(١) المؤيد، القاهرة، عدد ٥٠٤٣ بتاريخ ١٧/١٢/١٩٠٦، وانظر التعليم فى السودان ص٧٢/٧٣

(٢) رسالة جوين الى ونجت بتاريخ ١٧/١٢/١٩٠٦، وانظر التعليم فى السودان ص٧٢/٧٣

حكومية للمسلمين ،ورأى جوين أن الحكومة إذا استجابت لهذا التحريض فستكون النتيجة هي أن جميع الطالبات المسلمات فى المدرسة الإرسالية سيتمردين تحت ضغط الرأى العام الإسلامى المحلى على حضور التعاليم الدينية[1] واقترح أن يكون رد الحكومة على هذه الحملة أنه ليس لدينا أموال لتعليم البنات فى الوقت الحاضر وأننا نتساءل طالما أنكم غير راضين عن التعليم فى المدرسة التبشيرية فلماذا لا تفتحون مدرسة محمدية لبناتكم ،فإذا كان الأوربيون يستطيعون توفير المال ، والسيدات للتعليم فى الخرطوم ، فلاشك إذا كنتم تقدرون[2] تعليم بناتكم أنكم تستطيعون توفير ما يلزم من معلمين وأموال.[3]

ولكن مدير المعارف لم يكن موافقا على رأى القسيس (جوين) وهو يعلم تماما أنه إذا فتح المجال أمام المسلمين فسوف يهرعون لإقامة المدارس،وذكر أن أمامه طلباً مدعوماً بحجج قوية ،عليه توقيعات بعض المسئولين المصريين يطالبون بفتح مدرسة للبنات[4]،ومع هذا فقد مال الحاكم العام إلى رأى القسيس جوين لذلك شدد فى تقريره على أنه ليس من المستطاع فعل شئ بهذا الصدد فى الوقت الحاضر كما رأى أن فى رد جوين كثيراً من الصواب ،وطلب من كرومر أن يوافق إذا أمكن على كتابة شئ للصحف فى هذا الموضوع ، ونسبة لحساسية الموضوع فإنه لم يرد أن يقدم على عمل مستقل فى هذا الأمر بدون الرجوع إلى كرومر . فسلقت الصحف الحكومية ،كاتب المقال وموضوعه بألسنة حداد ،وبينما كانت الحملة الصحفية مستمرة كان كرومر يقوم بتقصى الحقائق حيث طلب أن ترفع إليه تقارير فى الموضوع[5] فكلف الحاكم العام جوين بصفته المسئول الأول عن سبب هذه الحملة بإعداد تقرير وأن يكون حذراً فى كتابته ،كما طلب من مدير الشئون الأهلية بصفته مسئولاً عن تفتيش مدارس الإرساليات أن يعد هو الآخر تقريراً مفصلاً فجاء فى تقريره حسب زيارته للمدارس وتلقى المعلومات من مديريها ما يلى :

المدرسة الكنسية	تاريخ زيارة المفتش	مجموع تلاميذ المدرسة	عدد المسلمين	عدد الذين يقاطعون الدروس الدينية
الصبيان الامريكية	١٩٠٧/١/١٥	١٩	١٢	١
الصبيان النمساوية	١٩٠٧/١/١٦	٤٢	٢	٢
البنات النمساوية	١٩٠٧/١/١٦	٦٥	١١	١١
التبشير الكنسية	١٩٠٧/١/١٧	٦٦	٦١	٢

(١) انظر تطور التعليم فى السودان ص ١٠٠
(٢) يعنى تنظرون الى هذا الامر نظرة تقدير
(٣) رسالة جوين الى ونجت بتاريخ ١٩٠٦/١٢/٢٩ وانظر التعليم فى السودان ص٧٤
(٤) انظر تطور التعليم فى السودان سنة ٩٩/١٠٠ ،والتعليم فى السودان ص ٧٤
(٥) انظر التعليم فى السودان ص ٧٥ .

وعندما قارن كرومر بين التقريرين وخاصة الجدول الذى قدمه مدير الشئون الأهلية فوجئ بهذه الأرقام فأرسل برقية إلى (ونجت) يشير فيها إلى أنه تبين من تقرير مدير الشئون الأهلية أن جميع الأولاد فى المدارس النمساوية، وعددهم ثلاثة عشر تلميذا وتلميذة لا يتلقون الدروس الدينية، بينما يتلقى جميع الأولاد المسلمين فى المدارس الأمريكية وجمعية التبشير الكنسية وعددهم أربعة وسبعون تلميذا وتلميذة الدروس الدينية باستثناء ثلاثة منهم مما يدل على مفارقات رهيبة فأرجو تفسير سبب هذه المفارقات وكان رد الحاكم العام على تساؤل (كرومر) بتقريرين أعد أحدهما مدير الشئون الأهلية، وأعد الآخر رئيس الكنيسة الأسقفية ومجمل ما فى تقرير مدير الشئون الأهلية :

(أن النمساويين لم يهتموا بتعليم أبناء المسلمين وأن مدارس الإرساليتين الأسقفية والأمريكية بمثابة مدارس خاصة لأبناء المسلمين لأنه لا يوجد بها أى تلميذ أوربى، وهذا هو السبب فى رأى مدير الشئون الأهلية

أما جوين رئيس الأسقفية فقد كان يعتقد أن مدارس الروم الكاثوليك قد فتحت من أجل أبناء الأوربيين الكثيرى العدد خاصة أبناء الإيطاليين، ثم من أجل بقية الكاثوليك السوريين الموجودين بالخرطوم، وأن الأوربيين كانوا يحذرون من أن يتعلم أولادهم مع أبناء المسلمين فى مدرسة واحدة، ولقد عرف هذه الحقيقة عندما فتح مدرسة جمعية التبشير للبنات بالخرطوم فقد كان أكثر طالباتها من الأوربيات والأقباط، ولكن ما إن فتح الروم الكاثوليك مدرستهم حتى التحق جميع التلميذات الأوربيات والقبطيات وتركن مدرسة الإرسالية التبشيرية لأن أولياءهن لا يرغبون فى تعليمهن مع أبناء المسلمين.

ثم أردف قائلا : إن مدرسة الجمعية الكنسية مدرسة مفتوحة لأبناء السودان وليس فيها مكان مخصص للأوربيين، فإذا أرادوا دخولها فعليهم الجلوس بجانب السودانيين.(1)

ومن مراجعة التقريرين ندرك أنهما لم يخلوا من الخبث حيث عزا رئيس الشئون الأهلية سبب تدريس المسيحية بمدارس الأسقفية والإنجيلية إلى خلوهما من التلاميذ الأوربيين لأنهما وضعتا للمسلمين - وهذا هو العذر الأقبح من الذنب لأن التقرير نفسه إدانة لأن الدين المقصود هنا هو دين النصرانية وليس دين الإسلام.

---

(1) تقرير جوين عمل الارسالية الانجليزية رقم ٣٠١-٢٠٧ أ ج . وانظر كذلك رسالة جوين للحاكم العام بتاريخ ٢/٢/١٩٠٧ ، وانظر التعليم فى السودان ص ٧٧ .

أما رئيس الأسقفية فقد جاء تقريره ملفقا ،فكون مدرسته فتحت لأبناء السودان هذه حقيقة ،ولكن للتنصير ،وليس للتعليم ،فإن كان الغرض منها تعليم أبناء المسلمين ،فهي أولى المدارس بتدريس الإسلام لأبناء المسلمين .

ولذا نجد كرومر نفسه لم يقتنع بالتقريرين ،لأنه أدرك أن الوضع في السودان يزداد خطرا وأنه لابد من معالجته ،وأن نظرته لمبدأ التفتيش كانت خاطئة فلا بد من تعديلها لتلائم نظرة الحكومة ،كما لابد من اتخاذ خطوة لمواجهة مطالب الأهالي المسلمين ، ولهذا وجه (ونجت) لتنفيذ التفتيش الإلزامي بناء على الأسس التي اقترحها هو وزملاؤه بالاتفاق مع مديري مدارس الإرساليات وأن يكون حذرا في تنفيذه من غير أن يشعرهم بغرضيته لأن هناك معارضة واسعة له ،كما أنه يعتقد من زاوية سياسية ، أن إنشاء مدرسة حكومية للبنات بالخرطوم أمر ضروري ،ويجب أن يكون له الأولوية على فتح مدرسة ثانوية للبنين لأنه سيكمم أفواه المسلمين.[1]

ولم يشك الحاكم العام أن الإرساليات عامة ستوافق على التفتيش ،غير أنه تخوف من فتح مدرسة حكومية للبنات في الخرطوم وأرجأ أمرها إلى أن تتاح له الظروف بمقابلة كرومر بالقاهرة بحضور مدير معارفه للتباحث في موضوعها ،وظن أنه يمكن تطبيق التفتيش بحذر مع إقناع الإرساليات أن الغرض منه النصح لا النقد ،وأنه سيتولاه إنجليزي ولن يسمح لأي من أبناء البلاد ، وأن الهدف منه هو إسكات المسلمين الذين يطالبون بإغلاق جميع مدارس الإرساليات.[2]

ورغم أن (ونجت) لم يفاتح (جوين) برغبة كرومر في فتح مدرسة حكومية للبنات بالخرطوم إلا أن الخبر وصله عن طريق (ماكينز) من جميعة التبشير بالقاهرة ،حيث سارع ماكينز بالكتابة إلى جوين ،فكتب جوين بدوره إلى ونجت بأنه أصيب بخيبة أمل وانزعاج استمر يومين بعد أن أبلغه ماكينز أن الحكومة عازمة على فتح مدرسة للبنات بالخرطوم ،واعتبر ذلك خرقاً للتعهدات الحكومية السابقة بعدم التعرض لتعليم البنات في الخرطوم خاصة ،وأن مدارس الإرساليات قد رضخت للتفتيش الحكومي في أي وقت ،كما رأى أن يترك تعليم البنات للقطاع الخاص بدون مساعدة الحكومة ،وأن هذا سيكون امتحانا للإسلام ليحاول القيام بما قامت به المسيحية . (٣)

---

(١) برقية كرومر الى سردار الخرطوم ٢ / ٢ / ١٩٠٧ رقم ١٠٣ / ٧ / ٢ / أ.ج.د ،وانظر التعليم في السودان ص٨٤
(٢) انظر التعليم في السودان ص٨٤
(٣) رسالة جوين الى ونجت ١٣ / ٣ / ١٩٠٧ رقم ١٠٣ / ٧ / ١ / أ.ج.د ،وانظر التعليم في السودان ص ٨٤

ولم يخف جوين مخاوفه من أن فتح مدرسة حكومية بالخرطوم يعنى اختفاء مدرسته من الوجود ، وأشار إلى أن أحد أولياء البنات أخبره بأنه إذا فتحت الحكومة مدرسة إسلامية فلن يرسل بناته إليها ولكن الرأى العام الإسلامى لن يسمح له بابقاء بناته فى مدرسة مسيحية[١].

فأثر خطاب جوين على ونجت وخوّف كرومر من غضب الإرسالية الأم فى بريطانيا[٢]، واقترح عليه تأجيل فتح المدرسة لبعض الوقت، وظل أمرها معلقا فلم تقم بكل من الخرطوم وأمدرمان وهما أكبر مدن السودان مدرسة حكومية للبنات حتى سنة ١٩٢١ عندما فتحت الحكومة مدرسة أولية بأمدرمان كجزء من كلية تدريب المعلمات[٣] للمدارس الأولية ،ثم فتحت أول مدرسة وسطى للبنات سنة ١٩٣٩ ،وفى سنة ١٩٤٩ أضيف صف ثانوى صغير إلى المدرسة الأولية وأوحى جوين للحكومة أن تفرض رسوما على التعليم الحكومى حتى لا يهجر المسلمون مدارس الإرساليات[٤] وظل جوين يرعى التعليم التبشيرى قريبا من نصف قرن حيث تقاعد سنة ١٩٤٦ ومنحته حكومة السودان جائزة مالية ،وتسلم رسالة شكر من وزير خارجية بريطانيا فرد عليه شاكرا قائلا:"إنه لمن الغريب أن أترك السودان بعد خدمة دامت ٤٧ عاما ،ومع أنى فى الثالثة والثمانين فقد تمرست على هذا المناخ ،وأشكر الله أنى ما زلت أمارس العمل ، ولذلك فإنى بكل سرور أضع كل خبرة اكتسبتها بعد هذه السنوات الطوال فى مصر والسودان تحت تصرف وزارة الخارجية[٥] .

ولم تقف جهود الإرساليات عند حد التبشير بالنصرانية فى الحدود التى اصطلحت عليها مع الحكومة بل فرضت الإرسالية الأمريكية فى سنة ١٩٢٥ على الطلبة والطالبات المسلمين حضور دروس الديانة المسيحية[٦]، فترامى الخبر إلى أسماع أولياء الأمور فمنعوا أبناءهم من حضور تلك الدروس، وقدموا الشكاوى احتجاجا على تصرف الإرسالية الأمريكية[٧]، وبدأوا فى البحث عن البديل الذى تمثل فى قيام التعليم الأهلى كما سيأتى قريبا إن شاء الله

---

(١) المصدر السابق والصفحة.

(٢) انظر التعليم فى السودان ص ١٠٠

(٣) المصدر نفسه والصفحة

(٤) نفس المصدر ص ١٠٢

(٥) رسالة جوين الى بيفن بتاريخ ١٩٤٧/١/١ رقم ٤١٩ أ ج د .

(٦) حكومة السودان ،تقارير المديرية الخرطوم ١٩٢٥ ص ٢٩٤

(٧) تطور التعليم ص١٧٢

المدارس الكنسية قبل الاستقلال :

أ / مدارس الروم الكاثوليك :

كان للروم الكاثوليك السبق فى هذا المضمار حيث أنشأوا مدرستين فى وقت مبكر لتعليم البنات إحداهما مدرسة الراهبات بالخرطوم (سانت آن) ، والأخرى مدرسة الراهبات بأمدرمان (سانت جوزيف)، وكلا المدرستين أسستا قبل الغزو الإنجليزى وهجرتا ثم أعيد فتحهما بعد الغزو مباشرة أى سنة ١٩٠٠ [(١)] .

ثم أنشأوا مدرسة ثالثة ببورتسودان سنة ١٩٠٦ [(٢)] ثم تتابع نشاط الإرساليات التعليمى بين البنين بواسطة الإرسالية الأمريكية، وبين البنات بواسطة الإرسالية الأسقفية .

السنة	عدد مدارس الروم الكاثوليك	عدد البنين والبنات من السودانيين
١٩٣٦	٥	٦٥
١٩٣٧	٥	٧٧
١٩٣٨	٥	١٣٤ [(٣)]

ب/ مدارس الانجيلية قبل الاستقلال :

أنشأت الإرسالية الأمريكية مدرسة الصبيان بأمدرمان [(٤)] ومدرسة بالخرطوم وكلاهما سنة ١٩٠٥ [(٥)]

السنة	عدد مدارس الإرسالية الامريكية	عدد البنين والبنات من السودانيين
١٩٣٦	٣	٣٠٤
١٩٣٧	٣	٣٦٤ [(٦)]
١٩٣٨	٣	٤٠٠

ج/ مدارس الأسقفية الانجليزية :

أسست الأسقفية الانجليزية أولى مدارسها للبنات سنة ١٩٠٣ بالخرطوم وكان المستر جوين (مديرة) [(٧)] كما كان يحلو له أن يلقب نفسه بذلك ثم تطورت إلى مدرسة وسطى وثانوية

---

(١) انظر تاريخ المسيحية ص ٢٤٣/٢٤٦
(٢) انظر تطور التعليم فى السودان ص ١٠٧
(٣) انظر المصدر نفسه ص ٢٨٠
(٤) انظر التعليم فى السودان ص ٦٦
(٥) انظر تطور التعليم فى السودان ص ١٠٧/١٠٨
(٦) المصادر السابقة
(٧) The Christian approach to Islam in the Sudan P.15

وتعتبر الرائدة في حقل تعليم البنات[1] وأخيرا نقلت ملكية هذه المدرسة إلى الحكومة سنة ١٩٢٥ وأصبحت مدرسة الاتحاد العليا[2] ، وأنشئت مدارس بعطبرة سنة ١٩٠٨[3] ، ومدني سنة ١٩١٢ ، وكانت مدرستا أمدرمان ومدني مقصورتين على تعليم البنات ، أما مدرسة عطبرة فتضم البنين والبنات ، وفي سنة ١٩٠٩ شيدت مدرسة للبنات بالخرطوم ، وأخرى بحلفا للبنات سنة ١٩١٠ إلا أنها أغلقت سريعا لإحجام الحلفاويين عنها ثم أنشئت مدرسة للبنين بعطبرة سنة ١٩١٢ ، وكانت هذه المدارس مستقلة تماما في مناهجها وعنيت بالتدبير المنزلي للبنات وتعليم الحرف للبنين مع العناية بالصحة العامة وتدريس اللغة الإنجليزية في مراحلها الأولية فهرع اليها أبناء الطبقة الوسطى في المدن ، ولذلك كانت الأسقفية أكثر الإرساليات مدارس وطلبة .

مدارس الاسقفية :

السنة	عدد مدارس الاسقفية	عدد التلاميذ من الجنسين
١٩٣٦	١٣	٤٢٤
١٩٣٧	١٣	٦٠٣
١٩٣٨	١٣	٦٣٤ [4]

وكان لكل إرسالية مقررات وطرق تختلف عن الأخرى ولكنها جميعا تهدف إلى تعليم يقوم على أساس نصراني[5] .

والأعداد الموضحة من أبناء المسلمين هم الذين وافق أهلوهم على تلقي دروس الدين المسيحي وخاصة بالنسبة للإرسالية الأمريكية التي جعلت ذلك شرطا لقبول الطلبة المسلمين[6] وظلت هذه الإرساليات تعمل على إفساد عقائد المسلمين دون رقيب أو حسيب وترك لها الحبل على الغارب لتنمو نموا واسعاً في ظل ما يسمى بالحكم الوطني أكثر من نموها في عهد الحكم الاستعماري الذي كان يخشى من ثورة المسلمين .

---

(١) تطور التعليم ص ١٠٨

(٢) The Christian approach to Islam in the Sudan P.15

(٣) انظر الغارة على العالم الاسلامي ص ٢٢٢

(٤) انظر تطور التعليم ص ٢٨٠

(٥) انظر المصدر السابق ص ١٠٨

(٦) تطور التعليم ص ٢٨١

المؤسسات التعليمية الكنسية فى الشمال بعد الاستقلال :

أولا : الروم الكاثوليك

زعم القسس الكاثوليك أن الهدف الأساسى من إنشاء مدارسهم هو ضمان توفير التعليم المسيحى لابناء الأسر المسيحية الذين كانوا فى بادئ الأمر من غير السودانيين استجابة لتوجيه الحاكم العام للسودان الذى وجههم بعدم قبول أى تلميذ سودانى مسلم بمدارسهم مع بعض الاستثناء ،ورغم استجابتهم لهذا التوجيه فى البداية ،إلا أنهم فى سنة ١٩١١ كانت نسبة البنات المسلمات بمدارسهم ١٢ ٪ وكانت برامج التعليم للمدارس التبشيرية عامة يضعها مديرو هذه المؤسسات دون تدخل الحكومة ،فالأولاد يدربون لمناصب رجال الدين وللأعمال التجارية ، أما البنات فيتم تعليمهن الدين حسب عقيدة الكاثوليك ، وغير المسيحيين ليس مفروضا عليهم دراسة الدين المسيحى ،ولكن يجب أن يكونوا داخل الفصول تنفيذاً للنظام(١)

والكنيسة الكاثوليكية تعتبر المؤسس للتعليم التنصيرى بالسودان ،ولا نريد أن نكرر ما سبق ذكره فى شأنها ولكن لربط الموضوع نذكر أن هذه الكنيسة بمبادرة من جمعية آباء فيرونا فتحت فى سنة ١٩٢٩ مدرسة بالخرطوم فى شارع (فكتوريا)سابقا (القصر)حاليا) أطلقت عليها اسم كلية كمبونى تخليداً لذكرى مؤسس التعليم الكاثوليكى بالسودان ،بدأت باثنين وخمسين تلميذا فى فصلين بالمرحلة الوسطى Intermediate ثم تطورت إلى مدرسة ثانوية وكانت هيئة تدريسها من المبشرين الكنديين Candian Brothers من القلب المقدس Sacred Heart وانسحب المبشرون الكنديون منها سنة ١٩٣٥(٢) وحل محلهم آباء فيرونا بهذه المؤسسة التبشيرية ،ونسبة للمستوى الرفيع فى اللغة الإنجليزية الذى حققه الآباء الكنديون فقد تبوأ خريجوها مناصب رفيعة فى الدولة والشركات التجارية وفى سنة ١٩٤٦ التحق بعض خريجيها بجامعة الخرطوم والجامعات الأخرى خارج السودان ،فكان هؤلاء الخريجون دعامة التعليم العلمانى وحماة التعليم التبشيرى ودرعه الواقى وكانت اللغة الإنجليزية هى اللغة الرئيسية التى يتشدق بها هذا

---

(١) Fr. Giovanni Vantine, Durham Sudan Historcal Records Conference, the Roman Catholic contribution to evangelzation in the Sudan P. 9

(٢) Ibid P.10

الرعيل ،وفى سنة ١٩٥٥ كان عدد الطلاب بالقسم المتوسط ٣٨٥ طالبا وفى الثانوى العالى ٤٧٢ وأكثرهم من المسلمين وبلغ مجموع خريجى هذه المدرسة فى سنة١٩٥٥ ألفى طالب وجذب مستواها فى اللغة الإنجليزية المزيد من أبناء المسلمين ومنذ سنة١٩٥٤ أطلق على جميع مدارس الكاثوليك بالسودان مدارس كمبونى .(١)

وبلغ مجموع الطلاب بمدارس الكاثوليك سنة١٩٥٥ ثلاثة وأربعين وثمانمائة وستة آلاف طالب(٦٫٨٤٣) توزيعها كالاتى :

رياض أطفال		الابتدائى		المتوسط		العالى	
بنين	بنات	بنين	بنات	بنين	بنات	بنين	بنات
٦١٢	٤٥٤	١٣٠٦	١٢١٠	١٥٨٥	٨٣٩	٥٥٤	١٦٣

(٢)

ولقد زادت هذه المدارس بعد الاستقلال زيادة كبيرة وتضاعفت أعداد التلاميذ بها فى جميع مدن السودان الكبرى ولنأخذ العاصمة المثلثة كمثال لبيان نشاطها حيث يقدم الكاثوليك وحدهم التعليم التنصيرى لما يربو على عشرة آلاف من أبناء المسلمين .

أ / مدارس الكاثوليك بالخرطوم:

١- **كلية كمبونى :** بها أربع مراحل من مرحلة(صفر) -الروضة- فالابتدائى ،فالمتوسط، فالعالى . ويفصل بين الثانوى وبقية المراحل شارع ضيق وتضم اثنين وستين ومائة وألف طالب وطالبة،(٣) وهى مؤثثة بأحدث الأثاث وتوجد بها مطبعة ضخمة فى جزئها الشرقى تقوم بطباعة الكتب والامتحانات ،وتعمل يوميا بعد الساعة الرابعة مساء وتقوم بطبع الرسائل والكتب الصغيرة كما تقوم بطبع صحيفة السلام ،وهى صحيفةمسيحية متخصصة لنشر المسيحية وأخبار الطائفة الكاثوليكية محليا وإقليميا وعالميا مع مواضيع دينية أخرى ،كما تهتم هذه المؤسسة بالنشاط الرياضى وتجبر طلابها عليه وترصد له مائة درجة فى شهاداتها ، ويدير المرحلة الثانوية قسيس ايطالى متعصب يكره المسلمين ،ونائبه من المكسيك بالإضافة إلى سبعة قسس كاثوليك وواحد من البروتستانت فى هيئة التدريس،ويتم تعيين جميع المدرسين بواسطة إدارة المدرسة عدا مدرس التربية الإسلامية الذى تعينه الوزارة ،وسبة لأن المدارس التبشيرية عامة لا تشجع تعليم اللغة العربية والتربية الإسلامية فغى الغالب لا يستمر أستاذ التربية الإسلامية إذا كان ذا شخصية قوية مؤثرة ،للمضايقات الإدارية . أما أستاذ اللغة العربية

---

(١) Ibid P. 10

(٢) Ibid P. 10

(٣) التبشير فى العاصمة المثلثة ص٩

فغالبا ما يعين من الاقباط المصريين ،ويتحاشى تدريس أى نص إسلامى[1] .

ويتحول القسم المتوسط إلى مدرسة ليلية يؤمها عدد كبير من أبناء جنوب وغرب السودان

٢- مدرسة الراهبات : Villa Gilda

بها جميع المراحل من الروضة حتى الثانوى العالى كل صف به ثلاثة فصول يؤمها حوالى ١٢٠٠ طالبة من جنسيات مختلفة مسلمات ومسيحيات وبها حوالى عشرون معلمة ،ست منهن مسلمات و١٥ معلماً .

٣- مدرسة القديس سان فرنسيس بالخرطوم:

مختلطة بنين وبنات تتكون من روضة وابتدائى ،وبها اثنان وعشرون فصلا وتضم ١٦٠٩ تسعة وستمائة وألف تلميذ وتلميذة ويتكون بناؤها من طابقين فى مساحة قدرها خمسة عشر وتسعمائة متر مربع،وتتبع مدرسة الراهبات ،ويتكون مجلس إدارتها من خمس عشرة راهبة ، وبها ثمان وعشرون معلمة منهن ست مسلمات،وثلاثة معلمين مسلمين . وبها إذاعة تبث الأناشيد والموسيقى والأغانى وتحرص على التدريب الرياضى وأعمال الإبرة للبنات.

٤- مدرسة فيلا جلد[1]

تقع غرب السوق العربى أمام شارع الحرية بجانب مستشفى الراهبات،ومطبعة التمدن وتتكون من روضة وابتدائى ،وتضم حوالى ١٠٦٠ ستين وألف تلميذ وتلميذة يدفع التلميذ فى العام ١٠٠ر٨٨ مليم على ثلاث دفعات وكل معلماتها نساء منهن خمس مسلمات وبها كنيسة للصلاة .

٥- مدرسة سان جوزيف الفنية بالخرطوم:

بها ٣٤٤ طالب.

٦- مدرسة سان جوزيف للبنات بالخرطوم[1]

٧- مدرسة كمبونى الابتدائية بالسجانة:

مساحتها ٢٥٠٠ م٢ بها حوالى ٣٧٧ تلميذ وتلميذة تديرها راهبة أكثر طلابها من أبناء الجنوب ومن الغلاتة وأبناء المسلمين من مواطنى المنطقة.

٨- مدرسة كمبونى الصناعية بالسجانة:

تقع فى المنطقة الصناعية شمال مشتل بلدية الخرطوم بها ورش لتعليم النجارة والهندسة الميكانيكية والكهربائية وتحتل مساحة كبيرة.

---

(١) انظر صحيفة المدينة المنورة العدد رقم٥٩٨٩ بتاريخ ١١ من ذى القعدة سنة ١٤٠٣هـ ، مقال للاستاذ يوسف حمد النيل سليمان الذى سبق له العمل مدرسا بالمدرسة نفسها

٩- مدرسة كمبوني الصناعية بحي مايو:

تقع في منطقة سكنية مزدحمة بالسكان مساحتها حوالي ٥٥٤/١١م٠م لم يكتمل بناؤها ولكن الدراسة بها منتظمة ،وتوجد بها عيادة لتطبيب التلاميذ ،وهم أحداث صغار وصلوا في الدراسة إلى الصف الخامس الإبتدائي ،وبها فصول مسائية للكبار.

١٠- مدرسة الجريف غرب الكاثوليكية بالخرطوم:

يعتبر الجريف من أحياء العاصمة القديمة وأكثر سكانه من الفقراء ومتوسطي الحال ، والمدرسة عبارة عن روضة أطفال ،وفي المساء تقوم بتدريس المسيحية لأبناء الجنوب والغرب بلهجاتهم وتوجد بها دروس تقوية في اللغة الإنجليزية وذلك لجذب تلاميذ المدارس الأخرى

ب/ مدارس الكاثوليك بأمدرمان:

١- مدرسة كمبوني الإبتدائية للبنين:

تقع في حي المسالمة على خط مواصلات الثورة شارع الشنقيطي بجوار الكنيسة الكاثوليكية مساحتها حوالي ٥٠٠ ١م٠م ،يشرف عليها قسيسان يسكنان في منزل بالمدرسة ،تمدها بالتلاميذ مدرسة الراهبات ،حيث يلتحق بها التلاميذ في سن الخامسة ،وبعد مضي عامين دراسيين ينتقل البنين منهم إلى الصف الثاني الإبتدائي بكمبوني الإبتدائية ، والإقبال على هذه المدرسة كبير جدا ،حيث فتح باب الانتساب إليها ١٩٨٢/٨١ وحددت المقاعد بأربعمائة ،وفي ظرف ساعة ونصف ساعة فقط قدم سبعمائة طلب للالتحاق فاضطر المسئولون لقفل باب التقديم بعد مضي هذه المدة الوجيزة ،ومعظم تلاميذ هذه المدرسة من أبناء الطبقة الراقية ،ويدفع التلميذ مائة جنيه في السنة باستثناء الفقراء وأبناء الجنوب والغرب حيث تقدم لهم المدرسة مساعدات بجانب إعفائهم من الرسوم ،وكل المعلمين عدا معلم التربية الإسلامية تعينهم إدارة المدرسة حسب شروطها.(١)

٢- كمبوني المتوسطة للبنين بأمدرمان ،وهي عبارة عن نهر واحد وتضم ٣٢٥.(٢)

---

(١) معلومات ميدانية ،وانظر التبشير المسيحي في العاصمة ،ص٩

(٢) التبشير المسيحي في العاصمة ص٩

٣- كمبوني للبنات بأمدرمان :

تقع بجوار الكنيسة تتكون من روضة وابتدائي ومتوسطة، وثانوية عليا وتضم ١٤٠٠ طالبة[1] والروضة بهذه المدرسة مختلطة وبعد السنة الثانية من الدراسة يؤخذ البنين إلى كمبوني الابتدائية بنين، ويواصل البنات تعليمهن حتى الثانوي العالي. وتشكل أسرة هذه المدرسة جنسيات متعددة من سودانيين، وأقباط مصريين وارتريين وأحباش، وتشرف على كل قسم من أقسامها راهبة، كما تدير المدرسة راهبة إيطالية، وأكثر طالباتها من المسلمات.

٤- روضة كمبوني :

تقع في حي بانت بأمدرمان، يتوسطها ميدان فسيح وهي تقع في حي متوسط الحال وأغلب سكانه من المسلمين.

٥- مدرسة الحارة الأولى بأمهدة :

معظم الدارسين بها من أبناء الجنوب والغرب وقليل من الأقباط وبعض فقراء المسلمين ويزورها يوميا قسيس أجنبي وراهبة.

ج/ مدارس الكاثوليك بالخرطوم بحري

١- مدرسة كمبوني بالخرطوم بحري للأولاد :

وهي عبارة عن مدرسة ابتدائية بها ٥٧١ طالب[2]

٢- مدرسة حلة حمد الابتدائية :

حلة حمد من أحياء الخرطوم بحري العتيقة وأكثر سكان الحي من المسلمين متوسطي الحال، تقوم المدرسة في الصباح بتدريس المنهج السوداني، وفي المساء تقوم بالتبشير النصراني.

٣- مدرسة كوبر الكاثوليكية :

بدأت نشاطها في سنة ١٩٨١ في منزل تملكه الكنيسة مساحته ٥٠٠م٠م أكثر تلاميذها من أبناء الجنوب، والتدريس فيها بالإنجليزية، تؤدى فيها الطقوس الكنسية، ويزورها خمسة قسس بانتظام

---

(١) التبشير المسيحي في العاصمة، نسخة مكتوبة بالآلة الكاتبة ص١

(٢) نفس المصدر والصفحة.

٤- مدرسة حلفاية الملوك الكاثوليكية المختلطة:

حلفاية الملوك من أحياء العاصمة السكنية القديمة وأغلب سكانها من المسلمين. بدأت هذه المدرسة نشاطها بالحلفاية سنة ١٩٧٤ في مساحة قدرها ٨٠٠م٢ وتقع بالقرب من المسجد، وتضم مركزاً اجتماعياً ومصحة وروضة أطفال، ويقوم المركز الاجتماعي بتوزيع الملابس والغذاء بصفة دورية كما تقدم العلاج لسكان الحي راهبة، وهذه المدارس الكاثوليكية يتحول كثير منها إلى مدارس ليلية فكمبوني المتوسطة وحدها يؤمها حوالي ثلاثة آلاف طالب[1] وبالإضافة إلى هذه المدارس هناك مدارس كاثوليكية عشوائية في أحياء سكنية عشوائية* تركز فيها الكنيسة على تدريس المسيحية باللهجات القبلية، كما تقوم بتدريس اللغة الإنجليزية للراغبين في التمكن من هذه اللغة، ونذكر من هذه المدارس العشوائية على سبيل المثال :

- مدرسة الفتيحاب الكاثوليكية العشوائية تقتصر الدراسة فيها على تعليم المسيحية وبها فصول تقوية للغة الإنجليزية.
- مدرسة الخواجة بالثورة الحارة (١٨) بها ٧٥ طالبا (مختلطة)
- مدرسة المنشية بها حوالي (٥٠) متعلما
- مدرسة كنيسة العشش الكاثوليكية بالخرطوم بها (٢٠٠) تلميذ.
- مدرسة الدروشاب الكاثوليكية[2]

وما ذكر لا يعني أن هذه هي كل مدارس الكاثوليك وإنما هذا على وجه التقريب.

مدارس الإرسالية الإنجيلية بالعاصمة المثلثة:

فتحت الإنجيلية أول مدرسة أولية لها للبنات بالخرطوم بحري (١٩٠٧) ثم تم الاتفاق بينها وبين إرسالية الإنجليز الأسقفية على أن تتولى تعليم البنين، وتتولى الأسقفية تعليم البنات، وتدرجت مدرستها هذه من مدرسة ابتدائية حتى أصبحت في العشرينات ثانوية عليا، وتضم

---

(١) المصدر السابق ص ١٠.

* عشوائية: تعني المدارس التي تقوم في مناطق السكن العشوائي على أطراف العاصمة بدون تخطيط حكومي، فكل النازحين من مناطق السودان البعيدة، والنازحون من أقطار أفريقيا المختلفة يقيمون في أحياء عشوائية يصنعونها أولا من الكرتون والبروش ثم يبدؤون في تحسينها شيئا فشيئا حتى يعترف بها رسميا وهذه الأحياء مرتع خصب للعمل الكنسي حيث تستغل الكنيسة عوزهم وحاجتهم، كذلك هناك مدارس عشوائية كثيرة داخل المدن وهي المدارس التي تقوم بدون تصديق من السلطات في منازل تستأجرها الكنيسة في المدن لأبناء الجنوب والغرب.

(٢) انظر المصدر السابق ص ١٠.

مدارس الإرسالية وحدها بالعاصمة أكثر من ١٦٠٠ تلميذ وتلميذة أكثر من ١٣٠٠ منهم من أبناء المسلمين بينما المسيحيون أقل من ٣٠٠ وتوزيعهم كالاتى :[1]

أ/ **رياض الأطفال** بنين وبنات :

الانجيلية السودانية بالخرطوم بحرى	عدد الفصول	مجموع التلاميذ	السودانيون	الوافدون	المسلمون	المسيحيون
	٤	١٨٢	١٧٨	٤	١٥١	٣١

ب/ **المدارس الابتدائية :**

الانجيلية السودانية بحرى المختلطة	٤٠	٥٠٩	٤٨٧	٢٢	٤٢١	٨٨

ج/ **الانجيلية السودانية بامدرمان :**

الانجيلية السودانية بامدرمان	٤	٦٧	٤٢	٢٥	٣٩	٢٨

د/ **المدارس الانجيلية المتوسطة :**

الانجيلية السودانية بامدرمان	٥	٢٩٨	٢٩١	٧	٢٦٤	٣٤
الانجيلية السودانية بيت الامانة	٣	٩٥	٩٠	٥	٦٧	٢٨

هـ/ **المدارس الانجيلية الثانوية :**

الانجيلية التجارية بامدرمان	٣	١٥٢	١٥٢	-	١٣٤	١٨
الانجيلية بحرى بنات	٣	٤٥	٤٥	-	١٨	٢٧

مدارس الكنيسة الاسقفية بالعاصمة :

افتتحت الارسالية الاسقفية أولى مدارسها بالخرطوم سنة ١٩٠٤ واستمرت تواصل تعليم البنات بين المسلمين ، بينما تشترك فى حقل التعليم عامة مع بقية الإرساليات الأخرى ومدارسها هى :

---

(١) انظر المصدر السابق ص ١٠

اسم المدرسة	عدد الفصول	مجموع التلاميذ	سودانيون	وافدون	مسلمون	مسيحيون
روضة الكنيسة الاسقفية بامدرمان	١	١١٦	١١٦	-	١٠٨	٨
ب/ الابتدائية بنين وبنات:						
الاتحاد للبنين	١	١٩٠	١٩٠	-	١٤٥	٤٥
الاسقفية بنات بامدرمان	٦	٢٣٣	٢٢٧	٦	١٩٠	٤٣
جـ/ المدارس المتوسطة:						
الاتحاد بنين الخرطوم	٣	٩٢	٨١	١١	٦٠	٣٢
الاسقفية بنات امدرمان	٣	٩٦	٨٧	٩	٧٨	١٨
المجموع	٦	١٨٨	١٦٨	٢٠	١٣٨	٥٠
د/ المدارس الثانوية الاسقفية بنين وبنات:						
الاتحاد العليا بنين الخرطوم	٣	٤٥	٤٥	-	٢٦	١٩
الاسقفية الثانوية بنات بامدرمان	٣	٩٣	٩٠	٣	٧٣	٢٠
المجموع	٦	١٣٨	١٣٥	٣	٩٩	٣٩

وعلى هذا الاحصاء يكون مجموع التلاميذ بمدارس الاسقفية ٨٥٧ تلميذ عدد المسلمين منهم ٦٨٠ تلميذ ونسبتهم ٧٩٪ بالنسبة للمسيحيين الذين يشكلون نسبة ٢١٪ تقريبا وبجانب هذه المدارس النظامية توجد مدارس عشوائية لهذه الكنيسة وان كانت أقل من مدارس الكاثوليك العشوائية.

مدارس الاقباط الارثوذكس :

تتركز مدارس الأقباط في حي المسالمة بأمدرمان شرق شارع الشنقيطي حيث توجد كنيستا الأقباط الكبريان إحداهما قديمة أطلق عليها اسم (مارى جرجس) والأخرى حديثة سميت (مارمينا)

(١) هذه الاحصائيات مأخوذة من الاحصائيات الرسمية ٧٩/٨٠. وانظر التبشير المسيحي بالعاصمة ص ١٠/١١

كما توجد في نفس المنطقة رابطة الشباب القبطى بجوار مقبرة الأقباط، والرابطة هذه بناؤها فخم كما أن مدارس الأقباط بصفة عامة تستخدم المنهج المصرى ويلاحظ أن أكثر طلابها من المسيحيين باستثناء رياض الأطفال التابعة للإقباط بالخرطوم بحرى فغالبية الأطفال بها مسلمون ، وكذلك التوفيق الابتدائية المختلطة بالخرطوم بحرى .

أ/ رياض الأطفال :

اسم المدرسة	عدد التلاميذ	السودانيون	وافدون	مسلمون	مسيحيون
روضة الاقباط ببحرى	١٨٢	١٧٨	٤	١٥١	٣١
التوفيقية بام درمان	٢٤٤	١٩٦	٤٨	٤٥	١٩٩
المجموع	٤٢٦	٣٧٤	٥٢	١٩٦	١٣٠

ب/ المدارس الابتدائية التابعة للاقباط الارثوذكس:

	عدد الفصول	عدد التلاميذ	سودانيون	وافدون	مسلمون	مسيحيون
الاقباط المختلطة بالخرطوم بحرى	٩	٢٢١	٢١٧	٤	١٤٥	٧٦
التوفيقية المختلطة امدرمان	٨	٣٥٧	٢٧٧	٨٠	٣٤	٣٢٣
المجموع	١٧	٥٧٨	٤٩٤	٨٤	١٨٩	٣٩٩

ثم أخيرًا مدرسة التوفيقية المتوسطة بها ٣٥٧ وأكثرهم من المسيحيين .

وبجانب هذه المدارس الكنسية التابعة للإرساليات الكبرى بالسودان توجد مدارس الجاليات ومن أهمها مدارس البعثة المصرية تبتدئ من رياض الأطفال ، وقمتها جامعة القاهرة فرع الخرطوم وهى وإن كانت لا تمارس التبشير علنا إلّا أنها تضم بهيئة تدريسها عددًا كبيرًا من الأقباط.

ثم مدارس الجالية الأرمنية واليونانية وهى مدارس خاصة لأبناء الجالية ولا يؤمها المسلمون .

ولقد استغلت هذه المؤسسات التعليمية الكنسية التعليم لغرس مبادئ النصرانية في عقول ناشئة المسلمين . فالمنهج والطريقة والاستاذ والوسيلة كلها تتضافر لتركيز الثقافة النصرانية في أذهان الصغار ، وتنفيرهم من الإسلام ، ابتداء من رياض الأطفال ، ومدارس تعليم الكبار حتى المدارس العليا فكل هذه المدارس مزينة بالوسائل البصرية والسمعية النصرانية من صور الصلبان والفرسان والقديسين ، وأداء الصلوات والترانيم ، وسماع الألقاب النصرانية كلفظ (أبونا) وليس

عجيبا أن تجرى هذه اللفظة على لسان طفل مسلم وإنما العجيب ان تسمعها من رجل مسلم كبير وخاصة إذا كان موجها للتربية الاسلامية.(١)

وتقدم الحلوى للأطفال باسم المسيح ويحرم البعض بحجة أن محمداً اغتصب نصيبه لغرس الكراهية فى نفوس الأطفال تجاه الإسلام، كل هذه الوسائل والمبادئ الهدامة تفسد عقول ناشئة المسلمين، لأن التعليم كما هو معروف من أقوى المؤثرات الاجتماعية التى تستخدم فى نقل المبادئ.

كذلك ظلت هذه المؤسسات من عام ١٩٤٧ حتى الآن تفرض خريجيها على جامعة الخرطوم بما يسمى (شهادة جامعة لندن) وهى شهادة دون مستوى الشهادة السودانية زيادة على أن اللغة العربية ليست شرطا فيها كما فى السودانية مما جعل الإقبال عليها زائداً وخاصة من أبناء العلية الذين وفروا لها الحماية قرابة أربعين عاماً.

وتتمركز هذه المدارس الكنسية فى أحسن المواقع فى العاصمة المثلثة تلك المواقع التى منحها إياها الحكم الاستعمارى، وما زالت هذه المؤسسات التنصيرية تصبغ وجه العاصمة المثلثة بالصبغة النصرانية حيث تحتل مداخل العاصمة الرئيسية حتى يظن الذى تطأ قدماه مطار الخرطوم لأول مرة أنه قادم إلى بلد نصرانى حيث يواجهه النادى الكاثوليكى عند خروجه من أرض المطار ثم الكنيسة الاثيوبية بعده، وعندما فكرت الحكومة فى إنشاء مطار عالمى جديد بمدينة الخرطوم بحرى، سارعت الكنيسة الكاثوليكية فحصلت على قطعة أرض مساحتها مائة ألف متر بجوار المطار الجديد بالخرطوم بحرى، لتقدم ذات الانطباع لداخل المدينة،(٢) فالمبانى الكنسية الضخمة تفوق مساجد العاصمة كثرة ومتانة ومواقع وجمالاً على الرغم من أن المسيحيين فى كل القطر لا يتجاوزون ٥٪

---

(١) رواية عن أحد الاساتذة من معلمى التربية الاسلامية بعد أن قررتها الوزارة وتكفلت بمعلميها بهذه المدارس التى تدار بواسطة القسس فجرت لفظة (أبونا) على لسان موجه فاستنكر الاستاذ ذلك.

(٢) انظر التبشير فى العاصمة المثلثة، ص ١٦

المبحث الخامس

التعليم الأهلي الاسلامي

كان التعليم الأهلي في السودان يقوم على نظام الخلاوى - الذى أشرنا إليه - والتى اعتبرها الغزاة مهداً للتعصب الإسلامي فحاربوها بشتى الوسائل التى كان من أشدها عدم إسناد أى وظيفة حكومية لخريجيها، وبالتالى جذب نظام التعليم الحديث كثيراً من الطلاب رغبة فى الوظيفة، وهجرت الخلاوى، وبدأ المسلمون يشعرون بالخطر المحدق على تعاليم الإسلام، واتجهت قلة من الطلاب إلى الأزهر وبدأت الأصوات ترتفع احتجاجاً على إهمال الحكومة لتعاليم الإسلام مع إتاحتها الفرص الواسعة لتعاليم النصرانية، فشعر (ونجت) حاكم عام السودان بخطورة الموقف، فكتب إلى كتشنر مندوب بريطانيا بالقاهرة بأن هناك: (شعوراً قوياً من رجال الدين الإسلامي فى السودان بأن الفقه الإسلامي قد أهمل جانبه وأن الطريق لعلاج ذلك هو جلب مدرسين مسلمين من الأزهر أو إرسال صغار العلماء للأزهر بالقاهرة حيث يمكنهم الاطلاع على نظم التعليم والعودة للسودان كمدرسين مؤهلين بعد إتمام دراستهم)[1].

وكان (ونجت) موقناً أن كل واحد من الاقتراحين له خطورته ومساوئه ومع ذلك فإنه كان يفضل ذهاب صغار العلماء للقاهرة رغم تخوفه من تشربهم للأفكار المناوئة للحكومة، ولقد دفعه تخوفه هذا وهو كاره إلى انتهاج حل وسط وهو تطوير التعليم الإسلامي، فلجأ إلى إحياء الخلاوى بإعطائها إعانات مالية ضعيفة، مع إخضاعها للمراقبة والتفتيش لتكون الحصن الحصين البعيد عن الغليان السياسى المنتشر فى صفوف المثقفين السودانيين[2] بالإضافة إلى أنها ستكون نواة للمعهد العلمى الذى كان قد أنشأه شيخ الإسلام محمد البدوى سنة ١٩٠١م حفاظاً على عقيدة المسلمين فكون له الحاكم العام مجلساً يضم أحد عشر عضواً برئاسة شيخ الإسلام نفسه[3]، وكان هؤلاء العلماء فى بادئ الأمر يقومون بالتدريس فى بيوتهم أو فى فناء جامع أمدرمان الكبير، وبعد وفاة شيخ الإسلام[4]، عين الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم خلفاً له

---

(١) انظر تطور التعليم فى السودان ص١٢١

(٢) مجلة المعهد العلمى بأمدرمان ٢٥/١/١٩٦٣، ص ٣١/٣٢

(٣) حكومة السودان، مذكرة عن معهد امدرمان العلمى المصلحة القضائية بالخرطوم ١٦/٩/٤٦

(٤) صوابه محمد البدوى

فحث العلماء على التدريس بجامع أمدرمان بدلا عن التدريس فى بيوتهم ،وأصدر بموافقة الحاكم العام ، لوائح تعليم المعرفة الإسلامية فى معهد المشيخة العلمية بأمدرمان والخرطوم والمعاهد فى المديريات والمراكز(١)

واشتملت هذه اللوائح على شروط تكوين مجلس العلماء ومهامه وواجبات المدرسين والطلاب والمقررات الدراسية والمؤهلات العلمية ، والنظام بالمعهد ،كما قسمت مراحل الدراسة فيه إلى ثلاث مراحل يقضى الطالب بكل مرحلة أربع سنوات ،وكل مرحلة تؤهل الطالب بشهادة يرتفع بها إلى التى تليها ،وهذه الشهادات هى :

١- الشهادة الابتدائية : تعادل الشهادة الوسطى المدرسية .
٢- الشهادة الأهلية : تعادل الشهادة الثانوية المدرسية .
٣- الشهادة العالمية : تعادل الشهادة الجامعية .

وعلى الرغم من أن هذا المعهد تطور بإذن وتشجيع الحاكم العام وظل يرعى علوم الإسلام تحت إدارة حكومية تتبع لمصلحة القضاء برئاسة قاض شرعي وكانت مرتبات مشائخه تدفع من الخزينة العامة إلا أن هذا ربط هؤلاء العلماء بنظام الحكم ، واعتمادهم على ما يتلقونه من المرتبات أفقدهم الحرية التى كانوا يتمتعون بها وأضر بمكانتهم الاجتماعية(٢) وظل خريجوه محاربين من قبل الإدارة البريطانية التى سدت أمامهم سبيل العيش عن طريق التوظيف الحكومى حتى فى مجال اختصاصهم فلم تعين منهم إلا القليل ،وفى وظائف دنيا ككتبة المحاكم الشرعية .

- أما القضاة الشرعيون فكانوا من مدرسة القضاء بكلية غردون - كما أسند إليهم الوعظ فى المساجد والتدريس بالخلاوى المعانة ،ورغم أن المعهد ظل صورة مصغرة للأزهر بمصر إلا أن الثقافة التى حافظ عليها ظلت الثقافة الغربية فى وطنها حتى بعد خروج الإنجليز - لسيادة المنهج العلمانى الغربى - وظل كثير من الناس يهددون أبناءهم بأنهم إذا لم يثابروا وينجحوا فسيكون مصيرهم المعهد وتعاقبت الحكومات الوطنية اسماً ، السائرة على نهج الإنجليز فعلاً ،لأن الإنجليز أفلحوا فى أن يكون خلفاؤهم من أهل البلد ينفذون سياستهم ويطبقون قوانينهم ،وجأر خريجو هذه المعاهد الإسلامية بالشكوى طلبا للاعتراف

---

(١) حكومة السودان مذكرة عن معهد امدرمان العلمى المصلحة القضائية الخرطوم ١٦ / ٩ / ٤٦
(٢) د . يوسف فضل حسن ، من معالم تاريخ السودان ، ص ٨٢ ،ط دار الفكر .

بشهاداتهم كزملائهم خريجي الأزهر بمصر، ولكن دون جدوى، ولم يحدث الاعتراف إلا مؤخرا وبعد أن أجريت التعديلات لتقترب هذه المؤسسات الإسلامية من الخط العلماني الذى رسمه الحكام الإنجليز وأعوانهم المبشرون للتعليم فى السودان، ومن الحق الذى لا ينكر أن هذه المعاهد حافظت على ثقافة الإسلام وقامت بدور تحمد عليه، وثار الكثير من مشايخها وطلابها وجاهدوا فلم تلن لهم قناة حتى كلل جهادهم بقيام جامعة أم درمان الإسلامية سنة ١٩٦٥ التى كانت تتويجا لكفاح هؤلاء المشايخ ولكن الأنظمة العلمانية التى كانوا يواجهونها كانت أعنف وأشد حقداً على الإسلام وأهله فبعد أربع سنوات من قيام هذه الجامعة التى أقضت مضاجع الصليبية العالمية تحرك أعوانها فى الداخل والخارج، فتمخض هذا الحقد بالانقلاب الذى قام سنة ١٩٦٩ بمساندة الشيوعيين، وكان أول أهداف هذا الانقلاب ضرب الإسلام بضرب مؤسساته التى كانت على قمتها الجامعة الإسلامية.

التعليم الأهلى على المنهج العلمانى :

بجانب المعهد العلمى، قام التعليم الأهلى وفى مقدمته مدرسة أم درمان الأهلية التى كان سبب إنشائها فى سنة ١٩٢٧ مطالبة الإرسالية الأمريكية بأم درمان سنة ١٩٢٥ للطلاب المسلمين بحضور دروس النصرانية (١) بل إصرارها على تعليم الديانة النصرانية ومطالبتها أولياء أمور التلاميذ بكتابة إقرار بالموافقة على تعليمهم المسيحية أو سحبهم من مدارسها ومحو أسمائهم (٢)، فتحمس الناس لإنشاء مدرسة أهلية وا جتمع كبار المواطنين بأم درمان وفى مقدمتهم الشيخ إسماعيل الأزهرى مفتى السودان وأعدوا معروضا لمطالبة الحكومة بالموافقة على تأسيس مدرسة وسطى للحاجة الملحة، والطلب المستمر للتعليم الابتدائى ولاستيعاب من حرمتهم الإرسالية الأمريكية (٣) ولما كانت الحكومة قد ردت طلباً مماثلاً فى هذا الشأن تقدم به بعض المواطنين الذين لا يريدون أن يتعلم أبناؤهم فى مدارس المبشرين فيجبرونهم على تعليم النصرانية، وكانت حجة الحكومة فى رد الطلب عدم توفر المدرسين الذين يقومون بأعباء التدريس، كان لابد من التمهيد لقبول هذا الطلب لئلا يلاقى مصير سابقه.

---

(١) انظر حكومة السودان، تقارير المديرين سنة ١٩٢٥ ص ٢٦٤ الخرطوم. وانظر تطور التعليم فى السودان ص١٧٢

(٢) انظر خضر حمد، مذكرات خضر حمد، الحركة الوطنية السودانية الاستقلال وما بعده ص٦

(٣) خطاب اسماعيل الأزهرى مفتى السودان للسكرتير الإدارى ١٦ أكتوبر ١٩٢٦

فقام بهذا التمهيد مواطن لصيق بالمفتش وهو البكباشي (نور) المسئول عن الأمن ،فجند كل الذين ينقلون الأخبار للمفتش ليشعروه أن هناك بركانا شعبيا أوشك أن ينفجر من جراء تعنت الإرساليات وإصرارها على تعليم أبناء المسلمين النصرانية ،ولما تأكد من وصول الأخبار للمفتش من عدة جهات طلب مقابلته وأعلمه أن الموقف خطير للغاية ، وأن هناك ثورة إسلامية باتت وشيكة وهو غير مسئول عما يحدث بعد هذا البلاغ ،وأن المسلمين أيقنوا أن الحكومة تنفذ سياسة المبشرين ،وأن حرمان الأهالي من التصديق على إنشاء مدرسة لتعليم أبنائهم يعني حث الحكومة لهم على الذهاب بأبنائهم إلى مدارس النصارى لينصروهم فصدق المفتش هذه الشائعات وأمر البكباشي أن يختار شخصين أو ثلاثة من عقلاء البلد لمقابلة السكرتير الإدارى والقضائي ومعتمد الخرطوم ،قال ففطنت إلى ما يرمى إليه وهو إقناعهم بتأجيل فكرة المدرسة على الأقل لصعوبة الحصول على المدرسين فقادني التفكير إلى اختيار شخصين متنافسين لا يمكن أن يتفقا على رأى ، فإذا وافق أحدهما على اقتراح الإنجليز لا يوافق الآخر ، وهما الشيخان إسماعيل الأزهرى المفتي ،والشيخ أبو القاسم أحمد هاشم شيخ العلماء ،وتم الاجتماع ، ولم يعد الحديث محاولة اقناع المجتمعين بعدم جدوى الطلب ما دام العنصر الأساسي وهو المدرسون غير متوفر ،فاقتنع أحد الشيخين وقال إن المخرج من هذا المأزق هو أن ينصح الناس بعدم إرسال أبنائهم إلى مدارس الإرساليات وأن علما يسلبهم دينهم لا خير فيه ولا جدوى منه ،وقال الشيخ الآخر إنه لا يلعب بدينه وأن الذين أرسلوا أبناءهم لمدارس المبشرين ليس لهم عقول تفهم حتى تسمع النصح وأنه لا يوافق على هذا الرأى ،ونهض يريد الخروج ويردد فى ثورة (إنه لا يلعب بدينه) وتأزم الموقف ،فدفعني المفتش لألحق بالشيخ وأرده للاجتماع حتى لا يفشل المؤتمر فاعدته بعد محاولة ،ووعد الرسميون بدراسة الأمر وإرسال رأيهم ،ولم تمض ثلاثة أيام حتى جاءت الموافقة على تقديم الطلب والوعد بأن التصديق سيمنح لهم ،وتم التصديق بإنشاء المدرسة .

ثم نشبت أزمة أخرى كان لحكمة البكباشي (نور) الفضل فى حلها ، فحينما اختار مجلس المدرسة موقعها الحالي أخذت الحكومة تماطل وتعرض عليهم أمكنة سيئة فذهب البكباشي إلى أحد الأثرياء المعروفين بحبهم المال وطلب منه أن يتنازل صوريا عن قطعة أرض يملكها ،وحمل (نور) الورقة وذهب إلى المفتش فقال له: إن البلد ثائرة ،وأن الأماكن التي عرضتها الحكومة لتقام عليها المدرسة غير صالحة وأنهم عزموا على رفض أى أرض من

الحكومة ،وأن حماس الأهالي بلغ حداً بعيد المدى .

ثم سأله عن أكثر أهل أمدرمان حبا وحرصا على المال ، فقال له المفتش: في ظني أنه فلان . فقال له: هل تعلم أن فلاناً هذا وهب أرضه بدون مقابل لتقام عليها المدرسة وترفض مقترحات الحكومة؟ وأخرج له صك الهبة من جيبه ،فاتصل المفتش فوراً بالخرطوم ، وفي اليوم التالي جاء التصديق بأن تعطى لجنة المدرسة أي قطعة تختارها في أمدرمان ،وهكذا قامت أول مدرسة أهلية.(١)

ثم قامت مدرسة البنات بعدها بمطالبة الأستاذ بابكر بدرى برفاعة ثم نقلت إلى أمدرمان(٢) ورغم أن التعليم الأهلي باستثناء معهد أمدرمان العلمي وفروعه في مدن السودان كان يقوم على أساس علماني صرف إلا أن بغض الناس لمدارس التبشير دفعهم إلى إنشائه والتغني والفخر به كما يقول الأستاذ يوسف مصطفى التنى في قصيدته الوطنية المشهورة التي أنشدها - باللغة العامية - بنادى الخريجين في حفلة لصالح المدرسة الأهلية:

بديني اعتز وأفخر وأبشر	ما بهاب الموت المكشر
ما بخش مدرسة المبشر	وعندى معهد وطنى العزيز (٣)

وما أظن أن هذا صادق في زعمه ،وإنما هو مدفوع بنزعة عاطفية من نزعات الوطنية الثائرة على الحكم الأجنبي ، المكافحة لقيام حكم وطني علماني يقوم على الأسس التي رسمها الإنجليز وحلفاؤهم المبشرون ككثير من بلاد المسلمين التي سادت فيها قيم الغرب ولغته وأخلاقه وانزوى فيها الإسلام إلى جانب قصي من الحياة .

---

(١) انظر الحركة الوطنية السودانية الاستقلال وما بعده ص٦٨

(٢) انظر تطور التعليم في السودان ص ١٧٤ .

(٣) انظر الحركة الوطنية السودانية الاستقلال وما بعده ص ٧٠ .

الفصل الثالث

التعليم التنصيرى فى جنوب وغرب السودان

المبحث الأول : موقع الجنوب وسكانه

أ) الموقع :

يمكن أن يحد جنوب السودان بأنه الجزء الذى يقع فى المنطقة المدارية بين خطى طول (٣-٣٥ شرقا) وخطى عرض (٤-٢ شمالا)[١] ويحاد خمس دول أفريقية هى : أثيوبيا ، كينيا ، يوغندا ، زائير ، وأفريقية الوسطى . وليست حدوده حدوداً طبيعية أوعرقية ، وإنما هى حدود رسمتها الإدارة البريطانية لأسباب سياسية وإدارية[٢] الغرض الأساسى منها صد التيار الإسلامى المندفع نحو جنوب القارة .

ب) المساحة والسكان :

تشغل مساحة الجنوب ربع مساحة السودان اذ تبلغ ٢٥٠,٠٠٠ ميل مربع ، ويشكل سكانه ربع سكان القطر إذ بلغ عددهم حسب إحصاء سنة ١٩٨٣ (٥,٢٧١,٢٩٦) ستة وتسعين ومائتين وواحدا وسبعين وألفين وخمسة ملايين ، وينتمون إلى (٥٧٢ اثنين وسبعين وخمسمائة قبيلة)[٣] أكبرها القبائل النيلية الثلاث الدينكا والشلك والنوير ، حيث تكون هذه القبائل الثلاث نصف مجموع سكان الإقليم وأكبر القبائل على الإطلاق قبيلة الدينكا التى تشكل ثلث سكان الاقليم تقريبا حيث تجاوز عدد أفرادها فى احصاء عام ١٩٥٦ المليون نسمة[٤] من مجموع سكان الاقليم الذين بلغ عددهم اذ ذاك (٢,٢٦٩,٠٠٠) تسعة وستين ألفا ومائتى ألف ومليونى نسمة حسب الاحصاء الآنف الذكر[٥] . والقبائل النيلية هى أكثر القبائل تعرضا لتأثير الشمال ، وهى التى تتبنى المطالبة بتطبيق المنهج القومى فى التعليم بنسبة تقارب ١٠٠ ٪ .[٦]

وينتسب إلى الجنس العربى ٣٩٪ من سكان الإقليم ، ويعتقد سليجمان أن قبائل

---

(١) انظر التبشير المسيحى فى العاظمة المثلثة ص١٦

(٢) انظر محمد عمر بشير ، مشكلة جنوب السودان ص١٢

(٣) المصدر السابق ص١٨

(٤) حسن مكى ، السياسة التعليمية والثقافة العربية فى جنوب السودان ص٨ ، المركز الاسلامى الافريقى بالخرطوم ط معامل التصوير الملون السودانية - بدون تاريخ .

(٥) محمد عمر بشير ، مشكلة الجنوب ص١٧

(٦) انظر السياسة التعليمية ص٨

الجنوب مثل الشلك يخالطهم عنصر غير زنجي ،كما يعتقد أن ذلك العنصر أكثر وضوحا بالنسبة للدينكا والنوير،وأنهما متأثران به تأثرا واضحا ،ففي عام١٩٥٦ قدر عدد اللهجات الرئيسية باثنتي عشرة لهجة يستخدم كل لهجة أكثر من ثلاثين ألف شخص،ولم تستطع أى لهجة أن تصبح لغة للحضارة ،ومن ثم أصبحت اللغة العربية المحلية (عربي جوبا)[١] هي لغة التفاهم بين جميع القبائل ،ويستخدمها كلغة أصيلة أكثر من ٥٠٪ من سكان الإقليم.

ولم يكن الجنوب مقرا لكل هذه القبائل منذ القدم ،فقد هاجرت قبيلة الشلك على ما يرى سليجمان إلى الجنوب من المناطق الواقعةشرق بحيرة فكتوريا[٢] ، كما يرى الأستاذ وسترمان أن هجرتهم إلى موطنهم الحالي حدثت في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ،ويعتقد أن أفراد قبيلة الدينكا هاجروا من مناطق البحيرات العظمى في شرق أفريقيا إلى موطنهم الحالي ،وأن أفراد قبيلة الزاندى هاجروا من أواسط أفريقيا في القرن التاسع عشر، وأن القبائل السودانية هاجرت من منطقة بالقرب من بحيرة شاد منذ القرن السابع عشر ولهذا فلايمكن لأى قبيلة من هذه القبائل أن تدعى بأنها تمثل سكان السودان الأصليين أكثر من القبائل العربية التي هاجرت اليه واستقرت به منذ قرون طويلة[٣] كما أشرنا الى ذلك من قبل[٤].

وتغلب الوثنية بصفة عامة على سكان الإقليم ،لأن نسبة الذين يدينون بالإسلام والنصرانية معا لا تعدوا ١٠٪ من مجموع السكان ،وهم عموما أقرب إلى الإسلام منهم إلى النصرانية لسلامة فطرهم واعتقاد معظمهم في وجود إله واحد يسميه الدينكا (دنجاوت)أو(ينالخ) كما يسميه الشلك(وجوت)[٥]. ولقد كانت لدى هذه القبائل أديان خاصة بها تؤمن إيمانا راسخا بوجود كائن أعلى ،الكائن الذى خلق جميع الأشياء، وهو الحكم النهائي في كل الأمور ، ولا يعرف منذ كم قرن وهذه القبائل تؤمن بهذا الاعتقاد ،وهكذا وقعت بشارة المبشرين على أرض صخرية[٦] ، فسبب عدم استعداد القبائل لقبول التنصير فرصة لمعارضة السلطة الحاكمة) وحتى الذين أغروا بقبول النصرانية لم يتقيدوا بطقوسها لأنها منافية لفطرتهم ولما ألفوه من عادات وتقاليد وخاصة فيما يتعلق بالزواج وتعدد الزوجات.

---

(١) عربية عامية مشوبة بلكنة أعجمية.

من مساوئ رواد الاستكشاف الغربيين تسمية هذه البحيرات وغيرها من الأماكن بأسماء غربية لم يجروء خلفاؤهم من أبناء هذه البلاد على تغيير أسمائها

(٢)(٣) محمد عمر بشير ،مشكلة الجنوب ص٦٨

(٤) انظر ص ٤٢ من هذا البحث

(٥) انظر محمد عمر بشير مشكلة الجنوب ص١٢

(٦) محمد أحمد محجوب،الديمقراطية في الميزان ص٢١٠ ط دار النهار للنشر سنة١٩٧٣

صلة الجنوب بالشمال :

لقد حالت الموانع الطبيعية ،كالأدغال ،والمستنقعات،والسدود ،وغزارة الأمطار ، والشذاة[1] دون توغل القبائل العربية التى تخترف الرعى ،وهى القبائل التى نشرت الإسلام بلغته فى الشمال ،وبدأت صلة الشمال بالجنوب إبان عهد الفونج حيث يرى بعض المؤرخين أن الفونج أنفسهم من أصل شلكى[2] غير أن هذا القول لم تسنده أدلة قوية لكن ثبت وجود عناصر شلكية فى جيش الفونج كما كانت هنالك صلات تجارية بين الشلك والفونج[3] وقويت الصلات بين الشمال والجنوب بعد الغزو المصرى التركى للسودان سنة ١٢٣٧هـ/١٨٢١م وكان لهذا العهد الفضل فى ربط الشمال بالجنوب،حيث أرسل محمد على باشا الرحلات لاستكشاف منابع النيل بقيادة سليم قبطان . وقد بدأت الرحلة الأولى سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م واستغرقت أربعة أيام ومائة يوم ،وانتهت عند خط العرض (١٠-٦°) شمال خط الاستواء وابتدأت الرحلة الثانية من الخرطوم سنة ١٢٥٦ هـ الموافق ١٨٤٠/١١/٢٣م ووصلت الى منطقة غندكرو بالقرب من جوبا على خط عرض (١٢-٤°) شمالا ،واستغرقت هذه الرحلة حوالى خمسة وأربعين ومائة يوم ،وأرسلت رحلة ثالثة وصلت إلى نفس المنطقة واستغرقت مائة يوم[4]، ومع هذا فلم تف هذه الرحلات بالمطلوب وهو الوصول إلى منابع النيل إلا أنها مهدت طريق الوصول إليه ،لأن المعلومات التى أذاعتها هذه الرحلات عن غنى الجنوب بالمحاصيل ،ووفرة سن الفيل شجعت حكام السودان على إرسال الحملات التجارية لجلب ما يمكن جلبه من هذه المحاصيل والسن ،فبدأ الاسلام ينتشر بوصول الرحالة والتجار ،وبدأت العربية تنتشر كلغة للتفاهم بين الدولة الجديدة التى أنشأت المحطات والمراكز وحمتها بالجند[5]، وبين شعب المنطقة ، كما أن التجار الذين جاءوا لتسويق بضائعهم استوطن بعضهم فى الاقليم ، وصاهر بعضهم الملوك والسلاطين والرثوث[6] وأصبح هؤلاء يمثلون الطبقة الراقية ،فسعى أفراد المجتمع لتقليدهم فى زيهم وتعليم لغتهم وأساليب حياتهم المعيشية .

---

(١) ذبابة مرض النوم .

(٢) انظر تاريخ الثقافة العربية فى السودان ،ص ١٥ ،وانظر هارولد ماكمايكل تاريخ العرب فى السودان ص ٣١ / ٣٢

(٣) الاستاذ يوسف فضل حسن ،تاريخ الممالك الاسلامية ، ص

(٤) انظر السياسة التعليمية لجنوب السودان ،ص ١٠ ،وانظر مسألة جنوب السودان تاريخها ومراحل تطورها ،ص ٨ سلسلة ثقافة الشباب ، ط التمدن سنة ١٩٧٣

(٥) The Sudan under Wingate P. 116

(٦) الرثوث : جمع رث ، وهو لقب سلطان الشلك .

وكان كذلك لجهود الزبير باشا ـ وهـو أحد هؤلاء التجار وأكثرهم رغبة في نشر الإسلام في هذه المنطقة ولـه الفضل في استتباب الأمن بتكوين جيشه الإسلامي حيث بلغ عدده من الجنوبيين اثني عشر ألفاً نشروا الإسلام واللغة العربية وقاوموا حملات التنصير، وكانوا عماد المهدية وسندها وعرفوا بالجهادية.(١)

ومن ثم ارتبط الشمال بالجنوب وأصبح الطريق النهري أهم الطرق التي تربط بين شمال القطر وجنوبه، وخضع الجنوب بحدوده الحالية للحكم التركي في عهد إسماعيل باشا سنة ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م إلاّ أن فتحه حدث لسوء الحظ إبّان فترة تدهور الخلافة الإسلامية وتكالب الغرب الصليبي على ديار المسلمين، ومما زاد الأمر سوءاً ميول إسماعيل الغربية وفتحه السودان عامة والجنوب خاصة أمام المستكشفين والمبشرين والتجار الأوربيين كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فاستباحوا الحمى وأذلوا الرجال والنساء، وتحولوا من تجارة الريش والسن إلى تجارة الرقيق ذات الربح المضمون فبدءوا يصدرون الجنوبيين بالألوف إلى الأسواق العالمية فكان عملهم هذا من أكبر العوائق للتقدم الإسلامي واللغة العربية، حيث أدت غاراتهم إلى ذعر المواطنين فهرعوا إلى الغابات خوفاً من غارات الأوربيين وزاد هذا الخوف تعسف الإداريين الأوربيين الذين استعملهم الخديوي وعلى رأسهم صموئيل بيكر الذي لا يزال أدب الزاندي الشعبي يحكي قسوته،(٢) ولمعاملة الإداريين الأوربيين القاسية للجنوبيين شاركت قبائلهم في الثورة المهدية مشاركة عملية .

المهدية والجنوب :

لقد شجعت انتصارات المهدية المتوالية في كردفان قبائل الجنوب، وخاصة الدينكا والنوير على الانضواء تحت راية المهدية، فذهب زعيم الدينكا على رأس وفد إلى المهدي في الأبيض فبايعوه، ثم عادوا لطرد (لبتون بك) والحاميات المصرية المنتشرة في بحر الغزال منذ أواخر ١٢٩٩هـ/١٨٨١م، واستمرت مقاومة (لبتون بك) لحركة الأنصار من قبائل الجنوب دون نصر حاسم لأيٍّ من الفريقين حتى وصول قائد المهدية كرم الله شيخ محمد كركساوي بعدد من الجنود، فادعى لبتون اعتناق الإسلام وسمى نفسه عبد الله، وذلك ليطمئن إلى موالاة حامياته

---

(١) انظر ص ٥٨/٥٩ من هذا البحث، والسياسة التعليمية ص ١١

(٢) المصدر السابق ص ١٢

ثم ما لبث أن اقتنع بعدم قدرته على المقاومة فسلم المديرية إلى كرم الله في يوم ٢٨ أبريل سنة ١٨٨٤ وبذلك انضمت بحر الغزال إلى الثورة المهدية،[١] ثم آزرت الثورة المهدية القبائل شبه العربية في الجنوب، مثل قبائل الشات، والدمبو، والشلك، والبناقول، والتوفويد.

وفي بحر الغزال كان كثير من القبائل ذات الأصول الزنجية تشعر بأنها أقرب إلى القبائل العربية التي تعيش في شمال بحر الغزال (كدينكا نجوك) الذين كانت بينهم وبين العرب صلات وثيقة قديمة لذلك تحمسوا بشدة لما تلقوا الرسالة التي بعث بها المهدي إليهم يدعوهم فيها للاشتراك في الثورة، أما بقية القبائل النيلية التي كانت بعيدا عن مناطق الاحتكاك فقد شاركت في الثورة رفضا لإدارة ظالمة غير مرغوب فيها،[٢] وبدأ الإسلام ينتشر في الجنوب، ولكن ببطء لأن دولة المهدية كانت نظرتها ضيقة فاكتفت بتأييد قبائل الجنوب ولم تهتم بغرس تعاليم الإسلام فيها - إلّا ما كان من إرسال الخليفة معلمين خاصين لتدريس القرآن واللغة العربية مع وفود السلاطين التي كانت تأتي للزيارة والمبايعة - في أم درمان[٣] وفيما عدا ذلك كان إقبالها على الشمال والشرق حيث كان الأعداء يتربصون بها الدوائر وانشغلت بالحروب عن الجنوب حتى سقطت الدولة على يد كتشنر، واستعمل الغزاة الصليبيون أعنف وسائل القمع في الشمال والجنوب على السواء، وفتحت الإدارة البريطانية الجنوب للإرساليات ووزعت مناطقه بينها وأصبح لكل إرسالية حمى، واسندت الحكومة أمر التعليم لهذه الإرساليات وشجعتها على فتح المدارس الابتدائية والفنية ففتحت الإرسالية النمساوية (الكاثوليكية) أربع مدارس في بحر الغزال واثنين في أعالي النيل، وفتحت الإرسالية الإنجليزية أولى مدارسها سنة ١٩٠٦ في ملكال، والثانية سنة ١٩١٥ في بور وفتحت الإمريكية أولى مدارسها على نهر السوباط سنة ١٩٠٢،[٤] ولم تقم الحكومة تجاه التعليم بأي خطوة في هذه المناطق حتى سنة ١٩٢٦[٥]، حيث عينت في تلك السنة مشرفا تعليميا بالتعاون مع الإرساليات، وقررت عدم الاستجابة لأي طلب للتعليم متظاهرة

---

(١) انظر ضرار صالح ضرار، تاريخ السودان الحديث ص١٣٢، ط ثالثة، الدار السودانية الخرطوم

(٢) The Sudan under Wingate P. 121

(٣) د. فيصل محمد يونس، الكنيسة ودورها في السياسة التعليمية في جنوب السودان تحت الادارة البريطانية، نشر بمجلة دراسات أفريقية العدد الاول ص ٧٥

(٤) The Sudan under Wingate P. 121

(٥) انظر كذلك التعليم في السودان ص٣٩

بضيق الامكانات .

وجعل جيمس كرى مدير المعارف التعليم فى المديريات الجنوبية محتكرا للإرساليات ولم يسمح لأى جهة أخرى بممارسته [١] ، فتوزعت الإرساليات الثلاث الكبرى التعليم فى الجنوب كما توزعته فى الشمال ، فكان التعليم الفنى والصناعى من نصيب الكاثوليكية ، والنظرى للانجليزية والانجيلية [٢] ، وكان لكل ارسالية سياسة تعليمية خاصة ،وأصبحت الإنجليزية لغة التعليم .

---

(١) انظر تطور التعليم ، ص١١١

(٢) نفس المصدر ص ١١٢

المبحث الثاني

حرب اللغة العربية واقصاؤها عن الجنـــــوب

حوربت اللغة العربية من قبل المستعمرين والمبشرين لاعتبارها من أقوى العوامل فـي نشر الإسلام في الجنوب.

والقصة التالية توضح ضراوة هذه الحرب:

فتح مدير مديرية بحر الغزال مدرسة لأبناء الجنود والأهالي وكلف أحد موظفـــي المديرية بتعليمهم، وطلب من مدير المعارف اعتماد مبلغ ثلاثين قرشا شهريا أجرا لهذا الموظف كما طلب منه إرسال ثلاثة وعشرين كتابا من كتب القراءة الابتدائية، فرد عليه مدير المعـارف ردا قاسيا ورفض طلبه رفضا باتا معللا رفضه بأن ميزانية المعارف لا تسمح بذلك، فرفع حاكم بحر الغزال رد وزير المعارف إلى السكرتير الإداري شاكيا غلظة الرد فعلق السكرتير الإداري على الرد قائلا: لا أتصور أن صرف خمس جنيهات في العام على التعليم أمر يجحف بميزانية المعارف، علما بأن الذين سيتعلمون هم من غير أبناء المسلمين، ورفع الرد مع التعليق إلى (كري).

ولكن ما رآه السكرتير الإداري لم يكن منسجما مع السياسة العليا للحكومة في موضـــوع التعليم في الجنوب، فهذه السياسة كانت لا تزال مقصورة على الحاكم العام ومدير المعـارف الذي اضطر أن يشرك السكرتير الإداري صرا إليه أن ما ينفذه هو سياسة الحاكم العـام[1] الذي يرى أن قضية التعليم في المديريات الجنوبية تعترضها عقبات معينة، فعلى سبيـل المثال، تتضمن جميع الكتب العربية للمرحلة الابتدائية إشارات كثيرة إلى النبي محمـــد (صلى الله عليه وسلم) وليس الحاكم العام حريصا على نشر الإسلام في بلدان ليس الإسلام دين سكانها. ووجه ونجت في رسالة بعث بها لحاكم بحر الغزال أن يتصل بمطران الكاثوليـك فيما يختص بالتعليم، كما أشار إليه أن لغة الأهالي في مديرية بحر الغزال ليست هــي بالفعل اللغة العربية، وإن كان لابد من تعليم لغة فلتكن الإنجليزية، واقترح عليه أن يختـار أحد المترجمين المسيحيين السوريين لفتح صف، وتعليم تلاميذه المبادئ الأولى للقـراءة والكتابة والحساب، دون اللجوء إلى استعمال الكتب المدرسية العربية، وذكر المدير أن

---

(١) رسالة جيمس كري إلى السكرتير الإداري ٢/٢/١٣٠٤ رقم ١٠٣/٣/٢، أ.ج.د. وانظر التعليم في السودان ص٢٧

وجهة نظره تجاه التعليم فى الجنوب خاصة لا ينبغى إذاعتها[١] ، بل يجب أن تنفذ فى حذر شديد ، كما وجه كرى بأن يمنح حاكم بحر الغزال عشر جنيهات انجليزية لأغراض اختياريه[٢] ، وبالرغم من كل هذه الاحتياطات المكثفة ، أظهر الكشف الذى أعده مدير المدرسة عن التلاميذ بأن أربعة عشر منهم يتكلمون العربية كلغة أم من مجموع تسعة وعشرين تلميذا[٣] وبقية التلاميذ يتكلمون العربية كلغة ثانية بجانب لهجاتهم المحلية[٤] كما لاحظ أن جميع التلاميذ قد أشير إليهم بأنهم مسلمون . فجن جنون ونجت وأعرب عن شكه أن يكون أكثر من نصف عددهم مسلما قبل مجيئهم إلى المدرسة ورأى أن نظام التعليم إذا استمر بحالته هذه وتزايد تزايداً كبيراً وهو ما سيحدث على الأرجح ، فلاريب أن كل ولد فى النهاية سيصبح مسلما ناطقا بالعربية مع إلمام بسيط بالانجليزية وهذا أمر غير مستحب ، واكتفى بإبلاغ الأهالى ببحر الغزال أن العربية لغة أجنبية كالإنجليزية ، وأصعب منها بكثير ، وليست مهمة الحكومة أن تحمل جميع رعاياها على اعتناق الدين الإسلامى[٥] ، ولذا أمر ونجت أن تعتبر هذه المدرسة مدرسة تبشيرية ، تدفع الحكومة للقسس مرتبات شهرية ليقوموا فيها بالتدريس ويكون شأنها كشأن مدارس التبشير فى الشمال[٦] .

وفهم حاكم بحر الغزال بعد هذا الشرح المستفيض أن سياسة الحكومة تجاه الجنوب تتلخص فى الآتى :

١- عدم رغبة الحكومة فى ازدياد عدد المسلمين مع وقف المد الإسلامى نحو الجنوب وقفا كاملا

٢- تعليم المواطنين اللغة الإنجليزية بالقدر الذى يمكنهم من شغل الوظائف الحكومية وأن التعليم والهداية من اختصاص الإرساليات[٧] .

احتج جوينى على هذه السياسة الحكومية ووصفها بالتناقض وقال باستحالة تعليم الإنجليزية طالما كانت العربية هى اللغة الرسمية للدواوين الحكومية ، ولهذا اقترح جوينى

---

(١) انظر التقرير ، عن مدرسة قواعد اللغة العربية فى بحر الغزال ١٨/١١/١٩٠٤

(٢) انظر رسالة خاصة من ونجت الى مدير بحر الغزال ج ع . الخرطوم ٣/٢/١٩٠٤

(٣) انظر الملحق رقم (١)

(٤) انظر التعليم فى السودان ص ٣٠

(٥) انظر نفس المرجع السابق والصفحة

(٦) رسالة ونجت الى بولنو بتاريخ ٣/٢/١٩٠٤

(٧) The Sudan under Wingate P. 121/122

على ونجت إذا أراد أن تسود الإنجليزية كلغة للتعامل مع السكان الأصليين أن يشجع إلى أقصى حد ممكن توظيف أبناء البلاد المتعلمين للإنجليزية ،لأن ذلك يغرى غيرهم بتعليم لغتنا ،ويتيح فرصة ولو قليلة الشأن للإرساليات المسيحية وسط هذا المكاسب الساحقة التي يتمتع بها الإسلام في جنوب السودان.[١]

وعلى الرغم من أن ونجت أطلع جويني على خطته الخاصة بجنوب السودان إلا أن جويني لم يقتنع بها وازدادت شكواه وتبرمه من وجود المسلمين في الجنوب لا في وسط الجيش فحسب بل الموظفين والتجار .

وفي أغسطس سنة ١٩١١ طالب جويني الحكومة بإجلاء المسلمين عن الجنوب لا فيما يختص بالكتائب المسلحة وحدها وإنما طالب بطرد المأمورين المصريين (والجلابة) من كل الأعمال[٢] ولم يقف جويني عند هذا الاقتراح بل اتهم حكومة ونجت بتشجيع دفع الإسلام للجنوب الوثني .

فرد عليه ونجت بقوله : (هذا سيقلل إلى حد من عوامل تزايد الإسلام والدعوة إليه ،ولكن يجب عليك أن تنظر إلى الإرساليات والمبشرين على أنها العلاج الناجع الذى ترمى إليه . ولقد أخبرتك من قبل أن الإرساليات والمبشرين يحظون مني بكل عطف ،ومع ذلك فقليلون هم الذين كانوا يتعاونون معنا ويذهبون إلى المدى الذى ذهبت إليه من المساعدة . . وإذا كنت تريد بناء حاجز قوى ضد الإسلام وتقدمه ،فمن الواجب عليك أن توجه الإرساليات المتعددة إلى عمل أكثر حيوية عما هى عليه الآن ،وإنك لتعرف كما أعرف مدى تعاطف حكومة السودان التام معكم ،وليس من المجدى توجيه الاتهام إلى الحكومة ،والقول بأنها تعمل على دفع الإسلام نحو الجنوب الوثني ،وإنها لحجة ضعيفة بل داحضة توجيه اللوم للحكومة فى حين أن العلاج الناجع فى أيديكم ، وإنني مدرك تماما ما أشار إليه المبشرون بالنسبة للعقبات التى تواجه خريجى مدارسهم الذين لا يتكلمون العربية ،وأطالب حكام المديريات الجنوبية أن يفكروا جيداً إذا كان بالإمكان اتباع السياسة التى أشرت إليها والتى تقضى بأن تكون الإنجليزية هى اللغة الرسمية)[٣]

---

(١) رسالة جويني إلى ونجت ١٦/١٢/١٩١٠

(٢) Education Religion and Politices in the Southern Sudan 1899 - 1964.

(٣) انظر تطور التعليم ص٣٨

ووجه ونجت الحكام فى المديريات الجنوبية بأن يكون يوم الأحد العطلة الأسبوعية بدلا عن الجمعة فى المناطق النائية من محافظتى منجلا وبحر الغزال ، وفى أبريل ١٩١١ اعتبر الأحد هو العطلة الأسبوعية بدلا عن الجمعة.(١)

ومع هذه التشديدات والجهود المبذولة لحرب اللغة العربية فقد انتشرت بسرعة ،ولقد وضحت صعوبة حربها فى مديرية بحر الغزال بصفة عامة وفى عاصمتها (واو) بصفة خاصة(٢) واعترف الحاكم العام بذلك حينما قال بعد زيارته لجنوب السودان سنة ١٩٢٧ ؛ لقد استوعبت تماما الآن الصعوبات التى تحول دون جعل اللغة الإنجليزية لغة الجنوب، لقد مضت الأمور أكثر مما تصورت ،إذ أننى حيثما توغلت سواء أكان ذلك بحدود الكنغو البلجيكى أو جبال الأماتونج ،أجد العربية مستعملة بين السكان المحليين ،وفى مواجهة هذا الخطر يجب أن نفكر جيداً فى الأموال والجهود التى نبذلها للقضاء على اللغة العربية تماماً فى الجنوب ،ويجب علينا أن نفكر فى الأسباب التى تحول دون أن تكون اللغة العربية هى لغة التخاطب رغم ما فى ذلك من المخاطر.(٣)

وكان سير لى استاك Sirlee Stack الذى عمل سكرتيرا إداريا تحت رئاسة ونجت فى الفترة من ١٩١٤-١٩١٧) ثم خلفه فى منصب الحاكم العام للسودان واتبع نفس السياسة التى رسمها ونجت تجاه الجنوب ،وزاد عليها بوضع ما سمى قانون المناطق المقفلة سنة ١٩٢٢ ،فكان هذا القانون من أشد الوسائل التى اتخذتها الإدارة البريطانية فى القضاء على الإسلام ولغته فى جنوب السودان ،اذ تم بمقتضاه إبعاد جميع المسلمين عن الجنوب وإقفال المديريات الجنوبية وبعض المناطق الأخرى فى وجوههم بصرف النظر عن جنسياتهم(٤) وينص القانون آنف الذكر على ألا يدخل أى مواطن إلى أى منطقة من هذه المناطق المغلقة إلا بإذن خاص من السكرتير الإدارى ،أو مدير المديرية التى تقع فيها المنطقة المقفلة ، كما يحق للسكرتير الإدارى أو مدير المديرية المعينة منع أى مواطن سودانى من الدخول أو الإقامة فى المنطقة المذكورة ،ويستثنى القانون موظفى الحكومة وأفراد قوة دفاع السودان الذين تحتاج إليهم الحكومة لأداء مهمة رسمية كما أنه لا يسرى على من يحمل تصريحا بالاتجار فى تلك

---

(١) The Sudan under wingate P.122

(٢) انظر تطور التعليم ص٢٣٢

(٣) مذكرة الحاكم العام٢ (١٩٢٧/٦/ ،وانظر الخريطة اللغوية ص٤٨ ، وتطور التعليم ص ١٤٢ ، والسياسة التعليمية والثقافة العربية فى جنوب السودان ص١٨ .

(٤) انظر د. مدثر عبد الرحيم ،مشكلة جنوب السودان ص٤٢

المناطق أو لمن يعبرها مسافراً عن طريق البواخر النيلية المبحرة على نهر سوباط أو بالقطار.

والمناطق المقفلة المشار إليها في القانون هي :

١- المديريات الجنوبية الثلاث (أعالي النيل ، الاستوائية ، وبحر الغزال)

٢- زالنجي ودار مساليت بمديرية دارفور.

٣- جبال النوبة ومناطق تقلي بمديرية كردفان.

٤- جمبيلا.

وتنص الفقرة الثانية والعشرين من هذا القانون على أن للحاكم العام حق إعلان أي جزء من السودان منطقة مغلقة تماما ، وأجازت المادة له كذلك أن يمنح حق الدخول في أطار الشروط التي يمكن أن توضع في القانون لإشخاص أو مجموعات من الناس إذا رأى ذلك ، كما يجوز له إلغاء أو تعديل أو تغيير هذا القانون. ولا يجوز لأي شخص ينطبق عليه القانون أن يدخل أي منطقة من المناطق المقفلة أو أن يكون موجودا بها حين إعلان هذا القانون . ولا أن يبقى هناك بعد إبلاغه به ، وأي شخص يخالف نصوص هذا القانون أو أي قانون أو لوائح توضع أو تصاريح مجازة يعرض نفسه للعقوبة التي قد تصل إلى سجنه مدة ستة أشهر أو الغرامة التي لا تتجاوز المائة جنيه أو العقوبتين معا [1]، وعندما قال النحاس باشا إن هناك قانوناً يحرم على السوداني الشمالي الدخول إلى الجنوب إلا بإذن خاص، أنكر الحاكم العام ذلك وكذب على الله والناس والتاريخ .[2]

وكان ماكمايكل Sir Harold Macmichael السكرتير الإداري الذي عمل تحت رئاسة استاك وخلا له الجو بعد مقتله في القاهرة سنة ١٩٢٤ من أعنف الإداريين الإنجليز في حرب الإسلام ولغته العربية ومحاولة محوهما من الجنوب. واستعمل كل الوسائل والأساليب لتحقيق هذا الهدف ومن هذا المنطلق كانت الدعوة لمؤتمر اللغات بالرجاف.

---

(١) انظر ملحق رقم (٢) نص قانون المناطق المقفلة المعدل سنة ١٩٥٢ ، وانظر ملحق رقم (٣) طلب تصريح دخول لمركز مغلق أو اذن يصدر تحت قانون المراكز المغلقة سنة ١٩٢٢

(٢) تطور الحركة الوطنية السودانية الاستقلال وما بعده ص ٣

مؤتمر الرجــاف (من ٩-١٤ من أبريل سنة ١٩٢٨م)

انعقد مؤتمر الرجاف في التاسع من أبريل سنة ١٩٢٨م بدعوة من (جى . جى ماثيو) مدير المعارف الذى تولى أمر المؤتمر والإنفاق عليه ورأس جلساته ،وحضره ثلاثة وثلاثون ممثلاً للإرساليات بما فيهم مايسمونهم (الآباء البيض) والبروتستانت التابعون للبعثة السودانية الكنغوليـــة المتحدة القادمة من أوغندا والكنغوا البلكيجى ،بالإضافة إلى ممثلين لمصلحة المعارف فى كل من أوغندا والكنغوا ،وكان (مسترمايثو) المضيف للمؤتمر يعاونه هنتر وهيكسون ، وبعــث هارولد ماكمايكل السكرتير الإدارى (هيليلسون) التابع لمخابرات مكتب السكرتير المدنى إلى المؤتمر كمراقب على المشاركين ،وحضر من برلين خبير اللغات الأفريقية (البروفسورويسترمان) مدير المعهد الدولى للثقافة واللغات الأفريقية بوصفه مستشاراً رسميا للمؤتمر . . . وفى الحقيقة أنه لم يسبق أن اجتمع شقفون على هذا النحو منذ قدوم أمين باشا إلى جبل الرجاف قبل خمسين عاماً ،وكان الهدف الأول للمؤتمر محدوداً وعملياً جداً - وهو كيفية مواجهة اللغة العربيـــة وإيجاد بدائل لها - وحددت نقاط المناقشة فى الآتى :

١- على الأعضاء وضع قائمة بأسماء اللهجات المستعملة فى الجنوب حتى وقت الاجتماع.

٢- عليهم تحديد المتشابهات السائدة فى الإقليم والتى يمكن استخدامها فى التدريس.

٣- بعد تحديد اللهجات المتشابهة السائدة والاتفاق عليها يمكن بمساعدة البروفســير ويسترمان الإتفاق على قواعد هجائها لإعداد الكتب المدرسية.

ولما لم تصدر توجيهات من مصلحة المعارف ولا من الأساقفة بشئ محدد مكتوب لجـــأ المبشرون إلى اختراع وسائل خاصة للتنصير ،وظل كل منهم يدافع عن وسيلته ضد وسائـــل الآخرين ،فالتمس (ماثيو) من (ويسترمان) الفصل فى هذا الأمر المثير للجدل والمهـــدر للوقت ،وزعم أنه لا يريد أن يقحم موضوعاً متعلقاً بالاتفاق على مصطلح لغوى ضمن فكرة المؤتمـــر الذى يضم ثلاثة وثلاثين من المسيحيين المتحمسين المتنافسين حيث لا يعتبر الإنجليزية لغة وطنية لبعضهم ولا يجمع بينهم إلاّ الثالوث المقدس[1] (والحقد على الإسلام ولغته)[2]

ولذلك لم تفعل هذه الإرساليات شيئا من اتخاذ الإنجليزية لغة رسمية وإنما اتخـــذ

---

(١) Robert, O. Collin , Shadows in the grass Britain in the Southern Sudan 1918 - 1965 London 1984 P. 218

(٢) زيادة من عند الباحث.

القرار بذلك فى الخرطوم والقاهرة ولندن ،من (هارولد ماكايل)السكرتير الإدارى وجى جو ماثيو مدير المعارف ولورد لويد معتمد بريطانيا لمصر والسودان ،وجون مورى وكيل بمكتب الشئون الخارجية فى لندن .

واختتم المؤتمر أعماله فى ١٤ من أبريل ١٩٢٨ باتفاق عام وأوصى بتجميع اللهجات الرئيسية المستعملة فى المدارس الابتدائية وهى لهجات الدينكا ،والنوير ،والشلك ، والبارى ، واللاتوكا ،والزاندى . على أن تكوّن عدة لجان دائمة لكل منها لجنة ،ولجنة خاصة للنظر فى طباعة الكتب المدرسية وترك موضوع الهجاء للبروفسير ويسترمان .[١] والغرض من تبنى هذه اللهجات بجانب حرب اللغة العربية يرمى إلى أن تندثر وتتلاشى اللهجات الصغيرة واحدة بعد الأخرى ،كما تمخض المؤتمر عن اقتراح يرمى إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية إذا لم يتم القضاء عليها ولم يكن هناك بد من استعمالها[٢]

وأدلى (كاش) سكرتير عام الكنيسة الانجليزية بدلوه فى المعترك قائلا : (بدون شك أن الإسلام يتسرب من الشمال جنوبا ،والفرصة اليوم سانحة لكسب القبائل الوثنية ،وهى فرصة سنفقدها فى السنوات القليلة القادمة ما لم نعمل من الآن .

وإن إرساليتنا فى أوغندا استطاعت صد الإسلام عن أفريقيا الوسطى منذ خمسين سنة مضت .

أما تسرب الإسلام عنه طريق تنجانيقا (تنزانيا) فقد تصدت له قوة هائلة من المدد الأسترالى . وإن أضعف نقطة لنشاطنا هى جنوب السودان ،فإذا سمحنا للإسلام بأن يرسخ نفسه حول الحدود الأوغندية فإن ذلك يعنى إضعاف إرساليتنا التبشيرية وبالتالى فسيكون من الصعب فى النهاية إنشاء كنيسة أفريقية كبرى . إن فرصة التقدم فريدة جداً ولا يمكننا التأخر فى انتهازها . وعلينا أن نضع فى الاعتبار أنه إذا ما انتشر الإسلام فإن دواوين الحكومة ستمتلئ بالمواطنين المسلمين الذين سيكونون دعاة لدينهم . أما إذا تقدمنا الآن فيمكننا أن نقدم للمصالح الحكومية مسيحيين متحمسين لعقيدتهم وستصبح الكنيسة حقيقة واقعة)[٣]

---

(١) The Shadows in grass P. 218, 219

(٢) حكومة السودان ،مؤتمر اللغات بالرجاف لندن سنة ١٩٢٨

(٣) W.Cach, Doan in the Sudan C.M.O. Vol. mar, 1926.

وهكذا تعاون المبشرون والإداريون تعاونًا كاملًا على تعويق تقدم الإسلام وقعدوا له كل مرصد وسلكوا لذلك شتى السبل وجلهم يرتضعون نفس السياسة التى أحكم نسجها كرومـــر ونائبه ونجت، ووضح ذلك من مذكرة السكرتير الإدارى الضافية التى أعدها فى نفس عام انعقاد مؤتمر الرجاف اللغوى وتساءل فيها عما إذا كان واجب الحكومة أن تشجع اللغة العربية فى الجنوب كوسيلة تخاطب للحاكمين والمحكومين أم تحاربها ؟

ورد على تساؤله بقوله: (يبدو لى أن الافتراض الأول غير معقول لأنه يعنى أننا نقـوم بنشر بارود فى المناطق المجاورة، ونبذر بذورًا تنمو أسرع من القمح . . . إن نشر العـربية بين الجنوبيين يعنى نشر المعرفة والعقيدة الإسلامية التى دامت ثلاثة عشر قرنا، ويبدو الآن أنها قد وصلت إلى مرحلة الركود على النطاق العالمى نتيجة عدم الاستقرار السياسى الذى مرت به فى مراحل تاريخها، ومما لا شك فيه أن هناك قوة تكمن فى الوحدة الإسلامية وهـذا يدعم وجهة نظرنا فى مسألة اللغة والإسلام)(١)

ثم بعث السكرتير الإدارى ـ بعد مضى قرابة سنتين على انعقاد مؤتمر الرجاف ـ بمذكرة إلى حكام المديريات الجنوبية جاء فيها:

(إنه لمن الملاحظ أن اللغة العربية قد أصبحت شائعة فى بعض الجهات ـ مثـل (واو) للدرجة التى أصبحت فيها اللغات المحلية مهملة كليا أو كادت أن تندثر تماما ، وهذا بلاشك وضع يوجب المعالجة السريعة وخاصة لمثل هذه المناطق)(٢) كما جاء فى نفس المذكرة (. . . بالإضافة إلى ذلك فإن حظر استعمال اللغة العربية سيكون عاملا فعالاً فـى الخطة التى تسير عليها، فإنه ينبغى لنا أن نذكر أن اللغة العربية لكونها ليست لغة الحكام ولا لغة المحكومين ستموت باضطراد وبصورة تلقائية، وأن نوع اللغة العربية المستعملة حاليًا ليقوم دليلاً واضحاً على ذلك إذ لا يمكن استعمالـها كوسيلة للتفاهم إلاّ فى أمور قليلة الشأن وما لم يتم استعمالها بصورتها المحلية الركيكة فإنها لن تكون ذات أثر فى المستقبل، وبعكس ذلك فإن اللغة المحلية، واللغة الإنجليزية سيكونان على الدوام لغة أحد الطرفين المتخاطبين ولذلك فسيحسن كل طرف مقدرة الطرف الآخر على استعمال لغته. (٣)

---

(١) Shadows in the grass P. 172,173

(٢) مذكرة السكرتير الادارى بتاريخ ٢٥/١/١٩٣٠ وانظر مشكلة الجنوب لمدثر عبد الرحيم ص ٨٨

(٣) المصدر السابق

وعند ما اطلع لورد لويد المندوب السامى البريطانى بمصر على مقترحات حكومة الخرطوم كتب إلى حكومته قائلا : (إنه لمن المرغوب فيه ،ولاعتبارات سياسية وإدارية ودينية وتعليمية اختفاء اللغة العربية من جنوب السودان ،وأن تحل الإنجليزية محلها فى المناطق التى يكون التخاطب فيها باللهجات المحلية غير عملى ،وينبغى أن تشجع الإداريين على تعلمها)[1]

ومما تقدم ذكره يتضح أن السياسة البريطانية نحو الجنوب كانت ترمى إلى القضاء التام على اللغة العربية والإسلام استعداداً لفصله وضمه لمستعمرات بريطانيا الإفريقية .

واستطاع ماكمايكل السكرتير الإدارى أن يستعين برجال يفوقونه حقداً على الإسلام والمسلمين من أمثال كد H. F. Kidd الذى عين حاكما على الإقليم الغربى من بحر الغزال والمعروف باسم (دار فرتيت) ولم يكن (كد) قد سبق له العمل فى الشمال ،ولكنه كان يغلى حقداً وكراهية على العرب والمسلمين عموما ولم يخف ذلك بل قدم إلى (راجا) مسلحاً بتوجيهات ماكمايل ومصمما على اقتلاع جذور العربية والإسلام من المنطقة ،وأكثر ما يوضح ذلك خطابه إلى بروك Brock مدير بحر الغزال ،حيث ورد فيه (إننى اعتبر أنه من المستحيل المضى قدماً فى تنفيذ السياسة القبلية قبل أن يتم التخلص من العناصر المحمدية مثل الجلابة) والفلاتة والهوسا لاعتبارات الدين واللغة)[2] وبدأ فى تنفيذ سياسته بترحيل القبائل المسلمة من العرب والفلاتة والبندلا من منطقة غرب بحر الغزال (دار فرتيت) إلى الشمال نحو إقليم دارفور ، وتم ذلك بعد الاجتماع الذى عقده مديرو المديريات؛ وهم G.N.I. Morroson; حاكم دارفور و(كد) حاكم غرب بحر الغزال ،ورولاند J. L. Roland حاكم جنوب دارفور ،وذلك فى الخامس من يناير سنة (١٩٣١م)، وفى نفس هذا الشهر عاد سمسون Simson إلى الإقليم الغربى ليراقب عملية ترحيل الفلاتة والعرب والبندلا والتقى فى أبريل برولاند ، فى برام وقاما بتنظيم استقرار هذه القبائل فى منطقة نهر عفيف ، ولقد كتب سمسون فى ذلك قائلا : (إنهم لم يكونوا سعداء على أى حال بترحيلهم من كافى كنجى ،وعاد سمسون إلى كافى كنجى فى ٢٥ من أبريل (١٩٣١م) ليقوم بتدمير المنازل لقطع أى طريق لعودة هذه القبائل ،كما

---

(١) Shadows in the grass P. 172,173

(٢) Ibid P. 181, 182.

قام بإضرام النيران فى مسجدها ،وبعد إحراقه تماما تظاهر بالحزن لوصول النيران للمسجد رغم الاحتياطات التى قام بها لمنع ذلك - ليخفى حقده الصليبى - ولعمرى لا أدرى لمن كان يبقى المسجد بعد إجلاء المسلمين ،وتدمير مساكنهم لئلا يفكروا فى العودة ؟ وفى نفس الوقت الذى تمت فيه عملية الإحراق ، كان ماكمايكل يتلقى الخبر بارتياح شديد ،ويعلن أن العملية تمت فى سهولة ويسر.(١)

ومما تقدم يظهر التعاون الوثيق بين حكام المديريات الجنوبية والمديريات الغربية المتاخمة لها من أمثال بروك Brock مدير بحر الغزال ورفاقه وحرصهم على تنفيذ مقترحات ماكمايكل بل وزيادتهم عليها فى بعض الأحيان وحرصهم على القضاء على أثر الإسلام حتى الأسماء والعناوين سعوا إلى أن تكون غربية وفى حالة العجز محلية وثنية. بل نجد بروك قد ألغى سياسة التمازج التى كانت مبرمة بين قبيلة الحمر وهى عربية ،وبين دينكا نجوك والتى كانت تبيح لكل من القبيلتين الدخول فى حمى الأخرى بمسافة ١٥ ميلا مما أدى إلى التقارب والتمازج بين القبيلتين ففصل بروك بينهما فصلا تاما ،واتبع بقية حكام الأقاليم الأخرى فى ملكال ومنجلا نفس سياسته.(٢)

وكانت سياسة ماكمايكل تجاه الجنوب بعد مؤتمر الرجاف تنحصر فى الآتى :

١- إبعاد المأمورين المصريين المسلمين ،ووضع مامورين سودانيين مسلوبى السلطة بدلا منهم توطئة لإلغاء هذا المنصب نهائيا

٢- أن تكون اللغة الإنجليزية هى اللغة الرئيسة بالنسبة للجنوب

٣- إبعاد التجار الشماليين باستثناء أصحاب الأهداف التجارية البحتة الذين لا يعنيهم أمر الدين.

٤- توجيه الإداريين ليؤقلموا أنفسهم مع العادات والمعتقدات وللهجات للقبائل التى يحكمونها

٥- دراسة المجتمعات الجنوبية ،وذلك بتوجيه أصحاب الكفاءات العالية المتخصصين فى هذا الشأن لتسهيل حل المشاكل الإدارية تجاه الجنوب.

٦- ملاحقة العربية والقضاء عليها قضاء مبرما واقتلاع جذورها بعدم التحدث بها ومحاولة التحدث باللهجات القبلية.(٣)

---

(١) Ibid P.188

(٢) Ibid P.176

(٣) Ibid P.174

المبحث الثالث

التعليم التنصيرى بجبال النوبة

لم تكن الحال بمنطقة جبال النوبة بجنوب مديرية كردفان بأحسن مما كانت عليه بجنوب السودان ،بل كان النشاط الكنسى بهذه المنطقة مركزاً ،وأشد عنفاً منه فى الجنوب لأن المنطقة أكثر تأثراً بالشمال من حيث النواحى الاقتصادية والثقافية والاجتماعية ،كما أنها منطقة تداخل بين القبائل العربية الرعسوية - كالبقارة والمسيرية - و بين قبائل الجنوب كما أشرنا إلى ذلك - فاعتبرها الاستعمار والتبشير من أخطر المناطق إذ يمكن أن تكون قنطرة يعبر عليها الإسلام بسهولة إلى الجنوب ،ولذلك أجلبوا عليها بخيلهم ورجلهم ليحولوا دون ذلك . يقول ترنمنجهام: (والمشكلة فى جبال النوبة رغم أن أهلها وثنيون ولكنها ذات طبيعة مختلفة لأن المنطقة تشبه الشمال على النطاقين الاقتصادى ،والإدارى واللغة العربية هى لغة التعليم ،والمنطقة مهمة وتعتبر منطقة اختبار للإرساليات منذ سنة (١٩٣)[(١)]

ومن المعلوم أن العمل الكنسى بدأ مبكرا فى منطقة النوبة وذلك حينما تخرجت دفعة فى كلية مازا فى القاهرة فوجه كمبونى اثنين منهم للأبيض سنة (١٨٧ فأسسا مدرسة وكنيسة سنة ١٨٧٢ ، ومركزا زراعيا فى قرية (ملبس) من ضواحى الأبيض سنة ١٨٧٥ ومركزاً مماثلاً بالدلنج سنة ١٨٧٨[(٢)] ، ولاهتمام كمبونى بأفريقيا عينه البابا بيوس التاسع نائباً رسولياً ورئيساً لإرسالية أواسط أفريقيا وأعطاه السلطة لإعادة فتحها[(٣)] وفى سنة ١٨٧٧ عينه أسقفاً لأفريقيا الوسطى[(٤)] ومنحه الخديوى إسماعيل سلطة مطلقة ليحرر من شاء من الذين وجدهم فى حالة العبودية بالسودان[(٥)] واتخذ من الخرطوم مقراً لإدارة أعماله حتى توفى سنة ١٨٨١ قبل قيام المهدية بعام واحد وفى سنة ١٨٨٢ وقع المنصرون بالدلنج أسرى حتى تمكن بعضهم من الهرب سنة ١٨٩٢ ،وظل السودان موصداً فى وجه التنصير حتى سقوط المهدية سنة ١٨٩٨

---

(١) The Christian approach to Islam in the Sudan P.39

(٢) تاريخ المسيحية ص٢٤٢

(٣) المصدر نفسه ص ٢٣٦

(٤) المصدر نفسه ص ٢٣٨

(٥) المصدر نفسه ص ٢٣٩

دعوة الحكومة لـ (S.U.M.) للعمل بجبال النوبة

دعت الحكومة ارسالية السودان المتحدة S.U.M.

وهى تتكون من الفرع الأسترالى النيوزيلندى ،ولقد عملت بنيجريا لعدة سنوات ،وكانت تتسوق لمد عملها على امتداد السودان الجغرافى ليشمل نشاطها (تشاد) والسودان الإنجليزى المصرى وقد بدأت عملها أولا بجنوب السودان سنة ١٩١٣ (١) وعندما بدأت بمنطقة النوبة الوثنية فكرت فى استقدامها للعمل فى مجال التعليم ،فتم الاتفاق بينها وبين سلطات المديرية فى سبتمبر سنة ١٩١٩ على القيام بفتح مدارس فى هذه المناطق ،وهى المناطق الشرقية من جبال النوبة بين الكوليب والكورنقو والمورو ، وذلك بالشروط التالية :

١- أن يكون التدريس باللهجات النوبية .

٢- أن توفر الإرسالية المعلمين وتقوم بدفع أجورهم مقابل أن تتكفل الحكومة بإحضار التلاميذ لمدارس الإرسالية ، وتقدم لها مساعدات مالية فى هيئة منح متساوية لكل تلميذ يحضر وأن يكون للإرسالية الحق المطلق فى نشر النصرانية .

ورشحت سلطات المديرية منطقة (هيبان) فى الجبال الشرقية لموقعها وسط المديرية ولغلبة الوثنية على سكانها ،فافتتحت أول محطة تبشير سنة ١٩٢٠ كما أقامت مدرسة تبشيرية لأطفال النوبة سنة ١٩٢٣م ثم أقامت مدارس أخرى صغيرة فى عدة محطات وتحت ظلال الأشجار (Bush Schools) فى القرى مستخدمة اللهجات المحلية مع تلقين مبادئ الإنجليزية (٢) ثم مدت نشاطها فى المنطقة عبر سنوات متعاقبة ففتحت محطة (عبرى) وسط الكوليب ،و(تبانيا) وسط الكورنقو سنة ١٩٣٠م وأم دورين) وسط المورو (٣) سنة ١٩٣٣م و(رادو) بين جبال الاوتورو والتيرا سنة ١٩٣٦م كما افتتحت مدرسة الإنجيل فى (شاورى) قرب (هيبان) سنة ١٩٤٨ فأغلقت هذه المدرسة ثم أعيد فتحها سنة ١٩٥١م (٤) ،ولكنها لم تستطع أن تغطى كل المنطقة فعللت ذلك بنقص المال والرجال ،فاضطرت الحكومة للقيام بفتح مدارس أولية سنة ١٩٢١م فى المراكز مثل (تالودى)و(الدلنج)و(كادقلى)و(رشاد) على أمل أن يكون أكثر روادها من أبناء النوبة الوثنيين ،فكان غالبية طلابها من العرب والمستعربين الذين صارت العربية

---

(١) 1. Roland C. Stevensons Durham Sudan Historical Records Conference, A short outline of Protistant Missionary work in the Southern Sudan P. 4

(٢) 2. Ibid P. 4

(٣) المورو النوبية ليست (مورو) الاستوائية

(٤) 4. Ibid P. 4

لغتهم ،فطالبوا بإدراج تعليم الدين الإسلامي في منهج هذه المدارس،فأرسلت سلطات المديرية خطابا إلى مدير التعليم بتاريخ ١٥/٦/١٩٢٤) لكي يدرج تعليم الدين الإسلامي في مناهج المدارس بشرط أن يحضره أبناء المسلمين فقط،أما أبناء النوبة ،فلا يسمح لهم بالحضور إلاّ بموافقة آبائهم ،ولكن آباء التلاميذ رأوا في تعليم أبنائهم القرآن تحسينا للغتهم العربية ،فأصبحت المدارس الحكومية مراكز دعاية قوية من الشباب النوبي للعربية ،والإسلام الأمر الذي كان يحذره المستعمرون والمنصرون فاضطر المفتش الإنجليزي أن يصدر قرارًا بأن تكون هذه المدارس خاصة بأبناء المدن ،ولا يقبل بها أبناء الأرياف إلاّ بموافقته هو شخصيا ،وحذر من قبول أبناء النوبة بها - خشية التأثير الإسلامي - وكان أمر القبول قبل ذلك من اختصاص السلطات المدرسية ، ومع هذه الأوامر الصارمة ،فقد وجد أبناء النوبة طريقهم لدخولها ، فأدركت الحكومة بأنه لا خلاص من أثر التعريب والإسلمة إلاّ بإغلاقها ، فأغلقت سنة ١٩٣١م فاتضح من تصرف الحكومة الأرعن أنها لا تراعي التعليم الذي يريده النوبي الوثني ، وإنما تخضع لأغراض سياسية موجهة تهدف إلى الحيلولة بين النوبة والإسلام .

ومدت S.U.M. نشاطها إلى الجبال الغربية ففتحت محطتي (كاتشا) و(جلود) وذلك قبل أن تتقن ماوكل إليها من عمل في المنطقة الشرقية على حد تعبير (جيلان) مدير جبال النوبة في تقريره سنة ١٩٢٧ ،والذي أوعز فيه للحكومة المركزية أن تشاركه المسئولية فيما يختص بقسم (عبري) الذي أحيط بالعرب تماما ،وكاقتراح عاجل منه للحكومة قال : (إن جهود الإرسالية يجب أن تسير وفق خطوات منتظمة بدءًا بالجنوب لفصل منطقة بحر الغزال اللادينية من ناحية نظرية كي لا تتحرك القوة الإسلامية من الخلف ، ومن ناحية عملية تكون (هيبان) هي قمة الفصل للأسباب التي ذكرت سابقا ،وأضاف قائلا إن سياسته سوف تشمل إنشاء سلسلة من المحطات تجاه حدود كردفان ،ومن الشرق خط هيبان تونجة[1]

وهذه هي المنطقة التي عرفت بمنطقة الحزام المسيحي الذي يقع بين خطي طول ٣٢و٢٩ شرقا وغربا وبين خطي عرض ١٠و١٢ في جنوب مديرية كردفان ، ويشمل الحزام حسب التقسيم الحالي المجالس الاتية :

١- ريفي دلامي شمالا
٢- ريفي هيبان في الوسط
٣- ريفي أم دورين جنوبا
٤- وبعض المجالس في الأجزاء الشمالية والجنوبية والشرقية للبرام وهي المنطقة التي كان يطلق عليها

---

(١) انظر د. كمال عثمان صالح ،التبشير والسياسة الاستعمارية في جبال النوبة ص٦ ،بحث قدم في المؤتمر الأول الاسلام في السودان ،جماعة الفكر والثقافة الاسلامية مطبوع على الآلة الكاتبة .

اسم (النوبة الوسطى) والتي تفصل بين القبائل العربية والمستعربة الواقعة في شرق وغرب المديرية كما تفصل بين القبائل النوبية التي اعتنقت الإسلام اصبحت عاداتها وتقاليدها عربية إسلامية[1].

وجاء في تقرير جيلان : مما لا شك فيه أن هذه المنطقة أنسب منطقة للنشاط الإرسالي ويمكن في النهاية أن تنضم هذه المنطقة إلى مديرية بحر الغزالي ،وذلك لقلة عدد السكان المسلمين ،بالإضافة إلى أن عملية التعريب والثقافة الإسلامية غير متقدمة بها ،وانتقد طريقة التدريس باللهجات المحلية بقوله : (إن التجربة لم تكن ناجحة) مشيرًا إلى تقرير مسئول التعليم الذي كتبه سنة ١٩٢٥ ،والذي جاء فيه (إنه لم يخطر ببال التلاميذ أن هذه الألفاظ عبارة عن كلمات وجمل مشتقة من داخل لغتهم ،وأن الانتقال من اللفظ إلى المعنى لا يمكن تحقيقه دون جهد كبير من المعلم،وان عقولهم لا يمكن أن تعمل على تحويل الكلمات إلى معان ، ولذلك فإنني أستحسن عدم التدريس كتابة بهذه اللغات ،وكحل وسط اقترح (جيلان) تدريس العربية بحروف رومانية وفي ختام تقريره هدد .S.U.M أنها في حال فشلها في تغطية المنطقة ،فسيضطر إلى إدخال إرسالية أخرى[2].

ناقش مجلس الأساقفة مذكرة الحكومة فأجاز تدريس العربية بالحرف الروماني ،كما أجاز إقامة مدارس لأبناء المكوك.

الصعوبات التي واجهت تدريس العربية بالحرف الروماني :

١- ندرة الكتب الدراسية في هذا الشأن حيث كان يوجد كتاب دراسي واحد ،وحتى هذا الكتاب وجد أنه غير كاف كمقرر دراسي .

٢- عدم وجود المعلمين الأكفاء لتدريس العربية بهذه الطريقة ، مما اضطر الحكومة المركزية لإرسال خبيرها اللغوي (هيللسون) إلى منطقة جبال النوبة في يناير سنة ١٩٣٢ لبحث مشكلة اللغة فتجول في محطات الإرسالية ،وناقش المسئولين عن تدريس العربية بالطريقة الرومانية ،فتبين له أن الصعوبات الفنية أكبر مما كان يتصور وقال :

---

(١) انظر انجلو ابوراسين ،المنهاج الالهي في النوبة الوسطى ص٢ بحث مطبوع على الآلة الكاتبة
(٢) انظر التبشير والسياسة الاستعمارية في جبال النوبة ص ١٦

(إن النوبى المتعلم سيكون غاضباً منّا لتدريسه لغة تصبح عديمة القيمة بالنسبة له إذا ان رسمها بالحرف الرومانى ،وإننا سوف نتحمل مسآلته عن سبب تدريسه لغة ليست لها قيمة بالنسبة له وسوف لا يقبل إجابتنا إذا قلنا له إننا كنا نحاول تخليص روحك من الإسلام والقرآن.)[1]

ورغم اتفاق سكرتير التعليم مع(هيللسون) فى صعوبة تدريس العربية بالحروف الرومانية ويقينه بفشل التجربة إلّا أنه فضل ألّا يقوم بأى إجراء قبل استشارة(جيلان) مخطط هذه السياسة ،ورغم اتفاق (جيلان) معهما فى صعوبة تدريس العربية بالحرف الرومانى بالإضافة إلى علمه بأن العربية هى اللغة المشتركة للتفاهم بين النوبة ،إلّا أنه أصر على موقفه لإ... النوبة عن العربية بالحرف العربى خشية التأثر بالاسلام[2]

وعندما تأكدت الحكومة أن S.U.M. عجزت عن فتح المحطات المقترحة وتأكدت بالتالى من عدم إمكانها تغطية المنطقة ،فكرت جديا فى دعوة C.M.S. ووجدت الفرصة سانحة بزيارة سكرتيرها السودان .

دعوة C.M.S للعمل فى منطقة النوبة:

زار د . ولسون كاش سكرتير عام C.M.S. السودان سنة ١٩٣٣ وتجول فى ربوعه بما فى ذلك منطقة جبال النوبة فكافأته الحكومة على زيارته بدعوة إرساليته C.M.S. للعمل فى منطقة غرب جبال النوبة ،وكانت الدعوة محددة بالعمل فى مجال التعليم كمساعدة للحكومة[3] فقبل الدعوة مبتهجا[4] ، وكان رأى الحكومة أن تفتح C.M.S محطتين رئيسيتين فى الدلنج وكادقلى كما كان الاقتراح أن يفتح مركز الدلنج بالقرب من (فاندا) ليخدم مجموعة الدلنج اللغوية التى تضم بالإضافة إلى (الفاندا) جماعات (غلفان) وكونيت كاتشا (شفيت) و(دلنج وأبو ضول) ولكن لم يعمل بهذا الاقتراح إذ تبين أن منطقة النْيمانج أولى به وهى منطقة تقطنها مجموعة قبائل مترابطة متماسكة بدائية ولكنها ليست بسيطة حيث تتمتع بإدارة أهلية جيدة ومواصلات سريعة بالإضافة إلى قوة تماسكها بعباداتها وتقاليدها وكثافة سكانها البالغ عددهم(٣٠) ثلاثين ألفاً مع اعتبارهم مجموعة لغوية واحدة بعكس

---

(١) انظر المصدر السابق ص ١٨

(٢) نفس المصدر والصفحة

(٣) A short outline of Protistant Missionary work in southern Sudan P. 5

(٤) التبشير والسياسة الاستعمارية فى جبال ص ٢٧

مجموعة الدلنج ، فإنها مفككة لا توجد بينها روابط مشتركة سوى اللغة العربية ، وأكثرهم مستعربون ومنهم مسلمون وإداراتهم الأهلية غير مستقرة[1]، لكل هذه الأسباب حطت الكنيسة الانجليزية رحالها فى (سلارا) لتكون مقرها لأنها مقر سلطة النيمانج ، وقدمت الحكومة مبلغا من المال وقدره ٨٨٥ جنيها للخدمات التعليمية ، وهكذا تأسست محطة سلارا بين النيمانج سنة ١٩٣٥ ثم أسست محطة (كاتشا) سنة ١٩٣٩[2] وكان هدفها الأول محاربة الإسلام ولغته متخذة النصرانية وسيلة لتحقيق هذا الهدف ولذلك نجدها أهدرت وقتا طويلا ١٩١٢-١٩٢٩م دون أن تفتح مدرسة تعليمية واحدة حتى ولا مدرسة أحراش وكان مع ما أعطته من المال مقابل ذلك ١٧٠٠ جـ قدم لها من عرق دافعى الضرائب دعما للتعليم مما اضطر (نيوبولد) إلى التفكير فى فتح مدرسة حكومية (بسلارا) وكتب بذلك إلى مسئول التعليم فأيد الفكرة ، ورأى مسئول التعليم أن يستشير C.M.S. قبل أن يعلن القرار فوافقت على الفكرة بالشروط التالية:

١- أن تكون المدرسة الحكومية وثيقة الصلة بالإرسالية

٢- أن يكون الاتصال بالإدارة الحكومية عن طريق الإرسالية.

٣- أن يكون سكن الطلاب داخليا تحت إشراف الإرسالية.

٤- أن تكون هيئة التدريس تحت رقابة الإرسالية.

٥- أن يترك للإرسالية تدريس الدين والأخلاق.[4]

وحضر للمنطقة فريق يتكون من أربعة قسس كان من أشهرهم دكتورة ا.و.بورن ودكتور كير ، فقاموا بجولة استكشافية فى غرب الدلنج فى سنة ١٩٣٤[5] ، فأسسوا محطتين تنصيريتين فى منطقة النيمانج محطة (سلارا) عام ١٩٣٥ ثم (كاتشا) سنة ١٩٣٩ ثم شرعت بعد ذلك فى مجال التعليم الأولى والأوسط وتدريب المعلمين ، وتعتبر مدرسة (كاتشا) الوسطى المدرسة التى كان لها أكبر دور فى عملية التنصير لأنها استقطبت التلاميذ من أماكن متعددة

---

(١) A short outline of Protistant Missionary work in the Southern Sudan P. 5

(٢) Ibid P. 5

(٣) انظر التبشير والسياسة الاستعمارية فى جبال النوبة ص٣٩

(٤) انظر التبشير والسياسة الاستعمارية ص ٣٦/٣

(٥) A short outline of Protistant Missionary work in the Southern Sudan P. 5

بما في ذلك منطقة الجبال الشرقية التى تعمل فيها .S.U.M لعدم وجود مدرسة وسطى بالمنطقة كلها سواها ،وفى الخمسينيات اضطرت السلطات إلى إدخال الدين الإسلامى لمدارس الإرساليات لكثرة التلاميذ المسلمين[١] بها ولضغط أوليائهم على السلطة ومطالبتهم بإدخاله.

العودة إلى الحرف العربى :

عندما عين دوجلاس نيو بولد مديراً عاما لمديرية كردفان سنة ١٩٣٤ وكان مضغوطا عليه من جهات متعددة بتغيير الحرف الرومانى إلى الحرف العربى فأسرع إلى عقد مؤتمر صغير ضم أعيان المنطقتين الشرقية والغربية لجبال النوبة مع ممثلى الإرساليات وموظفى الحكومة ، وبعد المناقشة كان رأى الغالبية أنه لابد من تدريس العربية بحروفها بدلا من الحرف الرومانى، وقبل أن يقدم على كتابة التقرير النهائى فى هذا الأمر كان لابد له أن يوفد مستشاره التعليمى ليتشاور مع الإرساليتين ،فكان رأى إرسالية السودان المتحدة غير واضح مع إصرارها على استعمال الحرف الرومانى بمدارسها .

أما إرسالية التبشير الكنسية فقد أبدت تخوفها من نشر الإسلام باستعمال الحرف العربى[٢] ،واقترحت تدريس الإنجليزية بدلا عن العربية ،وكان ما ذهبت إليه إرسالية التبشير الكنسية هو رأى (جيلان) الذى سبق له العمل على قمة الجهاز الإدارى بالمنطقة وأصبح هو المسئول الإدارى الثانى فى الجهاز المركزى ،وحتى ذلك التاريخ لم يغير رأيه نحو السياسة اللغوية ،التى كان هو مهندسها - ولكنه أصبح أمام الأمر الواقع،فاضطر إلى عقد مؤتمر بمكتبه بالخرطوم بتاريخ ١٩٣٥/١٢/٧ فرأى المؤتمر أنه لا مفر من الرجوع الى تعليم اللغة العربية بالحرف العربىفوقع القرار على الإرساليتين موقع الصاعقة ولكنهما أصبحتا أمام الأمر الواقع فقررتا أن يلم مبشروهما قبل الانضمام للعمل بأى محطة من محطاتهما باللغة العربية - هذا بالنسبة للمنتمين الجدد - وكان القرار فى نظرهما تراجعا رئيسيا من الحكومة عن سياستها التى (كانت تهدف إلى خلق ثقافة نوبية تحت تأثير المسيحية)[٣] لأن الانتشار غير المقيد للعربية لا يكون دعاية إسلامية فقط بل يعوق محاولات النصارى حكاما ومنصرين فى بناء حضارة نوبية على غرار ما أشار إليه (جيلان) سابقا ،وللأسف الشديد أن المسلمين كانوا فى غفلة من هذا كله كما

---

(١) Ibid P.5

(٢) انظر التبشير والسياسة الاستعمارية ص٣٢

(٣) The Christian approach to Islam in the Sudan P. 39

أشار الى ذلك سكرتير الكنيسة الانجليزية بقوله : (وفي السنوات الأخيرة عدلت الحكومة عن سياستها بسبب خوفها من الاتهام بتحيزها للمسيحية ،على الرغم من أن المسلمين الشماليين لم يهتموا مطلقاولم يشغلوا أنفسهم بالسياسة الوارد ذكرها).[1]

وهكذا تضافر الاستعمار والتنصير لاقتلاع جذور الإسلام ولغته من المنطقة وغرس النصرانية ،ولكن الله غالب على أمره.

---

(١) Ibid P. 5

الفصل الرابع

التبشير بالتطبيب

المبحث الأول : التبشير بالتطبيب في الشمال

تعتبر الصحة من أكبر نعم الله سبحانه وتعالى على عباده بعد الإيمان به سبحانه ،ولقد قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذى يرويه ابن عباس رضى الله عنهما : (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ)[1] وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذى يرويه عبيد الله ابن محصن رضى الله عنه: (من أصبح منكم آمنا في سربه[2] معافى في جسده ،عنده قوت يومه فكأنما حيزت[3] له الدنيا بحذافيرها)[4] .

والذى خلق الخلق خلق الداء والدواء ،وخص بعض خلقه بمعرفته ،وكان نصيب الغرب من هذه المعرفة أكبر في الفترة الأخيرة ،لغفلة المسلمين وتخليهم عن أسباب القوة التى وجههم إليها دينهم.

وفى أواخر القرن التاسع عشر ظهر الطب كوسيلة تبشيرية مساعدة ،وتكونت الجمعيات الطبية بأوربا وأمريكا لتأهيل الأطباء والممرضين لمراكز التبشير ومن ثم أصبحت الإرساليات العلاجية Medical Evangelestic Missions من وسائل التبشير الهامة ،خاصة في المناطق التى يمارس فيها العلاج بطريقة بدائية ،والهدف من هذه الإرساليات يوضحه د . كوك الذى أنشأ الإرسالية الطبية في منجو بأوغندا بقوله: (إن هدف هذا النوع من البعثات التبشيرية الحديثة تأكيد الصلة المشتركة بين أفراد الأسرة العالمية ثم تمهيد الطريق للإنجيل للوصول إلى قلوب بنى البشر، وأخيراً معالجة الناس من الأمراض)[5]

ويقول جوليوس وشتر: (يمكن للطبيب عن طريق العلاج في المستشفيات أن يخاطب المسلمين بكلام لو سمعوا بعضه في مكان غير المستشفى ،ومن شخص غير الطبيب لامتلأوا حنقاً وغضباً)[6] .

ويتضح من تصريح هذين المبشرين أن العلاج ليس غاية في ذاته ، وإنما هو وسيلة لتوصيل الإنجيل إلى القلوب.

---

(١) أخرجه البخارى ١١ /٢٢٦ باب ما جاء في الرقاق ج ١٢ ٦٤١٢ ، والترمذى في الزهد ٣٧٧/٣ ،حديث (٢٤٠٥)و(٢٤٠٦) وغيرهما .

(٢) السرب: المال .

(٣) حيزت: جمعت وأعطيت.

(٤) رواه الترمذى في سننه باب الزهد ٤ /٥باب رقم ٢١ حديث رقم (٢٤٤٩)والبخارى في الأدب المفرد رقم ٣٠٠١ باب من أصبح آمنا

(٥) وانظر التبشير النصرانى ص١٦٢ R. Cook, Medical Mission C.M.O. Vol. LXIV P. 148

(٦) J.Richer, The History of the Protiestant Missions in the Neareast New York 1910 P.252

ويقول د. أرهارس طبيب إرسالية التبشير في طرابلس الشام في مؤتمر القاهرة سنة ١٩٠٦

(يجب على طبيب إرساليات التبشير ألاّ ينسى ولا في لحظة واحدة أنه مبشر قبل كل شئ ثم هو طبيب بعد ذلك)[1]

فالإرساليات الطبية مصائد لاقتناص الناس عامة والمسلمين خاصة والعلاج فيها بمثابة الطعم في مصيدة الصائد ليوقع فريسته في حبائله.

يقول دكتور هاربر أحد أعضاء المؤتمر الآنف الذكر: (يجب الإكثار من الإرساليات الطبية لأن رجالها يحتكون دائما بالجمهور، ويكون لهم تأثير على المسلمين أكثر مما للمبشرين الآخرين، واستشهد لقوله هذا بأن طفلة مسلمة عنى المبشرون بتمريضها في مستشفى مصر القديمة ثم ألحقت بمدرسة البنات البروتستانتية في باب اللوق، وكانت نهاية أمرها أن عرفت كيف تعتقد في المسيح بالمعنى المعروف عند النصارى)[2] ومن الجدير بالذكر أن الدكتور هاربر هذا هو أول طبيب مبشر يصل السودان بعد سقوط أمدرمان تحت الاستعمار الإنجليزي حيث صحب جوينى أول مبشر لجمعية الكنيسة الإنجليزية، وتحت ضغط هؤلاء المبشرين سمح كتشنر بمزاولة التبشير عن طريق التطبيب والتعليم في المدن التي يوجد بها مسيحيون مع عدم السماح لهم في البداية بمخاطبة المسلمين بالمسيحية، ففتح دكتور هاربر كوخا صغيرا من الطين في طرف مدينة أمدرمان إلاّ أن سمعته كناقع سم، وهي السمة التي دمغ بها الخليفة عبد الله جميع الأطباء في عهده - حالت دون تنفيذ رغبته فعاد لمقر عمله بالقاهرة، وخلفه الدكتور شورلي هول[3] Chorley Hall الذي خففت في عهده الإجراءات الخاصة بمنع التبشير بين المسلمين، ولقد عبر هول في مجلته عن مدى التزامه بسياسة الحكومة الرامية إلى عدم الخوض في مسائل الدين عند حديثه مع المسلمين، بالرغم من أن قلبه كان يحترق من تفويت فرصة ثمينة للدعوة لعيسى المسيح، كانت تسنح له على الدوام[4] ومما لا شك فيه أن هذه الإرساليات التبشيرية المساعدة وإن لم تدخل المسلمين في حظيرة النصرانية كان لها أثرها في تخفيف حدة كراهية المسلمين للمبشرين، وتقريب الشقة بينهم وهو ما أمله د. كوك.

---

(١) الغارة على العالم الاسلامي ص ٩١/٩٢

(٢) المصدر السابق ص ٦٠

(٣) The Christian approach Islam in the Sudan P. 13

(٤) Ibid P.14

مستشفى الإرسالية بأم درمان :

اتفق المبشرون الإنجليز والأمريكان بالسودان على توزيع العمل تفاديا للتضارب وإضاعة الجهد ، ففي أم درمان تركت مهمة العمل الطبي وتعليم البنات لجماعة الكنيسة التبشيرية بينما اضطلعت البعثة الأمريكية بمهمة تعليم البنين ،لذلك اتخذت جمعية C.M.S. من مدينة أم درمان مركزا لنشاطها لأن مدينة الخرطوم مع كونها مقرا للحكومة إلا أن السودانيين - في ذلك الوقت - كانوا يعتبرونها مدينة الأجانب.

أما مدينة أم درمان التي كانت نتيجة لتطور معسكر المهدى الذى اتخذ منها قاعدة لحصار الخرطوم سنة ١٨٨٤ ،ثم اتخذها عاصمة له بعد الفتح فاشتهرت بالبقعة المباركة واتخذها المسلمون معقلا فأصبحت ملتقى طرق قوافلهم من مختلف أنحاء السودان المفسيح ، وسكانها يمثلون جميع قبائل السودان وشعوبه وفيها يجتمع التجار لتسويق ما عندهم من سلع ، لهذه المزايا مجتمعة اعتبرها المبشرون مركزاً استراتيجياً للعمل الاجتماعي التبشيرى وسط المسلمين . يقول تريمنجهام: (إن العمل الطبي لجمعية C.M.S. كوكالة إنجيلية قد شب عن الطوق وتجاوز صعوباته الأولى ،وضرب بجذوره في عمق حياة المدينة .فمستشفى أم درمان الذى تأسس في سنة ١٩١٢م جعله الدكتور (ادموند لويد) بجهوده مركزاً للنشاط التبشيرى ،فجعل به ثلاث أقسام:للرجال،والنساء،والأطفال ،ويسع بداخله خمسة وسبعين سريراً وبه قسم للمرضى الخارجيين مجهز بثلاث عيادات ،وبه عيادة لمرضى البرص،كما بنى بداخله ملجأ (سير لى استاك) التذكارى للفقراء والمكفوفين ،وبه ما بين الثلاثين والأربعين نزيلا ،وبالإضافة إلى ما ذكر يشرف المستشفى على مائة وخمسين نزيلاً من فقراء أم درمان يوزع لهم المعونة التي كانت تعتمدها لهم الحكومة.[(١)]

فالحكومة تريد أن تذل الناس للمبشرين وتظهر المبشرين بمظهر المحسنين الرحماء ليسهل اصطيادهم ووقوعهم في حبائل النصرانية ،وبجانب مستشفى أم درمان أقام المبشرون مستوصفا بأبى روف في الجزء الشمالي الشرقي لأم درمان سنة ١٩٢٦ ،يضم مركزاً تبشيرياً ودارًا للأطفال تحت إشراف ممرضة إنجليزية يعاونها ممرضات سودانيات ،ويزور هذا المستوصف طبيب بانتظام ،وشيدت بداخله مدرسة ابتدائية للبنات فأصبحت هذه المباني مركزاً لتجميع

---

(١) The Christian approach to Islam in the Sudan P. 20

الأسر فى الحى يؤثر على جميع العائلات،كما أنشئ مركز مماثل بأبى (كدوك) جنوب أمدرمان سنة ١٩٤٠ تحت إدارة ممرضة ،وكان فى البداية مركزاً لرعاية الطفولة ،ومصحة للنســــاء والأطفال ،ثم زادت أوجه نشاطه فشملت ضروباً أخرى من النشاط فى أوساط النساء والبنات.(١)

وكان المبشرون بجانب العلاج يعرضون التعاليم النصرانية بأساليب مبسطة وحذر شديد فى مجتمع المسلمين ، يقول تريمنجهام: (فالمرضى يأتون إلى المستشفيات وهم يعلمون مسبقاً أن العلاج فيها يكون مصحوبا بإقامة الصلوات المسيحية بطريقة حذرة ،كما أن الإرساليات تقوم بما تقوم به بوعى دون أن تؤذى شعور المرضى المسلمين ، وهذا الاتجاه يلتزم به بدقـــة مستشفى .C.M.S الذى برهن على نجاحه بالمكانة الرفيعة التى يتبؤوها فى المجتمع وتفهم الناس العميق للخدمات الصحية التى ترتكز على خلفية روحية ،والتى تقدم لهم على أنها جزء من طريقة الــعلاج)(٢).

هذا بالإضافة إلى مستشفى الراهبات(دار سنت ميرى) للولادة والتمريض الذى أسسته جمعية أخوات فيرونا بالخرطوم حيث يقوم بخدمات الولادة والتمريض وكذلك مستشفى الولادة بأمدرمان الذى يقوم بالتطبيب والتوليد ،ويستمر فيه التبشير عن طريق العلاج أربعا وعشرين ساعة ،ولم يقتصر نشاط الراهبات على مستشفيات التبشير فحسب بل التحق كثير منهن بالأقسام المختلفة من مستشفيات الحكومة.

---

(١) Ibid P. 21

(٢) Ibid P. 30,31

المبحث الثاني
التبشير بالعلاج في الجنـــــوب

لم يول المبشرون بالعلاج في جنوب السودان ما أولوه إياه في الشمال علما بأن الجنوب أشد حاجة للعلاج من الشمال لانتشار الأمراض فيه. يقول اوليفر اليسون :

(إن القرار ليس بمنح الإرساليات الحرية في فتح مدارس القرى، إنما بفتح خدمات طبيـــة بسيطة من أغراضها تخفيف المعاناة وتأسيس الاعتبارات الوقائية حيث تصل نسبة الوفيـــات إلى درجة مرعبة بسبب الجهل بأبسط قواعد الصحة)[1].

والسبب الذي صرف المبشرين عن التبشير بالعلاج هو ارتفاع تكاليفه فلا داعـــــى لتجشمها مع إمكان تنصير عدد أكبر بوسائل أيسر وأقل تكلفة. وعلى الرغم من إلحاح الإداريين البريطانيين وعلى رأسهم لورد لويد المندوب السامي البريطاني بمصر، وونجت الحاكم العام للسودان، وبعض المبشرين أمثال جيمس دمبس الذي عمل في مصلحة الصحة، بأن الجنوب في حاجة إلى مبشرين أطباء أكثر منه إلى وعاظ فصحاء أو رجال دين أكفاء، فإن الإرساليات لم تستجب لهذا التوجيه فاكتفت بإنشاء مستوصفات صغيرة لعلاج التلاميذ والعاملين بمراكزها وحتى هذا القدر البسيط كانت تشرف عليه الحكومة، وتزوده بالممرضين والأدوية مجاناً. فظل ضغط الحكومة على الإرساليات متواصلاً لإنشاء مستشفى في المناطق التي يتفشى فيها مـرض النوم والجذام، وهي مناطق الزاندي واقليم اللادو، وحاولت اقناع المسئولين عن إرساليـــة غردون التي تبسط نفوذها على هذه المنطقة، وبعد الحاح متواصل انتدبت هذه الإرساليـــة د. ستونز(R.Y. Stoms) من مستشفى مصر القديمة سنة ١٩١٤م لزيارة المنطقـــة فجاء تقريره عكس ما كانت تطلبه الحكومة، فظلت هذه المناطق خالية من أي مستشفى حتى عام ١٩٢٠ حتى أُنشئ مستشفى لوى(Lui) في وسط إقليم المورو الذي كان يتفشى فيه مرض النوم والجذام، وأعانته الحكومة بمبلغ خمسين جنيها وسبعين بطانية وأدوية أولية للمعسكــر الذي أنشأه د. فريزر(Fraser) بالقرب من المستشفى، وضم المعسكر مصحات القريـــة والكنيسة والمدرسة ومنشآت اجتماعية أخرى، أصبحت فيما بعد نماذج لمناطق تم اختيارهـــا

---

(١) Oliver Allson, Missions and Churches P.2

بواسطة د. فريزر والزعماء المحليين وفي سنة ١٩٣٩م بلغ عدد هذه المراكز واحداً وعشرين مركزاً في منطقة المورو - وتوفي فريزر ودفن في (لوى Lui) وزيادة على ما تقدم أصبح مستشفى لوى مركزاً لتدريب الكوادر للعمل فيه وفي المصحات الأخرى(١) . وحظى بمساعدات نقدية وعينية من حكومة السودان والمنظمة البريطانية لمكافحة الجذام مما أكسبه شهرة واسعة.(٢)

وقد كتب سمر هيز W.Summorhayes المسئول عن مستشفى منجو بأوغندا عند ما زار لوى في نوفمبر سنة ١٩٣٤ الآتي :

(إنه في نظري المثل الأعلى للعمل التبشيري العلاجي الذي يربط بين الروحانية العلاجية وسعة الأفق للتطلع الى المستقبل وعليه فإن الكنيسة والمدرسة والمستوصف تشكل معا وحدة مترابطة للكنيسة المسيحية في كل مركز تبشيري)(٣)

ويقول (لافترك) طبيب مستوصف يامبيو: (إن التقرح هو المرض الرئيسي الذي يتردد من أجله المرضى على مستوصف يامبيو حيث يقوم كل مريض بتشييد (عشة) من القش أو يشيدها له أقاربه ليقيم فيها ،ووجوده بها يعني وجود أسرته بجواره بالقرب من مستوصف الإرسالية حتى يتم شفاؤه ، وهذا يعني أن عددا كبيرا ستتاح لهم الفرصة لسماع تعاليم المسيح حيث يقام الوعظ مرتين يوميا عن طريق أحد أفراد القبيلة الذين تشبعوا بالمسيحية ،والمشرف على علاج هذا النوع من المرض. ويبقى المريض عادةنحو شهرين وبعد شفائه تحرق (العشة) وتبنى أخرى لحالة جديدة)(٤)

ولقد استغل المبشرون حاجة الناس للعلاج فأقاموا معسكرات المجذومين وانتهزوا الفرص لمخاطبة جميع الطبقات ،لأن إرسالية غردون أنشأت مشروعا عرف باسم (معسكرات رؤساء القبائل للجذام) وتقضي الفكرة أن يقوم المسئولون عن الإرسالية بتدريب زعماء القبائل للعناية بمرضاهم ،وإنشاء قرى صغيرة لهم بالقرب من الأماكن الرئيسية بدلا عن الأماكن النائية ليصبحوا بالقرب من أهليهم الذين يمدونهم بمتطلباتهم المختلفة وبجانب هذا أقامت إرسالية غردون مستوصفين صغيرين أحدهما في (لير) سنة ١٩٣٢ ، وثانيهما ب(جيابور) سنة ١٩٣٨ ،

---

(١) مؤتمر درم التسجيلي ص٣ Missions and Churches P.3

(٢) انظر التبشير النصراني ص١٦٦/١٦٧

(٣) C.M.S.Annual Report 1935-6 P.144
وانظر التبشير النصراني ص ١٦٧ .

(٤) C.M.S.Annual Report 1926-7 P.108
وانظر التبشير النصراني ص ١٦٧ .

وكان لها ثمانية مستوصفات صغيرة فى مراكزها المختلفة وكانت مخصصات الأطباء والأدوية والمستلزمات العلاجية ومعظم تكاليف مراكز الإرساليات بالجنوب من إسهام الحكومات.(١) ولم يهتم الروم الكاثوليك بالنواحي الصحية إلاّ مؤخرا عند ما اكتشف د . باز بعض حالات مرض النوم فى طمبرة سنة ١٩٢٧ فأنشأ معسكراً فى طمبرة لعزل المرضى أولا ، ثم حول المعسكر مؤخرا الى (يوبو Yubo) .

أما منطقة جبال النوبة ،فلم تكن أحسن حظا من الجنوب ،بل كانت بالتأكيد أسوأ حظا . وقد بدأت التبشير بالعلاج فى هذه المنطقة جمعية S.U.M. وكانت بداية ضعيفة ،فأقامت عيادات بسيطة فى مراكزها الرئيسية ،وعند ما زار ولسون كاسكرتير عام C.M.S. منطقة جبال النوبة سنة ١٩٣٣ أثمرت زيارته دعوة حكومة السودان لإرسالية C.M.S. لتعمل فى غرب جبال النوبة تاركة شرقها لجمعية S.U.M. وبعد قيامها برحلة استكشافية فى غرب الدلنج سنة ١٩٣٤ أسست محطة سلارا بين جبال الميانج سنة ١٩٣٥م وبدءوا عملا طبيًا فى مؤسساتهم التعليمية ،ثم نظموا زيارات صحية للقرى المجاورة.(٢)

وما زال التبشير بالعلاج من أهم وسائل المبشرين فى جميع أنحاء السودان المختلفة ، وفى كثير من المستوصفات والمستشفيات التبشيرية كمستوصف الحاج يوسف ،وكمستشفى الراهبات بالخرطوم حيث يتم الكشف والحجز للولادة بالنسبة للوافدين وسكان المناطق المتخلفة المتضررين بالقحط والتصحر مجانا ،بينما تبلغ تكلفة العلاج بالنسبة لغيرهم مئات الجنيهات(٣) بل أصبحت فى هذه الآونة الأخيرة يتعدى نشاط المبشرين مستشفياتهم إلى مستشفيات الحكومة نسبة لقلة الإمكانات وتردى العمل وشح الدواء بهذه المستشفيات . وتشهد على ذلك المقابلة التالية لأخصائى الباطنية بمستشفى كادقلى بجبال النوبة :

---

(١) انظر التبشير النصرانى ص ١٦٨

(٢) A short outline of Protestant Missionary work in the Southern Sudan P.5

(٣) انظر التبشير فى العاصمة ص ١٤

اسم الطبيب : الدكتور عبد الكريم علي محجوب ، أخصائي الباطنية ، يقول : إن القسس يحضرون إلى المستشفى يتفقدون المرضى ، وأحيانا يقومون بصرف الأدوية النافعة والضارة معا للمرضى تودداً إليهم ، فذات يوم أثناء مروري في بعض عنابر الباطنية التي أشرف على علاج المرضى بها ، وقفت على طفل مصاب بالتهاب رئوي فوجدت والدته تعطيه دواء لم أصرفه له فسألتها من أين هذا ؟ فقالت : من الكنيسة ، فقلت : فلماذا ذهبت إليها ؟ فقالت : لم أذهب وانما أحضرته لي الراهبة ، وكان الدواء شرابا في قارورة سميات لعلاج حب الشباب ، فأصدرت أمراً لجميع رؤساء عنابري بالمستشفى بمنع دخول أي شخص من الكنيسة على المرضى إلاّ في ساعات الزيارة الرسمية ، ولا يحق له اصطحاب أي نوع من الغذاء أو الدواء حين زيارة المرضى ولم يمض على هذا القرار إلاّ بضع دقائق حتى وجدت القسيس المسئول أمام مكتبي فقال لي : سمعت بأنك منعت من دخول العنابر لوجود خطأ في الدواء إلاّ أنّ الدواء صحيح ولكن لم نجد قارورة فارغة إلاّ قارورة دواء حبوب الشباب ولذا حصل الإشكال فجئت معتذراً . فقلت له : إني لست عدواً للكنيسة ولكني أعادي الأشخاص الذين يتخذون مثل هذا الأسلوب وأحذرك بأني لو علمت بأن أي أحد من الكنيسة تعدى حدوده وصرف دواء لمريض في المستشفى ستكون أنت وهو أمام القضاء . لقد اتخذت هذا الموقف الصارم بدافع الحفاظ على مثل هذا الطفل على الرغم من علمي بأن الكنيسة أحضرت مولداً كهربائيا للمستشفى نسبة لقطع التيار الكهربائي في كثير من الأحيان ، ولعلمي كذلك بأن الدواء غير متوفر بصيدلية المستشفى ، وأحيانا لا يوجد بالصيدليات الخصوصية فنضطر إلى إرسال المريض إلى صيدلية الكنيسة حيث تتوفر جميع الأدوية وتصرف بأسعار زهيدة بل بالمجان للفقراء والنصارى ، والغرض الأول تبشيري لربط المريض بالكنيسة كما يفعلون بالنسبة لجميع المحتاجين فيقدمون لهم المال والكساء ويعطون صغارهم الحلوى واللُّعب ويبتسمون لهم من هنا تتوطد الروابط بين الكنيسة والمواطن)(1)

وهكذا ظل التنصير يستغل الوسائل المؤثرة على المجتمع ، من تعليم وتطبيب وغير ذلك حتى الاعلام استغله لينفث من خلاله سمومه .

---

(1) أجريت المقابلة في مايو ١٩٨٣ بمكتب الدكتور اخصائي الباطنية بمستشفى كادقلي .

الفصل الخامس

الاعلام التبشيرى

يعتبر الإعلام من أمضى الأسلحة التى استعملت فى الغزو الثقافى الحديث وأصبح اللسان الزلق لترويج الأفكار المستحدثة والمذاهب الوضعية بين الناس،وكان النصارى الصليبيون من أكثر الناس إدراكا لأهميته ،وأسبقهم لاستخدام وسائله المختلفة فى مجال التنصير وحرب الإسلام ،وما زالوا يسيطرون على الكثير من وسائل الإعلام فى أنحاء العالم .

قال زويمر:عن مؤتمر القاهرة : (إنه كشف الحجاب عن أمور كثيرة كانت مهملة ومنسية ،وحث الكتّاب على وصف أعمال المبشرين فى بلاد الإسلام واستنجد بالكنائس واستصرخها فخاضت الجرائد والمجلات فى مسألة الانقلاب العثمانى والانقلاب الفارسى والنهضة العربية ،وحركة الجامعة الإسلامية ومكانها من الحالة السياسية الحاضرة ،وكل هذه الكتابات التى نشرتها الجرائد أبانت عما يجب أن نعمله فى العالم الإسلامى ،وصنفت الكتب الكثيرة والتى يراد بها تعريفنا ببلاد الإسلام وحالات المسلمين مثل كتاب(الشرق الأدنى والشرق الأقصى) الذى طبع منه خمس وأربعون ألف نسخة ، ومثل كتاب(إخواتنا المسلمات) وكتاب(العالم الإسلامى) الذى طبع منه خمسون ألف نسخة وأكثر من هذه الكتب نشر بلغات متعددة .

وكتب المبشرون فى هذا المدى عشرون كتاباً بحثوا فيها المعضلة الإسلامية من كل أوجهها وكلها مبنية على بحث واستقصاء ، ومن هذه الكتب كتاب(دين الإسلام)و(الشعائر الدينية) و(الإسلام والنصرانية فى الهند والشرق الأقصى)و(صليبيو القرن العشرين)و(مصر والحرب الصليبية)و(الإسلام فى الصين)وكتب ببترخت الألمانى تقريراً عن حالة المؤلفات التى صنفت لتبشير المسلمين ، وأبان أن دائرة انتشار هذه المؤلفات قد اتسعت جدا باللغات الثلاث التى هى أهم اللغات الإسلامية ،ويعنى بها العربية والفارسية والأردية ،وأن قسماً كبيراً من هذه المطبوعات خاص بالبلاد العثمانية ،ومنها ما تكرر طبعه ،منها ماهو مكتوب بأسلوب عصرى صار يفيد التبشير منذ أخذ العالم الإسلامى يحتك بالعلوم العصرية ، وأهمية هذه المؤلفات كبيرة فى الهند لأن الذين يكتبونها هم مسلمو الهند[1] المتنصرون مثل عماد الدين الذى حصل من مدارس انجلترا على لقب دكتور فى اللاهوت)[2] .

---

(١) المتنصرون من مسلمى الهند (المرتدون عن الإسلام)

(٢) الغارة على العالم الاسلامى ص١٥٩/١٦٠

إذاعات التنصير: C.B.N.

يوجد في العالم اليوم أكثر من ٣٧ مؤسسة وهيئة إذاعيةتنصيرية دولية ،بعضها يمتلك محطات كاملة ، وبعضها الآخر يستأجر ساعات بث من محطات دينية أو تجارية لبث البرامج والرسائل النصرانية ،ويعتبر راديو الفاتيكان أهم هذه الإذاعات التنصيرية في العالم وكان (ماركوني)[1] قد أهدى البابا مرسلة إذاعية بموجة قصيرة وذلك سنة ١٩٣١ لتكون نواة لأول إذاعة نصرانية في العالم ،وتبث الإذاعة الآن برامجها عبر ست موجات قصيرة تبلغ طاقتها خمسمائة كليوات وتصل هذه البرامج إلى كثير من أنحاء العالم بثلاثين لغة. وتقوم جمعية التنصير العالمية ، وهي جمعية بروتستانتية مقرها أمريكا بإدارة (صوت الإنديز) في الاكوادور ،وتملك هذه الإذاعة (صوت الإنديز) أحدث الأجهزة والمعدات بما فيها مرسلات إذاعية بثمانية موجات قصيرة طاقتها خمسمائة كيلووات ،وتدير جمعية التنصير الدولية محطات (راديو حول العالم) وتعتبر هذه الجمعية مؤسسة ضخمة مقرها الرئيسي في نيوجرسي وتعتمد في انتاج برامجها على مراكز انتاج محلية تابعة لها من المناطق المستهدفة. وفي لبنان تقوم الطوائف المسيحية بإدارة العديد من المحطات الدينية النصرانية ومن ضمنها إذاعة صوت(الأمل) التي بدأت بتمويل أمريكي ،وكان سعد حداد قبل موته يدير بمساعدة بعض الكنائس الأمريكية محطة تلفازيةتنصيرية أطلق عليها (نجمة الأمل) ولما ضاقت موارد ها المالية اشترتهاشركة أمريكية مسيحية هي شركة C.B.N (شبكة الإذاعات المسيحية)وأطلقت على المحطة اسماً جديداً هو(تلفزيون الشرق الأوسط)وتوسعت في برامجها التنصيرية الموجهة إلى المسلمين في لبنان.[2]

ومن بين الإذاعات التنصيرية الموجهة إلى العالم والسودان بصفة خاصة إذاعة علوة وهذا الاسم قصد به إحياء مملكة علوة التي قامت على انقاضها سلطنة الفونج الإسلامية وما زالت النصرانية عالميا ومحليا تحلم بقيامها.[3] وهذه الإذاعة تديرها الكنيسة السودانية من

---

(1) مخترع المذياع

(2) من محاضرة للدكتور عبد القادر طاش رئيس قسم الاعلام بكلية الدعوة بجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية ألقاها مساء الأحد ٢٧ رجب ١٤٠٦ هـ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة وكانت بعنوان (اضاءات حول الإعلام الإسلامي).

(3) عند ما سئل الأب فليب عباس غبوش في المقابلة التي أجرتها معه صحيفة الصحافة السودانية عقب المؤامرة العنصرية قائلة له : (في السياسة الخارجية من صراع ميثاقكم الالتزام بميثاق الوحدة الأفريقية؟ وأين منظمة الدول العربية؟ والسودان أفريقي عربي ؟ فأجاب الأب بانفعال وعصبية (هذا اقول مردود والسودان أفريقي فقط ولا يمكن أن نكون بوجهين ووجهنا أفريقي سوداني . وسنطلق على السودان (علوة أفريقية الجديدة)انظر الصحافة في عددها الصادر بتاريخ ٢٩ من جمادى الاول ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦/٢/٨ .

منروفيا بليبيريا ، وتسمى كذلك بإذاعة الحب الأبدى يكتسح أفريقيا ،وهى موجهة إلى العديد من الدول الأفريقية ،[1] وساعة الإصلاح التى عنوانها : (الخرطوم ، ص.ب. ٢٢٠٠) ويديرها القس بسام ميخائيل ،وتبث برامجها الى العالم العربى من عدة محطات عالمية ،هى جمهورية السيشل بالمحيط الهندى ونيوقوسيا بقبرص،ومونتى كارلو . ومحطة ترانس وورلد فى مونتى كارلو ومحطة اذاعة (H C J B) بمدينة كيتو عاصمة الاكوادور بأمريكا الجنوبية .

والتبشير عن طريق البث الاذاعى موجه إلى المجتمعات الرعوية المترحلة التى لا يصل إليها المبشرون ،وفى المجتمعات التى يخشى المبشرون فيها من مغبة الاتصال المباشر ، وقد بينت الدراسات التى قامت فى هذا المجال أن هناك أكثر من خمسين إذاعة كنسية أفريقيا وحدها تبث برامجا مسيحية متخصصة للقبائل الإفريقية بمختلف لغاتها ولهجاتها كالفوتقدى ،والسواحيلى ،والأرومو ،والبوسا ، وتستعمل الموسيقى والإيقاع والأغانى والأناشيد والألحان المحلية .

وأشهر هذه الإذاعات (صوت البشارة) التى انتقلت من أديس أبابا إلى الجابون ، وإذاعة (سلبسى) بسيراليون ،وإذاعة الحب الأبدى يكتسح أفريقيا .

وتوجد كذلك إذاعات صغيرة ومحطات لغوية فى (فاوندرى) بالكاميرون ،و(جوس) بنيجريا و(اروشا وموشى) بتنزانيا . كذلك استفاد النصارى من الوسائل الفنية الحديثة كأشرطة الفديو والكاسيت والسينما الجوالة لعرض القصص ذات المدلول النصرانى .[1]

أما المجتمعات الحضرية فغزوها بالمنشورات النصرانية .

---

(١) من محاضرة الدكتور عبد القادر طاش. مرجع سابق .

(٢) أوضاع الاقليات المسلمة فى أفريقيا ص ١٨ .

الكتب والنشرات :

لقد قامت الكنيسة بنشاط إعلامي منذ زمن بعيد فأنشأت داراً ضخمة في قلب العاصمة على شارع القصر الجمهوري أطلقت عليها دار النشر المسيحي ،وعندما حرضت الكنيسة أبناء الإقليم الجنوبي الذين خرجوا من الكنائس ومن دار حزب سانو وأحرقوا المنشآت والسيارات عقب ثورة اكتوبر سنة ١٩٦٤ كانت دار النشر المسيحي ضمن المنشآت التي أحرقت ولا ندري هل أحرقت للتعمية بصرف الاتهام عنهم ، أم أحرقت رد فعل ؟ وفي السنوات الأخيرة توسع نشاط الكنيسة في مجال الطباعة والتوزيع ،فالمطبوعات الكنسية على الأوراق الصقيلة المحلاة بالألوان الزاهية والصور الجميلة مع مراعاة تبسيط الأفكار وصغر الحجم لتسهيل القراءة .
والتوزيع بأسعار رمزية في الميادين الكبرى بالعاصمة والأسواق وعلى ظهور البواخر النيلية (١) وفي المعارض التي تقام بالجامعات والمدارس العليا وفي المكتبات العامة وخاصة دار الإصلاح شمال جامع الخرطوم الكبير حيث تتولى التوزيع فيها البيض الحسان لجذب الشباب كما يقوم أبناء المناطق المتخلفة ببيعها في الشوارع والمنازل بأسعار زهيدة وفي الغالب بالمجان ، وترسل كذلك هذه المطبوعات لكثير من طلاب المدارس في أنحاء السودان المختلفة (٢) وتحتوى هذه المطبوعات على الرسائل والكتب المقدسة وشروحها بشتى اللغات واللهجات المحلية واللغة العربية الفصحى والعامية كما تحتوى على قصص الأنبياء كما وردت في كتبهم وقصص الأطفال المقتبسة من كتب النصرانية كما تشتمل على الهجوم العنيف على الاسلام ونبيه وتشير الشكوك في عقيدته وشريعته وموقفه من قضايا المجتمع كقضية المرأة والرق .

---

(١) انظر التبشير المسيحي في العاصمة المثلثة ، ص ١٧ .

(٢) انظر الملحق رقم (٤) رسالة مبشر لطالب

(٣) انظر التبشير المسيحي في العاصمة المثلثة ، ص ١٧ .

ولقد عثرت سلطات الأمن السودانى على وكر من أوكار هذا النشاط تحت اسم (دار منظمة الشبيبة المسيحية) وهى منظمة تهدف أساسا لمحاربة الإسلام والحد من انتشاره، ولقد عثرت السلطات بدار هذه المنظمة على مئات الآلاف من الكتب ، والغريب فى الأمر أن تلك الدار كانت تعمل منذ سنوات بدون إذن من أى جهة رسمية فى الدولة، وظل يديرها عدد من الشباب الألمانى[1] ، لأن مركزها الرئيسى فى مدينة شرون دورق بالمانيا[2] .

نموذج لبعض عناوين الكتب التشكيكية التى توزعها المنظمة :

١- تنوير الأفهام فى مصدر الإسلام.
٢- الباكورة الشهية . بدون ذكر المؤلف.
٣- الانجيل فى القرآن . ⎫
٤- القرآن فى الإنجيل . ⎬ اسكندر جديد .
٥- الصليب فى القرآن والإنجيل ⎭
٦- شهادات أبناء السودان .

هذا بالإضافة إلى الكتب التى أخرجها كثير من القسس العاملين فى السودان والتى تركز على أن السودان كان دولة مسيحية وينبغى أن يعود إليها كما تجلى هذا المضمون فى كتاب (تاريخ المسيحية فى الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث) لمؤلفه الأب جوفيانى فانتينى والذى جاء فيه تحت عنوان لماذا هذا الكتاب قائلا : (الآثار التى اكتشفتها البعثات فيما بين ١٩٦٠-١٩٧٠ فى أرض بطن الحجر تعود إلى عصور ما قبل التاريخ ٢٠٠ق م-١٥٠٠م ولكن أجمل ما فى هذه الكنوز الأثرية وأغربها يعود إلى عصر المسيحية . . لذلك قررنا تأليف هذا الكتاب عن تاريخ المسيحية فى الممالك النوبية.

والكتاب فى حد ذاته رغم أنه من تأليف رجل غربى حائز على أعلى درجة علمية عالمية وهى درجة الدكتوراة جانب كثيراً من قواعد البحث العلمى الذى يدعو إليها الغربيون ، فملأ كتابه بالنقول الوهمية التى تؤيد خطته التنصيرية من غير أن يعزوها فى الغالب الأعم إلى كاتب أو كتاب . والعجيب أنه يبرر منهجه هذا بقوله: (ولم نتمكن كل مرة من الإشارة إلى اسم المؤلف وعنوان كتابه . ولا إلى الطبعة أو الصفحة التى نقلت عنها الأقوال لأسباب متعددة أولها أن القارئ لا يستطيع أن يتحصل بسهولة على هذه الكتب، وثانيا لأن الكثير من البحوث فى الآثار مكتوب بلغات أجنبية)[3]

---

(١) انظر التبشير المسيحى فى العاصمة ص١٧
(٢) التبشير فى أفريقيا ص٤١١
(٣) الاب الدكتور ج . فانتينى ، تاريخ المسيحية فى المملك النوبية القديمة والسودان الحديث ص ٦

كذلك تقوم المنظمات الكنسية وخاصة منظمة الشبيبة بتوزيع أشرطة الكاسيت المحتوية على المحاضرات والندوات والأفكار والترانيم النصرانية المسجلة بطريقة التلاوة القرآنية وتوزع هذه الأشرطة في البيئات العامية وتقيم المسابقات والرحلات وتقدم شتى الإغراءات ، هذا بالإضافة إلى الوسائل السمعية والبصرية في المدارس التنصيرية كصورة رجل مصلوب يزعمون أنه المسيح وصورة امرأة يزعمون أنها مريم وصور أخرى يزعمون أنهم شهداء النصرانية ،يرسخون هذه المفاهيم الشركية في أذهان ناشئة المسلمين .

وبجانب هذه الوسائل القديمة استحدثت وسائل حديثة نذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر :

الفصل السادس
بعض الوسائل المستحدثة في مجال التنصير

المبحث الأول : استغلال الحاجة

بلغت إحصائية المبشرين الرسمية في العالم لسنة ١٩٨٣ عشرين ألفا ومائتي ألف مبشر ومبشرة منهم (١٣٨) ثمانية وثلاثون ألفاً ومائة ألف كاثوليكي و(٨٢) اثنان وثمانون ألفا من البروتستانت ، وفي أفريقيا وحدها من هذا العدد (١١٩) تسعة عشر ألفاً ومائة ألف مبشر ومبشرة ،[1] وهذا هو الإحصاء الرسمي ،ومن المعلوم أن أعداد المبشرين تفوق هذا العدد الرسمي بكثير لأنهم لا يتقيدون بالحصول على الإذن الرسمي من هذه الدول وإنما يتسللون إلى أحراش أفريقيا وغيرها بدون إذن من السلطات أحيانا وباسم لافتات تنموية في أغلب الأحيان .

ويبلغ ما ينفقه المبشرون من المال بليوني دولار في العام ، والذين يقومون بدفع هذه الأموال يدركون أن هذا هو أربح مجالات الاستثمار لأن الذي سيكسب المعركة الدينية في أفريقيا سيكسب معها نصف رصيد العالم من الثروات المعدنية والزراعية ،إنهم يعرفون أنهم لا يخوضون معركة دينية فحسب بل دينية واقتصادية وسياسية أيضا وكل درهم ينفق في الدعوة الدينية سوف يعطي أضعاف قيمته غدا ،[2] ولم تعد وسائل التبشير هي تلك الوسائل العتيقة من تعليم وتطبيب بل تجاوزتها إلى وسائل شملت الغذاء والدواء والكساء ،لأن الاستعمار لبث أمداً طويلاً يمتص دماء الشعوب ويستلب خيراتهم دون أن يقدم لهم شيئا فخلف كثيراً من المشاكل كالفقر والجهل والمرض كما خلف العديد من المشاكل الإقليمية التي ظلت تنزف دما كمشكلة الجنوب وارتريا وتشاد وغيرها من المشاكل الإقليمية لئلا تنعم هذه الأقطار بالاستقرار وخلف وراءه كذلك حلفاءه المنصرين يذكون أوار هذه المشاكل الإقليمية ويسعّرون نيرانها أضف إلى هذه المشاكل التصحر والجفاف الذي منيت به القارة مما جعل سيول المنصرين تنهمر عليها من كل حدب وصوب تحمل الطعام في يد والإنجيل في الأخرى والهدف من كل ذلك تنصير القارة لابتزاز خيراتها وتعويق المد الإسلامي وإزالته من سبيل التنصير بكل الوسائل

---

(١) انظر مقال الدكتور حسين مؤنس بعنوان الاسلام أين وإلى أين؟ المجلة ،العدد ١٦٦ ، بتاريخ ٩ من رجب ١٤٠٣هـ الموافق ٢٢/٤/١٩٨٣م

(٢) مقال للدكتور حسين مؤنس بعنوان : أساليب جديدة في فلسفات الدعوة الدينية ، المجلة ، العدد ١٦٥ بتاريخ ٢٦ من جمادى الآخرة سنة ١٤٠٣ الموافق ٩ من ابريل ١٩٨٣م .

ولو دعا الأمر لتغيير الأنظمة بالقوة إذا لم تساير النظام الكنسي كما حصل في السودان[1]، ويوغندا، عندما شعرت أوربا بخطورة الرئيس اليوغندي المسلم عيدي أمين الذي تنفس المسلمون في عهده ورفعوا رؤسهم بعد ذلة طالت فترتها ولم تجد المنظمات الكنسية في جنوب السودان السند اليوغندي الذي كانت تتمتع به، فوقفت أوربا مجتمعة وسلطت إعلامها لتجسيم أخطاء عيدي أمين، وأظهرته في ثوب الطاغية الدموي، وانحازت إلى جانب ملتون أبوتي وجهزت جيشا كينيا مدته بالعتاد والمال والرجال المبشرين البيض الذين وقفوا بجانب الكينيين فعملوا ضباطاً وجنوداً في الجيش يزعمون أنهم يعملون في مجال الخدمات الاجتماعية[2] لأن الغرب يعتبر الإسلام هو الخطر الأول الذي يهدد استراتيجيته، وهو يبذل أقصى جهده لتحويل جنوب السودان إلى منطقة نصرانية عازلة، وملتون أبوتي معروف بعدائه وطغيانه وعنفه واضطهاده لقبائل الجالا اليوغندية المسلمة[3] التي اضطرتها المعاملة القاسية إلى الهجرة واللجوء إلى جنوب السودان فوصلوا إلى المدن الكبرى بجنوب السودان ك(جوبا) عن طريق نملي و(يي) عن طريق كايا وكجوكجو، وعندما كان أكثرية هؤلاء اللاجيئن من المسلمين وأوقعتها الحاجة في أحضان المنظمات الكنسية المنبثة في الجنوب، سارع مجلس الكنائس السوداني لاستيعاب الأطفال وعزلهم في أماكن بعيدة عن ذويهم بحجة تموينهم، وفي الحقيقة ليسهل تنصيرهم، رفض أولياؤهم تسليمهم للمجلس الكنسي. وللأسف أن الحكومة المركزية في الشمال وقفت منهم موقفا سلبيا تاركة الأمر لحكومة الاقليم التي تغلب عليها الصبغة الكنسية مما عرض هؤلاء اللاجيئن للمجاعة والأوبئة فمات منهم عدد كبير بسبب ذلك حسب التقرير الذي أعده د. عبدالسلام، وعندما شعرت الكنيسة أن وجه المدن الكبرى في الاقليم بدأ يصطبغ بالصبغة الإسلامية وخاصة في المناسبات الدينية لتمسك اللاجيئن بالإسلام في المظهر والمخبر، انزعجوا لذلك وأوعزوا للحكومة الإقليمية بإبعادهم عن المدن الكبرى إلى مناطق نائية فتم لهم ذلك حيث أصبح أدنى معسكر لهم يبعد من جوبا حوالي ٦٦ ميلا، وذلك خشية من تأثر السكان بالإسلام، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أهملت منظمات إغاثة اللاجيئن معسكرات المسلمين أو المعسكرات التي يكثر فيها المسلمون، وهي تتمركز في كيت(١) كيت(٢) وكرفت(١) واو باري(٢) رتوريت، وتوري، وموربو فكل هذه المعسكرات لا تعطى عونا

---

(١) انظر الإشارة اليه في ص ٢٩٤ من هذا البحث.

(٢) انظر المقال السابق.

(٣) انظر المقال السابق.

من منظمات الإغاثة لأن أغلبها مسلمون ، علما بأن هذا العون الغذائي يقدم من الأمم المتحدة بإشراف حكومة الإقليم ذات العناصر المسيحية المتعصبة من أمثال كلمنت أمبورو وارنست جبارة الذى كان مسلما فارتد حفاظا على كرسي الوزارة فهولاء هم الذين يشرفون على العون الغذائي ، ويسعون في تدمير أى مظهر إسلامي .

وعلم من توضيح معتمد اللاجئين وضابط برنامج التغذية بوكالة الإغاثة الإسلامية الإفريقية الأستاذ محمد يوسف أن الدول الإسلامية تقدم الدعم للإمم المتحدة بواسطة مكتب المندوب السامي للاجئين ،ومن المؤسف أن المنظمات الكنسية هي التي تتولى التوزيع،فأصبحت هذه المعونات حربا على الإسلام والمسلمين لا عونا لهم ،ويدل على ذلك وجود منظمات كنسية وسط اللاجئين تدفع لها الأمم المتحدة مع أنها معروفة بأنها منظمات كنسية. وقال لي الأستاذ محمد يوسف: (وعندما نأتي نحن كوكالة إسلامية يحال بيننا وبين العمل وسط اللاجئين .

فالكنيسة النرويجية تقوم بحفر الآبار الجوفية وسط اللاجئين وتقدم لها الأمم المتحدة ٥٠٠٠ دولار عن كل بئر تقوم بحفرها ، كما تمدها بالآلات الحافرة بالإضافة إلى العون الذى تقدمه لها الحكومة الإقليمية في هذا المجال . كذلك نجد (اكروس) وهي منظمة أمريكية كنسية تقوم بمد اللاجئين بالمعدات الزراعية ،والبذور كالطماطم والذرة الشامي ،والجرجير وتمويلها كذلك من الأمم المتحدة بواسطة المندوب السامي للاجئين لتقوم بهذا النشاط وسطهم .

وكذلك البعثة الفنية الألمانية تقوم بالخدمات الصحية للاجئين ، ويقوم بالدفع مكتب المندوب السامي للاجئين . ومجلس الكنائس السوداني يقوم بتوزيع البطاطين والذرة ،والجهة الممولة هي الأمم المتحدة بواسطة مكتب المندوب السامي للاجئين ،كذلك يوجد وسط اللاجئين ،نظام تعليمي يسير على نمط التعليم في الإقليم ،فهو أقرب بصفة عامة إلى نظام الإرساليات التعليمي .

فنخلص من كل هذا إلى أن الدول الإسلامية تمد التنصير بأموال ضخمة فينبغي لها أن تراجع موقفها ،وأن تتولى هي بنفسها مسألة توزيع العون الغذائي زيادة على ماتقدم أن الحكومة الإقليمية مفتقرة إلى ترشيد الحكومة المركزية ،وهذه الناحية مفقودة تماما مما ضيق الخناق على المسلمين بالإقليم الجنوبي . فـ(فيلد ويكر) السوداني المعاون في مجال الإغاثة مهمته

الكنسية رصد تحرك أى شخص مناوئ للكنيسة ونشاطها ،وبجانب هذه المهمة هو الذى يباشر توزيع الإغاثة على اللاجئين وبعد دخول وكالة الاغاثة الإسلامية الإفريقية مجال تقديم العون للاجئين ،حضر مندوب من روما وأعطى كل مندوب ١٠,٠٠٠ عشرة ألف جنيه سودانى ووعدهم بالقيام بخدمات أكثر لئلا يتأثر اللاجئون والمتضررون بالعون الغذائى الإسلامى .(١)

والتبشير بالغذاء والدواء ليس فى الإقليم الجنوبى وحده بل نجده فى غرب السودان وشرقه على تلال البحر الأحمر وفى كسلا حيث تكثر معسكرات اللاجئين وفى جبال الانقسنا ، بل حتى فى الاقليم الشمالى الذى لم يتأثر بالمجاعة ظهرت منظمة إغاثة تسمى منظمة (ادارا) وفتحت لها مكتباً بمدينة كريمة وآخر بالدبة ،واستقطبت الجنوبيين والنوبيين الموجودين بكريمة . واستعانت فى بدء عملها بموظفين مسلمين ثم استبدلت بهم جنوبيين ،ومن الغريب فى الأمر أنه كانت بكريمة كنيسة أنشئت فى عهد الاستعمار ولكنها أغلقت عندما هجر التجار النصارى المدينة بعد مقاطعة المسلمين لهم قبل عشرين عاما فتزامن فتحها مع وجود هذه المنظمة .

وتقوم المنظمة بمسح المنطقة بين كريمة والدبة وتقدم المعونة للعرب الرحل ،ويقوم الجنوبيون والنوبة التابعون لها بتوزيع الكتب النصرانية بأسعار رمزية وأحيانا بالمجان وتشارك فى كل هذه الأعمال منظمات كنسية غربية من "إيطاليا" "وسويسرا" "واسكندنافيا" "وفرنسا" وكلها تستغل ظروف المسلمين السيئة لتنصيرهم ،ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل نشطت هذه المنظمات الكنسية العالمية فى جلب صغار الأفارقة من البلدان التى هددتها المجاعة والحروب إلى أوربا وأمريكا حيث يتم تعليمهم ورعايتهم فى أماكن أعدت لهذا الغرض ليتشربوا روح النصرانية ثم يعادوا إلى بلادهم ،وفى الريف الإنجليزى فى (سيد لسكومب) تم إنشاء قرية الأطفال الدولية لتستقبل آلاف الأطفال الأفارقة الذين لا تقل أعمارهم عن عشر سنوات بعد الاتفاق مع ذويهم على أن يمكثوا فى القرية عشر سنوات يدرسون خلالها اللغة الإنجليزية والثقافة النصرانية ثم يسمح لهم بعد قضاء المدة المتفق عليها بالعودة إلى بلادهم يحملون الفكر والديانة الكنسية .(٢)

---

(١) زيارة ميدانية للاقليم الجنوبى ومقابلة ضابط التغذية بالوكالة الإسلامية الافريقية فى مايو ١٩٨٣ .

(٢) انظر التبشير ،منظمة الدعوة الاسلامية ،نشرة من إعداد إدارة الاعلام والبحوث والنشر ص ٦ / ٧ من غير رقم ولا تاريخ .

ووصلت المأساة ذروتها عند ما كثرت هذه القرى الجماعية للأطفال ونقلت صحف العالم قصة المبشر البلجيكي (أندريه سابيه) الذى يقيم فى إحدى الدول الأفريقية وقام بتبني ثلاثة وتسعمائة وثلاثين ألفا (٣٠٩٠٣) من الأطفال الأفارقة وطالب حكومته بعلاوة عائلية تتفق مع ضخامة هذا العدد من الأبناء أى ما يعادل سبعة وثلاثين مليونا من الدولارات الأمريكية.[1]

واستغل المنصرون الظروف السيئة وتقدموا إلى الأسر المسلمة الفقيرة يتبنون أبناءها مع ترك هؤلاء الصغار مع ذويهم ليقدموا لهم كل مايحتاجونه ويراسلونهم ويزورونهم فى قراهم النائية ولا أنسى ذلك الاسترالى[2] الذى قطع المسافات ليزور مكفوله فى أسرته ويقدم له الهدايا ويأخذ له وأسرته صوراً ،وهذا الأمر يعرض الأسرة كلها للتأثير النصرانى ويجعل كثيراً من الأطفال يتمنون حظ هذا الطفل والمسلمون عن كل هذا غافلون.

---

(١) انظر التبشير ،نشرة منظمة الدعوة الاسلامية ،ص ٦/٧

(٢) نورمان انجلر استرالى الجنسية يكفل طفلا من قرية ود الامين بالإقليم الأوسط، اسم الطفل بدر الدين .انظر صحيفة الرياض عدد ٥٢٧٧ بتاريخ ٢ من صفر ١٤٠٣هـ مقال بعنوان (هل تصح كفالة المسيحى للمسلم) بقلم عبد الله السباك

المبحث الثانى

المؤسسات التبشيرية التنموية

دخل التبشير كذلك لأفريقيا تحت شعار التنمية فاستغلت الكنيسة العالمية اتفاقية أديس أبابا فغطت الاقليم الجنوبى بالمؤسسات الكنسية التى أتت للتنصير تحت شعار التنمية من هذه المنظمات ثلاث وستون منظمة تحمل اسما كنسيا والبقية تعمل للتنصير من خلال التنمية فقط وأشهر هذه المنظمات هيئة المعونة الكنسية النرويجية ،وهى منظمة تنصيرية متخصصة فى الرعاية الاجتماعية تكاد تسيطر على كل دور الرعاية الاجتماعية فى الجنوب كما تعمل فى مجال توفير المياه الجوفية وتستورد هذه المنظمات جميع لوازمها من أوربا والبلاد المجاورة للاقليم ككينيا وأفريقيا الوسطى ،وجميع هذه اللوازم التى تستورد باسم هذه الهيئات الكنسية معفاة من الضرائب والرسوم الجمركية كما تسهم الحكومة فى هذا العمل الأمر الذى أغرى كثيرا من هذه المنظمات بالاتجار فى السوق السوداء ،فإذا قارنا بين ما تحظى به من تسهيلات وامتيازات وبين ما تقدمه من خدمات وجدناها ضئيلة لا تتناسب مع هذه الامتيازات ونأخذ هذا المثال من ملف هذه الهيئة:

الصرف بالجنيه السودانى	العام أول يوليو الى ٣٠ من يوليو ١٩٨٢	العام أول يناير الى ٣١ من ديسمبر ١٩٨١	العام أول يناير الى ٣١ من ديسمبر ١٩٨٢
		جـ ٦٦٫٠٠٠	جـ ٩٠٫٠٠٠

الأهداف: بدأت الكنيسة النرويجية للمساعدات الداخلية المشروع بالتعاون فى عام ١٩٧٨ مع وزارة التعاون والتنمية الريفية فى تطوير امداد المياه فى الاقليم الجنوبى ،وهدف المشروع الرئيسى هو تحسين نوع المياه المتوفرة للاستعمال المحلى وتشجيع المجتمعات الريفية لعمل مشاريع مساعدة بالعون الذاتى .

المكتسبات : الفترة الزمنية أول يناير سنة ١٩٨١ الى ١٩٨١/١٢/٣١ انشاء الآبار

انشاء الآبار: اصلاح بئرين صغيرتين باليد ـ عمل سدين لعيون الماء ،حفر بئرين غير عميقين باليد .

التوعية وعمل الحوافز والانشاءات: ٤٩ اجتماعا ، ١٦٧ زيارة منزلية فى مشروع يامبيو ،ومركز تابع فى تاندى .

الفترة من أول يناير سنة١٩٨٢ - ١٩٨٢/١٢/٣١

إنشاء الآبار:

حفر بئرين باليد ، عمل ثلاثة سدود لمياه العيون ، عمل عشر آبار ضحلة .

التوعية والحوافز :

اجتماعات حسب متطلبات العمل

الإنشاءات :

إنشاء مركز وعى فى (ازو)

الخطط المستقبلية بعد عام٨٢

الخطط المستقبلية للمشروع تعتمد على المناقشات بين مصلحة التنمية والمياه الريفية والرئاسة للمنظمات فى زيورخ بسويسرا والتى ستتم فى سبتمبر ١٩٨٢م (١) .

ونكتفى بهذا المثال لأنشط منظمة كنسية تدعى أنها تعمل فى مجال تنمية الإقليم تعقد اجتماعاتها الخاصة بهذه التنمية مع الحكومة الاقليمية صاحبة الشأن فى مقر رئاستها هى وليس فى مقر رئاسة الحكومة التى تدعى أنها تعاونها (١) ..

---

(١) انظر صفحة ("M") من ملف الهيئات الكنسية .

المبحث الثالث

الجهود التنصيرية لتحويل السودان من الاسلام إلى النصرانية

إن الصليبية العالمية تسعى جاهدة لتغيير الطابع الإسلامي للسودان ،ولقد بدأت في التفكير في تنفيذ هذه الخطة قبل الاستعمار وتضافرت جهودها إبانه وبعده وما زالت تواصل حملتها الشرسة لتحقيق هذا الهدف مستغلة لغفلة المسلمين وتهاون المسئولين فبدأت بالسعي أولا في تنصير الأرض وقطعت في ذلك شوطا بعيدًا حيث نشرت الكنائس الكبرى في المدن والأرياف وفي المناطق النائية بعيداً عن رقابة الحكومة فأنشأت مئـات الكنائس في العراء وفي أماكن المسلمين حيث نجد في منطقة صغيرة جنوب شرق الدلنج يفوق فيها عدد المسلمين عدد النصارى ثماني وثمانين كنيسة مقابل عشرين مسجدا ولم يقف الأمر على إنشاء الكنائس قصدًا لتغيير وجه القطر بل جدت الهيئات الكنسية في نبش وحفر الآثار الوثنية لملوك السودان وإضفاء صبغة كنسية على هذه الآثار ،وشرح نقوشها التي كتبت بلغات بادت ،شرحًا كنسيًا ،وإقامة المتاحف الأثرية لها للاستدلال على عراقة المسيحية في القطر.

ولقد خصص المبشر الإيطالي جوفياني فانتيني جزءًا من كتابه (تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث) لعرض هذه الصور والنقوش وعلق قائلا : (ومهما كان عدد المسيحيين واعتقادهم فإنهم كانوا يسكنون مناطق أوسع بكثير مما نعتقد ،وتاريخهم جزء من هذا الوطن الكبير وهو يستحق البحث والدراسة) .(٢)

هجرات التوازن :

كثرت الهجرات من الجنوب والغرب إلى مدن الشمال وذلك بسبب الظروف الطارئة من الحروب والمجاعات في أول الأمر ثم بتشجيع المؤسسات الكنسية كما حدث في بابنوسة في غرب السودان حينما أنشئ المركز الإسلامي وقام بنشاط إسلامي مكثف أثر تأثيرًا واضحًا في المنطقة ،فأرسلت الكنائس مندوبين من أبناء النوبة لاغراء الصغار بهجران المناطق الواقعة تحت تأثير النشاط الإسلامي لسهولة صيدهم في المدن لحاجتهم للمأوى والسكن والعلاج .

وكل هذه الأشياء تعتبر من الأنشطة المؤثرة وخاصة الدواء الذي انعدم في صيدليات الدولة والصيدليات التجارية فصار الجميع يتجهون إلى الكنيسة حيث توزعه بالمجان لأبناء

---

(٢) تاريخ المسيحية ص ٢٠٧

الجهات المتخلفة وبالثمن المخفض لغيرهم لتربط المجتمع كله بها .

بجانب هذه الأنشطة ظلت الكنائس تعتني بجميع خدم المنازل من أبناء وبنات الجنوب والغرب على اختلاف عقائدهم فيقضون أمسياتهم بها وتصلهم رسائلهم عن طريقها وفى عصر الجمعة يتجمعون فى الساحات والميادين يلعبون ويرقصون حتى الساعة التاسعة مساء والغرض من هذا التجمع إحياء العنصرية والمحافظة على عاداتهم القبلية خشية ذوبانهم وانصهارهم فى مجتمع المسلمين ومما يدل على أن وراء هذه الهجرات المنظمات الكنسية وصول مجموعات كبيرة من أبناء النوبة والجنوب مدينة دنقلا حاضرة الاقليم الشمالى ،وهى إضافة إلى بعدها الشاسع عن الجنوب والغرب لم يكن فيها ما يغرى بالهجرة إليها لضيق رقعتها ... دفع شبابها للهجرة إلى مصر قبل أن يعرف السودانيون الهجرة إلى دول النفط.

كذلك يوجد فيها عدد من المبشرين البيض يعملون بالمؤسسات الحكومية فى المستشفى والمدارس العليا لتدريس اللغة الانجليزية بالإضافة إلى عدد من الأقباط المصريين الذين لم يجدوا فرصة للعمل بالسعودية ودول الخليج وظلت هذه المجموعات تطالب بالتصريح لها بكنيسة وبتخصيص حي سكني لهم والغرض من هذا كله محاولة إعادة الوجه النصرانى مرة أخرى إلى المدينة التى يعتبرها النصارى إحدى عواصم مملكاتهم البائدة.

وفى شرق السودان بمدينة كسلا أقام المنصرون مجمعاً كنسياً يضم خمس كنائس من المواد غير الثابتة على مساحة تبلغ خمسة آلاف متر مربع أسهم فيها السويديون والإيطاليون والهولنديون والبريطانيون والامريكان ،فجأر المسلمون بالشكوى للحكومة ولما لم يجدوا منها استجابة ثاروا وقاموا بإحراقه فى رمضان سنة ١٤٠٧هـ وطالبوا بتصديقه مجمعاً إسلامياً ، فتم لهم ذلك وأطلقوا عليه اسم (مجمع عمر بن الخطاب الإسلامى) وبدأ فى تدريس القرآن الكريم. والجهود مستمرة لتطويره مدرسة إسلامية مكتملة.[(1)]

وخلاصة القول أن السودان مستهدف من الصليبية العالمية التى تواثبت عليه من جميع دول الغرب لموقعه من القارة ولثقافته العربية الإسلامية ،وظلت تقيم الأحزمة المسيحية المتعددة لتحول دون تحرك الإسلام إلى الداخل ،وهى بجانب الحزام المسيحى الاصفرتسعى لانشاء حزام مسيحى يبدأ من ارتريا ويمر بجبال الانقسنا فجبال النوبة وجنوب دارفور حتى أفريقيا الوسطى ليكون عائقا للاسلام من التوغل إلى داخل القارة فهل ينتبه المسلمون ويتحركوا سريعا لدرء هذا الخطر قبل أن يحدث فى السودان ما حدث فى لبنان فيتجرعوا كأس الندم ولات ساعة مندم.

---

(١) مقابلة مع الاستاذ حامد كفو ،نائب الدائرة ١٩٢ ،جبهة اسلامية فى شهر ذى القعدة ١٤٠٧هـ

الباب الثالث

آثار الاستعمار والتنصير في ضعف المجتمع وتفككه

ويشتمل على تمهيد وفصلين

التمهيد : فترة الحكم التركي وكيف مهدت للاستعمار

الفصل الأول : آثار الاستعمار والتنصير في ضعف المجتمع

الفصل الثاني : أثر الاستعمار والتنصير في تفكك المجتمع السوداني

تمهيد :

دخل الإسلام السودان في عصر مبكر كما سبقت الإشارة إلى ذلك ،لأن[1] معاهدة (البقط) أتاحت الدخول للمسلمين تجاراً ورعاة ،واستمر دخولهم عبر زمن مديد انتشر خلاله الإسلام تدريجيا بعقيدته ،وأخلاقه ،وقيمه الاجتماعية التي تمكنت في مجتمع السودان ،فنسخت كثيراً من عقائده الفاسدة ،وعاداته وتقاليده الوثنية ،وتأثر السكان الأصليون بمعاملة المسلمين الكريمة ،فدخل كثير منهم في الإسلام. أما النظام السياسي فتأخر كثيراً حتى قامت الممالك والمشيخات الإسلامية مابين القرن العاشر والثالث عشر الهجري أي مابين السادس عشر والتاسع عشر الميلادي ،حيث قامت هذه الممالك والمشيخات في أماكن متعددة أشهرها مملكة الفونج ٩١٠-١٢٣٦هـ ١٥٠٥-١٨٢١م.[2]

وبقيام مملكة الفونج تم القضاء نهائيا على سلطان المملكة النوبية القديمة التي كانت تقوم على أساس وثني مع الانتماء الاسمي للنصرانية.

تلي مملكة الفونج من حيث القوة والمنعة سلطنة الفور(١٦٣٧-١٨٧٥م) فمملكة تقلي ١٥٧٠م) واستمرت هذه الأخيرة حتى أواخر القرن التاسع عشر ،وعلى الرغم من أنها أقل شأناً من سابقتيها إلا أنها مكنت للإسلام والعروبة في الجزء الشمالي الشرقي من جبال النوبة ،مع أن هذه المنطقة كانت دائماً قلعة تحتمي بها جماعات النوبة البعيدة عن الإسلام والعروبة[3]

ومنذ أن قامت هذه الممالك والمشيخات التزمت الإسلام تشريعا ينظم شئونها وعلاقاتها ،مع ما صاحبها من ضعف في أول عهدها لقلة بضاعتها في العلم والعلماء ، فمثلا : (عندما تولى الشيخ إدريس مشيخة العبدلاب تشدد في عقوبة السارق لأنه كان يبغضه فطرة فكان يعاقبه بالقتل ،فانقطعت جريمة السرقة في مدته حتى إن التجار كانوا يتركون أموالهم وبضاعتهم منتشرة في السوق ليلاً ونهاراً ،دون حراسة فلا يضيع منها شئ)[4]

ومما لا شك فيه أن عقوبة السارق في الإسلام لا تصل إلى القتل فالله سبحانه يقول :

---

(١) انظر ص ٢٦ من هذا البحث.
(٢) انظر جغرافية وتاريخ السودان جـ١ ص ٣٨٧
(٣) انظر د.عبد المجيد عابدين ،تاريخ الثقافة العربية في السودان ص ٤٤/٤٦ ،وانظر كذلك يوسف فضل مقدمة في تاريخ الممالك الاسلامية في السودان الشرقي سنة ١٤٥٠/١٨٢١ ص١٠١/١٠٢
(٤) تاريخ الثقافة العربية في السودان ص ٤٦

(والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما)[1]

وكان العلماء في هذه الدولة يتبوءون مكانة فوق مكانة السلاطين فيملكون حق تنفيذ الحدود الشرعية على الناس، ومن ذلك ما فعله الشيخ أحمد المشيخى إذ جاءته امرأة تشكو امرأة أخرى قالت لها يا فاجرة، فأمر الشيخ أحمد بإقامة حد القذف عليها ثمانين جلدة، وكذلك كان يفعل بأهل بيته)[2].

ولمكانة هؤلاء المشائخ عند الملوك، كانوا إذا طلبوا خارجاً على سلطانهم، فاستجار بأحد المشايخ خلوا سبيله وإذا استشفعوا شُفّعوا، وكان يغلب عليهم الزهد، ولا ترى الدولة لهم مطلبا.

النظام الاقتصادي لدولة الفونج :

قام نظام هذه الدولة الاقتصادي على ما كان يجمعه الملوك من الزكاة والفطرة* والعشور على نحو ما يفرضه الشرع الإسلامي[3]، وذلك بجانب الغنائم التي كانت تجمع من الحروب.

الدعوة الإسلامية في عهد دولة الفونج :

نشطت الدعوة الإسلامية في عهد الفونج، واشتدت الرغبة في النهوض بالدين، فاستقدم الملوك العلماء وأغدقوا عليهم العطايا ورفعوا مجالسهم، وكان هؤلاء العلماء يهتمون بتعليم ما يصحح عقيدة الناس وعباداتهم، روى عن الشيخ أرباب الخشن أنه (كان إذا جاءه أحد لقراءة القرآن، يقول له: لا يجوز لك أن تقرأ القرآن وأنت جاهل لفروض العين مما فرض الله عليك من أحكام الوضوء، والصلاة، ومعرفة الله سبحانه، ونحو ذلك، أما القراءة فنافلة إلاّ أم القرآن خاصة في الصلاة فإنها فرض، وسورة على سبيل السنية)[4]

وكانت أساليب الدعوة سلمية في أغلب الأحيان، ولم تكن القوة تستخدم إلاّ في النادر عندما تعتدى القبائل الوثنية من الشلك أو النوبة على المسلمين فترفع راية الجهاد كما حدث ذلك في عهد السلطان (بادى أبو دقن ١٦٤٥-١٦٨٠) الذى شن غارة طاحنة على هؤلاء

---

(١) سورة المائدة آية رقم ٣٨

(٢) تاريخ الثقافة العربية ص ٧٨

* اصطلاح يطلق على صدقة الفطر

(٣) جغرافية وتاريخ السودان ص ٤١

(٤) الثقافة العربية في السودان ص ٧٦

المعتدين ،وظلت هذه الدولة حامية للإسلام من جميع عوامل الهدم ، نقضت على نفوذ النصارى وسدت الثغور أمامهم كما ظلت تحتمى هى نفسها بالإسلام كما سبقت الإشارة إلى ماكان بين سلطانها والسلطان سليم التركى[١] . وعندما نخر الوهن هيكلها وتفرقت إلى مشيخات أغرى ذلك التفكك محمد على باشا بغزوها بعد أن تأكد من ضعفها وتفككها مع التأكد بعمق العاطفة الدينية الجياشة فى شعبها[٣] فسقطت فى يد محمد على سنة ١٨٢١م.

---

(١) الثقافة العربية فى السودان ص٦٥ ، وانظر ص ٢٧ من هذا البحث .

(٢) انظر ص٢٨ من هذا البحث .

الفصل الأول

آثار الاستعمار والتنصير في ضعف المجتمع السوداني

المبحث الأول : الأثر التشريعي

لقد كان غزو محمد على للسودان بداية لتحويله عن قبلته الإسلامية لأن هذا الغزو على الرغم من صورته الإسلامية الخادعة، وإقامته للمساجد، وإعانته للخلاوى وزوايا الصوفية كان بداية لسيادة الخط العلماني، حيث أدخل بعض القوانين والنظم الأوربية، فأدخل نظام القضاء المدنى بجانب القضاء الشرعي.

ذكر الكولونيل استيورات Steward في تقرير سنة ١٨٨٢م ما يلي : (... هناك محكمة شرعية في كل مديرية بها قاض يتقاضى مرتبا شهريا يتراوح بين ٥٠٠ إلى ١٢٥٠ قرش وليست مهمة هذا القاضي التحرى في القضايا الجنائية فقط، بل القضايا المدنية بحيث يمكن استئناف القضية إليه إذا وافق الطرفان.[1] ويعتبر الدور الذي قامت به المحاكم الشرعية خلال فترة الحكم المصرى دوراً مكملاً لدور محاكم المديريات والمحكمة المركزية في الخرطوم.[2]

كما فتح محمد على الباب للنصارى حتى تسلموا أزمة الأمور فصرفوها وفقا للنظم الغربية مما أدى إلى ثورة المسلمين بقيادة المهدى، فرفعوا راية الجهاد في وجه الفساد، وأبدوا استعدادهم لبذل المهج رخيصة من أجل تحكيم الشريعة.

يقول أحد الكتاب المحدثين : (إن الإسلام في هذه البلاد واضح ملموس، تكاد تراه في الغدو والرواح، وتلمسه في كل ما يصدر عنه أهل هذه البلاد، حتى أمس القريب لا يمكن أن تنجح أية حركة لإحداث انقلاب أو تغيير بعض الأوضاع، إلا إذا كانت حركة دينية أو متشحة على الأقل بثوب الدين وما حديث المهدية عنا ببعيد).[3]

فجاءت المهدية متشحة بثوب الدين ورنت الناس اليه وأوصدت الطريق في وجه النصرانية وسدت الباب امام النصارى، إلا أنها لم تمكن للإسلام في المجتمع لأنها كانت غير متمكنة فيه، وذلك هو سبب انهيارها انهياراً كاملاً عند ما شنت عليها الصليبية الأوربية غارتها، فقضت على نفوذها، مع استشعار الغزاة بعاطفة

---

(١) انظر الثقافة العربية في السودان ص١٠٤/١٠٥

(٢) The Sudan underwingate P.

(٣) انظر الثقافة العربية في السودان ص١٢٤، وصاحب المقولة هو الاستاذ محمد احمد محجوب في كتابه الديمقراطية في الميزان.

الدين في المجتمع، ومن هنا بدأ دهاة الإنجليز ودهاقنتهم من ساسة ومبشرين وخاصة الذين هربوا من معتقل المهدية أمثال (سلاتين) و(اهرولدر) ، يخططون لنقل هذا المجتمع من مجتمع إسلامي ، إلى مجتمع علماني يقدس حضارة الغرب ويحتقر بجانبها مقوماته.

وأول صنيع هذه الإدارة الاستعمارية الجديدة إلغاء التشريع الإسلامي الذي كان يهيمن على المجتمع باستثناء قانون الأحوال الشخصية ، وإعلان الأحكام العرفية التي استمرت معلنة في البلاد أكثر من نصف قرن.

جاء في كتاب (مآسي الإنجليز في السودان) : (يستند الوضع السياسي الحاضر[1] في السودان إلى معاهدة سنة ١٨٩٩م التي جعلته حكماً ثنائياً ، وتنص المادة التاسعة من تلك المعاهدة على (وضع السودان كله تحت الأحكام العسكرية العرفية إلى حين صدور أمر آخر يخالف هذا).

(وبقيت هذه المادة التاسعة نصف قرن ، ولم يصدر ما يخالفها أو يعدلها ، فظلت ذلك الدهر الطويل متحكمة في الحريات مسلطة على الأعناق ... إنّ وضعاً كهذا لم يسمع به حتى في أشد العصور ظلاماً ووحشية ، ولم يقم مثله في أكثر الأنظمة بطشاً وإرهاباً ودكتاتورية .... وهذا وحده أبلغ دليل على الاستهتار بالحريات ، والاستهانة بالحقوق والامتهان لكرامة المحكومين ، وهذا هو الشأن في الحاكم المستبد السيء النية ، إذ يضع القوانين بالصورة التي تجعل له وحده الحق في تكييفها كيف شاء ، فإذا ما جنح للبطش والعسف كان له من القانون القائم ما يبرر به أعماله وفظائعه ، ونستطيع أن نقول من غير تردد إن هذه الروح تسود قوانين السودان وتشريعاته والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصر ، وجو الإرهاب والخوف يسود المجتمع وها هو السكرتير القضائي المستر (قورمان) يفضح هذه السياسة في المقدمة التي وضعها للطبعة الجديدة لقوانين السودان حيث يقول : (كانت القوانين الثلاثة ، المدني ، والجنائي ، والإجراءات الجنائية ، صورة مصغرة لمثيلاتها في الهند إلاّ أن جزءاً من قانون الإجراءات الجنائية مأخوذ من القانون العسكري المصري المأخوذ بدوره من القانون العسكري الإنجليزي والسبب في ذلك أن القضاة في العهد الأول كانوا جميعاً من ضباط الجيش) هذا هو رئيس الهيئة القضائية في البلاد ، وهذا ما كتبه بيده عن الروح التي تسود قوانين البلاد)[2]

---

(١) كتب هذا الكلام سنة ١٩٤٦ إبان فترة الاستعمار.

(٢) مآسي الانجليز في السودان ، تقديم وفد السودان ، ص١٤٤ / ١٤٦ ، ط دار الشرق للنشر والتوزيع سنة ١٩٤٦ ، ومما تجدر الاشارة اليه ان الكتاب لم ينسب الى مؤلفه نظراً للظروف السياسية السائدة آنذاك تحت الحكم الاستعماري ، ولقد نسبه بروفسير مدثر عبد الرحيم الى السيد احمد خير المحامي عند ما قدم لكتابه كفاح جيل في طبعته سنة ١٩٧٠.

وكان منفذ و هذا القانون من الإنجليز أو الهنود ،والإنجليز الذين حكموا السودان بهذا القانون يعترفون بأنه قطر مسلم دما وثقافة ، وحتى الأجزاء التى لم تكن إسلامية تماماً ،فإنها لم تكن إنجليزية أو هندية حتى يطبق عليها هذا القانون ،فثقافة القطر برمته وتقاليده تبعد كل البعد عن تقاليد الإنجليز وثقافتهم التى ينادى بها مشرعوهم: (لكى يكون القانون سائغاً وطبيعياً وعادلاً فإنه يجب أن يخرج من ضمير الشعب المحكوم به لا أن يملى عليهم املاء) (١)

فلماذا ضربوا بقاعدتهم الحكيمة عرض الحائط فى حكمهم للسودان ،والحق أن الغربيين عامة والإنجليز على وجه الخصوص لا يعرفون العدل إلا إذا كان مقصوراً عليهم وحدهم ، ولا يمدحون الحرية إلا إذا كانت لبنى جنسهم ،أما إذا نادى غيرهم بذلك فيعتبرون ذلك جرماً عظيماً وشراً مستطيراً ،فيعملون على محو طالبه من الوجود ،ويشرعون ما يسوغ لهم ما ارتكب من جرم على أنه عدل محض .

ولم تقف جهود الإنجليز وسياستهم القانونية عند حد إزاحة التشريع الإسلامى ،والتمكين لقوانينهم الملفقة ،بل أنشأوا المدارس القانونية لتخريج جيل يساعدهم فى تنفيذ قوانينهم ، ثم يحل محلهم إذا اقتضى الأمر إخراجهم وفصموا هذا الجيل البديل عن العرى التى تربطه بمجتمعه وأحاطوه بهالات الاحترام والتبجيل ،وقطعوه عن كل عظيم ،وعظموا فى وجهه كل حقير ، وحاربوا كل أثر للتشريع الإسلامى حتى فى أضيق دوائره التى لا ينافس فيها وهى دائرة الأحوال الشخصية ،حيث طالب كثير من حكامهم بإلغاء المحاكم الشرعية القائمة ،كما جاء فى مجلة الفتح ما يلى : (وفى سنة ١٩١٩ طلب المستر(قغلن) نائب مدير جبال النوبة الغاء المحكمة الشرعية هناك ،ولكنها لم تلغ إذ ذاك ،وفى سنة ١٩٢٠ كتب المستر(رد) مفتش قبيلة الكبابيش بمركز بارة يطلب عدم إنشاء محكمة شرعية بجهته ،عندما سمع مكاتبات الأهالى تبودلت بهذا الخصوص فلم تنشأ مع أن الجميع هناك مسلمون . وفى سنة ١٩٢١ طلب المستر(د يبوى) مفتش غرب كردفان الغاء المحكمة الشرعية بالنهود مع أنها فى وسط إسلامى كبير جدا ،وليس به سوى المسلمين ،فتدخل فى ذلك أحد القضاة الشرعيين ،وعارض الفكرة وانتصر فلم تلغ المحكمة .

وفى سنة ١٩٢٢ ألغت مديرية أعالى النيل محكمتها الشرعية هذا والتجار المسلمون فى مديريتى منقلا وأعالى النيل محظور عليهم التجوال فيهما للاتجار منعا لاختلاطهم بالأهالى

---

(١) مآسى الانجليز فى السودان ص ١٤٦

لئلا يتأثر الأهالي بهم)[(١)].

وأصبح القضاء الشرعي مقصوراً على شمال السودان فقط كما جاء في كتاب مآسي الإنجليز (أما القضاء الشرعي فمقصور على الشمال، كما أسلفنا، أما الجنوب وغيره من المناطق المقفلة في دارفور وكردفان فتعتبرها الحكومة بلاداً غير مسلمة لا مجال فيها للشريعة الإسلامية، حتى إن بعض المحاكم التي كانت هناك من قديم قد قفلت منذ عهد بعيد، وأصبح المسلمون الذين يعيشون في هذه المناطق يلجأون للحاكم الإنجليزي لعمل الإجراءات الشرعية، ومراسم نظام الأسرة فأين هذا من حرية العبادة في بلد عربي مسلم، اللهم إن هذا حال الصبر عليها حرام، والرضاء بها اثم، والحياة معها تتجافى مع الإيمان بك، فمتى يشرق الصباح بعد هذا الليل البهيم؟

أما عن القائمين على شئون القضاء فكبيرهم السكرتير القضائي، يليه رئيس القضاء، فالمحامي العمومي، ثم المسجل العام، فمدير التركات، فقضاة المحكمة العليا، وكل هؤلاء من الإنجليز.

أما السودانيون فمقرهم أسفل السُّلَّم القضائي وأدنى المراتب إذ لا يزيد الواحد منهم على منصب القاضي الجزئي الذي ليس دونه منصب قضائي)[(٢)]

وهكذا عطلت أحكام الشرع، وحلت محلها قوانين الغرب ينفذها قضاة لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمة، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لينقضن الإسلام عروة عروة كما ينقض الحبل قوة قوة)[(٣)] وقال عليه الصلاة والسلام: (لينقضن عرى الإسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، وأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة)[(٤)]

وبنقض عروة الإسلام الأولى (الحكم) لم تعد له السيطرة على المجتمع بعد أن كان يحثه ويدفعه إلى الفضيلة، ويحميه من التردي في الرذائل، بحدوده، وتمازيره، التي شرعها الخلاق العليم فنفذها الحاكم، وقبلها المحكوم وكلاهما يلتمس رضا المشرع الأعظم.

فانحسر نظام الإسلام الاجتماعي في نطاق ضيق، وفي هذا المجال الضيق المتمثل في دائرة الأحوال الشخصية ظل القاضي فيه تابعا للقاضي المدني، حيث يتوقف حكمه في أغلب

---

(١) مجلة الفتح العدد ٥٧ بتاريخ ١٤ من صفر ١٣٤٦ هـ الموافق ١١ من أغسطس ١٩٢٧

(٢) مآسي الانجليز في السودان ص ١٥١

(٣) المسند ٤/٢٣٢

(٤) المسند ٥/٢٥١، وابن حبان في موارد الظمآن ص ٨٧، كتاب الصلاة، باب فمن حافظ على الصلاة ومن تركها، وأخرجه الحاكم أيضا ثم قال: الإسناد كله صحيح، ولم يخرجاه، وأخرجه الطبراني في الكبير وفي مسند الشاميين

الأحيان على تنفيذ القاضى المدنى وبذا أصبح القاضى الشرعى محتقرا حتى لقب فى بعض المناطق بقاضى الحريم ، وتحقق الهدف الذى رمى إليه دهاة الإنجليز ، وهو نقل تجارب الغرب الذى اعتبر الدين من أكبر المعوقات فى طريق تقدمه فنبذه وراءه ظهريا ، وحبسه بين جدران الكنيسة وزعم أنه لم يصل إلى ما وصل اليه ولم يحلق فى آفاق الحضارة الحديثة إلاّ بعد التخلص من قيود الكنيسة ، التى كان نفوذها على الملوك والأمراء والعلماء واسعاً شاملاً لا يحد ، فكل من سولت له نفسه تجاهل البابا فضلاً عن مخالفته حكمت عليه باللعن والطرد ، فبات منبوذاً ، ولن ينسى التاريخ إذلال البابا جريجورى السابع للأمبراطور هنرى الرابع حين اختلف معه على حق تعيين الأساقفة على إقطاعياتهم ، فأعلن البابا حرمانه وأحل أتباعه الأمراء من ولائهم له فاضطر الامبراطور أن يذهب اليه تائباً فى (كانوسا) سنة ١٠٧٧ ، وأن ينتظر الغفران ثلاثة أيام متدثراً بالخيش حافى القدمين وسط الثلج فى فناء القلعة ، ولن ينسى التاريخ كذلك من أحرق ونكل به تحت آلات التعذيب فى محاكم التفتيش من رواد علم الطبيعة وعلم الكيمياء وعلم الفلك بتهمة الخروج على تعاليم الكنيسة أو بتهمة ممارسة السحر الأسود . وهذا الصراع الطويل المرير الذى وقفت فيه الكنيسة سداً بين أوربا وبين التقدم وظهر فيه العلماء بمظهر الاستبسال فى الدفاع عن مبادئهم وآرائهم حتى الموت (١) ، لا ينطبق على الإسلام الذى يمجد العلم والعلماء وللأسف ظن كثير من المخدوعين أن الغربيين صادقون فيما ذهبوا إليه ، وأن ما رميت به المسيحية ينطبق على الإسلام وساعدهم على هذا الاعتقاد تأخر المسلمين فى مجالات شتى من أهمها ميدان العلوم التطبيقية ، والنظرية والاختراعات التكنولوجية الحديثة التى تفننت فى اختراع الآت الحرب المدمرة ، ونسوا دور الإسلام فى حركة النهضة الأوربية الحديثة ، يوم أن كان حملته أساتذة البشرية فى جميع مجالات العلوم دون منازع ، وهم الذين أناروا الطريق أمام أوربا وبددوا ظلام الجهل الذى رعته الكنيسة فترة طويلة ووضعوا الغرب على عتبة الحضارة ، مع الفرق بين حضارة الإسلام التى حررت الإنسان من جميع قيود الذل ، وحضارة الغرب التى عبدته لشياطين الأنس والجن ، وكبلته بقيود الاستعباد والفساد وهذه حقيقة يدركها الغربيون عامة والإنجليز على وجه الخصوص ، يدركون أن الإسلام يقيم مجتمعه على أسمى أخلاقية

---

(١) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر جـ١ ص٢٧٤ ، ط سابعة ، سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٤م مؤسسة الرسالة ، بيروت .

سامية تحددها مناهجه، وتحميها شرائعه التى شرعها الله لتطهير المجتمع نفسه من شوائب الانحراف، فلم يعرف المسلمون دور البغاء، وحانات الخمور، ووسائل التردى فى الفواحش من مراقص وملاهـ ودور مقامرة إلاّ بعد خلو الساحة الاجتماعية من الرقابة الإسلامية التى ظلت فى انحسار متتابع وكلما غابت هذه الرقابة من مرفق حل محلها الفساد حتى أصبح المنكر مألوفا، فنجح الاستعمار فى ربط المسلمين بشرائعه الوضعية وصرفهم عن الاهتمام بأحكام الشريعة الإسلامية فقضى عليها عمليا وحصرها فى دائرة العبادات والمناسبات الدينية وان دين الدولة الرسمى هو الإسلام ولا مانع من أن يشارك الحكام الإنجليز المسلمين أعيادهم، وبعد هذا كله يشعرونهم أنهم يقفون على الحياد تجاه كل الأديان .

ولقد عدد (جب) فى كتابه (وجهة الإسلام) مظاهر التأثير الغربى على المسلم فقال : (وهو يجد - أى المسلم - الرجوع إلى المحاكم الشرعية لا يغنيه شيئا فى كثير من مصاعب حياته ومشاكلها بل يجد نفسه خاضعا لقانون مدنى، قد لا يعلم له مصدرًا صحيحًا يستمد سلطانه منه، ولكن لا شك أن هذا القانون لا يستمد سلطانه من القرآن ولا من السنة)(1) قانون وضع لحماية حضارة الغرب وقيمه حل محل الأحكام الإسلامية التى كانت تحرم ما ظهر من الفواحش فى مجتمع المسلمين الذى بنى على الإيمان والطهر والعفاف. فانفرط المجتمع عندما عطل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى ظل سياجا منيعا يحمى المجتمع من التردى فى المفاسد. وبتعطيل هذا الواجب فشت المنكرات فى ظل حماية القانون الوضعى الذى أباح الزنا بالتراضى ورخص للحانات والبغاء، ودور الميسر والمؤسسات الربوية التى قام عليها الاقتصاد فنجحت محاولة الغرب فى تحويل حياة المسلمين إلى واقع غير إسلامى فى مظهره وحقيقته ولم يعد المسلمون جديرين بالوصف الكريم الذى وصف الله به سلفهم بقوله تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)(2) وانتابهم الضعف والتخلف ماديا ومعنويا، فظلوا فترة على أضعف الإيمان الذى ورد فى الحديث الشريف: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)(3)

---

(1) الاستاذ الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد ر الغزو الفكرى والتيارات المعادية للاسلام، بحث مقدم لمؤتمر الفقه الاسلامى الذى عقد بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية سنة ١٣٩٦ هـ نقلا عن وجهة الاسلام، ص ٢١٨

(2) آل عمران آية ١١٠

(3) صحيح مسلم، كتاب الايمان، بيان النهى عن المنكر من الايمان، حديث رقم ٤٩ .

وحتى هذا الوصف الأخير - أضعف الإيمان - لم يستمروا عليه طويلاً ،فكانوا فى البدء يرون المنكر ،فيعلمون أنه منكر ،وإن لم يستطيعوا تغييره بأيديهم ولا بألسنتهم خشية الوقوع تحت طائلة القانون ،فتنكره قلوبهم ،ثم تبلد الإحساس وألفت القلوب المنكرات فشاركوا فى فعلها ،وأصبحوا حماتها ،ولم يعد للوازع الدينى مكان فى قلوبهم ،بل لم يعد للدين مكان فى مجتمعهم وبعد أن كانت صلاة المؤمن ونسكه وحياته وموته لله أصبحت حياته كلها لقيصر ،وانحصر ما لله سبحانه من حياته فى ركن قصى عند قلة من الناس ،ففقد الإسلام مكانه فى المجتمع ،وانحسر فى محاريب العبادة ، فصار علاقة فردية بين العبد وربه وحتى هذه العلاقة صارت أوهى من حبل العنكبوت . يقول (جب) : (الواقع أن الإسلام بوصفه عقيدة لم يفقد إلا قليلاً من قوته وسلطانه ،ولكن بوصفه قوة مسيطرة على الحياة الاجتماعية قد فقد مكانته فهناك مؤثرات أخرى تعمل إلى جانبه ،وهى فى كثير من الأحيان تتعارض مع تقاليده ،وتعاليمه تعارضا صريحا ، ولكنها تشق طريقها بالرغم من ذلك كله إلى المجتمع الإسلامى فى قوة وعزم ،وإلى عهد قريب لم يكن للمسلم من عامة الناس ،وللفلاح اتجاه سياسى ولم يكن له أدب إلا الأدب الدينى ،ولم تكن له أعياد إلا ما جاء بها الدين ،ولم يكن ينظر إلى العالم الخارجى إلا بمنظار الدين ،كان الدين كل شئ بالقياس إليه ،أما الآن فقد أخذ يمد بصره إلى ما وراء عالمه المحدود ،وتعددت أنواع نشاطه الذى لم يعد مرتبطا بالدين ،فقد أصبحت له ميوله السياسية ،فهو يقرأ أو يقرأ له غيره مقالات فى مواضيع مختلفة الألوان لا صلة لها بالدين بل إن وجهة نظر الدين فيها لا تناقش على الإطلاق ،وأصبح الرجل من عامة المسلمين يرى أن الشريعة الإسلامية لم تعد هى الفيصل فيما يعرض له من مشاكل ،ولكنه مرتبط فى المجتمع الذى يحيا فيه بقوانين مدنية ،قد لا يعرف أصولها أو مصادرها ولكنه يعرف على كل حال أنها ليست مأخوذة من القرآن وبذلك لم تعد التعاليم الدينية صالحة لإمداده فى حاجاته الروحية ، فضلاً عن حاجاته الاجتماعية الأساسية بينما أصبحت مصالحه المدنية وحاجاته الدنيوية هى أكثر ما يسترعى انتباهه ،وبذلك فقد الإسلام سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئا فشيئا حتى انحصرت فى طقوس محدودة ، وقد تم معظم هذا التطور تدريجيا من غير وعى وانتباه ،وكان الذين أدركوا هذا التطور قلة ضئيلة من المثقفين ،وكان الذين مضوا فيه عن اقتناع قلة أقل .

(وقد مضى هذا التطور الآن إلى مدى بعيد ،ولم يعد من الممكن الرجوع عنه ،وقد يبدو

الآن من المستحيل مع تزايد الحاجة إلى التعليم، ومع تزايد الاقتباس من الغرب، أن يصد هذا التيار أو يعاد الإسلام إلى مكانته الأولى من السيطرة التامة التي لا تناقش على الحياة السياسية)[(١)].

ويستخلص (جب) من تحليله هذا أن الثقافة الغربية تمكنت من مجتمع المسلمين، فأصبحت توجه كثيراً من أقطارهم الوجهة الأوربية، وأصبح لها سدنة في كل قطر من أقطار المسلمين. وهذه حقيقة لا مرية فيها، بيد أن هؤلاء السدنة الذين اصطنعهم الغرب اصطناعا لحماية حضارته، ولقنهم صنيع دعاة التحرر الفكري الذين انتهى صراعهم الطويل المرير بانتصارهم على الكنيسة فهدموا سلطانها وحصروا نفوذها في دائرة طقوس محدودة سموها الدين، وبذلك تحقق فصل الدين عن السلطة المدنية، فانكمش نفوذ رجال الدين فلم يعد يتجاوز طقوس التعميد والصلاة والجنائز، وأصبحت شئون الدولة وتدبير نظام المجتمع في يد رجال السياسة، واستتبع ذلك تحرير الفكر، فنشط في الارتياد والكشف في حرية لا تعرف الخوف حتى وضع أوربا في الذروة في جميع نواحي الحياة المادية[(٢)]، وشحنت مناهج التعليم وخاصة كتب التاريخ بهذه المنجزات الضخمة وتغنى صنائع الاستعمار ورواد هذه الثقافة من أبناء الشرق بالحضارة المادية الغربية ورجالات الغرب ونسوا مثل الشرق وأخلاقه ورجالاته فأغدق الغرب عليهم وبوأهم الوظائف العالية فكانوا رسل حضارته، فشهروا أقلامهم يذودون عنها ويرغبون فيها، ولم يعد دفاعهم مستخفيا كما بدأ. يقول طه حسين: (بل نحن قد خطونا أبعد جدا مما ذكرت فالتزمنا أمام أوربا أن نذهب مذهبها في الحكم ونسير سيرتها في الإدارة، ونسلك طريقها في التشريع، التزمنا هذا كله أمام أوربا، وهل كان امضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة الغاء الامتيازات إلا التزاما صريحا قاطعا أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوربيين في الحكم والإدارة والتشريع، فلو هممنا الآن أن نعود أدراجنا وأن نحيي النظم العتيقة! لما وجدنا إلى ذلك سبيلاً، ولوجدنا أمامنا عقاباً لا تجتاز ولا تذلل، عقابا نقيمها نحن لأننا عاهدناها على أن نسايرها ونجاريها في طريق الحياة)[(٣)]

ولم يكن طه حسين وحده الذي فتنه بريق حضارة الغرب واصطنعه الغرب اصطناعا ليذود عن حضارته بل أمثاله كثر في مجتمع المسلمين منهم ساسة تعاهدهم الغرب، وسلط

---

(١) د. محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، جـ٢، ص٢١٨/٢١٩ نقلا عن وجهة العالم الاسلامي ص٣٣٦/٣٣٨

(٢) انظر الاتجاهات الوطنية، جـ٢، ٢٧٥

(٣) طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ص ٦٩

عليهم إعلامه ،وأضفى عليهم ألقاب المواطنة والحرية والشرف ،ألقابا تؤهلهم للزعامة والقيادة وهى فى حقيقتها كما يقول الشاعر العربى :

ألقاب مملكة فى غير موضعها * كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

وعند ما آلت الأمور إلى هؤلاء السدنة صنائع الاستعمار قضوا على البقية الباقية ، فمنهم من ألغى حتى المحاكم الشرعية التى عجز الاستعمار عن الغائها ،ومسخوا كثيراً من مدارس الإسلام ،فمثلا كلية الشريعة فى الأزهر الذى يعتبر الإمام للجامعات الإسلامية سميت (كلية الشريعة والقانون) فنحت بقية الجامعات الإسلامية نحوه ،وصار هذا القانون الوضعى الجائر مادة تدرس فى صلب مناهج هذه الكليات ،وبهذا أفلح الاستعمار فى مسخ مجتمعات المسلمين بالشرائع الوضعية التى رسخت أقدامه وسهلت مهام التبشير فى ديار الإسلام .

يقول (Millgan) : (إن رسوخ حكم الإنجليز فى السودان سهل مهمة المبشرين)[1]

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى حماية أكبر الكبائر: حماية الردة عن الإسلام ،ويعترف سكرتير الكنيسة الإنجليزية ،بأن السودان أول قطر إسلامى سن إجراءات خاصة بتسجيل المرتدين فيقول تحت عنوان ـ(الوضع القانونى للذين يغيرون دينهم) ـ (إن الاسلام التقليدى لا يعترف بالتحول عنه لدين آخر ،حيث يعتبر هذا التحول ردة عقوبتها الموت ،والسودان يعتبر أول قطر إسلامى سن إجراءات خاصة بتسجيل المرتدين ، والمقتطفات الاتية منقولة من النشرة القانونية لشمال السودان سنة ١٩١٢ والتى نصها كالاتى : تتبع الطريقة الآتية عند ما يرغب شخص فى تغيير دينه ،وتهدف هذه الإجراءات إلى منع وقوع المشاكل التى تنشأ فى المجتمعات "المتمدنة" أو مظاهر الإكراه وسوء المعاملة التى تمارس ضد القديس (Kadis) والقسيس أو القادة الدينيين الآخرين والتى قد تحدث بين فترة وأخرى ،ولا سيما إذا كان مقدمو الطلبات من القصر والنساء الذين يودون تغيير دينهم ،أو أولئك الذين غيروا دينهم بالفعل ،فيجب عليهم أن يقدموا طلبا للسلطات الدينية التى يرغبون فى الانتماء إلى دينها ،وعلى تلك السلطات تحويل طلبهم إلى المسئولين المدنيين فى المنطقة لتقوم بإخطار رجال الدين الذين يود مقدم الطلب التخلى عنهم إذا كان لهم وجود فى المنطقة ،وتعمل السلطات المدنية على تهيئة وقت ملائم حتى يتمكن رجال الدين من الاجتماع بمقدمى الطلبات ،وبعد إعطاء رجال الدين

---

(١) التبشير والاستعمار ص٤٦١

وقتا معقولا لمناقشة مقدم الطلب فى مكتب حكومى خاص،تقوم السلطات المدنية بسؤال مقدم الطلب ،وبحضور رجال الدين وفى حالة عدم وجودهم بالمنطقة تقوم السلطات المدنيـــة بتسجيل الحقائق بمثل ما تقدم ،وتسأل مقدم الطلب أمام شاهدى عدل يمثلان دين مقدم الطلب طالما كان ذلك ممكنا ،وتحتفظ السلطات المدنية بسجل رسمى بوقائع المقابلـــة وأجوبة مقدم الطلب عليها .

كما يجب إعادة الطلب إلى رجال الدين ويجب عليهم تمريره بدون تعطيل) [١]

هكذا هانت كرامة المسلمين على أعدائهم حتى طمعوا فى ردتهم ،وقننوا لهـــا مـــا يحميها من قوانين الكفر والفساد .

ومما لا شك فيه أن هذا القانون وضع أساسا لحماية المرتدين من المسلمين الذيـن يرغبون فى اعتناق المسيحية ويظهر ذلك جليا من تعليق المؤلف التنصيرى بعد إيراده لنص القانونى حيث يقول :

(هذا الإجراء ليس قانونا يلـــزم كل الذين يرغبون فى تغيير دينهم أن يسجلوا ولـــم يوجد سجل حكومى خاص بمن يغيرون دياناتهم ،ففى حالة ظهور نزاع ولم تتبع الطريقـــة المذكورة آنفا فانه فى أغلب الأحوال يكفى لإثبات التحول عن الدين إحضار من شهد (عطية التنصير !!) أو تلاوة الشهادة فعليه يعتبر الدين معترفا به قانونا ،لأن الشخص الـذى غير دينه قد يطلب حماية السلطات المدنية له مما قد يتعرض له نتيجة لتصرفه هذا ،والمتشددون من المسلمين جعلوا تغيير الدين نحو المسيحية فى غاية الصعوبة ،وخاصة بالنسبة للنســاء بسبب الدعاية التى صاحبت الإجراءات المذكورة أعلاه فى السودان .

(فعلى الرغم من أن الشريعة آلت إلى قوانين ولكن لا تطبق فى الواقع ولا توجب عقوبة الموت على المرتد [٢] فإن النظرة الاجتماعية لمن يبدل دينه لا تخفى على أحد ،فهـــى تضاهى قوة القانون ، وهذا مما جعل التحول إلى المسيحية أمراً بالغ الصعوبة فى أوساط المسلمين) [٣]

---

(١) The Christian approach to Islam in the Sudan P.35

(٢) يعنى المؤلف ان المرتد إذا وجد حماية القانون من ان ينفذ فيه حد المرتد ، فـلا يجد حماية من المجتمع الذى يطلق عليه اسم المرتد ويسقطه من قائمة المسلمين .

(٣) The Christain Approach to Islam in The Sudan P.35,36

وهكذا هدفت قوانين الاستعمار ونظمه إلى إخراج المسلم من دينه بشتى الوسائل ليصبح نصرانياً ،ولكنها باءت جميعها بالفشل ،وذلك لأن الذين غيروا دينهم واعتنقوا النصرانية فى حكم العدم باعتراف النصارى أنفسهم وهذه حقيقة يقررها زعيم المبشرين صموئيل زويمر اليهودى ،فى مؤتمر القدس سنة ١٩٣٥ بقوله:

(.. إنى أقركم على أن الذين دخلوا من المسلمين فى حظيرة المسيحيين لم يكونوا مسلمين حقيقة ،لقد كانوا كما قلتم أحد ثلاثة:

أما صغير لم يكن له من أهله من يعرّفه ما هو الإسلام ، وأما رجل مستخف بالأديان لا يبتغى غير الحصول على قوته وقد اشتد به الفقر وعزت عليه لقمة العيش ،وأما آخر يبغى الوصول إلى غاية من الغايات الشخصية ولكن مهمة التبشير التى ندبتكم دول المسيحية للقيام بها فى البلاد المحمدية ليست هى إدخال المسلمين فى المسيحية- فإنّ فى هذا هداية وتكريماً ، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقا لا صلة له بالله ، وبالتالى لا صلة تربطه بالإخلاق التى تعتمد عليها الأمم فى حياتها)[1]

ولكن على الرغم من أن هذه القوانين لم تخرج المسلمين من دينهم ليصبحوا نصارى فقد أخرجت كثيراً منهم من دينهم إلى العلمانية ،التى لا تعترف بدين ولا خلق ولا قيم ، فصاروا عوناً للاستعمار فى هدم مجتمعهم.

---

(١) عبد الله التل ،جذور البلاء ، ص٢٧ ، المكتب الاسلامى ،طبعة ثانية سنة١٣٩٨هـ/١٩٧٨م

المبحث الثاني
أثر الاستعمار في الضعف الديني

لقد نجحت جهود الاستعمار ومخططاته في إبعاد المسلمين عن دينهم وخاصة في الجيل الذي صنعه المستعمرون بأيديهم وربوه تربية خاصة ليحل محلهم في التبشير بحضارتهم المزعومة. ويعتبر هدم الإسلام في جوانبه التشريعية أكبر هدم لمجتمع المسلمين حيث نبلت الشخصية الإسلامية، أو بتعبير أدق مسخت وشاهت، واتجه التشريع عن الوجهة الإسلامية إلى وجهة غربية، ونسي المبهورون مجدهم الذي أضاعته غفلتهم وتعلقوا بالسراب الخادع الذي بهرهم به الغرب الحاقد، فنسوا كل شئ يربطهم بدينهم وضاقت صدورهم بسماع مايربطهم أو يذكرهم بماضيهم العريق ورموا دعاة ذلك بالرجعية والتخلف، وبشروا بكل ما هو وافد من الغرب فنمت قوانين الغرب الوضعية واندثرت الشريعة الإسلامية وتبنى الاستعمار ثلة من أبناء المسلمين وأدخلهم مدارس الحقوق الغربية في الداخل والخارج بعد أن زعزعت مدارسه عقائدهم، وقيمهم وأفسدت أخلاقهم، واستقدم أساتذة القانون الغربيين ليتعهدوا هؤلاء، فكانوا حرباً على أممهم ومجتمعاتهم وعقائدهم وأخلاقهم، كما أصبحوا سدنة هذه القوانين الوافدة يذودون عنها ويعتبرونها أساس الرقي والتحضر ويدافعون عن مدارسها ويطالبون بتنميتها وترقيتها حتى أصبحت كليات شامخة تضاهي كليات الغرب في أعرق وأكبر جامعاته، فوفرت بذلك جهد الابتعاث إلى الغرب وأوغلت في التغريب وبذلك نجحت خطط التبشير والاستعمار نجاحا كبيراً في ابعاد المسلمين عن دينهم وزعزعة عقائدهم ومحو نظمهم السياسية والاجتماعية وتغيير عاداتهم وتقاليدهم، فبدأ الإسلام يفقد هيمنته الروحية على المجتمع تدريجيا كما فقد هيمنته التشريعية، فضعفت العواطف الدينية وقل الاهتمام بتعاليم الدين ففشى الجهل، وتحقق ماأخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم، كما ورد في الحديث الذي أخرجه الحاكم عن حذيفة رضي الله عنه قال (أول ماتفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة، ولتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، وليصلين النساء وهن حُيَّض، ولتسلكن طريق من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، وحذو النعل بالنعل، لا تخطئون طريقهم ولا يخطئنكم، حتى تبقى فرقتان من فرق كثيرة فتقول احداهما ما بال الصلوات الخمس لقد ضل من كان قبلنا، إنّما قال الله تبارك وتعالى

(أقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل) لا تصلوا إلّا ثلاثا ،وتقول الأخرى: إيمان المؤمنين كإيمان الملائكة ما فينا كافر ولا منافق. حق على الله أن يحشرهما مع الدجال)[1].

صنائع الاستعمار وحلفاؤه:

بدأت الطبقة المثقفة أو الصفوة كما يسميها البعض تتبنى التصورات الخاطئة عن الدين وتثير الشبهات التى أثارها المستشرقون والمبشرون والمستعمرون وتلقفها تلاميذهم ببلاد الإسلام -وخاصة مصر- وألفوا فيها كتبا روجها الاستعمار بوسائل إعلامه المختلفة، ومن أشهر هؤلاء الكتاب طه حسين مؤلف (فى الشعر الجاهلى) و(مستقبل الثقافة فى مصر) و(مرآة الإسلام) و(الأيام).

وقاسم أمين الذى ألف (تحرير المرأة) و(المرأة الجديدة). ولقد نسب بعض المؤلفين هذين الكتابين الأخيرين للشيخ محمد عبده والزعيم سعد زغلول، ولقد خشى الزعيمان على مركزهما الاجتماعى فحملا قاسما العبء فحمله بدلا منهما)[2] واحتج هذا البعض لنسبة الكتابين لغير قاسم لعدم تمكنه فى معرفة الإسلام بينما جاء الكتابان على نسق يدل على أن المؤلف له خبرة واسعة بعلوم الدين. وعندما انتقد الدكتور محمد محمد حسين كتاب (تحرير المرأة) لقاسم أمين قال (من هذا العرض يبدو واضحا أن الكتاب ليس كتاب فقه وأن صاحبه ليس فقيها[3] يعرض لشرح النصوص الإسلامية شرحا نزيها ليستنبط منها، ولكنه كتاب موجه لخدمة فكرة معينة يحاول المؤلف أن يسخر النصوص لخدمتها)، وفى هامش الصفحة نفسها يعلق قائلا: (بل المعروف أن مؤلف الكتاب ليس له المام بالعلوم الإسلامية ولذلك شاع بين الناس وقتذاك أن مؤلفه فى الحقيقة هو الشيخ محمد عبده استاذ قاسم أمين)[4]

وفتح الاستعمار الباب على مصراعيه لهذه الأفكار الهدامة الخبيثة لتتسرب إلى جنوب مصر، وشرعت وسائل الكفر فى التمكين لها، وكان أثرها على شقيقى السودان كبيراً حيث لم يكن بالسودان من العلم والعلماء ما يقى من سمومها كما كان الشأن فى مصر، فنشأ جيل

---

(١) قال الحاكم هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه ،المستدرك ٤ / ٤٦٩ كتاب الفتن والملاحم أول ما تفقدون من دينكم الخشوع.

(٢) انظر المستشار على جريشة، أساليب الغزو الفكرى للعالم الاسلامى ص ٦، ط أولى دار الاعتصام ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م

(٣) والمؤلف لا ينفى الفقه عن المؤلف وانما ينفى نزاهة العرض.

(٤) انظر الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ص ٣٠.

علمانى يسخر من الذين يقاومون الاستعمار بالجهاد ويمدح الذين يتعاونون مع الاستعمار يقول أحمد خير: (والقيادة الدينية فى السودان نوعان : قيادة مستنيرة ،وأخرى ضاربة فى غياهب الجهل تائهة فى سراديب التعصب ،والأخيرة هى التى انفردت بتعكير صفو الأمن بين الفينة والأخرى ،وفى جهات مختلفة تحت اسم الثورة الدينية تزهق فيها الأرواح ويسفك من الجهد والمال قبل أن يلقى قادتها حتفهم فى حومة الوغى أو على خشب المشانق دون عطف أو اهتمام من الرأى العام.

أما الأولى من علماء الشريعة والمشايخ الصوفية فقد التزمت منذ البداية جانب التعاون مع الهيئة الحاكمة تعاونا سلبيا أو إيجابيا ،ضعيفاً ،أو قوياً ،علنياً أو سرياً ،مقبولاً لدى الرأى العام أو غير مقبول)(1)

ويستطرد الكاتب فيقول :

(وفى غضون هذه الفترة أخذت طائفة أخرى تجتاز طور التكوين الزمنى والنشوء ،وتلك هى طبقة الجيل الحديث فى السودان ، حديث فى الترتيب الزمنى ،وحديث لأنه الجيل الذى نال قسطاً من العلوم العصرية ،ونال حظاً أوفر من التدريب والصقل فى دواوين الحكومة ،وبدأ ينظر إلى الحياة وإلى المجتمع السودانى بمنظار عصرى ويقدره تقديراً عصرياً هو مزيج من الثقافة الدينية السلمية ،ومن الثقافة الأوربية الجارفة)(2) (بالطبع فقد تغيرت نظرة هؤلاء إلى الحكام البريطانيين من أعداء الله المشركين إلى مستعمرين دخلاء وأجانب ، وتغير أسلوب المقاومة من (الجهاد الدينى ضد الكفار) إلى الخطب والمظاهرات والإضراب، وتغير الهدف من (هداية العباد وتجديد الدين ومحو الفساد) إلى طرد المستعمر وإقامة حكومة وطنية سودانية ،وكان محور الخلاف السياسى بين أبناء هذا الجيل هو تكوين تلك الحكومة متحدة مع مصر أو مستقلة أو مرتبطة مع الإنجليز)(3)

وما زالت هذه الأفكار تسيطر على قطاع كبير ممن يسميهم البعض ب(الصفوة) . جاء فى

---

(1) كفاح جيل ص ١٨

(2) كفاح جيل ص ١٨ / ١٩

(3) د .الطيب زين العابدين ،التيار العلمانى وأثره فى السودان ،ص٩، بحث مقدم للمؤتمر الأول (الاسلام فى السودان) بقاعة الصداقة (١-٤ من صفر ١٤٠٣ هـ مكتوب على الآلة الكاتبة ،وانظر كفاح جيل ص ١٧

كتاب (حوار مع الصفوة) لمنصور خالد[1] تحت عنوان الإسلام ومجددوه ما يأتي (.. ودور المجددين في اعتقادي المتواضع هو أن يعيدوا للدين إيجابيته بعد أن سلبه الشيوخ المتحجرون كل مضمون ثوري .. إلى قوة دافعة للتحول الاجتماعي، ومن صوفية راكدة إلى دعوة رشيدة للحوق بركب الحضارة الإنسانية، دورهم هو أن يعيدوا للإسلام روحه وحيويته لا أن يعيدوا تلقين المسلم أصول عقيدته فهو أعرف بها بفطرته)[2]

فالاستعمار وأعوانه يدركون تماما أن الوهن لم يدب إلى هذه الأمة إلّا بعد أن وهن اعتقادها، فهم يحرصون دائما على ألّا تتنبه الأمة إلى موضع الخلل فتصلحه، فتفوت عليهم الفرص .

وكتب منصور تحت عنوان (الانفتاح الواعي) يقول : (لقد ظللت أتابع ما يقال .. وينشر .. ويذاع من أهل الهيمنة الجدد، وظللت أتابعه باحثاً عن الرأي الجديد في المشاكل المشتجرة التي تمس حياة المسلمين، مشاكل التنمية ... والتحرر الوطني .. والانتاج ... والتربية القومية ... والتحول العصري .. والعدالة، والتكافل ... ظللت أتابعه باحثاً عن الانفتاح الواعي نحو تجارب العصر وفلسفاته لأن هذا هو الطريق الوحيد لبث الروح في الجسد المحتضر، وتطهير الفكر من الضلالة، والجهالة، انفتاح كانفتاح إخوان الصفا بالأمس . (اعلم أيها الأخ أن الشريعة قد تدنست بالجهالات واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها إلّا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية، واعلم أننا لا نعادي علماً من العلوم ولا نتعصب على مذهب من المذاهب ولا نهجر كتاباً من كتب الحكماء)[3]

فالكاتب يدعو إلى ما تدعو إليه رسائل إخوان الصفا[4] ولعله اطلع عليها فصادفت هوى في نفسه وهي رسائل مقول فيها إنها من وضع رجل يريد هدم الأديان، ولم يقف المؤلف عند

---

(١) منصور خالد، ولد سنة ١٩٣١، درس القانون في جامعات الخرطوم، وأمريكا، وفرنسا وارتبط بالمنظمات والهيئات العالمية الليبرالية ، واستعملة الغرب في عدة وظائف هامة أهله لها ولاؤه للغرب، وعمل باليونسكو، وشغل منصب مندوب السودان الدائم بالأمم المتحدة كما شغل عدة مناصب قيادية في فترة حكم نميري كوزارة الشباب ووزارة الخارجية .

(٢) منصور خالد ، حوار مع الصفوة، ص ١٨٣ ، طبع ونشر دار جامعة الخرطوم، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٩م .

(٣) نفس المصدر ص ١٨٣ / ١٨٤

(٤) رسائل اخوان الصفا احدى وخمسون رسالة كل رسالة مستقلة بنفسها وضعها رجل فيلسوف خاض في علوم الشرع فمزج العلمين وحسن الفلسفة في قلوب أهل الشرع بآيات وأحاديث يذكرها وقد ظن بالمؤلف الظنون (انظر الاصفهانية ص ١١٦ والولاية والأولياء ص ٢٥٦

هذا بل يذهب أبعد من ذلك فيقول :

(إن الإسلام ، بل الأديان السماوية جميعها - في جوهرها ثورات حضارية ، وكل ثورة حضارية هي جهد فكري وخلقي متطور ، فالإسلام إذن جهد حضاري متطور يرفض التحجر .. وكجهد فكري واع يحترم العقل ، وكثورة خلقية يفرض أدبه على دعاته قبل منكريه . يفرض عليهم التسامح والأمانة العلمية وأدب الخطاب)[1] .

يزعم الكاتب أن الأديان السماوية في جوهرها ثورات حضارية ، ولم يقف عند هذا الحد بل يتجاوزه ، فيقول : فهي بالتالي جهد فكري وخلقي متطور ، ومن ضمن هذه الأديان الإسلام فهو في نظره كذلك جهد حضاري متطور ، وطالما كان جهداً حضارياً متطوراً فيعلم من ذلك أنه ليس وحياً من عند الله سبحانه ، وهذا أسلوب سلكه عتاة المستشرقين والصهاينة لهدم رسالات الأنبياء جميعا ، وعلى رأسهم الصهيوني (ول ديورانت) الذي قرن هذه الرسالات في كل موضع من كتابه (قصة الحضارة) بآراء الفلاسفة والكتاب وأصحاب المذاهب الضالة الفاسدة في بعض الأحيان ، فهو يزعم أن هذه الرسالات ليست منزلة من عند الله ولكنها نابعة من عقول الناس بعد أن تحرروا من أسر الآراء السائدة في عصرهم ، وبذلك هو يحض على الاقتداء بهم حسب تصوره المزعوم في الخروج على كل ما هو ثابت مقرر مما توقره التقاليد ، وتقدسه الأديان ، وهذا ما يسميه ذلك الهدام بالحرية واستقلال الشخصية[2] فنهج نهجه كثير ممن تأثروا بالفكر الغربي فخدموا مقاصد الاستعمار وأهدافه بقصد أو بدون قصد .

ثم يواصل منصور الحديث فيقول :

(إن مشاكل المسلمين في السودان عديدة وليست الشيوعية واحدة منها ، ثم ما هي هذه الشيوعية ؟ وما هو هذا الالحاد اللذين نعترك ضدهما ؟ إن الشيوعية النظرية إنما هي فكرة إدانتها حماقة تماما كإدانة نظرية داروين ، وأفكار فرويد !! وان الشيوعية كنشاط إنما هي تجسيد لواقع في مجتمع قبل ويقبل جميع ألوان الطيف السياسي .. والواقع الاجتماعي هذا لم يكن واقعا قبلناه فحسب ، بل واحتضناه وأحطناه بالرعاية يوم أن كانت لنا مصلحة فيه)[3]

---

(١) حوار مع الصفوة ص ١٨

(٢) انظر د . محمد محمد حسين ، حصوننا مهددة من داخلها ص١٢٧ ، الطبعة السابعة سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م مؤسسة الرسالة ، بيروت لبنان .

(٣) حوار مع الصفوة ١٨٦

وكما يقرر المؤلف أن إدانة الشيوعية الملحدة في بلد إسلامي حماقة، لم تقل في نظره عن إدانة زعماء التخريب أمثال فرويد وداروين نجده كذلك يقول عن محمود محمد طه[1] (ولدينا نموذج فيما قال الأستاذ محمود محمد طه، وهو رجل مسلم ملئ بالإيمان حتى المشاش، ومفكر يشرف الفكر الإسلامي، رجل مثل محمود لم ينج من تهمة الزندقة لجسارته الفكرية ولمحاولته الرائدة في وضع الدين في إطار العصر، والحرب ضده حرب غير أمينة، وليست من أخلاق الإسلام في شئ .. فمفاهيم الأستاذ محمود محمد طه الفلسفية هي مفاهيم يقبلها القابلون ويرفضها الرافضون، ولكن الحقيقة الهامة هي أن هذه المفاهيم هي امتداد للفكر الإسلامي[2]، بل أذهب لأقول إن الأستاذ محمود هو السياسي السوداني الوحيد في مواقع اليمين الذي يفكر برأسه ويأتم بعقله[3]) ثم يقول (والحديث عن محمود يقودني بالضرورة للحديث عن ظاهرة رجال الدين، وهي ظاهرة بابوية لم يعرفها الإسلام فمفهوم رجل الدين مفهوم موروث من جاهلية الترك غذاه وأبقى عليه الاستعمار، ومظهر رجل الدين العمامة والقفطان المزركش والحزام المقصب مظهر موروث من الأعاجم هو الآخر.[4]

• (وقضاة الشرع من بين رجال الدين، هؤلاء طائفة قضاة الشرع، وماكنت أود أن أتناولها بالحديث لو اقتصرت على أداء واجبها كموظفي دولة يتقاضون رواتبهم من مال دولتهم التي تجبيه فيما يجبى من ريع بيع الخمور .. نعم ما كنت لأتناولهم لو اقتصروا على أداء واجبهم الذي يحدده لهم القانون .. قضاة أنكحة وميراث، قانون وضعه الاستعمار وارتضاه الذين ورثوا الأرض من بعده، وهو قانون لا يملك أن يحدد للمسلمين ظلال الله على الأرض...

كتب التاريخ تقول إن هذه الظلال قد انحسرت بانحسار ملك آل عثمان، ولا يكفي حسب تقديري المتواضع أن يقوم مواطن فاضل بدراسة الشريعة الإسلامية دراسة وظيفية ثم يرتدى

---

(١) رجل زنديق حكمت جميع المؤسسات والهيئات الإسلامية داخل السودان وخارجه بردته ومروقه عن الإسلام. وعلى رأس هذه المؤسسات الأزهر الشريف ومجمع البحوث الإسلامية بمصر، ورابطة العالم الإسلامي ، ومشيخة السودان العلمية ، والمحكمة الشرعية العليا التي حكمت بردته سنة ١٩٦٨ وظل تنفيذ الحكم معلقا حتى حكم عليه بالردة سنة ١٩٨٣ ونفذ فيه حكم الإعدام شنقا وأراح الله من شره البلاد والعباد .

(٢) بل هي امتداد لمحاولة هدم الاسلام.

(٣) حوار مع الصفوة ص ١٨٧

(٤) المصدر نفسه ص ١٩٠

قفطانا ويتمنطق بحزام ،وفي يده مسبحة كهرمان ،لا يكفي هذا ليجعل من المواطن الفاضل حفيظا على دين الله... هذه هي الصورة التي أراد الأعاجم والاستعمار من بعد أن تنطبع في رؤوسنا عن الدين ورجل الدين) [(١)].

ومثل هذا الأسلوب الذى استخدمه المؤلف هو نفس الأسلوب الذى استخدمته الصهيونية في هدم المسيحية ومحو سلطان رجال الكنيسة من قلوب المسيحيين .

جاء في البروتوكول الخامس:

(... وأن الجماعة المعروفة لنا ويمكن أن تنافسنا في هذه الفنون ربما تكون جماعة اليسوعيين Jesuits ولكننا نجحنا في أن نجعلهم هزواً وسخرية في أعين الرعاع من الأغبياء ،وهذا مع أنها جماعة ظاهرة بينما نحن أنفسنا باقون في الخفاء محتفظون بسرنا سرا) [(٢)]

وهو نفسه الأسلوب الذى اتخذته الصهيونية في هدم الخلافة الإسلامية ،وما زالت تتخذه الآن لمحاربة الإسلام ،وإفساد دين ناشئيته ومجتمعه ،وإضعاف سلطان عقيدته على النفوس وهو أسلوب يقوم على السخرية بعلماء الدين وتصويرهم بصورة الجهلة الجامدين تارة ،والمنافقين المستغلين لسلطان وظائفهم تارة أخرى ،وباثارة المشاكل الوهمية حول قواعد الإسلام وأحكامه ليوهموا ضحاياهم أن أحكام الإسلام لم تعد كافية لسد حاجات المجتمع الحديث [(٣)].

وليس غريبا أن يجند الاستعمار وأعوانه من بني جنسه إمكاناتهم لإخضاع المسلمين واستلاب ممتلكاتهم ،إنما الغريب أن يتخذ الاستعمار من أبناء المسلمين بطانة يغذيها بأفكاره ويرضعها ثقافته ويبوئها المكانة العالية لنشر أفكاره ، وتحمل معاول الهدم والتخريب جاهلة أو عامدة ،وتأخذ أجر عمالتها مالاً حراماً ،ورتباً عالية رفيعة ،فكان خطر هذه الفئة عظيماً لأن علاقتها بمجتمعها أوثق من علاقة العدو الظاهر، فهي تعيش وسط المجتمع تدعى أنها منه وإليه ترعى حقوقه وتسهر على مصالحه وهي في الحقيقة تضمر له الشر وتبيت

---

(١) حوار مع الصفوة ص ١٩٠ / ١٩١

(٢) الخطر اليهودى (بروتوكولات حكماء صهيون) ترجمة محمد خليفة التونسي ص١٣٣ ، ط دار الجيل .

(٣) انظر حصوننا مهددة من داخلها ص ١٢٥

له الغدر ، ولهذا استطاعت أن تهدم في مدة وجيزة ما عجز الأعداء عن هدمه عبر القرون المديدة ، وصدق الله العظيم القائل (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين)[1]

فهذا النوع المسخر لخدمة الأعداء هو نتيجة الجهد الذى بذله الاستعمار والتبشير في بلاد المسلمين عن طريق التعليم العلماني الذى أشار إليه زويمر في مؤتمر القدس بقوله : (ولقد قضينا أيها الإخوان في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية المستقلة أو التى تخضع للنفوذ المسيحى ، أو التى يحكمها المسيحيون حكماً مباشراً ، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير المسيحى ، والكنائس والجمعيات ، وفى المدارس الكثيرة التى تهيمن عليها الدول الأوربية والأمريكية ، وفى مراكز كثيرة ، ولدى شخصيات لا تجوز الإشارة إليها ، الأمر الذى يرجع الفضل فيه إليكم أولا وإلى ضروب كثيرة من التعاون بارعة باهرة النتائج ، وهى من أخطر ما عرف البشر في حياته الإنسانية كلها ، إنكم أعددتم بوسائلكم جميع العقول فى الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق الذى مهدتم له كل التمهيد (إخراج المسلم من الإسلام) إنكم أعددتم نشئا لا يعرف الصلة بالله ، ولا يريد أن يعرفها وأخرجتم المسلم من الإسلام ، ولم تدخلوه في المسيحية ، وبالتالى جاء النشئ الإسلامى طبقا لما أراده له الاستعمار ، لا يهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل ، فإذا تعلم فللشهوات وإذا جمع المال فللشهوات وإن تبوأ أسمى المراكز ففى سبيل الشهوات يجود بكل شئ ، إن مهمتكم تتم على أكمل الوجوه وقد انتهيتم إلى خير النتائج . . ورضى عنكم الاستعمار ، فاستمروا وأدوا رسالتكم)[2] .

بهذا التآمر الخبيث استطاع الغرب أن ينشر سمومه الفكرية التى سرت في كثير من العقول الضعيفة ، المريضة فتأثرت بحضارته ونادت بها متنازلة عن قيمها وأخلاقها راضية

---

(١) المائدة الآيتين رقم ٥١ ، ٥٢

(٢) جذور البلاء ص ١٧٥ / ١٧٦

بالذل والتبعية ،لا تحاول الفكاك عن هذه المصيدة ،الأمر الذى جعل(شاتليه)يقول :

(من المحقق أن الإسلام يضمحل من الوجهة السياسية ،وسوف لا يمضى غير زمن قصير حتى يكون الإسلام فى حكم مدينة محاطة بالأسلاك الأوربية).[١]

ويقول : (لا ينبغى لنا أن نتوقع من جمهور العالم الإسلامى أن يتخذ له أوضاعا وخصائص أخرى إذا هو تنازل عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية ،إذ الضعف التدريجى فى الاعتقاد بالفكرة الإسلامية ،وما يتبع هذا الضعف من الانتقاض والاضمحلال الملازم له سوف يفضى - بعد انتشاره فى كل الجهات - إلى انحلال الروح الدينية من أساسها لا إلى نشأتها بشكل آخر)[٢]

ولم يكتف الاستعمار وأعوانه بهذا القدر فى حرب الإسلام وإضعافه فى نفوس المسلمين ، بل عملوا جاهدين لايجاد قنوات إسلامية توافق أهواءهم ،تمتص أى عاطفة دينية يخشون عواقبها ، فشجعوا الطرق الصوفية والطائفية وبنوها وقدسوا زعماءها وأظهروا لهم الود والاحترام أمام متبوعيهم حتى التف حولهم كثير من الاتباع وأضفوا عليهم من القداسة ما مكن لهم فى قلوب متبوعيهم وحاربوا بهم كل دعوة للإسلام تقوم على المنهاج الصحيح .

يقول تريمنجهام : (نسبة لذهاب سلطة الأمراء المحليين فى السودان عمدت الحكومة إلى موالاة ورعاية قادة ورؤساء الطرق الصوفية ،والذين كان لبعضهم يد على الحكومة مثل الميرغنية الذين لعبوا دوراً هاماً فى مساعدة الحكومة فى إعادة فتح السودان ولكن نفوذهم المتوارث لا يقوم على أساس دينى متين ثابت كالأساس الذى يقوم عليه نفوذ القادة العلمانيين[٣] وهو الأرض والشيوخ التابعين ،ورجال الدين المقبولين[٤] الذين يفهمون الدين فهما صحيحا وهذا الوضع أدى إلى اتباع سياسة ضرب كل من القادة الدينيين بالآخر والتدخل المباشر فى الأموربطريق قد يؤدى إلى بذر بذور العداء)[٥]

ولقد فطنت الإدارة البريطانية لأهمية الطرق الصوفية .وقدرتها على تنظيم أتباعها

---

(١) الغارة على العالم الاسلامى ص٢٠

(٢) المصدر نفسه ص ١٩

(٣) يعنى بالقادة العلمانيين الجيل الذى نال حظا من التعليم فصار ينادى بالحرية وقيام حكومة وطنية كقادة الحزب الوطنى الاتحادى وغيره ممن لم يكن ولاؤه لهذه الطوائف الموالية للاستعمار.

(٤) يعنى برجال الدين المقبولين الذين لم يكونوا إمّعات لهذه الطوائف التى مكن لها الاستعمار لاذلال المسلمين

(٥) The Christian approqch to Islam in the Sudan P. 26

على العمل فى منظمات قبلية فسعى كرومر سنة ١٩٠٠ لمنح السيد على الميرغنى لقبا رسميا باعتباره زعيم طائفة الختمية التى تحظى بنفوذ دينى كبير.[1]

ويقول الاستاذ عبد الله حسين تحت عنوان (أعيان السودان) : (السير السيد على الميرغنى كبير أعيان السودان وأحد علمائه الأعلام، ورئيس الطريقة الميرغنية فى القطرين السودانى والمصرى، ورئيس الوفد السودانى الذى سافر إلى لندن فى يوليو سنة ١٩١٩، وحامل نيشان القديسين ميخائيل وجورج من درجة فارس ونيشان فكتوريا من درجة فارس).[2]

وأصبحت كل طائفة من هذه الطوائف تضم جمعا من المسلمين الذين أفترسهم الجهل فتعلقوا بهذه الزعامات المصطنعة التى أغدق عليها الاستعمار من المصالح المادية والمنافع الدنيوية ما جعلها تبيع دينها راضية بلماعة من العيش غير الكريم فى ظل الاستعمار وأصبحت مقاييس التدين تقاس بالولاء لطائفة من هذه الطوائف، وانحصر الإسلام فى قراءة الموالد وحوليات المشائخ التى كان كثيراً ما يحضرها الحاكم الإنجليزى، وأصبح التدين علاقة فردية بين العبد وربه لا شأن له بالسياسة والحكم وأصبحت كل طائفة تلعن أختها وتدعى مروقها عن الدين لأن الدين فى فهمها ماعليه شيخها، مما جعل كثيراً من المثقفين بالثقافة الغربية فى مدارس التبشير والاستعمار تلك المدارس التى أغلقت أمامهم كل طريق يوصلهم إلى معرفة الإسلام الحق، ولم تتح لهم أى فرصة للإطلاع إلّا لما يوافق هواها. يظنون أن هذا الواقع المنحرف هو الإسلام، وهكذا نجحت الإدارة البريطانية بالسودان فى ضم رجال الدين إلى صفوفها، وكانت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ أكبر محك لامتحانهم، خاصة وقد دخل خليفة المسلمين الحرب ضد بريطانيا، والسؤال الذى شغل أذهان الإداريين البريطانيين وقتذاك هو هل يستمر زعماء الطرق الصوفية، والعلماء التقليديون بالسودان فى التعاون مع الإدارة البريطانية التى دخلت الحرب ضد خليفة المسلمين لتزيل العقبة الكأداء التى واجهت أوربا فترة من الزمن وحالت دون تحقيق مطامعها ؟ وفى سنة ١٩١٤ طلب الحاكم العام للسودان (ريجنالد ونجت) من أعيان السودان وعلمائه تأييد بريطانيا باعتبارها الصديقة الحامية للإسلام، فاستجابوا استجابة ظاهرة وسريعة ومن ثم أرسل مشائخ الطرق الصوفية والعلماء والأعيان وزعماء القبائل رسائل

---

(١) رسالة كرومر للملكة ٢٩/١٢/ ١٩ والإدارة البريطانية ص ٣٢

(٢) الاستاذ عبد الله حسين، السودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة المصرية، جـ٣ ص ٣٢٧، الطبعة الأولى سنة ١٣٥٤/ ١٩٣٥، طبعة الرحمانية بمصر .

الولاء للحاكم العام ،وأعلنوا وأتباعهم استعداد هم للوقوف إلى جانب بريطانيا ،واستنكروا إعلان تركيا الحرب ضدها ،وربما كانت أكثر الرسائل أهمية رسالة السيد عبد الرحمن المهدى ابن المهدى نفسه[1] الذى كان فى حماية شيخ الإسلام محمد البدوى رئيس لجنة العلماء لانضمامه للوقوف مع الإنجليز بجانب على الميرغنى والشريف الهندى ،فتحققت بذلك آمال (ونجت) فى أنه سيحول المهدية إلى طريقة دينية سلمية (سلبية) كالطريقتين الأخريين.[2]

ما بعد الحرب :

عند ما انتصر البريطانيون فى الحرب العالمية الأولى فكرت إدارة السودان فى تكوين وفد من الذين أخلصوا للإمبراطورية فى صراعها الطويل ضد أعدائها ،فتكون الوفد من رؤساء الطرق التى وقفت مع الإنجليز قبل وبعد أن وطئت أقدامهم أرض السودان كالسيد على زعيم الختمية والشريف الهندى زعيم الهندية والسيد عبد الرحمن الذى حقق ظن (ونجت) فاختاره عضوا فى الوفد مكافأة له لطاعته وولائه وخدماته وإخلاصه أثناء الحرب. وضم الوفد كذلك ثلاثة من العلماء الموظفين من ذوى المكانة الدينية والمراكز الرسمية وتم اختيارهم لتأييدهم المستمر للإدارة البريطانية وهم الطيب أحمد هاشم ،مفتى السودان ،وشقيقه أبو القاسم أحمد هاشم ،رئيس هيئة علماء السودان ، والشيخ إسماعيل الأزهرى (الكبير) قاضى مديرية دارفور كما ضم الوفد خمسة من زعماء القبائل التى وقفت بجانب الإنجليز فى حربهم ضد المهدية وهم :

١- على التوم فضل الله ،ناظر قبيلة الكبابيش ،وهو الذى عينه الإنجليز ناظراً لعموم الكبابيش مكافأة له ،خلفا لأخيه الذى قتله الأنصار .

٢- إبراهيم بك محمد فرح ،زعيم الجعليين .

٣- عبد العظيم بك حسين خليفة زعيم قبيلة العبابدة ،ولم يسافر مع الوفد لأسباب غير معروفة .

٤- عوض الكريم أبو سن ، ابن ناظر عموم الشكرية .

٥- وابراهيم بك موسى ابراهيم ،زعيم قبائل الهدندوة .[3]

---

(١) جعفر محمد على بخيت ،الادارة البريطانية والحركة الوطنية ،ص ٣٦ ترجمة هنرى رياض ،ط أولى سنة ١٩٧٣م ،دار الثقافة بيروت .

(٢) نفس المصدر ص ٣٨

وجمعت الرسائل جميعا فى كتاب سمى سفر الولاء ونشر فى ملحق خاص لجريدة (سودان تايمز) بتاريخ ١٤ اغسطس ١٩١٥

(٣) انظر حسن نجيلة ،ملامح من المجتمع السودانى ،ص ٥١/٥٢

وفى تاريخ ٢١ من يونيو ١٩١٩ كتب صاحب جريدة الحضارة والصحفى الرسمى المرافق للوفد ما يلى :

(علمنا أن وفداً من سراة هذه البلاد سيتوجه لانجلترا لينوب عن أهالى هذه البلاد فى تهنئة جلالة الملك بنهاية الحرب نهاية سعيدة مقرونة بالانتصار... أجل نزف إلى قومنا هذه البشرى التى لم تأتهم بمثلها الأيام من حيث دلالتها على معنى كبير، فلا بدع إذا ابتهجت البلاد سروراً بهذا الخبر ،لأنه جاء دليلا على أن ما أظهرته فى هذه الحرب لم يذهب سدى ،بل صادف أمة حرة ،وحكومة كريمة ،فأنبت فيها عواطف العطف علينا كما أن هذا المظهر من مظاهر الإخلاص الذى تظهر به على الدوام لم يكن إلا اعترافا بالجميل ،فزيارة وفدنا لتلك البلاد التى تربطنا بها روابط... ودية للتعبير لها عن عواطف الأهلين ،وللاشتراك معها فى الأفراح العمومية التى ستقيمها ،احتفاء بانتهاء الحرب وتوطيد السلام) .

ووصل الوفد لندن ،وفى ٢٨ من يوليو قابل الوفد الملك جورج الخامس ملك بريطانيا يرافقه السير (ونجت) الحاكم العام للسودان ،ولورد (كرومر) معتمد بريطانيا بمصر و(جرانفيل) مسئول الشئون الخارجية ،واصطف الوفد أمام عرش الملك ،وأحنى رجاله الرؤس قائمين بواجب الاحترام الملوكى وتلا السير على الميرغنى الخطاب بالنيابة عن الوفد[(١)] فقال :

(يا صاحب الجلالة والامبراطورية.. نحن الذين تم لنا الشرف الرفيع بالمثول لدى جلالتكم السير السيد على الميرغنى والشريف يوسف الهندى والسيد عبد الرحمن المهدى بالنيابة عن زعماء البلاد الدينيين ،والشيخ الطيب هاشم مفتى السودان ،والشيخ أبوالقاسم هاشم رئيس مجلس العلماء ،والسيد اسماعيل الأزهرى قاضى مديرية دارفور بالنيابة عن موظفى وعمال المحاكم الشرعية ، والشيخ على التوم ناظر الكبابيش ، والشيخ إبراهيم موسى ناظر الهدندوة والشيخ إبراهيم محمد فرح ناظر الجعليين ،والشيخ عوض الكريم أبو سن وكيل ناظر الشكرية ،بالنيابة عن زعماء الوطنيين الإداريين لدى حكومة البلاد ،نلتمس بالأصالة

---

(١) جريدة حضارة السودان ،العدد ٢٥ ،بتاريخ ٢٣ أغسطس ١٩١٩ . (حضارة السودان) أول صحيفة عربية أسسها محمد الخليفة شريف كجريدة أدبية سنة ١٩١٩ وفي عددها الصادر بتاريخ ١٩٢٠/٦/٢٤ أعلن ملكيتها للزعماء الثلاثة :على الميرغنى ،وعبد الرحمن المهدى ،ويوسف الهندى .

عن أنفسنا وبالنيابة عن جميع أهالي السودان أن يسمح لنا أن نقدم بكل خضوع لجلالتكم ! تهانينا القلبية على الانتصار المجيد الذى أحرزته جنودكم .إن ثبات جنود الحلفاء المجيد الذى دعا إلى انهزام العدو انهزاماً تاماً ،وانتصاركم الباهر أوجب الإعجاب العظيم بين أهل السودان وأفعم قلوبهم سروراً !

(ولقد تحققوا أن هذه الحرب تختلف عما سبقها من الحروب لأنه فصل فيها بين مصير الشعوب الضعيفة إذ كانت حربا بين الحق والباطل ! فغلب الحق وزهق الباطل ، ومحقت المدنية الهمجية . ولم يعدم أهالي السودان الثقة فى النصر النهائى أبداً فإنه رغماً عما سمعناه من استعدادات العدو العظيمة مدة أربعين سنة لم نشك أبداً في النتيجة لأنه يستحيل أن تقهر أمة جعلت غايتها نصرة الضعيف والمساواة والعدالة .

(إن أفقر عضو فى الامبراطورية العظيمة وأحدثها (أى السودان) قدم ما لديه بغيرة ونشاط. أجل إننى لأخجل إذا ذكرت ما قدمناه بالنسبة إلى غيره إذ يكاد يكون ذلك كنقطة فى بحر. ولكن السودان قدمت من حاجتها لا من فضلاتها ،ويقدمه شعب فقير مخلص، وإن تكن صغيرة فى ذاتها إلاّ أنها عظيمة بالنسبة للعاطفة الشريفة التى دفعته لذلك. وفضلا عن ذلك فإنى أود أن أقول إن القليل الذى أعطيناه إنما هو ثمرة مازرعته حكومة جلالتكم من الإحسان فكانت ثمرة الإحسان الشكران .

(جعلتم العدل أساس ملككم الواسع فكانت روح العدالة والسلام التى امتدت فى أنحاء البلاد ،وأظهرته حكومة جلالتكم من الاهتمام بشئون السودان والنصيحة التى بذلت فى سبيل تقدمها وإسعادها مادياً وأدبياً ،وحسبان أهل السودان فى المستقبل يتوقف على زيادة ارتباط البلاد بامبراطورية جلالتكم ،ولذا نضرع إلى الله القدير أن يمنح جلالتكم العمر الطويل المقرون بالسعادة ،وأن يحفظ بريطانيا العظمى رافعة لواء الحرية والمدنية فى العالم ،ولتخفق الراية البريطانية طويلاً على السودان ناشرة السكينة والسلام !

(وأخيرا نقدم شعائر خضوعنا وولائنا لعرشكم ! والسلام)[1]

وفى معرض خطاب الملك رداً على هذا الخطاب قال : (أشكرك يا سيادة السير على الميرغنى وبقية أفراد الوفد على خطاب الولاء الذى قدمتموه)[2].

---

(١) خطاب السيد على الميرغنى كما أوردته جريدة الحضارة الصادرة بتاريخ ٢٣/٨/١٩١٩ فى عددها رقم ٢٥ . وانظر د. أحمد ابراهيم دياب، العلاقات المصرية السودانية ١٩١٩-١٩٢٤ ط مصر النهضة ص ٦٥-٦٧

(٢) المصدر السابق .

أما زعيم طائفة الأنصار فقد قام بتقديم سيف النصر (سيف والده الذى جاهد به الانجليز دليلا على الولاء المخلص والطاعة والتسليم، والخضوع، وإغماد سيف النصر إلى الأبد وقال وهو يقدم السيف مخاطبا ملك الانجليز:

(يا صاحب الجلالة والامبراطورية العظمى : بكل خضوع! أنتهز الفرصة الثمينة التى سمح الدهر بها لأقف بين يدى جلالتكم بإخلاص تام لأقدم لجلالتكم هذا السيف التاريخى (سيف النصر) الذى كان يخص والدى كبرهان أكيد على سلمى وولائى لعرشكم الرفيع! ولكى يكون فى تسليمه لجلالتكم دليلاً[1] قاطعا ثابتا لرغبتى أن تجعلونى وجميع أتباعى وأهلى بالسودان فى دائرة سلمكم وعطفكم بعد مرور هذه السنين الطويلة التى برهنت فيهـا لرجالكم العاملين المدربين بالسودان عن إخلاصي بالعمل فى ظروف مختلفة، ويوجد عدد عظيم من أهالى السودان ينتظرون رجوعى حائزاً على جزيل عطفكم، ويرجون أن يكونوا دائما من رعاياكم المخلصين، ولى الشرف بأن أكون خادمكم المطيع!!)[2]

فرد عليه الملك قائلا :

(يا حضرة السيد عبد الرحمن إنى أقبل هذا السيف وأقدر عاطفة الولاء التى دفعتكم على تقديمه لى كبرهان على إخلاصكم وعواطفكم نحوى، وإنى سأقبله منكم وأعيده إليكم ولورثتكم من بعدكم للدفاع عن عرشي وامبراطوريتى، وبصفته برهان على قبولى شعائر خضوعكم وخضوع اتباعكم)[3]

ولقد غضب على الميرغنى غضباً شديداً إذ شعر أن عبد الرحمن المهدى منافس له فـى الولاء للإنجليز مما سيضعف مكانته عندهم[4]، وهكذا بلغ ضعف الدين بهؤلاء الزعماء هـذا المبلغ ونسوا قول الله سبحانه وتعالى : (بَشِّرِ المُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . الَّذِيـنَ يَتَّخِذُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ ، أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ العِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا)[5] وقوله سبحانه: (لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ..)[6] صدق الله العظيم.

---

(١) هكذا فى النص وكذا نقله صاحب كتاب العلاقات المصرية السـودانيـة . وصوابه : (دليل قاطع ثابت) لأنه اسم كان

(٢) جريدة الحضارة بتاريخ ٢٣/٨/١٩١٩، عدد رقم ٢٥١ . وانظر العلاقات المصرية السودانية

(٣) المصدر السابق، وفى آخر الخطاب ركاكة لعلها من المترجم

(٤) انظر العلاقات المصرية السودانية ص ٧٠

(٥) سورة النساء، الآيات ١٣٨-١٣٩

(٦) سورة المجادلة الآية رقم ٢٢

المبحث الثالث
التـدهـور الخلقـــي

مما لا شك فيه أن الدين أساس الأخلاق ، والأخلاق قوام الأمم ، فالدين منبع الأخلاق فهو منها بمثابة الولد من الآلة ، والأخلاق للأمة بمنزلة العمود الفقرى للكائن ، فإذا ذهب الدين ذهبت الأخلاق تبعا له فحل الدمار بالأمة .

يقول أحمد شوقى :

وإنّما الأمم الأخلاق ما بقيت * فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويقول :

فإذا أصيب القوم فى أخلاقهم * فأقم عليهم مأتما وعويلا

والأمة الإسلامية لها القدح المعلى على سائر الأمم والشعوب فى مضمار الأخلاق فهى أمة ربانية رسم طريق أخلاقها رب العالمين فى كتابه المبين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهدى إليه نبيه الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ الموصوف بالخلق العظيم فى محكم التنزيل (وإنّك لعلى خلق عظيم)[1] وسئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن خلقه فقالت : (فإن خلق نبى الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن)[2]

ولقد فطن الأعداء إلى أنهم لن ينالوا من هذه الأمة طالما كانت محصنة بهذا الحصن المنيع فصوبوا سهامهم المسمومة فأصابوا مقتلها لما تمكنوا من هدم دينها فضعفت أخلاقها وتسربت إليها أمراض الغرب عند ما فقدت المقاومة فتمكنت هذه الأمراض من الفتك بمجتمعها ، وكان من أكبر العوامل التى ساعدت على هذا الهدم أنّ الأعداء يمثلون حضارة غالبة يختلط فيها الصالح والطالح فظن المغلوبون أنّ الأمرين متلازمان ، وتوهموا أن مظاهر الانحلال والفساد من مكملات التحضر والتمدن فى جانبه الصحيح ، ومن المؤسف أنهم أخذوا مفاسد الحضارة الغربية ، ولم يستطيعوا أخذ الصالح منها بل ما كان الأعداء ليمكنوهم من أخذه فكانت نتيجة ذلك ما قاله أحد كتاب المسلمين ساخرًا (نحن جزء من الحضارة الغربية فى الفساد والخمور والتحلل الخلقى)[3].

وشرعت وسائل إعلام العدو المختلفة من صحف ومجلات تتابع باهتمام ما وصل إليه الغرب

---

(١) سورة القلم (٤)

(٢) الامام مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض حـ٩ ١٣٩ ، والمسند ١٨٨/٦ .

(٣) انظر الغزو الفكرى والتيارات المعادية لسلام بحث للدكتور عبد الستار فتح اللهص٣ ٢١

من مجون وانحلال وتنقله بإعجاب وتصفه بأنه عنوان التقدم والرقي ،واستمرت هذه الصحف تزين صفحاتها بالصور الخليعة وتنشر القصص الماجنة وتطلق اسم الفن والأدب على هذا الفساد فاستشرى بين الشباب وكثر دعاة التقليد الأعمى ،ودأبت دور السينما تجسم هذا الفساد فتبلد الإحساس وغاب الوعي فأطمأن الأعداء إلى نجاح خطتهم ،وأخذوا يستوردون النماذج الحية لكل لون من ألوان الفساد ،فاستوردوا الفاسدات المفسدات تحت اسم المعلمات والراهبات اللائي أصبحن رائدات في إفساد الفتيات المسلمات[1] وهذه مهمة شغلت الأعداء زمناً طويلاً ،حيث ركز المبشرون جل علمهم لتحقيقها وأخذوا من التعليم وسيلة للوصول إليها مما جعل كثيرًا من الناس يحجمون عن دفع بناتهم لمدارس المبشرين التي أقيمت أساسا لإفساد الأخلاق ،ولم تستمر هذه المقاومة طويلاً ،لأن الخطة كانت متقنة الإحكام فكان الذين تأثروا بالحضارة الغربية ، وصاروا جنوداً مخلصين لها أبعد صوتا ،حيث أفضى بهم تأثرهم إلى المطالبة بما أسموه (تحرير المرأة) والدعوة إلى تمكينها من المشاركة في الوظائف ،والأعمال العامة. حيث سادت دعوة الحرية الشخصية في المجتمع وأصبحت هذه الحرية المتمردة على حدود الدين وعرف المجتمع من حق كل إنسان لا فرق بين ذكر وأنثى واتخذته شعارها (تخليص الفكر الاجتماعي من سلطان رجال الدين) زاعمةأنهم يصدرون فيما يحلون ويحرمون عن اعتبار التقاليد والأوهام التي ورثوها عن أسلافهم جزءًا من الدين ،واتخذت هذه الدعوة من كتابي قاسم أمين (تحرير المرأة) و(المرأة الجديدة) اللذين تزامن طبعهما مع استعمار السودان ،حيث طبع الكتاب الأول سنة ١٨٩٩ أى بعد استعمار السودان بسنة ، وطبع الثاني سنة ١٩٠٠ وظلا موضع أخذ ورد طوال نصف قرن.[2]

والكتاب الأول دعوة صريحة إلى السفور ،وأنّ الحجاب بوصفه السائد ليس من الإسلام في شيء ،والدعوة إلى السفور ليس فيها خروج عن الدين ،بينما غلب نهج الكتاب الثاني (المرأة الجديدة)[3] ـ الكتاب الأول ،ودعا قاسم في هذا الكتاب دعوة صريحة إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية ،فقال: (بعد أن تبين أن إعجابنا الشديد بالماضي هو نتيجة لشعورنا بالضعف والعجز " هذا هو الداء " الذي يلزم أن نبادر إلى علاجه وليس له دواء إلاّ أن نربي أولادنا على أن يتعرفوا شئون المدنية الغربية ،ويقفوا على أصولها وفروعها

(١) انظر التبشير والاستعمار ص ٣٦.

(٢) انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ص٢٩٣و٢٩٤

(٣) نفس المصدر و الصفحة

وآثارها ، إذا أتى ذلك الحين - ونرجو أن يكون قريبا - انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس ، وعرفنا قيمة التمدن الغربي وتيقنا أن من المستحيل أن يتم علاج ما في أحوالنا إذا لم يكن مؤسسا على العلوم العصرية الجديدة"[١] ولم يقف قاسم عند هذا الحد بل عزا انحطاط الأمة المصرية إلى تأخرها في الفنون الجميلة والتصوير ، والموسيقى ، وزعم أن هذه الفنون ترمي جميعاً على اختلاف موضوعها إلى غاية واحدة هي تربية النشئ على حب الكمال والجمال ، فإهمالها نقص في تهذيب الحواس والشعور[٢] وكانت هذه الآراء نتاجا طبيعيا لقاسم الذي عايش فترة الانحلال والمجون الفرنسي ، ذلك الانحلال الذي جعل فرنسا تتهاوى تحت أقدام الألمان في أقل من أسبوع ، وهي الامبراطورية التي كانت تستذل الدول وتستعمر الشعوب ، مما جعل رئيس وزرائها يصرح قائلا : "إن فرنسا هزمها الانحلال قبل أن يهزمها الاحتلال ."[٣]

فالمرأة المسلمة ، عزيزة كريمة ، رفعها الإسلام إلى أسمى المراتب وصانها من الشوائب والمعائب لأنها أساس مجتمعه الطاهر العفيف ، فهي السكن والمودة . قال تعالى :
(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة)[٤]
وهي مصنع الأجيال ومربية الرجال، قال الشاعر :

الأم مدرسة اذا أعددتها
أعددت شعبا طيب الأعراق

ولذلك كافأها الإسلام بأن جعل الجنة تحت قدميها ، قال صلى الله عليه وسلم :-
(الزمها فان الجنة تحت أقدام الامهات)[٦]

فنالت بذلك توقير أبنائها واحترام أمتها ، فهدف الأعداء إلى تقويض المجتمع الإسلامي الذي تعتبر المرأة من أسسه القوية عند التزامها بحدود الدين ، فأخرجوها من بيتها فهتكت سترها ونبذت حياءها فجنت على نفسها ومجتمعها ، وصارت سلعة رخيصة ، ومارست كل الرذائل باسم الحرية ، ووفرت لها قوانين الغرب الوضيعة ، من الحماية ما جعلها تمارس

(١) المصدر السابق ص ٣١٠ نقلا عن المرأة الجديدة ص ١٨
(٢) انظر الغزو الفكرى والتيارات المعادية للاسلام بحث د . عبد الستار فتح الله ص ٢١٩
(٣) المصدر السابق ص ٢٢١
(٤) سورة الروم آية ٢١
(٥) الشاعر .
(٦) الالباني ، صحيح الجامع الصغير ، رقم ١٢٦٠

الزنا إذا بلغت سنا معينة، وليس لأى شخص أن يمنعها ذلك طالما كان ذلك بمحض اختيارها، وإلا وقع تحت طائلة القانون، فسرت بذلك الموبقات فى الأمة سريان النار فى الهشيم، وتجاوزت مرحلة الشيوع والاستعلان إلى مرحلة الاستقرار والاستحسان [١]، وفتحت دور البغاء تحت حماية القانون، واستجلبت الخمور وفتحت حاناتها فى واجهات المدن وأسواقها، وصارت الخمر تباع حتى للصغار، وأصبح للربا والزنا دور، وعم الفساد جميع أرجاء المجتمع. يقول الدكتور إبراهيم اللبان فى تحليل ينطبق على جميع المجتمعات الإسلامية.

" وقد ظهر هذا الانحلال فى البداية فى السلوك الفردى فانحرف الناس عن نهج الدين، واستهوتهم مظاهر الحياة الغربية، فأقبل كثير منهم على الخمور والفجور والقمار والربا ونحو ذلك ثم دبّ دبيب التهاون فى الدين، فتناول العبادات والعقائد وغيرها من أنواع الانحلال، فتكاسل الناس عن العبادات، وانتشر فى الجو ضروب من الفلسفة والمذاهب الضالة، واستمالت الشباب وغير الشباب، فصارت العلاقة الجنسية والنظرة الإباحية الشغل الشاغل " للسينما " وكثير من المجلات والصحف ابتغاء وفرة الربح والدخل، فانحرف الشباب، وفسدت روابط الأسرة ثم عم السيل وطم فانهارت الفضائل الاقتصادية والاجتماعية " [٢]

وفى الحقيقة أن التهاون فى العبادات دب إلى المجتمع قبل شيوع الموبقات حيث إن الجيل السابق للجيل الذى صنعه الأعداء على أيديهم كان يدرك ما يرمى إليه الأعداء ولكن التخطيط كان محكماً، حيث فصل بين الجيلين فصلاً تاماً، وقطع جميع الأواصر التى تربط بين الجيلين عندما أبعدهم عن الدين، وهو الأساس الذى يربط بينهم كما أسلفنا القول عن ذلك.

فلا عزة ولا كرامة لهذه الأمة إلا إذا رجعت إلى منبع أخلاقها وقيمها. يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعى :

" والدين هو حقيقة الخلق الاجتماعى فى الأمة، وهو الذى يجعل القلوب كلها طبقة واحدة على اختلاف المظاهر الاجتماعية، عالية، ونازلة وما بينهما، فهو بذلك الضمير

---

(١) انظر الغزو الفكرى والتيارات المعادية للاسلام، القسم الثانى ص ٢١٣ .

(٢) انظر نفس المصدر والصفحة نقلا عن رسالة التربية الدينية للدكتور ابراهيم اللبان .

القانونى للشعب،وبه لا يغيره ثبات الأمة على فضائلها النفسية ،وفيه لا فى سواه معنى إنسانية القلب.

" لولا التدين بالشريعة لما استقامت الطاعة للقانون فى النفس،ولولا الطاعة النفسية للقوانين لما انتظمت أمة ،فليس عمل الدين إلا تجريد مكان الحى فى فضائل الحياة وتعيين تبعتها فى حقوقها وواجباتها وجعل ذلك كله نظاماً مستقراً فيه ،لا يتغير ،ورفع الإنسان بهذا النظام نحو الأكمل ،ودائماً نحو الأكمل .

" وكل أمة ضعف الدين فيها اختلت هندستها الاجتماعية ، وماج بعضها فى بعض،فإنّ من دقيق الحكمة فى هذا الدين أنه لم يجعل الغاية الأخيرة من الحياة غاية فى الأرض،وذلك لتنتظم الغايات الأرضية فى الناس ، فلا يأكل بعضهم بعضا ،فيفتنى الغنى وهو آمن ويفتقر الفقير وهو قانع،ويكون ثواب الأعلى فى أن يعود على الأسفل بالميزة وثواب الأسفل فى أن يصبر على ترك الأعلى فى منزلته ثم يتصرف الجميع بفضائلهم إلى تحقيق الغاية الإلهية الواحدة التى لا يكبر عليها الكبير ولا يصغر عنها الصغير ، وهى الحق والخير والتعاون على البر والتقوى) (١)

وما أصدق قول الامام مالك رحمه الله : " لن يصلح آخر هذه الأمة إلّا ما أصلح أولها"

---

(١) الرافعى ،وحى القلم ،جـ٣ ، ٢٨٨ / ٢٩٢ وانظر الاتجاهات الوطنية جـ٢ ص٣٢٧/ ٣٢٨

الفصل الثاني
أثر الاستعمار والتبشير في تفكك المجتمع السوداني

المبحث الأول : انتهاج سياسة (فرق تسد)

ذكرنا في معرض الحديث عن المهدية أن من محاسنها صهر القبليات ومحو العنصريات وصقلها في وحدة تمخض عنها ذلك الجيش المجاهد الذي هزم دولتين متحدتين من أقوى الدول آنذاك " بريطانيا العظمى ، ومصر " ولم تمض سنة واحدة على تلك الانتصارات السياسية الباهرة وقيام ذلك الهيكل الديني الرائع حتى توفي المهدي في ٤ من رمضان سنة ١٣٠٢ هـ الموافق ٢٢/٦/١٨٨٥م واستمر ذلك النظام حتى سنة ١٨٩١ فكان للجعليين والدناقلة اليد العليا في سياسة الدولة.

وعندما أطلت العنصرية برأسها من جديد ، وذلك حين نقل الخليفة السيطرة إلى بني جلدته من رجال الغرب من البقارة عن طريق الحكم الاستبدادي الذي فرضته الراية الزرقاء[1] دب الوهن إلى الكيان الذي كان قويًا متماسكاً فصدع بنيانه فلم يعد ذلك المجتمع القوي الذي صمد في وجه الصليبيين وهزم جحافلهم في مواقع كثيرة بقيادة المهدي ولذا نجده لم يستطع الصمود أمام الغزاة الذين شرعوا في توسيع شقة الخلاف وتفتيت وحدة الأمة وتفريق كلمتها ، ومعلوم أن السياسة الاستعمارية عامة والانجليزية على وجه الخصوص تقوم على مبدأ " فرق تسد " وهو الأسلوب الذي سلكه الانجليز في جميع البلاد التي منيت بحكمهم فهو بمثابة حجر الزاوية في السياسة الإنجليزية ، قال وزير مستعمرات بريطانيا : " إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الامبراطورية أن تحذره وتحاربه ، وليست انجلترا وحدها هي التي تلتزم بذلك : بل فرنسا أيضا.

من دواعي فرحتنا أن الخلافة الإسلامية زالت . لقد ذهبت ونتمنى أن يكون ذلك إلى غير رجعة .

إن سياستنا تهدف دائما إلى منع الوحدة الإسلامية أو التضامن الإسلامي ، ويجب أن تبقى هذه السياسة كذلك . إننا في السودان ونيجريا ومصر ودول إسلامية أخرى شجعنا

---

(١) انظر الإدارة البريطانية والحركة الوطنية ص٢٣

- وكنا على صواب - نمو القوميات المحلية فهي أقل خطراً من الوحدة الإسلامية ،أو التضامن الإسلامي)[1]

فكانت هذه السياسة بمثابة الدستور المقدس للإدارة البريطانية في السودان ،وساعد على نجاحها أن البيئة الاجتماعية في السودان كانت مهيئة لنجاحها لبذور التفرقة والثقافة التي مكن لها الخليفة عبد الله . يضاف إلى ذلك خبث الإنجليز ودهاؤهم وتخصصهم في هذا المضمار حيث استطاعوا بمكرهم هذا أن يخلقوا من أسباب الثقافة وعناصر التفرقة ما مكن لهم وساعد على بقائهم بالسودان أكثر من نصف قرن لذلك كانوا حريصين على هذه التفرقة القبلية حرصهم على الاستعمار نفسه ،فكانوا يذكون أوارها ويلهبون الحماس والتعصب من أجلها ،فكم أيقظوا النعرات وأثاروا الحفائظ والضغائن التي عفى عليها الزمن ، فهذه قبيلة أغارت على أخرى وسلبتها نحاسها* ،يتقدم الحاكم العام ويهبها نحاسا جديداً ويخطب قائلا :

" إنكم فقدتم في الحرب مع قبيلة كذا نحاسكم ، وها هي ذي الحكومة تهبكم نحاساً جديداً . وكانت الحكومة تأمر جميع السودانيين حتى طلاب المدارس أن يوضحوا في كل المعاملات الرسمية اسم القبيلة ،ولم تكن كلمة سوداني مقبولة في دوائر الحكومة ،وكانت هذه التفرقة المتعمدة من أكبر الأخطار التي هددت وحدة البلاد ،وزرعت بين سكانها الضغائن التي يغذيها الاستعمار،[2] وشمل هذا المخطط جميع نواحي الحياة السودانية الاجتماعية والتعليمية ،وامتد إلى النواحي الدينية والنفسية والخلقية للشعب[3] بصفة عامة ، وعلى الأخص المناطق الوثنية المجاورة لمناطق المسلمين . وشرع المنصرون يعمقون هذا الخلاف بين القبائل التي يعملون وسطها حتى بالنسبة لأداء الطقوس وفي مناسباتهم الدينية وأعيادهم ،فتأتي كل قبيلة ،وربما يأتي كل فرع من فروعها ليؤدي طقوسه بلغته ثم ينصرف ليحل محله آخر في كنيسة واحدة ،وما زالت هذه التفرقة تمارس حتى يومنا هذا في جنوب البلاد وغربها .[4]

---

(١) الشيخ محمد الغزالي ،هموم داعية ، ص ١٦٦ / ١٦٧ طبعة قطر ،بدون تاريخ نقلا عن وثيقة بريطانيا في ١٩٣٨/١/٩

* النحاس آلة عظيمة مصنوعة من معدن النحاس وجلود الحيوان ، يضرب عليها عند حدوث أمر جلل وخاصة عند ارادة اعلان الحرب أو عند فقد زعيم قبيلة .

(٢) انظر تاريخ الحركة الوطنية ، الاستقلال وما بعده ص ٢٢ / ٢٣

(٣) انظر مآسي الانجليز في السودان ص١٢

(٤) رحلة ميدانية ،مايو سنة ١٩٨٣م

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل جعل الإنجليز هذه التفرقة مرتكزهم الأول في حكمهم للسودان فكان المؤتمر الذي عقد في الخرطوم سنة ١٩٢٠ لحكام المديريات، والذي قصد منه مناقشة كيفية إدارة السودان وأقاليمه أول محاولة جادة لوضع سياسة ثابتة لإدارة أقاليم السودان، وعقد المؤتمر تحت شعار الإدارة الأهلية، أو بمعنى أوضح لإيجاد وضع قوى للمشائخ والزعماء للمشاركة في إدارة الأقاليم والمناطق تحت الرقابة البريطانية، وكان أهم ما في المؤتمر ما طرحه (برون C.P. Browne) حاكم محافظة بربر حيث قال :

" اعتقد أن هناك اتفاقاً تاماً وضع على أساس ما تم في كل من الهند، ومصر، وإذا كان لدينا اتجاه قوى لتدريب سكان المناطق الدارية للوقوف على أرجلهم! فمن الأرجح ألا ندع الأمر للصدفة وإنما نلتمس الطريقة المثلى لما يجب أن نسير عليه في ذلك إذا لم نكن نريد أن نعيد ما حدث في بعض الأقطار، في السودان. قبل أن تأتي اللحظة التي يتيقظ فيهم الشعور الوطني، فمن واجبنا أن نضع الأسس الثابتة والقوية في البلاد وذلك بإعطاء سلطة للتجار والمشائخ، قبل أن يتحرك شخص غير مسئول من أنصاف المتعلمين ليسيطر على الشعور العام " (١)

ولقد كانت ثمرة ملاحظات (برون) قيام المجالس البلدية في العاصمة حيث شملت المدن الثلاث وضمت هذه المجالس بعض السودانيين من التجار والشخصيات الهامة وبدأت المحافظات الأخرى تطالب السكرتير الإداري " ماكايكل " الذي يعتبر مبتكر هذه السياسة ومهندسها الذي وضع أسسها وأشرف على تنفيذها، فقام بإرسال الرسائل للأقاليم مستفسراً كل حاكم عن رأيه في تنفيذها فكانت الإجابات على استفساره مختلفة حيث جاءت من أقاليم الشمال أكثر تفصيلاً من أقاليم الجنوب التي كانت استجابتها ضعيفة، وتجربتها غير كافية باستثناء منطقة الشلك التي كان للرث فيها كثير من السلطات. لذا كان الوضع فيها مثالياً، ذلك لأن الرث ساعد كثيراً على تنفيذ هذا المخطط، وكذلك منطقة (أوبارى D.C.Opari) بمديرية (منقلا) حيث قام هذا المحافظ بإنشاء مجلسين قبليين استطاعا الفصل في كثير من القضايا، وكان ذلك تشجيعا للمضي في سياسة الحكم القبلي (٢)، ومع اقتناع الإداريين البريطانيين أن هذه السياسة ستواجه بعض الصعوبات في الأقاليم الجنوبية نظراً لعدم

---

(١) Shadows in the grass P. 55,56

(٢) Ibid P. 55, 56

وجود العدد الكافى المقتدر من الزعماء الجنوبيين بالإضافة إلى عدم استقرار كثير من المناطق فى مديريات الجنوب الشاسعة التى ظلت فيها الإدارة البريطانية إدارة اسمية مع ذلك قام كثير من محافظى هذه المناطق بمحاولة إيجاد المجالس القبلية وتسليمها سلطة إدارية.(١)

هذا ولم تلح للإنجليز فرصة توصلهم إلى تفتيت وحدة السودان إلا اغتنموها ،وإمعاناً فى سياسة التفرقة شجعوا الطرق الصوفية بدءاً " بالختمية " الحليف القديم الذى ظل مؤازراً ومناصراً لهم طوال سنى حكمهم ، وعندما أمنوا جانبها شرعوا فى استمالة عدوهم التقليدى زعيم المهدية الجديدة السيد عبد الرحمن المهدى الذى أمّل (ونجت) فى أنه سيحول المهدية إلى طريقة سلبية ،فتم له أمله كما أشرنا إلى ذلك فظل ابن المهدى من أعظم المؤيدين الأقوياء الموثوق بهم من جانب الحكومة ومكافأة لإخلاصه عاونته الحكومة على أن يكون من رجال المال ،فمنحته الأفضلية فى التعاقد معها لمتطلبات خزان سنار ، وتوريد الوقود للبواخر الحكومية،(٢) وأعطته قرضا قدره ٤٠٠٥٠٠ جـ فى عام ١٩٢٦م ثم تنازلت عنه بادعاء أن ما استلم كان هدية منها له! وذلك لكى يقوم ببدء الزراعة فى جزيرة "أبا"(٣) وشاركته فى كثير من المشاريع على أن توفر هى المال ،ويقوم هو بالاشراف ،ومنحته بعض الأراضى فى كل من الخرطوم وأمدرمان فشيد عليها المنازل والمتاجر،ومن ثم أضحى من كبار ملّاك العقار بالعاصمة ،وتجاوزت عنه فى تقوير الضرائب(٤) كما منح لقب "سير" وبهذا استطاع الإنجليز أن يجعلوا من المهدية الجديدة قوة صاعدة على المسرح السياسى(٥)، وعندما قام مؤتمر الخريجين وخشى الإنجليز من حركته ومن اتجاهه الذى ظهرت مقدماته التى شملت دعوة الاتحاد مع مصر ،أوعز الانجليز لزعيم المهدية الجديدة برفع الشعار البراق "السودان للسودانيين" وأشاروا عليه بإنشاء حزب "الأمة" واختاروا له من الأعوان ممن يضمنون ولاءهم ولوحوا لرئيسه بالملك ،وأنهم فى مقدورهم أن يصلوا به إلى ذلك عن طريق المنظمات الدستورية التى ابتدعوها ،ووضعوا الخطة لتطويرها بالطريق الذى يؤدى

---

(١) Ibid P. 166.

(٢) تقرير سرى للمخابرات ٤نوفمبر ١٩٢٦

(٣) خطاب الحاكم العام للسكرتير المالى ١٩٢٦/١١/٢

(٤) انظر الادارة البريطانية والحركة الوطنية فى السودان ص١٢٤/١٢٥

(٥) انظر تاريخ الحركة الوطنية فى السودان الاستقلال وما بعده ص٩١

إلى ما يريدون ، ولكن شعار "السودان للسودانيين " الذى رفعه حزب الأمة كان دعوة حق أريد بها باطل ، لأن الإنجليز منذ سنة ١٩٢٤ انفردوا باستعمار السودان دون مصر وظل حزب الأمة متعاوناً معهم ،وهو يرفع هذا الشعار ،ولو دعا حزب الأمة لإخراج الإنجليز من السودان لما وجد مخالفاً من قادة المؤتمر ولوجد سنداً شعبيا قويا لدعوته.[1]

وظلت قيادة الختمية والأنصار فى صراع مستمر تتنازعان على القيادة القبلية ،والجميع فى صراع دءوب على المناصب التى يوزعها الانجليز ثمنا للولاء لهم ،كما كانت هذه الزعامات محاور للأحزاب التى دارت فى فلكها منذ الاستعمار وحتى هذا التاريخ ،وخلاصة القول أن الطائفية لم ينج منها إلاّ القليل حتى المثقفين فقد جرفهم التيار فى انتخابات سنة ١٩٣٤ فأدرك بعضهم عمالتها سريعا فوقف بعيداً ،ورفضوها رفضاً باتاً عندما أرادت إحدى الطائفتين أن تختفى وراءهم وتتخذ منهم سنداً لحرب الأخرى بعد أن كونوا حزب الاتحادى فيما بعد ،وعلى العموم كانت الطائفية قوية أو قل هى البلد كلها تجمعت فى كتلتين تعملان ضد بعضهما).[2]

وإمعانا فى تفرقة المجتمع أنشأ الإنجليز الحزب الشيوعى السودانى حيث استوردوا نواته الأولى من حقول الشيوعية التى أعدوها فى بلادهم لا لتحكم الشعب الإنجليزى ولكن لتصدّر إلى مستعمراتهم وقت الحاجة لذلك.

يقول محمد عمر بشير: (...وكان للجندى البريطانى " سنثون" عضو الحزب الشيوعى الإنجليزى القدح المعلى فى هذا الخصوص، ذلك أنه لما عاد إلى انجلترا بعد أن وضعت الحرب أوزارها بادر بإرسال المؤلفات الماركسية لعدد من أصدقائه)[3]

ويقول أحمد سليمان عضو الحزب الشيوعى السودانى سابقاً :

(إن الشيوعيين الإنجليز كانوا هم أول من بادر فى أوائل الأربعينيات بتأسيس الحلقات الماركسية)[4]

ويقول : (ولقد ألقى داكنسون مدرس الثانوى الإنجليزى محاضرة فى مدرسة أمدرمان

---

(١) الحركة الوطنية الاستقلال وما بعده ص ٩١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٦ .

(٣) محمد عمر بشير ،تاريخ الحركة الوطنية فى السودان ، ١٩٠٠-١٩٦٩ ، ص ٢٤٥ .

(٤) أحمد سليمان ، ومشيناها خطى ، جـ١ ص ١١٨ ،ط أولى سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، دار الفكر للطباعة والنشر الخرطوم.

الثانوية بدعوة من جمعيتها الأدبية التي كان يرأسها عبد الخالق محجوب[1] وتولى أعباء أمانتها التجاني الطيب بابكر، وكان كلاهما في السنة النهائية من دراسته، وحضرها كل الأساتذة وخاصة البريطانيون وكذلك كل طلاب السنتين الثالثة والرابعة، وكان موضوع المحاضرة المادية الجدلية والتاريخية، ولقد تركت أثراً بالغاً بين الطلبة، وظل مستر دكنسون يواصل نشاطه الثقافي إلى أن نقل لمدرسة وادي سيدنا حيث أحضر زوجه معه وكانت هي الأخرى عضواً في الحزب الشيوعي البريطاني، وكانا يتبادلان إلقاء المحاضرات وإدارة حلقات النقاش بالداخليات حيث يقيم الطلاب)[2] وزيادة على ما ذكر مهد الإنجليز لكثير من رواد الشيوعية بمواصلة تعليمهم في بلادهم.

ويواصل الكاتب قائلا:

" وبجانب هذا التأثير المباشر للشيوعيين البريطانيين كانت هنالك قنوات أخرى تدعم هذه الصلة الفكرية بين رفاق الخرطوم ورفاق لندن منها صحيفة " الديلي ووكر " لسان حال الحزب الشيوعي البريطاني، ومنها الطلاب الشيوعيون السودانيون الذين كانوا يتلقون دراساتهم بجامعات بريطانيا وكان الاتفاق قد تم بين الحزبين على استيعابهم في فروع ولجان الحزب البريطاني بمعاهدهم الدراسية كما تم الاتفاق على أن يختار الحزب الشيوعي السوداني ويعتمد رصيفه البريطاني أحد الطلاب المقيمين بلندن ليكون حلقة اتصال بين قادة الحزبين)[3]

وكانت الإدارة البريطانية عالمة بكل نشاط للشيوعيين في الداخل والخارج، وكانت المعلومات تصلها من وكالتها بالقاهرة عن مدى تغلغل الشيوعية في أوساط الطلاب السودانيين الجدد ولكنها تعامت عن قراءة ما يصلها من تقارير حول خطورة الأمر وتعامت عن صيحات بعض أعوانها من الموظفين السودانيين الذين كان الشيوعيون يتناولونهم بالقدح والذم في منشوراتهم ويسلقونهم بألسنة حداد في حلقات نقاشهم المفتوحة التي كانت تقام في دور الخريجين بالسودان أثناء عطلتهم، وكان الشيوعيون أنفسهم يعجبون من

---

(١) أمين عام الحزب الشيوعي، أعدمه النميري سنة ١٩٧١ في محاولة انقلاب فاشلة ضد نظامه

(٢) ، ومشيناها خطى، ص١٩

(٣) المصدر السابق ص ٢٠ / ٢١

اهمال الحكومة لنشاطهم ولم يشعروا بالمضايقة والرقابة والعداء قبلهم كما لم تكن هناك ثمة قيود أو عراقيل تتصل بإجراءات سفرهم كما كانوا يفعلون مع الطلاب غير الشيوعيين الذين يتلقون تعليمهم في مصر، واستطاعوا أن يدخلوا الكتب الماركسية والمطبوعات الشيوعية، وحتى المحظور منها.

" واذكر بأنني والتجاني الطيب بابكر، قد جمعنا دون سوانا في بداية العطلة الدراسية الأولى أسفاراً من الأدب الماركسي كان من بينها عشرات النسخ من مجلة " المقاومة " وكانت هذه أقرب إلى المنشورات منها إلى الصحيفة، وكان ذلك العدد خاصا بالسودان ".(١)

وهكذا ظل الاستعمار يبذل جهده في تفكيك المجتمع وإضعافه وحرب الإسلام لأنه أقوى الوسائل لتوحيد المجتمع فتبنى كل ما يساعد على الهدم والتفتيت ولم يكن التبشير نفسه دعوة لاعتناق دين بقدر ما كان معولاً من معاول الهدم ويظهر ذلك جلياً أن النصارى كانوا أول من بذر بذور الشيوعية في البلاد الإسلامية.

وأخيراً شعر بعض المواطنين الحادبين على مصلحة البلد بخطورة هذه التفرقة وأثرها على ضعف روح مقاومة الاستعمار وحذروا منها بشتى الوسائل، فكتب أحد الموالين لمصر - لم يذكر اسمه - منشوراً لجميع الشخصيات البارزة بالعاصمة والمديريات منذراً ومحذراً من سياسة " فرق تسد " الانجليزية التي تجابه القبيلة بالقبيلة والزعيم الديني بالزعيم الديني والسوداني بالمصري طالبا من الأمتين السودانية والمصرية توحيد الجهود ضد المستعمر البريطاني والعمل على نيل الاستقلال، زيادة على ذلك هاجم الكاتب صحيفة " الحضارة " لسان حال الزعماء الثلاثة ووصفها بأنها بوق الاستعمار وأداة في يده.(٢)

وختم الاستعمار جهوده في تفريق المجتمع السوداني بزرع مشكلة الجنوب التي تعتبر من أعوص المشاكل الاقليمية حيث ظلت تستنزف الدماء والأموال من سنة ١٩٥٥م الى يومنا هذا فبلغ مجمل ما صرف عليها من الخزينة العامة حتى قيام الحكم الانتقالي سنة ١٩٨٤م ٢٥ مليار جنيها (خمسة وعشرين مليارا من الجنيهات)(٣) ولا تزال الكائس تذكي نارها حتى هذه اللحظة.

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٧/ ١٨٨

(٢) انظر الادارة البريطانية والحركة الوطنية ص٤٤

(٣) من محاضرة ألقاها المشير سوار الدهب رئيس مجلس أمنا منظمة الدعوة الاسلامية بسفارة السودان بجدة في ربيع الأول سنة ١٤٠٨ هـ.

المبحث الثاني
دور الاستعمار والتنصير في مشكلة جنوب السودان

جذور المشكلة :

لم تطأ أقدام الاستعمار وأعوانه المبشرين بلدا إلّا ساموا أهله سوء العذاب، ولقد مني السودان بجحافل الغرب تغزو أرضه وأهله تارة باسم الاستكشاف الذى تمثل فى حملتى " سبيك " و " بيكر" ثم حملات التنصير التى سبقت الاستعمار، وحكم رواد ها السودان باسم الخديوى ومهدوا للاستعمار الذى جثم على صدر الأمة أكثر من نصف قرن، وخلّف وراءه من المشاكل ما هو كفيل بإعاقة السودان عن النهوض، ومن أعظم هذه المعوقات التى خلفها الاستعمار مشكلة جنوب السودان التى زرعها لتكون عائقاً لتقدم الإسلام إلى وسط وشرقى القارة الأفريقية وخلف أعوانه المبشرين الذين ارتادوا له الطريق وأسهموا فى وضع الخطة، خلفهم ليتعهدوا الغرس بالسقاية لئلا يذبل، فالهدف واحد، وإن اختلفت وسائل تحقيقه، فالمبشرون سلاحهم لتحقيقه المكر والخديعة لذا لم تفطن غالبية الشعوب التى منيت بجحافلهم أنهم من أسوأ أنواع الاستعمار الحديث الذى ابتلى به كثير من الأمم، وكان ينبغى العمل على إخراجهم مع المستعمرين لا أن يتركوا يفسدون فى الأرض ولا يصلحون، يتحينون الفرص مثلهم فى البلاد التى منيت بهم كمثل المريض الذى ابتلى بحمى (الملاريا) مهما أعطى من العلاج فإن جرثومة الداء تظل كامنة فى جسده تتحين ضعف المقاومة لتفتك به، فهؤلاء المبشرون يسبقون الاستعمار دخولاً، ويحملون ألقابا خادعة كالسراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا، فيسمون رسل الإنسانية والرحمة، وهم فى الحقيقة أعداء الإنسانية، ويطلق عليهم رسل السلام، وهم يبذرون بذور الحرب والخصام وصدق الله سبحانه (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام. وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد)[1]

فالمبشرون والمستعمرون وجهان لعملة واحدة. يقول أحد المبشرين وصفا للتعاون المشترك :

---

(١) سورة البقرة ٢٠٤/٢٠٥

" سوف أبدأ بنص مختصر من كلمة فى احتفال تبشيرى ألقاها فى انجلترا الحاكم الذى عملت مرؤوسا له فى أيامى الأولى بالسودان مشيراً إلى تعاليم عيسى :

" أن أذهبوا فى كل العالم وعظوا بالكتاب كل الخلائق "

يقول مارتن بار:

" ان أمر المسيح ينطبق على كل من يذهب من هنا ليعمل وسط الأفارقة ،الكل سواء فى خدمة الحكومات أو مستوطنين انجيليين ،أو مبشرين كلهم يجب أن يعملوا معاً ، وأن يظهروا أنهم متفقون ،وإن لم يكونوا كذلك لتحقيق الهدف المشترك ،قد لا يوافقنى الجميع تماما ولكنى مقتنع، ولا أتردد فى تبنى تلك العبارة التى ثبت صدقها من خلال تجربتى بالسودان كله (1) ".

ولقد تعاون الاستعمار والتبشير على تصعيد هذه المشكلة فعملوا على تعميق جذورها بإفساد العلاقات بين شقى القطر ،ولم يكن هذا الإفساد أمراً عارضاً فمنذ بداية الاستعمار الحديث الذى استغل خيرات الشعوب الأفريقية بدأ الغربيون عامة والانجليز على وجه أخص يتضايقون من انتشار الإسلام ،فعندما بدأ ينتشر بين اليوغنديين فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى قبيل دخول الأوربيين ووصولهم إلى شرق أفريقيا ووسطها ،وعاصر دخول الإسلام فى يوغندا حركة التنافس الاستعمارى على المنطقة عجّل الأوربيون بالقضاء سياسياً واقتصادياً على التجار الزنجباريين فى الساحل الشرقى ،وكان لابد لهم من القضاء على نفوذ المصريين والسودانيين من جهة الشمال ،وذلك لتعزيز السيادة الأوربية ،وقد تضافرت لتحقيق هذا الهدف كل جهود المبشرين والموظفين الحكوميين (2)، وخاصة عند ما أثر المصريون على الملك اليوغندى " متيسا" فأسلم الأمر الذى أزعج الدكتور " كيرك " قنصل بريطانيا بزنجبار ، فقد كان هذا القنصل أكثر تجاوباً مع الإرساليات الإنجليزية ،وأشد حقداً على الإسلام ،ورأى أن تنصير " متيسا " وقومه هو الترياق الذى ينقذ وسط أفريقيا

---

(1) Mission and Churches P.1

(2) انظر بحث الدكتور ابراهيم الزين صغيرون : الاسلام فى يوغندا ص ٢٢٦ ،عن مجلة " دراسات أفريقية " مجلة بحوث نصف سنوية ، العدد الأول رجب سنة ١٤٠٥ هـ

من المد الإسلامي ،وشدد على إبعاد الحكم المصرى لأن توغله جنوباً سيصبح عقبة في وجه المسيحية هناك، ومن ثم يتهدد أثيوبيا[1] لذلك شرعت بريطانيا تخطط لفصل الجنوب عن الشمال وضمه لاتحاد كانت تحلم به يتكون من أواسط أفريقيا وشرقها تترا جع إليه متى أجبرتها الحركات الوطنية فى مصر وشمال السودان على الانسحاب، واشترك فى وضع هذه الخطة وتنفيذها كبار الساسة البريطانيين ،واستعانوا بالمبشرين لتحطيم جميع الأواصر الإنسانية والثقافية والاقتصادية بين سكان الجنوب والشمال.[2]

يقول محمد أحمد محجوب: " إن مسئولية الأوضاع السائدة فى الجنوب،والتى ورثناها مع الاستقلال ،تقع فى الدرجة الأولى على الإدارة البريطانية ، وثانياً على المبشرين ،لقد كان الجنوب خلال الحكم البريطانى معزولاً عن الشمال ،وحتى الزيارات العادية كانت لا تتم إلاّ بموجب تراخيص خاصة ،وكان السودانيون الشماليون عالمين بالجهود التى بذلتها بريطانيا فى الثلاثينيات لعزل الجنوب، والمساعدات التى قدمتها للمبشرين فى الجنوب،وكان الكاثوليك الذين حاولوا فتح الجروح القديمة بالقول للجنوبيين أن العرب الشماليين هم أبناء وأحفاد تجار الرقيق الذين باعوا آباءكم وأجدادكم فى أسواق النخاسة "[3]

وهكذا أدت السياسة الإدارية العامة ، ونشاط الإرساليات التنصيرية إلى تعميق الخلاف بين الشمال والجنوب.[4]

ولقد ذكرنا سابقاً أن التفكير فى وضع هذه السياسة بدأ فى عهد الجنرال غردون وبعد أن أحكم الإنجليز قبضتهم على السودان سلكوا اتجاه الجنوب سياسة **مرحلية بطيئة** التنفيذ عميقة المفعول .

المرحلة الأولى : (١٨٩٩-١٩١٩)

وكانت السمة الغالبة على هذه المرحلة هى عدم التدخل السافر فى شئون أهل الجنوب إلاّ بمقدار استتباب الأمن وتوطيد النظام الذى يفرض سيادة القانون ،ويوطد سلطان الحكومة فى نفوس المواطنين مع فتح الجنوب أمام البعثات التنصيرية ،وتيسير مهام المبشرين

(١) المصدر السابق ص ٢٢٧ .
(٢) انظر مشكلة جنوب السودان ، د . مدثر عبد الرحيم ص١٩
(٣) محمد احمد محجوب ، الديمقراطية فى الميزان ، ص٢٠٩
(٤) انظر د .مدثر عبد الرحيم ، الامبريالية ص٦٨

الذين يؤدى نشاطهم إلى تحقيق أغراض الحكومة الظاهرة والمستترة إلى جانب تنصير السكان ونشر مختلف المذاهب النصرانية بينهم[1] كما أشرنا الى ذلك.

أما الجانب المستتر من السياسة فى هذه المرحلة فيتمثل فى إنشاء كيان منفصل للاقليم وهو أمر شغل تفكير جميع الإداريين الإنجليز فى الخرطوم، وعواصم المديريات وحاولوا تعميقه فى كل المجالات حتى الجيش الذى يتخذ أساسا لحفظ الأمن والمحافظة على وحدة البلاد، أنشأوا فيه قسماً خاصاً بالجنوب فى وقت مبكر باسم الأورطة الاستوائية[2] التى ستتعرض للمخاطر التى نجمت عنها عند حديثنا عن المرحلة الأخيرة.

وعندما أنشئت المدرسة الحربية سنة ١٩٠٥ أعطيت الأفضلية لمن كانت الإدارة تطلق عليهم " السودانيين السود" على السودانيين العرب على أساس أن الحاميات السودانية التى يدرب من أجل قياداتها الضباط كانت من الجنوب والغرب، ولذلك لم يكن من بين أول دفعة من الخريجين الخمسة عشر سنة ١٩٠٨ سوى ثلاثة فقط من الشماليين[3]، وبدأت هذه السياسة تتغير، وذلك حينما أصدرت مديرية " منقلا " أوامرها فى سنة ١٩١٨ بخطابات رسمية إلى جميع مراكزها لاعتبار يوم الأحد هو يوم العطلة الرسمية من كل أسبوع بدلاً عن الجمعة.[4]

المرحلة الثانية (١٩٢٠-١٩٤٦)

وسمة هذه المرحلة تحويل مجرى الحياة سياسياً واجتماعياً وثقافياً فى هذا الاقليم عن مجراها الطبيعي الذى اتخذته متأثرة بشمال القطر إلى وجهة استهدفت فصل الإقليمين عن بعضهما، وضم الجنوب إلى مستعمرات بريطانيا فى شرق أفريقيا، أو تركه مستعمرة بريطانية منفصلة عن الشمال تحت النفوذ الإنجليزى[5]، وبات الحكم غير المباشر هو الشعار الإدارى الذى بنته الادارة البريطانية على حطام حواجز القبيلة التى توحدت البلاد بعد إزالتها فى عهدى الإدارة التركية والمهدية[6]، فحوربت مظاهر التأثر بالشمال، وأصبح

---

(١) انظر مدثر عبد الرحيم، مشكلة جنوب السودان ص١٩

(٢) وقد كانت هذه الفرقة دائما وراء حركات التمرد التى وقعت من الجنوبيين ابتداء من أغسطس ١٩٥٥ وكانت المؤسسات الكنسية العالمية تقوم بدعم هذه الحركات بالمال والسلاح بواسطة الكنائس الأفريقية كما سيجيء شرحه فيما بعد.

(٣) انظر تطور التعليم فى السودان ص٩٦

(٤) انظر مجلة الفتح العدد (٥٧) بتاريخ ٤ صفر ١٣٤٦هـ

(٥) انظر مشكلة جنوب السودان، د. مدثر عبد الرحيم ص٣٩

(٦) انظر الامبريالية ص٦١

التلبس بأى مظهر من هذه المظاهر جريمة يعاقب عليها الإداريون ففى سنة ١٩٢٠ كان المدعو صالح أحمد عبده طاهى الدكتور أليسون الإنجليزى يصلى الظهر فى جهة "أمادى" من أعمال مديرية "منقلا" فرآه المفتش الإنجليزى واسمه البمباشى "هولاند" فأمر بجلده خمسة عشر جلدة فتظلم إلى مخدومه شاكيا له عسف المفتش، "هولاند" فقال له: يمكنك أن تصلى داخل محلك، لأن الصلاة هنا ممنوعة، ومعروف أن السلطات الإنجليزية تعاقب كل من تثبت عليه "تهمة" هداية أحد أهالى المديريات الجنوبية، وجبال النوبة الذين يعتبرهم الإنجليز وثنيين)[1]

وكذلك تعاقب السلطات كل من يرشد أهالى تلك المديريات إلى سنة الختان الشائعة بين المسلمين، مثال ذلك أن أحد عساكر أورطة خط الاستواء طلب من (استنجيد) بك مدير "منقلا" السماح له بالذهاب إلى المستشفى لأن حالته تستوجب العلاج إذ كان قد (تختن) فرفض طلبه، وأفهم المدير المذكور الضابط أن "السردار" لا يحب أن تسرى عادة التختن فيهم ولا يحب أن يتولى أحد التدخل فى معتقداتهم، وأفهم جميع العساكر هذا أيضا.[2]

ومنعت حكومة السودان المعايدات الدينية أو الاحتفالات بالأعياد الإسلامية فى الجنوب ومنطقة جبال النوبة[3] وفى سنة ١٩٢١ عقد اجتماع إدارى خرج بعدة توصيات من أهمها

١- سيادة النظام القبلى لمحاربة الإسلام واللغة العربية.

٢- أن يقوم فى خلال عشر سنوات نظام المحاكم القبلية التى تكون العادة والعرف فيها أساس قانون التحاكم ليكون ذلك حاجزاً فى وجه الإسلام، ولهذا ظل الإداريون من "ملكال" إلى "تملى" ومن "كبويتا" إلى "راجا" يعملون فى تأسيس نظام قبلى حازم لا مجال فيه لنشر الإسلام واللغة العربية، وأصبح شعار هذا النهج ترك السلطات لزعماء القبائل تحت الرقابة البريطانية، وفى سنة ١٩٢٣ كان ثمانمائة شيخ من قبائل بدوية وشبه بدوية يتمتعون بسلطات محلية تحظى بدعم الحكومة الكامل.[4]

---

(١) مجلة الفتح، عدد ٥٧، بتاريخ ١٤ صفر سنة ١٣٤٦هـ
(٢) المصدر السابق
(٣) المصدر نفسه
(٤) انظر صفحة ٦ من التقرير السنوى رقم ١٩٢٤ لسنة ١٩٢٣

يقول جيمس كرى : (إنه على الرغم من ولاء السودانيين المثقفين للحكومة ،الذى فتح أمامهم الفرص فإن بالإمكان مشاهدة الشباب الإداريين وهم يبحثون بجد عن القبائل الضائعة ورؤسائها الذين تلاشوا ،وذلك لإعادة نظام قبلى كان قد لفظ أنفاسه إلى الأبد)[1] .

وظل المأمور السودانى الذى خلف المامور المصرى مسلوب السلطة ،والادارى البريطانى مراقبا لا يتدخل إلاّ فى الأمور الخطيرة فى النظام القبلى ،وفى مناطق التداخل حيث يشجع العادة المحلية التى لم تتأثر بعادات الشمال كثيرا ،ولكن هذه المحاولات واجهت كثيرا من المشاكل بين قبائل الجنوب فيما عدا قبيلة الشلك التى سبقت الإشارة اليها ،فالنوير لم يكونوا ميالين بطبعهم للنظام والقيود القانونية ،وبالتالى لم يكن زعماؤهم يرغبون فى إحكام السيطرة عليهم الأمر الذى قد يفقدهم نفوذهم لدى قبائلهم وحب مرؤسيهم .[2]

هكذا ركزت الإدارة فى هذه المرحلة على عزل الجنوب عزلاً تاماً عن المؤثرات الإسلامية[3] فلا يستخدم فيه غير الجنوبيين وفى الحالات القصوى التى تستلزم استخدام غير الجنوبيين يجب أن يكونوا من الأقباط،[4] كما تقرر بناء على هذه السياسة ألاّ يشترك مديرو المديريات الجنوبية فى اجتماعات المديرين التى كانت تعقد بالخرطوم سنويا وإلاّ إذا طلب منهم ذلك بل يجتمعون وحدهم فى الجنوب ،وأن يكونوا على صلة دائمة بأقرانهم ونظرائهم مديرى المديريات فى " كينيا" و "يوغندا" وللتعسيفعزا الحاكم العام هذه السياسة لصعوبة المواصلات[5] ولقد وضع السير هارولد ماكمايكل السكرتير الإدارى مذكرة رسم فيها برنامجاً واضحاً للعمل على طريق الفصل جاء فيه :

١- انشاء وحدات قبلية فى الجنوب تعتمد على تنظيم يستند على العرف والتقاليد والتراث الفكرى والقبلى .

٢- التخلص من الإداريين ،والموظفين والمهنيين الشماليين تدريجيًا على أن يحل محلهم أبناء الجنوب.

٣- استخدام اللغة الإنجليزية حينما يتعذر استخدام اللهجات المحلية .

---

(١) انظر الامبريالية ص٦٣

(٢) Shadows in the Grass P. 166

(٣) حيث وضع فيها قانون المناطق المقفلة المشار اليه .انظر ص (١٩١)من هذا البحث

(٤) انظر مشكلة جنوب السودان ، مدثر عبد الرحيم ص٩٣ .

(٥) المصدر السابق ص ٤٨

ونفذت هذه السياسة تنفيذاً دقيقاً في هذه المرحلة فسار الجنوب سيراً حثيثاً على درب الانفصال[١]، ومن العوامل التي عمقت هذه السياسة تعيين ولسون كاش[٢] W. Cash سكرتيراً للجمعية C.M.S. البريطانية سنة ١٩٢٦، وعندما تم تعيينه أعد مذكرة أيد فيها رأى جويني الذى كان يرى قبول الاعانات الحكومية المشروطة التي كان يرفضها أمثال د. "شو" و"مانلى" بحجة رفض السيطرة الحكومية على أعمال التبشير، ومبدأ قبول هذه المعونات دفع الإرساليات دفعة قوية في أخطر مجالين لها (التعليم، والتطبيب) وكان رأى (كاش) في الوجود العربى الإسلامى مطابقا لرأى الإداريين كما أشرنا إلى ذلك، وتزامن تعيين ولسون كاش مع تعيين (جون مافى John Maffi) حاكماً عاماً للسودان حيث اكتسب الأخير تجاربه السياسية من عمله بالهند، وكانت علاقته مع جمعية C.M.S. علاقة حسنة تعتز بها الجمعية[٣] وما أن حل عام ١٩٢٨ حتى كانت السياسة الرامية إلى فصل الجنوب عن الشمال قد اتسعت خطواتها[٤] وشجع الإداريون البريطانيون التجار الشماليين على مغادرة الاقليم، ومن لم يستجب يرغم عنوة، ذكر ذلك مدير مديرية بحر الغزال في خطاب للسكرتير الإدارى سنة ١٩٣٠ جاء فيه:

" هناك عدد كبير من التجار الشماليين في المديرية وخاصة بمدن (واو) و(أويل) و(راجا) و(كافياكنجى) و(رمبيك) لم يسمح لأى شخص أن يحمل رخصة تجارية لممارسة أعمال تجارية جديدة ولكن ذلك لن يؤدى إلى تحسين الموقف كما أن رخص بعض التجار على وشك الإلغاء بسبب سوء سلوكهم، وإننى أعتقد أنه من الضرورى اتخاذ إجراءات أكثر تشدداً في هذا الشأن من أن نقوم بتخفيض عدد تجار الشمال فحسب، فإنى أقترح بأن أمنح كل شمالى إنذاراً لمغادرة الجنوب في خلال خمس سنوات على الأكثر.

إن معظم التجارة بأيدى الشماليين في هذه المديرية إذ ليس في (رمبيك) مثلاً تجار من اليونانيين أو السوريين، وأولئك التجار كقاعدة عامة أكثر نشاطاً، وتجارتهم أكثر ازدهاراً من غيرهم، وإذا أبعدوا دفعة واحدة فلن نجد من أبناء الجنوب من يحل محلهم.

" إن بعض هؤلاء التجار رجال من ذوى الثراء الذين أقاموا بالمديريات السنوات الطوال وقد أسهموا كثيراً في تنمية التجارة، ومهما يكن من أمر فهناك عدد منهم ليسوا إلا تجاراً بالاسم فحسب إذ أنهم لا يدفعون ضرائب الأعمال التجارية كما أن بعضهم منح رخصاً

(١) انظر مشكلة جنوب السودان، محمد عمر بشير ص٧٨

(٢) عين ولسون كاش سكرتيرا للجمعية الكنسية بعد فترة طويلة قضاها في ارساليات الشرق الأوسط حيث عمل بفلسطين، ومصر وأسس مجلس البروتستانت للتصدى للحركات المعادية للمبشرين بمصر سنة ١٩٢١.

(٣) انظر التبشير النصرانى في جنوب سودان وادى النيل ص ١٨٩/١٩٠

(٤) انظر مشكلة جنوب السودان، لمحمد عمر بشير ص٧٧

تجارية برسوم مخفضة أو مجاناً ،وإبعاد مثل هؤلاء سيكون مفيداً من ناحية السياسة حيال الجنوب،ولن يكون ضاراً بالتجارة بأى حال) (١)

فرد عليه السكرتير الإدارى بخطاب ضاف جاء فيه :

(... إن إبعاد تجار الشمال يجب أن يكون تدريجياً بل يتعين أن نبذل عناية خاصة بشأن ذلك في كل حالة على حدة ،حتى إذا طلب مناتوضيح الأمر فإنه ينبغى أن نكون فى وضع يسمح لنا بالرد الكافى على أية شكاوى أو تحقيقات من الجهات المعنية هنا) (٢)

وفيما يتعلق بالأزياء قال له :

(إن الأمر حساس تحتاج معالجته إلى قدر كبير من الكياسة والمهارة ،على أنك قد تشير فى محادثاتك مع زعماء العشائر من حين لآخر ،بأن الأصول تقتضى التمسك بالتقاليد القبلية فيما يتعلق بأمر الملابس وما شاكلها من أمور) (٣)

فكتب مدير بحر الغزال لمفتش مركز " راجا " قائلاً :

" لا أعتقد أن الظروف التى ذكرها السكرتير الإدارى تسبب لنا قلقا ،ولكن يجب أن نعمل بحذر ،واعتقد أن من الأفضل أن نقابل كل تاجر منفرداً ونسأله عما إذا كان يرغب فى الرحيل إلى الشمال ،ولا يتعين عليك أن تخطره بأن الحكومة ستقوم بدفع مصروفات سفره إذا لم يكن لديه نقود ولكن إذا حدث أن ذكر أى منهم بأن السبب الوحيد لعدم سفره هو عجزه عن تدبير المال اللازم لذلك فإنه يمكن أن تخبره بأننى أؤمل فى التمكن من مساعدتك ، ويجب أن تضع فى الاعتبار أن السكرتير الإدارى يرى أن تُقَدَّمَ أسبابٌ معقولة لترحيل أى تاجر حتى يتسنى لنا الإجابة على أى سؤال فى هذا الشأن من الجهات المعنية فى الخرطوم.

" وأعتقد أن السبب الوحيد الذى يمكن أن نقدمه هو أن التجار قد رغبوا فى العودة إلى الشمال لأن أعمالهم لم تعد رابحة ،وأنهم كانوا راغبين فى ذلك منذ أمد بعيد لو كانت لديهم الامكانات،ويستحسن الحصول على إقرار مكتوب من التاجر بأنه موافق على الرحيل إلى الشمال والمساعدة التى يطلبها إلى هذا الشأن ،وإذا كان هناك بعض التجار لا يرغبون فى العودة إلى الشمال ولكنك تعتقد أنه يجب أن يرحلوا ،فإنى أرجوكم أن تذكروا أسبابا كافية

---

(١) خطاب بروك مدير بحر الغزال للسكرتير الادارى ١٩٣٠/٣/٢٢ .
(٢) خطاب السكرتير الادارى لمدير بحر الغزال بتاريخ ١٩٣٠/٥/١١ .
(٣) نفس المصدر ،وانظر مشكلة جنوب السودان ، ص ٤٨ .

لذلك مثل : أن دكانه خال من البضائع ،أو أنه لم يعد يمارس أى نوع من الأعمال التجارية أو أنه سيء السلوك . . . الخ)[1]

واقترح كذلك قيام تنظيمات تجارية تحت إشراف الإرساليات تمولها الحكومة ،وتوصل "مؤتمر منقلا" الذى عقد سنة ١٩٣٠ إلى أن أفضل وسيلة للتقدم التجارى فى الإقليم هو تشجيع التجار الأجانب على أن يقوموا بتعيين بعض الأهالى وكلاء لهم فى مقابل عمولة محددة ،[2] واقترح التجار اليونانيون أن يرشح السلاطين والرؤساء المحليون أشخاصا يثقون فى أمانتهم لكى يمدوهم بالبضائع بأسعار أقل من التى يبيعون بها عادة لصغار التجار الآخرين ،على أن يأمر المفتش السلاطين بضمان الخسارة التى تنجم عن إهمال هؤلاء التجار.[3]

وذهب مدير بحر الغزال إلى أبعد من ذلك إذ قام بمحاولة لمعرفة التكاليف الفعلية لتشييد المتجر ،وقيمة البضائع اللازمة ونسبة الربح التى تقرر تقريبا ،وعلى هذا أجلى التجار المسلمون من الجنوب بكل عنف وقسوة ،وسحبت رخص كثير منهم وأجبروا على المغادرة للشمال قوة وقهرًا ،وبحلول سنة ١٩٣٢ خلا الجنوب من تجار الشمال ،ولم يبق سوى تجار اليهود والنصارى من اليونانيين والسوريين والأقباط.[4]

ولم يكن أمر الجلاء مقصورًا على التجار بل تخلص الإنجليز من المسلمين فى كل المجالات الوظيفية والمهنية واستبدلوا الجنوبيين بهم وفى حالة عدم وجود جنوبيين كان يتم إحلال مسيحيين محلهم ،وحظر بالمثل على الجنوبيين دخول مديريات الشمال ،كما سعت الإدارة البريطانية لمقاومة الأزياء العربية فى اللباس ،وفضلت أن يظل الجنوبيون عراة كعادتهم البدائية إذا استحال إغراؤهم أو حملهم على اتخاذ أزياء الغرب،[5] وحتى مفتش " راجا" الذى سخر من سياسة رؤسائه وعلق عليها قائلا :

" انها مفتعلة مضحكة لا يقدر أحد على مجاراتها بإخلاص وقلب سليم) وذلك عندما علق على محاولة تغيير أسماء الجنوبيين بأسماء قبلية صرفة فقال :

"إننا نسمح للإرساليات بتنصيرهم وتسميتهم بأسماء أجنبية إيطالية هى أكثر بعداً عن مجتمعهم

---

(١) خطاب مدير بحر الغزال الى مفتش "راجا" يوليو ١٩٣٠ .

(٢) انظر مشكلة جنوب السودان ،محمد عمر بشير ص ٨٢ .

(٣) انظر المصدر نفسه ص ٨٣ .

(٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) انظر مشكلة جنوب السودان ،مدثر عبد الرحيم ص ٤٨ .

وثقافتهم من الإسلام والعربية) حتى هذا الرجل رغم عدم اقتناعه كما صرح بنفسه ـ اشتد في حمل التجار وغيرهم من المشتغلين بصناعة الملابس العربية وبيعها على الإقلاع عن صنعها وبيعها . وفى يناير سنة ١٩٣٥ أرسل خطابا شديد اللهجة إلى الخواجة " عما نويل لاغويترس) قال فيه :

" لقد اتضح لنا أنكم رغم تنبيهاتنا المتكررة ما زلتم توالون صناعة الملابس العربية وبيعها بكميات كبيرة ،ولذا نلفت أنظاركم إلى أن صناعة الملابس العربية وبيعها ستكون منذ اليوم ممنوعة منعاً باتاً ،وإذا أردتم تفصيل أى قمصان في المستقبل فلتكن ذات ياقة وفتحة أمامية على الطريقة الأوربية ،وليست بأعناق مستديرة كقمصان البقارة من أهل دارفور ، كذلك ينبغى أن تكفوا منذ اليوم عن صناعة الطواقى التى تلف عليها العمائم كما هى عند القبائل العربية ،إننا بموجب هذا الإنذار نمنحكم فرصة إلى آخر فبراير تتخلصون فيها من الكميات الموجودة عندكم من الملابس العربية ،وليكن معلوماً لديكم أن الأوامر المذكورة أعلاه تنطبق على جميع الوكلاء ،وأصحاب ماكينات الخياطة الموجودين خارج المدينة)[1]

ومما لا شك فيه أن مفتش "راجا" كان على قدر كبير من التسامح واللين إذا قيس بزملائه الذين ظلوا يحرقون الملابس العربية قبل عشر سنوات من إصدار خطابه[2] ، وفى الاجتماع الذى عقد بتاريخ ١٤ / ١١ / ١٩٤٠ بـ(كافياكينجى) بين مفتش المنطقة الغربية لمديرية بحر الغزال ومفتش المركز بمديرية دارفور ،تم الاتفاق على عدم السماح بدخول المسلمين لمنطقة "راجا" إلاّ من يحمل تصريحاً معتمداً بتوقيع المفتش[3] ، ثم عقد اجتماع آخر في ١٧ / ٣ / ١٩٤٢ بين مديرى بحر الغزال ، ودارفور ،ومفتش مركز دارفور اتفق فيه على إصدار جوازات مرور للراغبين في دخول "راجا" لأسباب معينة ،وصدرت هذه الجوازات باللغة الانجليزية من المفتش،وذلك للحد من اتصال القبائل العربية بما في ذلك البقارة والكارا وسكان راجا بالجنوب[4] ، وبهذه الطريقة أصبح من العسير على سكان الاقليمين أن ينتقلوا

---

(١) خطاب مفتش راجا الى عمانويل لاغوتيرس بتاريخ ٢١ / ١ / ١٩٣٥ ،وانظر مشكلة جنوب السودان مدثر عبد الرحيم ص٤٩ / ٥

(٢) المصدر نفسه ص ٥٠

(٣) وقائع جلسات مؤتمر كافياكنيجى ١٤ / ١١ / ١٩٤٠

(٤) انظر مشكلة جنوب السودان ،محمد عمر بشير ص ٨٥

من الشمال إلى الجنوب وبالعكس ،بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك حين حدوا من علاقـــة التزاوج بين سكان الاقليمين فمنعوا انتقال الزوجة وأولادها مع زوجها إلى الشمال .[١]

المرحلة الثالثة (١٩٤٦-١٩٥٦)

كان للمذكرة التى رفعها مؤتمر الخريجين بتاريخ ٣من أبريل سنة ١٩٤٢ والتى تضمنت فقرتها الخامسة المطالبة بإلغاء قوانين المناطق المقفلة ورفع قيود الانتقال والاتجار داخل السودان[٢] - أثرها فى تغيير السياسة البريطانية على الرغم من أن رد الحكومة عليها كان عنيفًا[٣] إلاّ أنها كانت نقطة تحول فى المسار السياسى فى السودان بوجه عام ،وفى الجنوب على وجه الخصوص،أضف إلى ذلك تزامن هذه المذكرة مع ظروف الحرب العظمى ،حيث هدد الطليان من الشرق ممتلكات بريطانيا فسعت إلى المحافظة على الجبهة الداخلية من التصدع فأبدت بعض التنازل .

ففى أغسطس سنة ١٩٤٣ كتب مدير الاستوائية قائلاً :

إن سياسة الجنوب تحتاج لشئ من إعادة النظر ،ومهما يكن من أمر فلا بد أن نعمـــل لتحقيق نوع من الحكم الذاتى فى الجنوب يمكن الجنوبيين من الانضمام إلى شمال القطـــر أو الى المناطق الواقعة جنوب القطر .

أما انضمام الجنوب إلى الشمال فاحتمال لا يمكن رفضه أو استبعاده ما دمنا نسلم بحـــق تقرير المصير ،ولو أن السياسة المتبعة حاليًا تجعل هذا الأمر عسيرًا وبعيد الاحتمال مـــن وجهة نظر الجنوب.[٤]

ولما اشتد ضغط الشماليين على الحكومة حاولت إرضاءهم بإنشاء المجلس الاستشـــارى لشمال السودان سنة ١٩٤٤[٥] حتى تكون متمشية ظاهريًا مع تيار التقدم الذى أحدثته الحرب العالمية الثانية متخذة من إنشائه دليلاً على ما قامت به من رفاهية السودان ،لكن العناصر الوطنية رفضت الاشتراك فيه لأنها اعتبرته خطوة دستورية لفصل الجنوب وذلك لعدم اشراك

---

(١) مشكلة جنوب السودان ،مدثر عبد الرحيم ،ص ٤ .
(٢) انظر الحركة الوطنية السودانية الاستقلال وما بعده ص٣٤٧ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٤٨ .
(٤) خطاب مدير الاستوائية لمفتش المركز الغربى فى ١٤/٨/١٩٤٣ ،دار الوثائق المركزية الخرطوم
(٥) انظر على عبد الرحمن ،الديمقراطية والاشتراكية فى السودان ،ص٣٨ ،ط سنة ١٩٧٠ المكتبة العصرية

الجنوبيين فيه ،ولأن أكثرية أعضائه معينون من قبل الحاكم العام ،وشعر الإنجليز بفشل الخطة فسارعوا لتدارك موقفهم فأنشأوا لجنة السودنة[1]، سنة ١٩٤٦ فجاء تقرير اللجنة في جملته إدانة قوية لسياسة الحكومة تجاه الجنوب ولهذا رفض السكرتير الإداري نشره.[2]

يقول الدرديري محمد عثمان ،أحد أعضاء اللجنة: إن اللجنة بعد أن زارت الجنوب مراكزه ومدارسه في المدن والأحراش وضعت تقريراً ضافياً حاوياً لسياسة الحكومة ،وبالأخص أعمال المبشرين هناك ،وعندما قدم التقرير لمكتب السكرتير الإداري لم يشأ نشره بل وصفه بأنه ورقة اتهام للحكومة وليس بتقرير[3] ، ومن ثم فقد أصبح من الضروري الذي لا مفر منه وضع سياسة جديدة للجنوب مقبولة لدى العناصر الوطنية ،وكان من رأى السكرتير الإداري

سير جيمس روبرتسون Sir James Robeson

أن تقام السياسة الجديدة لا على رأى من سماهم المتطرفين من نقاد السياسة القديمة بل على أسس اقتصادية واجتماعية سليمة ،يكون من شأنها كسب مساندة القادرين على النظر إلى الأشياء بعقول مفتوحة ،ومنطقية ،ومن هذا المنطلق سيكون على السودانيين شماليين وجنوبيين أن يتولوا شئونهم ،ويوجهوا الأجيال المستقبلة من أبنائهم في هذه البلاد .... وأنه على حكومة السودان من الآن فصاعداً أن تبنى أعمالها وتصرفاتها على التسليم بأنه من صفات سكان الجنوب الأساسية أنهم زنوج أفريقيون إلاّ أن العوامل الاقتصادية قد حكمت بربطهم بالمستعربين من أهالي السودان الشمالي ربطاً لا انفصام له خاصة فيما يتعلق بمستقبل تصورهم)[4]

ويعتبر خطاب السكرتير الإداري الآنف الذكر إدانة قوية من الحكومة نفسها لسياستها تجاه الجنوب في ربع قرن كما يعتبر الخطوة الأولى لسياسة التحول الجديدة التي رحب بها جميع مديري المديريات في الإقليم مما ترتب عليه انعقاد مؤتمر جوبا في يونيو سنة١٩٤٧ برئاسة السكرتير الإداري ،وعضوية مديري المديريات الجنوبية ومدير شئون الخدمة مع سبعة عشر رجلاً من زعماء ومتعلمي الجنوب بالإضافة إلى ستة من الشماليين ،وقرر المجتمعون ما عدا عضواً

---

(١) (السودنة) مصطلح أطلق للدلالة على استبدال موظفين سودانيين بالموظفين الأجانب في الخدمة المدنية.

(٢) انظر مشكلة الجنوب ،مدثر عبد الرحيم ص٦٢

(٣) المصدر السابق ص ٦٣

(٤) خطاب السكرتير الاداري بتاريخ ١٦ ديسمبر سنة١٩٤٦ دار الوثائق الخرطوم

أو عضوين من الاستوائية بأن الوحدة بين الشمال والجنوب ضرورة لا بد منها ،وأيدوا الفكـــرة القائلة بأن الفصل أمر غير ممكن .[(١)]

وتمخض عن هذا المؤتمر قيام الجمعية التشريعية التى انشئت سنة ١٩٤٨ فضمت الشمال والجنوب ،ورفع المتعلمون الشماليون والجنوبيون شعار الوحدة من داخل الجمعية ،ووافقـــت الجمعية علـــى الخطة الخمسية (١٩٥١-١٩٥٥) والتى شملت التوسع والتحسين لنظـــام التعليم ،إلاّ أن هذه السياسة جاءت بعد فوات الأوان حيث قطع الجنوب شوطاً طويلاً علـى درب الانفصال ،ولم يعد من السهل استقراره زيادة على هذا فإن سياسة الوئام لم تعجـب الإرساليات التى ساءها رضوخ الإدارة وموافقتها على السياسة الجديدة الرامية لوحـــدة القطر ،فكتب (تريمنجهام) سكرتير مجلس الإرساليات بالجنوب منددًا بهذا النهج فقال :

" إننا نعلم أن الشعار الذى يطلقهُ مثقفو الشمال بوحدة السودان لا يقوم على أساس البتة فى واقع الأمر ولولا الصدفة التى جاءت بالحكم الغربى لما أمكن توحيد الحكم بين أقوام متنافرة)[(٢)]

ورأى سكرتير مجلس الإرساليات أن قيام جمعية تشريعية لكل القطر يعتبر تنازلاً ـــن البريطانيين لموظفى الشمال وخرقاً واضحاً لوصايةَ بريطانيا على الجنوب ،ونشأت معارضـــة الكنائس لقيام سودان موحد من الاعتقاد بأن الشماليين سيعلـــنون أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام ،وسيضعون التعليم فى الجنوب تحت سيطرة الدولة ،وفى ذلك الحد من نفـــوذ الكنيسة فى جنوب القطر،[(٣)] ومن ذلك التاريخ وحتى يومنا هذا تشعل الكنائس نار العداوة بين شقى القطر.

---

(١) انظر مشكلة جنوب السودان ، محمد عمر بشير ص ١٠٥

(٢) مشكلة جنوب السودان ، محمد عمر بشير ص ١٠٧/ ١٠٨

(٣) انـــظر المصدر نفسه ص ١٠٨

المبحث الثالث
بداية الصراع المسلح

كانت الأورطة الاستوائية التي أنشأها الاستعمار استعداداً لفصل الاقليم، والتي ظلت في الجنوب منذ إنشائها، لا يحرك أفرادها خارج الاقليم كبقية الجنود في أقاليم السودان الأخرى - أساس التمرد حتى يومنا هذا، وقد ظلت هذه الفرقة كأنها جيش دولة أخرى، وليست جزءاً من قوة دفاع السودان، وعندما بدأ الحكم تدريجياً يؤول إلى الوطنيين، أخذوا يفكرون في وسيلة يحركون بها هذه الأورطة لدمجها في قوة دفاع السودان، فوجدوا في مناسبة الاحتفال بجلاء القوات البريطانية عن السودان الفرصة المناسبة لتحريكها شمالاً، وتم الاتفاق على دعوة البلوك المقيم في "توريت" لحضور الاحتفال، على أن يتم استبدال جنود شماليين به كما اتفق بالمثل مع بلوك "ملكال" ولكن الأيدي الخفية[1] التي تعمل ساهرة على زعزعة الأمن كانت تتخذ من مشروع سودنة الوظائف موضوعاً لزعزعة الأمن، وكان ذلك المشروع قد بدء في تنفيذه سنة ١٩٥٣ ليحل الوطنيون محل الانجليز، واستكمل تدرجه سنة ١٩٥٥ وكان نصيب الشماليين بحكم تأهيلهم وأكثريتهم أكبر بكثير من الجنوبيين، الأمر الذي أدى إلى تصديق دعاة الفتنة، بالتالي أدى إلى بداية الاضطراب في الجنوب يوم ١٩٥٥/٧/٢٥ فخرج الناس محتجين في أنحاء متفرقة من الاقليم في "ملكال" و "أنزارا" و "يبي" و "جوبا" بافتعال حوادث وهمية في الغالب، كإشاعة محاكمة عضو جنوبي في المجلس القومي، والحكم عليه بالسجن فقاد هذا الخبر الموهوم إلى الاضطرابات التي قتل فيها ثمانية أشخاص وجرح آخرون[2]، وفي يوم ٧ من أغسطس تم اكتشاف مؤامرة للتمرد وسط الجنود الجنوبيين، واعتقل موظفان كانا يعملان بقوة دفاع السودان، فأدى اعتقالهم إلى خروج الناس متظاهرين بالغضب في الاقليم مما نبه الإداريين الشماليين للخطر، فطلبوا تعزيز الموقف بجنود شماليين فأرسل خمسون جنديا إلى جوبا لحماية المرافق الهامة، وعندما طلب من فرقة توريت التحرك إلى الشمال حسب الاتفاق، دب التمرد إلى صفوفهم فرأى الضباط الشماليون تجريد الفرقة من السلاح وتسريحها من الخدمة تنفيذا للقوانين العسكرية، فرفضت الرئاسة بالخرطوم اقتراحهم

---

(١) انظر الحركة الوطنية السودانية، الاستقلال وما بعده ص٣٤٩

(٢) Edger O. Ballance, the Secret war in the Sudan 1955-1972 P. 40

وعند ما أحضرت السيارة العسكرية التى ستقلهم إلى الخرطوم للاشتراك فى الجلاء ، رفض مائة وتسعون جنديا بقيادة الملازم رينالد ولويلا الاستجابة لأوامر ضباطهم ، وانقضوا على الضباط الشماليين فقضوا عليهم ، وكسروا مستودع الذخيرة ، وشمل التمرد الذى بدأ فى " توريت " " جوبا " و " يى " و " يامبيو " و " مريدى " واستحر القتل فى الشماليين فبلغ عدد الضحايا ٢٦١ من الشماليين معظمهم قتل بالاستوائية[١] مقابل ٧٥ من الجنوبيين[٢] ونهبوا الأموال والممتلكات ، وهتكوا الأعراض ، وحرقوا المرافق ، وقطعوا وسائل الاتصال بالشمال ، وحدث ذلك فى يوم ١٨ من أغسطس ١٩٥٥ ، وفى يوم ١٩ منه أعلنت الحكومة خبر التمرد ، كما أعلنت حالة الطوارئ وفى يوم ٢١ من نفس الشهر تم نقل ثمانية آلاف جندى شمالى من الخرطوم إلى الجنوب ، وتوقع المتمردون مساندة وتشجيع البريطانيين ، فأرسلوا برقيات الى رئيس وزراء بريطانيا وإلى G.O.C. القوات البريطانية بالسودان ، وفى يوم ٢٢ من نفس الشهر ، وجه الرئيس الأزهرى نداء للمتمردين يأمرهم بالاستسلام ، فرفضوا بل طالبوا بسحب الجنود الشماليين إلى الشمال ، وهنا ظهر الساسة الجنوبيون ، وطلبوا من القوات البريطانية والمصرية التدخل ، فلم يقبل طلبهم ، وعند ما عاد الحاكم العام Sir Knox Helm كنوكس هيلم من الإجازة وجه فى يوم ٢٦ تحذيرا للمتمردين بتسليم أنفسهم ووعدهم بأنهم سيقدمون إلى محاكمة عادلة ، فانتهى التمرد فى اليوم التالى[٣] ، وتم اجتماع بين قوات الحكومة والمتمردين بالقرب من جوبا ، وتم الاتفاق بين الطرفين على أن يسلم المتمردون الذين دخلوا الغابة أنفسهم يوم ٨/٣٠ فى توريت . وعند ما وصلت قوات الحكومة توريت وجدتها قد هجرت حيث نكث المتمردون وفروا بأسلحتهم إلى الغابة ، وتقدم الصاغ صلاح سالم باقتراح مفاده بقاء الفرق البريطانية بالسودان وإرسال فرق مصرية للجنوب للمحافظة على الأمن فرفض الرئيس الأزهرى اقتراحه وغادرت القوات البريطانية السودان بنهاية الشهر . وفى يوم ٦ من سبتمبر سنة ١٩٥٥ أعلن أن الأمن مستتب وأن قوات الحكومة دخلت الاستوائية ، وقضت على التمرد بها

---

(١) Ibid P.43

(٢) انظر مشكلة جنوب السودان ، محمد عمر بشير ص ١١٥

(٣) The Secret war in the Sudan P. 40/41

حيث القواعد الرئيسية ،وتم تسريح الفرقة الاستوائية ولكن بعض جنودها فروا بأسلحتهم إلى الغابة كما تقدم وانحى الشماليون باللوم على البريطانيين ، وعزوا هذه الاضطرابات الدامية إلى سياستهم التى قامت على التفرقة بين الشمال والجنوب زمناً طويلاً ، بالإضافة إلى إهمال الجنوبيين ،وعدم دعوتهم للاشتراك فى المفاوضات التى أجريت بين أحزاب الشمال والحكومة المصرية فى القاهرة ، فاعتبروا عدم دعوتهم لتلك المفاوضات دليلاً على تجاهل الشماليين لهم ،فاستجابوا لدعاة الفرقة ومثيرى الشكوك.(١)

أما الأسباب المباشرة لهذه الاضطرابات بالإضافة إلى ما ذكر ،أنه قد نشرت على نطاق واسع أنباء تفيد بأن برقية بتوقيع الرئيس الأزهرى تحض الإداريين الشماليين على ضغط الجنوبيين ،ومعاملتهم بقسوة(٢) كما وزعت على أوسع نطاق خطابات مدسوسة تحمل نفس المعنى ضلعت فيها عناصر حانقة على رئاسة الأزهرى.(٣)

ثم غادر سير كوكس هيلم السودان نهائيا فى ١٥/٩/١٩٥٥ لانتهاء عمله بالسودان وقدم قائد المتمردين ورينالد ولويلاء إلى المحاكمة وأعدم سنة ١٩٥٦.(٤)

وأتاحت الحوادث المشؤومة الفرصة واسعة لذوى الأغراض الخبيثة أن يسعروا نار الفتنة ، ويوسعوا شقة الخلاف بزعمهم أن حلول الشماليين محل الإنجليز يعنى استبدال استعمار بآخر ،ورسخوا هذا فى أذهان الجنوبيين ،فعلق أحد الكتاب على حوادث التمرد قائلا :-

" إن سرعة سودنة الوظائف عام ١٩٥٣ والتى تعنى بالنسبة للجنوبيين اتيان الشماليين لأخذ وظائف البريطانيين - سببت عدم قناعة فى الجنوب كما سببت الخوف من مقاصد الحكومة فظهر للجنوبيين وكأنهم استعمروا للمرة الثانية) ، ويغض الكاتب الطرف عن الأسباب التى أدت إلى قلة نصيب الجنوبيين فى عملية السودنة أما المنصرون فقد ظلوا منذ أمد بعيد حلقة الوصل بين الدوائر الاستعمارية والجنوبيين وجاء رأيهم واضحا فى تقرير الكنيسة الكاثوليكية الذى أصدرته سنة ١٩٨٤ بعنوان :

---

(١) انظر مشكلة جنوب السودان ،محمد عمر بشير ص١١٧
The Secret war in the Sudan P. 42

(٢) -

(٣) انظر الحركة الوطنية السودانية الاستقلال وما بعده ص ٢٣٤

(٤) The Secret war in the Sudan P. 43

The Catholic Church in the Sudan a Golden opportunity lost. (فرصة ذهبية ضاعت على الكنيسة الكاثوليكية.)

جاء فيه: " لا شئ يعادل رفض الجنوبيين (الواعين) لوضعهم السياسي المفروض عليهم، ويرجع هذا إلى عام ١٩٥٥ عند ما تمت عملية السودنة لثمانمائة وظيفة إدارية عليا كانت في السابق في يد البريطانيين، كان نصيب الجنوبيين منها ثلاثاً لا غير، ويرجع هذا إلى أن الشمال كان بمقدوره أن يؤمن مجموعة من المتخصصين القادرين على إدارة الشئون الوطنية في القطر، في حين أنه لم يكن بالجنوب اثنا عشر رجلا أتموا تعليما فوق الثانوى، وقد فهم هذا الفارق العددى من قبل الجنوبيين فهما خاطئا وفسر على أساس أنه تفرقة عنصرية، وأخذت العداوة الشديدة أبعاداً متطرفة حتى إن حادثة صغيرة ربما تشعل صراعا بين الطرفين غير معروف العواقب، وإحدى هذه الحوادث حدثت في " توريت " في ١٨ من أغسطس سنة ١٩٥٥ نتج عنها وفيات عدة وبذرت فيها بذور حرب أهلية استمرت سبعة عشر عاما) "[١] وما زالت مستمرة، ويقول التقرير في تعليقه على الحالة التعليمية بالاقليم:

" في العام الدراسى ١٩٥٥/١٩٥٦ كان عدد المدارس الحكومية ١٤٦٢ تكاد تكون كلها في الشمال وبها ١٦٤٢٥٥ طالب يتلقون تعليما بالمجان منهم ١٢٩٠٧٢ من الذكور و٣٥١٨٣ من الإناث في مراحل التعليم من الابتدائى إلى الثانوى، وتمثل هذه الاحصائية ١٨٪ من الذين هم في عمر الدراسة بينما توجد في ذات الوقت بالجنوب ٣٥٠ مدرسة تبشيرية من صغرى إلى متوسطة منها ٣٠٠[٢] كاثوليكية و٥٠[٣] بروتستانتية بها ٣٠٠٠٠ طالب وهذا الرقم يمثل ٣٪ ممن هم في عمر الدراسة"[٤]

فالتقرير في مجمله إدانة واضحة لأعمال التنصير عامة والكاثوليك بصفة خاصة، لمن كان له عقل، فالكنيسة الكاثوليكية تزعم في تقريرها أن أتباعها بالاقليم ١٧٪ من مجموع سكانه[٥]، ومن المعلوم أنها بدأت العمل بينهم منذ أكثر من قرن من الزمان حيث بدأت سنة ١٨٤٦ وأصبح التعليم محتكراً للكنائس عامة والكاثوليك على وجه الخصوص، وباعترافها أن الذين نالوا تعليما فوق الثانوى لا يتجاوزون اثنى عشر رجلاً، فماذا كانت تعمل هذه الكنائس التى احتكرت التعليم؟

---

(١) The Catholic Church in the Sudan a Golden opportunity P. 5

(٢) Ibid P.5

(٣) Ibid P.7

(٤) Ibid P.5

(٥) Ibid P.4

يجيب على هذا السؤال رجل من كبار السياسيين الذين اكتووا بنار المنصرين الذين كان همّ أحدهم أن يجمع عدداً من أبناء الجنوب يبث فيهم كراهية الشمال والعرب ويعلق على صدورهم الصلبان، ويأخذ لهم صوراً يرسلها إلى مؤجريه على أن هؤلاء قد اعتنقوا المسيحية مدللاً بذلك على نجاحه في عمله، يقول المرحوم خضر حمد[1] في زيارته للجنوب بعد أن لاقى العنت في استخراج التصريح لها:

"... وفي أول محطة رأيت أحد أبناء الشلك يلبس (اللاوو) وفي عنقه صليب فسألته عنه فقال بالعربي: (بتاع القسيس) أي أنه لا يهمه في كثير ولا قليل، ولكنه يخص القسيس فهل كان ضمير هذا القس مرتاحاً يشعر بأنه خدم المسيحية، وخدم هذا الوثني بأن جعله يعتنق ديناً ويؤمن بالله ويهتدي إلى الخير؟.. وفي تلك الزيارة رأيت الكتب التي تدرس لتعليم الأولاد القراءة والكتابة، هل كانت دينية أو كانت معلومات تتعلق بالبلد؟ وكيف يستفاد من تلك الأرض الطيبة؟ كلا لم يكن في تلك الكتب شيء واحد مما ذكر، بل كانت كلها تتعلق بالإسلام وسبه واتهام محمد (صلى الله عليه وسلم) بالكذب وسفك الدماء وأن غرضه وغرض دينه هو العرب واحتقار غيرهم واستعبادهم، وقد حاولت جاهداً أن أدفع (للمراسلة)[2] جنيها كاملاً ليعطيني الكتاب، ولكنه أبى خوفاً مما سيصيبه إذا عرف أن هذا الكتاب تسرب عن طريقه إلى شخص مثلي"[3]، وهكذا ظلت الكنيسة حجر عثرة أمام تقدم الاقليم، ولن يتقدم إلاّ بعد الانعتاق من أغلالها لأنها احتكرت التعليم وجعلت الكثلكة رسما لدخول مدارسها

ومنذ أن تسلم أول وزير معارف سوداني كانت سياسته توحيد نظام التعليم في مديريات السودان شمالاً وجنوبا لاستيعاب أكبر عدد ممكن من التلاميذ في جميع أنحاء القطر، كما صرح بأن الطلبة الذين لا يعتنقون ديناً سماوياً لهم الحرية في عدم حضور حصص الدين ولعل هذه أول مرة تتاح فيها الفرصة للجنوبيين الذين لا دين لهم للالتحاق بالمدارس دون أن يفرض عليهم أن يكونوا مسيحيين، كما كان الحال سابقا[4]، وفي سنة ١٩٥٤ وجهت الحكومة

---

(١) خضر حمد من مواليد سنة ١٩١٠ تخرج في كلية غردون سنة ١٩٢٩ من مؤسسي مؤتمر الخريجين ومن أوائل الذين قاوموا الاستعمار بكتاباته الساخنة تحت توقيع مستعمار، عمل متطوعا بالجامعة العربية (١٩٤٨-١٩٥١) شغل مناصب قيادية كوزارة الري والقوى الكهربائية ووزارة الدولة وأخيرا كان عضو مجلس السيادة، توفي سنة ١٩٧٠.

(٢) المراسلة: هو العامل الذي يخدم الزوار.

(٣) الحركة الوطنية الاستقلال وما بعده ص ٣٦

(٤) انظر مشكلة جنوب السودان، محمد عمر بشير، ص ١٧٨

الدعوة إلى لجنة دولية مختصة بشئون التعليم الثانوى للاستفادة من خبراتها فيما يختص بنظام التعليم فكانت أهم المسائل التى وجهت إليها عنايتها ،نظام التعليم فى الجنوب، فأوصت بضرورة استيلاء الحكومة على جميع المدارس، لتوفير للناشئ الجنوبى المواد التعليمية التى تجعل منه مواطناً سودانياً ،والجدير بالذكر أن جميع أعضاء هذه اللجنة كانوا غير سودانيين [(١)] ، وهذه إدانة عالمية للتعليم الكنسى بالجنوب ، ولم توضع توصيات هذه اللجنة موضع التنفيذ إلاّ فى عام١٩٥٧ نسبة لأحداث التمرد حيث دعا وزير التربية والتعليم مندوبى الهيئات التنصيرية لحضور المؤتمر الذى عقد فى فبراير سنة١٩٥٧ ووجه الوزير الخطاب للحاضرين قائلاً : إن الحكومة قررت أن تضع يدها بصورة كاملة على شئون التعليم بالمديريات الجنوبية [(٢)] وعلى الرغم من أن الوزير طمأن مندوبى الإرساليات على مستقبل المسيحية والعاملين لها وأظهر المندوبون رضاهم عن هذه السياسة من غير قيد ولا شرط، فإنهم سرعان ما نكصوا على أعقابهم ، وقلبوا ظهر المجن .

الكنيسة تواجه الحكومة:

اعتبرت الكنائس قرار الحكومة هضماً لحقوقها فثارت ثائرتها وخاصة الكاثوليكية ،على الرغم من أن الحكومة سعت فى إرضائها بضم جميع العاملين بمدارسها للقطاع الحكومى ومنحتها حرية تدريس المسيحية ، فعقد مندوبو الكاثوليكية اجتماعا خرجوا منه بالقرارات التالية كشروط لاستيلاء الدولة على مدارسهم:

١- إن إدارة المدارس الكاثوليكية لا تترك أموالها تؤول إلى الحكومة السودانية إلاّ بمقتضى اتفاق بينها وبين السلطة العليا بضمانات مناسبة وذلك بمقتضى تشريع يصدر عن البرلمان السودانى .

٢- يجب أن تدفع وزارة التربية والتعليم أجراً مناسباً لسلطات الكنيسة مقابل الانتفاع بالمبانى المدرسية التى شيدتها .

٣- يجب أن يتم تعيين مندوب عن الكنيسة فى مجلس التعليم الوطنى بكل مديرية ،وفى كل

---

(١) مشكلة جنوب السودان ، محمد عمر بشير ص١١٧

(٢) انظر المصدر السابق ص ١١٨ ، وانظر بشير محمد سعيد ، السودان فى ملتقى الحضارات الافريقية ص ١٨٠ ، وانظر تقرير الكنيسة الكاثوليكية لسنة١٩٨٤ ص ٧

لجنة منطقة تعليمية .

٤- يجب أن يعطى المدرسون الكاثوليك تدريبا كاملا كما يجب أن يجتازوا امتحانا يعده مندوبو الكنيسة قبل تخرجهم وتعيينهم .

٥- على الحكومة أن تقدم قائمة بأسماء المدرسين الذين يدرسون في المدارس المحولة لتوافق عليها الكنيسة .

٦- ولكي يجتنب النزاع الآيدولوجي ،والاحتكاك داخل المدارس يجب أن يتاح لسلطات الكنيسة حق طلب سحب المدرسين الذين يتضح أن مسلكهم ونظرتهم للحياة معادية لتعاليم المسيحية .

٧- يجب أن يكون مديرو المدارس وأغلبية المدرسين العاملين من معتنقي المذهب الكاثوليكي .

٨- يجب أن يعطى أولوية الدخول بالمدارس المحولة لأبناء الطائفة الكاثوليكية ،ولا يدرس فيها غير المذهب الكاثوليكي .

٩- يجب ألا يقل الزمن المقرر للدروس الدينية والحفلات الدينية والعطلات المدرسية عما كان مقرراً من قبل لهذه الأغراض.

١٠- يجب أن يترك تحديد المنهج والكتب المدرسية الخاصة لسلطات الكنيسة الكاثوليكية .

١١- وأن يسمح لقسيس تعينه سلطات الكنيسة دخول المدارس في الفترات المخصصة للتربية الدينية للإشراف على سير العمل ،وأنّ على السلطات الحكومية كفالة التسهيلات اللّازمة لعقد الامتحانات في كل وحدة من المدارس المحولة .

١٢- يجب إتاحة الفرصة للآباء لممارسة حق اختيار المدرسة التي يفضلون إلحاق أولادهم بها ،وفي حالة توفر العدد الكافي من التلاميذ الذين يرغبون في الالتحاق بالمدرسة الكاثوليكية فإن على سلطات التعليم الحكومية بعد أن تشهد بذلك سلطات الكنيسة الكاثوليكية ،وتتحقق وزارة المعارف من ذلك ، أن تنشئ مدرسة جديدة تتولى الاشراف عليها وادارتها وفقا للشروط التى تنطبق على المدارس التى تؤول للحكومة .

١٣- يجب توفير الضمانات الكافية لبعض المدارس الكاثوليكية المحولة لكي تكون رئاستها وموظفوها من المندوبين الكاثوليك في الفترة التي تشرف عليها الحكومة كما يجب توفير

الضمانات الكافية للمدارس الكاثوليكية الخاصة لانشاء مدارس لها في المستقبل .

وكان من البدهي أن ترفض أغلب هذه الشروط التي أملتها الكنيسة مظهرة تعاليهـا وبسط نفوذها ليس على التعليم فحسب بل على الحكومة نفسها حيث اعتبرت تحويل التعليم عنها وضمه للدولة اعتداءً من الشمال على الجنوب[١] .

جاء في تقرير الكنيسة الكاثوليكية " لقد خشي المبشرون أن تكون اللغة العربية هـي حصان طروادة الذي به يدخل الإسلام إلى الجنوب ، ولقد صاغ أحد علماء السودان العلاقة بين الاثنين بقوله : " اللغة العربية والإسلام وجهان لعملة واحدة يرتبطان دائمـا ولا يمكن التفريق بينهما " وكانت حكومة السودان فيما سبق استعمارًا ثنائيًا بالاسم وإدارة إنجليزية بالفعل ، ففـي عام ١٩٢٢ أمرت باستعمال الإنجليزية مكان العربية كلغة للإدارة في الجنوب وفي عام ١٩٥٠ حينما استجابت الحكومة لرغبات الوطنيين أمر وزير المعـارف بإدخال العربية في المدارس الوسطى والثانوية في خلال سنتين فخضعت الإرساليـات الكاثوليكية للأمر برغم خوفها من المخاطر الكامنة وحاولت أن تفرق بين اللغة والديـن ، وبعثت بعض مبشريها إلى لبنان لتعليم اللغة العربية ، وكانت الحكومة ملحة في إتمـام التعريب . . . ولقد برر الوزير هذا العمل بأنه من أجل الأهداف الوطنية ، وأعلن في الوقت نفسه أن هذا الإجراء لا يعني أن الحكومة تشك في أن الإرساليات تعمل على تقويض الوئـام بين شقي الوطن ووعد الوزير بأن تدرّس المسيحية للطلاب سيستمر)[٢]

ويقول التقرير أيضا :

" وبدأ الغـرض الحقيقي من ضم المدارس جليا بعد وقت قصير ، ففي مديرية أعالـي النيل أصبحت المدارس أشبه بالخلاوى - (مدارس تحفيظ القرآن الكريم) - وكانت المـادة الرئيسية الإسلام)[٣] مما دفع الكنيسة الكاثوليكية لتحريض الهيئات التبشيرية غير الكاثوليكيـة لإعلان السخط على الحكومة التي أدخلت اللغة العربية في نظام التعليم بالإضافة إلـى إدخال الموظفين الشماليين ، فاعتبروا ذلك مدًا للنفوذ الإسلامي[٤] ، وخرجت صحيفة الرسول

---

(١) انظر محمد عمر بشير ، مشكلة جنوب السودان ص ١١٩-١٢٠

(٢) The Catholic Church in the Sudan a Golden opportunity lost.P.7

(٣) Ibid P. 7

(٤) انظر مشكلة جنوب السودان ، محمد عمر بشير ص ١٢١

التبشيرية التى تصدر فى الجنوب تحمل ملخصا لموقف الهيئات التبشيرية تجاه سياسة الحكومة جاء فيه :

" لقد أنشئت مدارسنا الكاثوليكية بتضحيات غالية لكى يتسنى لهؤلاء الأطفال تعليم كاثوليكى صحيح ،وتقع على عاتق الآباء مسئولية إرسال أبنائهم للمدارس الكاثوليكية كما أن قانون الكنيسة يقضى بعدم السماح للآباء الكاثوليك بإرسال أبنائهم لغير المدارس الكاثوليكية دون إذن راعى الكنيسة ، وأننا نرغب فى هذه الأيام التى تسعى الحكومة فيها لفرض سيطرتها التامة علىى شئون التعليم أن نعلن بوضوح أنه لا يمكن لأى كاثوليكى أن يقر مثل هذا التصرف ،لقد منحت الكنيسة تفويضاً وحقاً من السيد المسيح لكى تسهم فى تعليم وتربية الإنسان ، وللآباء الحق ،بل عليهم واجب أن يقوموا بتعليم الأبناء الذين منحهم الله ويجب أن تنال هذه الحقوق الخاصة بالكنيسة والآباء احترامها من الدولة"[1]

هكذا تريد الكنيسة أن تكون هى الدولة والدولة خادمة لها تأتمر بأمرها وأن التعليم فى الجنوب حق لها ،واعتبرت فقدانه ضربة قوية لها[2] ، وفى ذلك الوقت نشرت إحدى الصحف الكاثوليكية التى تصدر فى إيطاليا ما يلى :

" أصدر البابا أوامره بمقاومة الحكومة السودانية المتهمة بارتكاب أخطاء جسيمة ضد الملايين الثلاثة التى تعيش فى جنوب السودان ، وظل أمر البابا بمقاومة الحكومة فى السودان سارياً من لحظة صدوره إلى يومنا هذا على كل الحكومات المتعاقبة بصرف النظر عن سياستها "[3] لأن الإرساليات أدركت أن الاستقرار من عوامل نشر الإسلام ولقد جاء ما يؤيد ذلك فى تقرير الكنيسة نفسها حيث قال : " كان من الممكن أن ينتشر الإسلام فى الجنوب من خلال هذه المدارس التبشيرية الأصل ، ولكن حرب العصابات حطمت نظام التعليم كليا "[4] ، ولم تقف الكنيسة عند إثارة التمرد الذى أشعلت ناره ضد أول حكومة حاولت تنمية الجنوب وانتشاله من التخلف متخذة من ضم التعليم خطوة أولى على طريق التقدم ،بل ذهبت الكنيسة أبعد من ذلك بتحريك عملائها فى الداخل والخارج لتغيير

---

(١) انظر المصدر السابق ص١٢١/١٢٢

(٢) The Catholic Church in the Sudan a Golden opportunity lost P 8

(٣) مشكلة جنوب السودان ،محمد عمر بشير ص١٢١

(٤) The Catholic Church in theSudan a Golden Opportunity lost p 8

أى حكومة تجرؤ على ذلك ،وبالفعل سقطت الحكومة بانقلاب الجنرال عبود سنة ١٩٥٨ ، وعند ما هدأت الأحوال والتفت الحكام العسكريون للجنوب،قررت الحكومة فى فبراير سنة ١٩٦١ أن تكون الجمعة عطلة رسمية فى الجنوب بدلا عن الأحد فلم يعجب هذا القرار الكنيسة[1] فشنت الحرب على الحكومة مما اضطر الحكومة أن تمارس حقها القانونى فى الجنوب فحصرت عدد المبشرين الأجانب الذين دخلوا الجنوب فكان عددهم ٤٦٠ مبشرًا أجنبيا منهم ٣٦٠ كاثوليكى و ١٠٠ بروتستانتى وأغلبهم دخلوا بدون إذن - وهؤلاء غير الذين دخلوا مبشرين تحت لافتات هيئات التنمية للتعمية - وغير الثلاثين الذين قامت الحكومة بإبعادهم سنة ١٩٥٨ لأنهم تسببوا فى بعض الحوادث المخلة بالأمن والنظام نصفهم من الكاثوليك والنصف الآخر من البروتستانت،ثم اتبعهم آخرين لارتكابهم مخالفات قانونية كتسببهم فى كثير من حوادث الطرق لعدم اكتراثهم بالمواطنين وكتوزيعهم الدواء بدون ترخيص[2] ولا تخصص، وهى أمور ظلت الإرساليات تمارسها منذ عهد الاستعمار وحتى اليوم نسبة لتفشى الجهل فى الاقليم مع انعدام الرقابة القانونية من قبل الدولة لأن الاستعمار كان لا ينظر للمواطن الجنوبى كانسان.

جاء فى تقرير كرومر: " لا أحسب أن أكثر دعاة الإخاء والمساواة عمى عن واقع الأحوال وحقائق الأمور يستطيع الإدعاء بأنه من المعقول أن يحاكم المدعو (كوات وداويبونج) وهو شلكاوى قتل المدعو (أجوك ودينج) لاعتقاده أن هذا الأخير قد سحر ابنه وساق إليه تمساحا التهمة بنفس الطريقة والإجراءات المتبعة فى محاكم باريس وليون "[3]

وهكذا أعطت الإدارة البريطانية المبشرين الحق فى معاملة الجنوبيين هذه المعاملة غير الإنسانية ،وظل رجال الإرساليات يمارسون مختلف المهن بغير علم ،وهذا مسئول الكنيسة الكاثوليكية جوڤيانى فانتينى وهو حائز على درجة دكتوراة فى اللغات يعترف بأن المبشرين يمارسون أعمالا لا علم لهم بها فيقول:

" أغلبهم رجال لكل الأعمال ،ولكن بعضهم أصبح مختصا (عن طريق الخبرة الذاتية!) فى مختلف المجالات بدون أن يكونوا حائزين على شهادات مدرسية أو دراسات تخصصية .

---

(١) Ibid P 9

(٢) Ibid P 9

(٣) انظر التقرير السنوى عن الأحوال المالية والادارية فى مصر والسودان لعام ١٩٠٤ ،وانظر مدثر عبد الرحيم ،مشكلة جنوب السودان ص٣٢

ان الأخوات (الفيرونيات) عموما كن ممرضات باجتهاد هن الشخصي ،ومد رسات فـــــى المدارس، ومساعدات فى عديد من قطاعات العمل التبشيرى ،لقد كانت مواهبهن الشخصية مع اخلاصهن الدينى ، والحماسة للعمل التبشيرى هى التى خلقت منهن أدوات لا تقــدر بثمن فى التنصير ،وبدون مساعدة الأخوان عموما والأخوات (الفيرونيات) لم يكن الآبــــاء (الفيرونيون) ليتمكنوا من تحقيق ما حققوا بالفعل فى السودان ،إن العلاقة بين الإرساليــات الرومانية وسلطات الحكومة كانت فى عمومها ودية للغاية فى جميع الأوقات) .(١) بجانب هذه الفوضى فى جميع المجالات المهنية تسبب المبشرون فى إزهاق أرواح كثير من المواطنــين بحوادث الطرق وانتهكوا أعراضهم مع كل هذا الفساد والإفساد فإن الذين أبعدوا كانوا يمارسون التنصير بغير تصريح رسمى .(٢)

---

(١) Roman Catholic Contribution to Evangelization in the Sudan P.1/2

(٢) The Catholic Church in the Sudan a Golden opportunity P.9

المبحث الرابع
الحكومة تواجه الكنيســـة

طرد المبشرين سنة ١٩٦٤ :

زعمت الكنيسة الكاثوليكية في تقريرها المشار إليه أن سبب طرد المبشرين سنة ١٩٦٤ هو نشرهم المسيحية في منطقة تريد ها الحكومة لنشر الإسلام ،والواقع غير ذلك لأن الإرساليات ساءتها جهود الحكومة الاصلاحية في الجنوب ، فأخذت تؤلب عملاءها في الداخل والخارج ضد السياسة الرامية إلى الاستقرار في الاقليم مما اضطر الدولة لطرد المبشرين الأجانب الذين دخلوا السودان بغير إذن وظلوا يمارسون التخريب تحت ستار التبشير بدون تصريح كما ذكر ذلك وزير الداخلية في تصريحه بتاريخ ٢٧ من فبراير سنة ١٩٦٤ بأن مجلس الوزراء قرر طرد المبشرين الأجانب الذين لا يحملون تصريحاً بالعمل بالتبشير فشمل قرار الابعاد ٢١٤ كاثوليكيا و٥٠ من البروتستانت[(١)]،وفي يوم ٤ من مارس أذاع الفريق ابراهيم عبود رئيس الدولة بيانا وضح فيه أسباب الإبعاد نجتزئ منه ما يأتي :

".. لقد أخذنا نراقب منذ زمن بعيد النشاط المعادى الذى ظل يقوم به هذا النفر من الأجانب بتلك المناطق والبقاع،وأخذنا نرصد تحركاتهم وأعمالهم في صبر شديد وسعة صدر ملحوظة متسامحين تارة ومحذرين في كثير من الرفق واللين تارة أخرى ،ولكنهم حسبوا التسامح ضعفاً ، وظنوا التساهل تردداً واعتقدوا أن الحلم خوف ووجل ،[(٢)] فلم يثوبوا إلى رشدهم ،ولم يحتكموا إلى عقلهم حتى كادت أعمالهم التخريبية تودى بوحدة البلاد ،وحتى كاد نشاطهم المعادى يقضي على مقومات النظام ويهدم أركان الاستقرار في هذا البلد الذى أكرمهم وأعزهم ،وفسح لهم المجال من غير قيد ولا شرط،وأتاح لهم من الإمكانات والتسهيلات ما لا يخطر على بال،أو يرقى إليه تفكير أحد ،إن أعمالهم المتسمة بالخروج الواضح على القانون ، وإصرارهم على التحدى والتخريب ،لهى السبب الذى اضطر الحكومة لمعالجة الأمور بما تستحق من حزم وشدة ، بعد أن عجز التساهل واللين .

---

(١) The Catholic Church in the Sudan a Golden opportunity lost P.9

(٢) في البيان (خوفا ووجلا) وهو خطأ لأنه خبر ان .

قد ثبت بالأدلة القاطعة أن هؤلاء الأجانب ظلوا يقومون بأعمال مناهضة للدولة ، ومخالفات لقوانينها ولوائحها ، هدفهم من ذلك حض المواطنين على التخريب، ودافعهم إلى ذلك تقويض أسباب الاستقرار والنظام.

" وبودى يا سيدى الرئيس لو سمح لى المجال بسرد تفصيلى للحوادث الكثيرة والجرائم العديدة التى ثبت ارتكابها فى هذا الصدد بالأدلة الدامغة والبراهين الساطعة ، ولكن المجال وبكل أسف لا يسمح ، والوقت يضيق ، ولأكتف بالإشارة العابرة لحوادث قليلة ، وقليلة جدا ، على سبيل المثال فقط.

" فقد ثبت أن الأب (جون يريغلا) حرض بعض المواطنين وساعدهم على الهروب خارج حدود السودان بعد أن أدخل فى روعهم كذباً وإفكاً أن البلاد مقبلة على اضطرابات، وأعمال عنف شديدة تودى بحياتهم وممتلكاتهم.

كذلك ثبت أن الكنيسة بمنطقة (رمو) تقوم بمساعدة الخارجين على القانون لاجتياز الحدود ، وثبت أن القس الكاثوليكى (أندرية تروكى) سكرتير أعمال الكنيسة الكاثوليكية ب(واو) يقوم بترحيل الأشخاص الذين يرغبون فى التسلل خارج الحدود بعربات الكنيسة من واو إلى بورو، ومن هناك إلى ديم زبير حيث يقضى المتسللون ليلتهم داخل الكنيسة ، فيواصلون الرحلة فى اليوم التالى سيرًا على الأقدام ، كما ثبت بما لا يدع مجالا للشك بأن الكنيسة وعمالها يقومون بدور بارز كحلقة للاتصال بين رئاسة الخارجين على القانون خارج البلاد والمواطنين فى الداخل فينقلون الأخبار والمكاتبات، وفى عواصم المديريات حرّض القسس طلاب المدارس على الإضراب"[1]

وخلاصة القول أن رد الفعل من طرد القسس الأجانب كان عنيفًا فى خارج السودان وداخله حيث هاجمت وسائل الإعلام العالمية حكومة السودان واتهمتها بأنها عنصرية[2] وتولى بابا الفاتيكان كبر هذه الحملة العدائية[3] ، فحرك عملاءه فى جميع أنحاء العالم لمواجهة الحكومة السودانية.

---

(١) أذيع هذا البيان بتاريخ ١٩٦٤/٣/٤ ونشر بجريدة الثورة السودانية بتاريخ ١٩٦٤/٣/٥ وانظر الوثائق العربية ، وثيقة رقم ٥٢ ، وانظر الملحق رقم (٥) .

(٢) مشكلة جنوب السودان ، د . مسعودى ، ص ١٥٦

(٣) مشكلة جنوب السودان ، محمد عمر بشير ص ١٢٩

جاء في مجلة أفريقيا التي تصدر في لندن ما يأتي :

" إن الكاثوليك عمومًا وخاصة الذين ينتمون إلى كرسي فيرونا قد أطلوا برؤوسهم سياسيا وجماهيريًا ، ومنذ زمن بعيد يرجع إلى أبريل من العام المنصرم اتهمت مجلة آباء فيرونا عرب الشمال بالسعي للقضاء على الكنيسة باعتبارها رقيبا غير مرغوب فيه لمحاربة محاولة استرقاق الجسد والروح بين غير العرب الذين يبلغ عددهم أربعة ملايين[1] ، ووزع الآباء الكاثوليك منشورًا مناوئًا للحكومة جاء فيه : " ليس هناك أحد مهما علا شأنه ملكا كان أو امبراطورًا يمكنه إجبارنا على أن نسير في طريق يخالف تعاليم أبينا الذي في السموات أو يتجافى مع ضميرنا "[2] .

وقال المنشور إن القانون قد أضحى سلاحًا لكبح المسيحية وفرض الإسلام[3] ،

وهكذا نجحت الكنيسة بما لها من إمكانات مادية أن تثير السخط عالميًا ومحليًا ضد الحكومة ، الأمر الذي أدى إلى ضعف موقفها أمام هذه الهجمات الشرسة حيث خرج الناس ينادون بسقوط الحكومة فآثر رئيسها التنحي عن أريكة الحكم حقنًا للدماء ، وذلك في اكتوبر سنة ١٩٦٤ ، وتم تشكيل حكومة انتقالية برئاسة سر الختم الخليفة الذي لم تكن له تجربة سياسية ريثما يتم انتخاب حكومة جديدة قادرة على التفاوض مع التنظيمات الجنوبية التي أنشئت في فترة التمرد .

التنظيمات الجنوبية :

أنشأ المتمردون تنظيمات عدة أغلبها أنشئ خارج السودان ، من هذه التنظيمات رابطة المسيحيين السودانيين ، سكدنو SACDNU وهو اختصار لـ :

Sudan Africa Closed District National Union.

ومعناها : حزب السودان للمناطق الوطنية المغلقة ، وتم إنشاؤه في سنة ١٩٦٠[4] وتغير اسمه الى SANU سنة ١٩٦٣ ، وهو اختصار لـ Sudan Africa National Union

---

(١) مجلة أفريقيا ، عدد ٨ بتاريخ ١٩٦٤/٤/١٧ ، وانظر مشكلة جنوب السودان ، محمد عمر بشير ص١٢٩

(٢) مجلة أفريقيا ، عدد ٨ بتاريخ ١٩٦٤/٤/١٧

(٣) مشكلة جنوب السودان ، محمد عمر بشير ص١٢٧

(٤) مشكلة جنوب السودان ، د . مسعودي ص١٥٧ . وهناك قول بأنه أنشئ عام ١٩٥٨ ، وانظر مشكلة جنوب السودان ، محمد عمر بشير ص١٢

ومعناها الاتحاد الوطني الأفريقي السودانـــي . وكان يرأسه جوزيف أدوهو وأمينه العـــام وليام دينق[1] . ونقل سانو نشاطه إلى كمبالا بعد زوال حكومة عبود وطالب الحكومة الانتقالية بالاتي :

١- إعلان العفو العام عن جميع اللاجئين الذين تركوا الجنوب في أعقاب تمرد سنة ١٩٥٥ سواء الذين حوكموا بالفعل أو المطلوبون للمحاكمة .

٢- أن يظل العفو مفتوحًا غير محدد بأمد ينتهي فيه .

٣- إلغاء قانون المناطق المقفلة ، وقانون الهيئات التبشيرية .[2]

٤- الموافقة على أن يكون نظام الحكم فدراليا .

٥- أن تخضع الإدارة المحلية والسياسية لحكومة إقليمية من أبناء الجنوب .

٦- أن يكون نائب رئيس الدولة المركزية جنوبياً .

٧- الاعتراف بالإنجليزية لغة رسمية للجنوب .

٨- الغاء القيود المفروضة على المدارس الخاصة بالهيئات التبشيرية .

٩- تحويل مدرسة رمبيك الثانوية إلى جامعة .

١٠- تعيين جنوبيين بالخارجية .

١١- تنظيم الجيش بالجنوب وإسناد قيادته إلى جنوبيين .[3]

غير أن الحكومة الانتقالية لم تكن في وضع يسمح لها بالبت في هذه المطالب فاكتفى رئيسها بتوجيه نداء في يوم ١٠ من ديسمبر سنة ١٩٦٤ دعا فيه إلى المصالحة ، وأن حكومته إمعانا منها في إظهار حسن النية تجاه مشكلة الجنوب ، قد وافقت على عرض المطالب الـــتي تقدم بها (سانو) على مؤتمر المائدة المستديرة المزمع عقده في فبراير ١٩٦٥م .

ولم تكن القيادة الجنوبية على وفاق حتى ترتفع إلى مستوى التفاوض ، فلقد كان حـــزب سانو منقسمًا إلى قسمين : داخلي ، وخارجي وفي خلال سنة ١٩٦٥ انقسم الجناح الخارجي كذلك

---

(١) وليام دينق من الذين فروا خارج السودان ، ومن أهمّ الأعضاء المؤسسين لحزب سانـــو في الخارج ، وكان أولا من دعاة الانفصال ، ولكن تخلى عن هذه الفكرة بعد إعلان العفو العام بعد ثورة اكتوبر سنة ١٩٦٤ . نادى بقيام نظام فدرالي لتسوية مشكلة الجنـــوب وبعد إعلان نتائج الانتخابات بيومين اقتيل في رومبيك في ٩/٥/١٩٦٨ في ظـــروف غامضة حيث وقعت سيارته في كمين . ولم تعرف هوية القتلـة . واعتبر محمد أحمد محجوب فقده خسارة فادحة بالنسبة للساسة الجنوبيين . انظر الديمقراطية في الميزان ص ٢٢٠ . وأقول : إن فقده خسارة بالنسبة للساسة الشماليين كذلك حيث انضم حزبه الـــى حزب الوحدة السوداني بقيادة سانتينو دينق وفلمون ماجوك . وهما الحزبان الكبيران بين أحزاب الجنوب اللذان يؤمنان بوحدة السودان ويؤيدانها ويدعوان لها . انظر ص ١٥٧ من مشكلة جنوب السودان ، محمد عمر بشير .

(٢) انظر المصدر السابق ص ٣٩

(٣) انظر مقال الاستاذ تمو تي سي نابلوك ، بمجلة السياسة الدولية ، العدد رقم ٤١ سنة ١٩٧٥ ص ١١٩ بعنوان (تجربة الحل السلمي) .

إلى قسمين قسم بقيادة جوزيف أدو وهو أطلق على نفسه (جبهة تحرير ازانيا) والقسم الآخر بقيادة أقرى جادين تحت اسم (جبهة تحرير السودان الأفريقى)[١] ثم توحد الجناحان مرة أخرى .

وهناك تنظيم (الأنيانيا)[٢] فى الغابة بقيادة جوزيف لاقو[٣] الذى لم ينضو تحت قيادة الآزانيا من الخارج ولما عاد قائد الآزانيا من الخارج ليعمل فى الداخل من الغابة اعتقله قائد الأنيانيا لأنه انتهك أراضيه ،

وبعد عام اعتقل قائد الأنيانيا كذلك أزبونى منديرى الذى كان يشغل منصب وزير دفاع الآزانيا ،بل حتى الأنيانيا نفسها لم تكن تملك إمكانية التفاوض بدون الرجوع إلى مسعرى الحرب الحقيقيين ، وهذا يوضح صعوبة إجراء المفاوضات بين الحكومة المركزية وأطراف النزاع وإذا تمت المفاوضات فإمكانية نجاحها ضعيفة بغير حضور الطرف المؤثر الحقيقى ،وهو مجلس الكنائس العالمى وبالفعل تأخر انعقاد المؤتمر إلى منتصف مارس سنة ١٩٦٥ وحضره ممثلو الجنوبيين ،من حزب سانو ،وجبهة الجنوب ، وحزب الوحدة مع أحزاب الشمال بيد أن المؤتمر لم يتوصل إلى حل للمشكلة فاكتفى بتكوين لجنة من جميع الأحزاب سميت لجنة الإثنى عشر لتواصل النقاش فى المسألة الدستورية على أن تعرض إنجازها على مؤتمر مائدة مستديرة آخر يعقد فى غضون ثلاثة أشهر من تاريخ المؤتمر الأول .

وعزا المراقبون إخفاق المؤتمر لأسباب عدة منها

١- ان المفاوضات استبعدت العناصر التى كانت تسعر المقاومة ضد الحكومة المركزية ، (فالأنيانيا) لم توجه لها الدعوة لحضور المؤتمر ، ولم تبد من جانبها اهتماما للمشاركة فيه .[٤]

٢- تنافس الأحزاب الجنوبية فيما بينها على القيادة جعل من الصعب الاتفاق فيما بينها على رأى ، لأن أى تنازل من طرف يستغله الطرف الآخر على أنه نقطة ضعف أمام الشمال .

---

(١) انظر المصدر السابق والصفحة

(٢) الأنيانيا : ثعبان قاتل استعير اسمه للترهيب

(٣) جوزيف لاقو تخرج فى الكلية الحربية بالخرطوم ، وعمل بالجيش السودانى ،ثم هرب إلى الخارج وتزعم حركة الأنيانيا ،وظل متمرداً حتى عاد بعد اتفاقية أديس أبابا سنة ١٩٧٢ فصار نائباً لرئيس الجمهورية .

(٤) انظر مشكلة جنوب السودان ، د .المسعودى ص١٧٢

ولكن فى الواقع أن ما ذكر ليس هو السبب الحقيقى فى عدم نجاح المؤتمر، لأن كلا من حزب سانو وجبهة الجنوب يزعم أن الأنيانيا خاضعة لسلطانه أو يدعى أنه وثيق الصلة برجالها غير أن الجميع خاضع لنفوذ الكنيسة والقوى الاستعمارية التى صنعت المشكلة وتقف خلف رجالها تمدهم بالرأى والمال والسلاح .

هذه القوى هى التى أسهمت حقيقة فى عدم إنجاح المؤتمر لأنها ضد الاستقرار ، فسعت بالدس بين صفوف الجنوبيين تقوى الشك فى نفوسهم تجاه الشمال فمن صالحها بقاء الحال على ما هو عليه واستمرار الصراع حتى تمكن سلطانها فى الإقليم، وكذلك عند ما تنحت حكومة سر الختم وجاءت الحكومة القومية برئاسة محمد أحمد محجوب سنة ١٩٦٥، وقام بجولة فى الدول المجاورة ليضمن وقوف رؤسائها إلى جانبه وعدم مساعدة المتمردين لكى ينحصر التمرد فى الأدغال نصحه الرئيس (موبوتو) ببدء حوار مع البابا بولس السادس قائلاً : " إننى أعتقد أن معظم الثوار فى جنوب السودان كاثوليك مثلى ، وأن الكنيسة الكاثوليكية أقوى على الأرض من الله - كبرت كلمة تخرج من فيه ما قال إلّا كذبا - فيجب عليك أن تكون حريصا " . ثم عرض أن يستخدم مساعيه الحميدة بالنيابة العامة مع البابا وعمل محجوب بنصيحته وبدأ حوارًا مع الكرسى الرسولى بواسطة سفارتى السودان فى لندن وروما ، وتلقى اقتراحًا بقبول كهنة أفارقة وعرب ريثما يتم إعداد كهنة من جنوب السودان وفى المقابل وعد بأن يوجه نداء إلى اللاجئين والثوار بإلقاء السلاح لكى تعود الأحوال الطبيعية للسودان.[٢]

وبعد فترة وجيزة من تسلم الصادق المهدى للسلطة سنة ١٩٦٦ تقدمت حكومته بدعوة إلى مجلس كنائس عموم أفريقيا وهو عضو فى مجلس الكنائس العالمى لإرسال وفد لزيارة السودان لمراقبة الوضع الذى أدى إلى عدم الاستقرار،[٣] وقد كان مجلس كنائس عموم أفريقيا يترقب هذه الدعوة ولكن حكومة المحجوب لم ترحب بالفكرة ، وبالفعل زار السودان وفده المكون من أربعة أشخاص، فاستقبلته الحكومة بحفاوة ، واجتمع برئيسها وبعض أعضائها ، وزار مدن الجنوب

---

(١) انظر مشكلة جنوب السودان ، د . مسعودى ص١٧٢

(٢) انظر الديمقراطية فى الميزان ص٢١٧

(٣) انظر تجربة الحل السلمى ص١١٧

الرئيسية ، وكتب تقريراً وصف فيه الصادق المهدى بأنه شخصية تقدمية ،ولم يستمر الصادق طويلاً حيث أطيح بحكومته ورجع المحجوب مرة أخرى فعادت الأمور إلى ما كانت عليه من قبل واستغلت الأنيانيا فترة الهدوء الذى ساد الموقف بعد أكتوبر فنظمت صفوفها ،وحصلت على أسلحة من بقايا حرب الكنغو الأهلية وساندتها الإرساليات بالمؤن الحربية والغذائية فاستأنفت القتال بضراوة ،ومن ثم انعدم الجو الملائم للتفاوض،ولعل هذا كان عملا مقصوداً.[1]

وجاء النميرى :

وجاء النميرى فأعلن بعد اسبوعين من تسلمه السلطة أن سياسته نحو الجنوب تتمثل فى منحه الأولوية فى التنمية مع الاحتفاظ بثقافته وتقاليده ،وأوضح البيان الذى أذاعه ، أنه لا مجال للتساؤل حول فرض ثقافة عربية أو إسلامية على الجنوب،وعين وزيراً جنوبيًا مختصاً بشئون الجنوب وهو (جوزيف قرنق) الذى قام برفقه وزير الاشغال (أبيل ألير) وهو جنوبى كذلك بزيارة ليوغندا ،وقابلا عدداً من قادة التمرد لإقناعهم بالتفاوض مع الحكومة الجديدة للتوصل إلى حل سلمى للمشكلة ، ولكن باءت مساعيهما بالفشل لعدم ارتباط وزير شئون الجنوب بايدلوجيات الأنيانيا وجماعتها[2] لأن وزير شئون الجنوب كان عضواً بارزًا فى الحزب الشيوعى السودانى[3] ،بالإضافة إلى أن المتمردين كانوا أشتاتاً متفرقة ، وليس من السهل التفاوض معهم كما أشرنا آنفاً .

إسرائيل والأنيانيا الوطنية:

لقد حاولت منظمة الأنيانيا الحصول على أسلحة من إسرائيل ولكنها لم تحصل عليها الا فى سبتمبر سنة ١٩٦٩ ،وذلك عندما أرادت إسرائيل أن تشل حكومة نميرى عن الاشتراك مع دول المواجهة[4] وجندت لذلك جوزيف لاقو الذى شق عصا الطاعة وخرج

---

(١) انظر تجربة الحل السلمى ، ص ١٢٣

(٢) المصدر السابق ص ١٢٣

(٣) انظر السودان فى النفق المظلم ، د . منصور خالد ،ص٧٩

(٤) انظر مشكلة جنوب السودان ، محمد عمر بشير ص ١٩٣ ، وتجربة الحل السلمى ص١٢١

على قائده (اميليو تافينق) وكون ما أسماه بالأنيانيا الوطنية، وزار إسرائيل مرتين وحصل على إمدادات هائلة من الأسلحة التي كانت تصله بمعدل حمولتين جويتين في الشهر[1] فتمكن لاقو بخبرته العسكرية وأسلحته الإسرائيلية من فرض نفوذه على الأجنحة الأخرى[2] فأصبح قائد الأنيانيا بلا منازع[3]، الأمر الذي أهله لدخول المفاوضات مع الحكومة.

---

(١) تجربة الحل السلمي ، ص ١٢١ نقلا عن الاوبزيرفر لندن بتاريخ ١٩٧١/٣/٧م

(٢) وهي تسعة أجنحة ، انظر مشكلة جنوب السودان ، د. مسعودي ص١٩٢

(٣) تجربة الحل السلمي ص ١٢١

المبحث الخامس

اتفاقية أديس أبابا

لقد سبق الاتفاق النهائي تمهيدات فردية عبر مجلس الكنائس العالمي في مايو سنة ١٩٧١، كما جرت مفاوضات مع المتمردين في لندن أسهمت فيها باربرا هاك، ومحمد عمر بشير، وعابدين إسماعيل الذي كان سفيراً للسودان بلندن، وكان كذلك عضواً في الحزب الشيوعي[١]، وفي نفس العام اختلف الشيوعيون والنميري، وأداروا عليه انقلاباً فاشلاً فدارت عليهم الدوائر، وكان وزير شئون الجنوب ضمن أعضاء الحزب الشيوعي الذين أعدموا وفي خلال انعقاد مجلس الكنائس العالمي بأديس أبابا في يناير سنة ١٩٧١م للتباحث في كيفية إرسال مساعدات للمتضررين بالصراع، وصلت دعوة من الحكومة السودانية تطلب إرسال وفد من مجلس الكنائس العالمي ومؤتمر عموم كنائس أفريقيا لزيارة السودان للاطلاع على جهود الحكومة لإعادة الأوضاع الطبيعية إلى الجنوب، وكان مجلس الكنائس على صلة وثيقة بجنوب السودان[٢] مما دعا الوفد لاستماع وجهات نظر بعض المؤثرين في الأنيانيا وذلك قبل سفره إلى الخرطوم وفي يومي السابع والثامن من مايو قام بزيارة العاصمة اليوغندية وكمبالا حيث اجتمع بلجنة كمبالا وهي مكونة من رجال كنائس سودانيين، وبعض رجال الكنائس غير السودانيين، وبعض المحاضرين الأجانب بجامعة مكريري[٣]، وهي اللجان المختصة بإيصال المساعدات للأنيانيا، كما كانت تقوم بالنواحي الإعلامية لهم، ولقد حضر الاجتماع المشترك بين المجلسين جوزيف لاقو الذي انتخب للتفاوض عنه مادينق دى قرنق ولورنس وول، وتكفلت الكنائس بتيسير نقلهم لاقناع زملائهم في العواصم الغربية، وزودهم لاقو بخطابات تدل على التفويض، وبعد محادثات الوفد في الخرطوم أحس المجلسان الكنسيان بالثقة من أن حكومة السودان أصبحت مهيئة لدخول المفاوضات، وعقد مندوب مؤتمر كنائس عموم أفريقيا (كاون بيرجس كار) اجتماعاً في كمبالا مع ثلاثة من قادة المتمردين وبعد أن تيقن مجلس الكنائس العالمي، ومؤتمر كنائس عموم أفريقيا من استعداد المتمردين للتفاوض طار الوفد إلى العاصمة السودانية للتفاوض في الاطار العام الذي تم الاتفاق عليه

---

(١) السودان والنفق المظلم، ص ٧٩

(٢) انظر تجربة الحل السلمي ص ١٢٤

(٣) كان من أبرز هؤلاء الدكتور استورد ماكادى الكندى الذى يعمل بشعبة اللغة الإنجليزية

ورفع تقريراً بنتائج مباحثاته مع قادة التمرد ،ومن ثم رأت الحكومة ضرورة البدء في إجراء محادثات تمهيدية ، وطلبت من المجلسين الكنسيين تنظيم اجتماع يضم ممثلي الحكومة والمتمردين في أسرع وقت ممكن ،وحددت أديس أبابا مقراً للتفاوض واشترط لاقو حضور المجلسين الكنسيين اللذين حضرا المحادثات التمهيدية كمراقبين ،ولكنهما في أثناء المؤتمر برهنا على أنهما أساس التفاوض[١] ، والتقى الطرفان - إن صح هذا التعبير[٢] - في الخامس عشر من فبراير سنة ١٩٧٢ على مائدة المفاوضات في أكبر معقل للصهيونية في أفريقيا تحت رعاية (هيلاسلاسي) الذى صنعته الصهيونية العالمية والاستعمار، ونصب امبراطوراً على دولة يكوّن المسلمون غالبية سكانها حيث يصلون ٦٥٪ من السكان[٣] ومكّن كذلك من فرض نفوذه على ارتريا المسلمة ، أضف إلى ذلك أن وفد الحكومة نفسه كان برئاسة نصراني هو (أبيل ألير) ومسلمين بشهادات الميلاد كمنصور خالد الذى برهنت كتاباته وأعماله على ولائه للنصارى، وعدائه للإسلام والمسلمين فهو يستحسن عمل النميرى عندما يكون في خدمة النصرانية والنصارى، ويستهجنه عندما يشتم فيه رائحة الاسلام[٤] . أما جوزيف لاقو فقد اختار وفده من أكثر العناصر حقداً على الشمال برئاسة أزبوني منديري من أوائل المنادين بالانفصال واستمرت المفاوضات من الخامس عشر والسابع والعشرين من فبراير سنة ١٩٧٢ ولم يكن في الإمكان معرفة مادار في المؤتمر

---

(١) انظر تجربة الحل السلمي ص ١٢٨

(٢) لغياب من يمثل الإسلام الحقيقي

(٣) انظر المهندس فتحي غيث، الاسلام والحبشة عبر التاريخ، ص ٣٤٧/٣٤٩، شركة الطباعة الفنية المتحدة ، بدون تاريخ .

(٤) يقول منصور خالد : (وفي عاصمة الاقليم الجديد شارك النميرى في قداس للسلام أقيم بكثدرائية المدينة ،كما حضر في نفس الوقت مراسم زفاف أحد القادة السياسيين الجنوبيين ، وكان لوجود قائد شمالي مسلم في مكان عبادة مسيحي في قلب الجنوب أثر عميق على الناس هناك ، والحادث ليس بالبساطة التي يراه بها البعض، ومن عجائب أمور هذه الدنيا أن يكون نميرى هذا هو نفس الرجل الذى يعود بعد عشرة أعوام ليفرض على الجنوبيين مسيحيين وثنيين على السواء قوانين الشريعة الإسلامية لا ليقيم بها العدالة الاجتماعية وينشر بها التراحم ، وانما ليحد القساوسة جلداً لشربهم دم المسيح ! ويقطع بها يد الفتى الجنوبي السارق .

- ويزعم منصور خالد - أن أغلب من طبق عليهم حد السرقة في الخرطوم من الجنوبيين العاطلين في طرقات الخرطوم) من كتاب منصور خالد (السودان والنفق المظلم) ص ٨٤

لأن النقاب لم يكشف عما دار في الاجتماع، ولكن أشارت تقارير غير رسمية إلى دور هيلاسلاسي والمنظمات الكنسية في حسم الخلاف عند مايثور، وفي السابع والعشرين من مارس سنة ١٩٧٢ وقعت الاتفاقية النهائية التي كانت تتويجاً للجهود الكنسية في أفريقيا عامة وفي السودان بخاصة حيث جعلت من المتمردين الند القوى الذي فرض هيمنته على الحكومة، وأملى عليها شروطه بتحديد مكان الاجتماع ونوعية العناصر المشاركة فيه مما أهل الكنيسة لفرض هيمنتها لا على الجنوب فحسب بل على الشمال نفسه حيث ضمنت هذه الاتفاقية في دستور جمهورية السودان سنة ١٩٧٣ وصارت جزءاً منه ورفض مجيزوه أن يكون دين الدولة الرسمي هو الاسلام[١] وهو أمر لم يجرؤ الانجليز المستعمرون على محوه، مما جعل الكنيسة الكاثوليكية تكتب معلقة على هذا الانتصار ما يلي :

" اتفاقية أديس أبابا عالجت الأمور السياسية والإدارية التي تهم المديريات الجنوبية، ولطرح التخوف المفروض، فإن البند السابع نص على أن العربية لغة السودان الرسمية والانجليزية لغة الجنوب الرسمية . . . ثم دمج الاتفاق في دستور جمهورية السودان الذي ضمن حرية الأديان، إسلامي، مسيحي، وثني، والأهم من الضمانات المكتوبة[٢]، فإن التنفيذ في الجنوب قد وضع في أيدي الإداريين الجنوبيين، وكلهم تقريبا مسيحيون تلقوا تعليمهم في الإرساليات، ولم يعد فتح المدارس الكنسية والمستشفيات ونقط الغيار أو صيانة المباني، وتكوين الجمعيات الدينية وتنقل القسس إلى أماكن نائية، وتنصير المناطق البكر، لم يعد كل ذلك يحتاج لطلب كما رحبت حكومة الاقليم بمبادرة الكنيسة التي أتت بالتقدم المادي والأخلاقي ! !)[٣].

ومن المعلوم أن المنظمات الكنسية ظلت تؤثر في إدارة شئون الاقليم منذ عهد الاستعمار وبعد قيام ماسمي بالحكومات الوطنية، وتسوم مسلمي الاقليم سوء العذاب على الرغم من أن عددهم يفوق عدد المسيحيين بشقيهم الكاثوليك والبروتستانت لاستضعاف المسلمين وعدم النصير من الداخل والخارج وزادت حالهم سوءاً بعد أن اكتسبت الكنيسة سلطة شرعية هيمنت بها على الإقليم باتفاقية أديس أبابا .

---

(١) انظر السودان والنفق المظلم ص٨٦

(٢) كلمة (المكتوبة) التي وردت في تقرير الكاثوليكية تدل على أن هناك ضمانات غير (مكتوبة) في الاتفاقية التي نشرت على الناس، وهذا يؤيد الذين ذهبوا إلى أن الاتفاقية حوت بنودا سرية ولقد أنكر هذا بعض أعضاء المؤتمر.

انظر السودان والنفق المظلم ص ٨٨

(٣) The Catholic Church in the Sudan a Golden opportunity lost P.12

أثر الاتفاقية على الشمال :

لم يكن أثر اتفاقية أديس أبابا مقصوراً على الجنوب ،بل تعداه إلى الشمال حيث استغلت المنظمات الكنسية محلياً وعالمياً ضعف الحكومة السودانية فمهدت لقيام علاقات دبلوماسية بين السودان والفاتيكان[(١)] ، ومن المعلوم أن الفاتيكان يخطط لازالة الإسلام من أفريقيا مع نهاية القرن العشرين ، والبابا نفسه ينتقل بين أقطار شتى ليطمئن إلى نجاح الخطة المرسومة ويزيدها ضراوة[(٢)] ، ونشرت أخبار اللجنة كذلك قيام البابا بزيارة لعدد من الدول الأفريقية ونشرت بعض الصحف تصريحات لمساعديه ذكروا فيها أن الهدف من الزيارة ،وقف المد الإسلامي في أفريقيا ،ولقد افتتح البابا أكبر كنيسة في العالم بعد الفاتيكان في ساحل العاج ،انشئت في أهم المواقع في العاصمة (ابيد جان) علماً بأن الكاثوليك حسب الاحصاءات الرسمية ١٣٪ والمسلمين ٣٥٪ من السكان ،ومن المعلوم أن الاحصاءات في أكثر الدول الأفريقية تضخم عدد المسيحيين وتنقص عدد المسلمين ، حيث تبلغ النسبة الحقيقية للمسلمين حسب احصاءات اللجنة ٦٠٪، ولقد بلغت تكاليف هذه الكنيسة مائتي مليون دولار أمريكي[(٣)] .

ولهذا يهم من يظن أن الحرب الدائرة اليوم في جنوب السودان حرب عنصرية بين عرب وأفارقة وانما هي حرب بين النصرانية والاسلام على أرض السودان[(٤)] .

وعلى الرغم من أن الحكومة أعطت الدنية في دينها إلاّ أنه لم يحصل استقرار في الجنوب ،فقد تجددت الحرب بعد سنتين فقط من الاتفاقية ،وذلك في سنة ١٩٧٤ ثم تفاقمت سنة ١٩٧٦[(٥)] ، وفي سنة ١٩٨٠ نشب صراع بين جوزيف لاقو قائد الاقليم ،وكلمنت أمبورو رئيس مجلس النواب الاقليمي حول موضوع تقسيم الاقليم لأن سكان الاستوائية ، ومعظمهم من القبائل الصغيرة شعروا بطغيان قبيلة الدينكا واحتوائها للاقليم بحكم كثافتها العددية الأمر الذى اضطر النميرى إلى إصدار أمر بعودة الاقليم إلى ما كان عليه قبل الاتفاق[(٦)] .

---

(١) انظر ص ١٢١ من هذا البحث .
(٢) انظر الشيخ محمد الغزالي ،هموم داعية ،ص ٥١ ، وانظر أخبار اللجنة ، نشرة لجنة مسلمي أفريقيا بتاريخ ربيع الآخر سنة ١٤٠٦ يناير ١٩٨٦ ، الصفاة ،الكويت.
(٣) انظر اخبار اللجنة بنفس التاريخ أعلاه
(٤) Econom ysit 1987
(٥) انظر تجربة الحل السلمي ص ١٢٩
(٦) السودان والنفق المظلم ص ٣٧٦

فثارت الكنائس وأججت نار التمرد لأن قرار التقسيم تهديد لاستراتيجيتها التى ترمى من ورائها إلى جعل الإقليم وحدة تلوى بها ذراع الحكومة المركزية لتنفيذ أهدافها كما أن إعلان النميرى بأن السودان سيكون بعد اكتشاف النفط سلة لغذاء العالم أمر أزعج الأمريكان الذين رأوا فى الإعلان تحديا لهم ومنافسة فى أقوى سلاح يهددون به أقوى أعدائهم الاتحاد السوفيتى ،وهو القمح[١]، فجن جنونهم فحركوا عملاءهم بقيادة جون قرنق دى مابور[٢] الذى كان يخطط لفصل الجنوب عن الشمال ،وكان من بنود اتفاقية أديس أبابا استيعاب الأنيانيا البالغ عددهم أربعة عشر ألفا فى الجيش السودانى ،وأن يكون ثلثا جيش الاقليم الجنوبى منهم على أن يظل الثلث الباقى من الشماليين ،وحتى هـذا الثلث لم يتوفر لأسباب عدة أهمها اضطراب الأحوال على أيدى المنصرين والمتمردين ففكرت الحكومة المركزية أن تحد من هذا الاضطراب بتحريك بعض الوحدات الجنوبية لتحل محلها وحدات شمالية ليحصل التوازن ،وبالفعل استجابت الوحدات فشعر جون قرنق أن مخططه سينهار إذا حركت الوحدات الجنوبية شمالاً فسارع إلى أخذ عطلته

(١) انظر مقال عقيد أ.ح على حاج الطاهر الذى نشرته جريدة الصحافة السودانية عدد ٨٣١٢ بتاريخ ٨ من رجب ١٤٠٦هـ الموافق ١٧ من مارس ١٩٨٦م

(٢) جون قرنق ينحدر من قبيلة الدينكا ويبلغ من العمر حوالى ٤٠ سنة ، درس سبع سنوات باسرائيل ،وخمس سنوات بأمريكا . (مقال عقيد أ.ح على حاج الطاهر السابق)

حصل على البكالوريوس من كلية قرينل Grinnel بولاية Lowa بأمريكا سنة ١٩٦٩ ،ومنح إحدى جوائز توماسجبى للصداقة ذات الشهرة العالمية يزعم مساعدته للاجئين ، وفى سنة ١٩٧٥ ابتعث من القوات المسلحة السودانية إلى فورت بيتين فى جورجيا ، ثم عاد مرة أخرى إلى أمريكا فى نهاية السبعينيات ليحصل على درجة الماجستير ثم الدكتوراة سنة ١٩٨١ من جامعة ولاية لوا ، وظل يشغل رتبة عقيد فى الجيش السودانى حتى تمرده فى مايو سنة ١٩٨٣

Charles Gurdon, Sudan at the Cross Roads & Published by Middle East and North Africa Studies Press Ltd., Gallgroli house the Cotton out wall wisfech Cambridge shire PE148 TN, England 1984 P.5

السنوية وسافر إلى الجنوب بحجة قضاء أجازته بمسقط رأسه (بور) فألب حاميتها فتمردت في مايو سنة ١٩٨٣ وظل قائد الاقليم الجنوبي ينتظر أوامر الخرطوم التى جاءت متأخرة بضرب القوات المتمردة، ولم تكن الضربة حاسمة فتمكن كثير منهم من الفرار إلى الحبشة ورفعوا شعار فصل الجنوب عن الشمال[١]، وعندما أعلن النميرى قانون العقوبات الاسلامى فى سبتمبر سنة ١٩٨٣ الذى الغى بموجبه قانون العقوبات الوضعى لسنة ١٩٧٤ وقانون محاربة البغاء لسنة ١٩٧٦[٢]، وكونت محاكم سميت بمحاكم العدالة الناجزة، وأقيمت الحدود الإسلامية بواسطة قضاة مؤهلين كان ذلك بداية عهد جديد للاستقرار بعد خمس عشرة سنة تخبط فيها النظام بين الشرق والغرب، الأمر الذى أفزع أعداء الله فى داخل السودان وخارجه ففى الداخل وجه راعى الكنيسة الكاثوليكية[٣] رسالة إلى النصارى طفحت بالحقد والتحريض نذكر منها شواهد تدل على هذا الحقد والتحريض يقول: "... نحن لدينا الكفاية والقوة التى تمكنا من العيش عيشة صالحة)[٤] (أما القانون الذى ينظم أشد العقوبة كرادع يمنع المواطنين من ارتكاب الجريمة هو مضاد لمبادئ المسيحية)[٥] (وحتى ان نجحت السلطة بدفع الناس بهذه الوسائل فهذا سيكون معارضا لكرامتهم كمخلوقات مزدانة بالعقل وبتطبيق عقوبة رادعة كقطع اليد، فبذلك يكون قد حكمنا على الفقراء[٦] كسب معيشتهم بطريقة غير لائقة وكرامة الجنس البشرى)[٧] (نحن نعترض على الطرق الأخرى من العقوبة لأنها تجرد الطبيعة البشرية من الإنسانية مثل جلد النساء، وبعض العقوبات مثل الإعدام لا تتناسب وجسامة الجرم فى بعض الأحوال، فعقوبة الإعدام يجب ألا تطبق إلاّ فى الحالات القصوى؟!

"... ان الحياة البشرية قيمة لأنها تنحدر من عند الله. فمن حق المجرم أن يعطى الغرصة ليندم ويصلح حياته." إذا طبقت العقوبة الجسدية علناً أمام الجمهور ستمس أيضا

---

(١) انظر مقال عقيد أ.ح على حاج الطاهر المشار اليه. والجدير بالذكر أننى عاصرت هذه الأحداث عندما كنت أتجول بين مدن الاقليم فى رحلة ميدانية.

(٢) انظر ملحق التشريع الخاص للجريدة الرسمية لجمهورية السودان الديمقراطية رقم ١٣٢٠ بتاريخ ١٩٨٣/٩/٩ ملحق رقم ٥

(٣)، (٤)، (٥) جبرائيل زبير واكو راعى الكنيسة الكاثوليكية، من رسالته التى وجهها الى النصارى يهاجم فيها القوانين الاسلامية، ويحثهم على معارضتها.

(٦) العبارة ركيكة لكنها هكذا وردت فى المقال.

(٧) نفس المصدر ص ٩

مشاعر الإنسان الأدبية والبشرية ،ان المواطنين يجب ألا يعتادوا على الاستمتاع بـآلام الآخرين مهما كان ذلك الطرف مستحقا للعقاب ،وانني أحثكم جميعا على الابتعاد عن الأماكن التي يتم فيها تنفيذ العقوبات الجسدية)[1]

" ومع ذلك يجب على المسيحيين أن يحتجوا ويعبّروا عن عدم رضاهم ،اذا ما كان تطبيق القوانين الإسلامية يجبرهم إلى كبت المسيحيين أو الحد من حرية عباداتهم وحرمانهم من ممارسة شعائرهم الدينية على الصعيدين الخاص والعام. وحرية نشر دينهم ،ويجب على المسيحي أن يحتج دون خوف إذا كانت مسيحيته هي العائق المباشر لحرمانه من فرص العمل . . .الخ)[2]

فكانت رسالة المطران في جملتها تطفح بالحقد والتحريض لمقاومة القوانين الإسلامية هذا في الداخل ،أما في الخارج فقد تضافر الغرب الصليبي مع الشرق الملحد ،ولم يجمع بينهما إلّا الحقد على المسلمين وكراهية الإسلام ،فلقد آزر السوفيت وكوبا واليمن حركة التمرد بجنوب السودان من منطلق الحفاظ على النظام الحبشي الماركسي ليستقر ، ويبقى ليكون انموذجا يحتذى في القارة الأفريقية ،ولا يتم له ذلك مع اشعال الارتريين الحرب ضده بدعم الحكومة السودانية[3]، هكذا برر الشيوعيون وقوفهم بجانب المتمردين ،وقاتلوا تحت قيادة جون قرنق العميل الغربي الصليبي ،واستعملت في هذه الحرب مدافع ذات مدى بعيد من داخل الأراضي الحبشية ضد الجيش السوداني كما استعملت طائرات لنقل العتاد والمؤن والجنود المرتزقة الذين بالغ الإعلام المأجور في تضخيم عددهم وعتادهم ،فقدر عددهم بأربعين ألف مقاتل ، وهي نسبة تقرب من عدد الجيش السوداني[4]، ولولا اتفاقية الدفاع المشترك المبرمة بين السودان ومصر لدخل الأحباش المعركة بثقلهم للضعف الذي ألحقه الرئيس نميري بالقوات المسلحة السودانية بإزاحة القيادات الحقيقية بغية بقائه في الحكم ، فطالب قرنق بإلغائها ضمن الشروط المقدمة للتفاوض مع الحكومة ليركع السودان بواسطة

---

(١) نفس المصدر ص ١٠

(٢) المصدر السابق ص١٢ ٤

(٣) انظر مقال العقيد أ.ح علي حاج الطاهر السابق.

(٤) الاستاذ احمد الحسن أحمد ،مقال بعنوان (المؤامرة الدولية على السودان) نشر بجريدة الصحافة السودانية عدد رقم ٨٣١١ بتاريخ ٦ من رجب ١٤٠٦ هـ .

الأحباش تحت قدميه أما سبب وقوف الشيوعيين وأعوانهم مع قرنق في هذه الخيانة فراجع إلى عجزهم عن بلوغ مرامهم في إلغاء القوانين الإسلامية بعد الإطاحة بالرئيس نميرى ، وهو ما أطلقوا عليه تصفية آثار مايو ،وقوانين سبتمبر وجمعوا لذلك عملاء الشرق والغرب تحت راية ما أسموه بالتجمع الوطني ،وباءت كل مخططاتهم بالفشل ولذلك علقوا أملهم على نجاح جون قرنق ،هذا ما كان من الشرق .

أما الغرب فقد تباطأت الولايات المتحدة الأمريكية في الوفاء بالتزاماتها العسكرية للسودان بل تنصلت من تسليم السودان طائرات كانت قد التزمت بها قبل حركة تمرد قرنق ،واحتجت لتنصلها من التسليم بأن ذلك النوع من الطائرات قد صرف النظر عن انتاجه في الوقت الحاضر ،بل احتجزت طائرات سودانية كانت قد أرسلت للصيانة فلم تسلمها في المدة المحددة لتسليمها واعتذرت بلباقة عن تسليم الأسلحة التى كانت قد وعدت بتسليمها فذكرت لذلك حججا متنوعة إلى أن ظهر جليا أن الحكومة الأمريكية عاجزة عن الوفاء بسبب ضغط الكنجرس الأمريكي الذى تذرع بأن القوات السودانية سوف تستخدم الأسلحة ضد المسيحيين بجنوب السودان ،وما يقال عن أمريكا زعيمة الغرب كله يقال عن بقية الدول الغربية وفي مقدمتها بريطانيا التى رفضت صيانة الطائرات كما رفضت الوفاء بأى التزام حول التسليح وقد تملصت بذات الحجج ،وأبرزها أن البرلمان البريطاني يرفض مد القوات المسلحة السودانية بالأسلحة لأنها ستستخدم ضد المسيحيين في الجنوب ،بل إن فرنسا تساعد المتمردين لئلا يدمروا حافراتها لقناة جنقلي [1] ، ومن هذه الدول المذكورة ودول عربية أخرى ،وإسرائيل ،تنهمر المساعدات للمتمردين عبر مجلس الكنائس العالمي والهيئات الكنسية ، ومن الشرق تصل بواسطة الحكومة الحبشية .

وعندما ذهب رئيس حكومة السودان الانتقالية إلى ليبيا ووضح أبعاد المؤامرة العالمية على السودان ،وتفهم المسئولون في الحكومة الليبية الموقف ،وقدموا مساعدتهم للجيش

---

(١) المرجع السابق .

السوداني لفك حصار (رمبيك) وأوقفوا معونتهم للمتمرد جون قرنق بعد اقتناعهم أن المبرر لدعمه قد زال بزوال الرئيس السوداني السابق ، غاظ هذا الموقف أمريكا وحرضها للتحرك ضد ليبيا فبدأت مناوراتها العسكرية بخليج (سرت) تهديداً لليبيا لتحجيم دورها الخارجي بصفة عامة ، ولوقوفها بجانب السودان بصفة خاصة ،وذكر معلق بارز في الشئون الدولية أن ضربة خليج(سرت) هي رد فعل أمريكي على دور القذافي في قصم ظهر جون قرنق في رمبيك إذ أن السودان قد أفلت من العقال الذي أرادت أمريكا ربطه به ،حتى يرهن نفسه لها باعتبارها الحليف الوحيد القادر على دعمه عسكريا واقتصاديا .[1]

فهل تنبه المسلمون الى ما تكنه ملة الكفر من حقد لاستئصالهم ، وأن الحروب التي شنت عليهم منذ أن قضوا على دولتي الروم والفرس لم تنته بعد ولن تنتهي ما دام للباطل اتباع وللحق جنود ، غاية ما في الأمر أن وسائلها تتعدد ولكن هدفها واحد ،فتارة تأتي باسم الحروب الصليبية ، وتارة تأتي في شكل جحافل تنصيرية ترتدي ثوب البر والاحسان في مسوح الرهبان وصدورهم تغلي حقداً على الاسلام والمسلمين ،وما يدور الآن بجنوب السودان وفي كثير من أجزاء العالم الاسلامي امتداد لهذه الحروب الصليبية وليس من المؤمل أن تنتهي في القريب العاجل ،ولكن من المؤكد الموعود به من الله سبحانه أن الحق سينتصر وأن الباطل سيندحر عندما تكتمل وسائل النصر التي أمر الله سبحانه باتخاذها في قوله تعالى :

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)[2] وقوله تعالى :

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا)[3]

---

(١) انظر صحيفة الراية ، عدد ٩٢ بتاريخ ٢٠ من رجب سنة ١٤٠٦هـ الموافق ٣٠ من مارس ١٩٨٦

(٢) سورة الانفال الآية ٦٠

(٣) سورة النور الآية ٥٥

المبحث السادس
فشل النصرانية في جنـوب السـودان

لقد اعترف حكام النصارى وكتابهم أن النصرانية لم تكن نعمة على الجنوب، وإنما كانت نقمة، نشرت الفساد بدل الصلاح وعند ما تولى الكولونيل جاكسون أعمال الحاكم العام في غيابه عارض نشاط النصارى في الجنوب، وكان رأيه أن النصرانية ستحطم شخصية الجنوبي فقال :

(إن الجنوبي عند مايعتنق المسيحية يتحول إلى متسكع وغد كذاب في حين أنهم الآن سعداء راضون بواقعهم شرفاء لايعرفون الرذيلة ولكن ما إن تدخل الإرساليات النصرانية بلادهم حتى تختفي هذه القيم من حياتهم)(١)

وجاء مصداق ذلك في تقرير الكنيسة نفسها فقال التقرير:

(كثير من المسيحيين يمارسون الوثنية خاصة السحر وتعدد الزوجات(٢) وهناك عادات شيطانية تحول دون نمو مجتمع نصراني سليم، منها :

- ادمان الخمر واستغلال كرم الضيافة والانفلات الجنسي والركون إلى الكسل والإكثار من الرقص والمخدرات وبمجرد قيام الحكومة الإقليمية تفشت الرشوة والفساد وسوء استعمال الممتلكات العامة والاتجار في السوق السوداء والتصرف بعدم مسئولية في المرافق العامة من المسئولين والطبقة المستنيرة)(٣)

كذلك انتقد الحاكم العام في سنة ١٩٢٧ اسلوب المبشرين وتعاملهم مع الجنوبيين فقال :

(وعلى الجانب التعليمي لابد للحكومة من فعل شئ لتحسين الأمر فإني ضعيف الاقتناع بعمل المبشرين في هذا المجال، وذلك لأنه ينقصهم بعد النظر، والقدرة على مثل هذا العمل لأنهم محجوبون بتحيزهم ضد عادات الأهالي الاجتماعية وعاداتهم في الزواج)(٤)

---

(١) M.O. Bashir, the Southern Sudan background P. 25

(٢) ليس تعدد الزوجات عادة وثنية وانما الزيادة على الحد المشروع

(٣) وهكذا حدث ما توقعه جاكسون علما بأن الحكومة الاقليمية تتكون من خريجي المدارس الكنسية وتعتبر النصرانية من شروط عضويتها .

(٤) B.M. Said, Sudan Cross Roads of Africa P. 88

ويقول الكاتب الأمريكي روبرت كولنز Robert O. Collens في توضيح سبب فشل النصارى في الجنوب

(بالرغم من الاعداد الضخمة للمبشرين النصارى الكاثوليك والانجليكان في ملكال بالجنوب سنة ١٩١٦ والتصير البرسبتريني Prestyerian سنة ١٩١٣ فقد فشلت الكنيسة في الجنوب في إحراز نتائج مساوية للجهود التي تبذلها ويمكن تفسير هذا الفشل جزئيا بقلة الموارد وصعوبات الأرض والماء . . . ولكنه ناتج أساسا من الافتراضات الخاطئة للمبشرين أنفسهم فقد كان المبشرون الأوائل بلا استثناء يظنون أن الجنوب كان كافراً أو مشركاً أو بلا دين، لأنه غير مسيحي، وكلمة كافر بالطبع كانت تعني أشياء مختلفة، لمجموعات مختلفة من المبشرين النصارى)[1] (إنّ كلمة كافر التي أطلقها المبشرون على الجنوبيين ، كان معناها عند البعض أن الجنوبيين لا يملكون عقائد ولو بدائية ، وأنّ عليهم فقط أن يملأوا رؤوسهم الفارغة (بالكلمة النصرانية) ولكن في واقع الأمر كان الجنوبيون يحتفظون بشتى المعتقدات المحلية التي اصطدمت بالوعظ النصراني لغرابته عليها ولهذا رفضته ولم تتجاوب معه)[2] فمثلاً حينما كان المبشرون يتحدثون عن الخطيئة الأولى ، كان الجنوبيون لا يفهمون مثل هذا الكلام ، وكانت الخطيئة الكبرى عندهم شيئاً آخر،[3] وربما صلى الجنوبيون لمريم العذراء وهم في غاية من الحيرة والاضطراب وعدم الفهم ، ولربما صلوا لمجرد أن يتخلصوا من الخطيئة ، ولو أن الخطيئة لها مفهوم آخر عندهم غير مفهومها عند النصارى[4] ، ولهذا لم يجد المبشرون المنفذ المناسب ليقدموا تعاليم المسيحية لمجتمعات لها تقاليدها ومفاهيمها الخاصة فاصطدم ذلك بما عندهم فلم يقبل إلاّ عدد قليل منهم هذا الدين الجديد ولهذا غيرت الكنيسة طريقتها الوعظية القديمة فاعتمدت أكثر على النواحي المادية في كسبهم السطحي واعتمدوا الموسيقى ، وأعطوهم ظواهر النصرانية ، وركزوا في استراتيجيتهم على تعليم الصغار قادة المستقبل فنجحوا في ذلك

---

(١) Robert Collins, Land Beyond the Rivers p. 32I

(٢) Ibid

(٣) J. Duncan, The Sudan P. 2I5

(٤) Ibid

فالمبشرون لم يكونوا صادقين في تقديم النصرانية التي تتحدث عنها الأناجيل الحالية - (رغم تحريفها)- فانعزلوا عن الأهالي وتعالوا عليهم وسكنوا في أماكن منفصلة بعيدة عنهم وكان بعضهم يشرب الخمر، ويتخذ من التبشير تجارة وسلاة وربما كان عدد قليل جداً ممن اتخذها عقيدة وعملاً دينياً وهذا من الأمور التي جعلت الجنوبيين يرفضون النصرانية دينا لهم، بينما نجد التجار المسلمين قد اتصلوا بالأهالي بل تزوجوا منهم ولهذا حصل اختلاط شديد كان في صالح الإسلام.(١)

اعتراف الكنيسة الكاثوليكية بهذا الفشل :

تعتبر الكنيسة الكاثوليكية من أكبر المؤسسات الكنسية العاملة في حقل التنصير في السودان، وهي الرائدة في هذا المجال. جاء تقريرها الصادر في عام١٩٨٤ : (منذ عام١٩٤٤ فصاعداً عين مائة واحد عشر قسيسا للسودان مات منهم سبعة عشر، ومنهم ثمانية وعشرون تركوا العمل. وفي سنة١٩٨٣ آثر اثنا عشر البقاء في أوربا وأمريكا وتظاهروا بمواصلة التعليم ولكن في الحقيقة هربوا من العمل الكنسي في مناطقهم والبعض عاش حياة بعيدة عن التبتل والبعض جمع بين العمل الكنسي والإدارة الحكومية، وقلة هم أولئك الذين صدقوا في تدريس التعاليم الكنسية في المدارس وزيارة المناطق النائية.

ويوجد اثنا عشر سودانيا لديهم درجات جامعية في الدراسات الدينية، ولكن لا أحد من هؤلاء يقوم بالتدريس في المعهد الرئيسي، والذين عينوا في وقت ما كان لابد أن يتحولوا بعد عام أو عامين. وعليه فان الحلم بأن تكون للسودان كنيسة تقف على قدميها كان صفراً.

(فالأساقفة الجدد لم يكن بمقدورهم أن يوقفوا تيار القساوسة الذين يخرجون من الخدمة الكنسية، وبناء على هذه التجربة المؤلمة، اتجهت الكنيسة لطلب المساعدات من الإرساليات الأجنبية وعلى وجه الخصوص من آباء (فيرونا) وآباء (مل هل) الذين سبق لهم العمل في الجنوب، وأرسلت طلبات لجمعيات كنسية أخرى.

---

(١) Evans Britcherd Nuer Religion P.I89

وصول المدد الكنسي :

بدأ عشرة يسوعيون خدماتهم في المدارس والمراكز الكنسية، وثلاثون من آباء (فيرونا) للوعظ، وثلاثة من آباء (مرىنل) وأربع من راهبات (مرىنل)، وثلاثة من آباء (سليزين) وست من راهبات (سليزين)، مسئولون عن الطباعة والوعظ، وستة من آباء (كليتجان) للتدريس وواحد من الآباء البيض جاء لفتح مركز جديد في أسقفية (ملكال) وثلاثة من البطريكية اللاتينية (بيت لحم)، جاءوا للتدريس في المعهد والمدارس، وثلاثون من راهبات (فيرونا) كن في حقل التعليم والوعظ ومكافحة مرض الجذام، وأربع راهبات هنديات من جماعة (أم كامل) جئن للتدريس في معهد تدريب صحى، وأربعة قسيسين من جمعية عيسى (بكينيا) ليفتحوا معهدا في أسقفية (جوبا)، والى جانب هذا طلب مؤتمر القسس الكاثوليك من اتحاد أساقفة شرق أفريقيا المساعدة في اصلاح هذا الوضع، فطلب من كل أسقفية أن تفرغ أحد قساوستها للعمل في السودان، ولم يستجب الا أسقف أبرشيه (كمبالا) الذى ولد بالسودان)[1].

هذا الاستنفار الكنسي الضخم من أكبر الأدلة على أن السودان مستهدف من الصليبية العالمية، لذلك نذكر المسلمين شعوبا وحكومات أن يهبوا لنصرة السودان وهو يمر بهذه المرحلة الحرجة التى تعتبر من أخطر مراحله التاريخية، وهى من مراحل تعين الجهاد، فقد ذكر الفقهاء أن الجهاد يكون فرض عين: (بتعيين الامام، وبهجوم العدو على محلة قوم فيتعين عليهم وعلى من بقربهم إن عجزوا، ويتعين على المرأة والرقيق مع هذه الحالة ولو منعهم الولى والزوج، والسيد، ورب الدين ان كان مدينا، ... وفك الأسير من الحربيين ان لم يكن له مال يفك منه فرض كفاية وان أتى على جميع أموال المسلمين)[2].

فعلى المسلمين أن يدركوا ما يراد بهم ويكونوا حذرين وأن يعدوا العدة للدفاع عن دينهم وأنفسهم ويعلموا أن الخطر لا يأتيهم من الخارج فقط بل ان أعداءنا في الداخل أشد خطرا لأنهم من بنى جلدتنا يتكلمون بلغتنا ويظهرون حبنا ويزعمون أنهم يبحثون عن مصالحنا فألسنتهم معنا وقلوبهم مع أعدائنا فهل يتنبه المسلمون لحقد الكفار والعملاء وما يحيكونه ضدهم وضد عقيدتهم فيوحدوا صفوفهم وينسوا خلافاتهم فيواجهوا عدوهم صفا كأنهم بنيان مرصوص[3] ويفقهوا قوله تعالى: (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردكم عن دينكم ان استطاعوا)[4]. صدق الله العظيم.

(١) The Catholic Church in the Sudan a golden Opportunity lostP.

(٢) الشيخ أحمد بن محمد الصاوى المالكي، بلغة السالك لأقرب المسالك الى مذهب الامام مالك على الشرح الصغير للقطب الشهير أحمد بن محمد الدردير، ص ٣٥٥، دار المعرفة للطباعة والنشر، بدون تاريخ، لبنان سنة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م

(٣) انظر الاستاذ محمد فريد بك المحامى، تاريخ الدولة العثمانية، تحقيق احسان حقى، ص٣١ ط ٢ سنة ١٤٠٣/١٩٨٣م

(٤) سورة البقرة الاية ٢١٧ .

الباب الرابع

فى طرق مواجهة التنصير

وتحته تمهيد وفصلان

التمهيد فى : أن المواجهة تقوم على محورين أساسيين محور الهدم ومحور البناء

الفصل الأول : العودة إلى الطريق المستقيم

الفصل الثاني : السودان وطرق المواجهة

تمهيـــــــد :

ذكرنا في ثنايا البحث، أن الإسلام منذ نشأته تعرض لحملات عدائية بدأت علنا إبّـان ضعف المسلمين في فجر الدعوة، قبل أن يأذن الله لهم بالقتال، فلما اشتد أمرهم أذن الله لهم بقتال أعدائهم بقوله تعالى : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإنّ الله على نصرهم لقدير)[١] وتوالى نصر الله لهم، وتلاحقت هزائم الباطل فانزوى الأعداء، وأخـــذوا يستخدمون شتى الأساليب، في حرب سرية طويلة وكيد عظيم، وتلك عادة الباطل يظهـــر بضعف الحق ويختفي بقوته، يستغل مواطن الضعف لينقضّ منها، وما مواطن الضعف في هذه الأمة إلاّ الجهل والهوى، وكثيرًا ما ينبهنا القرآن الكريم إلى ذلك كما في قوله تعالى (وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين مـــن دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم)[٢] وقوله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون . ها أنـتم أولا تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكـــم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إنّ الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهـم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط)[٣]

وبالصبر والتقوى استطاعت هذه الأمة أن تتغلب على الكيد فرأبت الصدع الـــذى أحدثته الفتنة الكبرى، بخلافة عمر بن عبد العزيز المجدد الأول[٤] الذى رد الأمة إلى أصولها بعد أول حدث في الإسلام بسبب الملك العضوض الذى نتج عن تلك الفتنة الدامية الـــتى حصدت كثيرا من خيار الصحابة. فرد عمر رضي الله عنه ما عهد إليه من أمر المسلمين إليهم فاختاروه خليفة فاكتسبت بيعته بذلك الشرعية التى خلا منها عصر بني أمية قبله، فرد الأمـور كلها إلى نهج النبوة والخلافة الراشدة، فاستخدم سلطته في تطهير مجتمع المسلمين من

---

(١) سورة الحج، آية ٣٩

(٢) سورة الانفال، آية ٦٠

(٣) سورة آل عمران، ١١٨-١٢٠

(٤) عبد الله كنــون، مفاهيم اسلامية، ص ١٢، دار الثقافة ط سنة ١٤٠٥-١٩٨٤

آثار العصبية التى نمت فى أحضان الملك الذى استمر نصف قرن ،وتمكن من قمع المعاصى التى فشت فى بيوت الأمراء والقادة كشرب الخمر والاسترسال فى اللهو وقضى على جميع البدع والعقائد الفاسدة ،فطهر بذلك الحياة الفكرية والخلقية والاجتماعية من جميع المفاسد ، ومهد السبيل لنشر العلم بين عامة الرعية ،وقوم الانحراف الفكرى برد اعتبار أهل العلم الشرعى فنشطت علوم القرآن والسنة والفقه فبعث بذلك نهضة علمية مباركة أنتجت نوابغ العلماء وكبار الأئمة من أمثال أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد وكثير غيرهم من الهداة وأعلام الإسلام ،فجدد بذلك الدين ، وكان جديرًا بلقب خامس الخلفاء الراشدين وكانت ولايته على رغم قصرها أعظم أثرًا وأكثر بركة ويمنًا على الإسلام والمسلمين من كل عهد بنى أمية ، وهى سنة حسنة يجب على الأمة أن تجد فى سبيل إحيائها ،كما أنها خير مثال على أن الانحراف لا يقومه إلا الرجوع إلى المنهج الإلهى القويم ،كما أثبتت التجربة أن الانحراف يزداد كلما ابتعدت الأمة عن اللهوضعف تصورها الشمولى للإسلام باعتباره منهجاً يحكم سلوكها ويضبط مسيرتها فى هذا الكون فتقوى بذلك عوامل التفكك فتعم الفتن ، وذلك هو الأمر الذى أدى إلى تمزق العالم الإسلامى فكرياً وسياسياً واجتماعياً فهجم عليه الغرب هجومه الصليبى المسلح واستمرت هذه الحروب الصليبية قرنين من الزمان فأوهنت قوى العالم الإسلامى وعلى الرغم من أن الصليبيين ردوا على أعقابهم إلا أنهم ظلوا فى محاولتهم تحطيم الإسلام وابتلاع بلاده، والمسلمون يغطون فى سبات عميق ،وكان الأجدر بهم أن توقظهم ضربات الصليبية الموجعة ،ولكن لا حياة لمن تنادى ،فقد استشرى الجهل ،والهوى والفقر ،وعمت الفوضى مجتمعهم وتنحت الأمة عن الريادة والقيادة وصارت فى مرحلة قابلية الغزو الأجنبى من جراء سوء الحال التى آل اليها أمرها ،فسقط العالم الإسلامى من أدناه إلى أقصاه - والسودان جزء منه - تحت نير الاستعمار الصليبى الحاقد الذى أصاب مقتل العالم الإسلامى عندما أفلح فى بث سمومه فى ربوعه تفتك بمقوماته الأساسية المتمثلة فى عقيدة الأمة وأخلاقها فعم الفساد بره وبحره ،ففرق بذلك جمعه وشتت شمله ، فأخذ الناس يتساءلون عما دهم الأمة من المصائب والحوادث والنكبات ،فنسب بعضهم كل ذلك إلى دينها ورأى آخرون أن فى ذلك تناقضاً مع ما استفاض وتواتر به القرآن الكريم والسنة المطهرة من إيثار هذه الأمة واختيارها لحمل الرسالة الخاتمة وإعزاز هذا الدين بها فيما سلف

والانتساب إلى خاتم النبيين[١] ،ومما لا شك فيه أن المنصف العاقل لا يتصور أن الدين الذى كان سبب الإصلاح يكون سبب الفساد والاختلال ،لأن العلة لا يصدر عنها معلولات متضادة فإذا كان لدين المسلمين تأثير فى حال خلفهم فلا بد أن يكون ذلك من جهة غير التى أصلحت سلفهم ،وما هى إلاّ البدع والمحدثات التى فرقت جمعهم وزحزحتهم عن الصراط المستقيم[٢] وهذه سنة الله ،وسنته سبحانه ماضية ، وعدها ووعيدها (فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا)[٣] .

فباستمرار الغفلة والفرقة يتحقق الوعيد وبالاعتصام بحبل الله وعدم التفرقة يتحقق الوعد.

وخلال قرن كامل من الزمن والعالم الإسلامى يحاول الانعتاق من قبضة الغرب ولكن على الطريق الذى يرسمه له الغرب ،وليس على طريق الخلاص الذى ينبغى أن يسلك ،

فالاستعمار كان مدفوعا بدوافع متعددة من أهمها :

١- استنزاف خيرات الشعوب المقهورة لأن الثورة الصناعية التى أحدثتها النهضة الأوربية كانت محتاجة إلى المواد الخام لتحريك المصانع الضخمة ،فاحتكرت الشركات الاستعمارية الأرض بما فيها من المعادن المختلفة ،وما عليها من المحاصيل الزراعية والثروات البشرية ، وكمثال لذلك نجد الحكومة الاستعمارية فى السودان قبل أن يستتب لها الأمن فى سنة ١٩٠٥ زرعت أكثر من ٢٣٨٩٨ فدان من القطن ، وفى نفس العام منحت شركة السودان الزراعية الانجليزية امتيازاً فى بعض مناطق السودان الزراعية وبدأت الشركة فى التوسع بتمويل من الحكومة بلغ فى سنة ١٩٢٤ ثلاثة عشر مليوناً من الأفدنة فى منطقة مشروع الجزيرة وحدها ، بالإضافة إلى أنها تملك نصف أسهم شركة (كسلا) الزراعية فى حوض (القاش) وهى منطقة مشهورة بانتاج أجود أنواع القطن فى العالم بعد (لونج ايلاند)[٤].

ويدعى الإنجليز أن المشروع يدار على نظام الشركة المتساوية بين أطرافها الثلاثة ، فللحكومة ٤٠٪ وللشركة ٢٠٪ وللمزارع ٤٠٪ ولكن الدعاوى شئ والواقع شئ آخر ،ويكفى أن

---

(١) انظر محمد زكريا الكاندهلوى وأسباب سعادة المسلمين وشقائهم فى ضوء الكتاب والسنة مقدمة الكتاب ، لأبى الحسن الندوى ، ص ٥ الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٠ /١٩٨٠ .

(٢) انظر محمد رشيد رضا ،مقدمة الاعتصام ، ص ٤ مطبعة المنار ، بدون تاريخ

(٣) سورة فاطر ،الاية ٤٣

(٤) أحمد خير ،مآسى الانجليز فى السودان ص ١٣٤

نذكر أن المزارع الذى يعكف على الأرض سحابة نهاره لا يجد فى النهاية مايسد به رمقه ورمق أطفاله الذين يساعدونه فى الزراعة فيحرمون نعمة التعليم والتهذيب وكثيرًا مايجد نفسه مدينًا للشركة فى تأجير الماء والبذور والإرشاد ، ويحرم عليه أن يطلع على حسابات الشركة ليعرف صحتها ويعرف حقه ، بل يعطى له قروش معدودة يحتار كيف ينفقها على حاجاته المتعددة واذكر أننى* زرت إحدى قرى الجزيرة (١) ، وكان الفلاحون مكروبين لقدوم العيد لا يملكون ثمن ما يتطلبه من كساء وطعام ، وبينما هم كذلك ، جاءهم البشير بأن مدير الشركة قد تعطف بصرف عشرة قروش لكل مزارع رغبة فى تمكينهم وعائلاتهم من الابتهاج بالعيد السعيد !

فما هذا الابتهاج الذى تجلبه عشرة قروش (٢) ، ومما يزيد الأمر وضوحا أن (ثالبوت) كتب إلى (ونجت) فى أوائل الغزو ، (. . إننى أعجب لذلك لقد امتصصنا هذا الشعب تماما ، آمل أن يكون بقى لهم شئ من التقاوى) (٣)

٢- كان المستعمر مدفوعًا بكوامن الحقد الصليبى مدركًا قبل أن يحل بأرض المسلمين ، أن الإسلام وحده هو القوة التى تحول دون تمكينه من بلوغ أهدافه إذا وجدت المحرك الصادق القوى ، وكانت عيونه متجهة إليه قبل وبعد أن حل بأرضه ، ولم يقدم إلى ما أقدم عليه ، ولم يصل إلى ماوصل إليه إلاّ بعد أن أكد له أعوانه من مبشرين ومستشرقين أن الساحة أصبحت خالية من الرقيب ، وأن الفرصة باتت سانحة لاجتياح بلاد المسلمين لغفلتهم وبعدهم عن دينهم مع التحذير الشديد من أن ينتبه الغافل ويصحو النائم .

يقول المستشرق منتغمرى واط :

" إذا وُجد القائد المناسب الذى يتكلم الكلام المناسب عن الإسلام ، فإنّ من الممكن لهذا الدين أن يظهر كاحدى القوى السياسية العظمى مرة أخرى) (٤) .

ولهذا نجد الدول الاستعمارية رغم اختلاف مصالحها وتعدد مطامعها تعمل فى تعاون تام وتنسيق كامل ، بل كثيراً ما تتحد لضرب أى حركة إسلامية صحيحة ، من أجل هذا نجد

* المتحدث هو أحمد خير من كبار السياسيين السودانيين ، تولى رئاسة مؤتمر الخريجين وشغل منصب وزارة الخارجية بعد انقلاب ١٩٥٨

(١) حيث يوجد أكبر مشاريع السودان الزراعية

(٢) المصدر السابق ص ١٣٨

(٣) (السودان فى حكم ونجت) ترجمة محمد الخضر سالم (مطبوع بالآلة الكاتبة) ص٢ ١ والتقاوى ما يحفظ يزرع من

(٤) د . يوسف القرضاوى ، حتمية الحل الاسلامى نقلا عن التايمز اللندنية سنة ١٩٦٨

الاستعمار حينما أيقن أن بقاءه مستحيل في هذه البلاد أخذ يؤسس نظماً للحكم على غرار ما يوجد في بلاده مع الفارق في نوعية القيادة ، ففي الغرب لا يتولى رئاسة الحزب وبالتالي رئاسة الدولة إلاّ من أجمع الناس على وطنيته وحبه لبلاده. أمّا في بلاد الشرق فرئيس الحزب صنيعة استعمارية في الغالب الأعم ، أو تلميذ ينشد الإصلاح على منهج الغرب، ومن هنا كانت الأنظمة في الشرق امتداداً لفترة الحكم الاستعماري بعد خروجه لأن قادة هذه الأحزاب كانوا ممن اصطنعهم الغرب لنفسه ورباهم على عينه ، وجعل رعاة هذه الأحزاب من زعماء الطوائف الدينية الموالية له - كما في السودان - فكانوا واسطته وحماته من غضب المسلمين مقابل ما أجرى عليهم من العطايا والهبات مع تعاهد أبنائهم بالتربية العلمانية ليكونوا أعواناً له في فترة بقائه ، وحراساً لمصالحه بعد انتهائه ، ومطارق قمع لأي توجه إسلامي صحيح يعيد للأمة عزتها .

يقول أحمد خير:

" احتل رجال الصف الأول من الخريجين مكاناً في المجتمع السوداني يلي مكانة الزعماء الدينيين مباشرة ، وصاروا بسبب ذلك مصدر قوة المجتمع ، كما صاروا مصدر ضعفه ، فقد أفاد رجال الصف الأول فوائد شخصية محسوسة بالقياس بمواطنيهم من أن يتمتعوا بالعيش الرغد كما يتمتعون بمظاهر جوفاء من الجاه والسلطان ، ولذلك احتكروا حق المشورة والنصح عند الحاكمين ، وحق مراجعتهم عند الخطورة ، كما احتكروا نفس الحق عند الزعماء الدينيين ويلاحظ أن أحد الحقين كان وسيلة وجوازاً للثاني ، وقد أفاد كبار الخريجين من الحقين معاً نفوذاً عند الأهليين يزداد ويضعف أو ينهار تبعاً لثبات الواحد منهم في مكانته عند رجال الحكم ، أو رجال الدين ، أو تحوله عن تلك المكانة) (١).

وهو الأمر الذي لفت إليه كمتشنر انتباه معاونيه موضحا أن أهدافهم لا تتحقق إلاّ من خلال الاستعانة بالطبقة العليا من المواطنين الذين نأمل من خلال تعاونهم معنا التأثير تدريجيا على عامة السكان (٢).

---

(١) كفاح جيل ص٩٨

(٢) انظر السودان تحت حكم ونجت ، ترجمة محمد الخضر سالم ص ١٠

وهكذا نجح الاستعمار في تربية أجيال مبتوتة الصلة بقاعدتها موصولة السبب بسادتها تنفذ مخططاتهم وتحمي مصالحهم ،وثقافتهم وأخلاقهم ، فنشأت من أول يوم حكومات ضعيفة لا جذور لها في مجتمعها ،فكان الفشل حليفها ، وازدادت الحال سوءاً عما كانت عليه أيام الاستعمار ، فعم الظلم وفشا الفساد واستشرى وتزعزعت القيم واختل ميزان الأخلاق وأصيبت الحياة كلها بالشلل والركود بل والتعفن ، فلم تستطع تجربة الديمقراطية ان تحقق الأمل الموعود ولا أن تقرب الى التقدم المنشود[1] ، وظلت الحكومات تتعدد بتعدد الأحزاب ينفرد حزب بالحكم تارةويأتلف مع غيره أخرى ،وظلت المصائب تتعاقب بتعاقب الحكومات حتى سئم الناس الديمقراطية وكرهوا الحياة النيابية ،وأيقنوا أنها ألفاظ جوفاء فارغة لا وزن لها لأنها لم تزدهم إلاّ خبالا .

فالأمن لم يستتب والاقتصاد لم ينتعش والرفاهية لم تتحقق وإنّما هي أضغاث أحلام ، بل زادت الحال الاقتصادية في السوء عما كانت عليه أيام الاستعمار ، وانقسم المجتمع إلى طبقتين طبقة متخمة حلت محل المستعمر ،وأخرى معدمة يفتك بها الفقر والمرض .

والحرية لم تتحقق إلاّ في مجال الشهوات والتفسخ والمجون ،فعم الفساد وطم وأصبح المنكر معروفاً ، والمعروف منكراً ، ففتحت الحانات وشربت الخمور ،ورفعت للزنا رايات ،وصار الربا دعامة الاقتصاد الأولى وكل ذلك تحت حماية القوانين المستجلبة ورعاية الحكومات الوطنية اسماً الغربية شكلاً ومضموناً ،تستمد من الغرب وجودها وحمايتها وتأييدها لأنها مبتوتة الصلة بأرضها وشعبها الفقير المقهور الذى يعيش من فتات الأمم الغربية ، قد فتكت به الأمراض والمجاعات ،وأحاطت به النصرانية من كل جانب تستغل عوزه ،وتطمع في تنصيره ، فسئم الديمقراطية الليبرالية وزهد فيها ،وكثر تساؤله عن هذه الديمقراطية وحكمها . هل جلبت شيئاً من السعادة؟ هل أمنت لهم شيئاً من الحياة؟ أو ساقت إلى النفوس الهدوء والطمأنينة والاستقرار؟ هل استقرت الجنوب في المضاجع؟ أم هل جفت الجفون من المدامع؟ وهل حوربت الجريمة واستراح المجتمع من شرور المجرمين؟ هل استغنى الفقراء وتحقق الرخاء؟ هل ساقت هذه الملاهي والمفاتن التى ملأت الساحة وسرت مسرى الهواء العزاء

---

(١) انظر مجموعة رسائل الامام حسن البنا ،رسالة الاخوان تحت راية القران ص ٣٦٥ .

للمحزونين ؟ هل ذاقت الشعوب طعم الراحة والهدوء وأمنت المعتدين وظلم الظالمين ؟
لا شيء من هذا تحقق . إذن فما فضل هذه النظم ؟[1]

هكذا سئمت الشعوب الديمقراطية وبدأت تتطلع للبديل ،وكان من الممكن أن يكون الإسلام هو البديل لأن الأمة قد عرفته وألفته ولكنّ أعداءها المتربصين بها الدوائر لا يريدون نهضتها وعزتها لذا كانوا أسبق في إعداد البدائل حيث بذروا كما سبقت الإشارة بذور الماركسية التي لبست لكل بلد ما يناسبه من الشعارات محاولة أن تجد لها قاعدة ترتكز عليها كما فعلت الديمقراطية قبلها ، وكان زعماؤها في جميع بلاد المسلمين أما يهودا أو نصارى ،أو ممن تتلمذ عليهم ،فأنشأوا أحزاباً شيوعية اشتراكية ،أو بعثية اشتراكية ،أوقومية اشتراكية عنصرية ،ولما عجزت هذه الايدلوجيات عن الوصول إلى الحكم ساندهم أعداء الإسلام للوصول إليه عن طريق الانقلابات العسكرية الدموية التي ألبسوها ثوب الثورات السياسية أو الحركات الاجتماعية التي أضفوا عليها أسماء جذابة كحركات التحرر ،والتقدم ، والاصلاح ، والديمقراطية ، وهي الأخرى كانت أشد إخفاقا لبعدها عن أفهام الناس ووجدانهم . ومن ثم لم تجد من يلتزمها .

والذي يهمنا أن هذه الدعوات كلها باءت بالفشل والإخفاق ولا بد أن هناك (سنة) هي التي تؤدي إلى إخفاقها دوماً . ولقد أضافت هذه الحركات -إلى ما هو كائن من سوء الحال في جميع الأحوال - القهر والتنكيل والتشريد والتقتيل وصرنا كما قال الشاعر:

المستجير بعمرو عن كربته * كالمستجير من الرمضاء بالنار

وخلاصة القول إن المذاهب المستجلبة من الخارج أخفقت من أقصى يمينها إلى أقصى يسارها وباءت بالفشل ،فينبغي للأمة الإسلامية بعد كل ما تقدم أن تدرك زيف كل هذه الدعاوى الفارغة وأن تنفض عنها غبار السنين ،وأن تبحث عن طريق خلاصها ،وما سبيل خلاصها إلاّ الرجوع إلى المصدر الذي انبثقت منه عزة المسلمين وكرامتهم ،فلقد نزل الإسلام بين العرب، وهم يومئذ أهون ناس في الدنيا فما زال يربيهم من جاهلية ،وينظمهم من فوضى

---

(1) انظر مجموعة الرسائل ،رسالة الاخوان تحت راية القرآن ص ٣٣٦ مؤسسة الرسالة

حتى أنشأهم خلقاً جديداً لم يكن لهم في الأرض ولا في تاريخ الإنسانية كلها مثيل، ثم اندفعوا من جزيرتهم كالسيل يجرفون كل ما واجههم من فساد الاعتقاد وانحلال الأخلاق، ويقومون عوج السياسات وينظمون المجتمعات فكانوا بالإسلام الذى حملوه عافية العالم من سقامه، وشفاءه من أوهامه، وكانت أحوالهم العلمية والخلقية والعسكرية راجحة في كل ميزان، ورايانهم عالية في كل ميدان، ولهم القدح المعلى في كل سباق، ولم يكن هذا الرجحان وليد حضارة قديمة انتفع بها الإسلام، أو نتيجة ارتقاء محلى تسلقه[1] وباتفاق علماء الاجتماع والسياسة والتاريخ من مختلف الأمم أن العرب ما نهضوا نهضتهم الأخيرة بالمدنية والعمران إلا بتأثير الإسلام في جمع كلمتهم وإصلاح شئونهم النفسية والعملية[2]، كما يرشدنا إلى ذلك الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، عند ما قال له قائد جيوشه أبو عبيدة ابن الجراح، وعمر يترجل عن ناقته، ويخلع خفيه ويضعهما على عاتقه استعداداً لعبور مخاضة عارضة، خشى أبو عبيدة أن يرى الخليفة المهاب في هذه الصورة، فقال : (ما يسرنى أن أهل البلد استشرفوك) أى رأوك.

فقال له عمر: (أوه ! لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة جعلته نكالاً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، إنا كنا أذل قوم، فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله)[3]

فهل يعى المسلمون هذا الدرس القيم من ماضيهم العريق فيصلحوا واقعهم المرير بعد أن جربوا جميع الحلول المستوردة التى باءت كلها بالفشل، بل زادتهم تأخراً على تأخر وبات من الواضح أن معالجتهم لقضاياهم من أكبر البراهين على عدم وعيهم لمنهاج الله وعدم فهمهم لواقعهم المعاش، فالمسار الصحيح يتمثل في فهم المنهج، وفهم الواقع، ودراسة القرآن كما أنزل من عند الله وتدبره، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ولا يصلح آخر هذه الأمة الا ما أصلح أولها.

---

(١) محمد الغزالى، الاسلام في وجه الزحف الأحمر، ص١٣٨/١٣٧، طبعة ثانية ١٤٠٥/١٩٨٤ دار التوفيق النموذجية للطباعة والجمع الآلى، الناشر مكتبة وهبة

(٢) مقدمة الاعتصام، محمد رشيد رضا ص ٢٠

(٣) أسباب سعادة المسلمين وشقائهم في ضوء الكتاب والسنة ص ٥٢/٥٣

الفصل الأول
العودة إلى الطريق المستقيم

المبحث الأول : وسائل العودة

المنهج التربوى :-

بعد أن فشلت كل الحلول المستوردة ، وتخبطت كل الأنظمة السياسية التى أفرزتها هذه الحلول خبط العشواء ، وباءت بالعجز والخيبة والفشل كل هذه المذاهب والاتجاهات العلمانية ليبرالية كانت أم شيوعية وظهر للجميع أن تلك المدرسة العصرية التى ظلت تعمل سواء فى دائرة النظام الديمقراطى الليبرالى أم النظام الاشتراكى ،كانت مضللة فاسدة وأنّ كل المحاولات والنماذج والأساليب التى قدمتها للأمة الإسلامية لم تحدث تقدمًا ،بل كانت كما قال الله سبحانه : (كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه)[(١)] ،وكما قال الشاعر :

وأصبحت من ليلى الغداة كقابض * على الماء خانته فروج الأصابع[(٢)]

بات تغييرها أمرا لا مفر منه ،ولا يختلف فيه عاقلان ،بل أصبح حتما على الشعوب الإسلامية قادة وقاعدة ، عربًا وعجمًا ،أن تتحرر من التبعية المخزية للغرب الصليبى . والشرق الملحد وأن ترفض الجرى وراء السراب الخادع.

ولقد أدرك كل بلد واع حريص على سلامته ،أن التربية هى الجهاز الذى يغرس المعانى والأسس التى تؤمن بها الشعوب، وتنشأ عليها الأجيال ،وتقوم عليها النظم الاجتماعية كلها، فمن أولى مهام التربية فى الأمة الواعية غرس العقائد والحقائق فى قلوب ناشئتها حتى يكون إيمانها إيمانًا عمليًا صادقًا ، وهذا ما فطن له أساطين التربية الحديثة فقال (سبريرس) :

"إن التربية هى الجهد الذى يقوم به آباء شعب ومربوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة التى يؤمنون بها ،إن وظيفة المدرسة أن تمنح القوى الروحية فرصة التأثير فى التلميذ ، القوى الروحية التى تتصل بنظرية الحياة ،وتربى التلميذ تربية تمكنه من الاحتفاظ

(١) سورة الرعد الآية ١٤
(٢) ديوان مجنون ليلى

بحياة الشعب وتمد يدها إلى الأمام"

ويقول جون ديوى : "..إن عملية التجديد تقوم على تعليم الصغار ،ان هذه الأمة تكوّن من الأفراد الأميين ورثة صالحين لوسائلها ونظرية حياتها ، وتصوغهم فى قوالب عقائدها ومناهج حياتها .

ويقول كلارك : " مهما قيل فى تفسير التربية فمما لا محيص عنه أنها تعنى الاحتفاظ بنظرية سبق الإيمان بها وعليها تقوم حياة الأمة ،وتجاهد فى سبيل تخليدها ونقلها للأجيال القادمة ".(١)

ومن المآسى التى تحير العقل وتجرح القلب أن تظل الأقطار الإسلامية وحدها فى الفوضى ،فلا تفكر فى التوفيق بين عقيدتها وبين التربية التى تنفق عليها جزءاً كبيراً من إمكاناتها ،وكانت حرية أن تكون بعيدة عن أن تعيش متطفلة على موائد الأمم الأجنبية ، حرية أن تزيل جميع العقبات من سبيل الوئام بين العلم والدين (٢) ،لأن ذلك هو المنقذ الوحيد لخروج هذه الأمة من واقعها الأليم ،ومما لا شك فيه أن مهمة التربية ليست أمراً سهلاً بل هى شاقة ومضنية ،تحتاج إلى جلد وصبر ،ومما يزيدها صعوبة وتعقيداً أنها تقوم على محورين أساسيين بدونهما لا يكون الأساس سليما ولا البناء قويا وهما :

(أ) محور الهدم (ب) ومحور البناء.

أ/ محور الهدم :

فمحور الهدم يقتضى بذل الجهد المتواصل لإزالة الآثار السامة التى خلفتها الحضارة الغربية فى بلادنا ،تلك المخلفات التى تعتبر من أهم العوائق التى وضعها الغرب فى طريق الإسلام ،فدمرت المجتمعات ،وأفسدت الفطرة والعقول فصار هدمها من مستلزمات التربية ،فكما أن المزارع الناجح لا يلقى بذوره فى أرض سبخة مجدبة قبل أن يقوم بإصلاحها ، وإزالة ما بها من عوائق تعوق نماء الزرع وتفسده ، ثم بعد ذلك يتعاهده بالحراسة والرى لتمتد جذوره فى باطن الأرض (٣) ليؤتى ثماره ،كذلك الداعى إلى سبيل الله لا يستطيع أن يجعل دعوته مثمرة حتى يبذل الجهود المضنية لهدم وإزالة هذا الركام من جميع المؤسسات

(١) انظر د. محمد أمين المصرى ،المسئولية ،ص١٢٦ / ١٢٧ أخذاً من تقرير أبى الحسن الندوى الذى قدمه لوزارة التربية العرب فى مؤتمرهم فى الكويت

(٢) المصدر السابق ص١٢٩

(٣) انظر احمد حسن اصلاحى ،منهج الدعوة الى الله ،ص٩٧ ،تعريب أسعد الندوى وآخر، نشر الكتاب الاسلامى بالصفاة الكويت ، بدون تاريخ

الحيوية فى المجتمع الإسلامى ،من شئون الحكم والتعليم ،والسياسة ، والاقتصاد ، وبدون ذلك فلن يستقر للتربية أساس،والأمر الذى يساعد على هدم وإزالة ركام الحضارة الغربية إفلاسها وفشلها فى تحقيق الرفاهية التى بشرت بها طويلاً ،وظل أنصارها أكثر من نصف قرن يلهثون وراء شعارات كاذبة ،وفى كل عام يرؤلون ،ثم لا يتوبون ولا يذكرون ،ومما يبعث الأمل فى النفوس أن هؤلاء الأنصار انفض سامرهم ،وأفاق كثير من الشباب من سكرة الانبهار التى خبلت ألبابهم بعد اعتراف كثير من باحثى الغرب أنفسهم بحقائق خفيت زمناً طويلاً على كثير من المسلمين نذكر منها على سبيل المثال الآتى :

يقول هـ.أ.ر. جب:

" لقد اتضح بكل جلاء أن المثالية والإنسانية التى يبشر بها الغرب لا تتسق ـ طبقاً لأى منطق ـ مع ما يسجله الواقع لأبناء الغرب من أعمال لا تتفق مع المثالية أو القيم الإنسانية ولا شك أن لمثل هذا التناقض بين القول والفعل أثره فى خلق روح من الشك العميق فى كل ما يدعيه الغرب من خير فى نظمه الاجتماعية أو سلوكه الفردى "(١)

ويقول :".. ولا شك أن مثل هذا العمل يهمىء أذهان أبناء الغرب لتتبع العقلية والفكرية فى العالم الإسلامى ،إذا لم يتيسر لهم أن يفهموا هذه التطورات فهماً كاملاً أساسه معرفة الظروف النفسية والاجتماعية ،بل ربما أصبح ذلك أهم عمل المستشرقين عند ما تبلغ العبقرية الإسلامية الجديدة حد النضج الكامل وتصبح قديرة على الإبداع الفنى ،وتهدف إلى بناء ثقافتها من جديد بعد تخطيط معالمها وميزاتها تخطيطاً ذاتياً متميزاً .

" لعل فى عبارة (بناء ثقافتها من جديد) (دوراً) ومع ذلك فإن هذه العبارة هى خير ما يمكننى أن أصف به المهمة التى تنتظر قادة الفكر الإسلامى ،وهناك عاملان ـإن لم نقل ثلاثة ـ يفرضان على هذه العبقرية الإسلامية أن تبنى ثقافتها من جديد :

أولهما :.أن العهد الأول فى حركة الاقتباس عن الغرب قد خلف فى جميع الأقطار الإسلامية آثاراً واضحة فى تنظيم الأداة الحكومية والإدارة ، وفى القوانين والطب والخدمات الفنية كما خلف صحافة تسير على نفس النسق الذى تسير عليه الصحافة الغربية . . .

---

(١) ت.كويلرينج ،الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته ،ص٣٤٦ / ٣٤٧ ترجمة د . عبد الرحمن محمد أيوب دار النشر المتحدة .

" ولو صرفنا النظر عن هذا العمل لأنه مجرد فرض قد لا يتحقق وقوعه ،فإن البناء الجديد ضرورة يفرضها ما حدث في المجتمع من تخلخل بلغ في بعض الحالات حد الانحلال على أثر اتصال العالم الإسلامي بالعالم الغربي ،لقد ضعفت الروابط الاجتماعية القديمة بين جميع الطبقات أو زالت ،وبضعفها أو زوالها زالت القيم التي قدسها الفرد من قبل . والتي احترم من أجلها ما يفرض عليه من واجبات ، ومع ذلك فإن النظم الجديدة لم تصل به إلى مرحلة استقرار فإن جذورها لم تعمق بعد حيث يكون لها من التقديس عند الأفراد ما يجعلها مستقرة ،وتركيا* استثناء من هذا العموم ،فقد عوضت السلطة الثورية عن سطحية هذا الوضع الجديد بشكل محسوس ،فيما عدا تركيا لم يبق سوى الإسلام سلطة ونظاماً له في نفوس الأفراد قدسية وسلطان) .(١)

يقول برنارد لويس :-

" والتغريب الذي كان أكثره من عمل المتغربين من أبناء الشرق جاء بتغييرات يشك كثيراً في قيمتها ،وأول هذه التغييرات ، هو الانحلال السياسي ،الذي أدى إلى تفتيت المنطقة وتجزئتها ،فقبل ذلك التاريخ كان في الشرق الأوسط نظام سياسي مستقر ،فالشاه يحكم إيران ،والسلطان هو عاهل المملكة العثمانية التي تشمل كل ما بقي من الشرق الأوسط ،وقد لا يكون كل السلاطين الذين تعاقبوا على الحكم محبوبين من رعاياهم ، ولكنهم كانوا في موضع احترام .

" والأهم من ذلك إن لم يكن هناك خلاف على مشروعية الحكم فالسلطان هو الحاكم بلا منازع لأنه عاهل لآخر خلافة إسلامية تضم جميع مسلمي العالم تقريبا ،ثم عزل السلطان ،وهدمت الخلافة ،وقام مقامه عدد من الملوك والرؤساء الدكتاتوريين الذين دبروا لمدة أمرهم ،وربحوا تأييد وتصفيق شعوبهم ،ولكنهم لم يكونوا أبداً موضع الرضا التام والقبول الطبيعي والولاء الأكيد ،الذي كان ممنوحاً لحكومة السلطان الشرعية ، وهذا الولاء والرضا والقبول ،جعل السلطان غير محتاج للضغط والعنف والإرهاب ،أو الديماجوجية السياسية في الحكم .

---

* لا مجال لاستثناء تركيا من هذا العموم لأن تركيا أدركت عظم الخديعة التي منيت بها بعد خيانة الكماليين التي زحزحتها من مقدمة الدول الكبرى إلى المؤخرة .

(١) المصدر السابق ص ٣٥٠/٣٥١

" بضياع الشرعية والولاء خسر أهل الشرق الأوسط (هويتهم الواحدة) القديمة، فبعد أن كان كل مواطن عضوًا من أعضاء امبراطورية إسلامية كبيرة لها ألف سنة أو تزيد من التراث والتاريخ، وجد الناس أنفسهم مواطنين لسلسلة من الدول التابعة والوحدات السياسية الجديدة المفتعلة والتي تحاول الآن إيجاد جذور لها في ضمير الشعب وولائه.

" وصاحب نسف وانهيار النظام السياسي القديم على أية حال انحلال اجتماعي، وثقافي، مواز له، وربما كان النظام القديم في حالة تفسخ، ولكنه على أية حال كان قائمًا بوظيفته حيث كانت الولاءات والمسئوليات واضحة الحدود والمعالم، تجمع فئات الشعب في إطار واحد ثم دمرت الأساليب القديمة وسخر من القيم القديمة ثم أهملت، وقام محلها مجموعة من المؤسسات والقوانين والمقاييس الوضعية المستوردة في الشرق الأوسط، بالإضافة إلى كونها تافهة بالنسبة لحاجاتهم " (١)

ونضيف إلى ما ذكر الآتي :

١- إن العالم الإسلامي ذا الأصالة، والتاريخ والمنهج الرباني لم يكن لينخدع أكثر مما انخدع بأسلوب العيش الغربي الذي لم يحقق له ما تطلع إليه، بل العكس أن الغرب هو الذي جعله منطقة نزاع بين قوى البغي العالمية من يهودية ماكرة وصليبية حاقدة وشيوعية ملحدة، ولا يجمع بين تنافرها إلا محاولة الإجهاز عليه، ومن رحمة الله به أنه استيقظ في الوقت المناسب.

٢- إن الأمة الإسلامية تشهد في الآونة الأخيرة صحوة مباركة انطلقت من الإحساس الصادق بالحاجة إلى المنهج الإسلامي باعتباره المنهج الوحيد الصالح لكل زمان ومكان، المستوعب لجميع متطلبات المرحلة الراهنة مع الاستجابة لمتطلبات الأمة والرد على كل التحديات التي تواجه التطبيق الكامل للإسلام في الواقع المعاصر، وهذه الصحوة هي أكبر المقاييس لفشل المذاهب العلمانية التي حاول دعاة التحديث فرضها فمنوا بالفشل.

---

(١) د. يوسف القرضاوي، حتمية الحل الاسلامي، ص ٦١ نقلا عن الغرب والشرق الأوسط

٣- ان الغرب لم يكن مخلصاً في تعامله مع المسلمين ، ولا صادقاً في هدايتهم المزعومة إلى عوامل القوة والتمكين ، وإلّا فلماذا حجب عنهم العلوم والتكنولوجيا الحديثة ، والأسلحة النافذة واكتفى بأن يقدم لهم أدوات الاستهلاك والترف الذى يحطم الأمم .

٤- هدف الغرب إلى تغريب العالم الإسلام ،ودلّت على ذلك التجارب المتعددة التي مارسها في كثير من بلاد الإسلام كتركيا وإيران[1] وتونس حيث ساند المخططات التغريبية التي وضعها ووكلها إلى سدنته من أبناء هذه البلاد ،وكانت من أخطر المحاولات لهدم الإسلام والقضاء عليه وعلى حضارته التي قامت على ضوء الكتاب والسنة .

وذكرنا أن بعض الغربيين أدركوا كثيراً من هذه الحقائق فمن الأولى أن يدركها المسلمون ،وخاصة المفكرون الذين يعنيهم أمر العالم الإسلامي ،فيجندوا أنفسهم لمتابعة فلول العلمانيين المهزومين لتفنيد مزاعمهم وشبههم الواهية التي يضعونها لعرقلة مسيرة الصحوة الإسلامية المباركة ،وهو عمل يتطلب رؤية كاملة شاملة لإنقاذ المجتمع والفكر جميعا بعيداً عن الحزبية والعنصرية والإقليمية مع مراجعة واعية للتراث الإسلامي ،والنظر في الخلفية التاريخية للحركات الهدامة المتمثلة في الصهيونية والتبشير والشعوبية التي يشنها الغرب على الإسلام وثقافته ولغته العربية بحسبانها الركيزة الأساسية التي إذا أمكن هدمها وإزالتها ، أمكن القضاء على مقومات المسلمين ،وصهرهم في بوتقة الحضارة الغربية ليكونوا أتباعاً أذلاء ضائعين ،ومن فضل الله ورحمته بهذه الأمة لم تف بالغرض المطلوب ،ولم تجد استجابة حقيقية من الحس الإسلامي السليم حين أدرك أنها معارضة للفطرة ولحقائق الأشياء ،ولم يخدع بها إلّا ذوو العقول الضعيفة ، ومما لا شك فيه أن هذه الحضارة فيها محاسن ، حيث أفدنا كثيراً من الجوانب النافعة من علومها الحديثة ،وفيها كذلك مساوئ وهي أعظم من هذه المحاسن ،فلا بد من أن نميز بين ما حازه الغرب من الرقي الحقيقي في مجال العلوم التجريبية ،وما أتت به من مخترعات في مختلف شعب الحياة ، وننتفع به لأن العلم ميراث إنساني وليس حكرًا لأمة دون أخرى ، وبين ما أطلق عليه العلوم الإنسانية التي كانت

---

(١) انظر أنور الجندى ،المد الاسلامي في مطلع القرن الخامس عشر ،ص ٩ ط دار الاعتصام بدون تاريخ

شرًا وبيلاً ،وداءً مستطيرًا فأفسدت الفكر والأخلاق والمجتمعات[1]، وإن كانت العلوم التجريبية ذاتها قد امتزجت لدى الغرب بسموم الحادية ينبغى لنا تطهيرها منها لتتم الفائدة المرجوة منها .

وخلاصة القول أن نأخذ العلوم التجريبية بعد إزالة الشوائب التى علقت بها ونترك الأخرى لأن عندنا مايغنينا عنها بحمد الله ، وهذا ما نادى به دعاة الإسلام الصادقون حيث كانوا يرشدون إلى أخذ المنافع وترك المضار الوافدة من الغرب.

ب/ محور البناء :

ذكرنا فيما سبق أن سبب سقوط الأمة الإسلامية فى حبائل الغزاة الصليبيين هو جهلها وتخلفها وابتعادها عن تعاليم الدين ، ومقاصده وأهدافه السامية ، ففقدت بذلك أهم مقوماتها ، وأساس قوتها ،وهو الإيمان الذى ظل أمدًا طويلاً حصنها الحصين وحاجزها المتين الذى تحطمت عنده عوامل التغيير الطارئة وتلاشت ،ولم تنفذ إليها جراثيم الغزو للفتك بها إلاّ بعد أن تضعضع إيمانها إذ لا تنال عوامل التغيير من وضع اجتماعى رفيع قائم على أساس متين إلاّ إذا ضعف ،فعندئذ فقط تصبح عوامل التغيير قوية . ومثال قوة الإيمان وضعفه فى الأمم والأفراد مثال المناعة فى الجسد ،تصد هجمات الجراثيم الفتاكة ، فلا تنال منه طالما كان متمتعا بها فإذا فقدها افترسته بسهولة ،لهذا كان البناء التربوى هو الوقاية التى تقى الأمة من شرور أعدائها ،وهو يتطلب العودة بالأمة إلى قواعد دينها وأصوله وحضارته ،كأساس للنهضة الشاملة ،لأن بناء النفوس والضمائر يسبق بناء الجيوش والمصانع ،وهذا البناء لا يتم إلاّ وفق تعاليم الإسلام[2] القائمة على التوحيد الكامل المتضمن لتوحيد الربوبية والإلهية ،والصفات كما جاء به القرآن الكريم

١- توحيد الربوبية:

هو الاعتقاد الجازم بأن الله هو الرب المتفرد بالخلق والرزق والتدبير ،الذى ربى جميع خلقه بالنعم ،وربى خواص خلقه وهم الأنبياء وأتباعهم بالعقائد الصحيحة ،والأخلاق القويمة

---

(١) انظر أبا الأعلى المودودى ،موجز تاريخ الدين واحيائه ،واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ص ١٨٠ ط ثالثة سنة١٣٩٨هـ/١٩٧٨م مؤسسة الرسالة .

(٢) انظر الشيخ محمد الغزالى ،حصاد الغرور ،ص ١٤٥ دار البيان ، الكويت ط أولى ١٣٩٠/١٩٧٠

والعلوم النافعة ،والأعمال الصالحة ،والتربية النافعة للقلوب والأرواح ،المثمرة لسعادة الدارين[(١)] . قال الله سبحانه وتعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله)[(٢)] وقال تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم)[(٣)] وقال سبحانه : (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنّى تسحرون . بل أتيناهم بالحق وإنّهم لكاذبون . ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون)[(٤)]

٢- توحيد الالهية :

وهو الذى يتضمن إثبات الإلهية لله وحده بأن يُشهد ألّا اله إلّا الله ولا يعبد إلّا إياه ولا يتوكل إلّا عليه ،ولا يوالى إلّا له ولا يعادى إلّا فيه ،ولا يعمل إلّا لأجله .[(٥)]

هذا هو التوحيد الذى أرسلت لأجله الرسل ،وأنزلت له الكتب ، وهو العلم والاعتراف بأن الله ذو الألوهية والربوبية على خلقه أجمعين ،وإفراده وحده بالعبادة كلها وإخلاص الدين له وحده .

يقول المرحوم سيد قطب : (إنّ التوحيد كان هو الخاصية الأولى البارزة فى كل دين جاء به رسول من عند الله ،كما أنه كان المقوم الأول فى دين الله كله . . وأن (الإسلام) - على إطلاقه - كان هو الدين الذى جاء به كل رسول ،بما أن الدين هو إسلام الوجه لله وحده واتّباع منهج الله - وحده - فى كل شؤون الحياة ،والتلقى عن الله وحده فى هذه الشؤون كلها ،والعبودية لله وحده بطاعة منهجه وشريعته ونظامه ،والعبادة لله وحده سواء فى الشعائر التعبدية أو فى نظام الحياة الواقعية)[(٦)] (قل إنّ صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)[(٧)]

---

(١) انظر محمد ناصر ،كتاب القول السديد فى مقاصد التوحيد ص ١٦ ط الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد

(٢) سورة الزمر ،الآية ٣٨

(٣) سورة الزخرف ،الآية ٩

(٤) سورة المؤمنون الآيات ٨٦-٩٢

(٥) انظر درء تعارض العقل والنقل ،لشيخ الاسلام ابن تيمية ، جـ١ ،ص٢٢٤

(٦) سيد قطب : خصائص التصور الاسلامى ومقوماته ص٤١٢ الطبعة الشرعية الرابعة ،١٣٩٨/١٩٧٨م دار الشروق

(٧) سورة الانعام ،١٦٢-١٦٣

وقال تعالى : (وماأرسلنا من قبلك من رسول إلّا نوحي إليه أنّه لا اله الا أنا فأعبدون)[1]

فالإسلام هو دين الله الذى بعث به رسله مبشرين ومنذرين ولهذا أمرنا الله سبحانه بالإيمان بهم جميعا فقال جل شأنه : (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً)[2] . وقال سبحانه : (والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله)[3] .

فتوحيد الألوهية شامل لأقسام التوحيد كلها متضمن لها لأن الألوهية صفة تعم أوصاف الكمال وجميع أوصاف الربوبية والعظمة ،[4] قال تعالى : (وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو اله واحد فإيّاى فارهبون . وله ما فى السموات والأرض وله الدين واصباً أفغير الله تتقون . ومابكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ،ثم إذا كشف الضرعنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون)[5] وقال تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ،وما من إله إلّا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم)[6] وقوله سبحانه (أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون . لو كان فيهما آلهة إلّا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون)[7]

٣- توحيد الأسماء والصفات :-

وهو الاعتقاد بانفراد الله جل شأنه بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة والجلال والجمال التى لا يشاركه فيها مشارك بوجه من الوجوه ،وذلك بإثبات ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من جميع الأسماء الحسنى والصفات العلى ،ومعانيها وأحكامها الواردة فى الكتاب والسنة على الوجه الذى يليق بعظمته وجلاله ،من غير نفى شئ منها ،ولا تعطيله ،ولا تحريفه ، ولا تمثيله ،كما علم ذلك من الكتاب والسنة ،لأن أسماء الله وصفاته توقيفية فلا يسمى ولا يوصف إلّا بما سمى ووصف به نفسه ، أو سماه ووصفه به رسوله صلى

---

(١) سورة الأنبياء الآية رقم ٢٥
(٢) سورة النساء الآية رقم ١٣٦
(٣) سورة البقرة الآية رقم ٢٨٥
(٤) انظر القول السديد ص ١٦ / ١٧
(٥) سورة النحل الآية رقم ٥١-٥٤
(٦) سورة المائدة الايتين رقم ٧٣-٧٤
(٧) سورة الأنبياء الآيات رقم ٢١-٢٣

الله عليه وسلم ،ولا ينفى عنه شيء من خلقه ،ولا يجعل معه في خلقه شريك ،ولا له منهم نـد ولا شبيه بوجه من الوجوه أو معنى من المعاني . قال تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (١)

قال سبحانه : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون) (٢) . وقال تعالى : (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) (٣) .

فهذه الآيات وغيرها كثير تثبت أن الله تعالى واحد في ذاته وواحد في صفاته ،وواحد في أفعاله وتصرفاته لا إله غيره ولا رب سواه ، فالقرآن الكريم ينبوع العقائد به ربى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجيل الأول ، ذلك الجيل الفريد الذى لم يعرف التاريخ مثله ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم تعهده بالقرآن ، ولم يدع له أى مجال ليشوب عقيدته بغير القرآن الكريم (٤) ، فيجب على المسلمين أن يسلكوا هذا النهج القويم في أخذ عقيدتهم من القرآن والسنة ، وهو المسلك الذى انحرف عنه الفلاسفة والمتكلمون ،فسلكوا طريقا ينافى الفطرة السليمة .

---

(١) سورة الشورى الاية ١١
(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٠
(٣) سورة الاخلاص
(٤) انظر الاستاذ سيد قطب ، معالم في الطريق ، ص١٣ / ١٤

المبحث الثانى

اصلاح المناهج والمؤسسات التعليمية

أسس التربية الصالحة :

القرآن الكريم والسنة المطهرة :

لما كان الهدف من التربية عموما تعديل سلوك الأفراد ليكونوا لبنات صالحة فى بناء المجتمع الصالح ،نجد القرآن الكريم عنى بالتربية الشاملة لتقويم السلوك البشرى حيث أعطى كل عنصر من العناصر التى بها قوام الإنسان حقه ،فبدأ بتربية الروح لأنها أسمى عناصر الإنسان ،وثنى بالعقل لسموه على عنصر الحيوانية ،وبه استحق الإنسان أن يكون الإنسان المكرم المميز فى هذا الكون . والآيات الدالة على ذلك كثيرة ،قال تعالى : (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً)[١] .

لهذا أمر الله الإنسان بتدبر القرآن لحصول الذكرى والاعتبار فقال : (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب)[٢] . فبتدريب العقل على التفكر والتدبر والاعتدال[٣] تحصل الاستقامة على العبودية لله وحده ،وهى أهم أهداف التربية الإسلامية التى تسعى لتزكية الإنسان ليكون عضوًا صالحاً فى المجتمع ،قال تعالى : (إنّ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[٤] . وقال سبحانه : (فاستقم كما أُمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنّه بما تعملون بصير)[٥] ، فما استقام العبد وسلم من الخطايا فهو من الصالحين[٦] .

وقال سبحانه (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب)[٧]

قال القابسى[٨] : " وفى وصف أولى الألباب الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل . فتلك

---

(١) سورة الاسراء ،الاية رقم ٧٠

(٢) سورة ص الآية رقم ٢٩

(٣) انظر عبد الرحمن محلاوى ،والتربية والمشكلات المعاصرة ص٢٦ المكتب الاسلامى ط أولى سنة ١٤٠٢/١٩٨٢م .

(٤) سورة الاحقاف ،الايتين رقم ١٣-١٤

(٥) سورة هود الايــة رقم ١١٢

(٦) من رسالة القابسى ،مطبوعة ضمن كتاب التربية الاسلامية للاهوانى ص ٢٧٤

(٧) سورة الرعد الايةرقم ١٩

(٨) هو أبو الحسن على بن محمد بن خلف المعافرى المعروف بالقابسى ولد ٣٢٤هـ/٩٣٥م وتوفى سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م . الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين مطبوعة ضمن كتاب التربية الاسلامية للدكتور احمد فؤاد الاهوانى ص ٢٧١

الأوصاف كلها من وفى بها فهو المستقيم كما أمر)[1]

كما اهتم القرآن الكريم بتربية القلب على الخشوع فقال تعالى (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق)[2] وقال تعالى (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب*الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب)[3]

ولقد اهتم السلف الصالح من هذه الأمة بتعليم القرآن لأبنائهم كأساس للتربية الصالحة اهتماماً يليق بعظمته، فقال ابن مسعود رضى الله عنه: (أرى أحسن الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها وإنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين)[4]

وقال الشهيد سيد قطب: (فمنهج الإسلام الواضح فى التربية يقوم على أساس تحويل الشعور الباطن بالعقيدة وآدابها إلى حركة سلوكية واقعية وتحويل هذه الحركة إلى عادة ثابتة، وقانون، مع استحياء الدافع الشعورى الأول فى كل حركة لتبقى متصلة بالينبوع الأصيل)[5] فهو منهج متكامل للتربية يوائم البشر جميعاً على مختلف طباعهم، فيسلك لكل ما يناسبه، فالترغيب لمن يحسن حاله به، والأمثال لمن يعتبر بها، والحوار والقصص بمختلف أنواعه للاقناع والاعتبار، وأخيراً الترهيب بالوعيد الشديد لمن عدا على فطرهم عاد من الفساد، ولا يصلح حالهم إلاّ بالوعيد، فهو منهج وضعه العليم الخبير لتزكية المؤمنين، وقيام الحجة على المعاندين، قال القابسى: (وقد أمر المسلمون أن يعلموا أولادهم الصلاة والوضوء لها، ويدربوهم عليها ليسكنوا إليها ويألفوها فتخف عليهم إذا انتهوا لوجوبها، وهم لابد لهم إذا علموهم الصلاة أن يعلموهم من القرآن ما يقرؤونه فيها، وقد مضى أمر المسلمين أنهم يعلمون أولادهم القرآن، ويأتونهم بالمعلمين، ويجتهدون فى ذلك، وهذا مما لا يمتنع منه

---

(١) الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين ص ٢٧١

(٢) سورة الحديد، الآية ١٦

(٣) سورة الرعد، الآيتان ٢٨-٢٩

(٤) الرسالة المفصلة، ص ٢٧٣

(٥) الشهيد سيد قطب، فى ظلال القرآن جـ٤ ص٢٥٢٥، الطبعة الشرعية السابعة سنة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، دار الشروق.

أحد تهاونا واستخفافا ، إلّا والد جاف لا رغبة له في الخير ، إن الله سبحانه وصف في كتابه عباده فقال : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً . . إلى قوله تعالى (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً) فمن رغب إلى ربه أن يجعل له من ذريته قرة أعين ، لم يبخل على ولده بما ينفق عليه في تعليمه القرآن . . . فمايدع الرغبة في تعليم أهله وولده الخير إلّا شحا على الإنفاق أو تهاوناً بفقدهم ذلك الخير إلّا جاف أو بخيل .

" إن حكم الولد في الدين حكم والده ما دام طفلاً صغيرًا ، أفيدع ابنه الصغير لا يعلمه الدين ؟ وتعليمه يؤكد له معرفة الدين . . . لقد استغنى سلف المؤمنين أن يتكلفوا الاحتجاج في مثل هذا ، واكتفوا بما جعل في قلوبهم من الرغبة في ذلك فعملوا به وأبقوا ذلك سنة ينقلها الخلف عن السلف ، ما احتسب في ذلك على أحد من الآباء ولا تبين على أحد من الآباء أنه ترك ذلك رغبة عنه ولا تهاوناً به ، وليس هذا من صفة المؤمن المسلم ، ولو ظهر على أحد أنه ترك أن يعلم ولده القرآن تهاونا بذلك لجُهِّل وقُبِّح ونُقِّص حاله . ولكن قد يخلف الآباء عن ذلك قلة ذات اليد فيكون معذوراً) (١)

ويقول محمد بن سحنون * : (قال سحنون ، ولا يجوز للمعلم أن يرسل الصبيان في حوائجه وينبغي للمعلم أن يأمرهم بالصلاة إذا كانوا بني سبع سنين ، ويضربهم عليها إذا كانوا بني عشر - وكذلك قال مالك - حدثنا عنه عبد الرحمن * قال : قال مالك : يضربون عليها بنو عشر ، ويفرق بينهم في المضاجع ، قلت : الذكور والإناث ؟ قال : نعم . قال سحنون : ويلزمه أن يعلمهم الوضوء والصلاة لأن ذلك دينهم ، وعدد ركوعها وسجودها ، والقراءة فيها ، والتكبير وكيفية الجلوس ، والإحرام ، والسلام ، ويتعاهدهم بتعليم الدعاء ، ليرغبوا إلى الله ويعرفهم عظمته وجلاله ليكبروا على ذلك) (٢) .

---

(١) الرسالة المفصلة لاحوال المتعلمين ، وأحكام المعلمين والمتعلمين ص ٢٨

* هو أبو عبد الله محمد بن سحنون ، ولد سنة ٢٠٢ هـ تفقه على أبيه وكان إماما في الفقه عالما بالآثار لم يكن في عصره أحذق بفنون العلم منه . توفي سنة ٢٥٦ هـ . انظر ترجمته في الديباج المهذب ٢٣٤ / ٢٣٥ ، وطبقات الفقهاء ص ١٥٧

* هو عبد الرحمن بن القاسم العتقي المصري الفقيه أوثق أصحاب مالك ، ولد سنة ١٢٨ هـ وتوفي سنة ١٩١ هـ انظر المدارك جـ ١ ص ٤٤٦ ، وتخريج أحاديث المدونة جـ ١ ص ١٦١

(٢) أبو عبد الله محمد بن سحنون ، آداب المعلمين ، مطبوعة ضمن كتاب التربية الاسلامية للدكتور احمد فؤاد الاهواني ص ٣٦٠

ولم يكن تعليم القرآن مقصورًا على المستطيعين من أباؤهم فى مكنة منه أو على قيد الحياة ،بل نجد فقهاء المسلمين اعتبروا التعليم حقًا مشاعًا لجميع أبناء المسلمين ذكورًا وإناثًا ،أيتامًا وضعافًا .

تعليم المرأة :

يقول القابسى فى تعليم الإناث:

" أما تعليم الأنثى القرآن فهو حسن ومن مصالحها "(١) على أن يكون تعليمها بعيدًا عن اختلاطها بالذكور، قال سحنون : " وأكره للمعلم أن يعلم الجوارى ويخلطهن مع الغلمان لأن ذلك فساد لهم "(٢)

تعليم اليتيم :

قال القابسى :" وأما إن كان للولد مال فلا يدعه أبوه أووصيه إن كان قد مات أبوه ، وليدخل الكتاب، ويؤاجر المعلم على تعليمه القرآن من ماله حسب ما يجب ،فإن لم يكن لليتيم وصى نظر فى أمره حاكم المسلمين ،وسار فى تعليمه سيرة أبيه أو وصيه ،وإن كان ببلد لا حاكم فيه نظر له فى مثل هذا لو اجتمع صالحو ذلك البلد على النظر فى مصالح أهله ،فالنظر فى هذا اليتيم من تلك المصالح ، وإن لم يكن لليتيم مال فأمه أو أولياؤه الأقرب فالأقرب به هم المرغبون فى القيام به فى تعليم القرآن ، فإن تطوع غيرهم بحمل ذلك عنهم فله أجره ، فإن احتسب فيه المعلم فعلمه لله عز وجل ،وصبر على ذلك فأجره إن شاء الله يضّعف فى ذلك ، إذ هى صنعته التى يقوم منها معاشه ،فإذا آثره على نفسه استأهل إن شاء الله حظا وافرًا من أجور المؤثرين على أنفسهم) (٣)

هكذا كان مجتمع المسلمين كالبنيان يشد بعضه بعضا فلا تجد الآفات طريقها اليه ، فعندما فشت الأنانية وحب الذات ،وغاب الوعى الإسلامى ،تسللت الصليبية الحاقدة اليه ومدت حبائلها المتمثلة فى مدارس التنصير التى انتشرت فى الرقعة الإسلامية فتبنت الأيتام وأبناء الضعفة ولم يسلم منها أبناء العلية مع الفارق بين تعليم الطبقتين حيث تقدم النصرانية سافرة للأولى ، ومغلفة فى ثوب علمانى للثانية ،كما أشرنا إلى ذلك.

---

(١) الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المتعلمين ص٢٨٩ .
(٢) آداب المعلمين ص٣٦١
(٣) الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المتعلمين ص٢٨٩ .

ولا يعنى جعل القرآن الكريم أساس التربية لناشئة المسلمين أن تكون التربية وعظاً دينياً ، ليس هذا هو المقصود ، وإنما المراد أن يكون القرآن الكريم أساس جميع مناهج العلـــوم لتزول الثنائية الفكرية التي غرسها المستعمر بواسطة مناهجه العلمانية لخدمة الحضــارة الغربية المادية ، وجنى ناشئة المسلمين ثمارها الخبيثة شكا ، وإلحاداً ، ومروقاً من الديـن ، فقد كان وما يزال فى بعض البلاد حتى الآن ، يدخل معلم الدين فيلقن التلاميذ الدليـل علـى وجود الله خالق هذا الكون بأحيائه وجماده ، وأنه خلق آدم أبا البشر من طين ثـم سواه ونفخ فيه من روحه وأمر الملائكة أن يسجدوا له ، وجعله سيد هذا الكون وسخره لـه ، فاستحق بذلك الشكر والعبادة . ثم يعقبه معلم العلوم مثلا فيعفى على أثره ، بحديثه عـن أصل الخليقة وأصول الحيوانات وتراكيبها وأن الطبيعة زودت الفيل بكذا والزرافة بكذا وأن الإنسان ارتقى وتطور إلى آخر ما مر عند ذكر مناهج التعليم ، لذلك وجب على المسلمين أن يقتلعوا هذه الثقافة من مجتمعاتهم بالعودة إلى أصول تربيتهم الإسلامية لتزول هذه الثنائية .

كيفية ربط المنهج بالقرآن الكريم :

من المعلوم أن القرآن الكريم دعا الإنسان إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض ليـدرك العلاقة القائمة على الترابط والانسجام بين عناصر هذا الوجود كلها فقال سبحانه :

" أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ "(1)

وفى هذا الإحكام والتوائم أكبر الأدلة على وجود المكون وقدرته ، وحكمته ولا ريـب أن الإشارة المتكررة فى القرآن الكريم إلى أن الله ذلل للإنسان الأرض بما فيها من كنوز ، ومــا عليها من أحياء ونباتات ، فيها حث للإنسان على العمل الجاد المثمر لاستغلال هـذه المنافع ، وذلك أساس حضارة الإسلام التى كانت نعمة وبركة على الإنسانية جمعاء ، قــال سبحانه : " هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فأمشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور"(٢) فالأرض بكل ما تحمله على ظهرها من حيوان وثمار ، وما بداخلها من مياه ومعادن ، وما يحيط بها من غلاف جوى ، كل ذلك مسخر للإنسان ، قال تعالى : " الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمـره

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٥

(٢) سورة الملك الآية ١٥

وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إنّ الإنسان لظلوم كفار)[1] وقال سبحانه : (الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه)[2]

والإنسان مدعو إلى استغلال ذلك كله باكتشاف الوسائل العلمية التى توصله إلى أحسن وجوه استغلال هذه المنافع لخير الإنسانية وسعادتها وليس لشقائها ودمارها كما تفعل حضارة الغرب المادية ،لمثل هذا يجب توجيه ناشئة المسلمين إلى كنوز هذا القرآن عن طريق المؤسسات والمناهج التربوية حتى يزول الازدواج الموجود فى المناهج الحالية وتزول العزلة التى أحدثها الغرب بواسطة المناهج عن أذهان التلاميذ ،ويتمثلوا دينهم نوراً يدخل فى الحياة كلها ويشفى صدورهم من أمراض الغرب التى جرتهم إلى الشك والإلحاد[3]

القدوة الحسنة :

من السهل إعداد المنهج المتكامل ،ولكنه سيظل حبرًا على ورق إذا لم يجد من يحوله إلى حقيقة واقعة متحركة فى الواقع المعاش[4] ، فالمعلم المسلم يستطيع أن يقرر حقائق هذا الدين من خلال مادته التى يدرسها للتلاميذ ،لأن كل العلوم كونية أو غيرها لها اتصال مباشر بالدين ،والعمل على تفسير أسرارها وربطها دائما بخالقها وخالق الكون هى مهمة المعلمين المسلمين فى كل مجال من مجالات العلوم ،كل فى مجال تخصصه فجميعها تهدف إلى إشاعة روح التدين فى التلاميذ حتى يتأثروا به فيما يفعلون ومايتركون فى شئون الدنيا ، ومن المعلوم أن هذه الحقيقة لا تقرر بدروس الدين وحدها ،فقد يدرس التلميذ الدين وينجح فيه بتفوق ،ولكنه يكره الدين ومعلمه وسائر المتدينين ،وهذه جريمة لا شك يتحمل معلم الدين وزرها لأنه زرع علم الدين ولم يزرع التدين فى تلاميذه ،فواجب المعلمين عامة ،ومعلم الدين بخاصة أن يتحدث عن الدين بقلبه ولسانه ،موقنًا بما يقول ،وأن يتمثله عملاً وسلوكاً

---

(١) سورة ابراهيم ،الايات ٣٢-٣٤

(٢) سورة الجاثية ،الايتان ١٢ ، ١٣

(٣) انظر أنور الجندى ،الإسلام تاريخ وحضارة ص٧ ، ط دار الاعتصام ،بدون تاريخ .

(٤) انظر الاستاذ محمد قطب ،منهج التربية الاسلامية ج ١ ص ٢٢١ .ط ثانية ،دار الشروق .

ليتوفر جو الرهبة والخشية والوقار لدرس الدين، ومدرسه[1]، وبهذا يتحول المنهج إلى واقع مترجم بالسلوك، والتصرفات والأفكار، وعندئذ فقط يتحول إلى حقيقة وحركة وتاريخ، ولقد علم الله سبحانه وهو يصنع هذا المنهج العلوى المعجز أنه لابد من مثال يرى فى الواقع المشاهد، فاقتضت حكمته ورحمته ببنى البشر أن يكون المثال إنسانا منهم يحمل هذا المنهج، ويحوله إلى حقيقة لكى يعرف الناس أنه حق ثم يتبعوه، فبعث محمداً صلى الله عليه وسلم، ليكون ذلك المثال، فقال سبحانه: "لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة"[2]، ووضع فى شخصيته صلى الله عليه وسلم الصورة الكاملة للمنهج الإسلامى، الصورة الحية الخالدة على مدار التاريخ ليكون الأسوة الحسنة التى يتأسى بها الناس، وقال سبحانه "لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة"[3] وسئلت عائشة رضى الله عنها عن خلقه صلى الله عليه وسلم، فقالت: "كان خلقه القرآن"[4]، لذلك كان رسول الله صلى الله عيليه وسلم مربياً هادياً بسلوكه، قبل أن يكون مربياً بالكلام الذى ينطق به سواء فى ذلك القرآن المنزل أو الحديث الشريف[5] وهو فى ذلك كله يدعوهم إلى الله وإلى تطبيق شريعته لتكمل فطرتهم وتهذب نفوسهم، وتتوحد قلوبهم فتتوجه طاقاتهم كلها إلى الخير والسمو[6]، فربى بذلك جيلاً كاملاً شهد له الله سبحانه بأنه خير أمة أخرجت للناس لاستمساكه بهذا المنهج الربانى[7] فقال سبحانه "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله"[8]

فالشخصية الإسلامية لا تتحقق بالتوعية الفكرية المجردة بل لابد من التربيةوالتعهد حتى يصبح الإسلام وحده هو المقياس لاشباع الميول والنوازع، ولتحديد الخير ونشره، ولحدود الحلال والحرام، ولهذا وجب إعداد (الطليعة الإسلامية) إعداداً نفسياً ومعنوياً، وعقدياً وأخلاقياً وفكرياً وحركياً للقيام بالدور الكبير لمواجهة مسئولياتها الضخمة بمستوى السرعة والدقة والكفاية التى يتطلبها العصر والتى تتطلبها مواجهة الجاهلية.[9]

ومن الوسائل المعينة على تحقيق هذا الهدف وجود اعلام اسلامى.

---

(١) انظر عبد البديع صقر، كيف ندعو الناس ص١٤، ط الاتحاد الاسلامى العالمى للمنظمات الطلابية سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م

(٢) سورة آل عمران الآية ١٦٤

(٣) سورة الأحزاب الآية ٢١ (٤) المسند جـ٦/١٨٨.

(٥) انظر منهج التربية الاسلامية ج ١ ص١٢١/١٢٢

(٦) المصدر السابق ص ٢٢٥/٢٢٦

(٧) انظر التربية الاسلامية والمشكلات المعاصرة ص ٢٦١

(٨) سورة آل عمران الآية ١١٠

(٩) انظر فتحى يكن، نحو حركة اسلامية عالمية واحدة ص ٤٦، ط رابعة ١٤٠٥/١٩٨٤ مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان.

المبحث الثالث
إعلام إسلامي قوي

يعتبر الإعلام من أميز سمات هذا العصر لما أحرز فيه من تقدم فائق، ففي العصور السابقة كان التأثير عن طريق الخطابة والكتابة، أما اليوم فبالصورة الملونة، والناطقة والمتحركة مضافاً إلى ذلك فن التصوير والإبداع في الإخراج، والبراعة في التوجيه الإعلامي، والدعائي على يد خبراء متخصصين في استخدام الوسائل الإعلامية بجميع أنواعها، مما جعل الإعلام ذا أثر على جميع الناس فغدا قوة لها شأنها في الصراعات الفكرية، والسياسية، والاقتصادية وصار سلاحاً ماضياً في الحروب النفسية والحسية، وأضحى الإنسان في نظر الإعلاميين (نفساً إعلامية) تتغذى بالخبز وتنمو بالفكر(١) وأصبح مجاله واسعاً، وليس كمجال التعليم الذي تحكمه النظم والقيود، والرسميات المتمثلة في المناهج، وأعداد التلاميذ وأعمارهم.

فوسائل الإعلام الكثيرة المتعددة تستطيع تغيير العقول والأفكار والقيم، والموازين، بموضوعاتها المتعددة، وأساليبها المتنوعة، فتوجه الجمهور إلى ما تريد من مفاهيم جديدة تعمل على ترسيخها في الأذهان، بالمقال، والخبر، والصورة، والقصة حيناً، والتحقيقات والتحليلات أحيانا، ولقد كانت هذه الوسائل وما تزال من أقوى دعائم الغزو الثقافي(٢) الذي واجهته الأمة الإسلامية في مختلف ديارها بعد التعليم، ولم تعد وسائل الغزو الفكري هي تلك الوسائل التقليدية العتيقة التي استعملها الغرب في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، من تبشير، واستشراق ودس للنظريات المغلفة بدعاوى العلم الحديث، والمؤتمرات الحاقدة فحسب، كما ذكر أحد المثقفين في قوله: " ان الغزو الثقافي الخطر لم يعد يأخذ صورة مبشر في كنيسة يقنع المحليين الهمج باعتناق ديانه متحضرة، وإن كانت النشاطات التبشيرية في بعض أنحاء العالم الثالث لا تزال مصدر تهديد لا يستهان به، والغزو الثقافي لم يعد يتخذ شكل كتاب ملئ بالدس يؤلفه مستشرق لئيم في جامعة غربية، وإن كان هذا النوع من المستشرقين لم ينقرض تماماً، إن الغزو الثقافي الخطر اليوم لم يعد يتخذ شكل

---

(١) انظر مني حداديكن، أبناؤنا بين وسائل الاعلام واخلاق الاسلام ص١٤/١٥، مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣

(٢) انظر التبشير والاستعمار ص ٢١٣

مؤامرة استعمارية تستهدف تشكيك شعب ما في تاريخه وأخلاقه ودياناته ، وإن كان الحديث لا ينقطع عن مؤمرات كهذه حقيقية أو وهمية . إن أخطر ما في هذا الغزو الثقافي المعاصر أنه أصبح ذا واقع ذاتي تلقائي يتم دون مجهود من الجهات الغازية فيقدم المغزو في حماسة وبله لا إلى قبوله فحسب ،بل إلى اعتناقه واحتضانه دون أن يدرك ضرره ،وهنا مكمن الخطر[1] ،وهذا كله يتم بواسطة وسائل الإعلام المسموعة ،والمسموعة المرئية التي تفنن الغرب في ابتكارها ،من صحافة ،وإذاعة ،وسينما ،وفيديو ،وتلفاز ،و لليهود فيها نصيب الأسد[2] ، وهذه الوسائل لا توجه الرأى أو تهيئة لقبول ما تنشر فقط ،بل أصبحت تكون الرأى العام[3] وهي وسائل متطورة متجددة كل يوم ،وما زالت الجهود تبذل في كل من اليابان وأمريكا ،وفرنسا ،لتطوير التلفاز ليصبح مع بداية القرن الحادى والعشرين مذياعا مرئيا ، يستطيع كل فرد أن يبحث في قنواته المتعددة عن المحطة ،أو البرنامج الذى يعجبه في أى مكان في العالم. ففي اليابان تجرى تجربة النظام الدولى للاتصالات المرئية وسيغطي هذا النظام الجزر اليابانية مع مطلع التسعينيات ثم يغطى أرجاءً واسعةً من القارات الخمس مع بداية القرن الحادى والعشرين .

والمشروع الأمريكى سوف يعمل قبل حلول عام خمسة وتسعين وتسعمائة بعد الألف ، وسيغطى القارة الأمريكية وأوربا الغربية ،وأجزاء من الشمال الأفريقى .

والثالث المشروع الفرنسى الذى وضعت نواته في اكتوبر سنة ١٩٨٥ ،وأطلق عليه مركز التلفاز العالمى ،وسيصل بثه إلى جميع شاشات التلفاز المنزلية ،وبإمكانه التقاط البرامج من محطات عالمية بواسطة القمر الصناعى الفرنسى للبث التلفازى المباشر دون الحاجة إلى المحطات الأرضية[4] .

---

(١) من محاضرة ألقاها دكتور عبد القادر طاش ، رئيس قسم الاعلام بكلية الدعوة والاعلام بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، وذلك في مساء الأحد ٢٧ من رجب ١٤٠٦هـ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة بعنوان (اضاءات حول الاعلام الاسلامى)

(٢) انظر أبناؤنا بين وسائل الاعلام وأخلاق الاسلام صـ ٤ .

(٣) النظرية الإعلامية في الاعلام والعلاقات الانسانية ، بحث قدم للندوة العالمية للشباب وطبع مع مجموعة البحوث بعنوان : النظرية الاسلامية في الاعلام ، صـ ٢٩٢ وما بعدها ط أولى ، سنة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

(٤) من محاضرة عبد القادر طاش .

إن هذا الغزو الرهيب الذى اختصر مسافات الزمان ومساحات المكان ،واقتحم الجدر والأسوار ،واتصل بالناس وهم داخل حجرهم بدون أن يكلفوا أنفسهم مؤونة الاتصال[1]، وأصبح ميدانه واسعاً ويعمل بحرية ونشاط ،لابد من مواجهته والتنبيه لخطورته.

والمؤسف أن الإعلام فى جميع بلاد العالم - ماعدا بلاد المسلمين- يسير وفق خطة سياسية وضعت لخدمة المعتقدات والأفكار والنظم التى يقوم عليها المجتمع ،ففى دول العالم الشيوعى يقوم الإعلام بدور فعال فى الدعوة إلى الاشتراكية ،وتثقيف المجتمع بمبادئها وتنفيره من المبادئ المناوئة لها ،ودحض جميع الأفكار التى تخالف النظرية الشيوعية ، والقائمون عليها يرون أن وسائل الإعلام لا وظيفة لها إلاّ خدمة سياسة الحزب ومصالحه ، وتعبئة الرأى العام وربطه بمنهج الحاكم .

سأل (لينين) نفراً من الشيوعيين ،عمن هو الشيوعى الممتاز فى تقديرهم؟ فلما اضطربت إجاباتهم قال لهم:

إنّه السينمائى الشيوعى فهو الذى يستطيع أن يخدم الحزب والدولة أكثر من ألف شيوعى منتظم.

وفى الدول الغربية الأوربية والأمريكية نجد الحال نفسه من قيام الإعلام بالترويج للنظام العلمانى اللبرالى ،والإشادة بالحرية والديمقراطية ،والتنفير من الماركسية فكراً ، وسياسة ،والجرى وراء الملذات والشهوات الحسية.[2] حتى غدا المجتمع الغربى دون مجتمع الحيوان تحللاً وانغماساً فى الرذيلة ،وبالإضافة إلى ماذكر فإن غالبية وسائل الإعلام إن لم تكن جميعها مسخرة لتشويه تعاليم الإسلام وعرضها بصورة تنفر الناس منه ،وتشويه واقع المسلمين باظهارهم فى أقبح المظاهر.

وسائل الإعلام فى بلاد المسلمين:

أما وسائل الإعلام فى بلاد المسلمين فهى فرع عن أصل ،والفرع تابع لأصله ،فكما أن الحكم تغلب عليه الصبغة الغربية التى صبغ الاستعمار بها مجتمع المسلمين ،فكذلك هذه المرافق

---

(١) انظر أبناؤنا بين وسائل الاعلام واخلاق الاسلام ص ٢٢ / ٢٣

(٢) نفس المصدر والصفحة.

الحيوية ،لأن الاستعمار هو الذى شيدها لحمايته ،واهتم اهتماماً زائداً بوسائل التربية والتوجيه ليربط هذه المجتمعات ربطا محكما بنظمه وثقافته وأفكاره ،فقام نظام التعليم والإعلام فى هذه البلاد غربياً صرفاً ،إلاّ ما فسحه المستعمر للأفكار الشيوعية فى هذه المجتمعات لتتصدى لأى توجه إسلامى يعجز عملاؤه عن مواجهته ،ولهذا السبب آلت بعض وسائل الإعلام للشيوعيين فى كثير من بلاد المسلمين ،ولا تزال هذه التبعية قائمة إلى يومنا هذا .

فأنباء العالم الإسلامى وأحداثه وقضاياه يطلع عليها العالم بل المسلمون أنفسهم من خلال البرقيات التى تذيعها الوكالات الأجنبية ،وأصبحت وظيفة وسائل إعلام المسلمين محصورة فى إعادة نشر تقارير هذه الوكالات باللغة العربية أو اللغات المحلية الأخرى ونتيجة لهذا الغياب الإسلامى طمست قضايا المسلمين فى كثير من أجزاء المعمورة ،وضخمت قضايا أعدائهم كالصراع بين اليهود[1] والمسلمين فى فلسطين ،والهندوس والمسلمين فى شبه القارة الهندية والنصارى والمسلمين فى يوغندا والحبشة وجنوب السودان ،يضاف إلى هذا التعتيم الإعلامى أن وسائل الإعلام فى البلاد الإسلامية معاول هدم وإفساد وتدمير لأنها لا تملك رشدها وإنما هى حاكية لما يدور فى مراكز التوجيه الرئيسية فهى موظفة ،وموجهة لزعزعة عقائد المسلمين ،ومحاربة مبادئ الإسلام وتعاليمه ،وهدم أخلاقه وقيمه ،ومحو ثقافته من مجتمع المسلمين ،وإفساد ناشئتهم بدءاً بمرحلة الطفولة حيث يشاهد أطفالهم أفلام (الكرتون) التى تشرح لهم عمليا نظرية النشوء والارتقاء ،وكيفية تطور الإنسان من حيوان ـ قرد ـ فينتقلون إلى مراحل التعليم وفيهم قابلية لتصديق هذا الهراء ،كما يشاهدون صورة مصغرة تعرضها هذه الأفلام (الكرتونية) عن الأب والابن (عيسى وأبيه) وهى عملية إفساد لعقولهم الصغيرة التى نقشت هذه الوسائل فيها أن عيسى هو ابن الله ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيرًا ، والقناة الأجنبية يتخلل التبشير برامجها ، فتعرض الأساليب الكنسية والتراتيل النصرانية عبر القصة بلا اقحام مفتعل ،ولا تدخل مصطنع يوحى بالتكلف والتزوير ،كما يقوم هذا الجهاز بتقديم أنواع من الفن الهابط والأغانى الماجنة والمسلسلات العربية التى تدور حلقاتها المتلاحقة على المكايدة والتزوير وسوء السلوك وهى فى معظمها هابطة المستوى متدنية العطاء تعرض علاقة

---

(١) انظر الإعلام الاسلامى والعلاقات الانسانية ص٣٠٩

الرجل بالمرأة عبر مخادع النوم ،وثيات الاغراء الشفافة بأسلوب رخيص ماجن[(١)] فأصبحت المرأة عنصرًا مهينًا مهدر الكرامة فى عالم الإعلام ، والإعلان فاستغلت لرواج الفساد قبل رواج السلعة فقل أن تجد إعلانًا خلا من صورة امرأة عارية تماما أو شبه عارية بدءًا بشفرة الحلاقة وانتهاء بأطر السيارات وآلات الحرث والزرع ، وقد تكون المعلنة نفسها امرأة عارية أو شبه عارية ، وبهذا تسلل الفساد إلى جميع المنازل إلّا من عصم الله[(٢)] ،ولم يكن الأمر مقصورًا على التلفاز بل دأبت وسائل الإعلام الملونة الأخرى على عرض الصور الخليعة لترويج إنتاجها فهى تهرع إلى المصائف والمراقص وحانات الخنا لتزين صفحاتها بصور الساقطات على أنهن عنوان الرقى والتحضر ليكن قدوةً للبنات.

أما المسلسلات الأجنبية فتتلخص فى الجرائم البشعة التى يقترفها محترف يتوارى عن الأنظار فيتهم رجال الشرطة برئيا ،وخلال ذلك تعرض الجرائم بشتى ألوانها وممارساتها بحيث لا يبقى فى ذهن الطفل إلّا أسلوب الإجرام الذى شاهد ، على اختلاف أصنافه ،من قتل أو استيلاء على الأموال أوتسلق للعمارات أو تفجير للسيارات أو نهب لها أو لخزائن المصارف المتينة التى يحرسها منبه كهربائى ورجل مدجج بالسلاح ،لهذه الأسباب تكونت داخل مجتمعاتنا عصابات تقلد أبطال هذه المسلسلات التى ارتفعت الأصوات برفضها حتى فى بلادها الأصلية حيث تقدمت آلاف الأمهات الأمريكيات إلى الكونغرس ليعمل على وقف انتاجها وعرضها على الجيل الجديد ،فاستجاب لشطر الطلب،وشجع على تصدير الانتاج للاجيال المنكودة خارج أمريكا[(٣)].

وفى المانيا قام الخبراء بدراسة عن تأثر الأطفال بالإرهاب الذى يعرضه التلفاز ،فاتضح أن فى أمسية واحدة شاهد حوالى نصف مليون طفل فى ألمانيا الغربية أحد البرامج عن (المافيا) فحدثت خمس جرائم قتل ، وحالة انتحار بشعة ،واتضح كذلك من الدراسة التى قاموا بها أن نصف الأطفال بين السادسة والرابعة عشرة نسوا أن هناك موتًا طبيعيًا ،وأيقنوا أنه لابد أن يموت الإنسان مقتولاً ،والعجيب فى الأمر أن الخبراء الذين أجروا الدراسة قاموا

---

(١) انظر يوسف العظم ،الاعلام العربى المعاصر وأثره فى ضياع الجيل وهزيمة الأمة ، ص ٥٦ه مطبوع ضمن بحوث الندوة العالمية بعنوان (الاعلام والعلاقات الانسانية) النظرية والتطبيق

(٢) انظر أبناؤنا بين وسائل الاعلام وأخلاق الاسلام ص٤١

(٣) انظر ،الاعلام العربى المعاصر ،مرجع سابق ،ص٥٠٧

بمحاكمة التلفاز كأنه شخص ماثل أمامهم ،وحكموا عليه بالسجن المؤبد (٥٢) مرة وزادوه ثمانين سنة سجناً عادياً (١) وهكذا غدت وسائل الإعلام وسائل إفساد يتزعمها التلفاز اذ لا يوجد بينها ما هو أوسع منه انتشاراً وأفظع منه . تدميراً حيث يقبع الشباب ذكرانا وإناثا الساعات الطوال أمام شاشته يشاهدون ماأشرنا إليه من مسلسلات وأفلام عارية بالإضافة إلى البرامج المتوعة التى تنقل أنماط الحياة الغربية بكل ما فيها من صخب ومجون وفساد ووباء خلقى متنوع.

ومجمل القول إن إعلامنا يقوم بدور الناقل أو الحاكى ،فبرامجه إما غربية أو مستغربة تصادم واقعنا ومعتقداتنا وعاداتنا وتقاليدنا ،وتعوق نهضتنا وتقدمنا وتفسد شبابنا ونساءنا وتسهم فى تنشئة أجيال ليس لها من الإسلام إلاّ الاسم ،غربية المنهج والفكر والسلوك ، أجيال تعرف الكثير عن المغنين والراقصات، وتتخذ من هذا المسخ المشوه أسوة وقدوة وتجهل تاريخنا وروائع حضارتنا جهلاً تاماً فهل هذا كله يتم عفواً دون تخطيط؟ كلا فإن وسائل الإعلام فى بلاد المسلمين تسير وفق سياسة مرسومة أحكمت حلقاتها وتم ربطها بالقوى العالمية التى تحركها بواسطة عملائها الذين يخدمون مصالحها فى هذه البلاد .

يقول المستشرق (جب) :

(إن مديرى الصحف اليومية ينتمون معظمهم إلى التقدميين ولذلك كان معظم هذه الصحف واقعاً تحت تأثير الآراء الغربية . . .إنهم لا يلعبون دوراً مهماً فى تشكيل الرأى العام بالقياس إلى الأحداث المحلية فحسب،ولكن صحفهم تحتوى كذلك على مقالات مترجمة من الصحف الأوربية ،ثم هم فى الوقت نفسه يقفون الرأى العام على مايجرى فى الغرب من أحداث ،وما يستحدث من آراء مبينين صدى ذلك فى الشرق)

ويستعرض الصحافة فى بلاد المسلمين فيقول :

(إن الصحافة التركيةبطبيعة الحال وطنية لادينية ،وهى لاتجرؤ على أن تكون دينية لأنها مراقبة من قبل الحكومة مراقبة شديدة . أما المصرية فهى على العكس من اتجاه الأولى الشورى ،تتطور ببطء ،وتعرض طائفة من الآراء الجديدة ،وهى على كل حال لادينية فى اتجاهها) (٢)

وما ساقه المستشرق عن الصحافة ينطبق على بقية وسائل الإعلام.

---

(١) صحيفة الراية السودانية ،العدد ٢٥٩ ،بتاريخ ٣٠ ربيع الأول ١٤٠٧ هـ/ ديسمبر ١٩٨٦
(٢) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ص٢٠٢

تنقية وسائل الإعلام:

لكل ما سقناه من الشواهد نرفع الصوت جهرًا إلى أولى الأمر ومنفذى السياسات الإعلامية فى بلاد المسلمين إن كانوا أحرارًا فيما يفعلون ،أن يقوموا بخطوة إيجابية ينظفون بهـــا وسائل الإعلام من عملاء الغرب أعداء المجتمع وإلّا سوف لا تؤتى أى جهود إصلاحية ثمرتها المرجوة ،لأن كل إصلاح يقوم فى زمن مديد ،يهدمه الإعلام فى وقت وجيز وما أصدق قول الشاعر:

متى يبلغ البنيان يومًا تمامـــه * إذا كنت تبنيه وغيرك يهـــدم

وقول الآخر:

لو ألف بأن خلفهم هادم كفـــى * فكيف ببان خلفه ألف هـــادم

ولا يكفى أن يقوم المسلمون بتنقية هذه الوسائل مما تحمله من خبث بل يجب أن تشكـــل تشكيلاً إسلاميًا كاملاً ،ولا يعنى تشكيلها إسلاميًا أن تكون برامجها وعظًا دينيًا فتبث آيـــات القرآن ثم تعقبها بأحاديث نبوية شريفة ،وكلمات توجيهية ليس هذا هو المراد ،فالرســـول صلى الله عليه وسلم كان أحب إلى أصحابه من أنفسهم ،ومع ذلك كان يتخولهم الموعظة مخافة السآمة ،وإنما المراد أن يكون إعلامنا إعلامًا مسئولاً يهدف إلى تعميق الوعى الإسلامى فيعرض برامجه من وجهة النظر الإسلامية ،فنشرة الأخبار ينبغى أن تتطرق لمشاكل السياسة والاقتصاد من وجهة النظر الإسلامية كما تلقى الضوء على مشاكل العالم كما يعيشها الآن من زاويـــة إسلامية .[1]

فإدخال الإسلام بصورته الصافية الواعية ليحدد معالم الطريق لهذه الأمة وينقذها من التيه والضياع يحتاج إلى وضع برنامج يومى مدروس وخطة واضحة المعالم ذات فعالية مؤثـــرة لانقاذ الشباب من هذا التردى السحيق ،وتوجيه الإعلام وجهة إسلامية وفق الهدف الإسلامى والأمل الإسلامى المنشود . فإذا لم يستطع ولاة الأمر ومنفذوا السياسات الإعلامية فى ديـــار المسلمين أن يقوموا بخطوة إيجابية جريئة لتنظيف إعلامهم من عملاء الغرب والشرق أعـــداء مجتمعاتهم ويستبدلوا بالاعلاميين المفسدين آخرين خيرين ملتزمين للقيم الإنسانية العليـــا ليزينوا الخير ويحببوه إلى النفوس. ويعمقوا أسس الفضيلة ويطهروا الإعلام من البرامج الـــتى

---

(١) الاستاذ محمد قطب ،الإعلام الاسلامى ص ١٦١ بحث مطبوع مع بحوث أخرى بعنوان : الاعلام الاسلامى والعلاقات الانسانية ،طبعة أولى ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م

(٢) انظر الاستاذ محمد قطب ،واقعنا المعاصر ص ٢٣٦ ،طبعة أولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م مؤسسة المدينة للصحافة .

تزين الانحراف فكرًا وسلوكاً ،ويسهموا فى وضع برامج إسلامية واضحة المعالم تخرج الإعلام من طور العموميات ،إلى طور الإيجابيات الدالة على الوعى وتحمل المسئولية لنتخلص من التبعية والانقياد الأعمى للغرب ،إذا لم يستطع المسئولون ذلك فقد وقع العبء على الأمة الإسلامية ذاتها ،ووجب عليها أن تبذل جهدها فى هذا الأمر.

المبحث الرابع
اعداد الدعـــاة

إذا تقاعست الحكومات المنتسبة للإسلام وعجزت عن حماية المسلمين ، فقد وجب علـــى المسلمين أن يقوموا بواجب الدعوة إلى الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا من أوجب الواجبات وأجل الأعمال التي بعث الله بها رسوله ،[١] وأمرنا باتباعه والاقتداء به فقال : (الذيـن يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر)[٢]. ومدحهم بفقال : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم)[٣]. وأمرهم به فقال : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)[٤] وقال صلى الله عليه وسلم : (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان)[٥].

وقال صلى الله عليه وسلم : (إن الناس اذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم اللـــه بعقابه)[٦]. وقال تعالى : (لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه)[٧]

فإذا لم يقم المسلمون بهذا الواجب الكفائي أثموا جميعًا إثما لا يرفعه إلاّ أن يهيئـوا طائفة منهم تتولى ذلك. وبالقيام بهذه الفريضة على الوجه الأكمل تتحقق لهذه الأمـــة الخيرية التي مدح الله سبحانه بها أولها بقوله جل شأنه : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمـرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)[٨].

فالله سبحـانه جمع لهذه الأمة من المزايا والفضائل ما فرقه في سائر الأمم السابقـــة ، وبين أنها خير الأمم لأنهم أنفع الناس للناس ، وأعظمهم إحسانًا إليهم حيث أمروا بكل معروف ونهوا عن كل منكر وأقاموا ذلك بالجهاد في سبيل الله بالنفس والمال لإسعاد البشر جميعًا ، وهذا

---

(١) د . صلاح الدين المنجد ، المجتمع الاسلامي في ظل العدالة ، ص ٦٣ ، دار الكتاب الجديـد بيروت ، لبنان ، طبعة أولى ١٩٦٩م .
(٢) سورة الاعراف ، الآية ١٥٧ .
(٣) سورة التوبة ، الآية رقم (٧١ .
(٤) سورة آل عمران ، الآية رقم ١٠٤ .
(٥) صحيح مسلم ، (١ / ٦٩ كتاب الايمان ، باب بيان كون النهي عن المنكر من الايمان (٢٠) حديث (٧٨) وأبو داود في سننه رقم ٤٣٤٠ ملاحم . والامام أحمد في المسند ٣ / ١٠
(٦) رواه أحمد في مسنده جـ١ ص٢ و٥ و٩ . وابن ماجة ٢ / ١٣٢٧ في الفتن ، رجاله كلهم ثقات وهو صحيح الاسناد
(٧) سورة المائدة ، الآيات ٧٨-٧٩ .
(٨) سورة آل عمران ، الآية رقم ١١٠ .

كمال النفع، ولهذا قال أبو هريرة رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس)[1] : " كنتم خير الناس للناس تأتون بهم في الأغلال والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة"

ولم تقع هذه الأمة فيما وقعت فيه إلا عند ما أهملت هذه الفريضة مما أدى إلى سقوط الخلافة الإسلامية، فأصبح المسلمون كالأيتام الذين فقدوا راعيهم[2] فتواثبت عليهم الأمم كما تتواثب الأكلة إلى قصعتها، لذلك فقد وقع العبء على الجماعات الإسلامية، وتحتم عليها إعداد طائفة من بينها من الشباب الواعي الراغب في العمل الإسلامي ، وإعدادها إعداداً كاملاً بتأهيلها علمياً بأن تكون على علم بالإسلام في كلياته مع التمرس بأساليب البيان ، والقدرة عليه لتدعو إلى الله على بصيرة[3] ، وهذا القدر من العلم والبيان زاد ضروري لجميع الدعاة مع انتخاب عدد منهم على درجة عالية من الكفاءة ليتخصصوا في فروع العلوم المختلفة، فالداعية المؤهل كالطبيب الناصح العليم الذي يعرف تشخيص الداء وكيفية حسمه بالدواء[4] ، ولكي تحقق الدعوة النجاح المقصود لابد من أن تسير وفق منهج واضح وخطة مرسومة وغاية معلومة فالمنصرون الذين غزوا مجتمعات المسلمين بالتنصير حين يحصل أحدهم على المؤهل أو الشهادة الجامعية لابد له من الذهاب إلى كليات اللاهوت للتمرس على عمل التنصير ، فدعاة الإسلام يجب ألا يكونوا أقل عناية واهتماماً بأساليب دعوتهم من سواهم[5] ، فلا بد من دراسة علم النفس وعلمي الاجتماع والاجناس بالإضافة إلى فقه الكتاب والسنة، ليكون الداعية على بصيرة كما قال سبحانه وتعالى : (قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة)[6]. لأن الجهل من أكبر معوقات الدعوة ، فالجاهل يهدم ولا يبني ويفسد ولا يصلح ، وليس معنى ذلك أن تتوقف الدعوة حتى يتم هذا الإعداد الكامل ، بل يجب الاستمرار في التبليغ لقوله صلى الله عليه وسلم (بلغوا عني ولو آية)[7] ولأن المجتمع اليوم يموج بعديد من المذاهب والاتجاهات التي تتجاذب الناس بالدعايات المنمقة ، والأساليب المزوقة تخاطبهم من حيث يسمعون وتتحسس رغباتهم وتلامس أرواحهم وتتحسس أمراضهم مما يوجب على كل فرد من المسلمين أن يدعو

---

(١) انظر شيخ الاسلام بن تيمية ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بتحقيق صلاح الدين المنجد دار الكتاب الجديد بيروت ١٣٩٦ / ١٩٧٦ ص ١٢

(٢) انظر واقعنا المعاصر ص ٣٥٠ ه

(٣) انظر الشيخ عبد العزيز بن باز ، منهج الدعوة الى الله ص ٣٧ ، وانظر له كذلك الدعوة وأخلاق الدعاة ، ص ٢٣ ، ط ادارات البحوث سنة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م

(٤) و (٥) انظر فتحي يكن ، مشكلات الدعوة والداعية ، ص ١١٨ / ١١٩ .

(٦) سورة يوسف ، الآية رقم ١٠٨ .

(٧) رواه البخاري في صحيحه ٦ / ٤٩٦ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، حديث رقم (٣٤٦١) ، والترمذي في سننه رقم (٢٨٠٧) .

من يعرف من أقرانه وجيرانه ودعوته إليهم ببيان الإسلام بقدر ما يعرف وذلك كان دأب الصالحين من هذه الأمة في صدر الإسلام وما جاء بعده من عصور.[١] كما تتطلب مصلحة الدعوة أن يكون الداعي ذكيًا يأخذ بالحكمة المشفوعة بالحلم والصبر، على علم بأن للقلوب إقبالاً وإدباراً ليأتي المدعوين من قبل ماألفته نفوسهم من عادات وتقاليد، غير مباعد عنهما إلا أن تكون قبيحة فيعمل على تغييرها من غير مباغتة أو مهاجمة مع ترغيب المدعوين وتأليفهم وجذبهم برفق وبسر اقتداء بقوله وفعله صلى الله عليه وسلم (يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا)[٢] وينبغي ألا تفوته الملاحظة الدقيقة لدى المخاطبين، مع عدم التهاون في الحق ولا التفريط فيه، فالإسلام محتاج إلى نوعية هؤلاء الدعاة الصادقين الذين يحسنون عرضه بأسلوب شيق[٣] سهل غير معقد، مع معرفة نفوس الأفراد والجماعات وأحوال المجتمع ليشارك المدعوين في السراء والضراء وهذا من صميم الدعوة.

ومن هنا كانت مهمة الداعي حساسة تتطلب كثيراً من الحكمة واللباقة، فالنفوس مجبولة على حب الإحسان لذلك وجب على الداعي أن يكون موطأ الأكناف لينًا في غير ضعف متواضعًا في غير ذلة حليمًا رزينًا يقابل الناس بالحسنى، ويعدل بينهم، ويأخذ المخالفين باللين ويقابلهم بالمودة لأن المودة وعدم الغلظة عليهم تقربهم وتدنيهم، ولأن الغلظة عليهم تنفرهم وتبعدهم، وتقوى العناد في قلوبهم، وحيث كان العناد كان الجحود[٤] قال تعالى: (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم)[٥] وذلك امتثالا لقوله تعالى: (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)[٦] وفي الحديث عن أبي أمامة رضي الله عنه: أن غلامًا شابًا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبي الله أتأذن لي في الزنا؟ فصاح الناس به، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أدن. فدنا حتى جلس بين يديه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أتحبه لأمك؟ قال: لا. جعلني الله فداك. قال: كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم. أتحبه لبنتك؟ قال: لا. جعلني الله

(١) انظر أبا زهرة، الدعوة الى الاسلام، ص ١٢٥.
(٢) البخاري في صحيحه جـ١ ص١٦٣ كتاب العلم، ومسلم في صحيحه ٣/١٣٥٩، في الجهاد والسير باب الامر بالتيسير.
(٣) الدعوة الى الاسلام ص ١٢٢
(٤) المصدر السابق ص١٣٩
(٥) سورة الانعام، الآية ١٠٨
(٦) سورة النحل، الآية ١٢٥

فداك . قال : كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم . أتحبه لأختك؟ وزاد ابن عوف أنه ذكر العمة والخالة ،وهو يقول فى كل واحدة :لا . جعلنى الله فداك . فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره ،وقال : " اللهم طهر قلبه ، واغفر ذنبه ،وحصن فرجه " فلم يكن شئ أبغض اليه منه - يعنى الزنا -) .(١) وصدق الله العظيم القائل : فى شأن رسوله الرحيم : (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ،فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر)(٢) . وقال تعالى لموسى وأخيه هارون فى شأن فرعون : (فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى)(٣) وإنما أمرهما الله سبحانه باللين فى القول مع علمه الأزلى بعدم إيمان فرعون تعليماً وتهذيباً للدعاة ،وفى الحديث الصحيح يقول النبى صلى الله عليه وسلم : (اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به ومن ولى من أمر أمتى شيئا فشق عليهم فأشفق عليه)(٤)

وينبغى أن يكون الداعية معروفاً بكمال الخلق مع كمال السمت وحسنه بعيداً عن الشبهات ،قال صلى الله عليه وسلم : " من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه "(٥)

وألا يكون مظهره ومخبره مخالفاً لما يدعو إليه ،قال تعالى : (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم)(٦) وقال سبحانه : (ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون)(٧) ،وأن يكون ذا شخصية نافذة لا تقتحمها العين ولا تزدريها النفس غير معيب بعيب خلقى لأن الدعوة بالعمل أوقع فى النفس من الدعوة بالقول . فقد كان سلف هذه الأمة دعاة بأفعالهم قبل أقوالهم إمامهم فى ذلك رسولهم صلى الله عليه وسلم الذى أمرنا الله سبحانه بالتأسى به فقال : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة)(٨) وكان عمر رضى الله عنه إذا أراد عمل شئ ،بدأ بأهله فطبقه عليهم ثم يأمر بقية الرعية ،وقال أبوبكر ابن أبى سبرة لما رد عمر بن عبد العزيز المظالم ، قال :إنه ينبغى ألا أبدأ بأول من نفسى ،

---

(١) رواه أحمد باسناد جيد فى المسند جـ ٥ ص ٢٥٦ /٢٥٧ .
(٢) سورة آل عمران ،الآية ١٥٩
(٣) سورة طه ،الآية ٤٤
(٤) رواه مسلم فى صحيحه ٣ /١٤٥٨ فى الامارة باب فضل الامام العادل رقم (١٩)
(٥) متفق عليه ،البخارى ١ /١٢٦ فى الايمان ،باب فضل من استبرأ لدينه وعرضه حديث رقم (٥٢) ، ومسلم ٣ /١٢٢٠ فى المساقاة ،باب أخذ الحلال وترك الحرام .
(٦) سورة البقرة ، الآية رقم ٤٤ .
(٧) سورة الصف ،الايتان رقم ٢-٣ .
(٨) سورة الأحزاب ،الآية رقم ٢١ .

فنظر إلى ما فى يده من أرض ومتاع فخرج منه حتى نظر إلى فص خاتم فقال : هذا ما كان الوليد أعطانيه مما جاء من أرض المغرب فخرج منه)[1]

فالداعية الربانى المخلص المبتغى بدعوته وجه الله سبحانه المتجرد من الغرض الذى لا يريد منصباً ولا جاهاً ولا مالاً ، المؤمن بوجوبها ، المتسامى بها المدرك أنها وظيفة المرسلين الذين كان لسان حالهم (لا أسالكم عليه أجرا ..[2]. الآية و(لا أسألكم عليه مالا ان أجرى الا على الله .[3]. الآية و(لا أسالكم عليه أجرا ان أجرى الا على الذى فطرنى)[4]

مثل هذا النوع من الدعاة هو الذى يحى موات هذه الأمة ويجمعها على الإيمان والحب لتواجه أعداءها مجتمعة كما يفعلون بها .

الدعوة إلى وحدة الأمة :

تعتبر الدعوة إلى الوحدة من أولى مهام الداعية بعد غرس العقيدة الصحيحة فى القلوب فإذا كانت الأمم فى عصرنا الحاضر تتجمع وتصطنع عوامل التجمع لتحافظ على بقائها وتواجه أعداءها فأولى بهذا الاجتماع هذه الأمة الإسلامية ، وهى التى أغناها الله سبحانه بالمقومات التى توحدها ، فربها واحد وكتابها الذى هو أساس التشريع واحد[5] وقبلتها واحدة وهدفها واحد ، فلا بد من اجتماعها بعد طول فراق ، لأنها تقوم على هذه الروابط المتينة ، ولا يوجد رباط أقوى من رباط الإيمان فوحدة الدين والعقيدة ووحدة المبادىء الخلقية الفاضلة والنظم الاجتماعية العادلة[6] ، كل ذلك من عوامل الوحدة ، والله سبحانه يخاطبها بقوله :

(ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون)[7]

---

(١) الحافظ جمال الدين ابن الجوزي سيرة عمر بن عبد العزيز ص٢ ٩ دار الفكر ، بدون تاريخ
(٢) سورة الشورى ، الآية رقم ٢٣
(٣) سورة هود ، الآية رقم ٢٩
(٤) سورة هود ، الآية رقم ٥١
(٥) انظر الاستاذ يوسف العظم ، المنهزمون ، دراسة للفكر المتخلف والحضارة المنهارة ، ص ٢٦٦ الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٩ / ١٩٧٩
(٦) انظر الامام أبا زهرة ، الوحدة الاسلامية ، ص ٢٣٤/ ٢٣٥ ، دار الرائد العربى بيروت لبنان بدون تاريخ
(٧) سورة آل عمران ، الآيتان ١٠٢ و ١٠٣

وقوله سبحانه : (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم)[١]

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد)[٢] ويقول : (المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم)[٣] فلا بد لهذه الأمة أن تتحد لتواجه أعداءها فتقاتلهم كافة كما يقاتلونها كافة .
قال تعالى : (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين)[٤] وقال سبحانه وتعالى : (ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص)[٥] فإذا اتحدت هذه الأمة على الإيمان فلن تستطيع قوة فى الأرض أن تقف أمامها .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية رقم ١٠٥

(٢) متفق عليه ، رواه البخارى ١٠ / ٤٣٨ فى الأدب باب رحمة الناس والبهائم حديث رقم (٦٠١١) ومسلم ٤ / ١٩٩٩ فى كتاب البر والصلة والآداب باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم .

(٣) رواه أبو داود فى سننه رقم (٤٥٣٠) فى الديات باب أيقاد المسلم بالكافر ؟ رواته ثقات وهو صحيح الاسناد .

(٤) سورة التوبة ، الآية رقم ٣٦

(٥) سورة الصف ، الآية رقم ٥

المبحث الخامس

السلطة المسلمة

تعتبر الدعوة إلى إعادة العلاقة بين السلطان والقرآن من أهم أعمال الدعاة، وكل ما ذكر من وسائل لإصلاح المجتمع الإسلامي يهدف في النهاية إلى قيام دولة إسلامية كبرى تقوم على العقيدة الإسلامية الصادقة التي ينبع منها نظام المجتمع الأخلاقي والاقتصادي والسياسي لأن الدولة ركن لا مفر من وجوده لتحرير رعاياها من العبودية لغير الله، وتوجيههم إلى الالتزام برسالة الإسلام وهي المسئولة عن حماية هذه الرسالة بتحقيق الحياة الإسلامية الكاملة، وترويض النفوس على تحقيق هذا الهدف وإخضاع جميع الطاقات النفسية والفكرية والباطنية لتحقيقه. ولكن هذا الركن لا يتحقق إلاّ بتحويل التربية إلى سلوك عملي واقعي في حياة الأفراد والجماعات فيدفعهم إلى الكفاح المرير الشاق الذي لا ينقطع والجهاد الذي لا بد منه في سبيل حمايتها مما يكتنفها من كيد الأعداء في الداخل والخارج[1] مع الالتزام بما شرعه الله سبحانه وبيّنه رسوله صلى الله عليه وسلم أمراً ونهياً وتحليلاً وتحريماً، وهذا الذي يمثل عنصر الطاعة والخضوع لأن (لا إله إلاّ الله) معناها لا معبود بحق إلاّ الله فمادة (ع-ب-د) تعني الإذعان والانقياد. والعبادة الذل لله عن رضا وانكسار، وهي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال الظاهرة والباطنة، كالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة.... الخ من جميع أنواع البر أمراً ونهياً كحرمة الربا والزنا والخمر.. الخ وبهذا يتحقق مقتضى لا إله إلاّ الله محمد رسول الله.

فليس عبداً ولا عابداً من رفض الاستسلام لأمر الله واستكبر من اتباع نهجه والانقياد لما شرع على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وإن اعترف بأن الله خالقه ورازقه، فهذا إقرار الربوبية الذي اعترف به المشركون فلم يكونوا به مؤمنين، إذ لا بد من الخضوع والانقياد والتعبد والتذلل الذي هو حق الألوهية.

وبذلك تعود العلاقة التي طال انفصامها بين علمي التوحيد والفقه بجميع فروعه.

فعلى المسلمين جميعاً أن يعلموا أن التوجه بشيء من العبادات لغير الله شرك يتنافى

---

(١) انظر الاستاذ سيد قطب، مقدمة كتاب الايمان وأثره في نهضة الشعوب، للاستاذ يوسف العظم الطبعة الثانية سنة ١٣٨٩هـ الدار السعودية.

الشهادة بأنّه لا إله إلاّ الله ،وعبادة الله بطريق غير الطريقة التي جاء بها رسول الله ابتداع في الدين لا يقبله الله ، فمن صلى لغير الله أو صلى بغير الطريقة التي بينها رسول الله عامدًا غير جاهل لا يكون مسلماً وإن تلفظ بالشهادتين، والعبادة كما بينها كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ليست محصورة في الصلاة والزكاة والصوم . . الخ بل تشمل كل أعمال الإنسان ، ولكن كثيرًا من المسلمين يجهلون هذا المعنى الشامل للعبادة الذي يشمل تحكيم شرع الله ،كما يشمل الصلاة والزكاة والصيام ، ويجهلون أن حكم التوجه بالحاكمية لغير الله كحكم الصلاة لغيره سواء بسواء .

والحكم بما أنزل الله لا يعني تطبيق الأحكام القانونية وحدها كما هو المفهوم الضيق في الأذهان اليوم لكلمة الشريعة ،فالتصورات والمناهج والقيم والموازين كلها تشريع[١] ، والمجتمع الإسلامي وحده هو الذي يلتزم بكل ما جاء من عند الله ،قال تعالى : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعًا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وإن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإنّ كثيراً من الناس لفاسقون أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون)[٢]

يقول المرحوم سيد قطب: (وهكذا تتبين القضية . . إله واحد ،ومالك واحد ،وإذن فحاكم واحد ،ومشرع واحد ،ومتصرف واحد ،ومنهج واحد ، وقانون واحد ، وإذن فطاعة واتباع وحكم بما أنزل الله فهو إيمان وإسلام ، أو معصية وخروج وحكم بغير ما أنزل الله ،وهذا هو الدين كما أخذ الله ميثاق العباد جميعاً عليه كما جاء به كل الرسل من عنده ،أمة محمد والأمم قبلها سواء ولم يكن بد أن يكون دين الله هو الحكم بما أنزل الله دون سواه . فهذا مظهر سلطان الله . مظهر حاكمية الله . مظهر أن لا إله إلاّ الله وهذه الحتمية - حتمية التلازم بين دين الله والحكم بما أنزل الله - ليست هي السبب الرئيسي فالقاعدة الأولى

---

(١) انظر معالم في الطريق ، لسيد قطب ص ١٠ ،
(٢) سورة المائدة ،الآيات ٤٨-٥٠

والأساس في حتمية التلازم هي أن الحكم بما أنزل الله إقرار بألوهية الله ،ونفي لهذه الألوهية وخصائصها عمن عداه ،وهذا هو الإسلام والاستسلام والتجرد عن ادعاء أخص خصائص الألوهية وهي السلطان والحاكمية)[1]

لقد قضى الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمور كثيرة بأحكام ،وطلب منا الرضى بها والعمل بمقتضاها فالرضى بها والعمل بمقتضاها هو لازم الإيمان بالله والثقة به والاطمئنان إلى علمه وعدله ورحمته ،وترك العمل بها إنكارا لها أو تفضيلا لغيرها عليها أو اعتبارها مماثلة لذلك الغير ،كل هذا تعبير عن فقدان الثقة بعلمه وعدله ورحمته ،وهذا مناف للشهادة بأنه لا إله إلا الله ،فالله تعالى هو الذي قضى بأن أمر المسلمين شورى بينهم[2] (والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم)[3] وهو الذي أمر برد الأشياء المتنازع فيها إلى كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا)[4] فهذه الآية تأمر المسلمين عند الاختلاف في أمر من الأمور أن يحسموه بالرد إلى كتاب الله ، وبالرجوع إلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ،وتجعل هذا الرد مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر فمن أعرض عن هذا فليس بصادق الإيمان بالله واليوم الآخر .

وهذه أهم قواعد التصور الإسلامي ،فالذي يعلن أنه مسلم يجب عليه أن لا يفرق بين الصلاة والحكم .

ثم تقول الآية الكريمة (ذلك خير) أي في الدنيا (وأحسن تأويلا) عاقبة ومآلا في الآخرة وهل يرجو المسلم الصادق الإيمان أكثر من حكم يكون خيرًا له في دنياه وأحسن عاقبة في في أخراه ، وتقول الآية الكريمة بعدها (ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً واذا قيل لهم تعالوا الى ماأنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا)[5]

---

(٢) في ظلال القرآن ،جه ،ص ٨٢٨

(٢) من كلمة وجهها الدكتور جعفر شيخ ادريس الى الأمة السودانية

(٣) سورة الشورى ،آية رقم ٣٨ .

(٤) سورة النساء ، آية رقم ٥٩ .

(٥) سورة النساء ،الآيتين رقم ٦٠-٦١ .

والطاغوت هو كل حكم غير حكم الله سبحانه ،وهو الحكم باتباع الشيطان وهوى النفس، وسمى طاغوتا لتجاوزه الحد . والإيمان الحق يقتضى الكفر بجميع الطواغيت فالتحاكم إليهم والرضى بحكمهم ينقض الإيمان من أساسه ،ولذلك لم تقل الآية عن هؤلاء المتحاكمين إلى الطاغوت إنهم مؤمنون بل قالت: (يزعمون أنهم آمنوا) والزعم مطية الكذب وهو ينافي الحقيقة ،وفعلهم دليل على عدم إيمانهم إذ كيف يقول الإنسان إنّه مؤمن بالله وكتابه ويأبى حكمه ويعارضه ،ويرضى بما هو مأمور باجتنابه ؟ قال تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)[1]

وقد وصف الله سبحانه هؤلاء الذين يصدون ويعرضون عن التحاكم بما أنزل الله بالنفاق والنفاق أقبح من الكفر (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا)[2] وتستمر الآيات بعدها فى نفس الموضوع (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما)[3]

أقسم الله سبحانه فى هذه الآية الكريمة التى ينبغى أن تكون وحدها كافية لمن كان له قلب فى حسم قضية الايمان حيث يقسم الله تعالى لرسوله بأن شرط الإيمان الذى لا يقوم الإيمان إلا به هو تحكيم الرسول صلى الله عليه وسلم فى كل خلاف ،والتسليم لهذا الحكم والرضى به وعدم الشعور حتى فى الباطن بشئ من الضيق والحرج والنفور من قضاء هذا الرسول ،والرسول إنما يقضى بما علمه الله تعالى فقضاؤه هو قضاء الله[4] : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما)[5]

الحكم بغير ما أنزل كفر :

يقول الحافظ ابن كثير فى تفسيرقوله تعالى (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) :[6]

---

(١) سورة النحل ،الآية رقم ٣٦ .
(٢) سورة النساء ،الآية رقم ١٤٥ .
(٣) سورة النساء ،الآية رقم ٦٥ .
(٤) د . جعفر شيخ ادريس،من كلمة وجهها للامة السودانية
(٥) سورة النساء ،الآية رقم ١٠٥ .
(٦) سورة المائدة ،الآية رقم ٥٠ .

(ينكر الله تعالى على من خـــــرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر ،وعدل إلى ماسواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعهـــا الرجال بلا مستند من شريعة الله ،كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم ،وكما يحكم التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان[1] الذى وضع لهم (الياسق)، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملـة الإسلامية وغيرها ،وفيها كثير من الأحكام أخذ هـا من مجرد نظره وهواه فصارت في بنيه شرعاً متبعاً يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنـة رسوله صلى الله عليه وسلم ،فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم اللـه ورسوله ،فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير فإن الله تعالى قال : " أفحكم الجاهلية يبغـون" أى يتبعون ويريدون ،وعن حكم الله يعدلون "ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون" أى ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقـل عن الله شرعه وآمن به وأيقن ،وعلم أنه تعالى أحكم الحاكمين وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها ، فإنه تعالى هو العالم بكل شئ القادر على كل شئ)[2]

---

(١) جنكزخان هو الذى وضع لهم السياسات التى يتحاكمون إليها ويحكمون بها وأكثرهـا مخالف لشرائع الله وكتبه ،وهى شئ اقترحه من عند نفسه وتبعوه في ذلك. انظـر الحافظ ابن كثير عمدة التفسير جـ٤ ص١٧٢/١٧٣ ، بتحقيق أحمد محمد شاكـر طبعة دار المعارف ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧.

وقال المقريزى في الخطط تحت ذكر أحكام السياسة :أصلها (ياسة) فحرفهـا أهل مصر وزادوا بأوليها سينا فقالوا (سياسة) وأدخلوا عليها الألف واللام فظن مـن لا علم عنده انها كلمة عربية.

واسمع الآن كيف نشأت هذه الكلمة حتى انتشرت بمصر والشام وذلك أن جنكز خـان القائم بدولة التتر في بلاد الشام لما غلب الملك أونك خان وصارت له الدولة ،قـرر قواعد وعقوبات أثبتها في كتاب سماه (ياسة) ومن الناس من يسميه (يسق) ولما تم وضعه كتب ذلك نقشا في صفائح الفولاذ وجعله شريعة لقومه والتزموه بعده حتى قطـع الله دابرهم. وكان جنكزيخان لا يدين بشئ من أديان أهل الأرض فلما مات جنكزخان التزم من بعده أولاده واتباعه حكم (الياسة) كالتزام المسلمين الأوائل حكم القرآن وجعلوا ذلك دينا لم يعرف عن أحد مخالفته بوجه. انظر الخطط للمقريزى ٣/٣٥٧/٣٥٨.

(٢) ابن كثير البداية والنهاية جـ١٣ ،ص٢١٧

وقال : (فمن ترك شرع الله المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء وتحاكم إلى الشرائع المنسوخة كفر - فكيف بمن تحاكم إلى الياسا وقدمها عليها ؟ من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين)[1]

وقال أحمد شاكر : (أفيجوز مع هذا - في شرع الله أن يحكم المسلمون في بلادهم بتشريع مقتبس من تشريعات أوربة الوثنية الملحدة ؟ بل بتشريع تدخله الأهواء والآراء الباطلة يغيرونه ويبدلونه كما يشاءون لا يبالي واضعه أوافق شرعة الإسلام أم خالفها ؟

(إن المسلمين لم يبلوا بهذا قط فيما نعلم في تاريخهم إلّا في ذلك العهد - عهد التتار - وكان من أسوأ عهود الظلم والظلام ومع هذا فإنهم لم يخضعوا له بل غلب الإسلام التتار ثم مزجهم فأدخلهم في شرعته، وزال أثر ما صنعوه بثبات المسلمين على دينهم وشريعتهم وبأن هذا الحكم السيء الجائر كان مصدره الفريق الحاكم إذ ذاك لم يندمج فيه أحد من أفراد الأمم الإسلامية المحكومة ولم يتعلموه، ولم يعلموه أبناءهم فما أسرع ما زال أثره ! أفرأيتم هذا الوصف القوى من الحافظ ابن كثير - في القرن الثامن لذلك القانون الوضعي الذى صنعه عدو الإسلام جنكيزخان ؟ ألستم ترونه يصف حال المسلمين في هذا العصر في القرن الرابع عشر[2] إلّا في فرق واحد أشرنا إليه آنفا أن ذلك كان في طبقة خاصة من الحكام أتى عليها الزمن سريعاً فاندمجت في الأمة الإسلامية و زال أثر ما صنعت.

(ثم كان المسلمون الآن أسوأ حالا وأشد ظلماً وظلاماً منهم لأن أكثر الأمم الإسلامية الآن تكاد تندمج في هذه القوانين المخالفة للشريعة الإسلامية والتي هي أشبه شيء بذلك (الياسق) الذى اصطنعه رجل كافر ظاهر الكفر، هذه القوانين التي يصطنعها ناس ينتسبون للإسلام ثم يتعلمها أبناء المسلمين ويفخرون بذلك آباء وأبناء ثم يجعلون أمرهم إلى معتنقي هذا الياسق العصري ويحقرون من يخالفهم ذلك ويسمون من يدعوهم إلى الاستمساك بدينهم وشريعتهم رجعيًا وجامدًا إلى مثل ذلك من الألفاظ البذيئة، بل إنهم أدخلوا أيديهم فيما بقي في الحكم من التشريع الإسلامي يريدون تحويله إلى ياسقهم

---

(١) نفس المصدر جـ١٣ ص ٢١٨

(٢) وما زالوا كذلك في القرن الخامس عشر وما أدري ماذا يكون بعد !

الجديد ،بالهوينا واللين تارة ،وبالمكر والخديعة تارة ،وبما ملكت أيديهم من السلطان تارات ،ويصرحون ولا يستحيون بأنهم يعملون على فصل الدولة عن الدين .

(أفيجوز إذن - مع هذا - لأحد من المسلمين أن يعتنق هذا الدين الجديد ،أعنى التشريع الجديد ؟ أويجوز لأب أن يرسل أبناءه لتعليم هذا واعتناقه واعتقاده والعمل به عالماً كان الأب أو جاهلاً ؟

(أويجوز لرجل مسلم أن يلى القضاء فى ظل هذا الياسق العصرى وأن يعمل به ويعرض عن شريعته البينه ما أظن أن رجلاً من المسلمين يعرف دينه ويؤمن به جملة وتفصيلاً ويوقن أن هذا القرآن أنزله الله على رسوله كتابا محكما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،وبأن طاعته وطاعة الرسول الذى جاء به واجبة قطعية الوجوب فى كل حال - ما أظنه يستطيع إلاّ أن يجزم غير متردد ولا متأول بأن ولاية القضاء فى هذا الحال باطلة بطلاناً أصلياً لا يلحقه التصحيح ولا الإجازة . إن الأمر فى هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس، هى كفر بواح لا خفاء فيه ولا مداورة ولا عذر لأحد ممن ينتسب للإسلام كائناً من كان - فى العمل بها والخضوع لها أوإقرارها ،فليحذر أمرؤ لنفسه ،وكل امرئ حسيب نفسه . ألا فليصدع العلماء بالحق غير هيابين ،وليبلغوا ماأمروا بتبليغه غير موانين ولا مقصرين)[1]

فالله سبحانه لم ينزل هذا القرآن عبثا ولم يرسل رسوله لعبا ،قال سبحانه وتعالى :
(وما أرسلنا من رسول إلاّ ليطاع باذن الله)[2]

ومن حسن حظ الإنسانية جمعاء أنّ منزل القرآن تكفل بحفظه ولم يكله للناس كما كان الأمر فى الديانات السابقة الأمر الذى يفرض على الأمة الإسلامية أن تعيد النظر فى واقعها وفق الفهم الشامل للتصور العقدى الصحيح حتى يمكن لها أن تبنى مجتمعها بقوة فى جميع مجالات الحياة على ذات الأسس والمفاهيم التى قام على أساسها مجتمع عهد النبوة والخلافة الراشدة ،ولا غرو أن نجاحها فى إرساء مجتمعها على هذا التصور يجعل الهيمنة لدينها على كل شئون الحياة بدءاً بالحكم والاقتصاد والعلاقات الخاصة والدولية ،وختما بما ماطــة

---

(١) أحمد محمد شاكر، هامش عمدة التفسير للحافظ ابن كثير ج٤ ص١٧٣/١٧٤

(٢) سورة النساء ، الآية رقم ٦٤ .

الأذى عن الطريق فيصبح واقعها تعبيرًا صادقًا لمعنى القيادة وتحقيقًا كاملًا للعبودية لله الواحد الأحد ،فتحظى حينذاك بالاستخلاف والتمكين لأنها موعودة بذلك من الله سبحانه (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا)[1] فتكرر المعجزة التى صنعها الإسلام فى انشاء خير أمة أخرجت للناس وهى ممكنة التكرار ما بقى الليل والنهار لأنها تقوم على ناطق بالحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ونبوة تعلى قدر البشر.[2]

ولقد قرر الله سبحانه أنه لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا إذا استكملوا حقيقة الإيمان فى قلوبهم تصورًا وشعورًا وواقعًا عمليًا فى حياتهم ،فالنصر ليس للعناوين وإنما هو للحقائق التى وراء العناوين ،وليس بيننا وبين النصر فى أى زمان وأى مكان إلا أن نستكمل حقيقة الإيمان ونستكمل مقتضيات هذه الحقيقة فى حياتنا وواقعنا كذلك ،ومن حقيقة الإيمان أن نأخذ العدة ونستكمل القوة ،ومن حقيقة الإيمان ألّا نركن إلى الأعداء ،ولا نستمد منهم القوة ،وألا نطلب العزة والحماية إلا من الله ،ووعد الله هذا الأكيد يتفق مع حقيقة الإيمان وحقيقة الكفر فى هذا الكون ،فالإيمان صلة بالقوة الكبرى التى لا تضعف ولا تفنى وأن الكفر انقطاع عن تلك القوة وانعزال عنها ،إن قاعدة المعركة لقهر الباطل هى إنشاء الحق وحين يوجد الحق بكل حقيقته وبكل قوته يتقرر مصير المعركة بين الحق والباطل مهما يكن هذا الباطل من الضخامة الظاهرية الخادعة للعيون (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق)[3][4] (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا)[5]

---

(١) سورة النور ، الآية رقم ٥٥ .

(٢) انظر محمد الغزالى ، هموم داعية ، ص

(٣) انظر فى ظلال القرآن ، جـ٢ ، ص ٧٨٣ .

(٤) سورة الأنبياء ،الآية ١٨

(٥) سورة الاسراء ،الآية ٨١

المبحث السادس
الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس

أولا : الجهاد بالمال :

قال تعالى : (آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير)(١)

وقال تعالى (انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون)(٢)

وقال تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)(٣)

وأوجب سبحانه الزكاة وجعلها أحد مباني الإسلام العظام إذ هي ثالث الدعائم الخمس وثالث ثلاث هن عنوان الدخول في الإسلام ورمز أخوة المسلمين فقال سبحانه : (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم)(٤) وقال تعالى : (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين)(٥)

وهي حق معلوم فرضه الله في أموال الأغنياء للفقراء فقال سبحانه (والذين في أموالهم حق معلومٌ للسائل والمحروم)(٦) وهي مال الله لعباده ليس فيها معنى التبرع أو التطوع أو الإحسان الاختياري بل تحصل بواسطة الدولة المسلمة وتوزع بواسطتها على مستحقيها المنصوص عليهم في آية الزكاة(٧) حتى لا يخالط المعطي الرياء والعجب ولا يشعر الآخذ بالذلة والمهانة .

ولم يطمع المنصرون في ضعفة المسلمين وأراملهم وأيتامهم إلاّ عند ما عطل الحكم بكتاب الله ،فتعطل ركن الزكاة تبعا لذلك إلاّ من أفراد قلة ،فاختفى التكافل الاجتماعي باختفائها فأستغل أعداء الإسلام عوز المعوزين وحاجة المحتاجين ،فنفذوا إلى المجتمع الإسلامي تحت شعار البر والإحسان فعاثوا في الأرض الفساد ،ونسى المسلمون وعد الله بمضاعفة النفقة في

---

(١) سورة الحديد ،آية رقم ٧
(٢) سورة التوبة ،آية رقم ٤١
(٣) سورة التوبة ،آية رقم ١٠٤
(٤) سورة التوبة الآية رقم ٥
(٥) سورة التوبة ،آية رقم ١١
(٦) سورة المعارج ،آية رقم ٢٤ ، ٢٥
(٧) حتمية الحل الاسلامي ص٩٥

سبيله إذ يقول : (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم)(١).

قال الإمام القرطبى : (هذه الآية لفظها بيان لشرف النفقة فى سبيل الله)(٢)

وجاء فى تفسير الخازن أن المقصود من الآية أنه إذا علم الإنسان الطالب للزيادة والربح أنه إذا بذر حبة واحدة أخرجت سبعمائة حبة ما كان ينبغى له ترك ذلك ولا التقصير فيه فكذلك ينبغى له طلب الأجر عند الله فى الآخرة ، وألا يترك الإنفاق فى سبيل الله إذا علم أنه يحصل له بالواحدة عشرة ومائة وسبعمائة والله يضاعف لمن يشاء)(٣) وقال ابن كثير هذا المثل أبلغ فى النفوس من ذكر عدد السبعمائة فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها ، كما ينمى الزرع لمن بذره فى الأرض الطيبة)(٤)

إنفاق المال لجهاد الأعداء :

قال سبحانه : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون)(٥)

وقال جل من قائل : (إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيَقتلونَ ويُقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم)(٦)

قال ابن العربى : (لا تقبلوا على الأموال إيثاراً لها على الأعمال الصالحة ، ولا تركنوا إلى التجارة الحاضرة تقديماً لها على التجارة الرابحة تنجيكم من العذاب الأليم)(٧)

وقال صلى الله عليه وسلم : (من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا)(٨)

وعن أبى مسعود الأنصارى قال : جاء رجل بناقة مخطومة فقال : هذه فى سبيل الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة)(٩)

---

(١) سورة البقرة ، الآية رقم ٢٦١

(٢) الامام القرطبى ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ١ ، ص١١١

(٣) تفسير الخازن ، جـ١ ، ص٢٣٨

(٤) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، جـ١ ، ص ٤٦٧

(٥) سورة الأنفال ، آية رقم ٦٠

(٦) سورة التوبة ، آية رقم ١١١

(٧) الامام ابن العربى ، أحكام القرآن ، جـ٢ ، ص٤٩١

(٨) متفق عليه ، البخارى كتاب الجهاد ، باب فضل من جهز غازيا أو خلفه بخير ، ومسلم ٣ / ١٥٠٧ فى كتاب الامارة ، باب فضل اعانة الغازى فى سبيل الله .

(٩) صحيح مسلم ٣ / ١٥٠٥ فى كتاب الامارة ، باب فضل الصدقة فى سبيل الله . والنسائى فى سننه ٦ / ٤٩

وروى أبو داود عن زيد ابن أسلم عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : (أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً أن نتصدق فوافق ذلك مالاً عندي ، فقلت اليوم أسبق أبا بكر " ان سبقته يوما " فجئت بنصف مالي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أبقيت لأهلك؟ فقلت: مثله . قال : وأتى أبوبكر رضي الله عنه بكل ما عنده ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أبقيت لأهلك؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله . قلت: لا أسابقه أبداً)[1]

وروى ابن هشام في السيرة ، قال حدثني من أثق به أن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنفق في جيش العسرة في غزوة تبوك ألف دينار ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم أرض عن عثمان فإني عنه راض)[2]

الجهاد بالنفس :

من واجب الدعاة إعداد جيل لا يسترسل أثناء السلم ولا يخلد إلى الراحة فيفقد قوته وبأسه وقدرته على الجهاد ، ولا يستسلم عقب الحرب حين يتحقق له النصر للغضب والحقد والوحشية فيصبح همه الانتقام بالتقتيل والتنكيل والتعذيب ناسياً رسالته السامية التي يجاهد من أجلها ، فاقداً كل رحمة ورغبة في هداية الآخرين وإنقاذهم من العبودية لغير الله التي هي هدف الجهاد .[3]

والجهاد ذروة سنام الإسلام شرع لإزالة الطواغيت التي تقف حجر عثرة في سبيل الإسلام الذي يسعى لتحرير البشرية من العبودية لغير خالقها ، وليس الجهاد في الإسلام حرباً دفاعية كما يظن المتوهمون المهزومون روحياً وعقلياً ممن كتبوا عن الجهاد في الإسلام ليدفعوا عن الإسلام هذا الاتهام يخلطون بين منهج هذا الدين في النص على استنكار الإكراه على العقيدة وبين منهجه في تحطيم القوى السياسية المادية التي تحول بين الناس وبين الإسلام والتي تعبد الناس لغير الله وتحول دون عبوديتهم له ، وهما أمران لا علاقة بينهما ولا مجال للالتباس فيهما ، ومن أجل هذا التخليط وقبل ذلك من أجل تلك الهزيمة يحاولون أن يحصروا

---

(١) رواه أبو داود في سننه رقم (١٦٧٨) في كتاب الزكاة باب في الرخصة في ذلك (في الرجل يخرج ماله) والترمذي في سننه ٥ / ٢٧٧ في المناقب ، وقال الترمذي حديث حسن صحيح .

(٢) سيرة ابن هشام جـ٤ ص ٥١٦

(٣) انظر التربية الاسلامية والمشكلات المعاصرة ص ١٨١

الجهاد فى الاسلام فيما يسمونه اليوم الحرب الدفاعية. والجهاد فى الاسلام أمر آخر لا علاقة له بحروب الناس اليوم،[١] قال تعالى: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)[٢]

فان هذا الدين اعلان لتحرير الانسان فى الأرض من العبودية للعباد، ومن العبودية للهوى أيضا وذلك باعلان ألوهية الله وحده للعالمين.[٣]

والجهاد فى سبيل الله هو الذى يصون المجتمع الاسلامى ويحفظه من الأعداء، وهو أفضل ما تطوع به المسلم ذودا عن دينه أن يحال بينه وبين الناس، وحفاظا على اسلامه أن يعتدى عليه. ولم يصب المسلمون بالقوارع فيذلوا فى عقر دارهم، وتنتهك أعراضهم وتستباح دماؤهم فيذبحوا كالسوائم وتذهب دماؤهم هدرا الا بعد تركهم الجهاد،[٤] وهذا مصداق قوله صلى الله عليه وسلم: (اذا ضن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة، وتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد فى سبيل الله أدخل الله عليهم ذلا لا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم)[٥]
وقوله صلى الله عليه وسلم: (من لم يغز أو يجهز غازيا أو يخلف غازيا فى أهله بخير أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة)[٦]

ولم تقم لهذه الأمة قائمة الا بالرجوع اليه. قال تعالى: (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون)[٧]

وقال سبحانه: (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون)[٨]

وقال سبحانه: (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة)[٩]

وقال سبحانه: (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون)[١٠]

---

(١) انظر معالم فى الطريق، ص ٥٣ .
(٢) سورة التوبة، الاية رقم ٢٩ .
(٣) انظر معالم فى الطريق، ص ٥٣ .
(٤) انظر الخضر عبد الرحيم أحمد، الولاية والأولياء فى الاسلام، رسالة ماجستير مخطوطة بمكتبة جامعة أم القرى بمكة المكرمة.
(٥) الطبرانى فى المعجم الكبير ١٢/ ٤٣٢ رقم ١٣٥٨٣، والامام احمد برقم ٤٨٢٥ اسناده صحيح بمجموع طرقه.
(٦) أبو داود رقم (٢٥٠٣) فى الجهاد، باب كراهية ترك الغزو. وابن ماجة ٢/ ٩٢٣ فى الجهاد، باب التغليظ فى ترك الجهاد حديث رقم ٢٧٦٢ اسناده حسن.
(٧) سورة التوبة، الاية رقم ٤١ .
(٨) سورة الصف الاية رقم ١٠ (٩) سورة النساء الايتان ٩٥، ٩٦ (١٠) سورة التوبة الاية رقم ٢٠ .

وسبب نزول هذه الآية اختلاف الصحابة رضوان الله عليهم في أى الأعمال أفضل ؟ سقاية الحاج ،أم عمارة المسجد الحرام ، أم الجهاد ؟

فأنزل الله سبحانه الآية جوابا على اختلافهم [(١)]

وقال صلى الله عليه وسلم : (غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها) [(٢)]

وقال صلى الله عليه وسلم : (من مات ولم يغزو ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق) [(٣)]

والجهاد في سبيل الله طريق إلى نيل إحدى الحسنيين فهو إما تجارة رابحة وعزة كاملة في الدنيا ، وإما شهادة عظيمة موصلة إلى جنة عالية في الآخرة .

ففى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : (انتدب الله عز وجل لمن خرج في سبيل الله لا يخرجه إلا إيمان بى وتصديق برسلى . أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة ،ولولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية ولوددت أنى أقتل ثم أحيا ثم أقتل) [(٤)].

فالله سبحانه تكفل للمجاهد المخلص لإعلاء كلمته أن يدخله الجنة إذا أخذه شهيداً أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه بالأجر والمغنم ،روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلماته بأن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه) [(٥)]

وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : (كل كلم يكلمه المسلم في سبيل الله يكون يوم القيامة كهيئته نهار إذ طعنت يفجر دما اللون لون الدم والعرف عرف المسك) [(٦)]

فالجهاد كما ذكرنا في هذه النماذج الصادقة مكانته في الإسلام عالية إذ هو : (ذروة سنامه) كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعندما سئل عن عمل يعدله قال للسائل :

---

(١) انظر صحيح مسلم كتاب الامارة فصل الشهادة ج ص عن النعمان بن بشير

(٢) متفق عليه . البخارى كتاب الجهاد والسير الباب الخامس . ومسلم كتاب ١٨ باب ٥١

(٣) مسلم كتاب الامارة حديث ١٥٨ وأبو داود والنسائى كتاب الجهاد

(٤) رواه البخارى في صحيحه جـ١ ص٢ ٩ في الايمان ،باب الجهاد من الايمان حديث رقم (٣٦) والنسائى في سننه ٦/١٦ و١٧ في الجهاد ،باب ما تكفل الله عز وجل لمن خرج يجاهد في سبيله . والامام احمد في مسنده جـ٢ ص٢٣١ .

(٥) متفق عليه رواه البخارى ١٣/ ٤٤١ في التوحيد ومسلم ٣/١٤٩٦ في الامارة ،باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله جـ(١٠٤)

(٦) متفق عليه ،البخارى ١/ ٣٤٤ في الوضوء ،باب ما يقع من النجاسات في السمن والماء رقم ٢٣٧ و٢٨٠٣ و٥٥٣٣ . ومسلم ٣/١٤٩٦ في الامارة باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله حديث رقم (١٠٥)

(لا أجد) ثم قال له: هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر؟ قال: ومن يستطيع ذلك؟)[١]. وخلاصة القول ان هذا هو طريق الخلاص مما وقعت فيه هذه الأمة .

ولقد حاولت هذه الأمة النهوض من وهدتها بغير الرجوع إلى الله، وجربت كثيرا من أنواع العلاج فازدادت حالتها سوءاً . حسن لها العلمانيون الاكتفاء من الدين بما فهمه الغرب، ولكن الإسلام، كما كان عليه محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه، عقيدة وسلوك، ومنهج يشمل كل جزئيات الحياة فلا يمكن إصلاح جزء داخل هذا الإطار بدون ارتباطه بأصله فهذا هو الطريق للإصلاح، والعلاج الشافي لضعف هذه الأمة، وهو طريق تكتنفه الصعاب وتحفه المخاطر. وهو طريق شاق طويل ولكنه مجرب صحيح مع الاعتماد على الله والصبر والحذر وأخذ العدة والزاد اللازم حتى يحقق الله لهذه الأمة من النصر ما حققه لأسلافها حيث مكنها في الأرض وفتح لها العالم المتمدن في أقل من ثلاثين سنة وهي موعودة بذلك: (يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)[٢]

---

(١) اللؤلؤ والمرجان في ما اتفق عليه الشيخان ج ٢ ص٣٠٠ ح١٢٣٣

(٢) سورة محمد صلى الله عليه وسلم، آية رقم ٧

الفصل الثانى

السودان وطرق مواجهة التنصير

المبحث الأول : تجربة المواجهة الغربية

كل ما ذكر من طرق المواجهة أمر لا بد منه لصد التيار الجارف الموجه من ملة الكفر نحو الإسلام فى جميع بلاد المسلمين وهى معركة تختلف باختلاف المواقع ،فتتفاوت من بلد لآخر وهى فى السودان أشد ضراوة لموقعه الوسط من قارة أفريقيا التى يركز الغرب عليها ويعتبرها منطقة نفوذ له ،تمده بثرواتها الغنية ومنتجاتها الزراعية ،وسوقًا لا ستهلاكسلعه التجارية وليس هنالك مايحول بينه وبين تحقيق أطماعه سوى الإسلام ،ويعتبر السودان الموصل الأول له لما امتاز به من وسطية الموقع حيث يجاور عددًا لا يستهان به من أقطار القارة البكر ،كما هو نموذج مصغر للقارة من حيث المناخ والسكان مضافا إلى ذلك ثقافته الإسلامية ولغته العربية ، وقد فطن الغرب إلى أنه موصل جيد للإسلام فسارع للحيلولة دون ذلك بشتى الوسائل بدءً بالبعثات التنصيرية الأولى من عهد (سبيك ،وصموئيل ،وغردون) ثم الاحتلال ومحاولة استئيصال الإسلام من شماله بعلمنة التعليم ،ومحاولة تفتيت القطر وسن قانون المناطق المقفلة ومحاربة اللغة العربية ،ووضع الأحزمة المتعددة أمام تقدم الإسلام المندفع من الشمال والغرب نحو جنوب القارة وشرقها ،وما زالت حكومات الغرب تلقى بثقلها نحو هذا الهدف وترصد الأموال الطائلة وتنشئ المعاهد الكبرى لأعداد الشباب للعمل فى هذه المناطق ،وتتوارى خلف هذه المؤسسات الكثيرة التى تتلون بألوان شتى وتتخذ أسماء متعددة فتارة باسم التنمية وتارة باسم الإغاثة ،وأخرى بالخبرات الفنية ،وهى فى حقيقة أمرها مؤسسات كنسية مدعومة ماديا ومعنويا من الداخل والخارج . فمن الداخل تجد كل عون وتسهيل من الحكومتين المركزية والإقليمية كماسبقت الإشارةلذلك ومن الخارج تدعم بالمال والرجال .

فنشرتالذعر والخوف باسم السلام ،والخراب والدمار باسم التنمية ،والأحقاد والضغاين باسم المسيحية وتمد المتمردين بالأسلحة والمؤن ،وفى الجنوب كما أشرنا إلى ذلك أكثر من ستين منظمة كنسية تعمل باسم التنمية وهى فى حقيقتها من أكبر المعوقات والعقبات فى وجه تقدم الاقليم[1] وكثير من أفرادها رجال استخبارات وتعتبر الفاتيكان على صغر حجمها أكثر دول

---

(١) انظر ص٢٢٥ من هذا البحث .

العالم الماما بدقائق أخبار الدول الداخلية سياسيًا واجتماعياً واقتصاديًا وثقافياً ، فتعرف مواطن ضعف الدول ، ومواطن قوتها لكثرة انتشار المبشرين الكاثوليك التابعين لها المنتشرين في جميع أنحاء العالم مما أهلها لأن تكون أعلم الدول بما يجرى في العالم[1] وهذا أمر تدركه الدول الغربية جيداً ويجهله كثير من المسلمين أو يتجاهلونه، ففي أثناء الحربين العظميين عامل رؤساء الدول المبشرين معاملة المحاربين ، فأسر من أسر وأبعد من أبعد وهو أمر شائع ، وحدث في السودان إبان الفترة الاستعمارية وكذلك في سنة ١٩٦٤ ، كما حدث في الحبشة سنة ١٩٣٥ وفي الصين سنة ١٩٥٠ .[2]

ولقد فطن لهذا الخطر أفراد من المسلمين في الشمال والجنوب وجاهدوا في سبيل نشر الإسلام ، وعلى الرغم من قلة الإمكانات وضيق ذات اليد وضراوة الحرب فاق أثرهم الإسلامي في مدة وجيزة ما فعله النصارى في وقت طويل مع توفر الإمكانات ، الأمر الذى يبشر بأن المسلمين إذا بذلوا الجهد المستطاع من القوة والعتاد فسيكون النصر حليفهم بإذن الله ، والمستقبل لدينهم دين الفطرة ، ونذكر على سبيل المثال بالإضافة إلى جهود الزبير باشا المشار إليها آنفا جهود رجلين استيقظا مبكراً وانتبها لخطورة التنصير ، وعملا على التصدى له ثم نتطرق بايجاز كذلك لمنظمة الدعوة الإسلامية التى تحاول أن تجمع الجهود لمواجهة هذا الخطر المسلط على القارة بأسرها .

١- **الرجل الأول** هو الشيخ محمد الأمين القرشي :

من مواليد سنة ١٣٠٨هـ[3] حفظ القرآن في خلوة جده الشيخ القرشي شيخ المهدى ، وتلقى العلم (برفاعة) على بعض العلماء ثم ذهب إلى كلية غردون وبعد تخرجه عمل مدرسًا ثم قاضيًا ، وكان محبا للعلم مجالسا للعلماء وتنقل للعمل في مدن السودان المختلفة ، وفي سنة ١٩١٧ نقل لغرب السودان ، فساءه عمل المنصرين فعزم في نفسه انه إذا تقاعد عن الخدمة أن يسكن هذه المنطقة ويدعو فيها إلى الله لأنه قرأ في صحيح

---

(١) انظر التبشير النصراني ، ص ٢٣

(٢) المرجع نفسه ص ٢

(٣) د . أحمد عبد الرحيم نصر ، الادارة البريطانية والتبشير الاسلامي والمسيحي في السودان ، دراسة أولية ، ص ٧٤ ، طبعة وزارة التربية والتوجيه والشئون الدينية والاوقاف.

البخارى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم للإمام على بن أبى طالب: (لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم)[1]

وفى سنة ١٩٣٢ نقل للعمل بمدينة عطبرة وبعد ثلاثة أيام من وصوله جاء أحد مسلمى القرية (١٤) وهى قرية تكونت حديثا من فرقة عسكرية نوبية مسلمة سرحت[2] من الجيش، فجاء أحد القسس وعمل بها كنيسة من الخشب، وصار يوزع الطعام والكساء على بعض أفرادها، ويذهب إلى الخلوة حيث يتعلم الأطفال القرآن الكريم، ويعطى كل طفل حديدة كتب عليها (قرشان) وهو عبارة عن تعهده بدفع قرشين لكل طفل يحضرها له إلى الكنيسة. فذهب الشيخ إلى المسجد وعقب صلاة الجمعة خطب الناس ونبههم إلى خطورة عمل القسيس، وعلم أن الخوف هو الذى يحول دون احتجاجهم، فدعا بعضهم إلى مقابلته فى اليوم التالى بالمحكمة وكتب احتجاجاً طويلاً للمفتش فجاءه المفتش وادعى بأنه لا علم له بذلك، فقال له الآن قد علمت فامنع هذا القسيس من المسلمين، ولكن المفتش كان على علم وأمر بعض الأعيان بالذهاب إلى القاضى ليكف عن الموضوع، ولكن القاضى أبى عليهم واستهان بكل مايحدث، وكتب إلى المفتش إذا لم يغادر القسيس القرية، وتزال الكنيسة حتى الساعة الثانية عشرة سوف ترى مايكون[3]، فأصدر المفتش أوامره بإزالة الكنيسة، ومنع القسيس، وعزم على إحالة القاضى إلى التقاعد، وكتب بذلك للسكرتير القضائى فأحيل القاضى إلى الكشف الطبى تمهيداً لإيقافه فسأله الطبيب الانجليزى عن عمره فقال: مائة سنة، وعن قوة إبصاره فقال: لا أرى شيئا فضحك الطبيب وكتب تقريره بأن الرجل سليم الحواس فإذا أردتم فصله فأفصلوه.[4]

واستمر الشيخ فى الخدمة حتى سنة ١٩٤٦ وفى سنة ١٩٤٨ كما يروى ذلك قائلا: (طلبتنى الكلية للعمل فيها مدرساً لتدريس الشريعة، وفى أثناء ذلك تذكرت تلك الكلمات التى عاهدت الله بها فى جبال النوبة فشغلت تفكيرى فتقدمت باستقالتى على الرغم من عتاب الناس - كيف تستقيل وأنت تأخذ معاشاً وراتباً فى وقت واحد؟ - فقلت لهم: عندى أمر فلما قبلت

---

(١) متفق عليه: البخارى ٦/١١١ فى الجهاد، باب رقم (١٠٢) حديث (٢٩٤٢). ومسلم ٤/١٨٧٢ فى فضائل الصحابة، باب فضائل على رضى الله عنه، حديث رقم (٣٤)

(٢) أنهيت خدماتها فيه

(٣) الادارة البريطانية والتبشير الاسلامى والمسيحى فى السودان ٧٩/٨٠.

(٤) المصدر السابق، ص ٨١

استقالتي كتبت للحاكم العام الانجليزى فقلت لـه : (أنتم أناس طيبون كفلتم حرية الأديان وأنا رجل من السودان والجبال والجنوب كله وطني ، وهناك كثير من القسس يبشرون بدين عيسى ، فأريد أن تسمحوا لي بالتبشير بدين محمد ، فحول طلبي إلى السكرتير الإدارى (روبرتسون) فرأى أنه طلب غير معقول أن يسمح لرجل من السودان بالتبشير بالإسلام في منطقة مقفلة للمسيحيين لا يدخلها غيرهم ، حتى إذا دخلها حيوان لعربى مسلم لا يحق لـه الدخول بحثا عنه إلا باذن.[1]

واحتفظ بالطلب فلم يرد عليه ، وبعد مدة ذهبت إليه فقلت له : لماذا لم ترد على طلبي فقال : هذا عمل كبير جداً وأنت لا تقدر عليه ، فنحن لا نصدق ولا نرد عليك . قالها بلهجة غليظة فأجبته : أنكم تزعمون حرية الأديان ، والبلد بلدى فأنا ابن السودان تمنعونى ؟ سأشتكيكم إلى الحكام في البلاد الإسلامية ! ! فرد عليّ : افعل ماشئت . وحاولوا تسليط السادة الكبار ليعيدونى إلى الخدمة في وظيفة مفتى السودان فأبيت . وزار السودان (القدال) أحد وزراء حضرموت معلنا رغبة ملكها في تعيين قاضى قضاة سودانى براتب كبير قدره مائتا جنيه ووسطوا السيد عبد الرحمن المهدى لأقبل هذه الوظيفة المغرية فأبيت.[2] ثم كتبت لأعضاء الجمعية التشريعية ورئيسها وكانوا أربعة وستين مسلما لكل خطاب مستقل وأطولها خطاب رئيسها الشنقيطى رحمه الله . قلت فيها : إن الحكومة منعتنى من التبشير بالإسلام ، وأنتم أهل الحل والعقد ، فإذا كان هذا صحيحاً فإما أن تصدقوا لي بالتبشير بالإسلام وإما تخرجوا جميع القسس من السودان ، وإما أن تكونوا كاذبين وسأذهب إلى مصر واستصدر فتوى شرعية من علمائها بكفركم ! ! لأنكم تحولون دون نشر الإسلام في تلك البلاد .

فذهبوا إلى السكرتير الإدارى وقالوا له إن الحق مع هذا الرجل ، إما أن تأذنوا لـه بالعمل للإسلام أو تخرجوا المبشرين فأسقط في يده[3] ، وعمل جميع حيله السرية والعلنية ليحول بيني وبين التبشير ، ولكنها باءت جميعها بالفشل للضغط من الجمعية ومني ، ولكثرة التلغرافات والخطابات وأخيراً جاء التصديق بالعمل كتابة فقرأته في الجامع الكبير بأمدرمان وكان في الناس تخاذل وخوف فتوكلت على الله ، وتكونت لجنة في أمدرمان ، ثم ذهبت إلى

---

(١) انظر المصدر السابق ص٧٧ / ٧٨

(٢) نفس المصدر ص ٧٨

(٣) نفس المصدر ص٧٨ / ٧٩

الأبيض ،وهي بلدة معروفة بالنسبة لي لأني عملت بها مدرساً ،وقاضياً ،وكونت بها نواة للعمل ثم ذهبت إلى الدلنج ،فوجدت أمامي رجلاً من قبيلة النيمانج اسمه (انجلو) كان جنديا حتى صار (جاويشا) وعندما أسلم طرد فسكن مع العرب ،وعندما سمع بمقدمي جاءني فعلمته فرائض الإسلام وأسميته (صديق) وعينته مؤذنا للمسجد ،وكان رجلاً على التزام كامل بالإسلام في نفسه وأسرته ،فلا يدخل على نسائه أجنبي ،فاشتهر بالعفة والأمانة ، فكان المسافر يحفظ عرضه في بيته .

ثم أسلم الملك (كنده كربوس) فكان نعم العون لي يقوم بالترجمة لكلامي لتمكنه من العربية ،وضحى بوظيفته وصحبني للدعوة إلى الله ،وبدأ الإسلام ينتشر في المنطقة وكانت (بسلارا) مدرسة تبشيرية أنشئت قبل خمس وعشرين سنة ،وبها قسيس ،فاتصلت بالمكوك والكجرة[1] وآباء الأطفال ، وحذرتهم من عمل القسيس ،وساعد في ذلك أني كتبت للملك فاروق عندما سمعت أنه يوزع الهدايا بمناسبة مولوده الجديد قائلاً له :إني في بلد بها كثير من المسلمين العراة المعدمين واحتاج إلى قدر من الملابس ،فوجه بإعطائي ما احتاج ،فجاءتني سيارة محملة بالأقمشة ،فأراد المفتش أن يشاطرني فيها ،فقلت له : هذه هدية مسلم للمسلمين ولا يمكن أن أعطيك منها شيئاً فوزعتها باسم فاروق المسلم فكان لها وقع طيب في النفوس فاستجاب أولياء أمور التلاميذ ودعوتهم إلى الإسلام فأسلم الجميع وفي يوم الأحد دعاهم القسيس إلى الصلاة فقالوا له لا نصلي صلاة النصارى لأننا مسلمون وبصوت متحد قالوا :لا إله إلا الله محمد رسول الله .فخر القسيس مغشيا عليه وأخذ إلى المستشفى وبعد أن أفاق ذهب إلى المفتش ،ثم المدير ،واتصل بالخرطوم وقال :ان هذا الرجل أفسد علينا المدرسة ولها خمسة وعشرون عاما فأوفدت الحكومة وزير المعارف ومديرها ، وكان المدير انجليزيا للنظر في أمر هذه المدرسة فثبت جميع التلاميذ على دينهم وعندما أراد المدير الكلام أسكته التلاميذ بقولهم :أنت ابن عم القسيس فلا نقبل منك ،فطلبت منهم إبعاد هذا القسيس من المدرسة المسلمة ،فقالوا : يبقى لعلاج التلاميذ .فأبيت ذلك ،فصحبهم غير مأسوف عليه[2]

---

(١) المكوك : جمع مك وهو لقب لرئيس المنطقة القبلي الذى تتحاكم اليه القبيلة .
الكجرة : جمع كجور وهو الذى يمارس الشعوذة والسحر في المنطقة التي تغلب فيها الوثنية كـ(النفكي) في مناطق الجهل في المجتمع الاسلامي

(٢) المصدر السابق باختصار ص ٧٩/٨٧

وهكذا بجهد قليل وامكانات محدودة كان هذا الأثر الطيب ،والثمرة المباركة ولم تكن جهود هذا الداعية محصورة فى غرب السودان بل ذهب كذلك إلى جنوب السودان وكان له أثره الواضح . نسأل الله سبحانه أن يرفع درجاته فى الصالحين .

٢- الرجل الثاني : الزعيم عيسى أحمد فرتاك

وهذا الرجل من أبناء المديريات الجنوبية وهو من مواليد سنة ١٩١٠ وهو أحد أبناء قبيلة الفروجي تلقى تعليمه على يد شيخ من البرنو يسمى (محمد) فعلمه القرآن والكتابة والعربية ،فأسلم على يديه ،وحسن إسلامه فصار داعياً مخلصاً لدينه ثم خلف والده على زعامة القبيلة فحكم بالقسط ،وكان محبوباً من أفراد القبيلة ومن التجار (الجلابة) فى راجا .

اعتبره الانجليز عقبة كأداء فى سبيل سياستهم الرامية إلى إبعاد المسلمين من المنطقة فشغلهم أكثر ما شغلهم بإبعاد التجار وترحيلهم إلى الشمال لأن موقعه كداعية للإسلام مع زعامته للقبيلة أقض مضاجعهم ،وخاصة عندما أبدى استياءه من سياستهم الرامية إلى طرد التجار المسلمين ،وزاد غضبه عندما فصل الإنجليز قبيلتي (الباندا) و(الكريش) من سلطنته والحقوهما بزعمائهم تقليصاً لسلطته ،فكتب فى سنة (١٩٣١) إلى عبد الحميد أمير (زالنجى) يسأله عن مخرج وخاصة بعد طرد العرب من (راجا) وحظر استعمال اللغة العربية ،ومحاولة فرض النصرانية بالقوة على سكان مديرية بحر الغزال ،فانزعج السكرتير الادارى (ماكمايكل) لهذا الاتصال ،ورأى بروك Brock أن يسترضيه كزعيم للفروجي . وكان فرتاك ذكياً ومتعلماً فطلب السماح له بتعليم عربى له ولأفراد قبيلته التى تضم ٦٨٩ من دافعى الضرائب للحكومة ، وتمثلت موافقة بروك فى السماح له بـ (فكيين)(١) ومنحه راتباً شهرياً مقابل زعامته للقبيلة ،كما التزمت الحكومة بتشييد سكن له على نفقتها وسط أفراد قبيلته بخور شامون بالقرب من (راجا) كل هذا الاسترضاء لم ينه معارضته وإن أضعفها بعض الضعف مما أغضب كلا من (كد Kidd) (وسمسون Simson) فخفض الأخير راتبه إلى النصف فاشتدت ثورته على الحكومة ،وهددها من مركز سلطته . وظلت الحكومة تسترضيه مرة وتتغاضى عنه مرات ولكنها كانت تضمر له سوءاً وتمهد لعزله ونفيه . فواتتها الفرصة عندما تقدم بطلب لإنشاء مدرسة عربية بمدينة راجا فرأت الإدارة أنه تجاوز حده ، فدعت لاجتماع لقبيلة الفروجي ترأسه بيثيل Bithel وتم عزله وعين أخوه تميم بدلا عنه ونفى عيسى إلى مدينة الفاشر بمديرية دار فور.(٢)

(١) تثنية (فكى) وهو معلم القرآن للاطفال وامام المسجد . وهى تحريف لكلمة (فقيه)

(٢) Shadows in the grass P 190

المبحث الثاني

تجربة المواجهة المنظمة

كما أنه قد كانت هناك جهود فردية منظمة فكذلك قامت هيئات إسلامية للدعوة الإسلامية ومواجهة التنصير، كهيئة النشاط الاسلامي ومنظمة الدعوة الاسلامية.(١)

ونكتفي بمنظمة الدعوة الإسلامية كمثال للعمل الجاد لنشر الإسلام، ومواجهة التنصير، ونتعرض لبعض العوائق الكبيرة المتعددة التي تواجه هذه المنظمة، ولا نتعرض لنظامها الأساسي كيفية تكوينها، وتمويلها، فغاية ما يهم البحث أنها أول عمل ناضج جاد أفزع أعداء الإسلام في الداخل والخارج لأنهم أدركوا تقدم الإسلام وزحفه رغم شتات المسلمين، والعوائق التي وضعوها أمامه فكيف إذا دخل حلبة الصراع بنظام مخطط ومنهج واضح متفق مع الفطرة لا يفصل بين الدين والدنيا.

شرعت المنظمة تقدم للناس الإسلام في منهجه المتكامل، وبدأ الناس يدخلون أفواجا في الدين فجن جنون الصليبية وحركت جنودها عالمياً ومحلياً لإعلان الحرب على المنظمة.

نماذج من وسائل حرب الصليبية لمنظمة الدعوة الاسلامية:

أ- عقد مؤتمر كنسي بين ١٥-٢٢ من فبراير سنة ١٩٨٢ شارك فيه (٤٤) مبشراً يمثلون منظمات كنسية عالمية ومحلية، كما شاركت فيه حكومة الاقليم الجنوبي بممثلين لها حيث تقدم كل من نائب الخدمات الصحية، ومدير قسم الشئون الدينية بوزارة التربية والتوجيه الإقليمية بورقة عمل دعوا فيها للتكامل بين أنشطة الكنيسة والحكومة الإقليمية، واشتملت بعض هذه الأوراق التي قدمت في المؤتمر على إحصائيات دقيقة عن نشاط المؤسسات الإسلامية داخل السودان وخارجه مما يدل على الرقابة المحكمة الدقيقة على العمل الإسلامي.

افتتح المؤتمر سكرتير مجلس الكنائس السوداني، وبدأ كلمته بتحية للسيد يونياس ناسيوشن ممثل مجلس الكنائس العالمي - جنيف - في المؤتمر، والذى تقدم بالورقة السادسة ذكر فيها تجربة التبشير في اندونيسيا البلد المسلم واثنى على نجاح التجربة رغم الأخطاء الكبيرة إذ ارتفع عدد

---

(١) تم تسجيلها رسميا في ١٧ من ذي الحجة ١٤٠٠هـ الموافق ٢٦ / من اكتوبر ١٩٨٠

النصارى إلى ٢٪ من العدد الكلي للسكان . أما القس جوشوا اوديا و مدير الشئون الدينية بوزارة التربية الاقليمية فتقدم بالورقة الرابعة فقال : إن الإسلام يعمل جاهداً في تدريب المعلمين إذ تخرج جامعةامدرمان الإسلامية وجامعة الأزهر ٦٠٠ من أبناء الاقليم الجنوبي لتعليم الإسلام ، ولابد من جمع الجهود لتغطية هذه المساحة .

والورقة الخامسة تقدم بها فهمي سليمان رئيس العلاقات المسيحية الإسلامية بمجلس الكنائس السوداني ، والسكرتير التنفيذي لجمعية الكتاب المقدس بالخرطوم ، وموضوع ورقته الحوار مع العقائد الأخرى .

فقال : إن الهدف من الحوار قبول دعوة المسيح وليس مقارنة الأديان ، وكلمة (الأديان الأخرى) في حالة السودان تعني الإسلام بالتحديد ، وخرج المؤتمر بتوصيات كثيرة منها على سبيل الايجاز :

١- الاهتمام بالمرأة والشباب

٢- على مجلس الكنائس السوداني دعم الكنائس ماليا وتنظيم العمل .

٣- على المؤسسات الحكومية أن تهتم بالتنمية والتعاون مع الكنيسة .

٤- يجب أن تكون الخدمات بصفة عامة والتعليم والصحة بصفة خاصة وسيلة للتنصير.(١)

ب - **مجلس الشعب الاقليمي ومستشفى صباح**

أجاز مجلس الشعب الأول لاقليم الاستوائية في جلسة رقم (٣٠) في دورة انعقاده الرابع بأغلبية (٣٣) صوتا الاقتراح الآتي نصه :

أ- ان مجلس الشعب الأول لاقليم الاستوائية بعد المطالعة والفحص الدقيق للاتفاق المبرم بين الحكومة الاقليمية السابقة للاقليم الجنوبي ومنظمة الدعوة الاسلامية نيابة عن الممول (رابطة العالم الاسلامي) لمستشفى صباح للأطفال يقرر الآتي :

- إبطال مفعول الاتفاق .
- توضع إدارة المستشفى المذكور تحت إدارة الوزارة الاقليمية للخدمات العامة باقليم الاستوائية إلى حين التوصل إلى اتفاق مقبول بين الطرفين .
- يجب أن تفحص كل نشاطات منظمة الدعوة الإسلامية وأن تتمشى مع طموحات اقليم الاستوائية .

---

(١) ملخص باختصار من تقرير ورشة العمل المسيحية التي عقدها مجلس الكنائس السوداني بجوبا بين ١٥-٢٢ من فبراير سنة ١٩٨٢

وقرر المجلس أن ترفع هذه القرارات إلى حاكم الاستوائية . وقد انسحب من الجلسة قبل التصويت على الاقتراح المجاز ستة أعضاء ، خمسة منهم مسلمون ، والسادس متعاطف معهم.[(١)]

جـ - دعا كل من (ساولولينو لولود و لارو) رئيس أساقفة الكاثوليك - عن الكنيسة الارثوذكسية بجوبا ، و(البنا تانولامور) رئيس الكنيسة الأسقفية البروتستناتية بجوبا ، اللواء (بيتر سيريلو) حاكم إقليم الاستوائية - جوبا - إلى اجتماع في نوفمبر سنة ١٩٨٥ وانحصر الاجتماع في مناقشة خمسة بنود اشتملت على كيفية مواجهة العمل الإسلامي ، وهذه البنود هي :

١- الخطة العربية الإسلامية في مرحلة التنفيذ .
٢- إجازة الدستور الانتقالي .
٣- ظهور منظمة الدعوة الإسلامية .
٤- توزيع الأرض .
٥- موقف الكنيسة .

فجاء في تقرير الاجتماع:

أ- انحصرت خطة الأسلمة في الآتي :

١- المال المتدفق على الاقليم في شكل إغاثة وصحة وتعليم ومدارس ، ومشروعات تنمية وهدايا لتأليف القلوب بما في ذلك قلوب الزعماء .

٢- انتشار الحوانيت العربية في المدن والأرياف بهدف جذب الناس إلى العروبة والإسلام ، فعمل العرب على نشر ثقافتهم بجد .

٣- التزويج بالجنوبيات المسيحيات حتى يتسنى لهم إنجاب جيل يدين بدين آبائه المسلمين ، وبذلك تضيع هويتنا الأفريقية المسيحية .

٤- اتساع نطاق تعليم القرآن في الجنوب وتشييد دور العبادة في كل ركن من أركان مدن الاقليم .

وهناك حقائق كثيرة كان يمكن أن تذكر عن هذا الزحف ، ولكنا نكتفي بهذا القدر .

ب - اجازة الحكومة الانتقالية للدستور الانتقالي حيث نص في هذا الدستور أن الشريعة الإسلامية هي أساس القوانين .

---

(١) نشرة سونا الخاصة بتاريخ ١٤/٧/١٩٨٤

ونحن نتساءل إلى متى سيدوم هذا الدستور؟ من الذى سيقوم بتعديله؟ ومن الذى يطمئننا بأن قوانين الشريعة الإسلامية ستلغى ؟ وأنها لن تضمن فى الدستور الجديد الدائم؟

وتعلمون معاليكم أن قوانين الشريعة الإسلامية قد فرضت فرضاً بواسطة نظام نميرى المندحر ،وقد قامت معارضة قوية ضد هذه القوانين من كافة المسيحيين ،ومن فئات أخرى كثيرة عارضتها لأنها دكتاتورية ظالمة ،ونحن نعلم أن الفئات التى تحمل السلاح تعتبر الغاء هذه القوانين من أولى أهدافها[1] ،ولقد صدمنا و تألمنا لما رأينا الأصوات التى تطالب بالعدالة وحقوق الإنسان لا تجد أذنا صاغية بل تقهر!!

جـ - منظمة الدعوة الاسلامية :

إن هذه المنظمة أداة لنشر الإسلام ،وهى معروفة لنا تماماً بأنها تقوم بالدعوة الإسلامية ،ولها مكتب رئيسى فى جوبا . نحن لا نعرف كيف أتت هذه المنظمة إلى جنوب السودان ؟ هل تقدمت بطلب للعمل فى الجنوب وأخذت إذننا بذلك؟ هل قدمت لها دعوة للعمل فى الجنوب؟ فإن كانت الإجابة بنعم فمن الذى قدم لها الدعوة لدخول الجنوب؟ نحن نعتقد أن المنظمة أتت لتضع الخطة العربية الإسلامية موضع التنفيذ فى الاقليم الاستوائى وفى مدينة جوبا بشكل خاص نجد هناك تسرباً إسلامياً إلى المرافق المختلفة وبرنامجا قوى التأثير لوضع قوانين الشريعة الإسلامية موضع التنفيذ فى اقليمنا الافريقى المسيحى .

إن هذه الجهة التى ترعى هذا العمل وتقوده لتطبيق قوانين الشريعة الإسلامية هى منظمة الدعوة الإسلامية .

قدمت منظمة الدعوة الإسلامية نفسها للحكومة من أجل إصلاح المدارس القائمة وبناء أخرى جديدة فى المدن والأرياف نيابة عن الحكومة وهى بصدد إنشاء مدارسها الخاصة التى ستكون تحت إدارة إسلامية مستقلة ،إنها تقدم الإغاثة فى شكل أموال لشراء المواد الغذائية من الأرياف بابخس الاثمان وتتولى بنفسها مسئولية توزيعها فى الأماكن المتضررة.

أما بنك فيصل الإسلامى فهو يعطى القروض للعرب المسلمين فقط ،إنه يهدف بجانب

(١) يقصد حركة المتمرد جون قرنق .

أهداف أخرى إلى شراء كل المواد الغذائية بأبخس الأثمان من المزارعين ثم بيعها للجمهور بأغلى الأثمان ـ صاحب المعالي ـ إننا نعتقد أن أهداف منظمة الدعوة الإسلامية وخططها تحمل فى طياتها سمًا زعافًا لمواطنينا ،فالمساعدات للإغاثة والمراكز الصحية ،ومشاريع التنمية تتدفق على الجنوب بواسطة المنظمة ،تخفى وراءها أهدافًا خطيرة ،وهى بالتحديد تعريب وأسلمة قومنا فى الجنوب. نحن نطالب بإيقاف نشاطات هذه المنظمة ولا نسمح لها بأى دور مباشر فى عمليات الإغاثة والصحة والتعليم. ويجب أن تسلم كل أموالها للحكومة الإقليمية لتقوم الحكومة وحدها بهذه المشاريع وإننا نطالب الحكومة والسياسيين فى الجنوب بتوعية المواطنين بأهداف منظمة الدعوة الإسلامية ،وخاصة وسط المواطنين وزعماء القبائل بل نطالبهم باليقظة الدائمة ورفض كل نشاطات هذه المنظمة.(١)

د - توزيع الأراضى :

اتضح بكل أسف أن معظم أراضى جوبا وبعض الميادين قد أعطيت للعرب المسلمين - إننا نطالب سيادتكم - بوقف أعمال البناء فى هذه الأراضى والميادين ،ونطالب كذلك بنزع الأراضى التى خصصت للعرب والمسلمين على طريق جوبا الرجاف.

هـ - إن الكنيسة بنيت على الحب ،وهى تعمل وفق مبادئها السامية وهى إنما تدعو إلى الإخاء بين كل بنى البشر من أجل السلام والعدل ،وإنها ضد الحقد والعنف ،وهى لا تتعاطف ولا تتعامل مع الجهات التى تؤمن بالعنف لحل الخلافات ،وهى تصلى للرب أن يزرع المحبة فى قلوب الناس جميعا .

صاحب المعالى :

لا نود أن ينظر إلينا أننا نريد إحداث احتكاك بين الناس ولكنا نريد لهم العيش فى محبة وسلام ولكننا فى نفس الوقت نؤكد خوفنا الدائم وهاجسنا المؤرق هو ما يقوم به العرب

---

(١) سبحان الله تسمح الحكومة لأكثر من مائة هيئة تنصيرية فى مجال التنصير والتنمية فى جنوب السودان منها ٦٣ هيئة كنسية أجنبية أتت من وراء البحار من مختلف الأجناس، ومع هذا يطالب القسس بطرد منظمة وطنية واحدة لأنها تعمل باسم الإسلام لتعليم أبناء المسلمين المضطهدين الذين حرمتهم الكنيسة التى تحتكر التعليم والصحة أبسط مراحل التعليم وجعلت التعميد شرطاً لقبولهم :

وصدق شوقى حين قال :

أحرام على بلابله الدوح * حلال للطير من كل جنس

المسلمون من نشاطات وخطط الأسلمة ،وتعريب جنوب السودان وبخاصة الاقليم الاستوائى، إذ يهدف العرب إلى ارباكا وتقسيمنا[1] حتى نتقاتل فى المستقبل القريب لأننا سيكون بيننا كثير من الذين تم تعريبهم وأسلمتهم.

وختم القسان لقاءهما بالدعوة بالتوفيق لصاحب المعالى لاتخاذ القرارات المناسبة التى يتطلبها الوضع الراهن.[2]

ونقول لهما هل يصدق عاقل أن الكنيسة بنيت على الحب بعد كل ما تقدم من الحقد والكراهية والاستعداء على الإسلام والمسلمين؟ وإن سلمنا أنها قديماً كانت كذلك فهى اليوم على خلاف ذلك.

فهل ما دعا إليه هذان القسان هو المبادئ السامية والدعوة إلى الإخاء بين بنى البشر جميعاً، أم هو ادعاء فارغ لا أساس له من الصحة ؟ وهذا الموقف تجاه المنظمة ليس بغريب من ملة الكفر فقد ظلت تعامل المسلمين معاملة قاسية عندما يكون بيدها زمام الأمور ففى الحبشة وقعت أغرب محاولة لتنصير المسلمين سنة ١٢٧٨م بعد اعتلاء الامبراطور (يوحانس) عرش الحبشة بمعاونة الانجليز، حيث دعا أعضاء الكنيسة الحبشية إلى اجتماع قرروا فيه وجوب الاقتصار على دين واحد ،وعقب الاجتماع أصدروا انذاراً بحرب المسلمين إذا لم يقبلوا التنصير أو الجلاء عن أوطانهم وأملاكهم إلى خارج المملكة ،وحددوا لتنصيرهم مدة أقصاها ثلاثة أشهر ،ومارس (يوحانس) أقبح الفظائع الوحشية لينزع الايمان من القلوب والهداية من النفوس وقضى على المسلمين فى مملكته بدون ذنب إلا أن يقولوا ربنا الله، وفى سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٣م كانت العاصمة (غندار) خالية من المسلمين تماما ،فقد تنصر ضعاف الايمان وهاجر كثير إلى السودان، فقاد (يوحانس) جيشه لتعقب المهاجرين وغزوا السودان بمعاونة الإنجليز وهاجم مدينة (القلابات) بمائتى ألف مقاتل وكاد يستولى عليها لولا لطف الله سبحانه ،فقتل فى ١٠ مارس سنة ١٨٨٩م[3] وتفرق جيشه شذر مذر .

---

(١) ينسى هؤلاء القسس أن الكنيسة عملت على تفرقة الجنوبيين حتى أبناء القبيلة الواحدة الذين ينتسبون الى كنيسة واحدة لا تجمعهم الصلاة فيها حيث يدخل كل فرع لإداء الصلاة بلهجته التى تخالف الفرع الآخر وهى تريدهم كذلك! فأى تقسيم هذا اذا كانت عباداتهم لا تجمعهم!؟

(٢) معلومات من توصيات الاجتماع الذى عقد بتاريخ ١٦/١١/١٩٨٥م.

(٣) انظر أبا أحمد الاثيوبى ،الاسلام الجريح فى الحبشة بلاد النجاشى أرض الهجرة الأولى، بدون تاريخ، وانظر حقائق عن التبشير ،ص ٧١ .

ولا يزال الأحباش ملوكاً ونصارى يواصلون الهجوم على الإسلام ويحاولون الاستيلاء على مدن السودان الشرقية بمعاونة الروس والأمريكان كما يواصلون اضطهادهم للمسلمين . حيث تبلغ نسبة المسلمين ٦٥٪ من مجموع سكان الحبشة ولا يوجد لهم تمثيل فى مناصب الدولة العليا ، فلا نجد مسلماً يشغل منصب وزير أو عضواً فى المجلس الانتقالى الحاكم ، وهذا هو واقع المسلمين فى أكثر البلاد الأفريقية ، حيث تحالف الاستعمار مع التنصير لحرمانهم من التعليم ، وما تزال المؤسسات الكنسية التى نجحت بمساعدة الاستعمار فى السيطرة على التعليم تجعل التعميد شرطاً لدخول مدارسها فى كثير من المناطق الأفريقية كما فى الجنوب السودانى مثلاً ، وقد نجحت كذلك بمعاونة الاستعمار الذى أعلن الحرب على المؤسسات التعليمية ذات الصبغة الإسلامية بقيام مؤسسات علمانية خرجت الرواد العلمانيين الذين اضطلعوا بمهام الحكم فى البلاد الإسلامية فكانوا أعنف فى حربهم للإسلام والمسلمين من الاستعمار وأعوانه الصليبيين كما اهتمت هذه المؤسسات الكنسية بتعليم النصارى وأسندت اليهم مقاليد الحكم فى بلاد يفوق فيها عدد المسلمين النصارى فأصبحوا لا وزن لهم وأوضح مثال على ذلك الحبشة وتنزانيا ويوغندا وأفريقيا الوسطى ، ومع هذا الحرمان المرير من نعمة التعليم حيث خيم الجهل على أغلبهم كذلك رماهم بالفقر ليشغلهم بمكابدة العيش ويسلبهم روح المقاومة .

وفى مقابل هذا نجد النصارى معززين فى مجتمعات أكثر سكانها المسلمون كما فى السودان حيث تصل نسبة المسلمين الى ٨٥٪ ومع ذلك فقد شغل منصب عضو مجلس السيادة أحد نصارى الجنوب كما شغل منصب نائب رئيس الجمهورية فى الحكومة المركزية عدد من نصارى الجنوب،[١] وفى الحكومة الحالية نجد أحد أعضاء مجلس رأس الدولة من نصارى الجنوب هذا بالاضافة إلى عدد كبير من نصارى الجنوب الذين شغلوا مناصب وزارية من عهد الاستقلال حتى يومنا هذا علماً بأن نسبة النصارى فى السودان لا تصل إلى ٥٪ من مجموع السكان .

ومع ذلك فهم يسيطرون على زمام الحكومة الاقليمية فى الجنوب حيث تزيد نسبة المسلمين فيه على النصارى ولا يسمح لمسلم أن يصل إلى منصب وزير إلّا بعد أن يعلن ردته عن الإسلام .

---

(١) (أبيل الير - وجوزيف لاغو)

هكذا بلغ الضعف بالمسلمين فى كل مكان واستحر فيهم التقتيل والتشريد على يد الحكومات النصرانية والعلمانية التى تنتسب إلى الإسلام وتمالئ النصارى.

وظل الاستعمار وأعوانه يعملون بحرية ،وما زال عملهم موصولاً لدعم كل ما من شأنه إضعاف المسلمين روحيًا ،وثقافياً ،ومادياً ،فكثير من المؤسسات التعليمية ما زالت فى ملكية النصارى لتسميم أفكار ناشئة المسلمين ،كما نجد كثيراً من موارد الثروة والمرافق الحيوية فى أيدى النصارى منذ عهد الاستعمار وحتى وقتنا الحاضر.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل عند ما طالب المسلمون فى السودان بتطبيق الشريعة الإسلامية ،وهو حق تكفله جميع الشرائع والنظم القانونية ،ومع هذا فإن الدول الاستعمارية الكبرى حركت توابعها وأعوانها فى السودان والدول المجاورة له ومدتهم بالسلاح والرجال والمال لتعويق قيام دولة إسلامية فى السودان وتحكيم الشريعة التى أصبحت الشعار المرفوع رغم اجتياح المجاعة لكثير من مناطق السودان ،فاتحدت دول البغى على اختلاف مذاهبها وعقائدها من علمانية وصهيونية وشيوعية وصليبية على الرغم من تناقضها واختلاف مبادئها فهى الآن تقف كلها مع متمردى جنوب السودان فى صف واحد لتحارب الإسلام فى وحدة متجانسة ،وخطوات مرحلية مدروسة وفق الاستراتيجيات العالمية المتفق عليها بين كل من أمريكا وروسيا ومن يدور فى فلكيهما ، يشهد لذلك الدعم الأمريكى الروسى الصهيونى الذى يلقاه التمرد فى جنوب السودان ومن ورائه التنصير الذى انتظمت كنائسه هى الأخرى من كاثوليكية وارثوذكسية وبروتستانتية بشتى مذاهبها فى وحدة لم تعرف من قبل ،متخذة من الدول الأفريقية المجاورة كالحبشة وكينيا وغيرهما نقاط ارتكاز ومأوى تمدهم بالسلاح والمال والرجال لتصعيد هذه الحرب الضروس ضد الإسلام والمسلمين. مبررين لفعلهم الشنيع بمنكر القول وزوره وهو أن الشمال العربى المسلم يريد فرض الإسلام على الجنوب الأفريقى المسيحى ،وهو محض الكذب والافتراء ،وإنما هدفهم تحطيم الصحوة الإسلامية التى شعروا باشتداد ساعدها وعلو صوتها ومناداتها بالعودة إلى الله ،واتخاذ القرآن الكريم شرعة ومنهاجاً بتطبيقه فى كل شئون الحياة ليعيش الناس حياة إسلامية نظيفة تسودها مفاهيم الإسلام وقيمه وأخلاقه وتحكمها شريعته وتوجهها عقيدته ، فأصغى سواد الشعب لهذا النداء والتف حول المنادين به ،فملأ الحقد أعداء الإسلام ،فحركوا عملاءهم على الصعيدين الشعبى والرسمى فى داخل البلاد وخارجها لقمع التوجه الاسلامى .

ولقد بلغت الجرأة بسفير أمريكا فى الخرطوم أن يسفر عن وجه بلاده الكالح الذى تمثل فى تصريحه الذى أدلى به، وهو قوله: (إن الإصرار على الشريعة الإسلامية لن يأتى بخير للسودان)[1] لأن مصدر الخير للسودان هو أمريكا. وفى تصريحه تهديد واضح وتدخل سافر فى شئون السودان الداخلية، مما دعا أمين عام رابطة علماء السودان الشيخ أحمد على الإمام أن يطالب بإبعاده من البلاد لتجاوزه حدود الدبلوماسية.[2]

فعلى المسلمين فى السودان خاصة وفى العالم الإسلامى عامة أن يهبوا لمواجهة هذه الحملة الصليبية التى تستهدف السودان وإننا على ثقة بنصر الله، فالأمل فيه عظيم، بأنها ستبوء بالفشل والهزيمة كما باءت الحملات الصليبية من قبل، مهما عمل أعداء الإسلام فإن المستقبل له بإذن الله كما يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله فى كتابه (المستقبل لهذا الدين) فالمستقبل للاسلام فى السودان وفى أفريقيا بل فى العالم، وذلك إذا غير المسلمون واقعهم الأليم بالعودة الصادقة إلى الله سبحانه وتعالى، واتخذوا القرآن شرعة ومنهاجاً، وطبقوا الإسلام فى كل شئون الحياة، وعندما نقول المستقبل لهذا الدين لا نلقى القول على عواهنه وانما نستند على نصوص صحيحة وصريحة من كتاب الله تعالى وسنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم :

قال تعالى: (ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا الى جهنم يحشرون ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون)[3].

وقال سبحانه: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى ولا يشركون بى شيئا ... الآية[4]

وفى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودى من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله إلاّ الغرقد فإنه من شجر اليهود)[5]

---

(١) صحيفة السودانى بتاريخ ١٧/١٠/١٩٧٨ و ٢٤/١٠/١٩٧٨ .
(٢) صحيفة الراية ٢٨ صفر ١٤٠٨ هـ عدد (٥٢٠) .
(٣) سورة الانفال، الايتين ٣٦-٣٧ .
(٤) سورة النور، الآية ٥٥ .
(٥) أخرجه مسلم فى صحيحه ٤/٢٢٣٩ فى كتاب الفتن باب رقم ١٨ الحديث ٨٢ ورقمه العام ٢٩٢٢ والامام احمد فى المسند ٢/٤١٧ بزيادة فى اللفظ .

فعلى المسلمين جميعا التمسك بدينهم ،وتطبيقه في حياتهم ليحيوا حياة كريمة نظيفة تسودها مفاهيم الإسلام وقيمه وأخلاقه ،وتحكمها شريعته ومناهجه ،وتوحدها عقيدته التي جعلها الله سبحانه قاعدة التجمع والتفرق ،ولكنه لم يجعل الإكراه عليها قاعدة من قواعد هذا الدين ،ولا قاعدة من قواعد التعامل الاجتماعي فيه ،بل العكس جعل عدم الاكراه فيه هو القاعدة فقال جل شأنه : (لاإكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم)(١) فلم يجعل شريعة الغاب والناب هي التي تحكم علاقات اتباعه بالآخرين الذين لا يعتنقون عقيدته ولا يجتمعون على آصرته .(٢)

فهو رسالة إلهية جاءت لخير البشرية جمعاء لا فرق فيها بين عربي وعجمي ،ولا شرقي وغربي ،رسالة عالمية تدعو إلى القضاء على جميع الفوارق الجنسية ،والعنصرية ،واللونية ،وتعلن الأخوة الإنسانية لبني البشر جميعًا . قال سبحانه : (ياأيها الناس اتقو ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساء)(٣)،وقال جل من قائل : (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)(٤) .وقال سبحانه : (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين)(٥)

ولم تكن دعوة الإسلام إلى هذه المبادئ نظرية كدعوة الذين يدعون إلى احترام حقوق الإنسانية ،فإن ما دعا إليه الإسلام طبقه نظاما وعاشه الناس واقعًا ، فقد حكم الإسلام رقعة فسيحة تكاد تضم جميع الاجناس،وجميع الألوان ،فذابت كلها في نظامه ،ولم تقف وراثة لون ، ولا وراثة جنس،ولا وراثة طبقة من دون أن يعيش الجميع إخوانًا ،ودون أن يبلغ كل فرد منهم ما تؤهله له استعداداته الشخصية ،وما تكفله له صفته الإنسانية .

---

(١) سورة البقرة ،الاية ٢٥٦

(٢) انظر المستقبل لهذا الدين ، ص٧٨ .

(٣) سورة النساء ،الآية رقم ١ .

(٤) سورة الحجرات ، الآية ١٣

(٥) سورة الروم ،الآية ٢٢

ولم يكن الجهاد الذى فرضه الله على المؤمنين ليكرهوا الناس على اعتناق عقيدتهم ، وانما ليقيموا فى الأرض نظامه الشامخ العادل القويم على أن يختار الناس عقيدتهم التى يحبون فى ظل هذا النظام الذى يشمل المسلم ،وغير المسلم فى عدل تام[1] فيعيش الناس جميعاً فى سلام ووئام ، قال جل شأنى : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من ديا ركم أن تبروهم و تقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ،إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من ديا ركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون)[2]

---

(١) انظر المستقبل لهذا الدين ص ٨٧ .

(٢) سورة الممتحنة ،الآية ٨

الخاتمة وتشتمل على النتائج والاقتراحات

إن هذه الدراسة المتواضعة محاولة جادة لكشف أبعاد النشاط الكنسي والتعرف على وسائله وأهدافه، وتجلية غوامضه وأبعاده، وبدا واضحًا أن هذا النشاط الكنسي ما هو إلا مخلب من مخالب الاستعمار الحديث تقف خلفه الدولتان الكبريان (أمريكا وروسيا) ومن دار حول محوريهما من الدول التوابع، وتمده كذلك مؤسسات الصهيونية والصليبية العالمية بالمال والرجال، ويرى المراقبون أن الفاتيكان لم تنفق في تاريخها من الأموال ما تنفقه اليوم والبابا يجوب العالم لحث اتباعه على المزيد من الانفاق، ويعدهم ويمنيهم بأن المستقبل للنصرانية في قارتي الاسلام (آسيا وأفريقيا) ولذا حدد علماء الاحصاء من النصارى بأن عام ألفين من الميلاد هو عام غلبة النصرانية في (آسيا وافريقيا) [1]، كل هذا يحدث والمسلمون حائرون لا يقدرون على شيء لأن الاستعمار القديم مكن لمؤسسات التنصير في البلاد الإسلامية ووكل لها مهمة التعليم فأهلت لخلافته أجيالاً إن لم تكن نصرانية بحتة فهي علمانية مشبعة بروح النصرانية فهي للكفر أقرب منها للإسلام، ومهدت كل السبل أمامها لتصل لسدة الحكم وغلت أيديها بالمعاهدات والمعونات المشروطة لضمان التبعية الاقتصادية والسياسية وفتح البلاد لجلب الخامات واستهلاك المنتجات وترويج الأفكار والمعتقدات وحرية التنصير وتكبيل الإسلام، وبهذا أصبحت الحكومات في البلاد الإسلامية لا تملك رشدها فهي مغلولة الأيدي محجور عليها التصرف في شئونها كما يحجر على السفيه أن يتصرف في ملكه، علما بأن كثيرًا منها تملك من الأموال والأرصدة في البنوك الأجنبية الربوية كما تملك من مخزون السلاح ما لو استخدمت جزءًا منه في خدمة الإسلام والمسلمين لحل ضائقتهم ونفس كربتهم، ومنها أزمة السودان التي يعانيها في مواجهة تآمر الصليبية العالمية، ولكنها تخشى أن فعلت ذلك - أن تثير غضب سادتها وتخل ببنود المعاهدات وشروط التسلح التي فرضت عليها عند شراء هذه الأسلحة، وليست حكومة السودان مستثناة من هذه التبعية والانقياد الأعمى للقوى العالمية، وخلاصة القول أنه بدلاً من الاستعمار القديم جيء باستعمار حديث أخبث منه ورغم هذا الواقع الأليم فإني أوجه النداء للمسلمين عامة في العالم بأن إخوانكم في كثير من أقطار أفريقيا وآسيا محرومون من التعليم والأمن نسبة للحواجز التي وضعتها الإدارات الاستعمارية التي أهلت النصارى وسلمتهم أزمة الأمور حتى في البلاد التي يشكل المسلمون

---

(١) لذلك خصصت لتنصير أفريقيا ١٣٩ (تسعة وثلاثون ومائة مليار من الدولارات) في العام. ذكر ذلك المشير سوار الذهب رئيس مجلس أمناء منظمة الدعوة الاسلامية في الندوة التي أقيمت بسفارة السودان بجدة في شهر ربيع الأول ١٤٠٨هـ .

أكثرية سكانها ومع ذلك يعانون أقبح أنواع الحرمان في مجال المؤسسات التعليمية ،وخاصة العالية منها ومؤسسات الحكم ،فلا يوجد لهم تمثيل في وظائف الدولة العليا في كثير من بلاد هم كما أشرنا الى ذلك ،وفي تنزانيا التي تزيد نسبة المسلمين بها على ٧٠ ٪ نجد نسبتهم في جامعة دار السلام منذ الاستقلال وحتى يومنا هذا لم تتجاوز ١٠ ٪ من جملة الطلاب.(١)

فاذا كان هذا هو الحال في بلاد أكثر سكانها هم المسلمون ومع ذلك يلاقون من الهوان والذل والضياع ما تنوء عن حملة الراسيات فكيف يكون حالهم في بلاد يشكلون أقلية سكانها ؟ ومع الأسف الشديد نجد العكس تماما بالنسبة للنصارى في كل بلد هم فيها أقلية فهم يتمتعون بكافة الحقوق والامتيازات .

فسارعوا أيها المسلمون لنجدة السودان قبل فوات الأوان ،وقبل أن يحل به ما حل بالاندلس ،وفلسطين ،ولبنان واذكروا قول الله سبحانه : (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين)(٢)

وإني في ختام هذا البحث أذكر بعض النتائج التي توصل إليها البحث بايجاز ثم أذكر بعض الاقتراحات.

أ / أهم النتائج :

أولا : توصل البحث إلى أن النصرانية التي دخلت السودان ليست هي المسيحية التي أنزلها الله على عيسى عليه السلام ، وإنما هي النصرانية التي حرفت ولاءمت وثنية الرومان وفلسفتهم واعتنقها ملوك النوبة ولاءً للاباطرة ليحافظوا على سلطانهم من الزوال ،وظلت شعوبهم على الوثنية إذ لم تحس بفارق كبير بين هذه النصرانية وبين ما هي عليه من وثنية .

ثم دخل الإسلام بعدها بحوالي نصف قرن تقريباً وكان دين العامة ،وظل يتغلغل في المجتمع حتى عفى على آثار النصرانية ،فزالت بزوال ملوكها ،وأصبح السلطان للإسلام ،فلا توجد الآن في السودان أسرة سودانية واحدة ذات جذور نصرانية ضاربة في تاريخ السودان وإنما هي نصرانية وفدت إليه حديثاً مع الاستعمار.

---

(١) انظر أوضاع الأقليات المسلمة في أفريقيا ص ٥ . وانظر كذلك تقرير منظمة الدعوة الاسلامية بعنوان : النشاط الصليبي في تنزانيا ص ٤/٥ .

(٢) سورة التوبة ،آية رقم ٣٦ .

ثانياً : باشرت المؤسسات الكنسية نشاطها فى السودان منذ حكم محمد على وأبنائه له ،وكان المسلمون فى غفلة من أمرها إلاّ القليل من أمثال الزبير باشا الذى حاول نشر الإسلام فى مديرية بحر الغزال ،فأفزع عمله النصارى وأزعجهم ،فأعلنوا عليه الحرب،وشوهوا تاريخه ووصفوه بأنه أكبر تجار الرقيق فى أفريقيا ،وألبوا عليه الخديوى ،فاعتقل بمصر،وتآمروا على ابنه سليمان الذى خلفه فقتلوه مع سبعين من قواده غيلة ،وما زالت كتب التاريخ ومناهجه الدراسية طافحة بأن الزبير من أكبر تجار الرقيق فى أفريقيا فيجب أن يصحح ذلك.

ثالثا : يعتبر شارلس جورج غردون حاكم الاستوائية ،ثم الحاكم العام على السودان بعد ذلك هو الذى وضع حجر الأساس لمشكلة الجنوب حيث أنشأ بمجرد وصوله السودان وهو فى طريقه لإدارة الاستوائية (ديوان خط الاستواء بالخرطوم) وجعل له ميزانية منفصلة وموظفين مستقلين وكانت هذه بداية المشكلة ، ولما كان حاكماً عاماً للسودان شجع على هجرات المسيحيين من جميع المذاهب للعمل بالسودان ،مما أثار حفيظة المسلمين فثاروا بقيادة المهدى حتى فتحوا الخرطوم ولقى غردون مصرعه على أيدى الثوار،وأراح الله البلاد والعباد من رجس التنصير،وظل السودان مصوناً من عبثهم ثلاثة عشر عاماً ،ولم يعد الطريق عبره إلى أفريقيا ميسوراً كما كان مما اضطر المنظمات الكنسية أن تنادى مطالبة بأخذ الثأر من قتلة غردون ،فتزعمت بريطانيا الحملة التى أشبهت حملات الصليبية ،فقتلت عشرة آلاف من المسلمين وجثمت على صدر السودان تحارب الاسلام والمسلمين أكثر من نصف قرن.

رابعا : وجد التنصير فرصته فى فترة الاستعمار البريطانى فمنح أحسن المواقع لاقامة المؤسسات الكنسية الضخمة فى المدن الكبرى ،وفى مقدمتها العاصمة المثلثة (الخرطوم-الخرطوم بحرى- أُمدرمان) كما أتاح له العمل بين المسلمين فى أخطر مجالين من مجالات التنصير وهما التعليم ،والصحة. وأطلق يده فى جميع المجالات فى جنوب السودان وغربه وأمده بكل الامكانات المادية والمعنوية لحرب الإسلام وتعهد بذور الفتنة التى غرسها رواده فى الجنوب حتى آتت ثمارها حربا دامية بعد خروج الاستعمار مباشرة ،وما يزال التنصير حتى يومنا هذه يشعل أحقادها ويزيدها إضراماً كلما خبت ليحول بين الجنوب وبين الإسلام ، وهو يدرك أن حلها الوحيد فى الاسلام وليس النصرانية .

خامسا : ثبت تاريخيا أن ما حل بالمسلمين من الضعف والتفكك كان نتائج لمقدمات سابقة عكرت صفو العقيدة وظلت الأمة تقاوم أمراضها زمناً بدفعتها الإيمانية الأولى ،وظل أعداؤها يلاحقونها بالغزو حتى أوهنوا قواها وتمكنوا منها وبلغ الغزو ذروته بقيام المؤسسات التعليمية الكنسية التي اعترف الاستعمار بأنها أدت إليه في اخضاع المسلمين وإضعاف الإسلام ما عجزت عن أدائه دول أوربا وجيوشها جميعًا وبهذا يعتبر التعليم الكنسي أخطر وسائل التنصير ،وصاحب الأثر الأكبر في إفساد عقائد المسلمين ومجتمعاتهم ،وأي محاولة لنهضة المسلمين وحماية مجتمعاتهم من التنصير ،مع ترك التعليم في بلادهم على ما هو عليه الآن ضرب من العبث ،ولذلك يجب على المسلمين جميعًا وخاصة الحكومات أن تبسط نفوذها قبل كل شيء على مرافق التعليم وأن تطهر المناهج والمدارس من شوائب الغزو الاستعماري الحديث ،وإن كنا ندرك أن ذلك من الصعوبة بمكان لأن البلاد ما زالت مستعمرة استعماراً فكرياً ،فقد خرج الاستعمار بجنده ورجاله البيض،ولكنه خلف رجالاً وجنداً أرضعهم لبانه ليكونوا خلفه وسدنته وحراس مصالحه .

سادسا : إن من الوسائل التي استخدمها المبشرون استغلال عوز المعوزين لأن الظروف الصعبة التي تمر بها قارةأفريقيا والسودان خاصة ،وهي (التصحر والجفاف) ،زادت واقع المسلمين سوءا وفتحت مجالاً واسعا أمام عدد كبير من الهيئات الكنسية ،فوصل إلى السودان وحده أكثر من ثلاثين هيئة كنسية تعمل في مجال الإغاثة ،وغطت هذه المؤسسات الكنسية مساحات واسعة بالشباب النصراني الغربي ذكوراً وإناثاً ،فنجد الشباب الألماني الغربي ،والنرويجي ،والإيطالي يقومون بتوزيع الغذاء ، والدواء ، والكساء ،لمتضرري المجاعات باسم الكنيسة ،وحتى الخيام التي توزع فيها هذه المعونات نصبت على هيئات الكنائس ، لربط هؤلاء الضعفة بالكنيسة ،كما توزع للصغار اللعب والحلوى والهدايا باسم المسيح ، وباستغلال هذا الواقع الأليم والظروف السيئة استطاعت الكنيسة ان تجد طريقها إلى جسم المجتمع الاسلامي ،وليست هذه هي المرة الأولى التي تستغل الكنيسة فيها مثل هذه الظروف في السودان ، وهي ظروف ربما تستمر زمنا طويلاً لارتفاع نسبة المسلمين العددية ،مع تدني دخل الفرد المسلم المحارب اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً .

سابعا : كانت المؤسسات التنصيرية تظن أن باستطاعتها أن تجعل من أبناء غرب، وجنوب السودان أمما نصرانية ولكن خاب فألها ، فوقعت بشارتها على أرض صخرية ، اذا قيس عائدها بما بذلته من جهد ، ومال ، ووقت وزاد من فشلها أن هذه الشعوب تعيش عيشة بسيطة فترضى بما تنتجه بيئتها من ثمار الاشجار وصيد الحيوان ، فخططت لهجرتها إلى المدن الكبرى بالترغيب تارة والترهيب أخرى حيث تكون الحاجة إلى المأوى والغذاء والكساء فيسهل اصطيادها ، فهيأت كل ذلك لهم ولإخوانهم من عمال المؤسسات العامة والخاصة وخدم المنازل وأقامت لهم الأندية الضخمة ، ونظمت لهم الأنشطة والألعاب التى يمارسونها فى بيئتهم عادة لتحول بينهم وبين الذوبان فى مجتمع المسلمين وفتحت لهم أماكن للدراسة والتنصير.

ثامنا : تعمل المؤسسات الكنسية فى جميع المجالات بجد ونشاط من خلال منظمات فئوية تعتمد فى مصادرها المالية ودعمها المعنوى على العالم الغربى لتغيير وجه السودان ووجهته الحضارية ، وذلك بتشييد المؤسسات الكنسية الضخمة من مدارس، وكنائس، ومصحات وأندية ، كما تعمل فرق التنصير الأثرية منذ عشرين سنة تقريبا على نبش الآثار الوثنية ، وتضفى عليها طابعا كنسيا وظل المنصرون يحاولون تجميد خلافاتهم العقدية وترك النزاعات الطائفية ، ليقفوا صفا واحدا لمواجهة الصحوة الإسلامية التى تطالب بقيام الدولة المسلمة وتحكيم شرع الله فى السودان وأكبر شاهد على ذلك الاجتماع الذى دعت له الهيئات الكنسية وضم ممثلى أحزاب الجنوب مع المتمردين فى (كينيا).

تاسعا : لم تكن الحكومات التى تعاقبت على حكم السودان جادة ولا مهتمة لمخاطر التنصير لأن قادتها من خريجى مدارس التنصير أو المدارس العلمانية ، ومن أكبر الشواهد على عدم جدية هذه الحكومات ، عدم توحيد الشهادة الثانوية العليا حيث نجد فى السودان الآن ما يعرف بشهادة لندن واسمها يدل على بعدها عن المنهج القومى بجانب مستواها العلمى المتدنى فيحصل خريجوها على نسبة عالية تؤهلهم بمستواهم الهابط الى دخول الكليات العلمية . وعندما عزم وزير التربية فى الفترة الانتقالية سنة ١٩٨٥ الدكتور بشير حاج التوم أن يضع مشروع قانون المدارس غير الحكومية لسنة ١٤٠٦ هـ حيث الزمت فقرته العاشرة جميع المدارس ما عدا مدارس السجاليات بالمنهج القومى ثارت الارساليات على المشروع[1] كما ثارت من قبل

(١) انظر أهم المنجزات خلال الفترة الانتقالية ، ابريل ١٩٨٥ الى أبريل ١٩٨٦ ، وزارة التربية والتعليم

فحالت دون تنفيذه ، وبعد أن انتهت الفترة الانتقالية وقامت الحكومة الحالية ظلت الأمور كما كانت قبل قيـــام الحكم الانتقالي .

عاشرا : مما أدى إلى تفاقم النشاط الكنسي في السودان أن الدعوة الإسلامية كانت شبـــه غائبة عن المجتمع السوداني وذلك لعدة أسباب:

١- الاستعمار والحكومات العلمانية التي خلفها بعد خروجه كانت وما تزال من أكبر العوائق في سبيلها ، فسجنت الدعاة ونكلت بهم وعلقتهم على أعواد المشانق وجعلت مجرد الانتساب الى أى جماعة اسلامية من أعظم الجرائم .

٢- ضعف موارد الدعوة المالية لأن هذه الحكومات الآنفة الذكر ضيقت عليها الخناق ، فلــم تكن لها ميزانية تذكر ، بل حتى الأوقاف التي أوقفها المحسنون المسلمون استولـــت عليها وظلت تبددها في غير ما أوقفت له كما سطت على الكثير منها .

٣- ضعف المورد البشرى حيث يفتقر مجال الدعوة إلى الداعية المؤهل لأن الاستعمـــار والحكومات التي خلفته ظلت تحارب خريجي المؤسسات الإسلامية مما أدى إلى انصراف الكثير منهم عن العمل الاسلامي .

٤- الطائفية التي صنعها الاستعمار ورباها على عينه لتمتص أى توجه إسلامي جاد .

حادى عشر: إن النشاط الكنسي المكثف المنتشر في السودان لا ينقطع شره الا بقيام حكــم إسلامي شامل يطهر المجتمع من جميع مؤثرات الحضارة الغربية ذات الصبغة النصرانية فـــي مجالات السياسة ، والحكم ، والتشريع ، والاقتصاد ، ويعمل على إعداد الدعاة والمعلمين ، ويسعى إلى رفع مستوى المسلمين العلمي والمادى ، وليس هذا بالأمر الميسور ، وإنما يحتاج إلى عمل دؤوب متواصل قد يستمر لسنوات ، ونسبة للظروف السيئة التي يعيشها المسلمون ، ويحتاجـون فيها إلى مديد العون ، وتخليصهم من براثن التنصير أقدم بعض الاقتراحات علها تصل إلـــى أذن واعية ، وتصادف قلوبا رحيمة فتسهم في حل ضائقة المسلمين الذين تعتصرهم المجاعـــة ويخيم عليهم الجهل والفقر والمرض:

١- من المعلوم أن الاسلام يرفع لواء الدعوة إلى البر والاحسان ، ويحث على الانفاق حتـــا يخلص النفوس من الشح ووعد الشيطان لهم بالفقر ، فيقول عز من قائل : (يا أيهــــا الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منـــه تنفقون . . . الآيتان إلى قوله تعالى (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء واللــــه يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم)(١)

---

(١) سورة البقرة ، الآيات ٢٦٧ - ٢٦٨

فعلى كل مسلم يستطيع أن يقتطع شيئاً من مال الله الذى آتاه وقفًا على الإسلام فليفعل وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، قال جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنهما : (فما أعلم أحدا ذا قدرة من المهاجرين والأنصار إلّا حبس من ماله صدقة موقوفة ،لا تشترى ولا توهب)[1] ثم تتابع المسلمون جيلاً بعد جيل يوقفون الأراضى والبساتين والدور ،والغلات ،لأعمال البر ، فما خلا المجتمع الإسلامى من مؤسسات البر والاحسان التى بلغت من الكثرة حداً يصعب إحصاؤه ،والإحاطة به ،وكانت هذه المؤسسات نوعين :

أ- مؤسسات من إنشاء الدولة توقفها من بيت المال العام .

٢- مؤسسات من إنشاء الأفراد من الامراء والقواد وكافة الأفراد المحسنين حتى شملت النساء وكان فى مقدمة هذه المؤسسات الوقفية المساجد ومدارس العلم ، والمستشفيات واقامة القناطر والسدود ،وحفر الآبار فى الفلوات للمسافرين وسقى الزروع والحيوان وإقامة الأربطة على الثغور وتوفير احتياجات المجاهدين من عدة الحرب إلى الطعام والكساء ،وباختصار شملت أوقاف هذه الأمة جميع المرافق حتى شملت العناية الرفق بالحيوان حيث أنشئت دور لعلاجه)[2]

هذا هو ماضى هذه الأمة المشرق ،فقد كانت تؤمن إيمانًا لا يتطرق اليه شك أن الإحسان من أسمى القربات إلى الله ،فما دهاها اليوم فأهملت هذا الجانب حتى طمع أعداؤها فيها فصاروا يقطعون أوصالها ،ويطمعون فى ردتها بما يقدمون من الفتات وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ يقول : (اللهم انى أعوذ بك من الكفر والفقر. فقال رجل : ويتعادلان ؟ قال : نعم)[3]

ومن باب إحقاق الحق أن بعض الدول الإسلامية وبعض أغنياء هذه الأمة أسهموا إسهاماً كريماً طيباً ومدوا يد العون لمتضررى المجاعات فى البلاد الأفريقية بصفة عامة والسودان بخاصة ولكن جهودهم هذه لم تف بالمطلوب لكثرة من اعتصرتهم المجاعة وهدفهم التنصير ونصب لهم حبائله ،فلو عم هذا الشعور جميع الدول الإسلامية المستطيعة وأغنياء المسلمين فى

---

(١) الدكتور مصطفى السباعى ،من روائع حضارتنا ،ص ١٢٤ المكتب الاسلامى ،الطبعة الرابعة سنة ١٤٠٥/١٩٨٥م

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٦/١٢٧ .

(٣) رواه النسائى وصححه ابن حبان ، انظر كشف الخفاء ومزيل الالباس ج٢ ص ١٤١ ، مؤسسة الرسالة ،الطبعة الرابعة سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

العالم لكسب الإسلام مواقع أقدام النصرانية فى آسيا وأفريقيا ،ومن هذا الواقع نذكر المسلمين جميعا بقول نبيهم صلى الله عليه وسلم: (من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له)(١)

٢- على المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها أن يعملوا على التخلص من آثار أعدائهم ، وخاصة فى ميدان التربية والتعليم ،فيخرجوا أبناءهم فورًا من مدارس التنصير، حيث لا يجوز لهم إدخالهم فيها لأنها قد تؤدى بهم إلى الكفر ،وعلى المستطيعين أن يعملوا على إنشاء المدارس الإسلامية لرفع مستوى التعليم بين إخوانهم وخاصة فى الدول التى سيطر التنصير على التعليم فيها ولا يجد المسلمون سبيلاً إليه كما يجب عليهم أن يتخلصوا من جميع آثار أعدائهم فى جميع المجالات وعلى رأسها الحكم ،والتشريع وأن ينبذوا التسويف وانتحال الأعذار الواهية التى يتذرع بها العلمانيون ،ومن على شاكلتهم بأن الشريعة الإسلامية لا يمكن تطبيقها إلاّ بعد إعداد وتدرج وفترة انتقال .

٣- عليهم أن يتخلصوا من آثار الغرب فى المجال الاقتصادى فيقلعوا فورًا عن إيداع أموالهم فى بنوك الغرب الربوية لأن عائد الفائدة الذى يرفضه بعضهم بحكم تدينه يعود إلى مؤسسات التنصير فيسخَّر ضد إخوانهم المستضعفين .

٤- على الشباب المسلم فى الجامعات الإسلامية أن يوثق الروابط الدينية والثقافية بالشباب فى البلاد المهددة بحملات الغزو الثقافى الغربى لينشر بينهم الدين الصحيح والوعى الإسلامى الذى يقيهم من الوقوع فى مصائده .

٥- على الجامعات فى البلاد العربية ان تهتم بتنظيم دورات تعليمية فى العلوم الإسلامية واللغة العربية لرفع مستوى الشباب الأفريقى المسلم .

٦- انشاء مجمع للبحوث مهمته ترجمة ونشر الوثائق التى توضح خطط الاستعمار وأهداف التنصير فى بلاد المسلمين وتصحيح ما كتبه المبشرون عن الإسلام فوجد طريقه إلى أذهان كثير من العامة وتوضيح وضع الاقليات غير المسلمة فى ظل الدولة الإسلامية .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

---

(١) صحيح مسلم ،كتاب اللقطة ،باب إستحباب المواساة بفضول المال ،حديث رقم ١٧٢٨ .

ملحق رقم (١)

** احصائية بعدد تلاميذ مدرسة واو فى ١٨ر١١ر١٩٠٤ **

اسم التلميذ	صفته	لغته	قبيلته	اسم الشيخ الذى احضره
احمد نولى	جهادى	العربية	جعلى	الشيخ مرجان
محمد اسماعيل	مدنى	العربية	دينكاوى	الشيخ مرجان
على جبارة الله	مدنى	العربية	جبلاوى	الشيخ عبدالتام
فضل المولى جبارة الله	مدنى	العربية	جبلاوى	الشيخ عبدالتام
جمعة فضل المولى	جهادى	العربية	نوباوى	—
مصطفى جبارة الله	مدنى	العربية	جبلاوى	الشيخ عبدالتام
موسى عبدالله	جهادى	العربية	كريشاوى	—
محمد المصطفى فاضل	مدنى	العربية	دينكاوى	الشيخ مرجان
موسى خير الله	مدنى	العربية	جبلاوى	الشيخ عبدالتام
عوض الله سعيد	جهادى	العربية	نوباوى	—
رمضان فضل المولى	جهادى	العربية	نوباوى	—
ابراهيم مرجان	مدنى	العربية	نوباوى	الشيخ عبدالتام
على بندامى	مدنى	العربية	كريشاوى	الشيخ عبدالتام
خميس يونس	جهادى	العربية	جبلاوى	—
محمد مطر	مدنى	العربية	نوراوى	الشيخ جمعة كيانجو
خير السيد جبارة	مدنى	العربية	جبلاوى	الشيخ عبدالتام
عبدالله مرجان	مدنى	الجبلاوية العربية	جبلاوى	الشيخ عبدالتام
مرجان جبال	مدنى	القولو ال[illegible]	جبلاوى	الشيخ [illegible]
رزق الله مرسال	مدنى	العربية	جوراوى	الشيخ عبدالتام
خميس جبال	مدنى	الجور العربية	جبلاوى	الشيخ عبدالتام
ادريس عبدالكريم	جهادى	العربية	دينكاوى	الشيخ مرجان
رجب فرج الله	مدنى	العربية	جوراوى	الشيخ عبدالتام
محمد عبيدالله	الكتيبة(٩)	العربية	كراوى	—
محمد صالح	جهادى	العربية	كراوى	—
حسن فرج الله	الكتيبة(١٥)	العربية	جبلاوى	الشيخ عبدالتام
عبدالرحمن عبدالبين	مدنى	العربية	دينكاوى	الشيخ عبدالتام
رجب بارود	جهادى	العربية	دينكاوى	الشيخ عبدالتام
ابراهيم خليل	مدنى	العربية	نيام نيام	—
محمد عبدالرازق	جهادى	العربية	نوباوى	—

١٨ر١١ر١٩٠٤ ، امضاء ناظر المدرسة ، احمد عزت(١)

APPENDIX B

THE CLOSED DISTRICTS ORDER AS AMENDED IN 1953

The following official bulletin relating to the Closed Districts Order was issued on 24 March 1953:

In exercise of the powers conferred on him by section 22 of the Passports and Permits Ordinance 1922 the Governor-General of the Sudan hereby orders as follows:

(1) The districts set forth in the Schedule hereto shall be closed districts:

(a) In the case of the districts named in the first part of the Schedule, no person other than a native of the Sudan shall enter or remain therein unless he is the holder of a permit to be obtained from the Civil Secretary or from the Governor of the Province in which the closed district is situated and any native of the Sudan may be forbidden to enter or remain in the said districts by the Civil Secretary or the Governor of such Province.

(b) In the case of the district named in the second part of the Schedule, no person shall enter or remain therein unless he is the holder of a permit in this behalf to be obtained from the Civil Secretary or from the Governor of Upper Nile Province.

(2) This order shall not apply to officials of the Sudan Government and officers of the Sudan Defence Force entering or remaining in the districts closed hereunder in the performance of their official duties nor to any person holding a permit to trade in such districts under the Passports and Permits Ordinance 1922, nor save as regards persons travelling by steamer in transit on the Sobat river in the district numbered 2 in the Schedule hereto to any person travelling by train or steamer in transit through any such district.

THE SCHEDULE

PART I

1. Bahr el Ghazal and Equatoria Provinces.
2. Upper Nile Province.

3. The Zalingei and Dar Masalit Districts of Darfur Province.
4. Cancelled.
5. The Jebels and Tegale Districts of Kordofan Province.

PART II

Gambeila

NB The Passports and Permits Ordinance, 1922, Section 22, reads as follows:

The Governor-General may by order published in the Sudan Government Gazette declare any part of the Sudan to be a closed district. He may in such order declare that any district shall be absolutely closed or that ingress shall be permitted subject to such conditions and for such purposes as may be set forth in the said order and he may limit the application of such order or conditions to such persons or classes of persons as he may deem fit. In like manner he may cancel, amend or alter any such order. And no person to whom such order applies shall enter a closed district or, being at the time of the promulgation of such order in a district which shall be closed thereby, shall remain there after notification to him of the said order.

Section 30, reads as follows:

Any person who contravenes the provisions of this ordinance or of any order or regulation made or permit granted thereunder shall be punished with imprisonment which may extend to six months or with fine not exceeding £E100 or with both.

ترجمة ملحق رقم (٢)

قانون المناطق المقفلة المعدل في سنة ١٩٥٣م

تطبيقا للصلاحيات المكفولة بنص الفقرة ٢٢ من قانون الجوازات والإقامة لعام ١٩٢٢م، فإن الحاكم العام يأمر بالاتي :

أ/ لا يسمح لأى شخص من غير السودانيين بدخول المناطق المذكورة فى الجزء الأول من الجدول ما لم يحصل على تصريح بذلك من السكرتير الإدارى أو مدير المديرية التى تقع فيها المنطقة المقفلة ،كما يحق للسكرتير الإدارى أو مدير المديرية منع أى مواطن سوادنى من الدخول أوالاقامة فى المناطق المذكورة.

ب/ فى حالة المناطق المذكورة فى الجزء الثانى من الجدول لا يسمح لأى شخص بالدخول أو الاقامة بها ما لم يحصل على إذن من السكرتير الإدارى أو من مدير مديرية أعالى النيل.

جـ/ يستثنى القانون موظفى الحكومة وقوة دفاع السودان الذين يدخلون هذه المناطق أو يقيمون بها لإداء واجباتهم الرسمية كما يستثنى كل من يحمل تصريحا بالاتجار بها بموجب قانون الجوازات والإقامة لسنة ١٩٢٢م ،كما لا يسرى القانون على المسافرين بالبواخر على نهر سوباط فى المنطقة التى تحمل رقم (٢) فى الجدول أو أى منطقة مماثلة ولا على المسافرين بالقطار.

الجدول :

الجزء الأول : ١- مديريتا بحر الغزال والاستوائية .
٢- مديرية أعالى النيل .
٣- مركز زالنجى ودار مساليت .
٤- ألفى هذا الاقليم.
٥- مركزالجبال (جبال النوبة) وتقلى بمديرية كردفان

الجزء الثانى : قمبيلا .

ملحوظة :
الفقرة ٢٢ من قانون الجوازات والإقامة لسنة ١٩٢٢ تقرأ كالاتى :

يجوز للحاكم العام طبقا للامر الذى نشر بغازيته "حكومة السودان أن يعلن أى جزء من السودان منطقة مقفلة ويجوز له أيضا تبعا لهذا الأمر أن يعلن أى جزء منطقة مقفلة تماما أو أن يمنح حق الدخول فى إطار الشروط أو للأغراض التى يمكن أن توضع فى الأمر ويجوز له أن يحدد تطبيق الأمر أو الشروط للأشخاص المذكورين .

ولا يجوز لأى شخص ينطبق عليه هذا القانون أن يدخل منطقة مقفلة أوأن يكون موجوداً بها وقت اعلان هذا القانون

الفقرة ٣٠ :
أى شخص يخالف هذا القانون أو أى قانون أولوائح توضع أوتصاريح مجازه يعرض نفسه للعقوبة التى قد تصل إلى السجن ستة أشهر أوالغرامة أوالعقوبتين معا .

ملحق رقم (٣)

طلــب لمركز مقفــول(١)

اذن يصدر تحت قانون المراكز المقفولة ١٩٢٢

١ - اسم وعنوان الطالب

٢ - الجنســية

٣ - باى صفة يبقى أو هو باق فى السودان

٤ - مدة سريان تلك الصفة

٥ - الوظيفة

٦ - اسم المركز المقفول المطلوب الاذن بالدخول فيه (يذكر ذلك بالتحديد)

٧ - طريقة السفر

٨ - تاريخ السفر

٩ - مدة الاقامة هناك

١٠ - الغرض من الزيارة

١١ - اذا كانت الزيارة للعمل اذكر نوع العمل

١٢ - اسم وعنوان اى شخص يعرفه الطالب هناك

ملأت كل هذه الخانات او أجبت على كل هذه الأسئلة وجاءتنى الموافقة ولكن قيل فيها اننى لا يجب أن أبارح جوبا الى أى مركز الا باذن المدير وان المدير علـى علم بذلك وان صورة من هذا الاذن قد ارسلت اليه ٠

ومع ذلك فقد سافرت بالباخرة الى جوبا فى ثلاثة عشر يوما قرأت اثناءها حتى مللت القراءة لأن المحطات ليس فيها ما يرى الا كل ما يحزن فقد بدأ العرى يلاقينا بعد او قبل كارشول وكلما وقفت الباخرة نزلنا الى الشاطىء لنرى الناس ولا نستطيع أن نتفاهم معهم ويأتى القسس لمقابلة الوابور لاستلام حاجياتهم وحولهم الطلبة ٠

وكان القسس هم الحكام يأمرون الوابور ومهندسها متى يقف ومتى يتحــرك بل بلغت سلطتهم فوق سلطة المدير ٠

(١) هذا الملحق مأخوذ من مذكرات خضر حمد تاريخ الحركة الوطنية فى السودان صـ ١٣

ملحق رقم (٤)

ساعة الاصلاح البرنامج الديني للكنيسة المسيحية المصلحة

العنوان البريدى في البلاد العربية : ص ب (٢٢٠) الخرطوم ، السودان



مدير ساعة الاصلاح : القس بسام ميخائيل مدني

شيكاجو الولايات المتحدة ، في ١٤/١٢/١٩٧٧

السيد   تحية عربية خالصة نرسلها اليك من الديار المهجرية

شكرا جزيلا على رسالتك التي وصلتنا والتي تخبرنا بها عن سماعك لبرامجنا الاذاعية . نحمد الله لانه ساعدنا على المناداة بكلمته المقدسة والخلاصية والذى قادك لاكتشاف برامج ساعة الاصلاح . وسرّنا أن نخبرك بأننا مرسلين اليك الاجزاء الثلاثة الاولى من سلسلة : "تأملات في الحياة المعاصرة"، راجين أن تصلك بدون تأخير وأن تخبرنا عن ذلك في رسالتك القادمة للاطمئنان. وسوف نرسل اليك من وقت الى آخر بقية المطبوعات التي يساعدنا الله لاصدارها والتي نأتي على ذكرها في برامجنا اليومية .

وفيما يلي قائمة بالمحطات الاذاعية التي نبث منها برامجنا الاذاعية باتجاه أقطار الوطن العربي في الشرق الاوسط . والتوقيت المذكور هو توقيت القاهرة الاعتيادى (لا الصيفي) — اذا كان هناك توقيت صيفي يجب اضافة ساعة واحدة على ما يلي وكذلك في جميع البلدان العربية حيث يعادل التوقيت المحلي فيها توقيت القاهرة +١ :

*** محطة فيبا بجمهورية السيشيل بالمحيط الهندى : الفترة الصباحية اليومية في السادسة والنصف صباحا وعلى موجة قصيرة طولها ١٩ مترا ، الفترة المسائية اليومية في الساعة الثامنة والنصف وعلى موجة قصيرة طولها ٣١ مترا . في أيام الاحاد الرجاء الاستماع قبل ½ ساعة من بقية ايام الاسبوع لان برنامجنا : عظة الاحد يستغرق مدة ½ ساعة.

*** محطة اذاعة قبرص في نيقوسيا : في الساعة الحادية عشرة الا ¼ من مساء أيام الاحد والاثنين والثلاثاء والخميس وعلى موجة متوسطة طولها ٤٩٨ مترا أى ما يعادل ٦٠٢ كيلوهرتز

*** محطة اذاعة حول العالم — مونتي كارلو : في الساعة العاشرة والربع من مساء أيام الاحد والاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس وعلى موجة متوسطة طولها ٢٤٠ مترا أى ما يعادل ١٢٣٢ كيلوهرتز

*** محطة اذاعة ترانس وورلد راديو في مونتي كارلو : في مساء يومي الجمعة والاحد على موجة قصيرة طولها ٢٥ مترا أو ٤١ مترا وذلك في الساعة التاسعة الا ¼ أما في يومي الخميس والجمعة مساء وعلى موجة متوسطة طولها ٢٠٥ أمتار أى ما يعادل ١٤٦٦ كيلوهرتز وفي الساعة ١١ مساء

*** محطة اذاعة HCJB بمدينة كيتو عاصمة الاكوادور بأميركا الجنوبية : تذيع مساء كل يوم في السادسة والنصف وعلى موجة قصيرا طولها ١٩ مترا

ونكون شكورين جدا لك ان أعلمتنا في رسالتك القادمة على أية محطة من المحطات المذكورة أعلاه يجرى الاستماع الى برامجنا الاذاعية وهل تسمع عندكم بوضوح كاف ؟ والى أن تردنا منك رسالتك القادمة نتركك في عناية الله القادر على كل شيء ، له المجد الى الابد ، آمين

بلّغ سلاماتي القلبية لجميع الذين يستمعون الى برنامج ساعة الاصلاح

من خادم كلمة الله والمنادى بها ،

القس بسام م . مدني

ملحق رقم (٥)

- ٥١ -

بيـــان المجلس المركزي السوداني حول ابعــاد القسس والمبشرين الاجــانب مــن مــديريات السودان الجنوبية

الخرطوم ٤/٣/١٩٦٤ (الثورة ٥/٣/١٩٦٤)

يطيب لي يا سيدي الرئيس ان اتحدث في هذا المقام عن القرارات الاخيرة التي اتخذتها الحكومة في الايام القليلة الماضية والتي بموجبها تعمل الان السلطات المختصة على ابعاد المبشرين الاجانب من المديريات الجنوبية الى خارج البلاد وعلى ضوئها ستسمح للاجانب بمزاولة الاعمال التجارية في عواصم المديريات والمراكز وحدها مما سيمنعهم مستقبلا من التسرب الى الادغال او التجول في القرى بتلك المديريات وانني لواثق يا سيدي الرئيس بان السادة اعضاء هذا المجلس الموقر ملمون بالظروف التي دعت الحكومة لاتخاذ هذه القرارات .

وانني لواثق كذلك بانهم يوافقونني كل الموافقة بان صيانة وحدة البلاد من عبث العابثين والمحافظة على صيانة القانون من فوضى المخربين واستتباب الامن واستقرار النظام لواجبات اولية يتحتم على الحكومة اعطاؤها الاعتبار الاول ولهي امور في غاية الاهمية ينبغي على الحكومة الا تفرط او تتهاون فيها.

ولقد اخذنا نراقب منذ زمن بعيد النشاط المعادي الذي ظل يقوم به هذا النفر من الاجانب بتلك المناطق والبقاع واخذنا نرصد تحركاتهم واعمالهم في صبر شديد وسعة صدر ملحوظة متسامحين تارة ومحذرين في كثير من الرفق واللين تارة اخرى ولكنهم حسبوا التسامح ضعفا وظنوا التساهل ترددا واعتقدوا ان الحلم خوفا ووجلا فلم يثوبوا الى رشدهم ولم يحتكموا الى عقلهم حتى كادت اعمالهم التخريبية تودي بوحدة البلاد وحتى كاد نشاطهم المعادي يقضي على مقومات النظام ويهدم اركان الاستقرار في هذا البلد .. هذا البلد الذي اكرمهم واعزهم وافسح لهم المجال من غير قيد او شرط واتاح لهم من الامكانيات والتسهيلات ما لا يخطر على بال او يرقى اليه تفكير احد ان اعمالهم المتسمة بالخروج الواضح على القانون واصرارهم على التحدي والتخريب لهي السبب الذي اضطر الحكومة لمعالجة الامور بما تستحق من حزم وشدة بعد ان عجز التساهل واللين .

قد ثبت بالادلة القاطعة ان هؤلاء الاجانب ظلوا يقومون باعمال مناهضة للدولة ومخالفات لقوانينها ولوائحها هدفهم من ذلك حض المواطنين على الفوضى والتخريب ودافعهم الى ذلك تقويض اسباب الاستقرار والنظام في البلاد ، وبودي يا سيدي الرئيس لو سمح المجال بسرد تفصيلي للحوادث الكثيرة والجرائم العديدة التي ثبت ارتكابها في هذا الصدد بالادلة الدامغة والبراهين الساطعة ولكن المجال بكل اسف لا يسمح والوقت يضيق ولاكتفي بالاشارة العابرة لحوادث قليلة وقليلة جدا على سبيل المثال فقط .. فقد ثبت ان الاب جون تريفلا حرض بعض المواطنين وساعدهم على الهروب خارج حدود السودان بعد ان ادخل في روعهم كذبا وافكا ان البلاد مقبلة على اضطرابات واعمال عنف شديدة تؤدي بحياتهم وممتلكاتهم ، وكذلك ثبت ان الكنيسة بمنطقة درمو تقوم بمساعدة الخارجين على القانون لاجتياز الحدود ، وقد حدث ان انقلبت عربة من العربات التابعة للكنيسه واصيب بعض ركابها بجروح وتوفي البعض الاخر وكان احد رجال الامن ضمن ركاب تلك العربة وقد كشف التحري والتحقيق في الحادث ان العربة كانت متجهة بركابها من المواطنين الى خارج الحدود وكذلك ثبت ان القس اندريه تروكي الكاثوليكي وسكرتير اعمال الكنيسة الكاثوليكية بواو يقوم بترحيل الاشخاص الذين يرغبون في التسلل خارج الحدود بعربات الكنيسة من واو الى يودو ومن هناك الى ديم زبير حيث يقضي المتسللون ليلتهم داخل الكنيسة فيواصلون الرحلة في اليوم التالي سيرا على الاقدام . كما انه ثبت بما لا يدع مجالا للشك بان الكنيسة وعمالها يقومون بدور بارز كحلقة للاتصال بين رئاسة الخارجين عن القانون خارج البلاد والمواطنين في الداخل فينقلون الاخبار والمكاتبات.

واما في منطقة طمبرة فقد ثبت ان القس بيتر قد حرض طالبات المدرسة على الاضراب عن الدراسة والقيام بأعمال العنف ، وقد ساعدته في ذلك ثلاث من المبشرات الايطاليات واضربت الطالبات بالفعل والحقن الاذى باحد المدرسين وكذلك قام القس انجلو كونفاليري من كنيسة بسرى بتحريض طلبة مدرسة واو الصناعية بعد ان تسلل اليها ليلا واجتمع بطلبتها الذين استجابوا له فاضربوا عن الدراسة في اليوم

التالي مباشرة .

ولم يكتف هؤلاء الاجانب بنشاطهم المعادي واعمالهم التخريبية المغرضة في داخل البلاد بل راحوا ينشرون الاكاذيب والاراجيف في الصحف المؤيدة لهم والواقعة تحت سيطرة الكنائس ونفوذها في بعض دول العالم ، ولعمري انه يكفيني ان اعرض عليكم يا سيدي الرئيس هذه الكتيبات لتجدوا فيها ما يدمغهم ويدينهم ولا حاجة بي بعد ذلك للاسترسال في سرد الامثلة الاخرى من النشاط الهدام الذي يقومون به خارج الحدود كأعمال القس شارلي غوردون وزميله ستيوارت اللذين ابعدا مؤخرا بعد ادانتهما ، فاخذا يقيمان عبر الحدود المتاخمة في بلادنا ويعملان على اغراء بعض المواطنين من النوير للهروب الى البر الاخر . او كنشاط القس هملتون الذي يقيم بتلك الحدود ايضا ويتعاون مع القس ماكلور في حفظ اموال الخارجين على القانون وتنظيمها .

هذا جانب يسير من الاعمال المعادية المغرضة التي سكتنا عليها كثيرا وصبرنا عليها طويلا حتى كاد ان ينفلت الزمام ويداهمنا الخطر وعلى ذلك كان لا بد من اتخاذ تلك القرارات وفي كثير من السرعة التي يتطلبها الموقف واستدعتنا اليها الظروف وكان بودي ان لو كان هذا المجلس منعقدا في تلك الايام لاضع امامه تلك القرارات للالمام بها والاطلاع عليها في حينها وقبل اعلانها ونشرها على الجمهور الكريم .

واود يا سيدي الرئيس ، ان اؤكد في هذا المكان ايضا كما اكدت ذلك في غيره من قبل بان الحكومة حريصة كل الحرص على كفالة حرية العقيدة في طول البلاد وعرضها ، وعلى رعاية حق كل مواطن من المواطنين في ممارسة شعائره المقدسة وصلواته الدينية من غير تدخل او ارهاب فذلك حق طبيعي مشاع نحترمه في تقدير ونجله في اخلاص ونصونه في غير تردد لاننا نعلم علم اليقين ان الدين يمثل ضرورة اجتماعية لا غنى للناس عنها في مجتمعهم الانساني باسره يستلهمون مبادئه ويستنيرون بهديه وبتعاليمه ولكنا حريصون الحرص كله ان يظل الدين كما اراد له ربه ان يكون مصدر قوة واخاء ومحبة لا ظهير عدوان وكراهية وبغضاء ، وان يكون مصدرا قويا ومتينا في اصلاح الفرد وبناء الامة لا سببا في تكسيرها وهدمها او عاملا على تأخيرها وتخلفها .

ان حرية العقيدة ايها السادة المحترمون ــ التي تكفلها قوانين البلاد وتقاليدها العظيمة والتي تعمل الحكومة على توفيرها وصيانتها لا تعني استغلال السذج والبسطاء من المواطنين في الارجاء المتخلفة من البلاد لتبذر في نفوسهم بذور التفرقة والفتنة ولتحضهم على الكراهية وارتكاب الجريمة بصورها المختلفة وانها لا تعني الفوضى والتخريب او العبث بالقانون وانتهاك سيادته وحرمته الشيء الذي يعرض امن البلاد الى الخطر وسلامتها الى الضرر وانها حتما لا تعني التفريط في الواجبات الاساسية للحكومة او الاهمال في المسئوليات الاولية للدولة .

واود يا سيدي الرئيس ، ان اؤكد من هذا المنبر ايضا ان الحكومة ستعمل على توفير كل التسهيلات التي تساعد المواطنين في المديريات الجنوبية على تأهيل نفر من بينهم ليطلعوا بالمهام التي كان مفروضا ان يقوم بها الاجانب المبعدين في مجالات العبادات والطقوس المقدسة حتى لا يحدث فراغ تتأثر به عقيدة المخلصين او تضار منه صلوات العابدين ، فليطمئن مواطني الجنوب ولينصرفوا الى شئونهم الخاصة والعامة في ثقة واستقرار غير عابئين باشاعات الحاقدين او تضليل المغرضين وليكرسوا وقتهم الى ما فيه خيرهم وخير امتهم وليبذلوا جهودهم الى ما فيه المصلحة الحقيقية لبلادهم ووطنهم .

واما الاجانب الباقون بالجنوب وغير الجنوب من مناطق السودان فليثقوا ويطمئنوا الى ان هذه البلاد ستظل كعهدهم بها كريمة مضيافة لا تتعدى عليهم ولا تؤذيهم في شيء طالما هم لقوانينها حافظون وعلى مصلحتها حريصون وطالما هم مبتعدون عن كل ما يضر بهذا البلد او يمس سمعته وسيادته واستقلاله .

والله اسأل يا سيدي الرئيس ان يهب هذه الامة من امرها رشدا ويرعى شئونها ، ويحقق امالها ويسدد خطانا اجمعين واشكركم جميعا فائق الشكر واجزله .

الراية ٣

السبت ٨ ربيع أول ١٤٠٨ الموافق ٣١ أكتوبر ١٩٨٧م

الكنائس السودانية تواجه الوكالات والمنظمات الكنسية الغربية


Rev. Ali ... Founder and Director
Sudan Pentecostal Churches Hqs.
Juba.

cc: Governor,
Regional Executive Council
Juba.

cc: Deputy Governor,
Regional Executive Council
Juba.

cc: Rev. Mr. Samuel Laspi
Advocate, for Sudan Pentecostal Churches
Juba.

... Director AIC Sudan
... Bishop AIC Sudan

AFRICA INLAND CHURCH SUDAN
Rt. Rev. Andereya Walle
Rt. Rev. Bishop Andreya Walle

Rev. Abedango ...
Director,
A.I.C.

Copies:
1. Governor Equatoria Region.
2. Deputy Governor,
Equatoria Region.

المنظمات والوكالات تستخرج وثائق سودانية للأجنين لاستخدامهم في مشروعاتهم بالسودان

تحقيق: موسى علي سليمان

في غياب الرقابة الحكومية تجاوزت وكالات الغوث حدودها وخرقت القوانين المحلية للدولة وغرقت في إدارة السياسة السودانية





تحقيقات

الراية تفاصيل الطابور الخامس أمام محكمة الرأي العام

منظمات غير قانونية تعمل تحت رعاية سفارات أوربية

شخصيات ذات صلات بأجهزة مخابرات أجنبية تدير منظمات لرعاية الطفولة المشردة في السودان

تحقيق



● قبل البدء لنا كلمة

● ظاهرة التشرد تجذب الوكالات الكنسية

منظمات تعمل في رعاية المشردين دون تصديق من الحكومة

منظمة أبناء الشمس

راهبة أوروبية ترعى ٧,٠٠٠ طفل مشرد في الخرطوم:



○ ○ منظمة أبناء الشمس غير مصرح بها لكنها تمتلك ٦ منازل في العاصمة لإيواء الأطفال المشردين في أبوروف وودالبنا والثورة والحاج يوسف

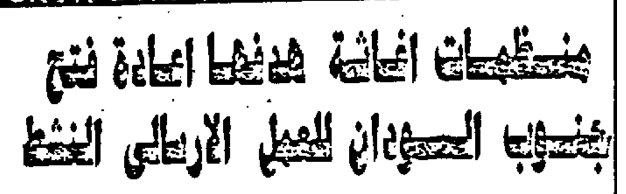


مؤسسات كنسية تدعو للفتنة الدينية وتتآمر على السلام الاجتماعي تحت ستار الأعمال الخيرية الشعبية.

Wanted — a millionaire

سستر عمانويل: «أريد مليونيراً»

المرابطة ٣ — تحقيقات — العدد ٥٧٤



منظمات اغاثة هدفها اعادة فتح جنوب السودان للعمل الارسالي النشط

A.C.R.O.S.S.

Relief and rehabilitation in southern Sudan

ACROSS

ما هي «اكروس» ومتى تكونت وكيف دخلت السودان:

S.I.M

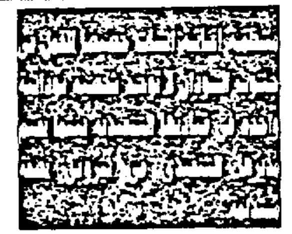
A.I.M

M.A.F

S.U.M

[Evangelism]

Darrenweiling



في منشور اصدرته منظمة «اكروس» عام ١٩٧٢م انها تعمل على تدريس الانجيل والوعظ به فيما يكون عملاً سياسياً

سياسات خاطئة وانتهاكات ثانوية ترتكبها ادارة اكروس المقيمة خارج السودان

تغيير اسم المنظمة دليل على تحايلها وممارستها المشبوهة:

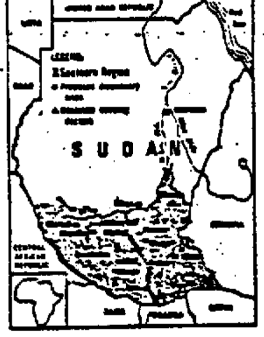
Africa Committee for Rehabilitation of Southern Sudan

Association of christian Resource Organisation Serving Sudan

across

JAN ABARBANEL

الجمعية الافريقية لاعادة تعمير جنوب السودان تستخدم جنوداً امريكيين وضباطاً متقاعدين حاربوا في فيتنام



ثلاثة قرارات حكومية تعلن ان «اكروس» غير مرغوب فيها:

ترجمة النص بالانجليزي

الجمعية الافريقية لاعادة تعمير جنوب السودان

Across

الاغاثة واعادة التعمير في جنوب السودان

Across : الفرصة العظيمة

Across : الخدمات الملبة

Across : التبشيرية تمنح

Across : المنظمات المشاركة

ACROSS: Participating organisations

Sudan Interior Mission

Africa Inland Mission

Missionary Aviation Fellowship

Sudan United Mission (Australia)

World Vision

Medical Assistance Programs

TEAR Fund (Great Britain)

German Missionary Fellowship (Germany)



الصفحة ٥٢٩ ٤

المراية ٢

قساوسة بوثائق مزورة ومبشرون ينتحلون مهناً فنية يتجولون في الجنوب باسم الاغاثة

مواصلة لتلاوتنا لحيثيات الاتهام الموجه للطابور الخامس تقدم اليوم للمحكمة الموقرة ناحية اخرى من الواجهات التي تستغلها هذه الفئة لتمرير سياساتها واستراتيجياتها المشبوهة في المنطقة ونرجو ان تسمح المحكمة الى مرافعتنا التي ستركز هذه المرة ايضا على وكالة اغاثة اخرى هي الارسالية السويدية الحرة Swedish free Mission (S.F.M) وهي منظمة كنسية تمولها حكومة السويد.

تحقيق..
موسى علي سليمان



تنزع المنظمات التي تمارس انشطتها بعيداً عن تجمعات المثقفين خوفاً من افتضاح مؤهلات افرادها المتواضعة

● عاطلون ومشكمون في أوربا ولكنهم دبلوماسيون في السودان:

● امكانيات هائلة وتسهيلات من الحكومة توظفها الوكالات لخدمة برامج اجنبية

الوكالة السويدية الحرة (S.F.M) Swedish free Mission

(Swedish International Development Aid) SIDA

منظمات تدخل البلاد بسياسات وبرامج مصممة في الخارج للعمل في مناطق محددة وفق رؤيتها واهدافها هي لا كما يريد ويرى السودان

لماذا اختارت S.F.M العمل في تركاكا

● شخصيات مثيرة وغير مؤهلة في قيادة S.F.M

TAGE JOHANSON

Mr. Mrs. Blungren

● ثلاثة مشاريع باسم S.F.M ولا يجمع بينها الا الاسم:

المدير العام لاحدى المنظمات اختير تعليمه بالمرحلة المتوسطة وسبق له ان عمل مبشراً في ليبريا واثيوبيا قبل السودان

Mr. Mrs. Walhager

LIEF ZETTERLAND



فهرس الآيات القرآنية مرتب حسب حروف الهجاء

فهرس الأحاديث النبوية

ثبت المراجـــع

مرتبا حسب حروف الهجاء مبدوءبذكر الكتاب أولا ثم المؤلف
من غير اعتبار لـ(أل) أو كتاب .

امام هذا الثبت :

- القرآن الكريم ، كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد
- أضوء البيان فى تفسير القرآن بالقرآن
الشيخ محمد الأمين الشنقيطى
الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م
- الاعتصام
للامام أبي اسحق ابراهيم بن موسى بن محمد اللخمى الشاطبى الغرناطى
وبه تعليق العلامة محمد رشيد رضا .
المكتبة التجارية الكبرى ،بدون تاريخ .
- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم
تأليف شيخ الاسلام احمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية .
تعليق وتحقيق د . ناصر بن عبد الكريم العقل .
الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ، بدون ذكر دار الطبع.
- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
شيخ الاسلام بن تيمية
تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد
دار الكتاب الجديد ،بيروت ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.
- آداب المعلمين
أبو عبد الله محمد بن سحنون
مطبوع ضمن كتاب التربية الاسلامية للدكتور احمد فؤاد الاهوانى
- الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى
د /مصطفى محمد مسعد
ملتزم الطبع والنشر مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٠م
- الانسان بين المادية والاسلام
الشيخ محمد قطب
دار احياء الكتب العربية ،عيسى الحلبى وشركاه ،الطبعة الرابعة ١٩٦٥م.
الاسلام فى وجه الزحف الأحمر
الشيخ محمد الغزالى
دار التوفيق النموذجية للطباعة والجمع الآلى ،طبعة ثانية ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م
نشر مكتبة وهبة .
- أحكام القرآن
لأبى بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربى
تحقيق على محمد البجاوى
طبعة عيسى الحلبى ،بدون تاريخ .
- الاسلام تاريخ وحضارة
أنور الجندى
طبعة دار الاعتصام بدون تاريخ .

- الإسلام الجريح في الحبشة بلاد النجاشي أرض الهجرة الأولى
أبو احمد الاثيوبي أحد المكافحين الاحرار
بدون تاريخ الطبع أو ذكر دار الطبع أو النشر.

- الإيمان وأثره في نهضة الشعوب
الاستاذ يوسف العظم
الطبعة الثانية الدار السعودية ١٣٨٩هـ

- أسباب سعادة المسلمين وشقائهم في ضوء الكتاب والسنة
محمد زكريا الكاندهلوي
الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م

- الإعلام الاسلامي
الأستاذ محمد قطب
بحث قدمه لندوة الشباب العالمي الإسلامي ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، مطبوع ضمن
بحوث بعنوان: الإعلام الإسلامي والعلاقات الإنسانية، الطبعة الاولى ١٣٩٩هـ
١٩٧٩م

- الإعلام العربي المعاصر وأثره في ضياع الجيل وهزيمة الأمة.
يوسف العظم
بحث مطبوع ضمن مجموعة بحوث بعنوان: الاعلام والعلاقات الانسانية ١٣٩٩هـ/١٩٧٩

- أبناؤنا بين وسائل الإعلام وأخلاق الاسلام
مني حداد يكن
مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م

- إضاءات حول الإعلام الاسلامي
محاضرة للأستاذ الدكتور عبد القادر طاش
القيت بجامعة ام القرى بمكة المكرمة مساء الأحد ٢٧ رجب ١٤٠٦هـ.

- الإسلام أين وإلى أين
مقال للدكتور حسين مؤنس
نشر بمجلة (المجلة) عدد ١٦٦

- أساليب جديدة في فلسفات الدعوة الدينية
مقال للدكتور حسين مؤنس
نشر بمجلة (المجلة) عدد ١٦٥

- الاسلام والحبشة عبر التاريخ
المهندس فتحي غيث
شركة الطباعة الفنية بدون تاريخ.

- الاسلام في يوغندا
الدكتور ابراهيم الزين صغيرون
بحث نشر بمجلة (دراسات أفريقية) العدد الأول ١٤٠٥هـ

- انتشار الإسلام في أفريقيا
حسن ابراهيم حسن

- أساليب الغزو الفكرى للعالم الاسلامى
للاستاذين على محمد جريشة ومحمد شريف الزئبق
الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، دار الاعتصام.

- الامبريالية والقومية فى السودان دراسة للتطور الدستورى والسياسى ١٨٩٩-١٩٥٦
د. مدثر عبد الرحيم الطيب
دار النهار للنشر، بيروت لبنان ١٩٧١ بدون ذكر المترجم

- الادارة البريطانية والحركة الوطنية فى السودان ١٩١٩-١٩٣٩
د. جعفر محمد على بخيت
ترجمة هنرى رياض، الطبعة الأولى ١٩٧٢ دار الثقافة بيروت، نشر وتوزيع مكتبة خليفة عطية بالسجانة

- الادارة البريطانية والتبشير الاسلامى والمسيحى فى السودان دراسة أولية
د. احمد عبد الرحيم نصر
مكتبة الدراسات السودانية. طبعة وزارة الأوقاف والشئون الدينية.
١٣٩٩هـ/١٩٧٩م

- الاستشراق والتبشير وصلتهما بالامبريالية العالمية
ابراهيم خليل أحمد
مكتبة الوعى العربى، بدون تاريخ

- اخبار بطارقة المشرق من كتاب المجدل
مارى سليمان
مطبعة روما الكبرى

- الانجيل المقدس
بشارة متى، الترجمة العربية الجديدة من اللغة الاصلية. طبعة اتحاد جمعيات الكتاب المقدس سنة ١٩٧٨.

- الانجيل كتاب الحياة
طبعة ثانية سنة ١٩٨٢م

- أهم المنجزات
خلال الفترة الانتقالية ابريل ١٩٨٥-١٩٨٦، وزارة التربية والتعليم
جمهورية السودان.

- أوضاع الاقليات المسلمة فى أفريقيا
بحث أعده وقدمه المشير عبد الرحمن محمد حسن سوار الذهب رئيس مجلس امناء منظمة الدعوة الاسلامية.

- البداية والنهاية
الحافظ ابن كثير
الطبعة الثانية مطبعة المعارف بيروت.

- بلغة السالك لأقرب المسالك الى مذهب الامام مالك
الشيخ احمد بن محمد الصاوى المالكى
على الشرح الصغير للقطب الشهير احمد بن محمد بن احمد الدردير
دار المعرفة للطباعة والنشر بدون لبنان ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م

- بين الأصالة والتبعية ،تجربة الاستعمار وانماط التحرر الثقافى فى البلاد الآسيوية والأفريقية
د . مدثر عبد الرحيم الطيب
طبعة أولى دار جامعة الخرطوم للطباعة والنشر ١٩٧٨م .

- البشير
نشرة لمنظمة الدعوة الاسلامية بدون رقم أو تاريخ .

- تفسير القرآن العظيم
الحافظ ابن كثير
تحقيق عبد العزيز غنيم ومحمد عاشور ومحمد إبراهيم البنا ،مطبعة الشعب بدون تاريخ .

- تفسير الخازن المسمى لباب التأويل فى معانى التنزيل
علاء الدين على بن محمد بن ابراهيم البغدادى الشهير بالخازن
الطبعة الثالثة ١٣٧٥/ ١٩٥٥ مصطفى البابى الحلبى بمصر .

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك
للقاضى عياض بن موسى بن عياض اليحصبى السبتى
تحقيق د . احمد بكير محمود ،منشورات دار مكتبة الحياة بيروت
طبعة أولى ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م

- التبشير والاستعمار فى البلاد العربية عرض لجهود المبشرين التى ترمى إلى إخضاع الشرق للاستعمار الغربى
د . مصطفى خالدى ود . عمر فروخ ،منشورات المكتبة العصرية بيروت صيدا ١٩٨٢م

- التبشير فى العاصمة المثلثة
حسن مكى محمد احمد
الخرطوم السودان ١٩٨٢م

- الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر
الدكتور محمد محمد حسين
الطبعة السابعة ١٤٠٠هـ/١٩٨٤ مؤسسة الرسالة ،بيروت .

- التربية وبناء الاجيال فى ضوء الإسلام
أنور الجندى
دار الفكر لبنان الطبعة الاولى ١٩٧٥م

- التربية الإسلامية
الدكتور احمد فؤاد الأهوانى
طبعة دار المعارف القاهرة بدون تاريخ .

- التربية فى السودان من أول القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى والأسس النفسية والاجتماعية التى قامت عليها
د . عبد العزيز أمين عبد المجيد
الطبعة الاميرية ١٩٤٩

- تاريخ السودان الحديث
ضرار صالح ضرار
الدار السودانية بالخرطوم ،الطبعة الثالثة ١٩٧٥ .

- تأسيس مدينة الخرطوم والمهدية
سليمان كشة ،بدون إشارة للطبعة أو تاريخ الطبع.

- تاريخ الامم والملوك
محمد بن جرير الطبرى
طبع روائع التراث العربى ، بدون تاريخ

- التفكير الفلسفى فى الاسلام
د . عبد الحليم محمود
مطبعة مخيمر ،بدون تاريخ .

- تاريخ الثقافة العربية فى السودان منذ نشأتها الى العصر الحديث الدين- الاجتماع- الأدب
د .عبد المجيد عابدين
دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ،الطبعة الثانية ١٩٦٧م .

- التبشير والسياسة الاستعمارية فى جبال النوبة
د . كمال عثمان صالح
بحث مكتوب على الآلة الكاتبة قدم للمؤتمر الاول (الإسلام فى السودان ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م) جماعة الفكر والثقافة الاسلامية .

- التيار العلمانى وأثره على السودان
د .الطيب زين العابدين
بحث مقدم للمؤتمر الأول (الإسلام فى السودان
مخطوط بالآلة الكاتبة .

- التبشير النصرانى فى جنوب سودان وادى النيل
د . ابراهيم عكاشة
دار العلوم للطباعة والنشر ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م

- التربية والمشكلات المعاصرة
عبد الرحمن المحلاوى
المكتب الاسلامى ،الطبعة الاولى ،١٤٠٢هـ/١٩٨٢م

- تاريخ المسيحية فى الممالك النوبية والسودان الحديث
جوفياتى فانتيتى ،طبعة الخرطوم ١٩٧٨م

- تاريخ أفريقيا
شارل اندريه جوليان ،ترجمة عوض اباظة - طبعة دار نهضة مصر ١٩٦٨م .

- تطور التعليم فى السودان ١٨٩٨-١٩٥٦
محمد عمر بشير ، ترجمة هنرى رياض وآخرين
طبعة دار الثقافة بيروت ١٩٧٠م ،نشر مكتبة خليفة عطية السجانة .

- تاريخ الحركة الوطنية فى السودان ١٩٠٠-١٩٦٩
محمد عمر بشير ،تعريب هنرى رياض وآخرين
طبعة الدار السودانية ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م

- التعليم الحديث دراسة وثائقية
د . أميل فهيمى
مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٧

- تجربة الحل السلمى
تموثى سى نابلوك
مقال نشر بمجلة السياسة الدولية العدد ٤١ سنة ١٩٧٥

- التبشير والاستعمار فى نيجريا
خضر مصطفى النيجرى
ر.م. مخطوطة بمكتبة جامعة ام القرى بمكة المكرمة

- التعليم فى السودان
د .ناصر السيد
دار القدس بيروت لبنان ،مطبعة الراى الجديد بدون تاريخ .

- تخريج الأحاديث النبوية الواردة فى مدونة الإمام مالك بن أنس
د . الطاهر الدرديرى
طبعة مركز البحث العلمى واحياء التراث الإسلامى ،الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ

- تقرير ورشة العمل المسيحية التى عقدها مجلس الكنائس السودانى بجوبا بين ١٥-٢٢فبراير١٩٨٢م

- تقرير عن النشاط الصليبى فى تنزانيا
من اعداد منظمة الدعوة الاسلامية

- تقرير جوينى عن عمل الانجليزية رقم(١٠٣-٢٠٧ أج)

- الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية فى السودان
جلال يحى
طبعة سنة ١٩٥٩

- الثورة
صحيفة سودانية

- الجامع الصحيح
الامام الحافظ ابى عيسى محمد بن سورة الترمذى
حققه وصححه عبد الوهاب عبد اللطيف
نشر وتوزيع دار الفكر بيروت

- الجامع لأحكام القرآن
أبوعبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى
طبعة الشعب بدون تاريخ .

- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح
شيخ الاسلام ابن تيمية
مطابع المجد التجارية

جغرافية وتاريخ السودان
نعوم شقير
دار الثقافة بيروت لبنان ١٩٧٢م

- جذور البلاء
عبد الله التل
المكتب الإسلامي ،الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م

- حاضر العالم الاسلامي
لوثروب ستودارد الأمريكي ،تعليق الأمير شكيب ارسلان
الطبعة الرابعة ١٣٩٤هـ/١٩٧٣م دار الفكر بيروت

- الحروب الصليبية في المشرق والمغرب
محمد العروسي المطوى
دار الغرب الاسلامي بيروت ١٩٨٢م

- حتمية الحل الاسلامي (١) الحلول المستوردة وكيف جنت على امتنا
د . يوسف القرضاوى
نشر مكتبة وهبة القاهرة .

- حقائق عن التبشير
عماد شرف
الطبعة الاولى ١٣٩٥هـ/١٩٧٥ المختار الاسلامي

- حصاد الغرور
الشيخ محمد الغزالي
دار البيان الكويت الطبعة الاولى ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م

- حصوننا مهددة من داخلها
د . محمد محمد حسين
الطبعة السابعة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م مؤسسة الرسالة بيروت

- حوار مع الصفوة
د . منصور خالد
طبع ونشر دار جامعة الخرطوم ١٩٧٩م

- حكومة السودان - تقارير المديرين
الخرطوم ١٩٢٥م

- خصائص التصور الاسلامي ومقوماته
للشهيد سيد قطب
دار الشروق ،الطبعة الرابعة ،١٣٩٨هـ/١٩٧٨م

- خطط المقريزى
تقي الدين احمد بن علي بن عبد القادر المقريزى
اصدار دار التحرير والنشر عن طبعة بولاق ١٢٧٠هـ

- الخطر اليهودى (بروتوكولات حكماء صهيون)
ترجمة محمد خليفة التونسي
طبعة دار الجيل .

- الخريطة اللغوية للسودان ووضع اللغة العربية فيها
د . يوسف الخليفة أبو بكر ود . سيد حامد حريز

- الدعوة إلى الاسلام. تاريخها في عهد النبي والصحابة والتابعين والعهود المتلاحقة
الشيخ أبوزهرة
دار الفكر العربي الطبعة الاولى ١٩٧٣م

- الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب
برهان الدين ابراهيم بن على بن محمد بن فرحون اليعمرى المدنى المالكي
طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان، مصور عن نسخة مكتبة السعادة
الطبعة الاولى مصر ١٣٢٩هـ

- درء تعارض العقل والنقل
شيخ الاسلام ابن تيمية أبو العباس تقي الدين احمد بن عبد الحليم
تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم
الطبعة الاولى ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

- الدعوة واخلاق الدعاة
سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز
طبع ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م

- الديمقراطية والاشتراكية في السودان
على عبد الرحمن الضرير
طبعة المكتبة العصرية ١٩٧٠

- الديمقراطية في الميزان
محمد احمد محجوب
طبعة دار النهار البيروتية للنشر ١٩٧٣

- دراسات أفريقية (مجلة بحوث نصف سنوية)
المركز الاسلامي الافريقي صدرت في رجب ١٤٠٠هـ

- الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين
للقابسي: أبي الحسن على بن خلف المعافري
مطبوعة ضمن كتاب التربية الاسلامية للدكتور احمد فواد الاهواني

- الرباط الثقافي بين مصر والسودان
د. ابراهيم الحاردلو
الطبعة الاولى ١٩٧٧ دار الطباعة جامعة الخرطوم

- رسالة جويني الى بيغسن ١٩٤٧/١/١ رقم ٤١٩ أ ح د.

- رسائل ونجت الى جوين

- سنن النسائي
للامام الحافظ احمد بن شعيب بن على بن سنان بن بحر النسائي
نشر دار الفكر الطبعة الاولى

- سنن أبي داود
للامام الحافظ المتقن أبي داود سليمان بن الاشعث السجستاني الازدي
مراجعة محمد محي الدين عبد الحميد. نشر دار الفكر

- سنن ابن ماجة
للامام الحافظ محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة
تحقيق محمد فواد عبد الباقي
دار احياء التراث العربي بيروت ١٣٩٥هـ

- سيرة عمر بن عبد العزيز
الحافظ جمال الدين ابن الجوزى
دار الفكر بدون تاريخ

- السودان عبر القرون
د. مكي شبيكة
نشر وتوزيع دار الثقافة لبنان ، بدون تاريخ

- سعادة المستهدى بسيرة الامام المهدى
اسماعيل الكردفاني
تحقيق د. محمد ابراهيم أبوسليم
الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م دار الجيل بيروت

- السياسة البريطانية واسترداد السودان (١٨٨٩-١٨٩٩م)
محمد علي بركات
الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٧م

- السودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة المصرية
الاستاذ عبد الله حسين
الطبعة الاولى ١٣٥٤هـ/١٩٣٥ طبعة الرحمانية بمصر

- السياسة التعليمية والثقافة العربية في جنوب السودان
حسن مكي محمد احمد
طبعة معامل التصوير الملون السودانية ، بدون تاريخ

- السيف والنار في السودان
سلاطين باشا
الطبعة الثانية ، دار الجيل بيروت ١٩٧٨ نشر عالم الكتب بام درمان

- السودان ووادى النيـــل
د. محمد عوض محمد
طبعة ١٩٥١ مصر

- السودان والثورة المهدية
د. مكي شبيكة
الطبعة الاولى ١٩٧٨ دار جامعة الخرطوم للطباعة والنشر

- السودان والمهدية
ب. م. هولت
ترجمة د. جميل عبيد واحمد عبد الرحيم مصطفى ، دار الفكر العربي بدون تاريخ

- السودان بين يدى غردون وكتشنر
ابراهيم فوزى باشا
طبعة ١٣١٩هـ

السودان والنفق المظلم قصة الفساد والاستبداد
د . منصور خالد
دار ادام للنشر- مالطا ،الطبعة الاولى ١٩٨٥م

- السودان فى حكم ونجت
د . جبرائيل واربرى
ترجمة محمد الخضر سالم مطبوع على الآلة الكاتبة

- شيكان تحليل عسكرى لحملة الجنرال هكس
رائد عصمت حسن زلفو
طبع بمطابع نيتكو أبو ظبى ١٩٧٦

- الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته
ت. كويلنج ترجمة الدكتور عبد الرحمن محمد ايوب
دار النشر المتحدة

- الشوقيـــات
احمد شوقى
طبعة دار الكتاب العربى بيروت

- صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)
الشيخ محمد ناصر الدين الالبانى
الطبعة الاولى ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م نشر المكتب الاسلامى

- صحيح البخارى مع شرحه فتح البارئ
تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ومحب الدين الخطيب
نشر وتوزيع الرئاسة العامة لادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد

- صحيح مسلم
الامام مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى
حقق اصوله ورتبه محمد فؤاد عبد الباقى
نشر رئاسة ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد بالرياض

- صحيفة المدينة المنور

- طبقات الفقهاء
الحافظ ابو اسحق الشيرازى الشافعى
تحقيق الدكتور إحسان عباس
طبعة دار الرائد العربى بيروت لبنان ١٩٧٠م

-عمدة التفسير
للحافظ ابن كثير
تحقيق احمد محمد شاكر
طبعة دار المعارف ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر
العلامة عبد الرحمن بن خلدون
منشورات دار الكتاب اللبنانى ١٩٥٦

- عوامل تكوين الرأى العام فى المجتمع الاسلامى
عبد السلام سليمان سعد
ر.م مخطوطة بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

- عقيدة التثليث والصلب وموقف الاسلام منها
ر.ص مخطوطة بجامعة ام القرى بمكة المكرمة
الاستاذ يونس شورى

- العهد الجديد ،اعمال الرسل

- العروة الوثقى
جمال الدين الافغانى ومحمد عبده
دار الكتاب العربى بيروت طبعة اولى ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م

- العلاقات المصرية السودانية ١٩١٩-١٩٢٤
د.احمد ابراهيم دياب
طبعة مصر النهضة

- الغزو الفكرى والتيارات المعادية للاسلام
الاستاذ عبدالقادر فتح الله سعيد
بحث مقدم لمؤتمر الفقه الذى عقد بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ١٣٩٩هـ
وطبع ضمن بحوث الندوة تحت عنوان

- الغارة على العالم الاسلامى
أ.ل. شاتليه
لخصها ونقلها للعربية مساعد اليافى ومحب الدين الخطيب
الدار السعودية للنشر بدون تاريخ

- غيوم تحجب الاسلام
د. محمد البهى
الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م

- فى ظلال القرآن
الشهيد سيد قطب
الطبعة الشرعية السابعة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م دار الشروق

- فتوحات مصر والمغرب
ابن عبد الحكيم
تحقيق عبد المنعم عامر
نشر لجنة البيان العربى ،بدون تاريخ

- الفصل فى الملل والاهواء والنحل
الامام ابو محمد بن احمد المعروف بابن حزم الظاهر
تحقيق د.احمد ابراهيم نصر وآخر
الطبعة الاولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م نشر شركة مكتبات عكاظ

- الفكر الاسلامى وصلته بالاستعمار الغربى
د. محمد البهى
الطبعة الثامنة ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م نشر مكتبة وهبة

- قصة الحضارة
ول ديورانت
ترجمة محمد بدران
اجازته وانفقت على ترجمته الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٤

- قصة الحضارة فى السودان
الفترة التاريخية من ٣٤٠٠ ق.م. الى ١٩٠٠
الاستاذ حسب الله محمد احمد
بدون تاريخ

- قصص من الماضي
ج .أ. هيوود
الطبعة الثالثة ١٩٥٩

- القول السديد فى مقاصد التوحيد
الشيخ محمد ناصر
طبعة الرئاسة العامة لادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد

- القيم الاساسية للفكر الاسلامى
الاستاذ انور الجندى
دار الثقافة العربية ،طبعة الرسالة بدون تاريخ

- كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الاحاديث على السنة الناس
الامام اسماعيل بن محمد العلجونى
مؤسسة الرسالة الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م

- كيف ندعو الناس
عبد البديع صقر
طبعة الاتحاد الاسلامى العالمى للمنظمات الطلابية ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م

- كررى
رائد عصمت حسن زلفو
مطبعة التمدن المحدودة ، الطبعة الثانية ١٩٧٨م

- كنز العمال فى سنن الأقوال والافعال
علاء الدين المتقى الهندى
تصحيح الشيخ بكرى حياتى وآخر
نشر مؤسسة الرسالة

- كفاح جيل تاريخ حركة الخريجين وتطورها فى السودان
أحمد خير المحامى
طبعة الدار السودانية بدون تاريخ

- الكتاب (يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء)
د . رؤوف شلبى
طبعة ونشر دار الاعتصام ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م

- الكنيسة ودورها في السياسة التعليمية في جنوب السودان تحت الادارة البريطانية
مقال للدكتور فيصل محمد
نشر بمجلة دراسات أفريقية العدد الأول

- كلمة الدكتور جعفر شيخ ادريس التي وجهها الى الشعب السوداني بمناسبة اختيار النواب

- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان
وضعه محمد فؤاد عبد الباقي
دار احياء الكتب العربية عيسى الحلبي القاهرة ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م

- مروج الذهب ومعادن الجوهر
تصنيف الرحالة أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي
راجع اصوله ورقمه وضبط مبهمه وعلق عليه محمد محي الدين عبد الحميد
دار السرجاء للطبع والنشر بدون تاريخ

- المسند وبهامشه كنز العمال
للامام احمد بن حنبل بتحقيق احمد محمد شاكر
دار الفكر بيروت

- مختصر سنن ابي داود
للامام عبد العظيم بن عبد القوي عبد الله بن سلامة بن سعد المنذري
وبهامشه معالم السنن لابي سليمان الخطابي، وتهذيب السنن لابن القيم
تحقيق محمد حامد الفقي

- معجم الطبراني
لابي القاسم سليمان بن احمد الطبراني
تحقيق حمد بن عبد المجيد السلفي
الجمهورية العراقية وزارة الاوقاف، احياء التراث الاسلامي

- المستدرك على الصحيحين في الحديث
لابي عبد الله محمد المعروف بالحاكم النيسابوري
دار الفكر بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م

- معالم في الطريق
المرحوم الشهيد سيد قطب
طبعة الاتحاد الاسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م
دار القرآن الكريم بطبعه ونشر علومه

- المستقبل لهذا الدين
للشهيد سيد قطب
الاتحاد العالمي للمنظمات الطلابية

- منهج التربية الاسلامية
للشيخ محمد قطب
دار الشروق طبعة ثانية

- منهج الدعوة الى الله
أحمد حسن اصلاحي
تعريب اسعد الندوي وآخر
نشر الكتاب الاسلامي الصفاة الكويت بدون تاريخ

- منهج الدعوة الى الله
الشيخ عبد العزيز بن باز
طبعة ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد

- مشكلات الدعوة والداعية
فتحي يكن
الاتحاد الاسلامي العالمي للمنظمات الطلابية
دار القرآن الكريم للعناية بطبعه ونشره ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م

- المنهزمون
د. يوسف العظم
الطبعة الثالثة ١٣٩٨هـ/١٩٧٩م

- محاضرات فى النصرانية
الشيخ أبو زهرة
الطبعة الثانية ١٣٦٨هـ/١٩٤٩ مطبعة مخيمر

- مجموعة رسائل الامام الشهيد حسن البنا
طبعة مؤسسة الرسالة بدون تاريخ

- مفاهيم اسلامية
عبد الله كنون
طبعة دار الثقافة ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م

- مذكرات محمد نجيب كنت رئيسا لمصر
اللواء محمد نجيب
الطبعة الثانية ١٩٨٤م نشر المكتب العربى الحديث

- مآسى الانجليز فى السودان
أحمد خير المحامى
طبعة دار الشرق للنشر والتوزيع ١٩٤٦

- مذكرات خضر حمد (الحركة الوطنية السودانية الاستقلال وما بعده)
خضر حمد
الطبعة الاولى ١٩٨٠ مطبعة صوت الخليج نشر مكتبة الشرق والغرب الشارقة

- معاول الهدم والتدمير فى النصرانية وفى التبشير
ابراهيم سليمان الجبهان
الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م مطابع الريل

- موارد الظمآن الى زوائد ابن حبان
للحافظ نور الدين بن على بن أبى بكر الهيثمى
تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة
المطبعة السلفية القاهرة

- المصحف والسيف صراع الدين والدولة فى مصر
نبيل عبد الفتاح
نشر مكتبة مدبولى ٦ ميدان طلعت حرب القاهرة بدون تاريخ

- من أجل أن نقدم للمسيحيين نورا أضواء على المسيحية
متولى يوسف شلبى
المجلس الاعلى الاندونيسى للدعوة الاسلامية الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م
نشر الدار الكويتية للطباعة والنشر والتوزيع

- المقدمة
  عبد الرحمن بن خلدون
  المكتبة التجارية الكبرى ، طبعة بدون تاريخ

- المجتمع الاسلامي في ظل العدالة
  د . صلاح الدين المنجد
  دار الكتاب الجديد بيروت لبنان الطبعة الاولى ١٩٦٩م

- المد الاسلامي في مطلع القرن الخامس عشر
  أنور الجندي
  طبعة دار الاعتصام بدون تاريخ

- المسئولية
  الدكتور محمد أمين المصرى
  الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م نشر وتوزيع دار الارقم

- موجز تاريخ الدين واحيائه واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم
  أبو الاعلى المودودى
  مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م

- مشكلة جنوب السودان
  محمد عمر بشير
  ترجمة هنرى رياض والجنيد على عمر . راجعه محمد ابراهيم أبوسليم
  دار نهضة مصر للطبع والنشر بدون تاريخ

- مشكلة جنوب السودان ،طبيعتها وتطورها وأثر السياسة البريطانية فى تكوينها
  د . مدثر عبد الرحيم الطيب
  الدار السودانية الطبعة الاولى ١٣٩٠هـ/١٩٧٠

- مشكلة جنوب السودان
  اعداد عبد الغنى سعودى وأ .د . يونان لبيب
  جامعة عين شمس مركز بحوث الشرق الاوسط بدون تاريخ

- من روائع حضارتنا
  د . مصطفى السباعى
  المكتب الاسلامي ، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م

- مخطوط كاتب الشونة فى تاريخ السلطنة السنارية والادارة المصرية
  احمد الحاج على كاتب الشونة
  تحقيق الشاطر عبد الجليل
  طبعة دار احياء الكتب العربية ، بدون تاريخ

- مصر والسودان الوضع التاريخى للمسألة
  محمد فؤاد شكرى
  دار الفكر العربى

- مشيخة العبدلاب وأثرها فى حياة السودان
  د . محمد صالح محى الدين
  دار الفكر الطبعة الاولى ١٣٩٢هـ/١٩٧٢

- محمد على فى السودان
د . حسن احمد ابراهيم
طبعة دار التأليف والترجمة والنشر جامعة الخرطوم ، بدون تاريخ

- منشورات المهدية
تحقيق د . محمد ابراهيم أبو سليم ١٩٦٩م

- مقاومة السودان للغزو والتسلط
د . مكى شبيكة
طبعة معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٢

- من الحروب الصليبية الى قناة السويس المرحلة الاولى من الصراع بين الشرق والغرب
محمد على الفتيت

- مقارنة الاديان (المسيحية)
د . احمد شلبى
الطبعة السادسة ١٩٧٨م نشر مكتبة النهضة المصرية

- المؤامرة الدولية على السودان
الاستاذ محمد الحسن احمد
مقال نشر بصحيفة الصحافة السودانية عدد ٨٣١١ بتاريخ ٦ رجب ١٤٠٦هـ

- مرشد التعليم الاولى لمدارس البنين بالسودان
وزارة المعارف السودانية
طبعة ١٩٥١ شركة لندن

- مسألة جنوب السودان تاريخها ومراحل تطورها
سلسلة ثقافة الشباب
مطبعة التمدن ١٩٧٣

- مقدمة فى تاريخ الممالك الاسلامية فى السودان ١٤٥٠-١٨٢١م
د . يوسف فضل حسن
طبعة معهد البحوث والدراسات العربية جامعة الدول العربية ١٩٧١

- من معالم تاريخ السودان
د . يوسف فضل حسن
طبعة دار الفكر

- المنهاج الالهى فى النوبة الوسطى
انجلو أبو راسين
بحث مخطوط

- مناهج الالباب المصرية فى مباهج الاداب العصرية
رفاعة رافع الطهطاوى
طبعة القاهرة ١٩١٢

- مستقبل الثقافة فى مصر
طه حسين
طبعة مصر ١٩٤٤

- مذكرات حكومة السودان

وثائــق

- مجلة الفتح
العدد ٥٧ بتاريخ ١٤ صفر ١٣٤٦هـ الموافق ١١ /٨/ ١٩٢٧

- المؤيد القاهرة عدد ٥٠٤٣ بتاريخ ١٧ /١٢/ ١٩٠٦

- مجلة معهد امدرمان العلمى بتاريخ ٢٥ /١/ ١٩٦٣

- مجلة المجتمع الكويتية

- مجلة أفريقيا

- نحو حركة اسلامية عالمية واحدة
فتحى يكن
مؤسسة الرسالة ، بيروت لبنان الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م

- نماذج من مخطوط كتاب المقفى
للمقريزى تحقيق د . خليل محمود عساكر ود . مصطفى محمد مسعد
مطبعة لجنة البيان العربى ١٩٦٤

- النظرية الاسلامية فى الاعلام والعلاقات الانسانية
مجموعة بحوث قدمت للندوة العالمية للشباب . طبعة أولى ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م

- النظرية الاسلامية فى الاعلام والعلاقات الانسانية
بحث قدمه الاستاذ زين العابدين الركابى للندوة العالمية للشباب الاسلامى ١٣٩٦هـ
مطبوع ضمن البحوث المقدمة بعنوان (الاعلام الاسلامى والعلاقات الانسانية النظرية والتطبيق) ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م

- النصرانية والاسلام
محمد عزت الطهطاوى

- نشرة لجنة مسلمى أفريقيا
ربيع الآخر ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م الصفاة الكويت

- هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى
ابن القيم الجوزية
مؤسسة مكة للطباعة والاعلام ، توزيع الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة

- هل نحن مسلمون
محمد قطب
الطبعة الثانية مكتبة وهبة

- هموم داعية
محمد الغزالى
طبعة قطر بدون تاريخ

- الوحدة الاسلامية
الامام ابوزهرة
دار الرائد العربى ، بيروت لبنان بدون تاريخ

- الولاية والاولياء فى الاسلام
الخضر عبد الرحيم
ر.م. مخطوطة بمكتبة جامعة ام القرى

- وحى القلم
مصطفى صادق الرافعى
مطبعة لجنة التحقيق والترجمة والنشر ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م

- الوثائق العربية
المدخل الى دراسة الوثائق العربية
مجموعة عباس حمودة
القاهرة مطبعة دار نشر الثقافة

- واقعنا المعاصر
محمد قطب
الطبعة الاولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م مؤسسة المدينة للصحافة

- وسائل مقاومة الغزو الفكرى للعالم الاسلامى
حسان محمد حسان
سلسلة دعوة الحق عدد ه رابطة العالم الاسلامى

- ومشيناها خطى
احمد سليمان المحامى
دار الفكر للطباعة والنشر الخرطوم ، الطبعة الاولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣

المراجع الاجنبية

Allison, O.(I982) MISSIONS and Churches in Durham
Sudan Historical Records Conference
I982, Durham, England.

Attia, E. (I946) An Arab tells his story, London.

Bashir, M.O. (I9) The Southern Sudan background

Collins, O.(I983) Shadows in the grass; Briitain in the Southern Sudan, I9I8-I965, Yale University Press, London.

Cook , R. (Medical missions, C.M.O.) Vol. LXIV

Griffiths, V.L. (I975) Teacher Centred quality in the Sudan Primary educatin, I93o-I97o, Longman Group Ltd. 1975

Gordon, C.(I984) Sudan at the Crossroads,
Middle East and North Africa
Studies Press.

Hoeben, H. (I984) The Catholic Church in the Sudan:
A golden Opportunity lost, Pro Mundi Vita Dossiers,
Quarterly, I/I984, Brussels, Belgium.

Lutfi, A. (I968) Cromer and Egypt, John Murray, London.

Richer, J. (I9IO) The history of the Protestant
Mission in the Near East,
New York

Said, B.M.( ) Sudan crossroads of Africa

Stevenson, R.C.(I982) Short outline of the Protestant Missionary work in the Northeren Sudan during the Codominium Period, in Durham Sudan Historical Records Conference-I982, Durham , England.

Sudan Government (I929) Annual report of the Educatin Department, I9 28, McCorquodale & co., Khartoum, Sudan.

Trimingham J.S. (I948)The Christian Approach to Islam in the Sudan, Oxford University Press, London.

Vantinne, Fr. G. (I982) The Roman Catholic Contribution to Evangelization in the Sudan, in Durham Sudan Historical Records Conference, Durham , England

Warbury, G. (I97I) The Sudan under Wingate administration, in Anglo-Egyption Sudan, I899-I9I6, Haifa University, Israel.

فهرس الموضوعـــــات

الموضــــوع		رقم الصفحة
المبحث الخامس:	الاسلام فى الجنوب	٥٧
	حكومة الزبير	٥٨
	الحكومة تواجه الزبير	٥٩
	بين الزبير وحكمدار السودان	٦١
المبحث السادس:	غردون يعود الى السودان	٦٤
	سياسة القمع والاستفزاز	٦٤
	ثورة كردفان ودارفور ضد الحكومة	٦٥
الفصل الرابع:	الحركة المهدية فى السودان	٦٨
المبحث الأول :	أسباب قيام الحركة المهدية	٦٨
	دعوة المهدى السرية	٧٣
	الموقعة الأولى	٧٤
	الهجرة الى الغرب	٧٤
	حملة راشد أيمن	٧٥
	حملة الشلالى (فى رجب ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م)	٧٦
	فتح الأبيض	٧٧
	موقعة شيكان (١٣٠٠-١٨٨٣م)	٧٩
	الاخلاء	٨٣
	عودة غردون الى السودان	٨٥
	رد المهدى على غردون	٨٧
	غردون يكتشف حقيقة المهدية	٨٩
	حملة الانقاذ	٩٠
	انذار ود النجومى أمير الأمراء	٩٠
	رد غردون	٩١
المبحث الثانى :	قيام الدولة المهدية	٩٣
	سياسة المهدية مع التبشير النصرانى	٩٣
	الحملة الانجليزية على السودان	٩٣
المبحث الثالث:	سقوط السودان فى أيدى الانجليز	٩٧
	الحكم الثنائى	١٠٢
الباب الثانى :	وسائل النشاط الكنسى فى السودان	
التمهيـــــــد		١٠٣
الفصل الأول :	احياء المؤسسات الكنسية التى دمرتها المهدية	١٠٩
المبحث الاول :	الشروع فى تنفيذ الخطط التنصيرية المرسومة	١٠٩
	سياسة كرومر	١١١
	المنطقة الأولى	١١٢
	المنطقة الثانية	١١٢

الموضوع	رقم الصفحة